

تجريد خط العرب

في عصور العرب في الزاهرة

الجزء الثاني

العصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دارالعلوم بمادة ثقافة سابقاً

المكتبة العلمية



Bibliotheca Alexandrina



0101084

جوهر خطب العرب

في عصور العرب الزاهرة

الجزء الثاني

النصر الأموي

تأليف

أحمد زكي صفوت

وكيل كلية دار العلوم جامعة القاهرة سابقاً

المكتبة العلمية

مبنيون - قسطنطينية

تصدير

الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أبدأ بحمدك اللهم على ما أوليتني من جزيل تفضلك ، ومزيد تطولك ، وأصل وأسلم على رسولك الأمين ، سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

وبعد : فها هو ذا « الجزء الثانى - من جمهرة خطب العرب » أصدره حاويا ما وصل إلينا من خطب العصر الأموى ووصاياه ، وما دار بمجالس الخلفاء والأمراء والرؤساء من حوار ومجاوبة ، وهو كما ستراه أحفل أجزاء الكتاب الثلاثة ، وأغزرها مادة ، لتوافر دواعى الخطابة فى هذا العصر ، وتفاق سوقها .

وقد نهجت فيه نهجى فى سالفه ، من التوفيق بين الروايات ، وتحرير الألفاظ وضبطها وشرحها ، والتعليق عليها بما يبيط اللثام عن خفايا مراميها ، وغواءض منازيها ، فحاش بحمده تعالى وإفيا مرضيا ، والله نسأل أن يكلائنا برعايته ، وأن يمن علينا بالتوفيق للعمل الصالح ، إنه خير مرتجى ، فتم للولى ونتم النصير ؟

أحمد زكى صفوت

حرب بالقاهرة فى
رجب سنة ١٣٥٢ هـ
نوفمبر سنة ١٩٣٣ م

فهرس

مأخذ الخطب في هذا الجزء

- الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الأول - الثانى - ذيل الأمالى
- الأغالى : لأبى الفرج الأصهبانى : » الثانى - السابع - الثالث عشر -
- : الخامس عشر - السابع عشر - الثامن
- : عشر - العشرون - الحادى والعشرون
- صبح الأعشى : لأبى العباس القلقشندى : الجزء الأول - التاسع
- نهاية الأرب : لشهاب الدين التويرى : » الخامس - السابع
- عيون الأخبار : لابن قتيبة الدينورى : المجلد الثانى
- الكامل : لأبى العباس المبرد : الجزء الأول - الثانى
- المقد الفريد : لابن عبد ربه : » الأول - الثانى - الثالث
- زهر الآداب : لأبى إسحق الحضرى : » الأول - الثانى - الثالث
- البيان والتبيين : للجاحظ : » الأول - الثانى - الثالث
- نهج البلاغة : لشريف الرضى : » الأول
- شرح نهج البلاغة : لابن أبى الحديد : المجلد الأول - الثانى - الثالث - الرابع
- أمالى السيد المرتضى : الجزء الأول
- جمرة الأمثال ، لأبى هلال العسكري : » الأول

مجمع الأمثال : لأبي الفضل الميداني : الجزء الأول - الثاني

تاريخ الأمم والملوك : لابن جرير الطبري : » السادس - السابع - الثامن - التاسع

تاريخ الكامل : لابن الأثير : » الثالث - الرابع

مروج الذهب : للمسعودي : » الثاني

الإمامة والسياسة : لابن قتيبة : » الأول - الثاني

معجم البلدان : لياقوت الحموي : » الثالث

أشد الغابة في معرفة الصحابة : لابن الأثير : » الثالث

النجوم الزاهرة ، في ملوك مصر والقاهرة : » الأول

: لابن تفرى بردى

وفيات الأعيان : لابن خلكان : » الأول - الثاني

معاهد التنصيص : لعبد الرحيم البياسي : » الأول

فتح الطيب ، للقرني : » الأول

بلوغ الأرب : للسيد محمود شكرى الأوسى : » الثالث

مواسم الأدب : للسيد جعفر بن السيد : » الثاني

محمد البيهقي السلمي

سيرة عمر بن عبد العزيز : لأبي الفرج بن الجوزي

» » » » » : لابن عبد الحكم

شرح العميون : شرح رسالة ابن زيدون : لابن نباتة المصري

أنباء نجباء الأنبياء : لابن ظفر السكي

الحسن البصري : لابن الجوزي

الفخرى : لابن طباطبا

بلاغت النساء : لابن أبي طاهر طيفور

دستور معالم الحكم : لقضاي

إعجاز القرآن : لأبي بكر الباقلائي

النية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى

مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح



الباب الثالث

الخطبة والوصايا

في

النصر الأموي

الخطب

خطب بني هاشم وشيعتهم وما يتصل بها

١ - خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه^(١)

خطب الحسن بن علي رضي الله عنهما بعد وفاة أبيه فنساء فقال :

« لقد قتلتم البيلة رجلا في ليلة فيها نزل القرآن ، وفيها رُفِعَ عيسى بن مريم عليه السلام ، وفيها قتل يوشع بن نون ، فبقى موسى عليهما السلام ، والله ما سبقه أحدٌ كان

(١) في الكامل لابن الأثير (٣ : ١٩٧) أن الحسن بن علي تولى سنة ٤٩ هـ وفي ابن أبي الحديد (٤ :

مس ٤) أنه تولى سنة ٥٠ وفي الإمامة والسياسة (١ : ١٢٧) أنه تولى سنة ٥١ .

قبله ، ولا يُذَرِكُه أحد يكون بعده ، والله إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبيت في السرية^(١) ، وجبريلُ عن يمينه ، وميكائيلُ عن يساره ، والله ما ترك صفراء ولا يضاء إلا سبعمائة درهم من عطائه ، أراد أن يتتاع بها خادماً لأهله ، ثم خفتها العبرة فبكي ، وبكى الناس معه ، ثم قال :

« أيها الناس : من عرفني فقد عرفني ، ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن محمد رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنا ابن البشير ، أنا ابن النذير ، أنا ابن الداعي إلى الله بإذنه والسراج النذير ، أنا من أهل البيت ، الذين أذهب الله عنهم الرجس^(٢) وطهرهم تطهيراً ، والذين افترض الله مودتهم في كتابه إذ يقول : (وَمَنْ يَتَّقِرْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا) ، فافتراقُ الحسنة مودتنا أهل البيت » .

فلما انتهى إلى هذا للوضع من الخطبة ، قام هيبداً الله بن العباس بين يديه ، فدعا الناس إلى يمينه ، فاستجابوا وقالوا ما أحبه إلينا وأحقه بالخلقة ! فبايعوه ثم نزل من المنبر .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩١ ، وشرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١١ ، والمغنى للقرني ٢ : ٦)

(١) السرية من خيمة أقمس إلى ثلثة أو أربعة . (٢) الرجس : القذر والنام ، وكل ما استقر

من العمل ، والعمل المؤدى إلى الطمأنينة .

تعبئته الجيوش لقتال معاوية

سار معاوية بجيوشه قاصداً إلى العراق ، وبلغ الحسن خبره ، ومسيره نحوه ، فأمر بالتهيؤ للسير ، ونادى النّادى : الصلاة جامعة ، فأقبل الناس يشوبون ويجمعون ، فخرج الحسن ، وصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

٢ - خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد

« أما بعد : فإن الله كتب الجهاد على خلقه ، وسماه كُرْهًا ^(١) ، ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين : « أَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فلمستم أيها الناس ثائلين ما نحبون إلا بالصبر على ما تكرهون . بلغني أن معاوية بلغه أنا كنا أزهنا على السير إليه ، فتحرك لذلك ، أخرجوا رحلكم إلى معسكركم بِالْخَيْلَةِ ، حتى تنظر وتنظروا ، ويزرى وترؤا » - وإنه في كلامه ليتخوف خذلان الناس له - فسكتوا ، فأتكلم منهم أحد ، ولا أجابه بحرف ، فلما رأى ذلك عدى بن حاتم ، قام فقال :

٣ - مقال عدى بن حاتم

« أنا ابن حاتم ، سبحان الله ! ما أفتح هذا اللّقام ! لا تنجيون إمامكم ، وابن بنت نبيكم ! أين خطباء مُعَرِّ الدِّينِ أَلَسِنَتُهُمْ كَالْمَخَارِقِ فِي الْهَدْعَةِ ^(٢) ، فإذا جَدَّ الْجِدُّ

(١) يشير إلى قوله تعالى « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ » .

(٢) جمع خرق بالكسر : السيف (وهو أيضا للتعليل يلفظ ليضرب به) وفي اللغة : أي وقت القصة ؛ أي الخفض والطمس .

فرواغون كالثالب ، أما تخافون مقت الله ! ولا عَينَها وعارها ^(١) .

ثم استقبل الحسن بوجهه فقال : « أصاب الله بك للراشد ، وجئت بك للكاره ، ووقعت لما نحمد وروده وصدوره ، قد سمعنا مقاتلك ، وانتهينا إلى أمرك ، وسمعنا لك ، وأطعناك فيما قلت وما رأيت ، وهذا وجهي إلى مسكركى ، فن أحب أن يؤايقني قليواف » ثم مضى لوجهه ، إلى النخيلة .

وقام ثلاثة آخرون من أصحاب الحسن ، فأتبوا الناس ولا موم وحروضم ، وكبوا الحسن بمنزل كلام عدى بن حاتم ، فقال لهم : صدقتم رحمكم الله ، عازلت أعرافكم بصدق النية والوفاء والقبول واللودة الصحيحة ، فجزاكم الله خيراً ، ثم نزل ، وخرج الناس فسكروا ونشطوا بالخروج ، وسار الحسن في عسكر عظيم ، وعدة حسنة .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٤)

٤ - خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية

ثم نزل الحسن ساباط ^(٢) ، فلما أصبح نادى في الناس : الصلاة جامعة ، فاجتمعوا ، فصعد المنبر ، فخطبهم فقال :

« الحمد لله كلما جده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً رسول الله ، أرسله بالحق ، وأتته على الوحي ، صلى الله عليه وآله ، أما بعد ، فوالله إنى لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنه ، وأنا أنصح خلقه خلقه ، وما أصبحت محمداً على مسلم ضيقاً ، ولا مريداً له بسوء ولا غائلة ^(٣) ، ألا وإن ما تكرهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة ، ألا وإنى ناظر لكم خيراً من نظركم

(١) أى عار فلتكم هذه : ومعى تقاصهم من إجابة الحسن إلى مادعاهم إليه ، وفي الأصل : «وعارها»

وأراه عرفاً إذ العارة هى العارية ولا معنى لها هنا . (٢) ساباط كسرى بالمثنى .

(٣) الثالثة : للشر والفساد والفاشية .

لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمرى ، ولا تردوا على رأيى ، غفر الله لى ولكم ، وأرشدنى وإياكم لما فيه محبته ورضاه إن شاء الله » ثم نزل .

فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصلح معاوية ويكمل الأمر إليه ، كفر والله الرجل ، ثم شدوا على فسطاطه فأنهبوه ، حتى أخذوا مُصلَّاه من تحته ، وشد عليه بعضهم ، فنزع مُطَرِّفه^(١) عن عاتقه ، فبقى جالسا متقلدا سيفاً بشير رداء ، فدعا بفرسه فركبه ، وأحذق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراحه ، ولا موه وضغفوه لما تكلم .

فلما مرَّ في مُظَلِّم^(٢) ساباط ، قام إليه رجل من بنى أسد يقال له جَرَّاح بن سِنان ، ويده مُمَوَّل^(٣) ، فأخذ بلبام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ، ثم أشرك أنت ! وطنه بالمول ، فوقت في فخذة فشقت^(٤) ، حتى بلغت أُرَيْيْتَهُ^(٥) ، وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذى طمنه بسيف كان يسيده واعتنقه فغصا جميعاً إلى الأرض .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ١٤)

٥ - خطبته يبرر مصالحته لمعاوية

لما رأى الحسن رضى الله عنه تفرق الأمر عنه ، بحث إلى معاوية يطلب الصلح ، فبحث معاوية إليه رسولين ، قديماً عليه بالمدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف - فى أشياء اشتراها - ثم قام الحسن فى أهل العراق فقال :

« يا أهل العراق ، إنه سخطى بنفسى عنكم ثلاث^(١) : قتلكم أبى ، وطمعكم إياى ،

وانتهابكم متاعى » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣)

(١) رداء من خبز مريح ذو أعلام . (٢) مظلم مضاف إلى ساباط التى قرب المدائن : موضع هناك .

(٣) الممول : الفأس العظيمة التى ينقر بها الصخر . (٤) الأريية : أصل الفخذ .

٦ - خطبته في الصلح بينه وبين معاوية

وقدم معاوية الكوفة لإفاد الصلح بينه وبين الحسن (سنة ٤١ هـ) ، وكان عمرو ابن العاص حين اجتمعوا بالكوفة ، قد كلم معاوية ، وأمره أن يأمر الحسن أن يقوم ويخطب الناس ، فكره ذلك معاوية ، وقال ما تريد إلى أن أخطب الناس ؟ فقال عمرو : لكنني أريد أن يبدؤ عبيد الله الناس ^(١) ، فلم يزل عمرو بمعاوية حتى أطاعه ، فخرج معاوية فخطب الناس ، ثم نادى الحسن ، فقال : قم يا حسن فكلّم الناس ، فتشهد في بديهة أمر لم يرو فيه ، ثم قال :

« أما بعد أيها الناس : فإن الله قد هدى أولكم بأولنا ، وَحَقَّنْ دماءكم بآخرنا ، وكانت لي في رقابكم يمينٌ ، تحاربون من حاربتُ ، وتسلمون من سلمتُ ، وقد سلمت معاوية وبايعته فبايعوه ، وإن لهذا الأمر مدة ، والدنيا دُول ، وإن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم : (وَإِن أَدْرَى لَمَلَّةٌ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَتَنَاقُ إِلَى حِينٍ) وأشار إلى معاوية ، فلما قالها قال معاوية اجلس ، فلم يزل ضريماً ^(٢) حتى عمرو ، وقال هذا من رأيك » ولحق الحسن بالمدينة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٣ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٣ ، والإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

ولبناء نجياد الأقباء ص ٥٦ وتاريخ ابن مسافر ٤ : ٢٢٤)

٧ - خطبته له بعد الصلح

روى للدائني قال : سأل معاوية الحسن بن علي رضي الله عنه بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع ، فناداه أن يقبل ، فوضع له كرسي فجلس عليه ، ثم قال :

(١) روى أبو الفرج الأصبهاني أنه كان في لسان الحسن ثقل كالكافأة (شرح ابن أبي الهيثم ٤ ص ١١) .

(٢) ضرر عليه كفرح : احتم غضبا فهو ضرر .

« الحمد لله الذي تَوَحَّدَ في ملكه ، وتفرَّدَ في ربوبيته ، يُؤْتِيُ للهِكَ من يشاء ، وينزِعُهُ عن يشاء ، والحمد لله أكرم بنا مؤمنكم ، وأخرج من الشرك أولكم ، وَخَفَّ - دماء آخركم ، قبلًاؤنا عندكم قديمًا وحديثًا أحسن البلاء ^(١) ، إن شكرتم أو كفرتم . أيا الناس : إن رَبَّ عَلَيَّ كَانَ أعلم بلى حين قبضه إليهِ ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا مثله ، ولم تعبدوا مثل سابقته ، فهيأت هيئات ، طالما قلبتم في الأمور حتى أعلاه الله عليكم ، وهو صاحبكم وعدوكم في بدر وأخوانها ، جَرَّعَكُمْ رَقًّا ^(٢) ، وَسَقَاكُمْ عِلْقًا ^(٣) ، وأذلَّ رقابكم ، وأشرقكم بِرَبِّكُمْ ، فلستم تعلمين على بقصد ، وإيم الله لا ترى أمة محمد خَفَضًا ما كانت سادتهم وقادتهم بنى أمة ، ولقد وجه الله إليكم فتنةً لن تصدُّروا عنها حتى تَهْلِكُوا ، لطاعتكم طواغيتكم ^(٤) ، وانضوائكم ^(٥) إلى شياطينكم ، فسد الله أَحْسَبُ ما مضى ، وما ينتظر من سوء دَعَتِكُمْ ، وَحَيْفُ ^(٦) حَكَمِكُمْ ، ثم قال :

« يأهل الكوفة لقد قارصكم بالأمس سهم من مرامي الله ، صائب على أعداء الله ، نَكَالٌ عَلَى فِجَارِ قريش ، لم يزل آخذًا بجناجرها ، جأنا على أنفسها ، ليس باللومة في أمر الله ، ولا بالسُرُوءة لِمَالِ الله ، ولا بالفرُوءة ^(٧) في حرب أعداء الله ، أصلى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دماء فأجابه ، وقاده فاتمه ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته » ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِلٌ أو كَادَ ، وأصاب مثبتب أو كَادَ ، ما ذا أردتُ من

خطبة الحسن ؟ (شرح ابن أبي الحديد : : ص ١٠)

(١) البلاء يكون مشقة ويكون عنة ، وهو هنا بللى الأول .

(٢) ماء رقيق : كندل وكفت وجبل كدر . (٣) الملق : الدم ودويبة في اللد تسمى الدم .

(٤) الطواغيت : جمع طاغوت ، وهو الشيطان وكل رأس ضلال . (٥) انضوائكم .

(٦) الحيف : الظلم . (٧) الفرُوءة والفرُوءة : شديد الفزع .

٨ - خطبة معاوية في أهل الكوفة

وروى اللدائني قال : خرج على معاوية قومٌ من الخوارج بعد دخوله الكوفة وصلح الحسن رضي الله عنه ، فأرسل معاوية إلى الحسن يسأله أن يخرج ، فيقاتل الخوارج ، فقال الحسن : سبحان الله ! تركتُ قتالك - وهولى حلال - لصلاح الأمة وألقهم ، أفتراني أقاتل معك ؟ فخطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« يا أهل الكوفة ، أتراني ، فانتلكم على الصلاة والزكاة والحج . وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتُحِبُّون ، ولكني فانتلكم لأنامر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون ، ألا إن كل مال أودم أصيب في هذه الفتنة فطلول ، وكل شرط شَرَطْتُهُ ففُتحت قديمي هاتين ، ولا يُصلح الناس إلا ثلاث : إخراج المطاء عند محله ، وإقتال^(١) الجنود لوقتها ، وغزو العدو في داره ، فإنه إن لم تَفْزُومْ غَزَوْكُمْ » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٦)

٩ - رد الحسن بن علي على معاوية حين نال منه ومن أبيه

وخطب معاوية بالكوفة حين دخلها ، والحسن والحسين رضي الله عنهما جالسان تحت اللبنة ، فذكر علياً عليه السلام ، فقال منه ثم نال من الحسن ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذه الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها القاهر علياً : أنا الحسن ، وأبي علي ، وأنت معاوية ، وأبوك صخر ، وأمي فاطمة ، وأمك هند ، وجدِّي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدك عُتْبَةُ بن ربيعة ،

وجدني خديجة ، وجدتك قتيبة ، فلن الله أخلصنا ذكراً ، والأمننا حسباً ، وشرنا قديماً
وحديثاً ، وأقدمنا كفراً وشاقاً »

قال طوائف من أهل للسجد آمين . (شرح ابن أبي الحديد ، ص ١٦)

١٠ - خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح

وذكروا أنه لما تمت البيعة لماوية بالعراق ، وانصرف راجعاً إلى الشام ، أتى سليمان
ابن صرد - وكان غائباً عن الكوفة ، وكان سيد أهل العراق ورأسهم - فدخل على الحسن
قال : السلام عليك يا مُؤَذِّلَ المؤمنين ، قال وعليك السلام ، اجلس فهُ أبوك ، جلس
سليمان ، ثم قال :

« أما بعد : فإن تَعَجُّبنا لا يتقضى من يملك معاوية ومعك مائة ألف مقاتل من
أهل العراق ، وكلهم يأخذ الإطعام ، مع مئاتهم من أبنائهم ومواليهم ، سوى شيعة من
أهل البصرة وأهل الحجاز ، ثم لم تأخذ لنفسك بقية في العهد ، ولا حظاً من القضية ،
فلو كنت إذ فعلت ما فعلت ، وأعطاك ما أعطاك بينك وبينه من العهد واليثاق ، كنت
كتبت عليك بذلك كتاباً ، وأشهدت عليه شهوداً من أهل للشرق والمغرب ، أن هذا
الأمر لك من بعده ، كان الأمر علينا أبسر ، ولكنه أعطاك هذا ، فرضيت به من قوله ،
ثم قال ، وزعم على ردوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ،
ووعدهم عِدَاتٍ ، وميَّنتهم أماناً ، إرادة إطفاء نار الحرب ، ومداواة هذه الفتنة ،
إذ جمع الله لنا كلمتنا وأقمتنا ، فإن كل ما هنالك تحت قدمي هاتين ، والله ما عني بذلك
إلا قُصَصَ ما بينك وبينه فأُعيد الحرب جَذْعَةً^(١) ، وأذن لي أشخصن إلى الكوفة ،

(١) هي في الأصل عذمة ، وصوابها جلعة : أي فتية .

فأخرج عامله منها ، وأظهر فيها خلمه ، وَأَنْبِذَ إِلَيْهِ ^(١) عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
گَيْدَ الْغُلَّانِينَ .

ثم سكت ، فذكر كل من حضر مجلسه بمثل مقالته ، وكلهم يقول : ايست سليمان
ابن مرد و ايستنا مه ، ثم الحقنا إذا علمت أنا قد أشخصنا عامله ، وأظهرنا خلمه .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١١ - خطبة الحسن يرده على مستنكري الصلح

فكلم الحسن فحمد الله ثم قال :

« أما بعد فإنكم شيعتنا وأهل مودتنا ، ومن نعرفه بالنصيحة والاستقامة لنا ، وقد
فهمت ما ذكرتم ، ولو كنت بالحزم في أمر الدنيا ، والدنيا أعمل وأنعى ، ما كان
معاوية بأبأس مني وأشد شكية ، ولكن رأي غير ما رأيتم ، لكني أشهد الله
وإياكم أني لم أريد بما رأيتم إلا حَقَنَ دماءكم ، وإصلاح ذات بينكم ، فاتقوا الله ،
وارضوا بقضاء الله ، وسلوا لأمر الله ، والزموا بيوتكم ، وكفوا أيديكم ، حتى يستريح برئ
أو يُستراح من فاجر ، مع أن أبي كان يحدثني أن معاوية سَيَّلَ الأمر ، فوالله لو سرننا إليه
بالجبال والشجر ما شككت أنه سيظهر ^(٢) ، إن الله لا مقبَّ لحكمه ، ولا راد لقضائه ،
وأما قولك يا مُذِلِّ المؤمنين ، فوالله لأن تَذَلُّوا وتُأَفَّقُوا أحبُّ إليَّ من أن تَذَرُوا وتُفْتَلُوا ،
فإن ردَّ الله علينا حقنا في عافية ، قِيلَنا وسألنا الله التَّوَنَ عَلَى أمره ، وإن سرَّه عنا رضينا
وسألنا الله أن يبارك في سرِّه عنا ، فليكن كل رجل منكم حِلْماً ^(٣) من أحلاس بيته ،

(١) معناه إذا عادت قوما ، فطعت منهم النفس لله ، فلا توقع بهم سابقا إلى التقصص ، حتى تعلمهم
أنك نَقَصْتَ العهد ، فتكونوا في علم التقصص مستوين ، ثم أوقع بهم . (٢) يطلب .
(٣) الحِلْس : بساط البيت ، وفلان حلس من أحلاس البيت : الذي لا يبرح البيت ، وفي الحديث : « في لثنته
كن حلسا من أحلاس بيته حتى تأتيك يد غيلة » ، أو منية قاضية ، أو لا تبرح .

مادام معاوية حيًّا ، فإن يَهْلِك ونحن وأنتم أحياء ، سألتنا الله العزيمَةَ عَلَى رُشدنا ، والمعونة عَلَى أمرنا ، وأن لَا يَكِلِنَا إِلَى أَنْفُسنا ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٠)

١٢ - خطبة له في عهد خلافة

ومن خطبه رضى الله عنه في أيامه في بعض مقاماته أنه قال :

« نحن حزب الله المفلحون ، وَعِزَّةٌ ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم الأقربون .
وأهل بيته الطاهرون الطيبون ، وأحد الثقلين ^(٢) الذين خلقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والثاني كتاب الله ، فيه تفصيل كل شيء ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، والموكل عليه في كل شيء ، لا يُخْطِئُنَا تَأْوِيلُهُ ، بل تيقن حقايقه ، فأطيعونا ، فإطاعتنا مفرضة ، إذ كانت بطاعة الله والرسول وأولى الأمر مقرونة ^(٣) : (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) (وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنَظِرُونَ مِنْهُمْ) ، وأحذركم الإصغاء لهُتاف الشيطان ، إنه لكم عدو مبين ، فتكونون كأولئك الذين قال لهم : (لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ ، وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَآيَ الْفِثَتَانِ فَكَمَسَ عَلَى عَيْنَيْهِ ، وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ وَإِنِّي

(١) الفترة : رعد الرجل وعشيرته الأذنون . (٢) الثقل : كل شيء قفيس مصون ، وفي الحديث « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعتري » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا) .

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ (فَيَلْقَوْنَ الرِّمَاحَ أُنْزَارًا ^(١) ، وَلِلسِيفِ جَزَارًا ^(٢) ، وَلِلْعَمْدِ ^(٣) حَقًّا ،
وَالسَّهَامِ غَرَا ، نَم : (لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ
فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا) . (مروج الذهب ٢ : ٥٣)

١٣ - خطبة أخرى له

ومن خطبه رضي الله عنه :

« اهلوا اب الحلم زين ، والوقار مودة ، والصلة نعمة ، والإكثار صلف ^(١) ،
والمصبة سفة ، والسفة ضف ، والقلق ورطة ، وبجالة أهل الدناءة شين ، وبخالطة
أهل الفسوق ريبة » . (صبح الأعشى ١ : ٢١٥)

(١) الأذر: جمع إزار، وهو اللبقة وكل ما واداك وستره: أي فتكونون أجرية الرماح تنيب في أبدانكم
وتسفر ، أو هو الأذر بفتح فسكون وهو الظهور: أي تركيب الرماح وتسلوكم ، والمراد تطنون وتضربون بها
والأول أوجه . (٢) أي ضلما . (٣) عمد بفتحعين ، وعمد بضمعين : جمع عمود ، وهي من
الآلات التي كانت تستخدم في القتال . (٤) السلف : التكلم بما يكره صاحبه والتمسح بما ليس منك ،
ومجاوزة قدر الطرف والادعاء فوق ذلك تكبرا .

مخاصمة ومهاجاة

بين الحسن بن عليّ ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة ،
وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بحضرة معاوية

قال ابن أبي الحديد : روى الزبير بن بكار في كتاب الفخارات قال :

« اجتمع عند معاوية عمرو بن العاص ، والوليد بن عتبة بن أبي مُثَيْب ، وعُتْبَةُ بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، وقد كان بينهم عن الحسن بن عليّ عليه السلام فوارس^(١) ، وبلغه عنهم مثل ذلك ، فقالوا يا أمير المؤمنين : إن الحسن قد أحيا أباه وذَكَرَهُ ، وقال فَصْدُقْ ، وأمر فأطيع ، وَخَفَقَتْ^(٢) له النعال ، وإن ذلك لَرَأْفَةٌ إلى ما هو أعظم منه ، ولا يزال يَبْلُغُنَا عنه ما يسوءنا . قال معاوية : فأتريدون ؟ قالوا : ابشث إليه فليحضر لِنَسَبِهِ ونسب أباه ونعيه ونوبخته ، ونغيره أن أباه قتل عثمان وشرّره بذلك ، ولا يستطيع أن يغيّر علينا شيئاً من ذلك . قال معاوية : إني لا أرى ذلك ولا أقبله ، قالوا : عز منا عليك يا أمير المؤمنين لَنَقْصَلَنَّ ، فقال : وبحكم لا تفعلوا ، فوالله ما رأيته قط جالسا عندي إلا خفت مقامه وعيبي لي ، قالوا ابشث إليه على كل حال . قال : إن بشتت إليه لأنصفنه منكم ، فقال عمرو بن العاص : آخشي أن يأتي باطله على حقنا ، أو يُزَيِّي قومه على قولنا ؟ قال معاوية : أما إني إن بشتت إليه لأمرته أن يتكلم بلسانه كَلَّه . قالوا : مره بذلك ، قال : أما إذا عصيتوني وبشتت إليه وأيتم إلا ذلك ، فلا تَحْرُصُوا^(٣) له

(١) الفوارس من الكلام : التي تنفصك وتؤلك . (٢) الخفق : صوت قتلل .

(٣) تحرص : ضمت في أمره .

في القول ، واعلموا أنهم أهل بيت لا يبيعهم المائب ، ولا يلتصق بهم العار ، ولكن
اقتضوه بحجره ؛ يقولون له إن أباك قتل عثمان ، وكثرة خلافة الخلفاء من قبله ؛ فيمت إليه
معاوية ، فجاءه رسوله . فقال : إن أمير المؤمنين يدعوك . قال : من عنده ؟ فسمام . فقال
الحسن عليه السلام ما لهم ؟ خرّ عليهم السقف من فوقهم ، وأقام المذاب من حيث
لا يشعرون ، ثم قال : يا جارية ابيني ثيابي ، اللهم إني أحوذ بك من شرورهم ، وأدرا^(١)
بك في غورهم ، وأستعين بك عليهم ، فكيف فيهم كيف شئت ، وأنت شئت ، بمحوك منك
وقوة ، يا أرحم الراحمين ، ثم قام ، فلما دخل على معاوية أعظمه وأكرمه ، وأجلسه إلى
جانبه ، وقد ارتاد^(٢) القوم ، وخطر^(٣)وا خطر أن الفحول ، بنيّاً في أنفسهم وعُلوا ،
ثم قال : يا أبا محمد ، إن هؤلاء يشؤا إليك وعصوني . فقال الحسن عليه السلام : سبحان
الله ! الدار دارك ، والإذن فيها إليك ؛ والله إن كنت أجبتهم إلى ما أرادوا وما في أنفسهم
إني لأستحي لك من الفحش ، وإن كانوا غلبوك على رأيك إني لأستحي لك من الضعف ،
فأيها تفر وأيهما تنكر ؟ أما إني لو علمت بمكانهم جئت معي بمثلهم من بني عبد المطلب ،
ومالي أن أكون مستوحشاً منك أو منهم ؟ إن ولي الله وهو يتولى الصالحين ؛ فقال
معاوية : يا هذا إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك مع كراهتي له ،
وإن لك منهم النصف^(٤) ومضى ، وإنما دعوناك لتقرر أن عثمان قتل مظلوماً ، وأن أباك
قتله ، فاستمع منهم ثم أجبهم ، ولا تمنك وحدتك واجتماعهم أن تتكلم بكل لسانك ،
فتكلم مروين الماص :

(١) أدفع . (٢) الارتداد : الذهاب والمجيء . (٣) خطر الرجل في شئته : وقع فيه
وضعاها واعتز وتجنر ، وخطر يسفه وروحه : دفعه مرة ووضعه أخرى خطراتا (بالتحريك) وخطر القفل
يلته : ضرب به يميناً وشمالاً . (٤) الإنصاف والعدل .

١٤ - مقال عمرو بن العاص

فقد الله وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر علياً عليه السلام ، فلم يترك شيئاً يمينه به إلا قاله ، وقال إنه شتم أبا بكر ، وكره خلافة ، وامتنع من بيعته ، ثم بايحه مُكْرَهًا ، وشَرِك في دم عمر ، وقتل عثمان ظلماً ، وأدغمي من الخلافة ما ليس له . ثم ذكر الفتنة يمينه بها ، وأضاف إليه مساوي ، وقال : إنكم يا بني عبد المطلب لم يكن الله ليعطيكم الملك ، على قتلكم الخلفاء ، واستحلالكم ما حرم الله من الدماء ، وحرصكم على الملك ، وإتيانكم ما لا يحل ؛ ثم إنك يا حسن تحدث نفسك أن الخلافة صائرة إليك ، وليس عندك عقل ذلك ولا لبه ، كيف ترى الله سبحانه سلبك عقلك ، وتركك أحق قریش ، يُسَخِّر منك ، ويَهْزَأ بك ، وذلك لسوء عمل أهلك ؛ وإنما دعوناك لتُسَبِّحَ وأباك ؛ فأما أبوك فقد تفرد الله به ، وكفانا أمره ، وأما أنت فإنك في أيدينا ، نختار فيك الخصال ، ولو قتلناك ما كان علينا إثمٌ من الله ، ولا حيبٌ من الناس ؛ فهل نستطيع أن ترد علينا وتكذبنا ؟ فإن كنت ترى أننا كذبنا في شيء فاردده علينا فيما قلنا ، وإلا فاعلم أنك وأباك ظالمان .

١٥ - مقال الوليد بن عقبة بن أبي معيط

ثم تكلم الوليد بن عقبة بن أبي معيط فقال :

« يا بني هاشم : إنكم كنتم أخوال عثمان ، فتم الولدُ كان لكم ، فترَفَ حقكم ، وكنتم أصهاره ، فتم الصهرُ كان لكم يُكرِّمكم ، فكنتم أول من حسده ، فقتله أبوك ظلماً ، لا عذر له ولا حجة ، فكيف ترون الله طلب بدميه ، وأنزلكم منازلكم ، والله إن بني أمية خيرَ لبني هاشم من بني هاشم لبني أمية ، وإن معاوية خير لك من نفسك . »

١٦ - مقال عتبة بن أبي سفيان

ثم تكلم عتبة بن أبي سفيان فقال :

« يا حَسَنُ : كان أبوك شرًّا قريش قريش ، لِسَفْكِهِ لِدِمَائِهَا ، وقَطْعِهِ لأَرْحَامِهَا ، طَوِيلَ السِّيفِ واللسان ، يقتل الحى وَيَتَمَيَّبُ اللَّيْتَ ، وإنك ممن قَتَلَ عُمَانَ ونحن قَاتِلُوكَ بِهِ . وأما رجاؤك اخْلَافَةَ فَلَسْتُ فِي رَندَعَا^(١) قَادِحًا ، وَلَا فِي مِيزَانِهَا رَاجِحًا ، وإنسَكم يَا بَنِي هَاشِمٍ قَتَلْتُمْ عُمَانَ ، وَإِن فِي الْحَقِّ أَنْ تَقْتُلَ وَأَخَاكَ بِهِ ، فَأَما أَبُوكَ فَقَدْ كَفَانَا اللَّهُ أَمْرَهُ ، وَأَقَادَ^(٢) مِنْهُ ، وَأَما أَنْتَ فَوَافِقُ مَا عَلَيْنَا لَوْ قَتَلْنَاكَ بَعَثْنَا إِيَّاهُ وَلَا عُدْوَانَ . »

١٧ - مقال المغيرة بن شعبه

ثم تكلم للمغيرة بن شعبه ، فشمَّ عليًا وقال : والله ما أعيبه في قضية يَحْنُون ، وَلَا في حَكَمٍ يَحْمِلُ ، وَلَكِنَّهُ قَتَلَ عُمَانَ ، ثُمَّ سَكَنُوا .

١٨ - رد الحسن بن علي عليهم

فتكلم الحسن بن علي عليه السلام ، حمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وآله ، ثم قال :

« أَمَا بَدَأَ مَعَاوِيَةُ ، فَأَهْوَأَ شَتْمُونِي ، وَلَكِنَّكَ شَتَمْتَنِي ، فَضًّا أَلْفَتَهُ ، وَسَوْءَ رَأَى هَرَفَتْ بِهِ ، وَخُلُقًا سَيِّئًا ثَبَّتَ عَلَيْهِ ، وَبَنِيَا عَلَيْنَا ، عَدَاوَةَ مَنَّاكَ لِحَمْدِ وَأَهْلِهِ ، وَلَكِنْ أَسْمِعْ يَا مَعَاوِيَةُ وَأَسْمِعُوا ، فَلَا تَقُولُونَنِي فِيكُمْ وَفِيهِمْ مَا هُوَ دُونَ مَا فِيكُمْ ، أَنْشُدْكُمْ اللَّهُ أَيُّهَا الرُّفُطُ ، أَتَطْلُبُونَ أَنْ أَلْقَى شَتْمَتَهُمْ مِنْذُ الْيَوْمِ عَلَى الْقَبْلَتَيْنِ^(٣) كَلَّتِيهِمَا ، وَأَنْتَ يَا مَعَاوِيَةُ

(١) الرَنْدَعُ : السُّودُ الَّذِي يَقَعُ بِهِ النَّارُ . (٢) أَقَادَ الْقَاتِلُ بِالْقَتْلِ : قَتَلَهُ بِهِ .

(٣) كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُ الْكُتْبَةَ وَهُوَ بِمَكَّةَ ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ أَمَرَ أَنْ يُسْتَقْبَلَ بَيْنَ الْقَلْعَيْنِ تَأْلُفًا لِلْيَهُودِ ، فَصُلِّيَ إِلَيْهِ سِتَّةُ أَوْ سَبْعَةِ شُهُورٍ ثُمَّ حُولَ .

بهما كافر ، تراها ضلالة وتبذل اللات والزرى ^(١) غواية ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه بايع البيعتين كليهما بيعة الفتح ^(٢) وبيعة الرضوان ^(٣) ، وأنت يامعاوية يا حادها كافر ، وبالأخرى ناكث ، وأنشدكم الله هل تعلمون أنه أول الناس إيماناً ، وأنتك يامعاوية وأباك من اللوثة قلوبهم ، تُسرّون الكفر وتُظهرون الإسلام ، وتُنتالون بالأموال ، وأنشدكم الله أنتم تعلمون أنه كان صاحب راية رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر ، وأن راية للمشركين كانت مع معاوية ومع أبيه ؟ ثم تقيكم يوم أحد ويوم الأحزاب ومعه راية رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومعك ومع أبيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله له ، ويُفْلِح ^(٤) حجه ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في تلك المواطن كلها عنه راض ، عليك وعلى أبيك ساخط ؛ وأنشدك الله يامعاوية أتذكر يوماً جاء أبوك على جبل أحمر ، وأنت تسوقه ، وأخوك حُبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : « اللهم المن الرّاكب والقائد والسائق » أنسى يامعاوية الشعر الذي كتبتَه إلى أبيك - لما مّم أن يُسلم - تنهاه عن ذلك :

بَاخْضَرُ لَا تُسَلِّمَنَّ يَوْمًا فَتَفْضَحَنَّا بَعْدَ الَّذِينَ يَبْدُرُ أَصْبَحُوا مِرْقَاً ^(٥)
خَالٍ وَغَمٍّ وَالْأُمُّ ثَالِثُهُم وَحَنَظَلُ الْخَيْرِ قَدْ أَهْدَى لَنَا الْأَرْكَا ^(٦)

(١) اللات : صنم ثقيف بالطائف ، والزرى : أكبر صنم لقريش ، وكان يهطن نخلة .

(٢) دوى الطبرى في تاريخه - بعد أن أورد خبر فضحه صلى الله عليه وسلم مكة سنة ثمان الهجرة ، وعطيه حين وقت على باب الكعبة - قال : « ثم اجتمع الناس بمكة لبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس لهم - فيما يلقى - على الصفا ، وهر بن الخطاب تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم من مجلسه يأخذ على الناس ، فبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم الجماعة ، ورسوله فيما اصطاعوا ، وكذلك كانت بيعة من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس على الإسلام ، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيعة الرجال بايع النساء ، واجتمع إليه نساء من نساء قريش فهن عند بيعة حبة » أم معاوية . . . إل آخر النص - تاريخ الطبرى ٣ : ١٢١ - وكان معاوية من أسلم بعد الفتح .

(٣) بيعة الرضوان كانت سنة ست هجرية في غزوة الحديبية حين دعا الرسول صلى الله عليه وسلم المسلمين لبيعة على القتال فيأيوم على الموت تحت شجرة هناك سميت بعد بشجرة الرضوان . (٤) ينصر .

(٥) للزق : جمع مزقة بالكسر ، وهي القطعة من الثوب وغيره . (٦) أى لشدة الحزن والأسى .

لَا يَكُنَّ إِلَىٰ أَمْرِ تُكَلِّفُنَا ۖ وَالرَّاقِصَاتِ بِهِ فِي مَكَّةَ ۚ انظُرَا^(١)
فَالَمُوتُ أَهْوَنُ مِنْ قَوْلِ الْمُدَاةِ ۖ لَقَدْ حَدَّ أَبْنُ حَرْبٍ عَنِ الْعُرْمِيِّ إِذَا فَرَّطَ^(٢)

والله لما أخفيتُ من أمرِك ، أكبر عما أبديتُ ؛ وأنشدكم الله أيها الرهط أنتمولون أن
علياً حرّم للشهوات على نفسه بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأنزل فيه :
(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرُّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ) . وأن رسول الله صلى الله
عليه وآله بث أكبر أصحابه إلى بني قُرَيْظَةَ ، فزولوا من حصنهم فهزموا ، فبث علياً
بالرأية ؛ فاستنزلهم على حكم الله وحكم رسوله ، وفعل في خيرٍ مثلهما ، ثم قال : يا معاوية
أظنك لا تعلم أني أعلم ما دعا به عليك رسول الله صلى الله عليه وآله ، لما أراد أن يكتب
كتاباً إلى بني جذيمة^(٣) فبث إليك ونهيك^(٤) إلى أن تموت ، وأنتم أيها الرهط .

(١) ائترق حركة : ألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور ، والمحقق . (٢) فرق : فزع .

(٣) في الأصل « غزوة » ، وهو تحريف ، وهم بني جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، وقد بث
إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم خاله بن الوليد حين انتصح مكة داعياً ، ولم يبعث مقاتلاً ، فلما رآه القوم
أخذوا السلاح ، فقال خالد : ضموا السلاح ، فإن الناس قد أسلموا ، فلما وضموه أمر بهم خالد عند ذلك
فكفوا ، ثم مرضهم على السيف فقتل من قتل منهم - وكان بنو جذيمة قد أصابوا في الجاهلية خوف بني عبد
خوف أبا عبد الرحمن بن عوف ، ولقناكه بن المغيرة عم خالد ، وكانا أقبلاً تاجرين من اليمن حتى إذا زلا
بهم ظفروا وأخذوا أموالهما فلما انتهى الخبر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفع يديه إلى السماء ثم قال :
الهم إلى أبرأ إليك ما صنع خالد بن الوليد ، ثم دعا على بن أبي طالب ، فقال : يا حلل اخرج إلى هؤلاء القوم
فانظر في أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك ، فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعه رسول الله صلى
الله عليه وسلم به فردى لهم القماء ، وما أصيب من الأموال ، حتى إنه ليكى بيلة الكلب ، (والميلعة بالكسر :
الإثاء ، يلغ فيه الكلب) حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا وداه بقيت منه بقية من المال . قال لهم : هل
بقي لكم دم أو مال لم يود إليكم ؟ قالوا لا ، قال : فإني أعطيتكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله صلى
الله عليه وسلم ما لا يعلم ولا تعلمون فضل ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، فقال
أسبغت وأسفت ، ثم استقبل القبلتة قائماً شاعراً وبه ، وهو يقول : اللهم إلى أبرأ إليك بما صنع خالد
ابن الوليد ، ثلاث مرات . (٤) الذي في كتب الفقه : « نهيه » زجره ، وحلفه بالمعصية وغيره .
ومراده هنا أنه دعا عليه بالتهمة وعدم الشيع ، وقد تقدم الكلام عليه .

نشدتكم الله ألا تملكون أن رسول الله صلى الله عليه وآله لمن أبا سفيان في سبعة مواطن لا تستطيعون ردّها؟ أولها يوم لقي رسول الله صلى الله عليه وآله خارجاً من مكة إلى الطائف يدعو تقيماً إلى الدين؛ فوقع به، وسبه وسفه وشتمه وكذبه وتوعده. وممّ أن يبطش به، فلغنه الله ورسوله وصرف عنه. والثانية يوم العير^(١) إذ مرّ من لها رسول الله صلى الله عليه وآله وهي جاثية من الشام. فطردها أبو سفيان وساحل^(٢) بها، فلم يظفر المسلمون بها، ولغنه رسول الله صلى الله عليه وآله ودعا عليه، فكانت وقعة بدر لأجلها. والثالثة يوم أحد حيث وقف تحت الجبل ورسول الله صلى الله عليه وآله في أعلاه، وهو ينادى أعلّ هبل^(٣) مراراً فلغنه رسول الله صلى الله عليه وآله عشر مرات ولغنه المسلمون. والرابعة يوم جاء بالأحزاب وغطفان واليهود، فلغنه رسول الله صلى الله عليه وآله وابتهل. والخامسة يوم جاء أبو سفيان في قریش، فصدوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن المسجد والمذمى مكوفاً أن يبلغ محله^(٤) ذلك يوم الحديبية. فلن رسول الله صلى الله عليه وآله أبو سفيان، ولن القادة والأتباع، وقال لمعنون كلهم وليس فيهم من يؤمن. فقيل يا رسول الله أفما يؤجى الإسلام لأحد منهم فكيف بالغنه؟ فقال: لا تصيب اللعنة أحداً من الأتباع. وأما القادة فلا يفلح منهم أحد^(٥). والسادسة يوم الجمل الأحمر. والسابعة يوم وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في المقبة ليستنفروا ناقصه وكانوا اثني عشر رجلاً منهم أبو سفيان. فهذا لك يامعاوية.

وأما أنت يابن العاص، فإن أمرك مشترك، وضعتك أمك مجهولاً من غير^(٦)

(١) العير: الإبل تحمل الميرة: (٢) أتى بها ساحل البحر. (٣) أي اطل وانتصر يا عبل:

وهو صنم كان في الكعبة. (٤) والمذمى مطوف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمذمى ما يهدى إلى مكة، ومكوفاً أي مجبوساً وهو حال. أن يبلغ محله أي مكانه الذي ينصر فيه عادة وهو الحرم.

(٥) لا يتصارع مع هذا أن أبا سفيان أفلح بعد وأسلم، إذا التقي فيه بلا، وليس التقي بلن.

(٦) فيصور: ذكرروا أن الثابتة أم عمرو بن العاص كانت أمة لرجل من منزة (بالتحريك) فسبيت:

فأنشراها عبد الله بن جعدان التيمي بمكة، فكانت بنيا، ثم احتضها، فوقع عليها أبو لهب بن عبد المطلب، =

وسَفَاح فندا كم فيك أربعة من قريش . فقلب عليك جزأرها . الأهم حساباً ، وأخبرهم
مَنْصِباً . ثم قام أبوك فقال : أنا شأى محمد الأبر^(١) . فأنزل الله فيه ما أنزل ، وقالت
رسول الله صلى الله عليه وآله في جميع للشاهد . وهجوته وأذيته بمكة ، وكذته كيدك
كله . وكنت من أشد الناس له تكديدا وعداوة . ثم خرجت تريد النجاشي مع أصحاب
السفينة لتأتى بمحضر وأصحابه إلى أهل مكة^(٢) . فلما أخطأك ما رجوت ، ورجعك الله خائباً
وأكذبك وأشيا ، جعلت حسدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي
حسداً لما ارتكب من حليته^(٣) ، ففضضك الله وفضض صاحبك . فأنت عدو بني هاشم

= وأمية بن خلف الجهمي ، وهشام بن المغيرة المخزومي ، وأبو سفيان بن حرب ، والعماس بن وائل
الهملي في طهر واحد ، فولدت حمرا ، فادعاه كلهم ، فحكمت أمه فيه ، فقالت هو من العاص بن وائل ،
وذلك لأن العاص كان ينفق عليها كثيراً ، قالوا : وكان أشبه بأبي سفيان ، وفي ذلك يقول أبو سفيان بن الحارث
ابن جبه المطلب في عمرو بن العاص :

أبوك أبو سفيان لاشك قد بدت لنا فيك منه بينات الشقاق

ويقال إنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل حمرا وهو على المنبر : من أمه ؟ فسأله فقال : أمي سلمى
. بنت حرملة تلقب بالنخعة من بني منزة أصحابها وملاح العرب فيبعت بمكاف ، فاشترها الفاكه بن المغيرة ،
ثم اشتراها منه عبد الله بن جعدان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل فولدت فأتجبت ، فإن كان جعل لك شيء فخذ .
(ورأيي فيما روي من نسب عمرو بن العاص أن الإسلام يجب ما قبله) .

(١) الشاق المبيض ويسهل : وذلك أن العاص بن وائل سمي النبي صلى الله عليه وسلم أيتراً عند موت
أبيه القاسم ، فنزل فيه « إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ » أي المتقطع من كل غير ، الذي لا يفوز بالذكر
الحسن بعد موته ، ولما أنت بأمجد فسيق حسن ذكرك ، وآثار فضلك إلى يوم القيامة فهو الأبر لأنت .

(٢) يشير إلى هجرة الحبشة الثانية ، وقد هاجر إليها من المسلمين نحو ثلاثة وثلاثين رجلاً وثمان عشرة
امراً ، وكان من الرجال جعفر بن أبي طالب ، ولما رأت قريش ذلك أولست في أمرهم عمرو بن العاص ،
وعمار بن الوليد ، بهديا إلى النجاشي وبطريقته ، ليسلم المسلمين ، فرجعا خائبين ، وأبى النجاشي أن ينفردته .

(٣) وذلك أن حمرا وعمارة ركبوا البحر إلى الحبشة كما قدمنا - وكان عمارة جميلاً وسياً تهواه النساء ،
وكان مع عمرو بن العاص امرأته - فلما صاروا في البحر ليالى أصابها من غمر مهبها ، فالتفتي عمارة فقال
لامرأة عمرو قيليبي ، فقال لها عمرو قبل أن يمك ، قتيبت ، فهوها عمارة ، وجعل يرادها عن نفسها ، =

في الجاهلية والإسلام . ثم إنك تعلم ، وكل هؤلاء الرُّحَطِ يملكون أنك هجوت رسول الله صلى الله عليه وآله بسبعين بيتا من الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللهم إني لا أقول الشعر ولا ينبغي لي . اللهم الله بكل حرف ألف لنة . فليك إذن من الله مالا يُغْنِي من العن ، وأما ما ذكرت من أمر عثان فأنْتَ سَمَرْتُ^(١) عليه الدنيا نارا ، ثم لَحِقَتْ بِفِلَسْطِينَ ، فلما أتاكَ قَتْلُهُ قلت : « أنا أبو عبد الله إذا نَكَأْتُ قَرْحَةً أَدْمِيهَا » ثم حبست نفسك إلى معاوية ، وبعث دينك بدنياء ، فلسنا نلومك على بنقض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثان حَيًّا ولا غَضِبْتَ له مقتولا ، ويحك يابن الحماص ! ألسنت القاتل في بني هاشم لما خرجت من مكة إلى النجاشي ؟

تقول ابنتي : أين هذا الرحيل ؟ وما السَّيْرُ مني بِمُسْتَنْكَرٍ

فاضمت منه ، ثم إن عمرا جلس على منجاف السفينة يقول « منجاف السفينة هو مكانها الذي تعمل به » فدفعه عمارة في البحر ، فلما وقع عمرو سبيح حتى أخذ بمنجاف السفينة ، وضغن عمرو عليه في نفسه ، وعلم أنه كان أراد قتله ومضيا حتى زلا الحبيشة ، فلما اطمأن بها لم يلبث عمارة أن دب لامرأة النجاشي فأدخلته ، فاضتف إليها ، وجعل إذا رجع من مدخله ذلك يغير عمرا بما كان من أمره ، فيقول عمرو : لا أصدقك أنك قدرت على هذا ، إن شأن هذه المرأة أرفع من ذلك ، فلما أكثر عليه عمارة بما كان يغيره ، ورأى عمرو من حاله وجهته وميته عندهما حتى يأتي إليه مع البحر ما عرف به ذلك ، قال له إن كنت صادقا فقل لما قلت لك يدهن النجاشي الذي لا يدهن به غيره ، فأتى أمره وأتى بشيء منه حتى أصدقك ، قال : أفيل ، فسلها ذلك فدعته منه وأعطته شيئا في قارورة ، فقال عمرو أشهد أنك قد صدقت لقد أصبت شيئا ما أصاب أحد من العرب مثله قط ، امرأة الملك ! ما سمعنا بمثل هذا ، ثم سكنت عنه حتى اطمأن ودخل على النجاشي فأعلمه شأن عمارة وقدم إليه الدهن ، فلما أثبت أمره دعا بمعامرة ، ودعا نسوة أمر فجردوه من ثيابه ثم أمرهن يتغفن في إحليله ثم خل سبيله فخرج هاربا .

(١) سر التار : كنع أوقدها . وكان عمرو أول غسلة عثان واليا على مصر - منذ خلافة عمر ابن الخطاب - ثم إن عثان ولي عبد الله بن سعد بن أبي سرح - وهو أخو عثان من الرضاع - خراج مصر ، وولى عمرو بن الحماص على الجند فلم يتفقا ، فجمع ليه الله الخراج والجند وعزل عمرا ، فلما قدم عمرو المدينة جعل يطن على عثان ويؤايب عليه ، وخرج عمرو يملأ حتى انتهى إلى أرضه بفلسطين ، فكان يقول : أنا أبو عبد الله إذا حككت قرحة نكأتها ، واه إن كنت لألق الراعي فأعرضه عليه (نكأ القرحة : قشرها قبل أن تبرا فتنبوت) .

قلت : ذَرَبْنِي فَإِنِ امْرُؤٌ أُريدَ النجاشيُّ في جفر
لَأَكُونَهُ عِنْدَهُ كَيْفَةً أَقيمُ بها نَفْخَةَ الْأَصْرِ (١)
وَسَأَلَنِي أَحَدَهُ مِنْ بَيْنِهِمْ وَأَقُولُهُمْ فِيهِ بِالْمُنْكَرِ
وَأَجْرِي إِلَى عَتِيَّةٍ جَاعِدًا وَلَوْ كَانَ كَالْهَبِ الْأَحْمَرِ (٢)
وَلَا أَتَنَّى عَنْ بَنِي هَاشِمٍ وَمَا أَتَنَطَعْتُ فِي الشَّيْبِ وَالْحَفَرِ
فَإِن قَبِلَ الْعَتَبُ مِنِّي لَهُ وَإِلَّا تَوَبْتُ لَهُ مِثْفَرِي (٣)

فهذا جوابك . هل سمعته ؟

وأما أنت يا وليد ، فوالله ما ألومك على بنفص عليّ ، وقد جلدك ثمانين في الغمر (٤) ،
وقتل أباك بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله صبراً (٥) ، وأنت الذي سماه الله الفاسق

(١) الأصغر محرّكة : الخيل في الخلد ، صمر : كفرح فهو أصمر ، وصمر غده تصميرا : أماله
من الكبر . (٢) كان من بين المهاجرين من المسلمين إلى الحبشة عتية بن غزوان ، وهو من بني
فول بن عبد مناف ، وعتية بن مسعود (وهو أخو عبد الله بن مسعود) من هذيل من حلفائهم ، وأخته
بنو عتية بن غزوان ، وقوله : ولو كان كاللهب الأحمر : أي في صعوبة الوصول إليه .

(٣) المشفر الجبر : كالشفة للإنسان ، وقد يستعمل في الثنس . (٤) وذلك أن عثمان رضي الله عنه
بعد أن مزل سعد بن أبي وقاص من إمارة الكوفة ، ولي عليها الوليد بن عقبة - وهو أخوه لأمه - ووروا أنه
شرب الخمر بالكوفة وسكر حتى دخل عليه ، وأخذ خاتمه من أصبعه وهو لا يعلم وأنه تكلم في الصلاة ولففت
إلى من يقتضون به فيها وهو سكران وقال لهم : أزيدكم ؟ قالوا لا قد قضينا صلواتنا ، وشهد الشهود عليه
بذلك عند عثمان في وجهه فأدخله بيتا وأراد أن يحمله فجلل إذا بهت إليه رجلا من قريش ليضربه ناشده الوليد
ألا يقطع رحمه ، فلما رأى على ذلك أخذ السوط ودخل عليه فجعله به .

(٥) القتل صبرا : أن يحبس الرجل ويرى حتى يموت ، وكان عقبة بن أبي معيط شديدا الإيذاء لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عظيم الاستهزاء به . صنع مرة وثجة ودعا إليها كبار قريش وفيهم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فقال عليه الصلاة والسلام : والله لا أكل من طعامك حتى تؤمن بالله ، فتشهد ، فبلغ ذلك أبي
إبن خلف الجهمي ، وكان صديقا له ، فقال ماثنى . يلفني عتك ؟ نال لا شيء . دخل منزله رجل شريف ،
فلما أن يأكل طعامي حتى أشهد له ، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فتشهدت له ، قال أبي : وجهي من
وجهك حرام إن نقيت محمدا فلم تطلأ عتقه ، وتبزق في وجهه ، وتطلم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله -

وسمى علياً للؤمن ، حيث تفاخرتما ، قلت له اسكت يا علي ، فانا أشجع منك جناناً ، وأطول منك لساناً . فقال لك علي اسكت يا وليد ، فانا مؤمن وأنت فاسق . فأنزل الله تعالى في موافقة قوله : (أَفَنَ كَانَ مُؤْمِنًا كُنَّ كَانَفَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ) ثم أنزل فيك علي موافقة قوله أيضاً (إِنْ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ^(١)) ويمك يا وليد ؟ مهما نسبت فلا تنس قول الشاعر فيك وفيه :

أَنْزَلَ اللَّهُ (وَالْكِتَابُ عَزِيزٌ) فِي عَلِيٍّ وَفِي الْوَلِيدِ قُرْآنًا ^(٢)
فَتَبَيَّنُوا الْوَلِيدَ إِذَا ذَاكَ فِتْنًا وَعَلِيٍّ مُبَوَّأً إِيمَانًا ^(٣)
ليس من كان مؤمناً (عزرك الله) كمن كان فاسقاً خوفاً
سوف يدعى الوليد بعد قليل وعلى إلى الحساب عياناً
فعلى يُجزى بذاك جناناً ووليد يجزى بذاك هواناً
رب جد لقبه بن أبان لابس في بلادنا تباناً ^(٤)

= صل الله عليه وسلم فعل به ذلك ، فأنزل الله فيه (وَبِئْسَ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا) وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يصل في حجر الكعبة فأقبل حقة فوضع ثوبه في حلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فشققه شقاً شديداً ، فأقبل أبو بكر فاخذ بمنكبيه ودفعه عن الرسول ، وقال : (اتَّقَتْلُونِ رَجُلَانِ يَقُولُ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ) فلما كانت غزوة بدر كان حقة من أسراها وقد قطعه عليه الصلاة والسلام وهو راجع .

(١) وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام كان قد بعث لقوليد بن عقبة إلى بني المصطلق لأخذ الصدقات - وكان بينه وبينهم ترة في الجاهلية - فلما سمعوا به استقبلوه فحبسهم مقاتليه فرجع ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنهم قد ارتدوا ومنوا الزكاة ، فهم يقتلهم ، فأتوه منكرين ما قاله عنهم ، فنزلت الآية : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) . (٢) سهل من « قرآننا » . (٣) فتبنا : سهل من « فتبنا » .

(٤) أبان : هو والد أبيه حقة ، فهو الوليد بن عقبة بن أبي معيط أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية ابن عبد شمس ، والنبان : سراويل صغير مقدار شعيرستر العورة المعلقة فقط يكون لللاحين .

وما أنت وقريش ، إنما أنت عَجَج من أهل صَفُورِيَّة^(١) ، واقسم بالله لأنت أكبر في الميلاد وأسن ممن تدعى إليه .

وأما أنت يا عتبة ، فوالله ما أنت بِمَحْصِفٍ^(٢) فَأَجِيبَكَ ، ولا عاقل فأحاورَكَ وأعاتبك ، وما عندك خيرٌ يرَجى ، ولا شرٌّ يُتَّقَى ، وما عليك وعقل أُنْتُكَ إلا سواء ، وما يضر علياً لو سببته على رهوس الأَشهاد ؟ وأما وعيدك إياي بالقتل ، فهلا قُلتَ الصَّيَّانِي إذ وجدته على فراشك ؟ أما تستحي من قول نصر بن حجاج فيك :

يَا لَقَرْجَالٍ وَحَادِثِ الْأَرْمَانِ وَلَسَبَّةٍ تُغَرِّى أَبَا سُفْيَانَ^(٣)

نُبِئْتُ عُبَيْةَ خَاةَ فِي مَرِيهِ جِنْسَ تَلِيمِ الْأَصْلِ مِنْ لَحْيَانِ^(٤)

وبعد هذا ما أربأ بنفسى عن ذكره لفحشه ، فكيف يخاف أحدٌ سيفك ؟ ولم تقتل فاضحك . وكيف ألومك على بنض على ، وقد قتل خالك الوليدَ مبارزةً يوم بدر ، وشريك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حَنْظَلَةَ في مقام واحد .

وأما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بمخلوق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مثل البهوضة إذ قالت للمخة : « استمسكي فإني طائرةٌ عنك » فقالت للمخة : وهل علتُ بكِ واقعةٌ عليّ ، فأعلم بكِ طائرةٌ عني ؟ والله ما نشر بعداوتك إيانا ، ولا اغتممتنا إذ حلينا بها ولا يشق علينا كلامك ، وإن حدا الله في الزنا لتأبث عليك ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سألته عنه . ولقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله : هل ينظر الرجل إلى المرأة يريد أن يتزوجها ؟ فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زان . وأما

(١) صفورية : بلد بالأردن (يضم الحمزة واللام وتشديد النون) ، والمخرج : الرجل من كشاف الجسم . وذلك أن جده ذكوان كان يلقب بالصفوري . ذكر جماعة من التنايين أن ذكوان هذا كان دوي لأمية بن عبد شمس فتبناه وكناه أبا عمرو ، فبثروه موال وليسوا من بني أمية لصلبه (شرح ابن أبي الهيثم ١ م ١٤٥ ص ١٥٤) .
(٢) محصف : ككرم استحكم عقله فهو حصيف . (٣) السبة : العار . (٤) عرس للرجل : امرأته : وبنو لحيان : حمى من هليل ، وهو لحيان بن هليل بن مدركة .

نفركم علينا بالإمارة ، فإن الله تعالى يقول : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ فَمْدَرْنَاهَا تَذْمِيرًا) .

ثم قام الحسن ففرض ثوبه فانصرف ؛ فمضى عمرو بن العاص بثوبه وقال : يا أمير المؤمنين قد شهدت قوله في وقفته أئى بالزنا ، وأنا مطالب له بعد القذف .

فقال معاوية : خل عنه ، لاجزاك الله خيرا ، فتركه ، فقال معاوية : قد أنبأتكم أنه ممن لا تطاق عارضته ، ونهيبتكم أن تسبوه فصبيتموني ، والله ما قام حتى أغلظ على البيت ، قوموا هنيئاً فلقد فضحك الله وأخزاكم بترككم الحزم ، وعدولكم من رأى الناصح المشفق ، والله المستعان . (شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١)

١٩ - رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن

لما مات الحسن بن علي رضي الله عنهما ، أدخله قبره الحسين ومحمد بن الحنفية^(١) وعبد الله بن عباس رضي الله عنهم ، ثم وقف محمد على قبره ، وقد اغرورت عيناه ، وقال :

« رحلك الله أبا محمد فلئن عزت حياتك لقد هدأت وفانك ، ولنعم الروح روح تضمنته بدنك ، ولنعم الجسد جسد تضمنته كفنك ، ولنعم السكن كفن تضمنه الحدك ، وكيف لا تكون كذلك ، وأنت ليليل الهدى ، وخامس أصحاب الكساء^(٢) ؛ وخلف

(١) أى كثرتنا ، أمره : كصره ، وأمره : كثره ، (وفي قراءة : آمرا) أو للمنى أمرناهم بالطاعة ففسقوا وعصوا ، وقد يكون من الإمارة أى جعلناهم أمراء . (٢) هو محمد بن علي بن أبي طالب والحنفية أمه ، وهى امرأة من بني حنيفة بن الجهم وتسمى خولة بنت جعفر ، وتوفى سنة ٨١ ، وقيل سنة ٨٣ ، وقيل سنة ٧٢ ، وقيل سنة ٧٣ . (٣) الكساء : هو كساء آل محمد صلى الله عليه وسلم الذى يضافون إليه ، فيقال : « آل الكساء » وهم الذين على الصلاة والسلام ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين رضي الله عنهم ، قال ذلك الجن :

أهل الفتوى ، وجدك النبي المصطفى ، وأبوك علي المرتضى ، وأمك فاطمة الزهراء ،

— وقال أبو عبيد الخالد :

أخذت إن كساء النبي كسائي حتى لأهل الكساء

ومن قصة هذا الكساء ما روت الرواة من أن وفدا من نصارى نجران قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم فكان ماجرى بينهم وبينه أن قالوا : يا محمد لم تعيب عيسى وتسميه ميدا ؟ فقال : أجل عبد الله ورسوله وروحه وكلته ألقاه إلى مرج ، قالوا : فأرنا مثله ، يحبس الموق ويعبري الأكمة والأبرص ويخلق من الطين كهية الطير ، ويأمننا على أنه ابن الله ونحن نبايعك على أنك رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن يكون لله ولد أو شريك ، فآزلهوا بما جؤنه ويلاحونه حتى أزل الله : (قَدْ حَاجَّكَ فِيهِ) أي في عيسى (مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْمِلَّةِ قُلْ تَمَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لِمَنْ هَلَكَ عَلَى الْكَافِرِينَ) فقال لهم : إن الله أمرني إن لم تقبلوا الحجة أن أباهلكم - والمباهلة الملاعة - فقالوا بأبأ القاسم : بل ترجع فننظر في أمرنا ثم ذاتيك ، فلما رجعوا قالوا للمعاقب وكان ذا رأيهم « وهو أحد رؤسائهم . قال ياقوت في معجمه : ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم وفد نجران وفيهم السيد واسمه وهب ، والمعاقب واسمه عبد المسيح ، والأسقف وهو أبو حارثة ، وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم مباہلتهم فامتنعوا . . . الخ » فبعد المسيح مآري ؟ فقال « والله لقد فرقت يامشتر النصارى أن محمدا نبي مرسل ، ولقد جاءكم بالكلام الحق في أمر صاحبكم أي عيسى ، والله ما بهل قوم نبي قط ، فاشك كبيرهم ولا نبت صغيرهم ، ولئن قلتم لكان الاستقصاء ، فإن أبيتم إلا الإصرار على دينكم ، والإقامة على ما أنتم عليه ، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم » وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من شعر أسود ، والمرط بالكسر كساء من صوف أو غز ، وقد احتضن الحسين ، وأعطى يده الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلى رضى الله عنه خلفها ، وهو يقول « إذا دعوت فأمسوا » فقال أسقف نجران : « يامشتر النصارى إنى لأرى وجوها لو سأروا الله أن يرسل جيلا من مكانه لأزاله لما ، فلا تباهلوا فهلكتوا ، ولا يبق على وجه الأرض نصراى إلى يوم القيامة » ثم قالوا : يا أبا القاسم رأينا أن لا نبايعك وأن نتركك على دينك ، فقال عليه الصلاة والسلام : « فإذا أبيتم المباہلة فأمسوا ، يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما للمسلمين » فأبوا ، فقال : فإني أنا جزم القتال ، فقالوا : ما لنا بحرب العرب طاعة ، ولكن فصلحك على أن لاتنزعنا ولا تردنا من ديننا ، على أن تؤدى إليك في كل عام أثنى حلة ، ألفا في صفر وألفا في رجب ، وثلاثين درهما عادية من حديد ، فصالحهم على ذلك ، وقال : « ولقى نفسى بيده ، إن الهلاك قد نزل على أهل نجران ولو لاعتوا لمسخوا ترددة وغنازير ، ولا ظفرهم عليهم الوادى ناراً ، ولا تتأصل الله نجران وأهلها ، حتى الطير على وحوش الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا ، وروى =

ومك جعفر^(١) الطيار في جنّة المأوى ، وعَذَّتْكَ أَكْفَ الحق ، ورُبِّيتَ في جِجْرِ
الإسلام ، ورضمت ندى الإيمان ، فَطَبَّتَ حيا وميتاً ، قلن كانت الأنفس غيرَ طيبة
لفراقك ، إنها غير شاكّة أن قد خير لك^(٢) ، وإنك وأخاك لسيدا شبابِ أهل الجنة ،
فطليك أبا محمد منا السلام .

(زهر الآداب ١ : ٦٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٥١ ، والقد القريد ٧ : ٧)

= أنه عليه الصلاة والسلام لما خرج في البرط الأسود جاء الحسن فأدخله ، ثم جاء الحسين فأدخله ، ثم فاطمة ،
ثم حل رضى الله عنهم ، ثم قال : (إِمَامًا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَ كُمْ تَطْهِيرًا) فمن ذلك الوقت سمي الخمسة أصحاب الكساء (انظر كتاب ثمار القلوب في
المصاف والمنسوب للشمالي ص ٤٨٢ وتفسير القفصر الرازي مفاتيح الغيب ٢ : ٦٩٩) .

(١) هو جعفر بن أبي طالب ، وقد استشهد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة ، وكان يقول حين أخذ
الراية من زيد بن حارثة الذي استشهد قبله في هذه الغزوة :

يا حيذا الجنة واقتربا طيبة وباردا شرابا

ولقب بالطيار لما روى عن عكرمة عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « دخلت الجنة

البارحة ، فرأيت جعفرا يطير مع الملائكة وجناحاه مضرجان بالهم » - راجع للروى الألف شرح

كثيوبة لابن هشام ٢ : ٢٥٨ - . (٢) خار الله في الأمر . : جعل لك فيه الخير .

(٣ - جمرة خطب العرب - ذاد)

مقتل الحسين بن علي

رضي الله عنه

تأيه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة

لما ولي الخلافة يزيد بن معاوية (في هلال رجب سنة ٥٦٠) كتب إلى أمير المدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان أن يأخذ الحسين، وعبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر بالبيعة أخذاً شديداً ليست فيه رخصة^(١)، فبعث الوليد إلى الحسين رضي الله عنه ونفى له معاوية ودعاه إلى البيعة، فقال الحسين: «إن مني لا يعطى بيعته سراً، ولا أراك تجزئ بها مني سراً، دون أن تظهرها على رؤوس الناس علانية»، فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا مع الناس، فكان أمراً واحداً، فقال له الوليد - وكان يحب الصافية - «فانصرف على اسم الله حتى تأتينا مع جماعة الناس».

فلما كان من الليل بعث الرجال إلى الحسين عند المساء، فقال: «أصبحوا ثم ترون ونرى» فكفوا عنه تلك الليلة ولم يأتوا عليه، فخرج الحسين من تحت ليلته (ليومين بقيام رجب سنة ٥٦٠) ومعه بنوه وإخوته وبنو أخيه وجُلُّ أهل بيته إلا محمد بن الحنفية فإنه قال له:

(١) الرخصة: التسهيل.

٢٠ - نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضى الله عنهما

« يا أخى : أنت أحب الناس إلى ، وأحزهم على ، ولست أدخر النصيحة لأحد من الخلق أحق بها منك ، تنح بِنَبِيَّتِكَ ^(١) عن يزيد بن معاوية ، وعن الأمصار ما استطعت ، ثم ابث رُؤسَكَ إلى الناس فاذعُهم إلى نفسك ، فإن بايعوا لك سجدت الله على ذلك ، وإن أجمع الناس على غيرك لم ينقص الله بذلك دينك ولا عقلك ، ولا يُذهِبُ به مروه تك ولا فضلك ، إني أخاف أن تدخل مصرا من هذه الأمصار ، وتأتى جماعة من الناس ، فيختلفوا بينهم ، فتنهم طائفة معك ، وأخرى عليك ، فيقتلوا ، فتكون لأوّل الأسنة ، فإذا خير هذه الأمة كلها نفساً وأباً وأماً أضيئها دماً ، وأذلها أهلاً . »

قال له الحسين : « فإني ذاهب يا أخى . » قال : « فازل مكة ، فإن اطأنت بك الدار فسيل ذلك ، وإن نبت ^(٢) بك لحقت بالرمال ، وشَمِعَ ^(٣) الجبال ، وخرجت من بلد إلى بلد ، حتى تنظر لآم يصير أمر الناس ، وتعرف عند ذلك رأى ، فإنك أضوب ما يكون رأياً ، وأحزمه عملاً ، حتى تستقبل الأمور استقبالا ، ولا تكون الأمور عليك أبداً أشكل منها حين تستدبرها استدباراً . »

قال : « يا أخى قد نصحت فأشفت ، فأرجو أن يكون رأيك سديداً مؤثماً . » وسار إلى مكة ، فأتاه أهل الكوفة ورسلم ، إنا قد حبسنا أنفسنا عليك ، ولنا نحضر الجمعة مع الوالى فأقدم علينا ^(٤) - وكان الثعمان بن بشير الأنصارى على الكوفة -

(١) تبعة جمع تابع . (٢) ضاقت . (٣) الكشف : جمع شفة محركة ، وهى رأس الجبل .
(٤) اجتمعت الشيعة بالكوفة فى نزول سليمان بن سرد ، فذكروا هلاك معاوية ففسدوا الله عليه ، فقال سليمان : « إن معاوية قد هلك ، وإن حسيناً قد تقبض على القوم ببغية ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشية أبيه ، فإن كنتم تملكون أنكم تضرهو ومجاهدو عدوه فاكثروا إليه وإن غفم الرجل (بالتحريك) -

بعثه مسلم بن عقيل إلى الكوفة

فبعث الحسين إلى ابن عمر مسلم بن عقيل ، فقال له :
 « سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلى » ، فإن كان حقاً خرجنا إليهم ، فخرج
 مسلم إلى الكوفة ، ونزل دار المختار بن أبي عبيد ، وأقبل الشيعة مختلف إليه ، قرأ عليهم
 كتاب الحسين فأخذوا يبكون .

« الفسط والقزح والنفيل) فلا تفزوا الرجل من نفسه « قالوا : لا ، بل نقاتل عدوه ونقتل أنفسنا دونه « قال :
 فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه ، بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من سليمان بن سرد ، والمسيب بن نجبة ، ورفاعة
 ابن شداد ، وحبيب بن مظاهر وشيعة من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة ، سلام عليك ، فإننا نحمد إليك
 الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذي قسم عدوك الجبار العنيد الذي أنزى (وثب) على هذه الأمة
 قابضها أمراً ، وقصبا فيها ، وتأمر عليها بفقر رضا منها ، ثم قتل خيارها ، واستبق شرارها ، وجعل حال
 الله دولة بين جبارتها وأغنياتها ، فهذا له كما يحدث شهود ، إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك
 على الحق ، والتمسان بين يثير في قصر الإمارة ، لئلا نجتمع معه في جمعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد
 بلغنا أنك قد أقبلت إلينا أغربناه ، حتى نلحقه بالشام إن شاء الله والسلام ورحمة الله عليك « وكتبوا إليه
 أيضاً : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حسين بن علي من شيعة من المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فحيلا (أي
 أقبل) فإن الناس يهتفونك ، ولا رأى لهم في فورك ، فالجبل المجبل والسلام عليك « وكتبوا : وأما بعد :
 فقد أخضر الجباب ، وأبنت الثمار ، وطمت الجمام ، (الجمام : بالكسر جمع جمل بالفتح ، وهو معظم الماء
 وطى الماء : علا ، وطم : غمر) فإذا شئت فاقدم على جنتك مجتد ، والسلام عليك « فكتب إليهم :
 « بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن علي إلى الملائمة المؤمنين والمسلمين ، أما بعد : فإن هاتنا وسعدا
 (وما هاتئنا) بن هاتئنا وسعيد بن عبد الله (قدما على بكتيكم ، وكانا آخر من قدم على من رسلهم ، وقد فهمت
 كل الذي اتصصتم وذكرتم ، ومقالة جلستم إنه ليس علينا إمام ، فأقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى
 والحق ، وقد بعث إليكم أئمة وأبن عمي وثق من أهل بيتي ، وأمرته أن يكتب إلى بجالسكم وأمركم ورايكم ،
 فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملتكم وذوى الفضل والمجا منكم على مثل ما قدمت على به رسلهم وقرأت
 في كتبكم ، أقدم عليكم وشيكا إن شاء الله ، فلمسوا الإمام إلا العامل بالكتاب والأخذ بالقسط والذات بالحق
 والمحابس نفسه على ذات الله والسلام . »

٢١ - خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري

فقام عابس بن أبي شبيب الشاكري ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد ، فإنني لا أخبرك عن الناس ، ولا أعلم مافي أنفسهم ، وما أغرك منهم ،
 والله أخذتك عما أنا موطن نفسي عليه ، والله لأجيبنكم إذا دعوتهم ، ولأقاتلن معكم
 عدوكم ، ولأضربن بسيفي دونكم حتى ألقى الله ، لا أريد بذلك إلا ما عند الله .
 فقام حبيب بن مظاهر القعقي قال :

« رحلك الله قد قضيت مافي نفسك يواجز من قواك » ثم قال : « وأنا والله الذي
 لا إله إلا هو على مثل ما هذا عليه » وقال غيرها مثل قولها .
 فبلغ ذلك النعمان بن بشير ، فخرج فصعد للبر ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

٢٢ - خطبة النعمان بن بشير

« أما بعد ، فاتقوا الله عباد الله ، ولا تسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فإن فيهما يهلك
 الرجال ، وتُسَفَكُ السماء ، وتُنصَبُ الأموال - وكان حلياً ناسكاً يحب العافية - قال :
 إنني لا أقاتل من لم يقاتلني ، ولا أئيبُ على من لا يئيبُ عليّ ، ولا أشتكم ، ولا أتمرحشُ
 بكم ، ولا آخذ بالفرقة ^(١) ولا الظنّة ولا التّهمة ، ولكنكم ، إن أبديتم صفحتكم ^(٢) لي
 ونكثتم يمينكم ، وخالفتم إمامكم ، فوالله الذي لا إله غيره لأضربنكم بسيفي ما ثبتت
 قائمته في يدي ولو لم يكن لي منكم ناصر ، أما إنني أرجو أن يكون من يعرف الحق
 منكم أكثر من يرديه الباطل » .

فقام إليه عبد الله بن مسلم بن سعيد الحضرمي حليف بني أمية ، فقال :

(١) الفرقة : التهمة ، وقرنه بالثمة : اتهمه . (٢) أي جاعل تحوف بالداوة .

« إنه لا يُصْلِح ما ترى إلا انْتِمْ^(١) ، إن هذا الذي أنت عليه فيما بينك وبين عدوك رأى الْمُتَضَمِّنِينَ » فقال : « أن أكون من الْمُتَضَمِّنِينَ في طاعة الله أَحَبُّ إلىَّ من أن أكون من الْأَعَزِّينَ في معصية الله » ثم نزل .

وكتب عبد الله بن مسلم وغيره إلى يزيد أن يبعث إلى الكوفة رجلاً قويا غير النعمان ، فيبعث إلى عبيد الله بن زياد - وكان على البصرة - وضمَّ إليه الكوفة ، فسار إليها ، فلما نزل القصر نودي الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخرج إليهم .

٣٣ - خطبة عبيد الله بن زياد

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن أمير المؤمنين (أصلحه الله) وَلَآئِي بِمِصْرِكُمْ وَتَمَرَكُمْ^(٢) ، وأمرني بإنصاف مظلومكم ، وإعطاء محرومكم ، وبإلحسان إلى سامعكم ومطيعكم ، وبالشدّة على مُريبكم وعاصيكم ، وأنا مُتَّبِعٌ فيكم أمره ، وَمُنْفِذٌ فيكم عهده ، فأنا لحسكم ومطيعكم كالوالد الأبرّ ، وَسَوَاطِي وسيفي على من ترك أمري ، وخالف عهدي ، فليبق امرؤ على نفسه ، الصديق يُنْفِي عَنْكَ لا الوعيد » .

ثم نزل فأخذ المَرْفَأَ^(٣) والناس أخذوا شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل ، فخرج من دار الخنجر ، حتى انتهى إلى دار هاني بن عروة المُرَادِيّ لا يُدَاكِبُهُ ، وَتَمَى خبره إلى ابن زياد ، فيبعث إلى هاني فجاءه ، فأمره أن يأتيه بـسـم ، فقال : لا والله لا أجيئك به أبداً أنا أجيئك بضيق تقتله ! وطال بينهما القُجَاج في ذلك ، فضربه ابن زياد بالقضيب ، فلم يزل بضرب أفعه وجبينه وخرده ، حتى كسر أنفه ، وَسَيَّلَ الدماء على ثيابه ، ونثر لحم خديه وجبينه على لحيته ، حتى كسر القضيب ، ثم أمر بحجسه .

(١) انتم : الظلم ، والمراد الشدة . (٢) التمر : موضع المخافة من فروع البلدان .

(٣) جمع عريف ، وهو رئيس القوم سمي لأنه عرف بذلك أو التقى به وهو دون الرئيس .

٢٤ - خطبة أخرى له

ولما ضرب عبيد الله هاتماً وجبهه ، خشي أن يئيب الناس به ، فخرج فصعد للنبر ومعه أشراف الناس وشُرطه وحشمه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس : فاعتصموا ببطاعة الله وطاعة أئمتكم ، ولا تحتلفوا ، ولا تفرقوا ، فتهلكوا وتذلولوا وتقتلوا ، وَتُجَفَّوْا وَتُحْرَمُوا ، إن أخاك من صدقك ، وقد أعذر من أنذر » .

وبلغ مسلم بن عقيل خبر ضرب هاتى وجبهه ، فأمر أن ينادى في أصحابه وكان قد بابسه من أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، وأقبل نحو القصر ، فتحرز فيه ابن زياد وغلق الأبواب ، وبعث إلى الأشراف فجمعهم إليه ، ثم قال : « أشرِفُوا عَلَى النَّاسِ ، فَتَنُوا أَهْلَ الطَّاعَةِ الزَّيَادَةَ وَالْكَرَامَةَ ، وَخَوْفُوا أَهْلَ الْمَصِيَةِ الْحُرْمَانَ وَالْعُقُوبَةَ ، وَأَعْلَمُوا قُصُولَ ^(١) الْجَنُودِ مِنَ الشَّامِ إِلَيْهِمْ » .

٢٥ - خطبة كثير بن شهاب

فصلى كثير بن شهاب أول الناس فقال :

« أيها الناس : اخلقوا بأهاليكم ، ولا تمجّلوا الشر ، ولا تُعَرِّضُوا أَنْفُسَكُمْ لِلْقَتْلِ ، فإن هذه جنود أمير المؤمنين يزيد قد أقبلت ، وقد أعطى الله الأمير عهداً لأن تَمُتَّمْ ^(٢) على حربه ، ولم تقصروا من عشييتكم أن تحرم ذريبتكم العطاء ، ويفرق مقابلتكم في منازي أهل الشام على غير طمع ، وأن يأخذ البرى بالسقم ، والشاهد بالنائب ، حتى لا يبقى له فيكم بقية من أهل المصية إلا أذاها وبال ما جرّت ^(٣) أيديها » .

(١) فصل من البلد فضولاً : خرج منه . (٢) يقال : تمت على الأمر ، أي استمرت عليه .

(٣) جر جريرة : اجترم جريمة .

وتكلم الأشراف بنحو من كلام هذا ، فلما سمع الناس مقالهم أخذوا يتفرقون وينصرفون عن ابن عقيل ، حتى أمسى وما معه إلا ثلاثون نفساً ، فخرج متوجهاً نحو أبواب كِنْدَةَ ، فبلغ الأبواب ومعه منهم عشرة ، ثم خرج من الباب وإذا ليس معه إنسان ، ففزع على وجهه في أزقة الكوفة ، حتى انتهى إلى باب عجوز فسألها أن تؤويه فأوثته في دارها .

٣٦ - خطبة عيد الله بن زياد

ولما انقضت جموع ابن عقيل ، خرج عبيد الله بن زياد إلى المسجد ، وأمر فنودي « أَلَا بَرِئَتِ الْقِمَّةُ مِنْ رَجُلٍ صَلَّى الْمَغَمَّةُ ^(١) » إلا في المسجد ، فلم يكن إلا ساعة حتى امتلأ من الناس ، فعلى بهم ، ثم قام حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن ابن عقيل السفية الجاهل ، قد أتى ما قد رأيتم من الخلاف والشق ، فبرئت ذمة الله من رجل وجدناه في داره ، ومن جاء به فله ديتُهُ ، انقوا الله عباد الله ، والزمو طاعتكم وبيعتكم ، ولا تجملوا على أنفسكم سبيلاً .

يا حُصَيْنَ بْنَ نَمِيرٍ ^(٢) ، نَكَلْتَكَ ^(٣) أَمَكُ إِنْ صَاحَ ^(٤) » باب سَكَّةٍ مِنْ سَكَاةِ الكوفة ، أو خرج هذا الرجل ولم تأتني به ، وقد سَلَطْتُكَ عَلَى دُورِ أَهْلِ الكوفة ، فابْتَثَ مُرَاصِدَةً عَلَى أَفْوَاهِ السَّكَاةِ ، وَأَصْبَحَ غَدًا وَأَسْتَبِيرَ الدُّورَ ^(٥) ، وَجُسْنَ خِلَاطَهَا ، حتى تأتيني بهذا الرجل ، ثم نزل .

وأصبح ابن تلك العجوز التي آوت مسلماً ، فدل على مكانه ، فبعث ابن زياد محمد ابن الأشعث في ستين أو سبعين رجلاً فأتى به ، وأمر به ، فأصعد إلى أعلى القصر ، وضرب

(١) الحصة : وقت صلاة العشاء . (٢) وكان على شرط ابن زياد . (٣) نكله : فقهه .

(٤) صاح يصوحه فانصاح : أي شقه فانشق ، والمراد : فتح باب سكة وهرب .

(٥) سبر الجرح وغيره واستبره : اصطنع غوره .

عنه ، فهوى رأسه إلى الأرض ، وأتى جده رأسه ، ثم أمر بهاني بن عروة ، فأخرج
إلى السوق ، فضربت عنقه .

وكان مسلم حيث تحول إلى دار هاني ، كتب إلى الحسين : « إني قد بايعني من
أهل الكوفة ثمانية عشر ألفاً ، فمَجِّلْ الإقبال حين يأتيك كتابي ، فإن الناس كلهم معك
ليس لهم في آل معاوية رأى ولا هوى » .

فأرسل الحسين من مكة (في ٨ من ذي الحجة سنة ٤٠ هـ) متوجهاً إلى الكوفة ،
وهو لا يعلم بحال مسلم .

خروج الحسين إلى الكوفة

٢٧ - نصيحة ابن عباس له

ولما أجمع الحسين بن عليّ رضي الله عنه للسير إلى الكوفة ، أتاه عبد الله ابن عباس ، فقال : « يَأْتَنُ عَيْمٌ إِنَّكَ قَدْ أَرْجَفَ النَّاسَ أَنْكَ سَارَ إِلَى الْعِرَاقِ ، قَبِيْنٌ لِي مَا أَنْتَ صَانِعٌ ؟ » قال : « إِنِّي قَدْ أَجَمْتُ السَّيْرَ أَحَدَ يَوْمَيَّ هَذَيْنِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » ، فقال له ابن عباس : « فَإِنِّي أَعِيْذُكَ بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ ، أَخْبِرْنِي - رَحِمَكَ اللَّهُ - أَسِيرَ إِلَى قَوْمٍ قَدْ قَتَلُوا أَمِيرَهُمْ ، وَضَبَعُوا بِلَادَهُمْ ، وَتَقَوَّا عَدُوَّهُمْ ؟ فَإِنْ كَانُوا قَدْ فَضَلُوا ذَلِكَ فَسِرْ إِلَيْهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَيْهِمْ ، وَأَمْرُهُمْ عَلَيْهِمْ ، قَاهِرُهُمْ لَمْ ، وَعَمَلُهُ تَجْبِيْ بِلَادَهُمْ ، فَانْهَمْ إِنَّمَا دَعَوْكَ إِلَى الْحَرْبِ وَالْقِتَالِ ، وَلَا أَمْنٌ عَلَيْكَ أَنْ يَبْرُؤَكَ وَيَكْذِبُوكَ وَيَخَالِفُوكَ وَيَحْذُلُوكَ ، وَأَنْ يُسْتَنْفَرُوا إِلَيْكَ ، فَيَكُونُوا أَشَدَّ النَّاسِ عَلَيْكَ » فقال له حسين : « وَإِنِّي أَسْتَخِيرُ اللَّهَ وَأَنْظُرُ مَا يَكُونُ » .

فخرج ابن عباس من عنده ، وأتاه ابن الزبير ، فحدثه ساعة ثم قال :

« مَا أَدْرَى مَا تَرَكْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَكُفْنَا عَنْهُمْ ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْمُهَاجِرِينَ ، وَوَلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ دُونَهُمْ ، خَبِرْنِي مَا تَرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ ؟ » فقال الحسين : « وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِإِتْيَانِ الْكُوفَةِ : وَلَقَدْ كَتَبْتُ إِلَيْ شَيْعَتِي بِهَا وَأَشْرَافُ أَهْلِهَا ، وَأَسْتَخِيرُ اللَّهَ » فقال له ابن الزبير : « أَمَا لَوْ كَانَ لِي بِهَا مِثْلُ شَيْئِكَ مَا عَدَلْتُ بِهَا » ثم إنه خَشِيَ أَنْ يَتَّهِمَهُ فَقَالَ : « أَمَا إِنَّكَ لَوَأَقْتُ بِالْحِجَازِ ، ثُمَّ أَرَدْتُ هَذَا الْأَمْرَ هَاهُنَا مَا خُولِفَ عَلَيْكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ . فقال الحسين : « هَا ، إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْءٌ يُؤْتَاهُ مِنَ الدُّنْيَا أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ

أخرج من الحجاز إلى العراق ، وقد علم أنه ليس له من الأمر مئى شيء ، وأن الناس لم يَبدلوه ^(١) بى ، فَوَدَّ أنى خرجت منها لَتَخْلُوَ له .

فلما كان من السَّيِّئِ أو من الضد ، أنى الحسينَ عبدُ الله بن العباس . فقال :

« يابن عم ، إنى أَتَصَبَّرُ ولا أصبر ، إنى أَتَخَوِّفُ عليك فى هذه الوجه الهلاك والاستئصال ، إنى أهل العراق قومٌ عُدُوٌّ ^(٢) ، فلا تَقَرَّبْتَهُمْ ، أقم بهذا البلد ، فإنك سيد أهل الحجاز ، فإن كان أهل العراق يريدونك كازعموا ، فاكتب إليهم فَلْيَتَفَقَّحُوا عدوهم ، ثم اقدم عليهم ، فإن آيتَ إلا أن نخرج ، فسيرَ إلى اليمن ، فإن بها حصوناً وشِجَاباً ^(٣) وهى أرض عربية طوبلة ، ولأبيك بها شيعة ، وأنت عن الناس فى عزلة ، فتكتب إلى الناس وترسل ، وتبثُّ دُعَانَكَ ، فإنى أرجو أن يأتىك عند ذلك الذى تحبُّ فى عافية .

فقال له الحسين : « يابن عم ، إنى والله لأعلم أنك ناصح مُشَفِّقٌ ولكنى قد أزمعت وأجمعت ^(٤) على السير » فقال له ابن عباس : « فإن كنت سائراً ، فلا تَسِرْ بنساءك وصبيتك ، فوالله إنى لخائف أن تقتل كاقْتَلَ عثمان ، ونساؤه وولده ينظرون إليه » ثم قال ابن عباس : « لقد أقررت عينَ ابن الزبير بتخليتك إياه والحجاز ، والخروج منها ، وهو اليوم لا ينظر إليه أحدٌ معك ^(٥) ، والله الذى لا إله إلا هو ، لو أعلم أنك إذا أخذتُ بشرك وناصيتك حتى يجمع علىّ وعلىك الناس أطمعنى ، لَفَعَلْتُ ذلك » ثم خرج ابن عباس من عنده ، فرَّجَ بعبد الله بن الزبير . فقال : قرئت عينك يا ابن الزبير ، ثم قال :

(١) أى لم يسووه . (٢) جمع غنود كصنود .

(٣) الشجب بالكسر : الطريق فى الجبل ، وما انتفرج بين جبليين .

(٤) يقال : أجمعت السفر ، وأجمعت عليه ، وأزمعت السفر وعليه عزمت عليه وثبت عليه هـ .

(٥) أى مع وجودك .

بإك من قُبْرَةٍ بِمَمَرٍ خَلَكَ الْجَوْفِيضَى وَاصْفَرَى
وَنَقَرَى مَا شِئْتُ أَنْ تُنْقَرَى^(١)

هذا حين يخرج إلى العراق ، وعليك بالحجاز .

٢٨ - نصيحة أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له

ودخل أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام^(٢) على الحسين رضى الله عنه . فقال :

« يا بن عمِّ ، إن الرِّجِمَ يُظَاثِرُنِي^(٣) عليك . ولا أدري كيف أنا في النصيحة لك ، فقال : يا أبا بكر ، ما أنت بمن يُسْتَفْشُ فقال أبو بكر :

« كان أبوك أشدَّ بأساً ، والناس له أرْجَى ، ومنه أَسْمَعُ ، وعليه أجمع ، فسار إلى مساوية ، والناس مجتحمون عليه - إلا أهل الشام - وهو أعزُّ منه ، فخذلوه وتناقضوا عنه حرصاً على الدنيا وضيقاً بها ، فجزَّهوه التَّيْظَ وخالفوه ، حتى صار إلى ما صار إليه من كرامة الله ورضوانه ، ثم صنموا بأخيك بعد أبيك ما صنموا ، وقد شَهِدْتَ ذلك كله ورأيتُهُ . ثم

(١) القبرة واحد القبر : ضرب من الطير ، ويقال للقنبراء : يضم القناب والياء ، والجمع قنابر . قال صاحب القاموس : ولا تَقُلْ قُبْرَةً (كقنطرة) أو هي لنية ، وقال صاحب اللسان والصحاح : « والعامة تقول : القنبرة وقد جاء ذلك في الرجز » وروى شاعداً عليه أنشد أبو عبيدة . والممر : المنزل الكبير للماء والكلأ ، وهو مثل . وأول من قاله طرفة بن العبد ، وذلك أنه كان مع عمه في سفر وهو صبي ، فزولوا على ماء ، فذهب طرفة بفخيه له ، فنصب القنابر وبقى عامة يومه فلم يصد شيئاً ، ثم حمل فضته ورجع إلى عمه ، وتحملوا من ذلك المكان ، فرأى القنابر يلقطن مائتة من من الحب ، فقال ذلك ، يضرب في الحاجة يتمكن منها صاحبها .

(٢) هو أبو بكر عمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم القرشي .

(٣) الرِّجِم : القراصة ، ويظاثرني : يطفئني . يقال : ظأرتي ظان فلان على أمر كذا ، وأظاثرني وظاهرني : أي مطفئني .

أنت تريد أن تسير إلى الدين عدّوا على أيك وأخيك ، تقاتل بهم أهل الشام وأهل العراق ، ومن هو أعدّ منك وأقوى ، والناس منه أخوف ، وله أرحى ، فلو بلغهم مسيرك إليهم لاستطعوا الناس بالأموال ، وهم عبيد الدنيا ، فيقاتلك من قد وعدك أن ينصرك ، ويخذلك من أنت أحب إليه من ينصره ، فاذكر الله في نفسك .

قال الحسين : « جزاك الله خيرا يا بن عم ، فقد أجهدك رأيك ، ومهما يقض الله بكن » فقال : « وعند الله نحسب أبا عبد الله » .

٢٩ — خطبة عيد الله بن زياد

ولما نعى إلى عيد الله بن زياد خبر الكتاب القى كتبه الحسين رضى الله عنه إلى أشرف البصرة يستنصرهم صد للبر محمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فوالله ما نقرن بنى الصّبة ، ولا يقطع لى بالشّتان^(١) ، وإنى ليكفل^(٢) لمن عادانى ، ومُسّم^(٣) لمن حاربى ، أنصف القارة^(٤) من رامها .

يا أهل البصرة : إن أمير المؤمنين ولانى الكوفة ، وأنا غاد إليها النداء ؛ وقد استخلفت عليكم عثمان بن زياد بن أبى سفيان ، وإياكم والخلاف والإرجاف ، فوالذى لا إله غيره لئن بلغنى من رجل منكم خلاف ، لأقتله وعريفه ووليه ، ولأخذن الأذى بالأقصى حتى تستمعوا لى ، ولا يكون فيكم مخالف ولا مُشاقّ .

أنا ابن زياد ، أشبهته من بين من وطى^(٥) الحصى ، ولم يتزعمنى شبه خال ولا ابن عم .
(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

(١) القمعة : تحريك الشو اليابس الصلب مع صوت ، والشّتان : جمع شن بالفتح ، وهو القرية البالية .
وإذا قطع بالشّتان للأبل نفرت . وهو مثل يضرب لمن لا يروعه مالا حقيقة له .
(٢) يقال إنه لكفل شره : أى يتكفل به أهله . (٣) القارة : قبيلة ، وهم قوم رما .

٣٠ خطبة للحسين رضى الله عنه

ولما بلغ عبيد الله بن زياد أمير الكوفة إقبال الحسين بعث الحسين بن نمير التميمي، فأمره أن ينزل القادسية، وأن يضع للمساكين^(١)، وقدم الحرث بن يزيد التميمي بين يديه، في ألف فارس من القادسية، فيستقبل حسينا، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسَمَ ونزل به، فسار إليه الحرث حتى وقف هو وخيله مُقابله في حر الظهيرة، وحضرت صلاة الظهر؛ فخرج الحسين، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

«أيها الناس : إنها مَظْذَرَةٌ إلى الله عز وجل وإليكم ، إني لم آتِكم حتى أتتني كتبكم ، وقدمت عليّ رُسُلُكم أن أقدم علينا ، فإنه ليس لنا إمام ، لعل الله يمجسنا بك على الهدى ، فإن كنتم على ذلك فقد جئتكم ، وإن تطوئوا ما أطعنُ إليه من هودجكم ومواثيقكم أقدمَ مِصْرَكم ، وإن لم تفعلوا وكنتم لَمَقْدَى كارهين ، انصرفت عنكم إلى المكان الذي أقبلت منه إليكم » فسكنوا عنه ، ثم أقيمت الصلاة . فقال الحسين للحر : أتريد أن تصل بأصحابك ؟ قال : لا بل تصل أنت ، ونصلي بصلاتك ، فصلى بهم الحسين .

٣١ - خطبة أخرى له

فلما كان وقت العصر ، أمر الحسين أن يتهيأوا للرحيل ، ثم إنه خرج فأمر مناديه فتنادى بالعصر ، وصلى ثم سلم ، وانصرف إلى القوم بوجهه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

«أما بعد : أيها الناس فإنكم إن تتقوا وتعرفوا الحق لأهله ، يكن أرضى الله ،

(١) المساك : جمع ملحمة بالفتح ، وهي القوم ذوو السلاح .

ونحن أهل البيت أولى بولاية هذا الأمر عليكم من هؤلاء اللذين ما ليس لهم، والسائرين فيكم بالجزور والمعدوان، وإن أنتم كرهتمونا وجهلتم حقنا، وكان رأيكم غير ما أتى كتبكم، وقدمت به على رسلكم انصرفت عنكم» .

فقال له الحر : إنا والله ما ندرى ما هذه الكتب التي تذكر ؟ فأخرج له الحسين خرُجين مملوئين صُحُفًا ، فنشرها بين أيديهم ، ثم سار الحسين في أصحابه والحر يسايره .

٣٢ - خطبة أخرى له

وقام الحسين رضي الله عنه بذى حُسم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« إنه قد نزل من الأمر ما قد تروُن ، وإن الدنيا قد تغيّرت وتسكرت ، وأدبر معروها ، واستمرت^(١) جدًا ، فلم يبق منها إلا صُباية كصُباية الإناء ، وخميس عيش كالرعى الويل ، ألا ترون أن الحق لا يَمَلُّ به ، وأن الباطل لا يُقْنَاهِي عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله حِقًا ، فإني لا أرى الموت إلا شهادة ، ولا الحياة مع الظالمين إلا بر ما^(٢) » .

٣٣ - خطبة زهير بن القين البجلي

قام زهير بن القين البجلي ، فقال لأصحابه : تَكَلِّثُون أم أنكم ؟ قالوا : لا ، بل نكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) في كتب اللغة : « مر الشيء يمر بضم الميم ونقصها مرارة وأمر » ولم أر فيها بناء « استمر » ولا انع منه عل أن الميزة واللين والتاء الصعوبة : أي صارت مرة ، وتقديره استعجر العليلين ، واستحسن المهر (صار حصاناً) واستعرب القوم . وفي الأمثال : « إن البغاث بأرضنا يستنسر » كان عزرا فاستنيس « قد استنوق الجمل » . (٢) البرم : السامة والفسج ، يرم به كفجر .

« قد سمعنا (هذاك الله) يا بن رسول الله مقاتلك ، والله لو كانت الدنيا لنا باقية ،
وكننا فيها نخلدن ، إلا أن فراقها في نصرك ومواساتك ، لآثرنا الخروج معك على الإقامة
فيها » فدعا له الحسين ، ثم قال له خيراً .

٣٤ - خطبة للحسين أيضاً

وخطب الحسين أصحابه وأصحاب الحرّ بالبيضة ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
« أيها الناس ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى سلطاناً جائراً
مُتَحَلِّلاً لِحُرِّمِ اللَّهِ ، نَاكِثًا لِمَهْدِ اللَّهِ ، غَالِقًا لِسَةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ،
يَعْلُ فِي عِبَادِ اللَّهِ بِالْإِثْمِ وَالْمُدُونِ ، فَلَمْ يُغَيِّرْ عَلَيْهِ بَقْلًا وَلَا قَوْلًا ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ
يُدْخِلَهُ مَدْخَلَهُ » ألا وإن هؤلاء قد لزمو طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن ، وأظهروا
الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالنيء ، وأحلوا حرام الله ، وحرّموا حلاله ، وأنا
أحق من غير ، وقد أنقذت كتبكم ، وقدمت على رسلكم بيبعثكم أنكم لا تسلوني^(١)
ولا نخذلوني ، فإن تَمَسَّمتُ على بيبعثكم تُصِيبُوا رُشْدَكُمْ ، وأنا الحسين بن علي ، وابن فاطمة
بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم ، وأهل مع أهليكم ، فلكم في
أُسْوَةٍ ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلفتم بيعتى من أعناقكم ، فلمرى ما هى لكم
بُكَرٌ^(٢) ؛ لقد فلتتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم ، والمروء من اغتربكهم ، حفظكم
أخطائهم ، ونصيبكم ضيغهم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه ، وسيبقى الله عنكم
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

(١) أسلمه : غلله .

(٢) التكر بضم ويضمين : التكر .

٣٥ - خطبته ليلة قتله

وسير إليه ابن زياد عمر بن سعد بن أبي وقاص في أربعة آلاف ، فدخل الحسين إلى كَرْبَلاء ، وكانت بينهما مقابلات غير مُجَدِّية^(١) . فنهض عمر إليه عشية الخميس (٩ من المحرم سنة ٦١ هـ) فجمع الحسين أصحابه عند قرب المساء فقال :

« أننى على الله تبارك وتعالى أحسنَ الثناء ، وأحدهُ عَلَى السَّراءِ والضَّراءِ ، اللهم إني أحمدُك على أن أكرمْتَنا بالنبوَّةِ ، وعلِّمْتَنا القرآنَ ، وقَهَمْتَنا في الدين ، وجعلْتَ لنا أَسْماءَ وأبصاراً وأفئدةً ، ولمْ تحمِلْنا من المشركين .

أما بعد : فإنى لا أعلم أصحاباً أولى ولا خيراً من أصحابي ، ولا أهل بيتٍ أبرَّ ولا أَوْصَلَ من أهل بيتي ، فجزاكم الله عني جميعاً خيراً ألا وإنى أظن يومنا من هؤلاء الأعداء غداً . ألا وإنى قد رأيت لكم ، فانطلقوا جميعاً في حِلٍّ ، ليس عليكم من ذِمَام ، هذا الليلُ قد غَشِيَكُمْ فاتخذوه جَمَلاً ، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي ، ثم تفرقوا في سَوَادكم ومدائنكم ، حتى يفرِّجَ اللهُ ، فإنَّ القومَ إنما يطلبوننى ، ولو قد أصابونى لَهَوُوا عن طلبِ غيرى . »

(١) التقي عمر بن سعد والحسين مراراً ثلاثاً أو أربعاً ، وكتب عمر يهداه إلى عبيد الله بن زياد : « أما بعد : فإن الله قد أطفأ للتائفة ، وجمع الكلمة ، وأصلح أمر هذه الأمة ، هذا حين قد أعطاني أن يرجع إلى المكان الذي منه أتى ، أو أن يسيره إلى أي ثغر من ثغور المسلمين شئت ، فيكون رجلاً من المسلمين له ما لهم وعليه ما عليهم ، أو أن يأتي يزيد أمير المؤمنين فيضع يده في يده فيرى فيما بينه وبينه رأيته ، وفي هذا لكم رضا ولأئمة صلاح » فلما قرأ عبيد الله الكتاب قال : هذا كتاب رجل فاضح لأخبره مشفق على قومه نعم قد قبلت ، ولكن شر من ذي الجوشن ثناء عن القبول ، فكتب إلى عمر بن سعد كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فإنى لم أبشرك إلى حسين لتكف عنه ، ولا لتطاوله ، ولا لتنيه السلامة والبقاء ، ولا لتقده له عنى شافها ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابست بهم إلى سلبا ، وإن أبوا فأنحرف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قتل حسين فأوطأ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم » .

٣٦ - رد أهل بيته عليه

قال له أهل بيته: « لِمَ قَتَلْتَ؟ لَتَبْقَى بِمَدَنِكَ؟ لَا أَرَانَا اللَّهَ ذَلِكَ أَبَدًا » فقال الحسين: « يَا بَنِي عَقِيلِ حَسْبُكُمْ مِنَ الْقَتْلِ بِسَلْمٍ، اذْهَبُوا قَدْ أَذِنْتُ لَكُمْ » قالوا: « فَمَا يَقُولُ النَّاسُ؟ يَقُولُونَ إِنَّا تَرَكْنَا شَيْخَنَا وَسَيِّدَنَا وَبَنِي عَمومتنا خَيْرَ الْأَعْمَامِ، وَلَمْ نَزِمْهُمْ مَعَهُمْ بِسَهْمٍ، وَلَمْ نَطْعَنْ مَعَهُمْ بِرُمُوحٍ، وَلَمْ نَضْرِبْ مَعَهُمْ بِسِيفٍ، وَلَا نَدْرِي مَا صَنَعُوا، لَا وَاللَّهِ لَا تَفْعَلْ، وَلَكِنْ تَقْدِيكَ أَنْفُسَنَا وَأَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا، وَتَقَاتِلُ مَعَكَ حَتَّى تَرِدَّ مَوْرِدُكَ، نَقْبَحُ اللَّهَ الْعَيْشَ بِمَدَنِكَ ».

٣٧ رد أصحابه

وقام إليه مسلم بن عَوْسَجَةَ الْأَسَدِيُّ فقال: « أَمِنْ تُخَلِّي عَنْكَ وَلَكِنَّا نُمَذِّرُ إِلَى اللَّهِ فِي أَدَاءِ حَقِّكَ؟ أَمَا وَاللَّهِ حَتَّى أَكْبِيرَ فِي صَدُورِهِمْ رَحْمِي، وَأَضْرِبُهُمْ بِسِيفِي مَا ثَبَتَ قَائِمُهُ فِي يَدِي، وَلَا أَفَارُكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَعِيَ سِلَاحٌ أَقَاتِلُهُمْ بِهِ، لَقَدْ قَتَلْتُهُمْ بِالْحِجَارَةِ دُونَكَ حَتَّى أَوْتِ مَعَكَ ».

وقال سعد بن عبد الله الْحَنْفِيُّ: « وَاللَّهِ لَا تُخَلِّيكَ حَتَّى يَعْلَمَ اللَّهُ أَنَّا قَدْ حَفِظْنَا غَيْبَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيكَ، وَاللَّهِ لَوْ عَلَتْ أُنَى أَقْتَلُ، ثُمَّ أَحْيَا، ثُمَّ أُحْرِقُ حَيًّا، ثُمَّ أَذَرْتُ، يُقْتَلُ ذَلِكَ بِي سَبْعِينَ مَرَّةً، مَا فَارَقْتُكَ حَتَّى أَتَى رِحَابِي دُونَكَ، فَكَيْفَ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ، وَإِنَّمَا هِيَ قِتْلَةٌ وَاحِدَةٌ، ثُمَّ هِيَ الْكَرَامَةُ الَّتِي لَا اقْتِضَاءَ لَهَا أَبَدًا ».

وقال زهير بن القَيْنِ: « وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي قُتِلْتُ، ثُمَّ نُشِرْتُ ^(١)، ثُمَّ قُتِلْتُ حَتَّى أَقْتُلَ كَذَا أَلْفَ قِتْلَةٍ، وَأَنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ بِذَلِكَ الْقَتْلَ عَنْ نَفْسِكَ، وَعَنْ أَنْفُسِ هَؤُلَاءِ الْفَقِيَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ».

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً في وجه واحد ، فقالوا : « والله لا نفارقك ولكن أفسنا لك الفداء ، نعيك بنحورنا وجياها وأيدينا ، فإذا نحن قُتلنا كنّا وفينا ، وقضينا ما علينا » .

٣٨ - خطبته غداة يوم قتله

وخطب الحسين غداة اليوم الذي استشهد فيه بحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
 « يا عباد الله ، اتقوا الله ، وكونوا من الدنيا على حذر ، فإن الدنيا لو بقيت على أحد ، أو بقي عليها أحد ، لكانت الأنبياء أحقّ بالبقاء ، وأولى بالرضاء ، وأرضى بالقضاء ، غير أن الله تعالى خلق الدنيا للفناء ، فجديدها بالزوال ، ونسيمها مُضمحل ، وسرورها مُكفهر ، والمنزل ثلثة ^(١) ، والدار قُلعة ^(٢) ، فترزؤوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

٣٩ - دعاؤه وقد صبحته الخيل

ولما صبحته الخيل رفع يديه فقال :
 « اللهم أنت فتى في كل كرب ، ورجائي في كل شدة ، وأنت لي في كل أمرٍ نزل بي ثقةً وعدة ، كم من مَمٍّ يَضُمُّ في الفؤاد ، وتَقَلُّ في الحيلة ، وَيَتَذَلُّ فيه العديق ، ويشمت فيه العدو ، أنزلته بك ، وشكوته إليك ، رغبةً مني إليك عن سيواك ، ففرجته وكشفته ، فأنت ولي كلِّ نعمة ، وصاحب كلِّ حسنة ، ومنتهى كل رغبة » .

(١) الثلثة : مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض ، والنزول بالثلثة مخوف ، لأن من نزلها فهو على خطر إن جاء السيل جرفه . (٢) الدنيا دار قُلعة : أي انقلاص ، وهو على قُلعة أي رحلة ، ومنزلنا منزل قُلعة أي ليس بمستوطن ، أو لا تملكه أو لا تدرى متى تتحول عنه .

٤ - خطبته وقد دنا منه القوم

ولما دنا منه القوم دعا براحله فركبها ، ثم نادى بأعلى صوته :

« أيها الناس : اسمعوا قولي ، ولا تُعجلوني حتى أعطيكم ، بما لحقَّ لكم على ،
وحقِّي أعذر إليكم من مقدسي عليكم ، فإن قِيلَتم عذري ، وصَدَّقَتم قولي ، وأعطيتُموني
النِّصْفَ ، كنتم بذلك أسعد ، ولم يكن لكم على سبيل ، وإن لم تقبلوا مني العذر ، ولم
نطوا النصف من أنفسكم . فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ، ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ
عَلَيْكُمْ عُقْبَةً ، ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تَنْظُرُوا - إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ
وَهُوَ يَقُولُ الصَّالِحِينَ . »

فلما سمع أخواته كلامه هذا حُجِنَ وبكَيْنَ وبكى بكائه ، فارتفعت أصواتهن ، فأرسل
إليه أخاه العباس بن علي وعليًا ابنه ، وقال لهما : أَسْكِنَاهُنَّ ، فليمرى لَيْسَكُنَّ
بِكَاهُنَّ

٤١ - خطبة أخرى

فلما سكتن حمد الله وأثنى عليه ، وذكر الله بما هو أهله ، وصلى على محمد صلى الله عليه
وعلى ملائكته وأنبيائه ، ثم قال :

« أما بعد : فَأَنِيبُونِي فَاَنْظُرُوا مَنْ أَنَا ؟ ثم ارجعوا إلى أنفسكم وعائِبُواها ، فَاَنْظُرُوا
هل يَحِلُّ لكم قَتْلِي ، وإِنَّهَا كُرْهُتِي ؟ أَلَسْتُ ابْنَ بِنْتِ نَبِيِّكُمْ صلى الله عليه وسلم وَإِنَّ
وَصِيْرَ ، وَإِنَّ عَمْرًا وَأَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ بِاللَّهِ ، وَالْمُصَدِّقَ لِرَسُولِهِ بِمَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ؟
أَوْ لَيْسَ حِمْرَةُ سَيِّدِ الشَّهَدَاءِ عَمِّي ؟ أَوْ لَيْسَ جَعْفَرُ الشَّهِيدِ الطَّيَّارِ ذُو الْجَنَاحَيْنِ عَمِّي ؟
أَوْ لَمْ يَبَانِكُمْ قَوْلُ مُسْتَفِضٍ فِيكُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ لِي وَلِأَخِي :

هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ فإن صدقتموني بما أقول - وهو الحق - والله ما تمعدت كذباً مذعلت أن الله يمقت عليه أهل ، وَيَضْرِبُ به من اختلقه ، وإن كذبتوني فإن فيكم من إن سألتهم عن ذلك أخبركم - سَلُوا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيَّ ، أَوْ أَبَا سَعِيدٍ الْخُدْرِيَّ أَوْ سَهْلَ بْنَ سَعْدٍ السَّاعِدِيَّ ، أَوْ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ ، أَوْ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ، يخبروكم أنهم سموا هذه المقالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم لي ولأخِي ، أَمَا فِي هَذَا حَاجِزٌ لَكُمْ عَنْ سَفِكِ دَمِي ؟ .

ثم قال : « فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ هَذَا الْقَوْلِ ، اقْتَشِكُونْ أَمْرًا ^(١) مَا أَتَى ابْنَ بَنِي نَبِيكُمْ ؟ فَوَاللَّهِ مَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ابْنُ بَنِي نَبِيٍّ غَيْرِي مِنْكُمْ ، وَلَا مِنْ غَيْرِكُمْ ، أَنَا ابْنُ بَنِي نَبِيكُمْ خَاصَّةً ، أَخْبِرُونِي أَتَطْلُبُونَنِي بِقَتْلِ مَنْكُمُ قَتْلَهُ ، أَوْ مَالِ لَكُمْ اسْتَهْلَكْتَهُ ؟ أَوْ بِقِصَاصٍ مِنْ جِرَاحَةٍ ؟ »

فأخذوا لا يكلمونه ، فنَادَى يَا شَبَثُ بْنُ رَبِيعٍ ، وَيَا حَبَّارَ بْنَ أَبِي جَرٍّ ، وَيَا قَيْسَ بْنَ الْأَشْعَثِ ، وَيَا زَيْدَ بْنَ الْحَارِثِ ، أَلَمْ تَكْتَبُوا إِلَيَّ أَنْ قَدْ أَيْمَنْتُمُ النَّاسَ ، وَاعْتَصَرْتُمُ الْجَنَابَ ، وَطَمَّتِ الْجُلُومُ ، وَإِنَّمَا تَقْدَمُ عَلَى جَنْدِكَ بِجَنَدٍ ، فَأَقْبِلْ ؟ قَالُوا لَمْ نَفْعَلْ ، فَقَالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ بَلَى ، وَاللَّهِ لَقَدْ فَعَلْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِذَا كَرِهْتُمُونِي فِدَعُونِي أَنْصَرِفْ عَنْكُمْ إِلَى مَا تَأْتِي مِنَ الْأَرْضِ » . فَقَالَ لَهُ قَيْسُ بْنُ الْأَشْعَثِ : أَوَّلًا تَنْزِلُ عَلَى حَكَمِ بَنِي عَمَكٍ ؟ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَرْوُوكَ إِلَّا مَاتَعِبٌ ، وَلَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ مِنْهُمْ مَكْرُوهٌ . فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ : « أَنْتَ أَخُو أَخِيكَ ، أَتَرِيدُ أَنْ يَطْلُبَكَ بَنُو هَاشِمٍ بِأَكْثَرِ مِنْ دَمِ مُسْلِمٍ بَنِ عَقِيلٍ ؟ لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِيهِمْ يَدِي إِعْطَاءَ الْقَدِيلِ ، وَلَا أَقِرُّ إِقْرَارَ الْعَبِيدِ ، عِبَادَ اللَّهِ ، إِنِّي عَذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُؤُنِي ، أَعُوذُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ » ، فَأَقْبَلُوا يَرْحَمُونَ نَحْوَهُ .

(١) أمرا منصوب على نزع الخلقص ، أي اقتشكون في أمر ، وما زائدة ، وأنى ابن بنت نبيكم

٤٢ - خطبة زهير بن القين

فلما زحفوا قبَّله خرج إليهم زهير بن القين على فرس له ذَنُوبٌ ^(١) شاكٍ ^(٢)
في السلاح فقال :

« يا أهل الكوفة ، نَذَارٌ لَكُمْ من عذابِ الله نَذَارٌ ، إنَّ حقاً على السلم نصيحة أخيه
السلم ، ونحن حتى الآن إخوة ، وعلى دين واحد ، وملة واحدة ، ما لم يقع بيننا وبينكم
السيف ، وأنتم النصيحة منا أهل ، فإذا وقع السيف انقطعت المِصْنَةُ ^(٣) ، وكنا أمة وأنتم
أمة ، إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، لينظر ما نحن وأنتم
عاملون ، إنا ندهوكم إلى نصرهم ، وخِذْلان الطاغية عبيد الله بن زياد ، فإنكم لا تَذَرُكونَ
منهما إلا بسوء ، عُزِّرَ سلطانهما كُلُّهُ ، لَيْسَ لَنَا أعينكم ^(٤) ، ويقطعان أيديكم وأرجلكم
وَيُتَمَلَّانِ بِكُمْ ، ويرفانكم على جذوع النخل ، ويقتلان أمانتكم وقُرَّاءكم ؛ أمثال
حُجْر بن عَدِيٍّ ^(٥) وأصحابه ، وهاني بن عروة وأشباهه . »

(١) الذنوب : الفرس الوافر الذنب . (٢) يقال رجل شاك السلاح وشاك في السلاح (بتشديد
الكاف فيها) وهو اللابس السلاح التام ، من شك في السلاح أى دخل ، شك فيه (كرد) شكاً أى لبسه
تماماً فلم يدع منه شيئاً ، ويقال : رجل شاكك السلاح ، وشاك في السلاح (كراض) وهو
ذو الشوكه والحل في سلاحه ، والشاكك : من شك الرجل يشاك شوكاً (كنام نوما) أى ظهرت شوكه
وحده - والشوكه : حدة السلاح - والشاكى مقلوب من شاكك ، ويقال أيضاً رجل شاك السلاح (بضم
الكاف) فإن أردت معنى فاعل قلت شك (كراض) وإن أردت معنى فعل (كفرج) قلت شك (بضم
الكاف) وهو مثل جرف حار (كراض) وحار (كثار) كما يقال رجل مال وقال (بالقسم) من المال والثوال
وإنما هو مائل ونائل . (٣) المِصْنَةُ : القلادة ، أى تفرقت وحدتنا ، وانقرط عقد جماعتنا .
(٤) سئل عنه : فقأما بحيلة محمداً .

(٥) هو حجر بن عدي بن جبلة الكلبي من كبراء الشيعة بالكوفة ، وذلك أن زياد بن أبيه لما جمعت له
الكوفة والبصرة بلغه أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية في أمره
فكتب إليه معاوية أن شدة في الحديدي ثم أحمله إلى ، فشده في الحديد وحمل إلى معاوية ، وأشهد عليه شهوداً -

فسبّوه وأثنوا على عبيد الله بن زياد ، ودعوا له ، وقالوا : والله لا نبرح حتى تقتل صاحبك ومن معه ، أو نثبت به وبأصحابه إلى الأمير عبيد الله سليماً .

فقال لهم : « عباد الله ، إن ولد فاطمة رضوان الله عليها أحق بالود والنصر من ابن سُمَيَّة ، فإن لم تنصروهم ، فأعيذك بالله أن تقتلهم ، فخلوا بين هذا الرجل وبين ابن عمه يزيد بن معاوية ، فلمصرى إن يزيد لا يرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين » .

فرماه شمر بن ذى الجوشن بسهم وقال : « اسكت ، أسكت الله نَأْتَتَكَ ^(١) » ، أبرمتنا بكثرة كلامك » فقال له زهير : « يابن البَوَّال على عَقِيْبِهِ ، ما إياك أخاطب ، إنما أنت بهيمة ، والله ما أظنك تُحْكِمُ من كتاب الله آيتين ، فأبشِّر بالخزى يوم القيامة والمذابح الأليم » فقال له شمر : « إن الله قاتلك وصاحبك عن ساعة » قال : « أقبالوت تخوفنى ؟ فوالله لَمَمُوتَ معه أحبُّ إلى من الخلد معكم » .

ثم أقبل على الناس رافعاً صوته فقال : « عباد الله ، لا يَبْرُكْ نَكَمٌ من دينكم هذا الجلف الجاني وأشباهه ، فوالله لا تتأَلَّ شفاعَةُ محمد صلى الله عليه وسلم قوماً هَرَّاقُوا دماءَ ذُرِّيَّتِهِ وأهل بيته ، وقتلوا من نصرهم ، وذَبَّ عن حريمهم » .

فناداه رجل فقال له : « إن أبا عبد الله يقول : « أَقْبِلْ ، فلمصرى لئن كان مؤمن آل فرعون نصح لقومه ، وأبلغ في العطاء ، لقد نصحت لهؤلاء ، وأبليت لو نفع النصيح والإبلاغ » .

— أنه غلب الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولعن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجعل إليه الجموع يدمر إلى نكث البيعة وعلع معاوية ، وزعم أن هذا الأمر لا يصلح إلا في آل ابن طالب ، وحمل معه كبار أصحابه ، فكانوا أربعة عشر رجلاً ، فلما قدموا على معاوية شفع في بعضهم فخل سبيلهم ، وقال رسول معاوية لباقيين إننا قد أمرنا أن نعرض عليك البراءة من حل واللعن له ، فإن فطمت تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرموا من هذا الرجل نخل سبيلكم ، فأبوا وقالوا بل نلوا وتبرأ من تبرأ منه ، قتلوا وقتل حجر وستة معه ، وكان ذلك سنة ٤١ هـ . (١) التامة : الصوت .

٤٣ - خطبة الحر بن يزيد

ولما زحف عمر بن سعد قال له الحر بن يزيد : « أصلحك الله : مقاتل أنت هذا الرجل ؟ » قال : « إى والله قتالا أيسره أن نسقط الرؤس ، وتطيح الأيدي » قال : « أفما لكم في واحدة من الخصال التي عرض عليكم رضا ؟ » قال عمر : « أما والله لو كان الأمر إلى لفعلت ، ولكن أميرك قد أبى ذلك » .

ثم ضرب الحر فرسه ، ولحق بالحسين عليه السلام وانحاز إليه ، واستقدم أمام أصحابه ثم قال :

« أيها القوم : ألا تقبلون من حسين خصة من هذه الخصال التي عرض عليكم ، فيصافىكم الله من حربه وقتاله ؟ قالوا : هذا الأمير عمر بن سعد فكلمته ، فكلمته بمنزل ما كلمه به من قبل ، وبمثل ما كلم به أصحابه » فقال عمر : « قد حست لو وجدت إلى ذلك سبيلا فعلت » .

قال : « يأهل الكوفة : لائسكم المبل والمير^(١) إذ ذموموه ، حتى إذا أناكم اسلمتموه^(٢) ، وزعمتم أنكم قاتلو أنفسكم دونه ، ثم عدوتم عليه لتقتلوه ، أمصصتم بنفسه ، وأخذتم يكلمه^(٣) ، وأحطتم به من كل جانب . فتمتموه التوجه في بلاد الله المريضة ، حتى يأمن ويأمن أهل بيته ، وأصبح في أيديكم كالأسير لا يملك لنفسه نفعا ، ولا يدفع ضرا ، وحلائموه^(٤) ونساءه وأصبيته^(٥) وأصحابه عن ماء الفرات الجاري ،

(١) المبل : التكل ، هلك أمه : كفرح ثكلته وفقدته ، والمير والمير (كسب وقل) سخنة في العين

تبيها ، عبرت العين كفرح جرى دمها ، يقال لأمه المبل ، ولأمه المير ، والمير : دماء عليه .

(٢) خذلتموه . (٣) الكظم : غمر النفس . (٤) سلاه عن الماء تحلييا وتحلة : طرده ومنه .

(٥) مصفر صبغة حل غير قياس .

الذي يشر به اليهودي والمجوسي والنصراني ، وتمرَّغ فيه خنازيرُ السواد وكلابُهُ ، وهام
قد صرعهم العطش ، بثما خلَقتم محمداً في ذريته ، لأسقاكم الله يوم الظلما إن لم تتوبوا ،
وتنزعوا عما أنتم عليه ، من يومكم هذا ، في ساعتكم هذه .

ثم نشب القتال بين الفريقين ، واستأثرت أصحاب الحسين في القتال حتى فنوا ، وقتل
الحسين رضوان الله عليه . قتله سنان بن أنس (وكان قتله بالطَّف^(١)) يوم عاشوراء
سنة ٤٠ هـ) وأمر ابن سعد أصحابه أن يوطنوا خيلهم الحسين ، فوطنوه بخيلهم ، ثم حل
النساء ورأسه إلى يزيد بن معاوية بدمشق .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٨ إلى ٢٧٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٨٦ ، وزهر الآداب ١ : ٧١) .

(١) الطَّف : أرض من ضاحية الكوفة في طريق البرية ، وقال عبد الله بن الأحمر من قصيدة :

فأضحي هـ حسين هـ الرماح درينة	وغودر مسلوبا لدى الطف ثاوية
فيا ليتني إذ ذاك كنت شهادته	فصاريت عنه الشاتين الأمادية
سقى الله قبراً ضمن المجد والحق	ببرية الطف التمام التوادية

طلب التوايين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة ، وامتدوا الاجتماع بالنخيلة للمسير إلى أهل الشام لطلب بدم الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مقتله تلاقوا بالتلاوم والتندم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأ كبيراً بدعائهم إياه إلى النصرة وتركهم إجابته ، ومقتله إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأوا أنه لا يُنسل عارهم والإثمُ عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه وتابوا بما فرط منهم في ذلك « فسئوا التوايين » وفزعوا بالكوفة إلى خمسة نفر من رهوس الشيعة : إلى سليمان بن صرد الخزاعي ، وكانت له حبة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وإلى المسيب بن نجبة الفزاري ، وإلى عبد الله بن سعد ابن نفيّل الأزدي ، وإلى عبد الله بن وال التيمي ، وإلى رفاعة بن شداد البجلي ، ثم إن هؤلاء النفر اجتمعوا في منزل سليمان بن صرد ، ومهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم ، فبدأ المسيب بن نجبة بالكلام فتكلم :

٤٤ — خطبة المسيب بن نجبة الفزاري

حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد فإننا قد ابتلينا بطول العمر ، والتمرض لأنواع القتن ، فنزغب إلى ربنا ألا يحطلنا من يقول له غدا : (أَوَلَمْ نُمَتِّعْكُمْ مَائِدَتَكَرُّمٍ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ) فإن أمير المؤمنين قال : « العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة » وليس فينا رجل إلا وقد بلغه ، وقد كنا مُتَمَرِّمينَ بتزكية أنفسنا ، وتقرِيطِ شيعتنا ، حتى

بِلاَهِ اللَّهِ أَخْيَارَنَا ، فَوَجَدْنَا كَافِرِينَ فِي مَوَاطِنٍ مِنْ مَوَاطِنِ ابْنِ ابْنَةِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ بَلَغْتَنَا قَبْلَ ذَلِكَ كِتَابُهُ ، وَقَدِمَتْ عَلَيْنَا رِسَالُهُ ، وَأَعْذَرْنَا إِلَيْنَا بِأَلْنَا نَصْرَهُ عَوْدًا وَبَدْءًا ، وَعِلَانِيَةً وَسِرًّا ، فَبَغِلْنَا عَنْهُ بِأَفْسَا ، حَتَّى قُتِلَ إِلَى جَانِبِنَا ، لَأَنْحَنَ نَصْرُنَاهُ بِأَيْدِينَا وَلَا جَادِلُنَا عَنْهُ بِأَلْسِنَتِنَا ، وَلَا قَوِيْنَاهُ بِأَمْوَالِنَا ، وَلَا طَلَبْنَا لَهُ النَّصْرَةَ إِلَى عَشَائِرِنَا ؛ فَمَا عُدْرُنَا إِلَى رَبِّنَا ، وَعَدَدَ لِقَاءِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقَدْ قُتِلَ فِينَا وَهُوَ وَحْبِيهِ وَذَرِيَّتُهُ وَنَسْلُهُ ، لَا وَاللَّهِ لَا عُدْرَ دُونَ أَنْ تَقْتُلُوا قَاتِلَهُ وَالْمَوَالِينَ عَلَيْهِ ، أَوْ تُقْتَلُوا فِي طَلَبِ ذَلِكَ ؛ فَصَبَى رَبِّنَا أَنْ يَرْضَى هُنَا عِنْدَ ذَلِكَ ؛ وَمَا أَنَا بِدَلِيقَانِهِ لِمَقُوبَتِهِ بِأَمْنٍ ، أَيُّهَا الْقَوْمُ وَلَوْ أَعْلَمُ عَلَيْكُمْ رَجُلًا مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ لَا يَدُلُّكُمْ مِنْ أَمِيرٍ تَفْزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَرَّابِعَةٌ تَحْفُونَ بِهَا ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ .

فَبَدَرَ^(١) الْقَوْمَ رِفَاعَةُ بْنُ شَدَادٍ بَعْدَ اللَّيْلِ الْكَلَامَ .

٤٥ - خطبة رفاعه بن شداد

نَحْمَدُ اللَّهَ وَأُثْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَعْدُ : فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَاكَ لِأَصَوِّبِ الْقَوْلَ ، وَدَعَاكَ إِلَى أَرْشَادِ الْأُمُورِ ، بَدَأَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَالتَّنَافُؤِ عَلَيْهِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَدَعَاكَ إِلَى جِهَادِ الْفَاسِقِينَ وَإِلَى التَّوْبَةِ مِنَ الذَّنْبِ الْعَظِيمِ ، فَسَمَّوْا مَعَكُمْ ، مُسْتَجَابٌ لَكُمْ ، مَقْبُولٌ قَوْلُكُمْ : قُلْتُ وَلَوْ أَمَرَكُمُ رَجُلًا مِنْكُمْ تَفْزَعُونَ إِلَيْهِ ، وَتَحْفُونَ بِرَأْيِهِ ، وَذَلِكَ رَأْيِي ، قَدْ رَأَيْتُنَا مِثْلَ الَّذِي رَأَيْتُ ، فَإِنْ تَكُنْ أَنْتَ ذَلِكَ الرَّجُلُ تَكُنْ عِدَدُنَا مَرَضِيًّا ، وَفِينَا مُتَنَصِّحًا ، وَفِي جَاهَتِنَا مُحِبًّا ، وَإِنْ رَأَيْتُ (وَرَأَى أَصْحَابُنَا ذَلِكَ) وَلَيْتُنَا هَذَا الْأَمْرَ شَيْخَ الشَّيْخَةِ صَاحِبَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَذَا السَّابِقَةِ وَالْقَدِيمِ سُلَيْمَانَ بْنِ صُرَدٍ ، الْحَمْدُ فِي بَاسِهِ وَدِينِهِ ، وَالْمَوْتُوقَ بِحُزْمِهِ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ . »

ثم تكلم عبد الله بن والٍ ، وعبد الله بن سعد ، فحيداً ربهما وأثنيا عليه ، وتكلماً
بشحو من كلام رفاة بن شداد ، فذكر السيب بن نجبة بفضل ، وذكر سليمان
ابن سرد بسافته ورضاهما بتوليته ، فقال المسيب بن نجبة : « أصبتم ووقتم ، وأنا أرى
مثل الذي رأيتم ، فولوا أمركم سليمان بن سرد » .

٤٦ - خطبة سليمان بن سرد

قال حميد بن مسلم : والله إني لشاهد بهذا اليوم يوم ولّوا سليمان بن سرد^(١) وإنا
يومئذ لأكثر من مائة رجل من فرسان الشيعة وجوههم في داره ، قال : فتكلم سليمان
فشدد ، وما زال يردّد ذلك القول في كل جمعة حتى حفظته ، بدأ فقال :

« أئني على الله خيرًا ، وأحد آلاءه وبلاءه ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا
رسول الله ، أما بعد : فإني والله غائف ألا يكون آخرنا إلى هذا الدهر (الذي نكّدت
فيه المديشة ، وعظمت فيه الرزية ، وشمل فيه الجورُ أولى الفضل من هذه الشيعة) ليأهو
خيرٌ ، إنا كنا نمدُّ أعناقنا إلى قدوم آل نبينا ، ونُمنّيهم النصر ، ونُعشّهم على القدوم ؛
فلما قدّموا ونَبينا وَعَجَزْنَا وَأَذْهَبْنَا وَتَرَبَّعْنَا واعتظرونا ما يكون حتى قُتِلَ فينا ولَدِينَا
وَلَدُ نَبِينَا وَسَلَاتُهُ وَهَضَارُهُ وَبَضْعَةٌ^(٢) من لحمٍ ودمٍ ، إذ جبل يستمرخُ ويسأل
النصف^(٣) فلا يُعطاه ، انخذه القاسقون غَرَضًا لِقَبْلِ وَدَرِيَّةٍ^(٤) لرماح ، حتى أفضدوه^(٥)
وَعَدَّوْا عليه فسلبوه ، ألا انهضوا فقد سَخِطَ ربكم ، ولا ترجعوا إلى الحلائل^(٦) والأبناء
حتى يرضى الله ، والله ما أظنه راضيًا دون أن تُناجزوا من قتله أو تُبَيِّروا^(٧) ، ألا لاتهابوا

(١) وقد سُمي أمير الترابين . (٢) البضعة بالفتح وقد تكسر : القطعة من اللحم .

(٣) الإنصاف . (٤) سهول عن دريئة ، والدريئة : الخلقة يحتمل الطعن والرى عليها .

(٥) أفضد اللحم : أصاب قاتل مكانه ، وأفضد فلانًا : طمعت ظم بضمه .

(٦) جمع حليلة : وهي الزوجة . (٧) يار يور يوارا : هلك . وأباره أملكه ، أي تهلكوا أنفسهم .

الموت ، فوالله ما هابه امرؤ قط إلا ذل ، كونوا كالآدلى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : « إنكم ظلمتم أنفسكم بما أخذكم المجمل فتوبوا إلى باريكم فاقبلوا أنفسكم ذلك خير لكم عند باريكم » فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب والله ، ومدوا الأعناق ، ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دُعيت إلى مثل ما دُعي القوم إليه ؟ اشهدوا السيوف ، وركبوا الأسته ، وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ^(١) حتى تدعوا وتسقفوا .

٤٧ - خطبة خالد بن سعد بن نفيل

قام خالد بن سعد بن نفيل فقال : « أما أنا فوالله لو أعلم أن قتلى نفسى يُخرجنى من ذنبى ، ويرضى عني ربى لقتلتها ، ولكن هذا أمر به قوم كانوا قبلنا ونهينا عنه ، فأشهد الله ومن حضر من المسلمين أن كل ما أصبحت أملكه سوى سلاحى الذى أقاتل به عدوى صدقة على المسلمين أقوىهم به على قتال القاسطين ^(٢) » .

وقام أبوالمعتز حنش بن ربيعة السكفاني ، فقال : « وأنا أشهدكم على مثل ذلك » فقال سليمان بن صرد : « حبسكم ، من أراد من هذا شيئاً فليأت بالله عبد الله بن وال التميمى نيم بكر بن وائل ، فإذا اجتمع عنده كل ما تريدون إخراجه من أموالكم ، جهزنا به ذرى الخلة ^(٣) والسكنة من أشياءكم » .

(١) اسم الخيل الذى تربط فى سبيل الله قتال بمعنى مقبول ، أو مصدر سمي به كالمراطة ، أو جمع ويبط

ضيل بمعنى مقبول . (٢) الجائرين ، قسط كيطس قسوطاً : جاز وعذل عن الحق .

(٣) الخلة : الحاجة والقرقر ، وقى للمثل : « الخلة تدعو إلى السلة » بفتح السين أى إلى الاستلاب والسرقة .

٤٨ - خطبة سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان بالمداين كتاباً يستنهض فيه هم إخوانه هناك ، ويدعوهم أن يجذوا ويستمدوا ، وضرب لهم غرة ربيع الآخر سنة ٦٥ أجلاً يلقونه فيه ، والنخيلة موطناً يوافونه إليه ، فبعث سعد إلى من كان بالمداين من الشيعة ، فقرأ عليهم كتاب سليمان بن صرد ، ثم إنه حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإنكم قد كنتم بجمعين مُزَمَّعين على نصر الحسين ، وقاتل عدوه ، فلم يَفْجَأْكم أولُ من قتل ، والله مُتَّبِعُكم على حُسن النية ، وما أجمعتم عليه من النصر أحسن الثوبة ، وقد بعث إليكم إخوانكم يستجدونكم ويستمدونكم ، ويدعونكم إلى الحق وإلى ما ترجون لكم به عند الله أفضل الأجر والحظ ، فإذا ترون ؟ وماذا تقولون ؟ » .

فقال القوم بأجمعهم : « نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأيتنا في ذلك مثل رأيهم » .

٤٩ - خطبة عبد الله بن الحنظل الطائي

فقام عبد الله بن الحنظل الطائي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« أما بعد فإننا قد أجبنا إخواننا إلى ما دعونا إليه ، وقد رأينا مثل الذي قد رأوا ، فسرَّحتني إليهم في الخيل » .

فقال له : « رويدا لا تمَّجَل ، استمدوا لعدو ، وأعدوا له الحرب ، ثم نسير ونسير » وكتب سعد إلى ابن صرد بإجابة دعوته ، وأتهم في انتظار أمره .

٥٠ - خطبة عبيد الله بن عبد الله المري

وحدث رجل من مؤبنة قال : « ما رأيت من هذه الأمة أحداً كان أبلغ من عبيد الله بن عبد الله للرأي في منطق ولا عظة ، وكان من دُعاة أهل مصر زمان سليمان ابن مرد ، وكان إذا اجتمعت إليه جماعة من الناس فوعظهم ، بدأ بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول :

أما بعد : فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خلقه بنبوته ، وخصه بالفضل كله ، وأعزكم باتباعه ، وأكرمكم بالإيمان به ، فحق به دماءكم المسفوكه ، وآمن به سبلكم للخوفة : « وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا^(١) حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ ، فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » فهل خلق ربكم في الأولين والآخرين أعظم حقاً على هذه الأمة من نبيها ؟ وهل ذرية أحد من النبيين والمرسلين أو غيرهم أعظم حقاً على هذه الأمة من ذرية رسولها ؟ لا والله ما كان ولا يكون ، هـ أنتم أَلَمْ تَرَوْا ويبلسكم ما أجترتم^(٢) إلى ابن بنت نبيكم ؟ أما رأيتم إلى انتهاك القوم حرمة ، واستضعافهم وحدته ، وتريمهم^(٣) إياه بالدم ، وتجرارهموه^(٤) على الأرض ؟ لم يراقبوا فيه ربهم ولا قرابتهم من الرسول صلى الله عليه وسلم ! اتخذوه للنبيل غرضاً ، وغادروه للضباع جزراً^(٥) ، فقه حيناً من رأى مثله ! والله حسين بن علي ! ماذا غادروا به ؟ ذا صدق وصبر ، وذا أمانة ونجدة وحزم ، ابن أول المسلمين إسلاماً ، وابن بنت رسول رب العالمين ، قَلَّتْ حُكَاةُ^(٦) ، وكثُرَتْ عُدَاةُ^(٧) حوله ، فقتله عدوه وخذله وليه ، فويل للقاتل ، وملامة للغافل ، إن الله لم يحمل لقاتله حجة ، ولا لخلافه مئذنة ، إلا أن ينصح الله في التوبة ، فيجاهد القاتلين ، ويتباذل للقاسطين ، فمضى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويُقِيلَ الْعَثْرَةَ

(١) الشفا : حرف كل شيء . (٢) ارتكب واقترب . (٣) رمله : لطمه بالدم .

(٤) تجرارهموه : جمع عاد ، وهو العدو . (٥) القضا : قتلوا .

إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المُحِلِّين والمارقين ، فإن قُتِلْنَا فما عند الله خير للأبرار ، وإن ظَهَرْنَا رددنا هذا الأمر إلى أهل بيت نبينا .

قال : « وكان يمد هذا الكلام علينا في كل يوم حتى حفظه عاصتنا » .

وكان الشيعة بالكوفة منذ قتل الحسين رضى الله عنه (سنة ٦١ هـ) يَجِدُونَ في جمع آله الحرب والاستعداد للقتال ودعاء الناس في السر من الشيعة وغيرها إلى الطلب بدمه حتى كثر تبعمهم ، وكان الناس إلى أتباعهم بعد هلاك يزيد بن معاوية (في ٤ ربيع الأول سنة ٦٤ هـ) أسرع منهم قبل ذلك .

وقد اختار بن أبى عبيد الثقفى الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ ، وقد اجتمعت رهوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد ، فليس يمدلونه به ، فكان المختار إذا دُعا إلى نفسه وإلى الطلب بدم الحسين ، قالت له الشيعة : « هذا سليمان ابن صرد شيخ الشيعة قد افتادوا له واجتمعوا عليه » فأخذ يقول للشيعة : « إني قد جئتكم من قِبَل المهدي محمد بن علي (ابن الحنفية) مؤتمناً مأموناً ، مُنْتَجِياً^(١) ووزيراً » فزال بهم حتى انشبت إليه طائفة تُعظمه وتُحببه وتنتظر أمره ، وعظُم الشيعة مع سليمان بن صرد .

وقد عبد الله بن يزيد الأنصاري من قِبَل عبد الله بن الزبير أميراً على الكوفة على حربها وتفرُّها ، وقدّم معه إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التيمي أميراً على خراجها (وذلك بعد مُقدّم المختار بثمانية أيام) وكان سليمان بن صرد وأصحابه يريدون أن يَنْبُؤوا بالكوفة ، ونمى إلى عبد الله بن يزيد اعتزام الشيعة الخروج ، فخرج حتى صمد اللبى ثم قام في الناس .

٥١ - خطبة عبد الله بن يزيد الأنصاري

حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فقد بلغتني أن طائفة من أهل هذا المصر أرادوا أن يخرجوا علينا ، فسألت عن الذي دعاهم إلى ذلك ما هو ؟ فقيل لي زعموا أنهم يطلبون بدم الحسين بن علي ، فرحم الله هؤلاء القوم ، قد والله دُلْتُ على أما كنهم ، وأمرت بأخذهم ، وقيل ابدأهم قبل أن يبدؤوك ، فأبيت ذلك ، فقلت إن قاتلوني قاتلتهم ، وإن تركوني لم أطلبهم ، وعلام يقاتلونني ؟ فوالله ما أنا قاتلت حبيبا ولا أنا من قاتله ، ولقد أصيبتُ بمقتله رحمة الله عليه ، فإن هؤلاء القوم آمنون ، فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين ، لِيَسِيرُوا إلى من قاتل الحسين فقد أقبل إليهم ، وأنا لهم على قاتله ظهير^(١) ، هذا ابن زياد قاتلُ الحسين وقاتلُ خياركم وأمانلكم ، قد توجه إليكم عهدُ الماهد به^(٢) على مسيرة ليلة من جسر منبج^(٣) ، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجملوا بأسكم بينكم ، فيقتل بعضكم بعضا ، ويسفك بعضكم دماء بعض ، فيا قاكم ذلك المدوغدا وقد رَفَقْتُمْ^(٤) ، وتلك والله أمنيّةُ عدوكم ، وإنه قد أقبل إليكم أعدى خلق الله لكم ، مَنْ وَلِيَ عليكم هو وأبوه سبع سنين ، لَا يُقْلَمَانِ عن قتل أهل الصفاق والدين ، هو الذي قتلكم ، وَمِنْ قَبْلِهِ أَتَيْتُمْ ، والذي

(١) معين . (٢) وذلك أن حبيب الله بن زياد لما حاجت الفتنة بالبصرة بعد وفاة معاوية الثاني (سنة ٦٤ هـ) لحق بالشام ، وكان مروان بن الحكم قد أراد أن يبايع ابن الزبير لما رأى من إطباق الناس على مبايعته ولجأ بهم له ، وبلغ ابن زياد ذلك ، فقال له : استحييت لك بما تريد ، أنت كبير قرشي وسيدنا تصنع ماتصنعه ! وشد من عزيمته حتى نهض في طلب الخلافة وتمت له فبوجع بها ، فلما استوثقت له الشام بالطاعة يمت جيشا إلى الرقاق عليه ابن زياد ، وجعل له حين وجهه إلى الرقاق ماغلب عليه ، وأمره أن ينهب الكوفة إذا هو غفر بأهلها ثلاثا . (٣) بين حلب والفرات . (٤) ضغمت .

قتل من تشارون بدمه قد جاءكم ، فاستقبلوه بحمدكم وشوكتكم ، واجعلوها به ولا تجعلوها بأنفسكم ، إني لم آلكم نصحا^(١) ، جمع الله لنا كلمتنا ، وأصلح لنا أئمتنا .

٥٢ - خطبة إبراهيم بن محمد بن طلحة^(٢)

قال إبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أيها الناس : لا يفرتنكم من السيف والنفس^(٣) مقالة هذا للداهن للوادع ؛ والله لن يخرج علينا خارج لنقتله ، ولن استيقنا أن قوما يريدون الخروج علينا ، لناخذن الوالد بولده ، والمولود بوالده ، ولناخذن الحميم^(٤) بالحميم ، والمريف^(٥) بما في عرفاته ، حتى يدينوا الحق ، ويدخلوا الطاعة . »

٥٣ - رد المسيب بن نجيبة

فوثب إليه المسيب بن نجيبة قطع عليه منطقته ، ثم قال :

« يا بن الناكثين^(٦) : أنت تهددنا بسيفك وفشرك ؟ أنت والله أذل من ذلك ، إنا لانلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك^(٧) وجدك ، والله إني لأرجو أن لا يخرجك الله من بين ظهراني أهل المصر حتى يتلثوا بك جدك وأباك ، وأما أنت أيها الأمير ، فقد

(١) أي لم أنصحكم . (٢) مات سنة عشر ومائة عن أربع وسبعين سنة ، وكان يسمى أسد قريش .

(٣) قتلهم ، والمراد هنا القوة والأخذ بالثقة . (٤) حميمك : قريبك الذي تهتم لأمره .

(٥) المريف : رئيس القوم ، سمي لأنه عرف بملك ، أو القريب ، وهو دون الرئيس ، عرف

ككرم وغرب عراة صار حريفا . (٦) يشير إلى ما كان من جهة طلحة بن عبيد الله إذ بايع الإمام

علياً ثم نكث بيته ، وقد اعتذر عن ذلك بأنه بايع والسيف على عنقه . (٧) قتل محمد بن طلحة يوم

الجميل مع أبيه ومعه على ، فقال هذا رجل قتله بره بأبيه وطاعته .

قلت قولاً سديداً ، إني والله لأظن من يريد هذا الأمر^(١) ، مستنصحا لك ، وقابلاً قولك .

فقال إبراهيم بن محمد بن طلحة : « إني والله ليقتلن وقد أذهنتم أعلن » .

٥٤ - رد عبد الله بن وال التيمي

فقام إليه عبد الله بن وال التيمي ، فقال :

« ما اعتراضك يا أخا بني تميم بن مرة فيما بيننا وبين أميرنا؟ فوالله ما أنت علينا بأمر ، ولا لك علينا سلطان ! إنما أنت أمير الجزية ، فأقبل على خراجك ، فلمره الله لن كنت مفسداً ، ما أفسد أسرة هذه الأمة إلا والدك وجدك لنا كنان ، فكانت بهما اليدان^(٢) وكانت عليهما دائرة السوء » .

ثم أقبل المسيب بن نجبة ، وعبد الله بن وال على عبد الله بن يزيد فقالا :

« أما رأيك أيها الأمير فوالله إنا نرجو أن تكون به عند الحامة محموداً ، وأن تكون عند القدي عتيقاً واعتريت مقبولا » .

ثم نزل عبد الله بن يزيد ودخل .

فلما استهلّ هلال ربيع الآخر سنة ٦٥ شَخَصَ سليمان بن صرد في وجوه أصحابه ، وقد كان واعد أصحابه عامة الخروج في تلك الليلة للمسكر بالثخيلة ، وأقام بها ثلاثاً يبعث ثقافته من أصحابه إلى من تخلف عنه يذكّرهم الله وما أعطوه من أنفسهم ، فقام إليه المسيب ابن نجبة ، فقال : « رحمك الله إنه لا ينفعك الكاره ، ولا يقاتل معك إلا من أخرجته

(١) أي المطلب بهم الحسين رضي الله عنه . (٢) تقول العرب : كانت به اليدان ، أي فعل الله به

ما يقول لي ، ومرقوم من الخوارج يقوم من أصحاب علي وهم يدعون عليهم ، فقالوا : يكمل اليدان أي حاق بهم ما يدعون به ويطلبون أيديكم .

النية ، فلا تنتظرون أحدا ، واكش^(١) في أمرك قال : « فإنك والله لنعميما رأيت » فقام سليمان بن صرد في الناس متوكئا على قوس له عربية فقال :

٥٥ - خطبة سليمان بن صرد

« أيها الناس : من كان إنما أخرجه إرادة وجه الله ونواب الآخرة ، فذلك منا ونحن منه ، فرحة الله عليه حيا وميتا . ومن كان إنما يريد الدنيا وحرثها^(٢) ، فوالله ما نأني قيتا نستحيته ، ولا غنية تقنمها ، ما خلا رضوان الله رب العالمين ، وما معنا من ذهب ولا فضة ، ولا خز ولا حرير ، وما هو إلا سيوفنا في عواتقنا ، ورماحنا في أكفنا ، وزاد قدر البائنة^(٣) إلى لقاء عدونا ، فمن كان غير هذا يلوى فلا يعصبتنا . »

٥٦ - خطبة صخير بن حذيفة بن هلال

فقام صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني فقال :

« آتاك الله رشدك ، ولقاك حبكتك ، والله الذي لا إله غيره مالنا خير في حبة من الدنيا همته ونيتته . أيها الناس : إنما أخرجتنا التوبة من ذنبتنا والطلب بدم ابن ابنة نبينا صلى الله عليه وسلم ، ليس معنا دينار ولا درهم ، إنما تقدم على حد السيوف وأطراف الرماح » فتنادى الناس من كل جانب : « إنا لا نطلب الدنيا وليس لها خرجنا . »

٥٧ - ما أشار به عبد الله بن سعد

وكان الرأي بادي الأمر أن يسيروا إلى عبيد الله بن زياد ، فقال له عبد الله بن سعد ، وعنده رموس أصحابه جئوس حوله :

(١) أسرع ، كش ككرم كاشة فهو كش (كشهم) وكيش ، أي سريع .

(٢) أي كسبها ومتاعها . (٣) ما يتلغ به .

« إني قد رأيت رأياً ، إن يكن صواباً فإله وفق ، وإن يكن ليس بصواب فإني قتل ، فإني ما آلوكم ونفسي نعضاً ، خطأ كان أم صواباً ، إنما خرجنا نطلب بدم الحسين وقتلة الحسين كلهم بالكوفة ، منهم عمر بن سعد بن أبي وقاص ، ودهوس الأربع^(١) وأشراف القبائل ، فإني نذهب هاهنا ونُدع الأختال والأوتار^(٢) ؟ » .

فقال سليمان بن صرد : فإذ ترون ؟ فقالوا : « والله لقد جاء برأى ، وإن ما ذكر لكم ذكر ، والله ما نلقى من قتلة الحسين - إن نحن مضينا نحو الشام - غير ابن زياد ، وما طلبتنا إلا هاهنا بالمصر » .

٥٨ - رأى ابن صرد

فقال سليمان بن صرد : « لكن أنا ما أرى ذلك لكم ، إن الذي قتل صاحبكم ، ومبى الجنود إليه ، وقال لا أمان له عندى دون أن يستسلم فأفضى فيه حكى ، هذا الفاسق ابن الفاسق ، ابن مَرْجانة ، عبيد الله بن زياد ، فسبوا إلى عدوك على اسم الله ، فإن يظهر الله عليه ، رجونا أن يكون من بعده أهون شوكة منه ، ورجونا أن يدين لكم من وراءكم من أهل مصركم في عافية ، فتنتظرون إلى كل من شريك في دم الحسين فتقاتلونه ولا تَشْمُوا^(٣) ، وإن تَشْتَهَدُوا فإنما قاتلم للجليلين ، وما عند الله خير للأبرار والصدّيقين ، إني لأحب أن تجعلوا حدكم وشوكتكم بأول المحللين القاسطين ، والله

(١) كانت الكوفة مقسمة أربعة أقسام لكل ربع رئيس : ربع تميم وهمدان ، وربع ويمة وكنتة ، وربع منج وأسد ، وربع أهل المدينة ، وتقسيم المدينة أرباعاً لا يزال إلى اليوم في بعض بلاد القطر المصرى ، وقد كانت مدينة القاهرة قبل اليوم مقسمة ثمانية أقسام كل قسم ثمن ، وصحفت العامة فقالوا « ثمن » ، وأطلق عليه بالتركية قره قول (كراكون) ويعنى أن يستعمل له كلمة غفر « ككتب »

(٢) الأختال : جمع قتل بالكسر ، وهو العدو والمقاتل ، والأوتار : جمع وتر ، الجناية والقتل ، أى وقد أعدنا وفوى ثاراتنا . (٣) شمه : كضرب ظلمه .

لو قاتلتم غداً أهل مصركم ، ما عدتم رجل أن يرى رجلاً قد قتل أخاه وأباه وحميمه ،
أو رجلاً لم يكن يريد قتله ، فاستخبروا الله وسيروا « فنهيا الناس للشخص .

وبلغ عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن مرد وأصحابه
غرايا أن يأتيهم ، فخرجوا إليهم في جماعة من أصحابها ، فلما انتهوا إلى ابن مرد دخلا عليه .

٥٩ — خطبة عبد الله بن يزيد

حمد الله عبد الله بن يزيد ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن المسلم أخو المسلم ، لا يخنونه ولا يفشئ ، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا ، وأحب أهل
مصر خلقه الله إلينا ، فلا تفجعونا بأنفسكم ، ولا تستبدوا علينا برأيكم ، ولا تنقصوا عددنا
بجوركم من جماعتنا ، أقيموا معنا حتى تيسر ونهيا ، فإذا علمنا أن عدونا قد شارف
بلدنا ، خرجنا إليهم بجماعتنا فقاتلناهم » .

وتكلم إبراهيم بن محمد بنحو من هذا الكلام .

٦٠ — خطبة سليمان بن مرد

حمد الله سليمان بن مرد وأثنى عليه ، ثم قال لها :

« إني قد علمت أنكم قد تحضنوا^(١) في النصيحة ، واجتهدتما في الشورى ، فنحن بالله
وله ، وقد خرجنا لأمر ، ونحن نسأل الله العزيمه على الرشد ، والتמיד لأصوبه ، ولا ترانا
إلا شاخصين ، إن شاء الله ذلك » .

فقال عبد الله بن يزيد : « فأقيموا حتى نهي ممك جيشاً كثيفاً فلقوا عدوكم

(١) محض اللود وأعضه : أخلصه .

بَكْتَفٍ^(١) ، وَجَمَعَ وَحَدَّثَ « قَالَ لَهُ سَلِيحَان : « تَنْصَرِفُونَ وَنَرَى فَيَا بَيْنَنَا ، وَسَيَأْتِيكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ رَأَى » .

وَانصَرَفَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ ، وَابِرَاهِيمُ بْنُ عَمْدٍ إِلَى الْكُوفَةِ ، وَاجْمَعَ الْقَوْمُ عَلَى الشَّخْصِ ، وَاسْتَقْبَلَ ابْنُ زِيَادَ .

٦١ - خطبة أخرى له

نَمُ إِذَا سَلِيحَانُ بْنُ مَرْدَقَامٍ فِي النَّاسِ خَطِيئًا فَعَدَّ اللَّهُ وَأَتَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَمَا بَدَأَ بِهَا النَّاسُ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ عَلَّمَ مَا تَدْعُونَ ، وَمَا خَرَجْتُمْ تَطْلِبُونَ ، وَإِنْ لَدُنْيَا مُجْتَمِعًا ، وَلِلْآخِرَةِ نَجَارًا ؛ فَأَمَّا تَاجِرُ الْآخِرَةِ فَسَاعِرٌ إِلَيْهَا مُتَنْصِبٌ^(٢) بِتَطْلَابِهَا ، لَا يَشْتَرِي بِهَا ثَمَنًا ، لَا يَبْرِي إِلَّا قَائِمًا وَقَاهِدًا ، وَرَاكِمًا وَسَاجِدًا ، لَا يَطْلُبُ ذَهَبًا وَلَا فِضَّةً ، وَلَا دِينَارًا وَلَا لِقَّةً ؛ وَأَمَّا تَاجِرُ الدُّنْيَا ، فَكَيْبٌ عَلَيْهَا ، رَاتِعٌ فِيهَا ، لَا يَبْتَغِي بِهَا بَدَلًا ، فَمَلِكٌ (بِرَحْمَةِ اللَّهِ) فِي وَجْهِكُمْ هَذَا بِطُولِ الصَّلَاةِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ ، وَبِذِكْرِ اللَّهِ كَثِيرًا عَلَى كُلِّ حَالٍ ، وَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ بِكُلِّ خَيْرٍ قَدَرْتُمْ عَلَيْهِ ، حَتَّى تَلْقَوْا هَذَا الْمَدْرُ ، وَالْحِلَّ الْقَاسِطَ فَتُجَاهِدُوهُ ، فَإِنَّكُمْ لَنْ تَتَوَسَّلُوا إِلَى رَبِّكُمْ بِشَيْءٍ هُوَ أَعْظَمُ عِنْدَهُ ثَوَابًا مِنَ الْجِهَادِ وَالصَّلَاةِ ، فَإِنَّ الْجِهَادَ سَنَامُ الْعَمَلِ ، جِطْلَنَا اللَّهُ وَإِلَّا كُمْ مِنَ الْعِبَادِ الصَّالِحِينَ الْجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ عَلَى اللَّأْوَاءِ^(٣) وَإِنَّا مُدْجِلُونَ^(٤) الْبَيْلَةَ مِنْ مَنَازِلِنَا هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَأَذِلُّوْا »

فَأَذِلَّ عَشِيَةُ الْجُمُعَةِ خَمْسَ مَضِينَ مِنْ رَجَبِ الْآخِرِ سَنَةِ ٦٥ هِجْرَةَ ، وَمَا زَالَ يَسِيرُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى عَيْنِ الْوَرْدَةِ^(٥) فَنَزَلَ فِي غَرَبِهَا .

(١) الكُتِفُ : الجَمَاعَةُ . (٢) أَيْ قَدْ نَصَبَ نَفْسَهُ طَالِبًا لَهَا ، نَصَبَ الشَّيْءَ : رَفَعَهُ فَانْتَصَبَ وَتَنَصَّبَ .

(٣) الشَّمَةُ . (٤) أَدْلَجَ : سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ ، فَإِنْ سَارَ مِنْ آخِرِهِ فَادْلَجَ بِالتَّشْدِيدِ .

(٥) هِيَ رَأْسُ الْعَيْنِ : بَلَدٌ فِي وَسْطِ الْجَزِيرَةِ .

٦٢ - خطبة أخرى

وأقبل أهل الشام في عساكرهم ، حتى كانوا منها على مسيرة يوم و ليلة . قال عبد الله ابن غزيرة ، قدام فينا سليمان حمد الله فأطال ، وأثنى عليه فأطلب ، ثم ذكر السماء والأرض ، والجبال والبحار وما فيهن من الآيات ، وذكر آلاء الله ونعمه ، وذكر الدنيا فزهد فيها ، وذكر الآخرة فرغب فيها ، فذكر من هذا عالم أحصيه ، ولم أقدر على حفظه ، ثم قال :

« أما بعد فقد أناكم الله بصدقكم الذي دأبتم في السير إليه آناه ^(١) الليل والنهار ، تريدون فيما تظهرون التوبة النصوح ، ولقاء الله مُعْذِرِينَ ، فقد جاءوكم بل جثوم أنتم في دارهم وَحَيْزِهِمْ ، فإذا لَقِيتُمُوهم فاصدقُوهم ، واصبروا إن الله مع الصابرين ، ولا يوليهم امرؤ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا ^(٢) لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا ^(٣) إِلَى فِتْنَةٍ ، لَا تَقْتُلُوا مُدْبِرًا ، وَلَا تُجَاهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَسِيرًا مِنْ أَهْلِ دَعْوَتِكُمْ ^(٤) إِلَّا أَنْ يَقَاتِلَكُمْ بِمَدِّ أَنْ تَأْسُرُوهُ ، أَوْ يَكُونَ مِنْ قَتْلِهِ إِخْوَانُنَا بِالْطُّفِّ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَإِنْ هَذِهِ كَانَتْ سِيرَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ فِي أَهْلِ هَذِهِ الدَّعْوَةِ . »

ودارت رحى الحرب بينهم وبين جيوش عبيد الله بن زياد واستشهد في المعركة سليمان بن مرد ، بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً من رهوس أصحابه : السيب بن نجبة ، وعبد الله بن سعد بن نغيل ، وعبد الله بن وال ، فلما رأى من بقى

(١) آناه الليل : ساعاته واحداً إلى (كيال) أو إلى (كامل) أو إنو كذلك .

(٢) أي متطفلاً يريد الكر بعد القرب وتفرير العدو ، فإنه من مكاييد الحرب .

(٣) أي منازلاً إلى جماعة على القرب ليستفيد بهم .

(٤) ملئكم .

من التوايين أن لا طاعة لهم بمن يلزائهم من أهل الشام انمازوا عنهم وارتحلوا ، وعليهم
رفاعة بن شداد البجلي .

(وكان ذلك في ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ)^(١) .

٦٣ - خطبة عبد الملك بن مروان

وأني عبد الملك بن مروان بيشارة الفتح ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن الله قد أملاك من رموس أهل العراق مُلقح^(٢) فتنة^(٣) ، ورأس
ضلالة ، سليمان بن صُرَد ، ألا وإن السيوف تركت رأس السيب بن نجبة خذاري^(٤) ،
ألا وقد قتل من رموسهم رأسين عظيمين ضالين مضايين : عبد الله بن سعد أخا الأزد ،
وعبد الله بن وال أخا بكر بن وائل ، فلم يبق بعد هؤلاء أحد عنده دقاغ ولا امتناع » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٤٧ - ٨٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٠)

(١) وقال المسعودي في مروج الذهب : « وقيل إن وقعة الورد كانت في سنة ٦٦ هـ » .

(٢) أصله : من ألقح النخلة ، وألقح الفحل الناقة ، والريح الشجر . (٣) تركت السيوف رأسه
خذاريف : أي قطعا كل قطعة كالخاروف ، والخاروف : كمصفور شيء يدوره السبي يخط في يديه فيسمع
له دوى (النخلة) .

طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي

بدم الحسين رضى الله عنه

٦٤ - خطبته حين قدم الكوفة

وقدم المختار بن أبي عبيد الثقفي^(١) الكوفة في النصف من رمضان سنة ٦٤ هـ ،
فأتاه بعض الشيعة ليلاً ، فسأله عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة
قد اجتمعت لـ سليمان بن صُرَد الخُرَاضى ، وإنه لن يلبث إلا يسيراً حتى يخرج .
فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

(١) هو المختار بن أبي عبيد بن مسعود الثقفي ، وقد قلنا في الجزء الأول أن أول ما عمل به عمر بن الخطاب
رضي الله عنه حين ولي الخلافة أن تذب الناس مع المنى بين حارثة الشيباني لقتال أهل فارس ، وجعل بينهم
ثلاثة أيام ، فلا ينتدب أحد إلى فارس ، فلما كان اليوم الرابع عاد فتدب الناس ، فكان أول منتدب أبو عبيد
ابن مسعود والد المختار ، ولم يكن للمختار في تشييعه لآل علي بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه
في أمر الحسن بن علي رضي الله عنه يوم طعن في مظلم ساباط وحمل إلى المدائن - وكان عم المختار ، وهو سعد
ابن مسعود حاملاً على المدائن - فقال له المختار : هل لك في الفتي والشرع ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق
الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أئب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه
وسلم فأوثقه ! بئس الرجل أنت ، ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضي الله تعالى عنه نزل دار
المختار فبايحه المختار فيمن بايحه من أهل الكوفة ، وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بجسمه وقتله ، وأمر
بالمختار فسيج ، وبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يحأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية - وكانت
صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر - فكتب ابن عمر إلى يزيد يسأله أن يخلى سبيله ، فشقه فيه ، وخل
ابن زياد سبيله وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وباع ابن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش
يزيد - وكان تحت إمرة الحسين بن نمير السكوني - وأقام مع ابن الزبير بدم مهلك يزيد حتى قدم الكوفة
في منتصف رمضان سنة ٦٤ .

« أما بعد : فإن للهدى بن الوصي ، محمد بن علي ، بثنى إليكم أميتاً ووزيراً ،
وَمُنْتَجَباً وأميراً ، وأمرني بقتال الملحدين ، والطلب بدماء أهل بيته ، والدفع
عن الضعفاء » .

وأقبل يبعث إلى الشيعة ، فيقول لهم : « إني قد جئكم من قِبَل وَلِيِّ الْأُمْرِ ،
وَمَعْدِنِ الْفَضْلِ ، وَوَصِيِّ الْوَصِيِّ ، والإمام المهدي ، بأمر فيه الشفاء ، وكشفُ الْفِطَاءِ ،
وقتلُ الْأَعْدَاءِ ، وتسامُ الْقَتْلَاءِ . إن سليمان بن صرد يرحمنا الله وإياه ، إنما هو عَشَمَةٌ^(١)
من الْقَسَمِ ، وَحِفْشٌ^(٢) بَالٍ ، ليس بذى تجربة للأمور ، ولا له علمٌ بالحروب ، إنما
يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم ، إني إنما أعملُ على مِثَالِ قَدْ مُثِّلَ لِي ، وأمر
قد بُيِّنَ لِي ، فيه عُرْ وَليكم ، وقتلُ عدوكم ، وشفاء صدوركم ، فاسمعوا مني قولي ،
وأطيعوا أمرى ، ثم أُنْشِرُوا وتبَشَّرُوا ، فإني لكم بما تأملون خيرُ زعيم » .

فما زال بهذا القول ونحوه ، حتى استمال طائفة من الشيعة ، وعُظْمُهُمْ يومئذ مع
سليمان بن صرد ، فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ، خاف عبد الله بن يزيد الأنصاري
— أمير الكوفة من قبل ابن الزبير — أن ينب الختار عليه ، فزجه في السجن .
(تاريخ الطبري ٧ : ٦٤)

٦٥ — ما كان يردده على زائريه في سجنه

وكان يردّد على زائريه في سجنه هذا القول :

« أَمَا وَزَبَّ الْبَحَارُ ، وَالنَّغِيلُ وَالْأَشْجَارُ ، وَالْمَهَامَةُ^(٣) وَالْقِفَارُ ، وَاللَّائِكَةُ الْأَبْرَارُ ،

(١) العشمة : الشيخ الفاني لذكر والأشجار أو المتقارب الخطو المنحني الظهر ، وكان عمر بن صرد حين
قتل ٩٣ سنة . (٢) الحفش : الثور البالي ، والجوالق النظم البالي ، وما كان من أسقاط الآتية كالتقارير
وغيرها ، وأحفاش البيت : رذال متاعه .

(٣) المهامة : جمع مهمه كجعفر ، وهو البله المقفر ، والمفاضة البعيدة .

والمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارَ ، لِأَقْتَلَنَّ كُلَّ جَبَّارٍ ، بِكُلِّ لَذْنٍ خَطَارٍ ^(١) ، وَمُهَنْدٍ بَقَارٍ ^(٢) ،
 فِي جَمْعٍ مِنَ الْأَنْصَارِ ، لِيَسْوَإِ بِمِيلٍ أَثْمَارٍ ^(٣) ، وَلَا يَعْزِلُ ^(٤) أَشْرَارُ ، حَتَّى إِذَا أَقْتُ
 عَمُودَ الدِّينِ ، وَرَأَيْتُ شَعْبَ ^(٥) صَدْعِ السَّلَمِينَ ، وَشَفَيْتُ غُلِيلَ صَدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 وَأَدْرَكْتُ بَنَارَ النَّبِيِّينَ ، لَمْ يَكْبُرْ عَلَى زَوَالِ الدُّنْيَا ، وَلَمْ أُخْجَلْ بِالْمَوْتِ إِذَا آتَى .

ثم خلى عبد الله بن يزيد سبيله ، بشفاعه عبد الله بن عمر فيه ، واختلفت إليه
 الشيعة بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل
 أصحابه يكثرُونَ ، وأمره يقوى ويشد ، حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد عن الكوفة
 وولى عليها عبد الله بن مطيع المدوي .
 (تاريخ الطبري ٧ : ٦٥)

٦٦ - خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة

وقَدِمَ عبد الله بن مطيع المدوي الكوفة (خمس بقين من رمضان سنة ٦٥) فصعد
 المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال :

« أما بعد : فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عبد الله بن الزبير بَشَى عَلَى مِصْرِكُمْ وَتُفُورِكُمْ ،
 وَأَمَرَنِي بِجَبَايَةِ فَيْشِكُمْ ، وَأَنْ لَا أُجِلَّ فَضْلُ ^(١) فَيْشِكُمْ عَنْكُمْ إِلَّا بِرِضَا مِنْكُمْ ، وَوَصِيْفُ
 عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ الَّذِي أَوْصَى بِهَا عَنْدَ وَفَاتِهِ ^(٢) ، وَبِسِيرَةِ عُمَانَ بْنِ عَفَانَ الَّذِي سَارَ بِهَا
 فِي الْمُسْلِمِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَخْتَلِفُوا ، وَخَذُوا عَلَى أَيْدِي سَفَهَاتِكُمْ ، وَلَا تَقْمَلُوا

(١) الرمح القدح : الدين ؛ وذلك صفة جودة فيه لأن الدين لا يقصف ، وقد لذن ككرم لدانة وللعوة ،
 والرمح الخطار : أي المهتز ، خطر كضرب خطرانا . (٢) المهنه : السيف المطبوع من حديد الهند ،
 والقيار : القطع . (٣) ميل : جمع أميل ، وهو الجبان ، ومن يميل على السرج في جانب ، ومن
 لا يرس منه أولا سيف أو لارمح ، والأغار : جمع غمر (مطل وبمحرك) من لم يجرب الأمور .
 (٤) العزل : جمع أعزل ، وهو من لا ملاح معه . (٥) الشعب : الصنع أي الشئ ، ومن
 معانيه الإقصاد ، وهو المراد هنا ، ورأب الصنع : أصلحه . (٦) الفضل : الزيادة .
 (٧) انظر وصيته للخليفة من بعده . ج ١ : ص ٢٦٣ .

فَلَوْمُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تُلْمُونِي ، فَوَافِقٌ لِأَوْقِنَ بِالسَّقِيمِ الْعَامِي ، وَلَأَقِيمِن دَرًا^(١)
الْأَضْمَرُ^(٢) الْمُرْتَاب .

٦٧ - رد السائب بن مالك الأشعري عليه

فقام إليه السائب بن مالك الأشعري - وهو من رموس أصحاب المختار -
فقال :

« أَمَّا أَمْرُ ابْنِ الزَّيْبِرِ إِيَّاكَ أَلَّا تَحْمَلَ فَضْلَ فَيْثِنَا عَنَّا إِلَّا بِرِضَانَا ، فَإِنَّا نَشْهَدُكَ
أَنَا لَا نَرْضَى أَنْ تَحْمَلَ فَضْلَ فَيْثِنَا عَنَّا ، وَأَنْ لَا يُقَسَمَ إِلَّا فَيْثَنَا ، وَأَنْ لَا يُبْسَرَ فَيْثَنَا إِلَّا بِسِيَرَةِ
عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، الَّتِي سَارَ بِهَا فِي بِلَادِنَا هَذِهِ ، حَتَّى هَلَكَ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، وَلَا حَاجَةَ
لَنَا فِي سِيَرَةِ عُمَانَ فِي فَيْثِنَا وَلَا فِي أَضْغَانَا ، فَإِنَّمَا كَانَتْ أَثَرَةً وَهَوًى ، وَلَا فِي سِيَرَةِ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي فَيْثِنَا ، وَإِنْ كَانَتْ أَهْوَنَ السَّيَرَتَيْنِ عَلَيْنَا ضَرْبًا ، وَقَدْ كَانَ لَا يَأْلُو
النَّاسَ خَيْرًا » .

فقال يزيد بن أنس الأسدي : صدق السائب بن مالك وَبَرٌّ ، رَأَيْنَا مِثْلُ رَأْيِهِ ،
وَقَوْلُنَا مِثْلُ قَوْلِهِ ، فقال ابن مطيع : نَسِيرُ فَيْثَكُمْ بِكُلِّ سِيَرَةٍ أَحْبَبْتُمُوهَا وَهَوَيْتُمُوهَا ،
ثُمَّ نَزَلَ . فقال يزيد بن أنس : ذَهَبَتْ بِفَضْلِهَا يَا سَائِبُ ، لَا يَمْدَمُكَ الْمُسْلُونَ !
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٥)

(١) القدر : الميل والوج في القنطرة ونحوها . (٢) الصمر معركة : ميل في القنطرة وانقلاب
في الوجه إلى أحد الشقين ، صم كفرح فهو أصمر ، وربما كان الإنسان أصمر علقه ، وصمر عده بالتشديد :
أماله من الناس إعراضا وتكبرا .

٦٨ - خطبة عبد الرحمن بن شرح

وبعث المختار إلى أصحابه ، فأخذ يحممهم في الدور حوله ، وأراد أن يثب بالكوفة في الحرم ، فجاء رجل منهم يقال له عبد الرحمن بن شريح ، فلقى جماعة من إخوانه ، واجتمعوا في منزل أحدهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن المختار يريد أن يخرج بنا ، وقد بايئناه ، ولا ندرى أُرسله إلينا ابن الحنفية أم لا ؟ فانهضوا بنا إلى ابن الحنفية فلنغيره بما قدم علينا به ، وبما دعانا إليه ، فإن رخص لنا في اتباعه اتبعناه ، وإن نهانا عنه اجتنبناه ، فوالله ما ينبغي أن يكون شيء من أمر الدنيا آثرَ عندنا من سلامة ديننا » .

فقالوا له : أرشدك الله ، فقد أصبتَ ووُفِّقْتَ ، اخرج بنا إذا شئت ، فأجمع رأيهم على أن يخرجوا إليه ، فلما قدموا عليه بدأ عبد الرحمن بن شرح ، فتكلم :

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٦٩ - خطبة أخرى له

لحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنكم أهل بيتٍ خَصَّكم الله بالفضيلة ، وشرَّفكم بالنبوة ، وعَظَّم حكمكم على هذه الأمة ، فلا يجهلُ حَقَّكم إلا مغبونُ الرأي ، غشوسُ النصيب ، قد أصبتم بحسين رحمة الله عليه ، عَظَّمْت مصيبةً ما قد خَصَّكم بها ، فقد عمَّ بها الملحون ، وقد قدَّم علينا المختار بن أبي عبيد ، يزعم لنا أنه قد جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، والطلب بدماء أهل البيت ، والدفع عن الضمماء فبايئناه هل ذلك ، ثم إننا رأينا أن نأتيك فنذكر لك ما دعانا إليه ، ونَدَبنا له ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه » .

ثم تكلموا واحداً واحداً بنحو مما تكلم به صاحبهم وهو يسمع حتى إذا فرغوا .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٦)

٧٠ - خطبة محمد بن الحنفية

حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء ،
والله ذو الفضل العظيم ، فله الحمد ، وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان
في الذكر الحكيم ^(١) ، وهي مكنة ^(٢) كُتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفعَ
بما كان منها درجات قومٍ عنده ، ووضَعَ بها آخرين ، وكان أمر الله مفعولاً ،
وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدائناً ،
فوالله لو دِدْتُ أن الله اتصّر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم » .

فخرجوا من عنده ، وهم يقولون : قد أذن لنا ، قد قال : « لوددت أن الله اتصّر لنا
من عدونا بمن شاء من خلقه » ولو كره لقال : « لا تضلوا » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧١ - خطبة المختار

وبلغ المختار مخرجهم فشق ذلك عليه ، وخشى أن يأتوه بأمر يُخذل الشيعة عنه ،
فكان يقول :

« إن نُفَيْرَا منكم ارتابوا ، وتَحَيَّرُوا وخابوا ، فإن هم أصابوا ، أقبِلوا وأُناَبوا ، وإن هم

(١) يريد أنه سبق به قضاء الله تعالى . (٢) اللكمة : الرقعة الطيعة التتلى .

كَبَرُوا وَهَابُوا ، وَاعْتَرَضُوا وَانْجَابُوا ^(١) ، فَقَدْ ثَبَرُوا ^(٢) وَحَابُوا ^(٣) ، وَأَقْبَلَ الْقَوْمَ فَدَخَلُوا عَلَى الْمُخْتَارِ ، فَقَالَ لَهُمْ : مَا وَرَاءَكُمْ ؟ قَدْ قُتْنَمُ وَارْتَبْتُمْ ، فَقَالُوا لَهُ : قَدْ أَمَرْنَا بِنَصْرَتِكَ ، فَقَالَ : اللَّهُ أَكْبَرُ ! أَنَا أَبُو إِسْحَقَ ! اجْمَعُوا إِلَى الشَّيْعةِ ، فَجَمَعَ لَهُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ مِنْهُ قَرِيبًا فَقَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الشَّيْعةِ : إِنْ نَفَرْنَا مِنْكُمْ أَحِبَّوْا أَنْ يَمْلُوكَ مُصَدِّقَ مَا جِئْتُ بِهِ ، فَرَحَلُوا إِلَى إِمَامِ الْهُدَى ، وَالنَّجِيبِ الرَّضَى ، ابْنِ خَيْرٍ مِنْ طَلْحَى ^(٤) وَمُشَى ، حَاشَا لِلنَّبِيِّ الْمُجْتَنَبِيِّ ^(٥) فَسَأَلُوهُ عَمَّا قَدِمْتُ بِهِ عَلَيْكُمْ ، فَنَبَّاهُ أَنَّي وَزِيرُهُ وَظَهْرُهُ ، وَرَسُولُهُ وَخَلِيلُهُ ، وَأَمْرُكُمْ بِأَنْبَاءِي وَطَائِفِي فِيمَا دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ ، مِنْ قِتَالِ اللَّحْلِيِّينَ ، وَالطَّلَبِ بِدِمَاءِ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ الْمُصْطَفَيْنَ . »
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٢ - خطبة عبد الرحمن بن شرح

فقام عبد الرحمن بن شرح لحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَمَا بَعْدُ : يَا مَعْشَرَ الشَّيْعةِ فَإِنَّا قَدْ كُنَّا أَحِبِّينَا أَنْ نَسْتَبْتَ لَأَغْنَيْنَا خَاصَّةً ، وَلِجَمِيعِ إِخْوَانِنَا عَامَةً ، فَقَدِمْنَا عَلَى الْمُهْدِيِّ بْنِ عَلِيٍّ ، فَسَأَلْنَاهُ عَنْ حَرْبِنَا هَذِهِ ، وَعَمَّا دَعَانَا إِلَيْهِ الْمُخْتَارُ مِنْهَا ، فَأَمَرَنَا بِمُظَاهَرَتِهِ وَمُوَاظَرَتِهِ ، وَإِجَابَتِهِ إِلَى مَا دَعَانَا إِلَيْهِ ، فَأَقْبَلْنَا طَيبَةً أَنْفُسُنَا

(١) انجابت المسحابة : انكشفت ، والمضى : وإن هم انسلخوا منا وانتشروا علينا .

(٢) ثبر : كتمه ثبوراً : هلك . (٣) حاب : أتم ، والمحوب بالفتح والضم : الإثم ، وفي الأصل خابوا ، وأرى أن تكون بلقاء لتتم كلمة خابوا في أول قوله .

(٤) هكذا في الأصل ، ولم أجد كلمة « طلى » في كتب اللغة ، وفي لسان العرب « طلى المريض يرى » . وليست مناسبة هنا ، وأرى أن العبارة « ابن خير من طلى وطلى » بتأخير طلى ، وأنه إتياع لفعل قبله تنقيته وتوكيده ، وهو كثير في كلام العرب ، كقولهم : حسن يس ، وعفريت نفريت ، وعطشان عطشان وشحج بيج ، وكثير بئر ، وسماك الله ويملك - وإن قيل إن الإتياع لا يكاد يكون بالواو - اقرأ باب الإتياع في الزهر لسيوطي (١ : ٢٤٤) وفي الأمال (٢ : ٢١١) . (٥) المختار .

منشرة صدرنا ، قد أذهب الله منها الشك والنيل والريب ، واستقامت لنا بصيرتنا
في قتالنا عدونا ، فليبلغ ذلك شاهدكم غائبكم ، واستعدوا وتأهبوا » ثم جلس .
وقاموا رجلاً رجلاً فتكلموا بنحو من كلامه ، فاستجبت له الشيعة وحديث^(١) عليه .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٧)

٧٣ — خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر

ومضى المختار في بضعة عشر رجلاً من وجوه أصحابه إلى دار إبراهيم بن الأشتر^(٢)
يدعوه أن ينصره ، فاستأذن عليه فأذن له ، وألقى لأصحابه وسائد فجلسوا عليها ،
وجلس المختار معه على فراشه ، فقال المختار :

« الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وصلى الله على محمد والاسلام عليه ، أما بعد :
فإن هذا كتاب إليك من المهدي محمد بن أمير المؤمنين الوصي ، وهو خير أهل الأرض
اليوم ، وابن خير أهل الأرض كلها قبل اليوم ، بعد أنبياء الله ورسله ، وهو يسألك أن
تنصرنا وتوازرنا ، فإن فلت اغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ،
وسيفي الله المهدي محمداً وأولاده عنك^(٣) » فبايعه إبراهيم .

(١) صلت . (٢) وكان أصحاب المختار قد دعوه أن يضم إلى زميرهم فقال : إني قد أجيتكم
إلى مادعوتوني إليه حل أن تولوني الأمر ، فقالوا هذا المختار قد جادنا من قبل المهدي ، وهو الرسول والمأمور
بالقتال وقد أمرنا بطاعته ، فسكت منهم ابن الأشتر ، وانصرفوا إلى المختار فلتعبروه بما رد عليهم .

(٣) ثم دفع إليه الكتاب ففرض غامته وقرأه ، فلذا هو « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدي إلى
إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد : فإني قد بعثت
إليكم بوذري ، وأميني ، وبجيبتي التي ارتقيت نفسي ، وقد أمرته بقتال عدوي ، والطلب بدماء أهل بيتي ،
فانهض معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك إن نصرته وأجبت دعوته ، وساعدت وزيره كانت لك
عنتي بذلك فضيلة ، ولك بذلك أمة الخليل ، وكل جيش غاز ، وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين
الكوفة وأقصى بلاد الشام ، حل الوفاء بذلك على عهد الله ، فإن فلت ذلك نلت به عهد الله أفضل ، =

وجعل المختار وأصحابه يديرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ ، فثاروا بالكوفة ، ونشَب القتال بينهم وبين جند ابن مطيع .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩٨)

٧٤ - خطبة يزيد بن أنس الأسدي

ولما حلت خيل ابن مطيع على أصحاب المختار خطبهم يزيد بن أنس الأسدي محرضاً ، فقال :
« يا معشر الشيعة : قد كنتم تقتلون وتقطع أيديكم وأرجلكم ، وتُسَمِّل أعينكم ، وتُرفسون على جذوع النخل ، في حُبِّ أهل بيت نبيكم ، وأنتم مقيدون في بيوتكم وطاعة عدوكم ، فما ظنكم بهؤلاء القوم إن ظهرُوا عليكم اليوم ؟ إذن والله لا يدعون منكم شيئاً تُظَرِّف^(١) ، وليقتلنكم صَبْرًا^(٢) ، وَلَتَرَوْنَ منهم في أولادكم وأزواجكم وأموالكم ما للوْتُ غيرُ منه^(٣) ، والله لا ينجيكم منه إلا الصدق والصبر والعلم الصائب في أميهم ، والضرب المبرك على هاميم ، فتيسروا لشدَّة ، وتهيئوا للحملة ، فإذا حركت رايقي مرتين فاحلوا » .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٤)

٧٥ - خطبة عبد الله بن مطيع

وحل أصحاب المختار على جند ابن مطيع فكشفهم وهزمهم ، ففرج ابن مطيع مقام في الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

— الكرامة ، وإن أبيت حلتك هلاكاً لاستقبله أبداً ، والسلام عليك — فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب قال : قد كتب إلى ابن الحنفية وقد كتبت إليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إل إلا بإسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فنعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلى ؟ فشهد من معه بأنه كتاب ابن الحنفية إليه ، فقال إبراهيم : أبسط يدك أبائكم فبسط المختار يده فتابه إبراهيم .

(١) طرف البصر (كضرب) تحرك ، وطرف بصره (كضرب أيضا) أطلق أحد جفنيه على الآخر .

(٢) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرى حتى يموت .

« أيها الناس : إن من أعجب العجب عَجَزَكم عن عصبة منكم ، قليل عددها ، خبيث دينها ، ضالة مُضَلَّة ، اخرجوا إليهم ، فامنعوا منهم حرىكم ، وقاتلوا من مصركم ، وامنعوا منهم فيكم ، وإلا ليشارككن في فيكم من لا حق له فيه ، والله لقد بلغت أن فيهم خمسمائة رجل من محرريكم عليهم أمير منهم ، وإنما ذهب عزكم وسلطانكم ، وتغيروا دينكم حين يكثرون » . ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٦)

٧٦ - تحريض ابن الأشر أصحابه

واستنفر ابن مطيع الناس لقتال المختار وعدّه ، وأقبل إبراهيم بن الأشر في أصحابه فقال لهم :

« قاربوا خيولكم بعضها إلى بعض ، ثم امشوا إليهم مُعْتَلِينَ ^(١) السيوف ، ولا يهولكنكم أن يقال : جاءكم شُبَّ بن ربيعة ، وآل عُنَيْبَةَ بن النّّاس ، وآل الأشت ، وآل يزيد بن الحارث ، وآل فلان - فسعى بيوتات من بيوتات أهل الكوفة - ثم قال : إن هؤلاء لو قد وجدوا بهم حر السيوف قد انصفقوا ^(٢) عن ابن مطيع انصفاق المزمى من الذّب » ثم قال لأصحابه شذّوا عليهم ، فإدا لكم حى وخالى .

فما لبثهم أن هزّهم ، فركب بعضهم بعضاً ، ومضى بأصحابه في آثارهم حتى دخلوا السوق والمسجد ، وحصروا ابن مطيع ثلاثاً .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٧)

٧٧ - خطبة ابن مطيع وهو محصور

فلما اشتد الحصار على ابن مطيع وأصحابه ، أشار عليه شُبَّ بن ربيعة أن يخرج من القصر لا يشعر به أحد ، حتى ينزل منزلاً بالكوفة عند من يستنصحه ، ويثق به ، ولا يُعلمُ بمكانه إلى أن يخرج فيلحق بصاحبه (ابن الزبير) .

(١) أمليت السيف : جرده من غده . (٢) انصقق : انصرف .

وفي مساء اليوم الثالث دعا ابن مطيع أصحابه فذكر الله بما هو أهله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وقال :

« أما بعد : فقد علمت الدين صَنَعُوا هذا منكم مَنْ هُمْ ، وقد علمت إيمانهم أَرَادَ ذلكم وسُتَهاؤُكم وطَنانَكم وأَخِثَاؤُكم ، ماعدا الرجلَ أو الرجلين ، وأنَّ أشرافَكم ، وأهل الفضل منكم لم يَزَالُوا سامعينَ مطيعينَ مناصحينَ ، وأنا مُبَلِّغُ ذلكَ صاحبي ، ومُؤَمِّلُهُ طاعتكم وجهادكم عدوّه ، حتى كانَ اللهُ التَّالِبَ على أمره ، وقد كانَ من رأيكم وما أشرتم به على ما قد علمتم ، وقد رأيتُ أن أخرج الساعة » .

فقال له شَيْبٌ : « جزاك اللهُ من أمير خيراً ، فقد والله حَفَفْتَ عن أموالنا ، وأَكْرَمْتَ أشرافنا ، ونَصَحْتَ لصاحبك ، وقضيتَ الذي عليك ، والله ما كنا لنفارقَكَ أبداً ، إلا ونحنُ منك في إِذْنٍ » فقال : جزاكم اللهُ خيراً ، ثم خرج ، ودخلَ القصرَ ، وفتح أصحابه البابَ ، فقالوا : يا بَنِي الْأَشْجَرِ ، آمَنُونَ نحنُ ؟ قال : أنتم آمَنُونَ ، فخرجوا فهايموا المختارَ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠٨)

٧٨ — خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع

وجاء المختار حتى دخل القصر فبات به ، وأصبح أشراف الناس في المسجد وعلى باب القصر ، وخرج المختار ، فصعد للنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، فقال :

« الحمد لله الذي وعدَ وَلِيَّه النِّصْرَ ، وعدوّه الْخُسْرَ ، وجعله فيه إلى آخر الدهر ، وعدداً مَقْمُولاً ، وقضاءً مَقْضِيّاً ، وقد خاب من اقترى ، أيها الناس : إنه رُفِضَتْ لنا رايةٌ ، ومُدَّتْ لنا غايةٌ ، فقبل لنا في الِراية أن ارضوها ولا تَصَمُّوها ، وفي النِّتَاية أن أجروا إليها ولا تَمُدُّوها ، فسمعتُ دَهْوَةَ الدَّاعِي ، ومقالةَ الواعِي ، فكم من ناعٍ وناعيةٍ ، لِقَتْلِي

فِي الرَّايَةِ^(١) وَبُعْذًا لِمَنْ طَنَى ، وَأَدْبَرَ وَغَصَى ، وَكَذَّبَ وَتَوَلَّى ، أَلَا فَادْخُلُوا أَيُّهَا النَّاسُ فَيَايَسُوا يَمَّةَ هَدَى ، فَلَا وَالَّذِي جَعَلَ لِلدَّجَاءِ سَقْفًا مَكْفُوفًا^(٢) ، وَالْأَرْضَ حُجَابًا^(٣) سُبُلًا ، مَا بَايَسْتُمْ بِمَدَى يَمَّةَ هَلَى - بَنَ أَبِي طَالِبٍ وَآلَ عَلَى - أَهْدَى مِنْهَا .

ثم نزل ، ودخل عليه أشرف الناس ، فبسط يده وابتدعه الناس فبايروه ، وجعل يقول : تبايوسنى على كتاب الله وسنة نبيه ، والطلب بدماء أهل البيت ، وجهاد للْحَائِنِ ، والدفع عن الضعفاء ، وقال من قاتلنا ، وَسَلِمَ من سألنا ، والوفاء بيميننا ، لَا تُقِيلُكُمْ وَلَا نَسْتَقِيلُكُمْ ، فَإِذَا قَالَ الرَّجُلُ نَسَمَ : بايعه .

ثم وثب المختار بمن كان بالكوفة من قتلة الحسين رضى الله عنه وللشابين هَلَى قتله ، فقتل من قَدَّرَ عليه منهم ، وهرب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه ، وكان ممن قتلهم عمر بن سعد بن أبي وقاص وابنه ، وبث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية .
(تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٨)

٧٩ - خطبة المختار وقد استنصره ابن الحنفية

ولما كتب محمد بن الحنفية رضى الله عنه إلى المختار يعلمه بما ناله هو ومن معه من ابن الزبير من سَجَنِهِمْ وتوعدهم بالقتل والتحريق بالنار إن لم يبايخوا له^(٤) نادى المختار في الناس ، وقرأ عليهم الكتاب وقال :

(١) الراية : الصراخ على الميت وتعيه (ولا فعل له) والمضى : كم من ناع وناعية لأناس تطلوا بسببه نعيم وصراخهم على من قتل من الحسين وأصحابه ، فهو يستبشرهم لطلب النار من أصنامهم الذين لم يكفهم ما اقترفوه من قتل الحسين وبيته ، بل ضموا إلى جرمهم أن قتلوا من نعى هؤلاء الشهداء ويكاهم .

(٢) الكفة بالكسر ويضم : حباله القصاد ، وكل مستدر . (٣) الفجاء : جمع فج ، وهو الطريق الواسع الواسع . (٤) وذلك أن محمد بن الحنفية كان قد أبى أن يبايع ابن الزبير إذ ذكره لبيته لمن لم يجتمع عليه الأمة - وكان ابن الزبير يفضيه ويصده على أيده وقوته - فحبسه مع أربعة عشر رجلاً من

« هذا كتاب مَهْدِيَّكُمْ ، وصريح^(١) أهل بيت نبيكم ، وقد تُرِكُوا مَحْظُورًا^(٢) عليهم كما يُحْظَرُ على النِّسَم ، ينتظرون القتل والتَّحْرِيقَ بالنَّار ، في آتاء الليل وتارات^(٣) النهار ، ولست أبا إسحاق إن لم أنصرهم نصرًا مُؤَزَّرًا^(٤) ، وإن لم أسرِّب إليهم الخيل في إثر الخيل ، كالسَّيل يتلوه السيل ، حتى يَحُلَّ بَابُ السَّكَاةِ^(٥) الويلُ » .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٢٦)

يُنْهَضُ هَاشِمٌ فِي سَجَنِ عَارِمٍ وَقَالَ : لَتَبَايِنَ أَوْ لَأَحْرَقَنِي ، وَأَصْلَى اللَّهِ هَذَا إِنْ لَمْ يَبَايِسُوا أَنْ يَنْقُذَ فِيهِمْ مَا تَوَعَّدَهُمْ بِهِ ، وَضَرَبَ لَهْمٌ فِي ذَلِكَ أَجَلًا . فَكَتَبَ ابْنُ الْحَقِيقَةِ إِلَى الْمُخْتَارِ مُتَّصِرًا ، فَوَجَّهَ إِلَيْهِ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَكَانُوا يَسِيرُونَ بِاللَّيْلِ وَيَكُونُونَ النَّهَارَ ، حَتَّى اتَّهَوْا إِلَى مَكَّةَ ، وَقَدْ أَمَدَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ الْمَطْبَاحَ لِيَحْرِقَهُمْ ، وَكَانَ قَدْ بَقِيَ مِنَ الْأَجَلِ يَوْمَانِ . فَكَسَرُوا سَجَنَ عَارِمٍ وَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ ابْنَ الْحَقِيقَةِ وَمَنْ مَعَهُ ، وَقَالُوا لَهُ : خُلِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ حَدِّهِ اللَّهُ ابْنَ الزُّبَيْرِ ، فَقَالَ لَهْمٌ : إِنْ لَمْ أَسْتَحِلَّ الْقِتَالَ فِي حَرَمِ اللَّهِ ، وَخَرَجَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِلَى شَبِّهِ عَلَى .

(١) الصريح : الخالص من كل شيء . (٢) حُظِرَ الشَّيْءُ عَلَيْهِ (كُتِلَ) مِنْهُ وَحُجِرَ ، وَيُقَالُ لِمَا حُظِرَ بِهِ عَلَى النَّسَمِ وَغَيْرِهَا لَتَبْتَهَا وَبَحَفْتُهَا حَظِيرَةً . (٣) جَمْعُ تَارَةٍ ، وَهِيَ هُنَا الْحَبْلُ .

(٤) نَصْرٌ مُؤَزَّرٌ : أَيْ بِالْعَنْدِ مِنْ التَّأْزِيرِ وَهُوَ التَّوَقُّعُ .

(٥) ابْنُ السَّكَاةِ : هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ ، وَالسَّكَاةُ أَيْ أَيْ جَنْدُهُ ، فَهُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَامِ ابْنِ غُوَيْلِدَ بْنِ أَسَدَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ ، وَالسَّكَاةُ أَيْ غُوَيْلِدَ بْنِ أَسَدَ ، وَاسْمُهَا زَهْرَةٌ بَقِيَ عَمْرُو بْنُ خَشْرٍ بْنُ رُوَيْتَةَ بْنِ حُلَّالٍ مِنْ بَنِي كَاهِلٍ بْنِ أَسَدَ بْنِ خَزِيمَةَ ، وَرَوَى أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنَ قُضَالَةَ بْنَ شَرِيكَ الْوَالِيَّ الْأَسَدِيَّ - مِنْ بَنِي أَسَدَ بْنِ خَزِيمَةَ - أَتَى ابْنَ الزُّبَيْرِ فَقَالَ لَهُ : « تَقَلَّتْ تَقَلَّتِي » ، وَتَقَبَّتْ رَاحِلَتِي (تَقَبَّتْ الْخَفَّ كَفَرَحَ : رَقَ) قَالَ : أَحْضَرُهَا فَأَحْضَرَهَا ، فَقَالَ : أَتَقْبَلُ بِهَا أَدْبَرَهَا فَتَقْبَلُ ، فَقَالَ : « أَوْقَعَهَا بِسَبْتٍ ، وَاعْصِفَهَا جَلْبَ ، وَأَتَجِدُ بِهَا يَبْرُدُ خَفَهَا ، وَسِرَّ الْبَرْدَيْنِ تَصَحَّحَ » (وَالسَّبْتُ كَسَدٌ كُلُّ جِلْدٍ مَدْبُوعٍ . وَالْجَلْبُ كَقَفْلٍ : الْقَفْلُ أَوْ مَا ظَلَمَ مِنْهُ أَوْ شَرُّ اللَّذَابِ أَوْ شَرُّ الْخَنْزِيرِ الَّذِي يَنْزِرُ بِهِ ، وَالْبَرْدَانِ يَفْتَحُ الْبَابَ وَكَوْنُ الْبَرْدِ ، وَالْأَبْرَدَانِ : الْغَدَاةُ وَاللَّيْلَةُ) فَقَالَ ابْنُ قُضَالَةَ : إِنْ أَتَيْتُكَ مُسْتَحْسِلًا ، وَلَمْ أَتُكْ مُسْتَوْصَفًا ، فَلَنْ أَدَّكَ نَاقَةً حَمَلَتِي إِلَيْكَ (مُسْتَحْسِلًا أَيْ طَالِبًا أَنْ تَحْمِلَ عَلَيَّ نَاقَةً أُخْرَى تَطْلُعُ بِهَا) قَالَ ابْنُ الزُّبَيْرِ : « إِنْ وَرَأَيْتُهَا » (وَأِنْ هُنَا حُرِفَ جَوَابُ بَقِيَ نَعْمَ كَأَنَّهُ إِقْرَارٌ بِمَا قَالَ ، وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابْنِ قَيْسٍ الرِّقَابِي :

وَيَقَانُ شَيْبَ قَدْ عَلَا لَكَ وَقَدْ كَبِرْتَ فَقُلْتُ إِنَّهُ

فَلْيَنْصَرَفْ مِنْهُ ابْنُ قُضَالَةَ ، وَقَالَ فِيهِ شَرًّا مِنْ قَوْلِهِ :

٨٠ - خطبته وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد^(١)

وخرج يشيع^(٢) إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد^(٣) فقال للناس:

أقول لقلتي شدوا وكأبي
قال حين أطلع ذات عرق
أجاوز بطن مكة في سواد
إلى ابن السكاكين من عاد

فقال ابن الزبير لما بلغه هذا الشعر : « علم أنها شر أمهات فيرق بها وهي غير عاتة » - انظر الأغانى ٨ : ١ وشرح ابن أبي الحديد « م ٤ : ص ٤٩٥ » وجميع الأشكال اليداني (١ : ٧٥) وفيه « فلما بلغ الشعر ابن الزبير قال : لو لم لي أما الأم من عمة لسبق بها » وهذه المناسبة تقول : إن ابن الزبير كان شديد البخل وكان ذلك من أعظم أسباب إغضابه وانفضاض الناس من حوله ، ورووا أنه كان يطعم جنده تمرًا ويأسرهم بالحرب فإذا فروا من وقع السيوف لأمهم وقال لهم : أكلتم تمرى ، وعصيتم أمرى ، فقال بعضهم : ألم تر عبد الله والله غالب على أمره يهني الخلافة بالتمر

وكسر بعض جنده خمسة أرماع في صدور أصحاب الحجاج ، وكلما كسر رجلا أعطاه رجلا ، فشق عليه ذلك ، وقال : خمسة أرماع ! لا يحتل بيت مال المسلمين هذا . وجاءه أمراء سائل فرده ، فقال له : لقد أحرقت الرمضاء قدى ، فقال : بل طعنا يبردا ، (ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٨٧) وقدم عليه ممن بن أوس بككة ، فأنزله دار القصفان - وكان ينزلها الغرياء وأبناء السبيل والضيقات - فأقام يومه لم يطعم شيئا ، حتى إذا كان الليل جاءهم ابن الزبير بتيس هرم هزيل ، فقال : كلوا من هذا وهم ثيف وسيمون رجلا ، فنفسب من وخرج من عنده ، فألقى ابن عباس قناره وحمله وكساه ، ثم أتى عبد الله بن جعفر فأعطاه حتى أرضاه ، وأقام عنده ثلاثا حتى وصل ، فقال ممن في ذلك :

رمانا أبو بكر (وقد طال يومنا)
وقال : اطعموا منه ونحن ثلاثة
وسيمون إنسانا فيأثم مخبر
فقلنا له : لا تقربا ، فأماننا
جفان ابن عباس الملا وابن جعفر
له أعز يزو عليها ، وأبشر
وكن أمتا وارق بتيسك إنه

والأغانى ج ١٠ : ص ١٥٧ .

وقال عبد الملك بن مروان : « ما أطم مكان أحد أقوى على هذا الأمر منى ، وإن ابن الزبير لطويل الصلاة كثير الصيام ، ولكن ليخلفه لا يصلح أن يكون سائنا » تاريخ الطبري ج ٨ : ص ٥٨ .

(١) فقلنا لك أن مروان بن الحكم لما تمت له البيعة يمشى إلى العراق بجوشا عليه عبيد الله بن زياد ، وعلمت ما كان من أمره وأمر التوابين من الشيعة بين الوردة من أرض الجزيرة ثم أتى به ابن الأشتر على شاطئ نهر خازو من أرض الموصل . (٢) وقد خرج يشيعه ماشيا ، فقال له إبراهيم : اركب يا أبا إسحاق ، فقال : إني أخشى أن تقبر قدامى في نصرة آل محمد صلى الله عليه وسلم فشيعة فرسخين .

(٣) وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما يمشى غصنا ، وقال : إن رأيتم الأمر لنا قد هوى ، وإن-

« إن استقمتم فب نصر الله ، وإن حستم حينة ^(١) فإنى أجد فى تحكم الكتاب ،
وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بلاءة غضاب ، تأتى فى صور الحمام دوين ^(٢)
السحاب . » (الكامل للبرد ٢ : ١٦٩)

٨١ - خطبته وقد سار إليه مصعب بن الزبير

ولما بلغ المختار مسير مصعب بن الزبير إليه من البصرة ^(٣) ، قام فى أصحابه فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، يا أهل الدين ، وأهوان الحق ، وأنصار الضعيف ، وشعبة
الرسول ، وآل الرسول ، إن فراركم الدين بئوا عليكم أتوا أشباههم من الفاسقين
فاستفوتوهم عليكم ، ليصح ^(٤) الحق ، وينقش الباطل ، ويقتل أولياء الله ، والله
لو تهلكون ما عبد الله فى الأرض إلا بالقوى ^(٥) على الله ، والامن لأهل بيت نبيه ،

= رأيت الأمر علينا فأرسلوها ، فلما اتقوا كانت حل أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب
المختار الطير ، فصايح الناس : الملائكة ! فراجوا وقتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل فى
أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فىهم حتى أفتوا ، وقال ابن الأثير : لقد ضربت رجلا حل
شاطئ هذا البحر ، فرجع إلى سبي فوجدت منه رائحة الملك ، ورأيت إقداما وجراة فصرعت ، فذهبت يده
قبل المشرق ورجلاه قبل المغرب : فانظروه فالتصوه فإذا هو عبيد الله بن زياد ، وكان مقتله سنة ٨٦٧ .

(١) حاس يحبس حيسا : عدل وهرب . (٢) مصغر دون : أى قريبا منه .

(٣) وكان أخوه عبد الله بن الزبير يمشى عليها (سنة ٨٦٧) بعد عزل القبايع منها (وللقبايع كشجاع
هو الحرث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي أخو عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة الشاعر) فقدم حل مصعب
شيث بن ربي ، وجاءه أشراف الناس من أهل الكوفة ، وأخبروه بما اجتمعوا له وما أصبوا به ، ووثوب
عبيدهم ومواليهم ، وشكروا إليه وسألوه النصر لهم ، والسير إلى المختار معهم .

(٤) مصح كنم : ذهب وانقطع ، والتوب أخط ، والنيات ول لون زهره : والقتل قصر .

(٥) قرى الكذب كرمى : اخطئه كلفراه .

أَتَدْبُوا^(١) مع أحرر بن مُعَيْط : فإنكم لو قد قُتِمْتُمْ لَقَدْ قُتِمْتُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَتْلَ عَادٍ^(٢) وَإِزْمَ .

وتزاحف الجندان ، واهزم أصحاب المختار ، وقتل (في رمضان سنة ٦٧)^(٣) .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٤٨)

(١) اتقلب إليه : أسرح . (٢) أي أيدتموه كما ياد هؤلاء .

(٣) قال أبو العباس المبرد في الكامل (٢ : ١٦٧) وكان المختار لا يوقف له حل مذهب كان خارجيا ، ثم صار زيعريا ، ثم صار وانفصا في ظاهره ، وكان يدعى أنه يلعن ضربا من السجاعة لأمور تكون ثم يحال فيوقها ، فيقول الناس : هذا من عند الله عز وجل ، فن ذلك قوله ذات يوم : « لَقَدْ بَرَأَ لَنَا مِنَ السَّمَاءِ نَارَ دَهْمَاءَ ، فَتَحَرَّقَنَ دَارُ أَسْمَاءَ » فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سيع أبو إسحق ؟ هو والله عرق دارى ، فتركه والدار وحرب من الكوفة ، وقال في بعض سجمه : « أَمَا وَاللَّهِ شَرَعَ الْأَدْيَانِ ، وَجَنَّبَ الْأَوْثَانَ ، وَكَرَّهَ الْمُصَيَّانَ ، لَأَقْتُلَنَّ أَزْدَ عَمَانَ ، وَجَلُّ قَيْسٍ قَيْلَانٌ ، وَغَمَا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ، حَاشَا النَّجِيبَ ظُلَيْيَانَ » فكان غليان النجيب يقول : « لم أزل في عمر المختار أقلب آتيا » .

وقال ابن عبد ربه في العقد الفريد (٢ : ٢٦٥) : « ثم إن المختار لما قتل ابن مرجانة ، وهرم ابن سعد جعل يتتبع قتلة الحسين بن علي ومن غزله فقتلهم أجمعين ، فلما أفتاهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ، ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدركه بنيه أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحي من الله ، وكتب إلى أهل البصرة « يلعن أنكم تكذبون وتكذبون رسل ، وقد كذبت الأنبياء من قبل ، ولست بغير من كثير منهم » فلما انتشر ذلك عنه كتب أهل الكوفة إلى ابن الزبير (يعني مصعبا) وهو بالبصرة فخرج إليه ، وبرز إليه المختار فأسلمه إبراهيم بن الأشتر ووجوه أهل الكوفة ، فقتله مصعب وقتل أصحابه » .

وقال الشهرستاني في الملل والنحل (١ : ١٥٣) : « ومن مذهب المختار أنه يجوز للبدع حل اشتغال ، والبدع له مكان ، البدع في العلم وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبدع في الإرادة وهو أن يظهر له صواب حل خلاف ما أراد وحكم ، والبدع في الأمر وهو أن يأمر بشئ ثم يأمر ببدع بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اعتبار القول بالبدع ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث من الأحوال ، إما يوحى يوحى إليه ، وزما برسالة من قبل الإمام (ابن الحنفية) ، فكان إذا وجد أصحابه يكون شيء وحدث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله -

٨٢ - خطبة محمد بن الحنفية

يرد على عبد الله بن الزبير وقد تنقص الإمام

خطب ابن الزبير فقال من الإمام على كرم الله وجهه ، فبلغ ذلك ابنه عمداً ابن الحنفية رضى الله عنه ، فأقبل حتى وضع له كرسى قدامه ، ففلاه وقال :
« يا معشر قريش ، شامت الوجوه ^(١) ، أين تنقص على وأنتم حضور ؟ إن علياً كان سبهاً صادقاً ، أحد مرأى الله على أعدائه ، يقتلهم لكفرهم ، ويهونهم ^(٢) ما كلفهم ، فتقل عليهم ، فرموا بصخرة الأباطيل ^(٣) ، وإنا معشر له على نهج ^(٤) من أمره بنو الحنفية ^(٥) من الأنصار ، فإن تكن لنا الأيام دولة نثر عظامهم ، ونحمر ^(٦)

دايلاً على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد ليس على الناس بأنه من دعائه ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التي ابتليها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق الموهبة ، فن غاريقه أنه كان عنه كرسى قديم قد غشاها بالفيجاج وزينه بأنواع الزينة وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على طيه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبني إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يفضيه في براح الصف ، ويقول : قاتلوا ولستم للظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محل فيه محل التابوت في بني إسرائيل وفيه الحكمة واليقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مدداً لكم أخذوا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ » ، إن في ذلك آيةً لكم إن كنتم مؤمنين » ويقال إنه اشتراه بدرهمين من نجار - انظر قصته في تاريخ الطبري (٧ : ١٤٠) .

- (١) شاه وجهه : قبح . (٢) هوعه ما أكل : قياه نياه . (٣) مؤنث صرف ، والصرف : الخالص من كل شيء ، وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف ، والأباطيل : جمع أبطلوة بهم الممونة أو إبطالة بكسرهما أو هو جمع باطل على غير قياس . (٤) النهج : الطريق الواضح .
(٥) الحسية : الاحتساب (طلب الأجر) في الأعمال الصالحات ، وعند المكروهات هو القيد إلى طلب الأجر وتحصيله بالتسليم والسبر ، أو باستهلاك أنواع الخير والقيام بها على الوجه المرسوم فيها طلباً للثواب المرجو بها . (٦) حمره كحمر وضرب : كشفه .

عن أجسادهم ، والأبدان يومئذ بالية : وَسَيَلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيْ مُتَقَلِّبٍ يَتَقَلَّبُونَ .
فباد ابن الزبير إلى خطبته وقال : « عَذَرْتُ بَنِي الْقَوَاتِلِ بِتَكْلُمِهِمْ ، فَمَا بَالُ
بَنِي الْحَنْفِيَّةِ ؟ » فقال محمد : « يَا بَنِي أُمِّ رُوْمَانَ ^(١) ، وَمَالِي لَا أَنْكَلِمُ ؟ أَلَيْسَتْ فَاطِمَةُ
بِنْتُ مُحَمَّدٍ حَلِيلَةً ^(٢) أَيْ أُمِّ إِخْوَتِي ؟ أَلَيْسَتْ فَاطِمَةُ ^(٣) بِنْتُ أَسَدِ بْنِ هَاشِمٍ جَدَّتِي ؟
أَلَيْسَتْ فَاطِمَةُ ^(٤) بِنْتُ عَمْرِو بْنِ عَائِذٍ جَدَّةُ أَبِي ؟ أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ ^(٥)
مَا تَرَكْتُ فِي بَنِي أَسَدٍ عَظْمًا إِلَّا هَشَمْتُهُ ، وَإِنْ نَالَتَنِي فِيهِ الْمَصَائِبُ صَبَرْتُ .

(مروج الذهب ٢ : ١٠٢)

٨٣ — عبد الله بن عباس ومعاوية

ودخل عبد الله بن عباس على معاوية وعنده وجوه قریش ، فلما سلم وجلس ،
قال له معاوية : « إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَسْأَلَكَ عَنْ مَسَائِلَ » قال : « سَلْ عَمَّا دَاكَ » قال :
« مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ ؟ » قال : « رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ ، كَانَ وَاللَّهِ لِقُرْآنٍ تَالِيًا ، وَمِنْ
لِلنَّكَرِ نَاهِيًا ، وَبِذَنْبِهِ عَارِفًا ، وَمِنْ اللَّهِ خَائِفًا ، وَعَنِ الشُّبُهَاتِ زَاجِرًا ، وَبِالْمَرْوِفِ آسِرًا ،
وَبِالْبَالِيلِ قَائِمًا ، وَبِالنَّهَارِ صَائِمًا ، فَاقِ أَصْحَابَهُ وَرَمًا وَكَفَافًا ^(١) ، وَسَادِمَ زُهْدًا وَغَفَافًا ،
فَفَقَّصَ اللَّهُ عَلَى مَنْ أَبْغَضَهُ وَطَمَنَ عَلَيْهِ » قال معاوية : « إِيهَآ ^(٢) يَا بَنِي عَبَّاسٍ ، مَا تَقُولُ
فِي عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ ؟ » قال : « رَحِمَ اللَّهُ أَبَا حَفْصٍ عَمْرًا ، كَانَ وَاللَّهِ حَلِيفَ الْإِسْلَامِ ،

-
- (١) أم رومان بنت عامر هي زوج أبي بكر رضي الله عنه وأم السيدة عائشة . (٢) زوجته .
(٣) هي فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف أم الإمام علي كرم الله وجهه ، وقد أسلمت بعد هجر
من المسلمين فكانت الحادي عشر ، وهي أول امرأة باليت رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء .
(٤) هي فاطمة بنت عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم أم أبي طالب ، وهي أم عبد الله والد سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم . (٥) هي زوج النبي صلى الله عليه وسلم وعممة الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد .
(٦) أي رضا بالكفاف ، والكفاف من الرزق : ما كف عن الناس وأغنى . (٧) أمر بالسكوت
أي حسيك .

ومأوى الأيتام، وامتضى الإحسان، ومحل الإيمان، وكَهَفَ^(١) الضعفاء، ومَقِيلُ
الحنفاء^(٢)، قام بحق الله عز وجل صابراً مُحْتَدِباً^(٣)، حتى أوضح الدين، وفتح البلاد
وأَمَّنَ العبادَ، فأعقب الله على من يَنْقُصُهُ العنة إلى يوم الدين. قال: «فا تقول
في عثمان؟» قال: «رحم الله أبا عمرو كان والله أكرم الجُمَدَةِ^(٤)، وأفضل البَرَّةِ،
هَجَّاداً^(٥) بالأسحار، كثير الدموع عند ذكر النار، نهائياً عند كل مَسْكُومَةٍ، سَبَاقاً
إلى كل مَنِّحَةٍ، حَمِيماً أَيْباً وَفِيّاً، صاحب جيش السُّرَّةِ^(٦)، وَخَنَ^(٧) رسول الله
صلى الله عليه وآله، فأعقب الله على من يلعنُه اللاعنين، إلى يوم الدين» قال:
«فا تقول في علي؟» قال: «رضى الله عن أبي الحسن، كان والله عَلمَ الهدى، وكَهَفَ
الثقي، وَنَحِيلَ الْحِجَابِ^(٨)، وَبَجَرَ الندى، وطَوَّدَ الثَّمَنِي^(٩)، وكَهَفَ العلا، لِلْوَرَى دَاحِيَا
إلى الْحَجَّجَةِ^(١٠)، متمسكاً بالمرؤة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمَّصَ
وارتدى، وأَبْرَ من ائتمل وَسَمَى^(١١)، وأفصح من تنفَّسَ وقرا، وأكثر من شَهِدَ
النَّبِيُّ - سوى الأنبياء والنبي المصطفى - صاحب القيلتين، فهل يوازيه أحد؟
وأبو السَّبْطَيْنِ^(١٢)، فهل يقارنه بشر، وزوج خير النِّسْوَانِ^(١٣)، فهل يفوقه طَاطِنُ بلد؟
لِلْأَسُودِ قَتَالٌ، وفي الحروب خِتَالٌ^(١٤)، لم تر عيني مثله ولن ترى، فلي من انتقصه

(١) الكهف: الملجأ، وكلذا المقل. (٢) جمع حنيف، وهو الصحيح المثل إلى الإسلام الثابت عليه.
(٣) احتسب بكذا أجراً عند الله: اعتهه يتو به وجه الله. (٤) الكرام، يقال للكرم:
جعد يفتح فسكون، فأما إذا قيل فلان جعد الدين أو جعد الأتامل فهو البخل، وربما لم يذكروا معه إليه.
(٥) المجاد والمجود: يفتح الماء، والمتهجد: المصل يبالغ. (٦) تقدم شرحه في غلبة ذي
الكلال الحبري. راجع الجزء الأول ص ٣٤٠. (٧) أى صهره وقد تزوج السيدة رقية والسيدة
أم كلثوم ابنتي رسول الله صلى الله عليه وسلم. (٨) المحمل في الأصل: شقان على البير يحمل فيما
البدلان، والمجا: المقل والقطعة. (٩) الطود: الجبل، والنهي المقل. (١٠) الطريق الواضح.
(١١) في الأصل «واسما» وهو تحريف. (١٢) الحسن والحسين رضى الله عنهما، وهما سبطا رسول
الله صلى الله عليه وسلم، (والسيط ولد الولد). (١٣) السيدة فاطمة رضى الله عنها.
(١٤) خداع، من الخطل: وهو الخلداع، والمراد أنه ذو بصير بالمحروب.

لعنة الله والعباد ، إلى يوم القنَاد^(١) » قال : « إِيهًا يابن عباس ، لقد أكرّث في ابن عمك » قال : « فأتقول في أهلك العباس ؟ » قال : « رحم الله العباسَ أبا الفضل ، كان صِنُو^(٢) نبي الله صلى الله عليه وسلم ، وَتَرْوَةً عَيْنَ صَفَى الله ، سيد الأعمام ، له أخلاق آباؤه الأجواد ، وأحلام أجداده الأجداد ، تباعدت الأسباب في فضيلته ، صاحب البيت والسقاية والشاعر^(٣) والتلاوة ، وَلِمَ لا يكون كذلك ، وقد ساسه أكرم من دَب^(٤) » فقال معاوية : « يابن عباس ، أنا أهلك كَلَفَانِي^(٥) أهل بيتك » قال : « ولم لا أكون كذلك ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم قَهْمُهُ في الدين ، وَعَلْمُهُ التأويل . ثم قال ابن عباس بعد هذا الكلام : « يا معاوية ، إن الله جل ثناؤه ، وتقدّست أَسْمَاؤُهُ ، خَصَمَ عَمْدًا صلى الله عليه وسلم بصحابة آثَرُوهُ على الأنفس والأموال ، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ، ووصفهم الله في كتابه فقال : (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيَامُهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) ، قاموا بِمَعَالِمِ الدين ، وناصحوا الاجتهاد للسلمين ، حتى تهذبت طرقة ، وقويت أسبابه ، وظهرت آلاؤه^(٦) الله ، واستقرّ دينه ، ووضعت أعلامه ، وأذل الله بهم الشرك ، وأزال رُوحَهُ ، ومحا دُعَايَهُ ، وصارت كلمة الله هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، فصلوات الله ورحمته وبركاته على تلك النفوس الزاكية ، والأرواح الطاهرة السالية ، فقد كانوا في الحياة لله أولياء ، وكانوا بعد الموت أحياء أحماء ، رحلوا إلى الآخرة قبل أن يصلوا إليها ، وخرجوا من الدنيا وهم بعدُ فيها » ، فقطع عليه معاوية الكلام ، وقال : إِيهًا ابن عباس ، حديثًا في غير هذا .

(مروج الذهب ٢ : ٨٤)

(١) يوم القيامة . (٢) الأصل فيه أنه إذا خرج نخلتان أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحدة منهن صنو والاثنتان صنوان والجمع صنوان برقع النون . (٣) شارح المصباح بالكسر : مناسكه وعلاماته ، والشعيرة والشعارة بالفتح ، والمشمّر : موضعها ، والمشمّر الحرام بالزدلفة . (٤) في الأصل : « من دب » أي مشى والمشي عليه صحيح ، وانكسر أرجح أنه « من أدب » لقوله « وقد ساسه » . (٥) رجل كلماني يسكون اللام وفتحها وكلماني بكسر تين مشددة اللام ، وبكسر تين مشددة الميم وتكلامه بكسر فسكون وتشدد لامهما : جيد الكلام فصيح . (٦) الآلا : النعم جمع إلى (يفتح أوله وكسره) وآلو (يفتح أوله) وآل (يفتح ثانيه وفتح أوله أو كسره) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

اجتمعت قریش الشام والحجاز عند معاوية ، وفيهم عبد الله بن عباس ، وكان جريئاً على معاوية حقاراً له^(١) ، فبلغه عنه بعض ما غمه ، فقال معاوية :

٨٤ - مقال معاوية

رحم الله أبا سفيان والعباس ، كانا صَفِيَّيْنِ^(٢) دون الناس ، فحفظتُ لليت في الحى ، والحي في الليت ، استعملك على يابن عباس على البصرة ، واستعمل عبيد الله أخاك على اليمن ، واستعمل أخاك^(٣) على المدينة ، فلما كان من الأمر ما كان ، هَتَانَكُمْ^(٤) مافى أيديكم ، ولم أكشفكم عما وَعَت غرائركم^(٥) ، وقلت آخذ اليوم وأعطي غداً مثله ، وعلت أن بَدْء الزوم يضر بماقية السكرم ، ولو شئت لأخذت بجلافيكم وقِيَانِكُمْ ما أكلتم ، لا يزال ييلقنى عنكم ما تبرك له الإبل ، وذنوبكم إلينا أكثر من ذنوبنا إليكم ، خذتم عثمان بالمدينة ، وقتلتم أنصاره يوم الجمل ، وحاربتمونى بِصَفِيَّيْنِ ، ولصرى لَبَنُوتَيْمٍ وَعَدَى^(٦) أعظم ذنوباً منا إليكم ، إذ صرفوا عنكم هذا الأمر ، وستوا فيكم هذه السنة ، فحقى متى أغضى الجفون على القَدَى^(٧) ، وأسحب القبول على الأذى ، وأقول لعل الله وعسى ما أقول يابن عباس ؟

(١) أى كبير التحقير له . (٢) الصوق : الحبيب المصافق . (٣) لما جاء علياً الخبر من طلحة والزيبر وعائشة أمر على للمدينة تمام بن العباس ، ويشت إلى مكة ثم بن العباس (ثم كمر) وخرج إليهم . (٤) هتاء كنع وضرب : أطعمه وأعطاه . (٥) جمع غرارة بالكسر وهى الجواقي (الثوال) . (٦) يبنى يبنى تيم أباً بكر الصديق (وهو من تيم بن مرة بن كعب بن لؤى) ويبنى يبنى على عمر ابن الخطاب (وهو من على بن كعب بن لؤى) . (٧) القلى : ما يقي فى العين والشراب .

٨٥ - مقال ابن عباس

فكلم ابن عباس قال :

رحم الله أبانا وأباك ، كانا صبيين متفاوضين ^(١) ، لم يكن لأبي من مال إلا ما فضلَ لأبيك ، وكان أبوك كذلك لأبي ، ولكن من هنا أباك بإخاء أبي أكثر من هنا أبي بإخاء أبيك ، نصر أبي أباك في الجاهلية ، وحقن دمه في الإسلام ^(٢) ، وأما استعمال عليّ إيانا فلنفسه دون هواه ، وقد استعملت أنت رجلاً طواك لالنفسك ، منهم ابن الحضرمي على البصرة فقتل ، وبُسر بن أرطاة على اليمن فخان ، وحبيب بن مرة على الحجاز فرّد ، والصنّاع بن قيس الفهري على الكوفة فخصب ، ولو طلبت ما عندنا وقينا أعراضنا ، وليس الذي يبينك عنا بأعظم من الذي يبلغنا عنك ، ولو وضع أصغر ذنوبكم إلينا على مائة حسنة لمحقها ، ولو وضع أدنى عذرنا إليكم على مائة سيئة لحسها ، وأما خذلنا عثمان فلوزمنا نصره لنهزماه ، وأما قتلنا أنصاره يوم الجمل ، فعلى خروجهم مما دخلوا فيه ، وأما حر بنا إياك بصفين ، فعلى تركك الحق وأدعائك الباطل ، وإما اغراؤك إيانا بتم وعدى فلو أردناها ما غلبونا عليها « وسكت . (المقد القرية ٢: ١١٠) »

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

٨٦ - مقال معاوية لابن عباس

أقبل معاوية يوماً على ابن عباس ، فقال :

« لو وليتمونا ما أنبئتم إلينا ما أتينا إليكم من التحريب والتعريب وإعطائكم الجزيل ، وإكرامكم على القليل ، وصبري على ما صبرت عليه منكم ، إني لا أريد أسراً إلا أعظمتم »

(١) المتفاوض : الاشتراك في كل شيء ، والمساواة .
(٢) يشير إلى ما كان من العباس إذ شفع عنه النبي عليه الصلاة والسلام في أبي سفيان يوم فتح مكة .

صَدْرَهُ^(١) ، ولا آتَى مَعْرُوفًا إِلَّا صَغَّرْنَاهُ خَطَرَهُ^(٢) ، وَأَعْطَيْكُمُ الْعَطِيَّةَ فِيهَا قَضَاءَ حَقِّكُمْ ، فَتَأْخُذُونَهَا مُتَكَارِهِينَ عَلَيْهَا ، تَقُولُونَ قَدْ نَقَصَ الْخَلْقَ دُونَ الْأَمْلِ ، فَأَيُّ أَمَلٍ بَعْدَ أَلْفٍ أَعْطَاهَا الرَّجُلَ مِنْكُمْ ، نَمْ أَكُونُ أَسْرًا يُعْطَانِيَا مِنْهُ بِأَخْذِهَا ؟ وَاللَّهِ لَئِنْ أَخَذْتُمْ لَكُمْ فِي مَالِي ، وَذَلَّلْتُمْ لَكُمْ فِي مَرْضَى ، أَرَى اخْتِدَاعِي كَرَمًا ، وَذُلِّي حِلْمًا ، وَلَوْ وَلِيْتُمُونَا رِضِينَا مِنْكُمْ بِالْإِنْتِصَافِ ، وَلَا نَسْأَلُكُمْ أَمْوَالَكُمْ لَعَلَّنَا بِحَالِكُمْ وَحَالَنَا ، وَيَكُونُ أَبْنَضُهَا إِلَيْنَا أَحَبُّهَا إِلَيْكُمْ أَنْ تُعْطِيَكُمْ .

٨٧ - مقال ابن عباس

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :

«لَوْ وَلَيْنَا أَحْسَنَ الْوَسَائَةِ ، وَامْتَنَنَّا بِالْأَثَرَةِ^(٣) ، نَمْ لَمْ نَنْشِمْ^(٤) الْحَى ، وَلَمْ نَنْشِمْ الْمَيِّتَ^(٥) ، فَلَسْتُمْ بِأَجْوَدَ مِنَّا أَكْفًا ، وَلَا أَكْرَمَ أَنْفُسًا ، وَلَا أَصَوْنَ لِأَعْرَاضِ الرِّوَدَةِ ، وَنَحْنُ وَاللَّهُ أَعْطَى لِلْآخِرَةِ مِنْكُمْ لِلدُّنْيَا ، وَأَعْطَى فِي الْحَقِّ مِنْكُمْ فِي الْبَاطِلِ ، وَأَعْطَى عَلَى التَّقْوَى مِنْكُمْ عَلَى الْهَوَى ، وَالْقِسْمَ بِالسُّوْبَةِ وَالْعَدْلَ فِي الرِّعْيَةِ بِأَتْيَانِ عَلَى النَّيِّ وَالْأَمْلِ ، مَا أَرْضَاكُمْ مِنَّا بِالْكَفَافِ ، فَلَوْ رَضِيتُمْ مِنَّا لَمْ تَرْضَ بِأَنْفُسِنَا بِهِ لَكُمْ ، وَالْكَفَافُ رِضًا مِنْ لَاحِقٍ لَهُ ، فَلَا تُبْخَلُّونَا^(٦) حَتَّى نَسْأَلُونَا ، وَلَا تَلْغِظُونَا حَتَّى تَذُوقُونَا .

(المقدّم الفريد ٢ : ١١١)

(١) يقال ورد الماء ليستق ثم صدر عنه : أي رجع صدره « يسكون الدال » وصدروا والاسم منه الصدر « بفتحين » أي أصدرتم ورددتم واورده ظمان لادريان ، يريد أنهم دائبون على مخالفته في كل أمر ، يرون ضد رأيه . (٢) قدره وشأنه . (٣) استأثر على أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة والاسم الأثره ، والممنى وامتنانى وتفعلنا وأنمنا بما نستأثر به . (٤) غشه غشياً : ظلمه . (٥) يمرض به في سبه هليا على المنابر . (٦) لا نرمونا بالبخل (بخله بالتشديد : رماء بالبخل ، وبخله : وجده بخيلاً) .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٨٨ - مقال معاوية لبني هاشم

اجتمع بنو هاشم عند معاوية فأقبل عليهم فقال :

« يا بني هاشم : والله إن خيرى لكم لمَنوح ، وإن بابى لكم لمفتوح ، فلا يقطع خيرى عنكم علةٌ ، ولا يُوصِدُ^(١) بابى دونكم مسألةٌ ، ولما نظرت في أمرى وأمركم رأيت أمرا مختلفا ، إنكم لترون أنكم أحق بما في يدي منى ، وإذا أعطيتكم عطية فيها قضاء حَقِّكم قَلِمَ أعطانا دون حَقِّنا ، وقَصَّرَ بنا عن قَدْرنا ، فصرْتُ كالملسوب ، والملسوب لاحد له ، وهذا مع إنصاف قائلكم ، وإسعاف سائلكم » .

٨٩ - مقال ابن عباس

فأقبل عليه ابن عباس فقال :

« والله ما منحتنا شيئا حتى سألناه ، ولا فتحت لنا بابا حتى قرعناه ، ولئن قطعت عنا خيرك ، لله أوسع منك ، ولئن أغلقت دوننا بابك لنكفُنَ أنفسنا عنك ، وأما هذا المال فليس لك منه إلا ما لرجل من المسلمين ، ولنا في كتاب الله حَقٌّ : حق في الفئمة وحق في الفئ . والفئمة : ما غلبتنا عليه . والفئ : ما اجتبيتناه ، ولولا حَقُّنا في هذا المال لم يأتك منا زائر ، يحملهُ خُفٌّ ولا حافر ، أ كفاك أم أزيدك ؟ قال : كفاي فإنك لا تَمُرُّ^(٢) ، ولا تُشجُّ^(٣) . » (المقد الفريد ٢ : ١١١)

(١) أى ولا يغلُق وفي الأصل « ولا يوجِد » وهو تحريف .

(٢) لا تمر أى لا تنقلب ، هذه يترد (كصرد) مزا (بالفتح) غلبه وفي الأصل « لا تمر » وهو مصحف .

(٣) شج وأمه : جرحه ، والمراد لا تنقلب ولا تهزم .

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا

٩٠ - مقال معاوية

وقال يونا معاوية وعنده ابن عباس : « إذا جاءت بنو هاشم ^(١) بقديها وحديثها ، وجاءت بنو أمية ^(٢) بأحلامها وسياستها ، وبنو أسد ^(٣) بن عبد العزى برافدها وديانتها ، وبنو عبد الدار ^(٤) بمحباتها ولواتها ، وبنو غزوم ^(٥) بأموالها وأفانها ، وبنو تميم ^(٦) بصيدها وحيوادها ، وبنو عدي ^(٧) بفاروقها ومتفكرها ، وبنو سهم ^(٨) بأراثها ودهانها وبنو جهم ^(٩) بشرها وأنوفها ^(١٠) ، وبنو عاصم بن لؤي بفارسها وقريبتها ^(١١) ، فمن ذا يُجملُ مضارها ، ويمرر إلى غايتها ، ما تقول يا ابن عباس ؟ » .

(١) بنو هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة الفخ . (٢) بنو أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف . (٣) بنو أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . (٤) بنو عبد الدار بن قصي ، والحجابة : سادة البيت الشريف ؛ أي تولي مفاتيحه وعلمته ، والواء راية يلوونها على ربح وينصبونها علامة للمسكر إذا توجهوا إلى محاربة عدو فيجتمعون تحتها ويقاثلون عندها ، وكان قصي بن كلاب قد ولي البيت الحرام وأمر مكة بالحكم بها ، واهب دارا بها وهي دار النخوة : وكانت قريش لا تقضي أمرا إلا فيها ، وقد ولد له عبد الدار ، وعبد مناف ، وعبد العزى ، وعبد . فلما كبر قصي ورق ، قال لابنه عبد الدار - وهو أكبر ولده ، وكان فيما يزعمون ضعيفا ، وكان عبد مناف قد شرف في زمان أبيه ، وذهب كل ملعب وعبد العزى ، وعبد - « أما والله لأخفئك بالقوم وإن كانوا قد شرفوا عليك ، لا يدخل رجل منهم لكعبة حتى تكون أنت تقصصها ، ولا يفتح لقريش لواء الحرب إلا أنت يديك ، ولا يشرب رجل بكعة ماء إلا من سقايتك ، ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما إلا من طعامك ، ولا تقطع قرش أمورها إلا في دارك ، فأعطاه داره دار النخوة ، وأعطاه الحجابة والواء والتدوة والسقاية والرفادة ، (وكانت الرفادة خرجا تخرجه قريش في كل موسم من أموالها إلى قصي به ، فيصنع طعاما للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد من يحضر الموسم) . (٥) بنو غزوم بن يثقله (بالتحريك) بن مرة بن كعب بن لؤي .

(٦) بنو تميم بن مرة بن كعب بن لؤي . (٧) بنو عدي بن كعب بن لؤي . (٨) بنو سهم ابن هصيص (كزير) بن كعب بن لؤي ، ومنهم عمرو بن العاص السهمي . (٩) بنو جهم بن هصيص ابن كعب . (١٠) جمع أنف : وهو السيد . (١١) التفرع : للمقارح .

٩١ - مقال ابن عباس

قال : « أقول ليس حتى يَفْخَرُونَ بأمر إلا وإلى جنبهم من يشركهم إلا قُرَيْشًا ، فإنهم يفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها ، ولا يُساوَوْنَ بها ، ولا يُدْفَعُونَ عنها ، وأشهد أن الله لم يجعل عمداً من قریش إلا وقریش خير البرية ، ولم يجعل في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم ، يريد أن يفخر عليكم إلا بما تفخرون به ، إن بنا فتح الأمر وبنا يُخْتَم ، ولك مُلْكٌ مُعْتَمِلٌ ، ولنا ملكٌ مُؤَجَّلٌ ، فإن يكن ملككم قبل ملكنا ، فليس بعد ملكنا ملك ، لأننا أهل العاقبة ، والعاقبة للمتقين » .

(الفتحة للزبيدي ٢ : ١١٢)

٩٢ - عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

لما بلغ معاوية نفي الحسن بن علي رضي الله عنه أظهر الفرح والسرور ، حتى سجد وسجد من كان معه ، فبلغ ذلك عهد الله بن عباس ، وكان بالشام يومئذ ، فدخل على معاوية ، فلما جلس قال معاوية : يا ابن عباس هلك الحسن بن علي ، ولم يظهر حزناً ؟ فقال ابن عباس :

« نعم هلك ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ترجيحاً مُكْرَماً ، وقد بلغني الذي أظهرت من الفرح والسرور لوفاته ، أما والله ما سدت جفونك ، ولا زاد نقصان أجله في عرك ، ولقد مات وهو خير منك ، ولئن أُصِيبْنَا به لقد أصبنا بمن كان خيراً منه ، جدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فخير الله مصيبتته ، وخلف علينا من بعده أحسن الخلافة .

فقال له معاوية : كم كانت سِنَتُهُ ؟ قال : مولده أشهر من أن تُعْرَفَ سَنَتُهُ ! قال : أحسبه ترك أولاداً صغاراً ؟ قال : كلنا كان صغيراً فكبر . ولئن اختار الله لأبي محمد

ما عهده وقبضه إلى رحمة ، لقد أبى الله أباً عبد الله (يعنى الحسين) ، وفي مثله الخلف الصالح ، ثم شفق وبكى ، وبكى من حضر في المجلس ، وبكى معاوية .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٢٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٥٢ والبيان والتبيين ٢ : ٢٢١)

٩٣ — عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي سفيان

قال حُتَيْب بن أبي سفيان لابن عباس : « ما منع أمير المؤمنين أن ييمتك مكان أبي موسى الحَكَمَيْن ؟ » قال : « منه والله من ذلك حاجز القدر ، وقصر اللدة ، ومحنة الاجتلاء ، أما والله لو بسنى مكانه لاعترضت له في مَدَارِجِ نَفْسِهِ ، نافعاً لما أبرم ، ومجرماً لما تقض ، أَسِفٌ^(١) إذا طار ، وأطير إذا أَسَفٌ ، ولكن مضى قدر ، وبقي أسف ومع يومنا غد ، والآخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى . »

(إحسان القرآن ١٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٩٥ ، وأمال المرتضى ١ : ٢٠٧) .

(١) أسف المطار : دنا من الأرض في طيراته .

مخاصمة

بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

قال ابن أبي الحديد : « روى للدائني قال : وقد عبد الله بن عباس على معاوية مرة ، فقال معاوية لابنه يزيد . وزياد بن سُمَيَّة . وعُتْبَةَ بن أبي سفيان . ومروان بن الحكم . ومرو بن العاص . ولُثَيْرَة بن شُعبة . وسعيد بن العاص . وعبد الرحمن بن أم الحكم : إنه قد طال العهد بعبد الله بن عباس . وما كان شَجَرٌ ^(١) بيننا وبينه وبين ابن عمه ، ولقد كان نَصَبه للتحكيم فذَفَعَ عنه ^(٢) ، فخرَّ كوه على الكلام لنيل حقيقة صفته ، وقَفَّ على كُفِّهِ معرفته ، ونرف ماُصْرَفَ هنا من شَبَا ^(٣) حذَه . ووُورَى هنا من دهاء رايه ، فربما وُصِفَ الرء بغير ماهو فيه . وأعطى من النعت والاسم مالا يستحقه . ثم أرسل إلى عبد الله بن عباس . فلما دخل واستقر به المجلس . ابتداء ابن أبي سفيان فقال : يا بن عباس مامنم عليا أن يُوَجَّه بك حكما ؟

٩٤ — جواب ابن عباس

فقال : « أما والله لو فعل لقرنَ عمرًا يَصْنَبُهُ من الإبل ، يُوجِع كَتفيه مِرَاسُهَا ^(٤) ولأذهلت عقله ، وأجرَضْتُهُ بريقه ^(٥) ، وقَدَحْتُ في سُوَيْدَاء قلبه ، فلم يُقِرَّ أمرًا ،

(١) شجر بينهم الأمر : تنازحوا فيه . (٢) لما رأى على إصرار من قبلوا التحكيم من قومه وتشبهم

بقوله أشار عليهم أن يختاروا ابن عباس أو الأشتر النخعي حكما من قبلهم فأبوا إلا أبا موسى الأشعري .

(٣) الشبا : جمع شبة ، وهي حد كل شيء . (٤) أى علاجها وقيادتها . (٥) جرحه بريقه

كفرح ابتله بالجهد مل هم ، وأجرضه بريقه : أخسه .

ولم ينقض ثراباً إلا كنت منه بمرأى ومسمع ، فإن نكته أرمت^(١) قواه ، وإن أرمه فصنت^(٢) هُراه ، يترتب^(٣) يقولو لا يقل حده ، وأصالة رأي كنجاح^(٤) الأجل لا وزر منه ، أضدع^(٥) به أديمه ، وأفل به شبا حده ، وأشخذ به عزائم للمعيز^(٦) ، وأزبح به شبه الشاكين .

٩٥ - مقال عمرو بن العاص

قال عمرو بن العاص : « هذا والله يا أمير المؤمنين نجوم^(١) أول الشر ، وأقول آخر الخير ، وفي حسنه قطع مادته ، فبادره بالحلقة ، وانتهز منه الفرصة ، وادع بالتكامل به غيره ، وشرّد به من خلقه . »

٩٦ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « يا ابن النابغة ، ضلّ والله عقلك ، وسفه حلك ، ونطق الشيطان على لسانك ، هلاّ توليت ذلك بنفسك يوم صِفِّين حين دُعيت نزال^(٢) وتكافح الأبطال ، وكنت الجراح ، وتقصفت الرماح ، وبرزت إلى أمير المؤمنين مصاولاً ، فأنكفأ نحوك بالسيف حاملاً ، فلما رأيت السكوان^(٣) من الموت ، أعددت حيلة السلامة

(١) أرم الحبل ، فطه شديدا . (٢) حلت . (٣) الترب : حد كل شيء ، والمقول : السان .

(٤) من إضافة الصفة للموصوف لى كالأجل للمتاح : أى المقدر . وفوزر : اللجأ . (٥) أشق ، والأديم :

الجلد ، وهو كتابة من غلبة إياه وانتصاره عليه . (٦) فى الأصل : المتقيز « وقد بحث فى كتب الفقه

من مادة « قيز » فلم أجد هذه المادة ، فقلبت الكلمة على الأوجه حتى يظن أنها معرفة عنها ، ورجع لى أنها

معرفة من « للمعيز » من احتز : أى تنحى وانفرد ، يريد الذين تنصروا عن الفتنة والنزاع بين كل وسماوية

وكانوا محايين . (٧) ظهور (مصدر نجم) . (٨) نزال : اسم فعل بمعنى ازل . أى حين قال

الأبطال بعضهم لبعض نزال . (٩) جمع كوز ، وهو الكبير من كل شيء والنهر .

جبل لقائه ، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه ، فنحنه رجاء النجاة مودتك ، وكشفت له خوف بأسه سوءتك ، حذراً أن يصطلمك^(١) بسطوته ، أو يلهمك بمحلتك ، ثم اشترى على معاوية كالتناصح له بمبارزته ، وحسنت له التعرض لمكافئته ، رجاء أن تكفي مشوئته ، وتقدم صورته ، فلم غل صدرك ، وما انحنت عليه من التفاق أضلماك ، وعرف مقر سهمك في غرضك ، فاكف غرّب لسانك ، واقمّع قوراء^(٢) لفظك ، فإنك بين أسد خادر^(٣) ، وبحر زاهر ، إن تبرزت للأسد اقتسك ، وإن عمت في البحر قسك^(٤) .

٩٧ - مقال مروان بن الحكم^(٥)

قال مروان بن الحكم : « يا بن عباس إنك لتصرف^(٦) بنايك ، وتورى نارك ، كأنك ترجو النجاة ، وتؤمل العاقبة ، ولولا حلم أمير المؤمنين عنكم ، لتناولكم بأقصر أمانه ، فأوردكم منهلاً بعيداً صدره^(٧) ، ولعمري لئن سطا بكم ليأخذن بعض حقه منكم ، ولئن هذا من جواركم لقديم ما نسيب إلى ذلك » .

(١) اصطلمه : استأمله . (٢) القوراء : الكلمة أو القملة القبيحة . (٣) الخدر : أجمة الأسد ومثله قيل أسد خادر . (٤) غسك وأغرظك . (٥) هو مروان بن الحكم بن أبي العاص ابن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة ، واستلم معاوية على المدينة ومكة والحائط ، وولى الخلافة بعد موت معاوية الثاني سنة ٦٤ هـ ومات بالشام في ٣ رمضان سنة ٦٥ ، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يوماً . (٦) صرفت البكرة تصرف كصرف صريفاً : صوتت عند الاستقاء ، وهو أيضاً صرير الباب وناب البعير . (٧) الصدر : الرجوع .

٩٨ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس : « وإنك لتقول ذلك يا عدو الله ، وطريد رسول الله ^(١) صلى الله عليه وسلم ، وللباح دمه ^(٢) ، والداخل بين عثمان ورعيته بما حاهم على قطع أوداجه ^(٣) ، وركوب أثباجه ^(٤) ، أما والله لو طلب معاوية ثأره لأخذك به ، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره ، وأما قولا لي : إنك لتصرف بنا بك ، وتورى نارك ، فسل معاوية

(١) يريد « وطريد رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبيك » أو « وبابن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم » فإن الحق أن طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أبوه الحكم بن أبي العاص ، وذلك أنه قدم المدينة بعد الفتح - وكان قد أسلم يوم الفتح - فأعرجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، وقال : « لا تماكني في بلد أبدا » أوتيته فيه ، قيل : كان يتسمع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلع عليه من باب بيته ، وإنه هو الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقرأ فيه بمدى في يده لما أطلع عليه من الباب ، وقيل كان يحكي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مشيته ويضرب حركاته - وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفأ في مشيته - فالتفت يوما فرآه وهو يتخلج في مشيته ، فقال « كن كذلك » فلم يزل يرتش في مشيته من يومئذ ، وطرده رسول الله صلى الله عليه وسلم ولمنه وأبمنه حتى صار مشهورا بأنه طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يزل مضيا حياة للنبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ولي أبو بكر الخلافة قيل له في الحكم ليرده إلى المدينة ، فقال : « ما كنت لأحل عقده مطلقا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك عمر ، فلما ولي عثمان الخلافة - والحكم حره - رده ، وقال : « كنت قد شغمت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعاني برده » وقد توفي في خلافة عثمان . أما مروان فلم ير النبي عليه الصلاة والسلام ، لأنه خرج إلى الطائف طفلا لا يعقل لما نفي النبي أباه - وقد ولد بمكة سنة اثنتين للهجرة - وقيل إنه ولد بالطائف لإبان نفي أبيه بها . (٢) أي في فنة عثمان ، وذلك أن الثوار بعد أن وليا الإمام على ثأرتهم خرجوا عن المدينة ، ولعنهم في أثناء رجوعهم سبطوا غلام عثمان ، وسماه كتاب إلى حامل مصر يأمره فيه بقتلهم ، فمادوا إلى المدينة ثانية وكانوا يصدقون أن مروان هو الذي كتب ذلك للكتاب ، وقد سألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وعشى عليه القتل . (٣) جمع ودج (حركة) وهو مرق الأنواع الذي يقطعه النابح . فلا يبق منه حياة . (٤) جمع ثبج (حركة) وهو ما بين السكامل إلى الظهر .

وعمرًا بخيرك ليلة المرير^(١) كيف ثباتنا للثلاث^(٢) ، واستغفأنا بالمُضِلَّات ، وصدق
جِلَادَنَا عند المصاوة ، وصبرنا على اللأواء^(٣) والطاوة ، ومصاحفنا بجهاضنا السيوف
المرهقة^(٤) ، ومباشرتنا بنحورنا حدَّ الأسنة ، هل حننا^(٥) عن كرائم تلك المواقف ؟
أم لم نبذل مهجنا^(٦) للثأف ؟ وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود ، ولا يوم مشهود ،
ولا أثر معدود ، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلتك ، فارتع على ظلمك^(٧) ، ولا تنعرض
لما ليس لك ، فإنك كالنوروز في صفد^(٨) ، لا يهبط برجل ، ولا يرتقا^(٩) يد .

٩٩ — مقال زياد

قال زياد : « بابت عباس : إني لأمل ، ما منع حسنًا وحسينًا من الوفود معك على
أمر المؤمنين إلا ماسوت لها أنفسهما ، وغرما به من هو عند البأساء يُسْلِمهما^(١٠) ، وإيم الله
لو وليتهما لأدبا^(١١) في الرحلة إلى أمير المؤمنين أنفسهما ، ولقل بمكانهما كبئنهما » .

١٠٠ — جواب ابن عباس

قال ابن عباس : « إذن والله يَقْعُرُ دونهما بأطك ، ويضيق بهما ذراعُك ،
ولو رُمِتَ ذلك لوجدت من دونهما فئةً صِدْقًا صَبْرًا^(١٢) على البلاء ، لا يُخَيِّمون عن اللقاء ،

-
- (١) هي ليلة العاشر من صفر سنة ٣٧ ، وفيها حل جيش عليّ حل جيش معاوية في وقعة صفين
حلة صفية ، واقتطروا تلك الليلة كلها حتى الصباح ، وأوشك جيش عليّ أن تكون له الغلبة .
(٢) جمع مظلة (كفرقة) من مثلت بالقتيل : إذا نكلت به . (٣) اللأواء : الشدة .
(٤) المرهقة . (٥) خام عنه يخيم : جبن ونكس . (٦) جمع مهجة ، وهي الدم أو الروح .
(٧) ريع كنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلم ظلمًا كنع : غمز فمشيه ، وأربع على ظلمك أي أنك ضعيف
فأنت عمالاً تطبيقه وأسكت حل مانعك من عيب . (٨) الصفد : القيد ، وفي الأصل « كالنوروز في صفده »
وأراه « كالنوروز في صفد » . (٩) أي يصعد ويعلو : رقا في الدرجة صفد : يقال رقأت ورقيت
(كرشيت) وترك الحزمة أكثر . (١٠) أسلمه : خذله . (١١) أجهدا وأتينا .
(١٢) أي ذات صفى وصبر على البلاء أو هو « صدقا صبرا » بضمين جمع صدوق وصبور .

ظَلَمَ كُوكَ بِكَلَامِهِمْ^(١) وَوَلَّيْتُكَ بِمَنَاسِمِهِمْ^(٢) وَأَوْجَرُوكَ^(٣) مَشَقَّ رِمَاحِهِمْ ، وَشَفَّارَ^(٤) سِيُوفِهِمْ ، وَوَحَزَّ أَسِنَّتَهُمْ ، حَتَّى تَشْهَدَ بِسُوءِ مَا أَتَيْتَ ، وَتَقْبِيزَ ضِيَاعِ الْحَزْمِ بِمَا جُعِلَتْ ، فَحَذَّارٍ حَذَارٍ مِنْ سُوءِ النِّيةِ ، فَإِنَّهَا تَرُدُّ الْأُمْنِيَّةَ ، وَتَكُونُ سَبَبًا لِفَسَادِ هَذَيْنِ الْحَيِّينَ بِسَدِّ صِلَاحِهِمَا ، وَسَبَبًا فِي اخْتِلَافِهِمَا بِسَدِّ اخْتِلَافِهِمَا ، حَيْثُ لَا يَضُرُّهُمَا إِنْ سَاسُكَ^(٥) ، وَلَا يُفْنِي عَنْهُمَا إِنْ تَاسَكَ .

١٠١ - مقال عبد الرحمن بن أم الحكم

قال عبد الرحمن بن أم الحكم :
« اللَّهُ دَرَاهِنُ مُلْجَمٍ^(١) ، قَدْ بَلَغَ الْأَمَلُ ، وَأَمِنَ الْوَجَلُ ، وَأَحْدُ الشَّفَرَةِ ، وَالْأَنْ الْمُهْرَةِ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ ، وَتَنَقَّى الْعَارَ ، وَكَازَ بِالْمُرْزَةِ الْعُلْيَا ، وَرَزَقَ الْمُرْجَةَ الْقَصْوَى . »

١٠٢ - جواب ابن عباس

قال ابن عباس :
« أَمَّا وَاللَّهِ لَقَدْ كَرَّعَ^(١) كَأْسَ حَتْفِهِ يَبْدَهُ ، وَعَجَّلَ اللَّهُ إِلَى النَّارِ بِرُوحِهِ وَلَوْ أَبْدَى لَأَمِيرَ لِلزُّمَيْنِ صَنَعَتَهُ ، خَالَطَهُ الْقَتْلُ الْقَطِيمَ^(٢) ، وَالسَّيْفُ الْخَلْدِيمَ ، وَلَاقَتْهُ صَابَا^(٣) ، وَسَقَاةً بِحَامًا^(٤) ، وَأَلْفَهُ بِالْوَلِيدِ وَعُتْبَةَ وَحَنَظَلَةَ^(٥) ، فَكَلِمَهُمْ كَانَ أَشَدَّ مِنْهُ شَكِيمَةً^(٦) ،

-
- (١) جمع كل شكل وهو الصنم . (٢) جمع منم (كجلس) وهو غف الجير .
(٣) أوجره الرمح : طعنه به في فيه ، والمشق : سرعة في العطن والضرب أو هو بمعنى مفعول ، قضيب مشوق : أي طويل دقيق . (٤) جمع شفرة : وهي حد السيف . (٥) الإيأس : التلطف بالناقة وقت حلبها ، بأن يقال لها يس يس (يفصح فسكون) تسكينا لها . (٦) هو عبد الرحمن بن ملجم المرادي لعنه الله قاتل الإمام علي . (٧) كرع في الماء : تناوله يفنيه من موضعه . (٨) قتل القتل كفرح فهو قتل : انتهى القرباب . (٩) صارة شجر مر . (١٠) جمع سم مثلث السين .
(١١) الوليد بن عتبة : عمال معاوية ، وعتبة بن ربيعة : جده لأمه ، وحنظلة بن أبي سفيان أخوه ، وقد قتلهم علي يوم بدر . (١٢) الشكيمة : الأنفة ، وهو شديد الشكيمة : أي أنف أبي لا يتقاد .

وامضى عزيمة ، فقرأ بالسيف هاتهم ^(١) ، ورمّاهم ^(٢) بدماهم ، وقرأ الذئاب
أشلاءم ^(٣) ، وفرق بينهم وبين أحبائهم ، أولئك حصب ^(٤) جنم لها واردون ، فهل
نحس منهم من أحدٍ أو سمع لهم ركرًا ^(٥) ؟ ولا غرو إن خيل ، ولا وصّة إن قتل ،
فإنا لكما قال دُرَيْدُ بْنُ الصَّعْتِ :

فإنا لنعلمُ السيفَ غيرَ مُكرِّهٍ ونُلجِئُه طوراَ وليس بذي نُكرٍ ^(٦)
يُبَارِ علينا واثِرِن قَيْشَتِنِي بنا إن أصبنا أو تُتيرَ على وِترٍ ^(٧)

١٠٣ - مقال المغيرة بن شعبة

فقال للمغيرة بن شعبة :

« أما والله لقد أشرتُ على طَلٍّ بالنصيحة ، فأثر رأيه ، ومضى على غلوائه ^(٨) ،
فكانت العاقبة عليه لا له ، وإنى لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه » .

١٠٤ - جواب ابن عباس

فقال ابن عباس :

« كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي ، ومعاقد الحزم ، وتصريف
الأمر ، من أن يقبل مشورتك فيما نهي الله عنه ، وعنف عليه ، قال سبحانه وتعالى :

(١) هام : جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) رمل الثوب : لطخه بالدم ، ويجوز أن يكون ورمّاهم
أي لفهم بدماهم (على المجاز) . (٣) أشلاء : جمع شلو ، وهو الضو ، وقرأ الشيف قرى
(بالكسر) : أضاه . (٤) الحطب ، وما يرى به في النار . (٥) الصوت الخف .
(٦) أنفس : أطعمه اللحم . (٧) الوتر : الثار ، وقد وثره يتره . (٨) الغلواء : التلوي ،
وذلك أن المغيرة جاء حلياً بعد مقتل صُيَّان ، وقال له : إن النصح وخيم وأنت بقية الناس وأنا لك ناصح ،
وأنا أشير عليك أن ترد عمال صُيَّان حاكم هذا ، فاكذب إليهم بآياتهم على أعمالهم ، فإذا بايسوا لك ، والطمأن =

« لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ^(١) اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ » ولقد وثقت على ذكر مابين وآية متلوّة ، قوله تعالى : « وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا » . وهل كان يسوع له أن يُحْكَمَ في دماء المسلمين ، وَفَىءَ المؤمنين ، من ليس بمأمون عنده ، ولا موقوف به في نفسه ؟ هيهات هيهات ، هو أعلم بفرض الله وسنن رسوله أن يُبَيِّنَ خلافَ ما يُظْهِرُ إِلَّا لِقَبَّةِ^(٢) ، ولات حين تقيّة ، مع وضوح الحق ، وثبوت الجنان ، وكثرة الأنصار ، يفضى كالسيف المصلّت^(٣) في أمر الله ، مُؤَثِّرًا لطاعة ربه والتقوى ، على آراء أهل الدنيا .

١٠٥ - مقال يزيد بن معاوية

قال يزيد بن معاوية :

« يا بن عباس ، إنك لتتطرق بلسان طالق^(١) ، يبنى^(٢) عن مكنون قلب حرق^(٣) ، فاطري على ما أنت عليه كشحاً^(٤) ، فقد محاضوه حقنا ظلمة باطلكم . »

« امرئ عزلت من أحبيبت ، وأقررت من أحبيبت ، فقال له : واثق لا أدامن في ديني ، ولا أصلي للرياء في أمرى ، قال : فإن أبيت فارتع من شئت وأترك معاوية فإن له جرمة وهو في أهل الشام مسموح به ، والله حجة في إثباته فقد كان عمر ولاء الشام كلها ، فقال له : لا واثق لا أصل معاوية يومين أبدا . (وقد كان ابن عباس يرى إثبات معاوية حتى يبيع ، وقال لعل : فإن يبيع لك فعل أن أقلمه من منزله ، فقال على : لا واثق لا أصليه إلا بالسيف) . (١) حاده : غاضبه وعاداه وغالقه . (٢) التقيّة : المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء إذا كانت المداوة يسبب للفتن . (٣) المسلول .

(٤) لسان طلق : (يسكون اللام وكسرها) ذلق . (٥) الحرق : المحروق وفي الحديث « المحرق شهيد » وفي رواية « المحرق » أي الذي يقع في حرق النار (يفصحين) فيليب ، والمحرق بحركة : النار ولهبها ، وفي الحديث « المحرق والفرق والشرق شهادة » وحرق شره كفرح : تقطع ونسل . (٦) الكشع : ما بين الخافرة إلى الضلع الخلف ، وطوى كشحه على الأمر أضمره وستره .

١٠٦ - جواب ابن عباس

قال ابن عباس :

« مهلا يزيد^(١) ، فوالله ما صفت القلوب لكم ، منذ تكدرت بالعداوة عليكم ، ولا دنت بالحببة إليكم ، مذ نأت بالبغضاء عنكم ، ولا رضيت لليوم منكم ، ما سخطت بالأمس من أفعالكم ، وإن تُدِلَّ^(٢) الأيامُ نستقصِ ما شذَّ عناء ، ونسترجع ما ابتزَّ^(٣) منا ، كيلاً بكيال ، ووزناً بوزن ، وإن تكن الأخرى ، فكفى بالله ولياً لنا ، ووكيلاً على للمتدين علينا . »

١٠٧ - مقال معاوية

قال معاوية :

« إن في قضي منكم لحزازاتٍ يابني هاشم ، وإنى ظليق أن أدرك فيكم النار ، وأنفي العار ، فإن دماءنا قبلكم ، وظلامتنا فيكم . »

١٠٨ - جواب ابن عباس

قال ابن عباس :

« والله إن رمت ذلك يا معاوية كَثِيرُونَ عليك أسداً مُخْدَرَةً^(١) ، وأفاعى مُطْرِقَةً ، لَا يَفْتَوْهَا^(٢) كثرة السلاح ، وَلَا تَمُصُّهَا نكايَةُ الجراح ، يَضُمُونَ أَسْيَافَهُمْ عَلَى عَوَاتِقِهِمْ ،

(١) أدله الله من عدوه : نصره عليه . (٢) ماسلب . (٣) أخدر الأسد : لزم الأجمة ، وأخدر للعين الأسد : ستره فهو مخدر (بكسر الدال وقصمها) . (٤) قُتِلَ للنصب كنع : سكته وكسره ، وللقدر سكن غلباتها .

يُضْرَبُونَ قَدْماً قَدْماً مِنْ نَوَآمٍ^(١) ، يَهْوُونَ عَلَيْهِمْ نُجَاحَ الْكَلَابِ ، وَهُوَ الْقَتَابُ ، لَا يُفَاتُونَ بَوْرَ ، وَلَا يُسْبِقُونَ إِلَى كَرِيمٍ ذَكَرَ ، قَدْ وَطَنُوا عَلَى اللُّوْثِ أَنْفُسَهُمْ ، وَسَمَتْ بِهِمْ إِلَى الْعِلْيَاءِ مَحْصَمٌ ، كَمَا قَالَتِ الْأَزْدِيَّةُ :

قَوْمٌ إِذَا شَهِدُوا الْهِجَابَ فَلَا ضَرْبَ يَنْتَهِيهِمْ وَلَا زَجْرَ^(٢)
وَكَانَهُمْ آسَادُ غِيْثَةٍ قَدْ غَرِثَتْ وَبَلَّ مُتُونَهَا الْقَطَرُ^(٣)

فَلَتَكُونُ^(٤) مِنْهُمْ بَحِثٌ أَعْدَدْتَ لَيْلَةَ الْمَرِيرِ الْهَرَبَ فَرَسَكَ ، وَكَانَ أَكْبَرُ هَمِّكَ سَلَامَةُ حُشَاةِ^(٥) نَيْسِكَ ، وَلَوْلَا طَمَامُ^(٦) مِنْ أَهْلِ الشَّامِ وَقَوَّكَ بِأَنْفُسِهِمْ ، وَبَذَلُوا دُونَكَ مَهْجَمٌ ، حَتَّى إِذَا ذَاقُوا وَخَرَ الشُّغَارَ ، وَأَيَقَنُوا بِمَجْلُولِ الدَّمَارِ ، رَضُوا لِلصَّاحِفِ مُسْتَجِيرِينَ بِهَا ، وَعَلَانِيَةً بِمَصْنَعِهَا ، لَكُنْتُ شِلْوًا مَطْرُوحًا بِالْعَرَاءِ^(٧) ، تَنْفِيْ عَلَىكَ رِيَاحُهَا^(٨) ، وَيَسْتَوْرِكُ ذَنَابُهَا ، وَمَا أَقُولُ هَذَا أُرِيدُ صَرْفَكَ عَنْ عَزِيْمَتِكَ ، وَلَا إِزَالَتِكَ عَنْ مَقْعُودِ نَيْتِكَ ، لَكِنْ الرَّحِمُ الَّتِي تَحْطِفُ عَلَيْكَ ، وَالْأَوَاصِرُ^(٩) الَّتِي تَوْجِبُ صَرْفَ النَّصِيحَةِ إِلَيْكَ .
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : « اللَّهُ دَرَكُ ابْنِ عَبَّاسٍ ، مَا تَكْشِفُ الْأَيَّامُ مِنْكَ إِلَّا عَنْ سَيْفٍ صَقِيلٍ ، وَرَأَى أَمِيلًا ! وَبَاقَهُ لَوْلَمْ يَلِدْ هَاشِمٌ غَيْرَكَ ، لَمَّا نَقَصَ عَدَدُهُ ، وَلَوْلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِكَ سِوَاكَ لَكَانَ اللَّهُ قَدْ كَثَّرَهُ ! » ثُمَّ نَهَضَ فَمَامَ ابْنَ عَبَّاسٍ وَانْصَرَفَ .

(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ص ١٠٥)

-
- (١) النعام : الفصاح والمضى أمام أمام ، ونواأم : عظام . (٢) نهيه عن الأمر : كفه وزجره .
(٣) النية : بالكسر الأجمة ، والنية بالفتح : الأشجار اللطيفة في الجبال وفي السهل بلا ماء ، فإذا كانت بماء فهي غيثة ، وغرث : كفتح جاع فهو غرثان . (٤) الحشاة : بقية الروح في المريض والجريح .
(٥) الطمام : أوغاد الناس . (٦) العراء : القضاء لا يستتر فيه شيء . (٧) سفت الريح : التراب تنفيه : ذرته ، أو حمله . (٨) في الأصل « والأواصر » وهو تحريف .

عبد الله بن عباس وعمر بن العاص

قام عمرو بن العاص في موسم من مواسم الحرب ، فأطرى معاوية بن أبي سفيان وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وذكر مشاهدته بصفين ، واجتمعت قریش فأقبل عبد الله ابن عباس على عمرو فقال :

١٠٩ - مقال ابن عباس

« يا عمرو إنك بعت دينك من معاوية ، وأعطيت ما بيدك ، ومثاك ما بيد غيره ، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك ، والذي أخذت منه دون الذي أعطيت ، وكل راضٍ بما أخذ وأعطى ^(١) ، فلما صارت مصر في يدك كدّرها عليك بالعرل والتنقيص ^(٢) ، حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها إليه ، وذكرت يومك مع أبي موسى ،

(١) وذلك أن عمرا لما لحق بمعاوية بعد أن بلغه مقتل حبان سأله معاوية أن يتبعه ، قال عمرو فأكتب له مصر وكورها طعمة فكتب له ، وقال عمرو في ذلك :

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل به منك دنيا فانظرون كيف تصنع

فإن تعطى مصرا فأربيع صفقة أعطت بها شيئا يقر ويثقل

ثم إنه بعد سنة ٣٨ في جيش لغزو مصر، وكان عليها محمد بن أبي بكر من قبل الإمام علي فنهزمه وقتله ، وصارت مصر في حوزة معاوية فولاه عليها أميرا . (٢) روى ابن سعد في كتاب الطبقات الكبير

(ج ٤ : ص ٥) قال :

« لما صار الأمر في يدي معاوية استكثر طعمة مصر لعمرو ماعاشي ، ورأى عمرو أن الأمر كله قد صلح به وبغيره وعنايه وسعيه فيه ، وغل أن معاوية سيزيده الثأم مع مصر ، فلم يفعل معاوية ، فتكر عمرو لمعاوية فاعطفا وتغالفا . وتميز الناس ، وغلوا أنه لا يجمع أمرهما ، فدخل بينهما معاوية بن حننيل وأصلح أمرهما ، =

فلا أراك فخرت إلا بالندر ، ولا مننت إلا بالفجور والنش ، وذكرت مشاهدك بصفين ،
فوالله ما قتلت علينا يومئذ وطأتك ، ولا نكثنا^(١) فيها حربك ، ولقد كشفت فيها
عورتك ، وإن كنت فيها لطويل اللسان ، قصير السنان ، آخر الخليل إذا أقبلت ، وأولها
إذا أدبرت ، لك يدان : يد لا تبسطها إلى خير ، وأخرى لا تقبضها عن شر ، ولسان غرور
ووجهان : وجه موحش ، وجه مؤنس ، ولعمري إن من باع دينه بدنياه غيره لحري أن
يطول حزنه على ما باع واشترى ، لك بيان وفيك خطل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك
قدر وفيك حسد ، وأصر عيب فيك أعظم عيب في غيرك .

١١٠ - رد ابن العاص

فأجابه عمرو بن العاص : والله ما في قريش أهل على مسألة ، ولا أسر جواباً منك ،
ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت ، غير أني لم أبع ديني من معاوية ، ولكن بت الله
نفسى ، ولم أنس نصيبى من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تمك القرآن
أخمر^(٢) . وأما ما أنى إلى معاوية في مصر فإن ذلك لم يغيرني له ، وأما خفة وطأني
عليكم بصفين ، فلما استقلتم حياتي واستبطأتم وقائي . وأما الجبن فقد علمت قريش أني
أول من يبارز ، وآخر من ينازل . وأما طول لساني ، فإني كما قال هشام بن الوليد لعثمان
ابن عفان رضى الله عنه :

— وكتب بينهما كتابا ، وشرط فيه شروطا لمعاوية ، وعمرو خاصة ، وقاتس عليه ، وأن لمصر ولاية مصر
سبع سنين ، وعمل أن كل عمرو للبحر والسماء لمعاوية ، وتوافقا وتماهدا حل ذلك ، وأشهدا عليها به شهودا ،
ثم مضى عمرو بن العاص على مصر وأقيا عليها ، وذلك في آخر سنة تسع وثلاثين ، فوافقه ما مكث بها إلا سنتين
أو ثلاثا حتى مات . (١) لكي العدو نكية : قتل وجرح . (٢) في المثل « إن العوان لا تعلم الخمرة »
والعوان من النساء التي كان لها زوج ، والخمرة اسم من الاختيار ، واختبرت المرأة ، ليست الخمار بكسر الخاء
(الطرحة) يضرب الرجل للجرير .

لساني طويل فاحترس من شذاته هليك ، وسيفي من لساني أطول^(١)
وأما وجهاي ولساناي ، فإني ألقى كل ذي قدر بقدره ، وأرعى كل ناعج بحجره ،
فمن عرف قدره كفاي نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسه ، ولمعري ما لأحد من
قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فابتنفى ذلك عندك ، وأنشأ عمرو يقول :

بني هاشم مالي أراكم كأنكم بني اليوم جهال^(٢) ؟ وليس بكم جبل
ألم تملوا أني جسر على الوقي سريع إلى الداعي إذا كثر القتل
وأول من يدعو « نزال » طبيعة^(٣) جبلت عليها ، والطباع هو الجبل^(٤)
وأني فعلت الأمر بعد اشتباهه بدومة إذ أعاها على الحكم الفضل^(٥)
وأني لا أعيا بأمر أريده وأني إذا عجت بكاركم فحل^(٦)

(اللفظ الفريد ١١٢ : ١ ، وشرح بن أبي الحديد ١ : ص ١٩٦ والبيان والتبيين ٢ : ١٥٩)

١١١ - عبد الله بن عباس وعمر بن العاص أيضاً

حج عمرو بن العاص فرّ بعبد الله بن عباس ، فغسده مكانه وما رأى من هيئة
الناس له ، وموقعه من قلوبهم ، فقال له يابن عباس : « مالك إذا رأيتني وليتني
القصرة^(١) ، وكان بين عينيك دبرة^(٢) » ، وإذا كنت في ملأ من الناس كنت

(١) الشفة : الحدة ، والشفة والشفا بالمدال والبال : حد كل شيء . (٢) أي نازلوني أيما الأثران ،
والطباع : الطبيعة والسجية جبل عليها الإنسان ، والجبل : مصدر جبل . (٣) هي دومة الجندل التي اجتمع
فيها الحكمان عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعري . (٤) الجكار : جمع بكرة (بالفتح) وهي الناقة
التيعة ، وعجت : أي صاحت ورفقت صوتها . (٥) القصرة : أصل المني في مركبه في السكامل ، ويقال
لعتق الإنسان كله قصرة ، والمني وليتي عنك إمرأته . (٦) الدبرة : يسكون الباء وتصحها المفزعة
في القتال : وهو اسم من الإديبار والمراد بها هنا الإغضاء وعدم الإقبال .

الْمَوْهَاجَةُ^(١) الْهَمْزَةُ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « لَأَنَّكَ مِنَ النَّاسِ الْفَجْرَةِ ، وَفَرِيشُ الْكِرَامِ الْبَرَّةُ ، لَا يَنْتَقُونَ بِبَاطِلِ جِهْلِهِ ، وَلَا يَكْتُمُونَ حَقًّا عَلَيْهِ ، وَهُمْ أَعْظَمُ النَّاسِ أَهْلًا ، وَأَرْفَعُ النَّاسِ أَعْلًا . دَخَلْتَ فِي فَرِيشٍ وَلَسْتَ مِنْهَا ، فَأَنْتَ السَّاقِطُ بَيْنَ فَرِاشَيْنِ ، لَا فِي بَنِي هَاشِمٍ رَحْلُكَ ، وَلَا فِي بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ رَاحِلُكَ ، فَأَنْتَ الْأَثِيمُ الزَّانِمُ^(٢) الْغَضَالَ لِلضِّلِّ ، حَمَلْتَ مِصَاوِيَةَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ ، فَأَنْتَ تَسْطُو بِجِلْمِهِ ، وَتَسْمُو بِكِرْمِهِ » فَقَالَ عَمْرُو : أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَمَسْرُورٌ بِكَ ، فَوَلَّيْتُ عَنْكَ ؟ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : حَيْثُ مَالُ الْحَقِّ مِلْنَا ، وَحَيْثُ سَلَكَ قَصْدُنَا .
(الْفَقْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ١١٢)

١١٢ — عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ وَابْنُ عَبَّاسٍ

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ :
« إِنْ هَذَا الْأَمْرُ الَّذِي نَحْنُ وَأَنْتُمْ فِيهِ لَيْسَ بِأَوَّلِ أَمْرٍ قَادَهُ الْبَلَاءُ ، وَقَدْ بَلَغَ الْأَمْرُ مِنَّا وَمَعَكُمْ مَا تَرَى ، وَمَا أَبْقَتْ لَنَا هَذِهِ الْحَرْبُ حَيَاءً وَلَا صَبْرًا ، وَلَسْنَا نَقُولُ : لَيْتَ الْحَرْبُ عَادَتْ ، وَلَكِنَّا نَقُولُ : لَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ كَانَتْ ، فَانْظُرْ فَيَا بَنِي بَنِيهِ مَا مَضَى ، فَإِنَّكَ رَأْسُ هَذَا الْأَمْرِ بِمَدِّهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمِيرُ مِطَاعٍ ، وَمَأْمُورٌ مِطَاعٍ ، وَمَشَاوِرُ مَأْمُونٍ ، وَأَنْتَ هُوَ .
(الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ٢ : ١٥٨)

١١٣ — مِفَاخِرَةُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزَّيْرِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ

تَزَوَّجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ أُمَّ عَمْرُو بِنْتَ مَنظُورِ بْنِ رَبَّانٍ الْفَزَارِيَّةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ بِهَا قَالَ لَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةُ : أَتَذَرِينَ مِنِّي مَعَكَ فِي جَحَنِكَ^(٣) ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزَّيْرِ بْنُ

(١) قَالَ صَاحِبُ الْإِسْنَانِ : وَفِي حَدِيثِ عَمْرُو بْنِ عَبَّاسٍ : « كُنْتُ الْمَوْهَاجَةَ الْهَمْزَةَ » الْمَوْهَاجَةُ : الْأَحَقُّ ، وَقَالَ أَيْضًا : « رَجُلٌ مَوْهَاجٌ وَمَوْهَاجَةٌ وَمَوْهَاجَةٌ بَفَتْحِ الْأَوَّلِ ضَعِيفٌ لِلْفَزَادِ جَبَانٌ ، وَرَجُلٌ مَوْهَاجٌ بِضَمِّ الْأَوَّلِ جَبَانٌ أَيْضًا . (٢) الزَّانِمُ : الْمُسْتَطَقُّ فِي قَوْمٍ لَيْسَ مِنْهُمْ وَالْذَمُّ . (٣) الْحِجَلَةُ : كَالْقَبَةِ ، وَمَوْضِعُ بَرْزَخٍ بِالنِّيَابِ وَالْمَشْهُورِ الْمَرْسُورِ .

التَّوَامِ بْنِ حُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الرَّزْمِيِّ . قَالَ : لَيْسَ غَيْرُ هَذَا ؟ قَالَتْ : فَمَا الَّذِي تَرِيدُ ؟
 قَالَ : مَعَكَ مِنْ أَصْبَحٍ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بَلْ بِمَنْزَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ
 الرَّأْسِ . قَالَتْ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أَنَّ بَعْضَ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَكَ ، لَقَالَ لَكَ خِلَافُ قَوْلِكَ ،
 فَضُضِبَ وَقَالَ : الطَّامُ وَالشَّرَابُ عَلَى حَرَامٍ حَتَّى أَحْضَرَكَ الْمَاشِئِينَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ،
 فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَدَيْكَ إِنْكَارًا ، قَالَتْ : إِنْ أَطَعْتَنِي لَمْ تَفْعَلْ ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ وَشَأْنُكَ ، فَخَرَجَ
 إِلَى الْمَسْجِدِ فَرَأَى حَلْفَةَ فِيهَا قَوْمٌ مِنْ قَرِيشٍ ، مِنْهُمْ : عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، وَعَبْدُ اللَّهِ
 ابْنُ الْحَصَيْنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ ، فَقَالَ لَهُمُ ابْنُ الزَّيْرِ : أَحِبُّ أَنْ
 تَنْتَقِلُوا مَعِيَ إِلَى مَنْزَلِي ، فَمَامَ الْقَوْمُ بِأَجْمَعِهِمْ ، حَتَّى وَقَفُوا عَلَى بَابِ بَيْتِهِ ، فَقَالَ ابْنُ الزَّيْرِ :
 يَا هَذِهِ اطْرَحِي عَلَيْكَ سِتْرَكَ ، فَلَمَّا أَخَذُوا بِمَجَالِسِهِمْ دَعَا بِالْمَائِدَةِ فَتَقَدَّسَ ^(١) الْقَوْمُ ، فَلَمَّا
 فَرَّغُوا قَالَ لَهُمْ : إِنَّمَا جِئْتُمْ لِحَدِيثٍ رَدَّتهُ عَلَى صَاحِبَةِ السِّرِّ ، وَزَعَمْتَ أَنَّهُ لَوْ كَانَ
 بَعْضُ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ حَضَرَ لِمَا أَقْرَأَ لِي بِمَا قُلْتَ ، وَقَدْ حَضَرْتُمْ جَمِيعًا ، وَأَنْتَ
 يَا ابْنَ عَبَّاسٍ مَا تَقُولُ ؟ إِنِّي أَخْبَرْتُهَا أَنَّ مِمَّا فِي خَدْرِهَا مَنَ أَصْبَحَ فِي قَرِيشٍ بِمَنْزَةِ الرَّأْسِ
 مِنَ الْجَسَدِ ، لَا بَلْ بِمَنْزَةِ الْعَيْنَيْنِ مِنَ الرَّأْسِ ، فَرَدَّتْ عَلَى مَقَالَتِي .

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَرَأَيْكَ قَصَدْتَ قَصْدِي ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ أَقُولَ قُلْتُ ، وَإِنْ شِئْتَ
 أَنْ أَكْفَ كَفَفْتُ . قَالَ : بَلْ قُلْ وَمَا عَسَى أَنْ تَقُولَ ؟ أَلَسْتُ تَعْلَمُ أَنَّ ابْنَ الزَّيْرِ حَوَارِيٌّ ^(٢)
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ وَأَنْ أُمِّي أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ذَاتِ النُّطْلَيْنِ ^(٣) ؟

(١) تَدْبِي : أَكَلَ أَوَّلَ النَّهَارِ ، وَلَقَدْ دَاءَ : الطَّامُ الَّذِي يُوَكَّلُ أَوَّلَ النَّهَارِ خُذَ الْعِشَاءِ ، (وَمِنْ السَّحُورِ
 غَدَا ، لِأَنَّهُ لَصَائِمٌ بِمَنْزَةِ الْغَدَا الْمَغْطَرِ) . (٢) الْحَوَارِيُّ : لِنَاسِ أَوْ نَاسِرِ الْأَنْبِيَاءِ . قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ : « الزَّيْرِ بْنِ التَّوَامِ ابْنُ عَمَّتِي ، وَحَوَارِيٌّ مِنْ أُمَّتِي » . (٣) كَانَ يُقَالُ لِأَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذَاتِ النُّطْلَيْنِ ، قِيلَ : لِأَنَّهَا كَانَتْ تَطْلُقُ نَطَاقًا مِلَّ طَرِيقِ بَيْنِ ثَوْبَيْنِ (طَائِقٍ) وَقِيلَ :
 إِنَّهُ كَانَ لَهَا نَطْلَانِ تَلْبَسُ أَحَدَهُمَا ، وَتَعْمَلُ فِي الْآخَرِ تَزَلُّدًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ
 عَنْهُمَا فِي النَّارِ . قَالَ الْأَزْهَرِيُّ : وَهَذَا أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ ، وَقِيلَ : إِنَّهَا شَقَّتْ نَطَاقَهَا بِنِصْفَيْنِ ، فَاصْطَلَتْ
 أَحَدَهُمَا وَجَسَلَتْ الْآخَرَ شَدَادًا لِزَادِمَا وَجَلَّاهُ فِي الْقَبْرِ (ج ٢ ص ٢٧٠) أَنَّ الْحِجَابَ لِلْمَحْصَرِ ابْنَ الزَّيْرِ =

وَأَنْ عَتَى خَدِيمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ؟ وَأَنْ صَفِيَّةَ عَمَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَدَّتِي ؟ وَأَنْ عَائِشَةَ أُمَ الْمُؤْمِنِينَ خَالَتِي ، فَهَلْ تَسْتَطِيعُ لِهَذَا إِنْكَارًا ؟

قال ابن عباس : لا ، ولقد ذكرتَ شرقاً شريقاً ، وغرباً فاعرباً ، غيرَ أنك تفاخرَ مَنْ يَفْخَرُهُ غَيْرَتَ ، وبفضله سَمَوْتَ . قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأنك لم تذكرَ فخرًا إلا برسول الله صلى الله عليه وآله ، وأنا أُوَلِّي بالفخر به منك . قال ابن الزبير : لو شئتُ لَفَخَرْتُ عليك بما كان قبل النبوة . قال ابن عباس : قد أنصف القارةَ مَنْ رَامَاهَا ^(١) ، نَشَدْتُكَ اللهُ أَيُّهَا الْحَاضِرُونَ ، أَعْبُدُ الْمَطْلَبَ أَشْرَفُ أَمْ خُوَيْلِدُ فِي قُرَيْشٍ ؟ قالوا : عبدُ الْمَطْلَبِ . قال : أهاشمُ كان أَشْرَفَ فِيهَا أَمْ أَسَدُ ؟ قالوا : بل هاشمُ . قال : أَعْبُدْ مَنْتَفَ أَشْرَفُ أَمْ عَبْدِ الْمُزَيِّ ؟ قالوا : عبدُ مَنْتَفَ ، فقال ابن عباس :

تَنَافَرْنِي يَا بَنَ الزَّيْرِ ! وَقَدْ قَضَى عَلَيْكَ رَسُولُ اللَّهِ لَا قَوْلَ هَازِلٍ

= بحكمة ناداه وليك يا بن ذات النطاقين ، اقبل الأمان ، وادخل في طاعة أمير المؤمنين ، فدخل حل أمه أحماء ، فقال لما سمعت رجلاً يقول القوم ، وما يدعونني إليه من الأمان ؟ قالت : سمعتم منهم الله ! فما أجعلهم ! وأعجب منهم إذ يسيرونك بِلَدَاتِ النِّطَاقِينَ ، ولو علموا ذلك لسكان ذلك أعظم فخرهم عندهم ، قال : وما ذلك يا أماء ؟ قالت : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره مع أبي بكر (وروى عن عائشة رضى الله عنها أنه خرج معه مهاجرين كما جاء في لسان العرب) فهيأت لها سفرة ، فطلبها شيتا بربطائها به فاجدها ، فطعنت من منزلي للكل ما احتاجا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما إنك به نطاقين في الجنة ، وفي القاموس المحيط : لأنها شقت نطاقها ليلة خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغار ، فجمعت واحدة لسفرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والأخرى صامداً لقربه . (١) هي جدته لأبيه .

(٢) القارة : قبيلة ، وهم قوم رماة . ويرومون أن رجلين التقيا ، أحدهما غاري ، فقال للغاري : إن شئت صارتك ، وإن شئت سابقتك ، وإن شئت راميتك ، فقال الآخر : قد اشترت المراماة ، فقال للغاري : قد أنصفني ، وأتأى يقول :

قد أنصف القارة من راماها إنا إذا ما نفع نلقاها
نرد أولاه ا حل أغراها

ثم انتزع له بسهم ، فشك به فؤاده .

ولو غيّرنا يابن الزبير فخرته وَلَكِنَّا سَمِيتَ شَمْسَ الْأَمَاطِلِ^(١)

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله بالفضل في قوله : « ما افترقت فرقتان إلا كنتُ في خيرهما » فقد فارقتك من بعد قُصَيٍّ^(٢) بن كلاب ، أفضحت في فرقة الخير أم لا ؟ إن قلت نعم خُصِمْتَ ، وإن قلت لا كُفِرْتَ ، فضحك بعض القوم ، فقال ابن الزبير : أما والله لو لا نحرُكَ^(٣) بطعامنا يابن عباس لأعرت^(٤) جبينك قبل أن تقوم من مجلسك . قال ابن عباس : وَلِمَ أَيْبَاطِل ؟ قال باطل لا يغلب الحق ، أم بحق ؟ فالحق لا يخشى من الباطل .

فقلت المرأة من وراء الستر : إني والله لقد نهيتك عن هذا المجلس فأبى إلا ما تَرَوْن ، فقال ابن عباس : مه أيتها المرأة ، اتقى بَيْنَكَ ، فأعظم الخطرَ ، وما أكرم الخبيرَ ، فأخذ القوم بيد ابن عباس وكان قد عَمِيَ ، فقالوا : انهض أيها الرجل فقد أفضحتك غير مرة ، فنهض وقال :

أَلَا يَا قَوْمَنَا ارْمِلُوا وَسِيرُوا فَلَوْ تَرَكْتُ الْقَطَا لَنَفَا^(٥) وَنَامَا^(٦)

فقال ابن الزبير : يا صاحب القطا أَقِيلْ عَلَيَّ ، فما كنتَ لتَدَعَنِي حتى أقول : وَأَيُّمُ اللَّهُ لَقَدْ عَرَفَ الْأَقْوَامُ أَنِّي سَابِقٌ غَيْرُ مَسْبُوقٍ ، وَابْنُ حَوَارِيٍّ وَصِدِّيقٌ ، مُتَّبَعٌ^(٧) فِي الشَّرَفِ الْأَتِيقِ ، خَيْرٌ مِنْ طَلِيْقٍ^(٨) وَابْنِ طَلِيْقٍ ، فقال ابن عباس : رُسِفَتْ

(١) الأساطيل : جمع أصيل ، وهو المشي « ما بعد صلاة الصبح إلى الغروب » . (٢) كان من أولاده عبد المزدى بن قصي (ومن سلالة ابن الزبير) وعبد مناف بن قصي (ومن سلالة بنو هاشم) . (٣) تحرم منه بجمرة : تمنع وتحمي بجمرة . (٤) أي لا كُفِرْتَ لك من المساوي ما يهرق له جبينك ويندي عجلاب . (٥) غفا وأغفى : نام نومة خفيفة . (٦) من تبعك به : إذا اتصفروا وتظم ، وأرجح أنه « متبع » من تبعك : أي تمكن في المقام والمحلول . (٧) يمرض بأبيه العباس بن عبد المطلب ، وكان خرج مع المشركين في غزوة بدر الكبرى ووقع أسيرا ، وقد أطلقه عليه الصلاة والسلام بعد أن أخذ منه الفدية « وروى أنه لما طلب منه الفداء قال : علام يؤخذ مني الفداء ، وكنت مسلما ؟ ولكن القوم استكروهني ، فقال له صلى الله عليه وسلم : الله أعلم بما تقول إن يك حقا ، فإن الله يجزيك ، ولكن ظاهر أمرك أنك كنت علينا » .

يُحْمَرُكَ^(١) فلم يَبْقُ شيئاً ، هذا الكلام مردود ، من امرئ حَسود ، فإن كنت سابقاً فإلى من سبقت ؟ وإن كنت فآخرأ فبمن غررت ، وإن كنت أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا ، فالفخر لك علينا . وإن كنت إنما أدركته بأسرتنا فالفخر لنا عليك ، وَالكَفْكُ^(٢) في فك ويديك ، وأما ما ذكرت من الطليق ، فوالله لقد ابتلي فَعَبَر ، وأنعم عليه فَشَكَر ، وإن كان والله لوفياً كريماً ، غير ناقض بَيْعَةٍ بعد توكيدها ، ولا مُسَلِّمٌ كَتِيبَةً بعد التأثر عليها^(٣) ، فقال ابن الزبير : أتتير الزبير بالجين ؟ والله إنك لتعلم منه خِلَافَ ذلك ، قال ابن عباس : والله إنى لا أعلم إلا أنه فرّ وما كره ، وحارب فما صَبَرَ ، وبايع فما تَمَّ ، وقطع الرَّحِمَ ، وأنكر الفضل ، ورام ما ليس له بأهل^(٤) :

وأدرك منها بعض ما كان ينبغي . وقصر عن جرئ الكرام وبَلَدًا
وما كان إلا كالمُحِينِ أمانته عِتَاقُ ، فجاءه العِتَاقُ فَأُجْهِدًا^(٥)
فقال ابن الزبير : لم يَبْقُ يابني هاشم غيرُ للشامة والمضاربة ، فقال عبد الله بن الحصين

-
- (١) الجرة بالقسم والفتح : مصا تربط إلى حيالة ، تنيب في القربا الطبقى يصطاد بها ، فيها وتر ، فإذا دخلت يده في الحيالة انشدت الأوتار في يده ، وإذا وثب ليهبط فد يده ، ضرب بطلبه المصا يده الأخرى ورجله فكسرها ، ورسغ الجير : شد رسغ يديه بخيط . والمضى وقتت في حيالك ، وعاد ماخرت به حجة عليك لاك ، وفي الأصل « رست » بالعين ، ولا يستقيم المضى بذلك (يقال : رسغ الصبي كنع : شد في يده أو رجله غرزا للفق العين ، ورست أعضاؤه : فسدت واسترخت) وربما كان الأصل « رصمت بمرتك » من رصمه بالرمح إذا طعته طعنا شديدا غيب للسان كله فيه ، أى طعنت يسهلك وارتدت إليك سبكت ، ومناه كالأول . (٢) الكفكك (يفتح الكافين وكسرهما) : التراب وقتت الحجارة . (٣) يمرض بالزبير وقد بايع الإمام ثم فكك يمينه ، وخرج لقتاله مع أصحاب الجبل ثم اعتزلهم . (٤) أى رام الخلافة ، وقد قال للإمام حين حاوره قبل نشوب وقعة الجمل : « لا أراك لهذا الأمر أهلا ولا أول به منا » . (٥) فرس ضيق : إذا لم يكن حقيقا ، وفرس حقيق : أى كرم والجميع حقيق ، وفى الأصل « عتاق » بالتون ، وهو تصحيف .

ابن الحرث : أفتاه هناك يابن الزبير ، وتأبى إلا مفازته ؟ والله لو فازته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ، ما كنت إلا كالسَّبِّ^(١) الظَّمان ، يفتح فاه يستزيد من الرِّيح ، فلا يشبع من سَبِّ^(٢) ، ولا يزوى من عطش ، قل إن شئت أو قدح ، وانصرف القوم .
(شرح ابن أبي الحديد ٢ : ٥٠١)

ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم

وكان يوضع إلى جانب سرير مروان بن الحكم - وهو يومئذ أمير المدينة - سرير آخر أصغر من سريره ، فيجلس عليه عبد الله بن عباس إذا دخل ، وتوضع الوسائد فيما سوى ذلك ، فأذن مروان يوماً للناس ، وإذا سرير آخر قد أُحْدِثَ تِجَاهَ^(٣) سرير مروان ، فأقبل ابن عباس فجلس على سريره ، وجاء عبد الله بن الزبير فجلس على السرير المُحْدَث ، وسكت مروان والقوم ، فإذا يد ابن الزبير تتحرك ، فلم أنه يريد أن ينطق ، ثم نطق فقال :

١١٤ - مقال ابن الزبير

« إن ناساً يزعمون أن بيعة أبي بكر كانت غلطاً وقلتةً ومُتَالَبَةً ، ألا إن شئت أبي بكر أعظم من أن يقال فيه هذا ، يزعمون أنه لولا ما وقع لكان الأمر لهم وفيهم ، والله ما كان من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أحدٌ أثبت لإيماناً ، ولا أعظم سابقةً من أبي بكر ، فن قال غير ذلك فضليه لسنة الله ، فأين هم حين عقَدَ أبو بكر لمر فلم يكن إلا ما قال ، ثم ألقى عمر حظهم في حظوظ ، وجَدَّم في جدد ، فقسمت تلك الحظوظ ،

فأخبر الله ستمتهم ، وأدحض جدهم ، وولي الأمر عليهم من كان أحق به ^(١) منهم ، فخرجوا عليه خروج القصوص على التاجر خارجاً من القرية ، فأصابوا منه غيرة ^(٢) فقتلوه ، ثم قتلهم الله به كل قتيلة ، وصاروا مطرودين تحت بطون الكواكب .

١١٥ — مقال ابن عباس

قال ابن عباس : « على رسلك ^(٣) أيها القاتل في أبي بكر وعمر والخلافة ، أما والله ما نالا ولا نال أحد منهما شيئاً ، إلا وصاحبنا خيرٌ من نالا ، وما أنكرنا تقدم من تقدم لعيب جنباه عليه ، ولو تقدم صاحبنا لكان أهلاً وفوق الأهل ، ولولا أنك إنما تذكر حظَّ غيرك ، وشرف امرئ سواك لكلمتك ، ولكن ما أنت وما لاحظك فيه ؟ اقتصر على حفظك ، وذع ثنياً ليقيم ، وهدياً لهدى ^(٤) وأمية لأمية ، ولو كلفني تبني أو عدوي أو أموي ، لكلمته وأخبرته خيرَ حاضر عن حاضر ، لا خسرَ غائب عن غائب ، ولكن ما أنت وما ليس عليك ، فإن يكن في أسد بن عبد المزي شيء فوكل ، أما والله لنحن أقرب بك عهداً ، وأبيض بك يداً ، وأوفر عندك نعمة ، ممن أمسيت تظن أنك تتوصل به علينا ، وما أخلق ثوب صفيّة بمدد ، والله المستعان على ما تصفون . »

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٩٠)

١١٦ — خطبة عبد الله بن عباس

يردّ على عبد الله بن الزبير وقد عاب بني هاشم

لما كاشف عبد الله بن الزبير بني هاشم ، وأظهر بنضهم وعابهم ، وهم بما هم به في أمرهم ، ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبه ، لا يوم الجمعة ولا غيرها ،

(١) يشير إلى اختيار عمر رضي الله عنه أصحاب الثوري الستة ، وفهم الإمام على كرم الله وجهه ، وما كان من مبايعة عثمان رضي الله عنه بالخلافة . (٢) غفلة . (٣) الرسل : الرفق والنبوة . (٤) قيم وعل أبي بكر الصديق ، وعلى وعل عمر الفاروق .

عابيه على ذلك قوم من خاصته ، وشاءوا بذلك منه ، وخافوا عاقبته ، فقال : « والله ما تركت ذلك عِلَاقِيَّةً إِلَّا وَأَنَا أَقُولُهُ سِرًّا وَأَكْثَرُ مِنْهُ ، لَكُنِّي رَأَيْتُ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا سَمِعُوا ذِكْرَهُ ، أَشْرَأُ بَوًّا ^(١) وَاحْمَرَّتْ أَلْوَانُهُمْ ، وَطَالَتْ رِقَابُهُمْ ، وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِأَنِّي لَمْ أَسْرُورًا وَأَنَا أَقْدَرُ عَلَيْهِ ، وَاللَّهِ لَقَدْ حَمَمْتُ أَنْ أَحْطُرَ لَمْ حَظِيرَةً ، ثُمَّ أَضْرِبَهَا عَلَيْهِمْ نَارًا ، فَإِنِّي لَا أَهْلُ مِنْهُمْ إِلَّا آتَمًا كَنَازَرًا سَحَّارًا ، لَا أَتَمَامُ إِلَهَ ، وَلَا بَارِكُ عَلَيْهِمْ ! يَتُّ سَوْءٌ لَا أَوَّلَ لَهُمْ وَلَا آخِرَ ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ نَبِيَّ اللَّهِ فِيهِمْ خَيْرًا ، اسْتَغْفِرُ ^(٢) نَبِيَّ اللَّهِ صِدْقَهُمْ ، فَمَنْ أَكُذِبَ النَّاسُ ، قَامَ إِلَيْهِ عُمَدُ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ فَقَالَ : « وَتَقَكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَنَا أَوَّلُ مَنْ أَعَانَكَ فِي أَمْرِهِ » . قَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ الْجُمَحِيُّ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ صَوَابًا ، وَلَا حَمَمْتُ بَرُشْدَ ، أَرْفَعُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَيْسِبُ ، وَإِيَّاهُمْ تَقْتُلُ ، وَالْعَرَبُ حَوْلُكَ ؟ وَاللَّهِ لَوْ قُلْتُ عِدَّتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ مِنَ التَّرِكَ مُسْلِمِينَ ، مَا سَوَّغَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَاللَّهِ لَوْ لَمْ يَنْصَرِّمِ النَّاسُ مِنْكَ لَنْصَرِّمِ اللَّهَ بَنْصَرِهِ ، فَقَالَ : اجْلِسْ أَبَا صَفْوَانَ فَلَسْتُ بِنَامُوسٍ ^(٣) ، فَبَلَغَ الْخَبِيرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَبَّاسِ ، فَخَرَجَ مُنْصَبِّبًا وَمَعَهُ ابْنُهُ ، حَتَّى أَتَى لِلْمَسْجِدِ ، فَصَعَّدَ قَعْدَ لِلْمَنْبَرِ .

فَخَدَّ اللَّهُ وَائْتَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ ابْنَ الزَّيْرِ يَزْعُمُ أَنَّ لَأَوَّلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَلَا آخِرَ ! فَيُغَيِّبُ كُلَّ الْمَسْجُوبِ ، لِأَقْرَانِهِ وَتَكْذُوبِهِ ^(٤) ! وَاللَّهِ إِنْ أَوَّلُ مِنْ أَخَذَ الْإِبْلَافَ ^(٥) »

(١) اشْرَابُ إِلَيْهِ : مَدَّ صَفْهُ لِيَنْظُرَ أَوْ ارْتَفَعَ . (٢) فِي الْأَصْلِ « اسْتَغْفِرُ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ . يُقَالُ اسْتَغْفِرُ فُلَانٌ يَجْهَدُهُ : إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ جَهْدِهِ وَطَلَاتِهِ شَيْئًا ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ حَوَى مَا فِيهِمْ مِنْ صِدْقٍ فَلَمْ يَبْقَ لَهُمْ مِنْهُ شَيْءٌ ، فَمَنْ أَكُذِبَ النَّاسُ (كَذَا !) . (٣) النَّامُوسُ : الْخَائِقُ ، وَهُوَ أَيْضًا صَاحِبُ السَّرِّ الْمَطْلَعِ مِنْ بِلَاسٍ أَوْ مَرْكٍ . (٤) تَكْذِبُ : تَكْذِبُ . (٥) رَوَى أَبُو حَالٍ فِي أَمَالِيهِ قَالَ :

« كَانَتْ قَرِيشُ تِجَارًا ، وَكَانَتْ تِجَارَتُهُمْ لَا تَعْدُو مَكَّةَ ، إِذَا تَقَدَّمَ عَلَيْهِمُ الْأَعَاجِمُ بِالسَّاعِ ، فَيَشْتَرُونَهَا مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَتْبَاعُونَهَا بَيْنَهُمْ وَيَبِيعُونَهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ ، فَكَانُوا =

وَسَمَى عِيْرَات^(١) قَرِيْشَ لَهَاثِيْمٌ ، وَإِنْ أَوَّلَ مَنْ سَقَى بِمَكَّةَ عَذْبًا ، وَجَلَّ بَابُ الْكُفَّةِ

= كذلك، حتى ركب هاشم بن عبد مناف إلى الشام، فنزل بقميص، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جعشة ثريد، ويجمع من حوله فيأكلون، وكان هاشم من أجل الناس وأعمهم، فذكر ذلك لقميص، فقيل له: ها هنا رجل من قريش يهشم الخبز ثم يصب عليه المرق ويقرغ عليه اللحم — وإنما كانت العجم تصب المرق في الصحاف ثم تأتدم بالخبز — فدعا به قميص، فلما رآه وكلمه أعجب به، فكان يبعث إليه في كل يوم، فيدخل عليه ويحادثه، فلما رأى نفسه تمكن عنده، قال له: يا أيها الملك إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتابا تؤمن نجاتهم فيقدموا عليك بما يستطرون من آدم الحجاز وثيابه فتباع عندهم فهو أرخص عليكم، فكتب له كتاب أمان لمن يقدم منهم، فأقبل هاشم بذلك الكتاب، فجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا — والإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف، إنما هو أمان الطريق — وعلى أن قريشا تحمل إليهم بضائع، فيكفونهم حملاتها، ويؤدون إليهم رهوس أموالهم ويرحبهم، فأصلح هاشم ذلك الإيلاف بينهم وبين أهل الشام حتى قدم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أتوا به بركة، فخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يميّزهم، يترفيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب، حتى أوردتهم الشام، وأحلهم قراها، ومات في ذلك السفر بغزة، وخرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهدا لمن تجر إليهم من قريش، وأخذ الإيلاف كعقل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف، وكان يسمى الفقيص، وهلك برذمان من اليمن، وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى الحبشة فأخذ إيلافا كعقل هاشم والمطلب، وهلك عبد شمس بمكة بقبوره بالحبشون، وخرج نوفل بن عبد مناف، وكان أصغر ولد أبيه، فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش، وإيلافا ممن مر به من العرب، ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان، واتسعت قريش في التجارة في الجاهلية وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش على قريش منة في الجاهلية والإسلام — ذيل الأمالى ص ٢٠٤ .

(١) العير بالكر الإبل تحمل الميرة : بلا واحد من لفظها ، أو كل ما مير عليه إلا كانت أو حيرا أو يثالا ووجه كمنيات ويسكن .

ذَهَبًا ، لَمَبْدُ الْمَطْلَبِ ^(١) وَاللَّهُ قَدْ نَشَأَتْ نَاشِئَتَا مَعَ نَاشِئَةِ قُرَيْشٍ ، وَإِنْ كُنَّا لَقَاتِلَهُمْ ^(٢)
إِذَا قَالُوا ، وَخُطْبَاهُمْ إِذَا خَطَبُوا ، وَمَا عُدَّ مَجْدٌ كَمَجْدِ أَوْلَانَا ، وَلَا كَانَ فِي قُرَيْشٍ مَجْدٌ
لنُبُونَا ، لِأَنَّهُا فِي كُفْرِ مَاجِئٍ ، وَدِينِ فَاسِقٍ ، وَضَلَّةِ وَضَلَالَةٍ ^(٣) فِي عَشَوَاءَ ^(٤) عَمِيَاءَ ،
حَقٌّ اخْتَارَ اللَّهُ تَعَالَى لَهَا نَوْرًا ، وَبِثَّ لَهَا سِرَاجًا ، فَاصْجَبَهُ ^(٥) طَيْبًا مِنْ طَيِّبِينَ ، لَا يُسْبُ
بِمَسْبَةِ ، وَلَا يُبْنَى عَلَيْهِ غَاثَةٌ ، فَكَانَ أَحَدُنَا وَوَلَدُنَا وَعَمْنَا وَابْنُ عَمْنَا ، ثُمَّ إِنَّ أَسْبَقَ
السَّابِقِينَ إِلَيْهِ ، مَنَا وَابْنُ عَمْنَا ^(٦) ، ثُمَّ تَلَاهُ فِي السَّبَقِ أَهْلُنَا وَلَكُحْمَتُنَا ^(٧) وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ،
ثُمَّ إِنْ خَلَّى النَّاسَ بَعْدَهُ أَكْرَمَهُمْ أَدَبًا ، وَأَشْرَفَهُمْ حَسَبًا ، وَأَقْرَبَهُمْ مِنْ رَحْمَا .

وَاعْبِيَا كُلَّ الْعَجَبِ لَابْنِ الزَّيْرِ ! يَعِيبُ بَنِي هَاشِمٍ ، وَإِنَّمَا شَرُفٌ هُوَ وَأَبُوهُ وَجَدَّهُ
بِمَصَاهِرَتِهِمْ ، أَمَا وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمُصْلُوبٌ قُرَيْشٍ ، وَمَقَى كَانَ الْمَوَامُّ بْنُ خُوَيْلِدٍ يَطْعَمُ فِي صَفِيَةِ
بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؟ قِيلَ لِلْبَنَلِ : مَنْ أَبُوكَ يَا بَنَلُ ؟ قَالُوا : خَالِي الْقُرْسُ . ثُمَّ زُلْ .

(شرح ابن أبي الحديد ٣ : ص ٤٨٩)

١١٧ - خطبة ابن الزبير يتنقص ابن عباس

وخطب ابن الزبير بمكة على المنبر ، وابن عباس جالس مع الناس تحت المنبر ، فقال :
« إِنَّ هَاهُنَا رَجُلًا قَدْ أَعَى اللَّهُ قَلْبَهُ كَمَا أَعَى بَصَرَهُ ، يَزْعُمُ أَنَّ مُنْقَةَ النِّسَاءِ حَلَالٌ مِنْ

(١) قَالَ الطَّبْرِيُّ : « وَعَبْدُ الْمَطْلَبِ هُوَ الَّذِي كُشِفَ مِنْ زَنْمِزٍ بَنُو إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَاسْتُخْرِجَ مَا كَانَ
فِيهَا مَغْفُونًا ، وَذَلِكَ غَزَالَانِ مِنْ ذَهَبٍ كَانَتْ جَرَمُ فَخْتُمَا فِيمَا ذَكَرَ حِينَ أُخْرِجَتْ مِنْ مَكَّةَ وَأَسْيَافٌ قَلْعِيَّةٌ
« وَرَجُ الْقَلْعَةِ بِحَرَكَةِ : مَوْضِعٌ بِالْبَادِيَةِ إِلَيْهِ تَنْسَبُ السُّيُوفُ « وَأَدْوَاعٌ ، فَجِيلُ الْأَسْيَافِ يَا أَيُّهَا السَّكِينَةُ ، وَغُرَبُ
فِي الْبَابِ التَّرْلَيْنِ صَفَاحٌ مِنْ ذَهَبٍ ، فَكَانَ أَوَّلُ ذَهَبٍ حَلِيَةٍ فِيمَا قِيلَ السَّكِينَةُ « تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ٢ : ١٧٩ ،
(٢) الْقَائِلَةُ جَمْعُ قَاتِلٍ . (٣) الْفَضْلَةُ وَالضَّلَالَةُ : ضِدُّ الْهَدَى . (٤) أَيْ فِي جِهَاتِهِ وَفَتْةٌ عَشَوَاءَ ،
مِنْ الْعَشَى (كَصَا) وَهُوَ سَوْدُ الْبَصَرِ يَالِيلٌ وَالتَّهَارُ ، وَقِيلَ ذَهَابُ الْبَصَرِ . عَشَى يَعْنِي (كَفَرَح) فَهُوَ أَعْمَى
وَهُوَ عَشَوَاءَ (وَالْعَشَوَاءُ أَيْضًا التَّائِقَةُ الَّتِي لَا تَبْصُرُ أَمَامَهَا فَهِيَ تَحْطِيطُ بَيْنَهَا كُلِّ شَيْءٍ ، لِأَنَّهُ لَا تَرْفَعُ رَأْسَهَا فَلَا تَنْصَحُهُ
مَوَاقِعَ اغْفَاتِهَا) . (٥) انْتَجَبَهُ : اخْتَارَهُ . (٦) يَعْنِي الْإِمَامَ طَلِيبًا كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ .
(٧) لِلْحَمَةِ : الْقَرَابَةُ .

الله ورسوله ، وَيُفَتِّي فِي الْقَمَلَةِ وَالنَّمَلَةِ ، وقد احتل بيت مال البصرة^(١) بالأمس ، وترك المسلمين بها يَرْضَخُونَ^(٢) للنوى ، وكيف أَلُوهُمُ فِي ذَلِكَ : وقد قَاتَلَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَحَوَارِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَمَنْ وَقَاهُ بِيَدِهِ^(٣) .

(١) ذكر بعض المؤرخين أن ابن عباس كان من أحب الناس إلى عمر ، وكان يقدمه على أكابر الصحابة ولم يستعمل قط ، فقال له يوما : كدت استعملك ، ولكن أخشى أن تستحل آثره على التأويل ، فلما صار الأمر إلى عمل استعمله على البصرة ، فاستحل آثره على تأويل قوله تعالى « وَأَطِئُوا أَمْرًا عَنِتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ نَحْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى » ، واستعمله لقرباه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالوا : ومما ابن عباس على أبي الأسود اللؤلؤ فقال : لو كنت من الهائم لكنت جلا ، ولو كنت راحيا ما بلغت من المرمى ولا أحسنت مهته في المضي ، فكذب أبو الأسود إلى عمل كتابا يقول فيه : « إن ابن حنبل قد أكل ما تحت يديه بغير حملك ، فلم يسنّ كتابك ذلك ، فانظر رحمك الله فيما هناك » فكذب على ابن عباس « أن أرفع إلى حاكمك » فرد عليه ابن عباس : « إن كل الذي بلغك باطل » . فكذب إليه على : « إنه لا يسنّ تركك » حتى تعلّق ما أخذت من الجزية ، من أين أخذته ، وما وضعت منها ، أين وضعته ، فلما رأى أن عليا غير مقلع عنه كتب إليه « امض إلى حاكمك من أحببت ، إني ظامن عنه » ورحل عن البصرة ، وقد حل ما كان في بيت مالها حتى قدم الحجاز فنزل مكة ، وتبوءت الكعب بين علي وبينه ثانية ، وكانت خاتمتها أن كتب إليه ابن عباس : « والله لئن لم تدعني من أساطيرك لأحملنه إلى معاوية يقاتلك به » فكذب عنه على ، - انظر البغد الفريد ج ٢ : ص ٢٤٢ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٨١ ، ونهج البلاغة ج ٢ : ٤٦ - .

وقال آخرون : إن ابن عباس ما فارق عليا ولا يائنه ، ولم يزل أميرا على البصرة إلى أن قتل على وحيد مقتل على حتى صالح الحسن معاوية ، ثم خرج حينئذ إلى مكة ، وليس هذا موضع بحث تلك المسألة - انظر كلمة عنها في شرح ابن أبي الحديد ج ١٦ ص ٦٤ ، وأسأل السيد المرتضى ج ١ ص ١٢٢ . (٢) رضح النوى (كنع وضرب) كسره ، وفي لسان العرب : « فظلوا يترضخون أي يكسرون الخبز فإيا كلوته ويتناولونه » ولم أجد في كتب اللغة « يرتضخ » هذا المعنى ، وإنما ألقى جاء « وهو يرتضخ لكعبة عجيبة إذا نشأ معهم ثم صار إلى العرب ، فهو ينزع إلى اللجم في ألقائه ولو اجتهد » وقول ابن الزبير كناية من شدة القسح والفاقة . (٣) كان طلحة بن عبيد الله بن ثبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأى عنه في وقعة أحد وقد انهزم المسلمون ، ووقاه بيده من سيوف المشركين ، وقد رمى بهم في يده فقيست ، وقال عليه الصلاة والسلام يومئذ « اليوم أوجب طلحة الجنة » .

١٦٨ - رد ابن عباس عليه

فقال ابن عباس لقائده سعيد بن جبيرة مولى بنى أسد بن خزيمة - وكان ابن عباس قد كَفَّ بصره - استقبل بى وجه ابن الزبير وادفع من صدرى ، فاستقبل به قائده وجه ابن الزبير وأطام قامته ، فَحَسَرَ عن ذراعيه ، ثم قال : « يابن الزبير :
قد أنصف القارة من راماها إنا إذا مافئة نلقاها
نردُّ أولاهها على أخرها حتى تصير حرضا دعوامها^(١) »

يابن الزبير : أما العسى ، فإن الله تعالى يقول : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي السُّدُورِ » ، وأما فتىاى فى القملة والنملة ، فإن فيها حُكْمَيْنِ لا تعلمها أنت ولا أصحابك . وأما حَتَّى المال ، فإنه كان ما لا جبيناه ، فأعطينا كل ذى حق حقه ، وبقيت بقية هى دون حقتنا فى كتاب الله ، فأخذناها بمقتنا ، وأما التُّمَّة فَسَلَّ أَمَكُ أَسْمَاءَ إِذْ نَزَلَتْ عَنْ بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، وأما قَتَالَنَا أَمُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَبِنَا سُمِّيتْ أَمُ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا بَكَ وَلَا بِأَبِيكَ ، فَانْطَلَقَ أَبُوكَ وَخَالَكَ^(٢) إِلَى حِجَابِ مَدَّةِ اللَّهِ عَلَيْهَا ، فَهَتَكَاهُ عَنْهَا ، ثُمَّ اتَّخَذَاهَا فِتْنَةً يَقَاتِلَانِ دُونَهَا ، وَصَانَا حِلَاتَهُمَا فِي بَيْتِهِمَا ، فَأَنْصَفَا اللَّهَ وَلَا مَحْدًا مِنْ أَنْفُسِهِمَا أَنْ أُبْرَزَا زَوْجَةَ نَبِيِّهِ وَصَانَا حِلَاتَهُمَا ، وَأَمَا قَتَالَنَا إِيَّاكُمْ ، فَإِنَّا لَقِينَاكُمْ زَحْفًا ، فَإِنْ كُنَّا كَفَارًا فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِفِرَارِكُمْ مِنَّا ، وَإِنْ كُنَّا مُؤْمِنِينَ فَقَدْ كَفَرْتُمْ بِقِتَالِكُمْ إِيَّانَا ، وَإِمِ اللَّهُ لَوْلَا مَكَانُ صَفِيَّةَ فَيْكُمْ ، وَمَكَانُ خَدِيجَةَ فَيْنَا ، لَمَا تَرَكْتُ لَبْنَى أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْمُزَيِّ عِظْمًا إِلَّا كَسَرْتَهُ .

(١) المخرص : الفساد فى المذهب والمقتل واليه . (٢) يعنى طلحة وهو ابن عم جده أبى بكر

الصديق ، فهو طلحة بن عبيد الله بن صهان بن عبيد الله بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب ابن لؤى ، وأبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة صهان بن عامر بن عمرو بن كعب . . . الخ . وإنما جملة خاله باعتبار القرابة النسبية .

فلما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بُرْدَى عَوْسَجَةَ ، فقالت : ألم أنهلك عن ابن عباس ، وعن بني هاشم ؟ فإنيهم كُفْمٌ ^(١) الجواب إذا بُدِّهوا ^(٢) . فقال : بَلَى وعصيتُكَ ، فقالت : يا بُنَيَّ احذر هذا الأعمى الذي ما أطاقتة الإنس والجن ، واعلم أن عنده فضاءً قريش ومحازبها بأسرها ، فإياك وإياه آخر العمر .

ورواية صاحب العقد : « أن ابن عباس قال لِمَكْرَمَةَ : أقم وجهي نحوه يا عكرمة ، ثم قال :

إِن يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنَيَّ نَوْرَهما ففني فؤادي وعقلي منهما نور

وأما قولك يا ابن الزبير : إني قاتلت أم المؤمنين ، فأنت أخرجتها وأبوك وخالك ، وبنا سميت أم المؤمنين ، فكنا لها خيرَ بنين ، فتجاوز الله عنها ، وقالت أنت وأبوك علياً ، فإن كان علي مؤمناً فقد ضللتكم بقتالكم المؤمنين ، وإن كان كافراً فقد بؤستم بسخط من الله بفراركم من الزحف . وأما اللثة فإني سمعت علي بن أبي طالب يقول : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم رخص فيها فأخفيتُ بها ، ثم سمعته ينهى عنها فنهيت عنها ^(٣) .

(١) كم البير كنع : شد فاه لتلا يعض أو يأكل ، والكمام ككتاب : ما يحمل على فاه ، والجمع كم ككتب . والمعنى أنهم ذوو أجوبة مسكتة مخومة تلجم أفواه مناظرهم .
 (٢) بدده بأمر كتمه : استقبله به أو يده به . (٣) جاء في المصباح المنير : « اللثة اسم اللثع ، ومنه صفة الحج ، ومنه النكاح ، ومنه الطلاق ، ونكاح اللثة هو اللزق في العقد ، وقال في الباب : كان الرجل يشارط المرأة شرطاً على شيء إلى أجل معلوم ، ويعطيها ذلك فيستحل بذلك فرجها ، ثم يحل سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ، وقيل في قوله تملك « فَمَا اسْتَمْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » المراد نكاح اللثة ، والجمهور على تحريم نكاح اللثة ، وقالوا معنى قوله : « فا استمتتم » فأنكحتم على الشريعة التي في قوله تملك : « أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ » أي عاقدين النكاح ، واستمتت بكلاً وتعتت : انقضت ، ومنه تمتع بالمرة إلى الحج : إذا أحرمت بالمرة في أشهر الحج وبعد تمامها يحرم بالحج فإنه بالفراغ من أعمالها يحل له ما كان حرم عليه ، فمن ثم يسمى مستمتاً » اهـ .

وأول جحمر^(١) سلع في المنة جحمر آل الزبير^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٤٨٩ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٦٩ - ١١٣ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٣)

١١٩ - عبد الله بن جعفر (المتوفى سنة ٨٠ هـ) وعمرو بن العاص

قال ابن أبي الحديد : روى اللدائني قال :

« بينا معاوية يوماً جالساً وعند عمرو بن العاص إذ قال الأذن : قد جاء عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . فقال عمرو : والله لأسوأه اليوم ، فقال معاوية : لا تفعل يا أبا عبد الله ، فإنك لا تنتصف منه ، ولعلك أن تظهر لنا من منقبته^(٣) ما هو خفي عنا ، ومالا نحب أن نعلمه منه ، وعشيتهم عبد الله بن جعفر ، فأدناه معاوية وقرّبه ، فقال عمرو إلى بعض جلساء معاوية ، فقال من على عليه السلام جهازاً غير سائر له وثلبه^(٤) ثلباً قبيحاً ، فامتنع^(٥) لون عبد الله ، واعتراه أفكلك^(٦) ، حتى أزعجت خصائله^(٧) ثم نزل عن السرير كالفتيق^(٨) ، فقال عمرو : مه يا أبا جعفر ، فقال له عبد الله : مه لا أتم لك ، ثم قال :

أظن الحلم دل على قومي وقد يتجهل الرجل الحليم

= وجاء في التفسير : « وقيل نزلت الآية فيالصة التي كانت ثلاثة أيام حين فشت مكة ثم نسخت : لما روى أنه عليه الصلاة والسلام أباحها ، ثم أصبح يقول : « يا أيها الناس إني كنت أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء ، ألا إن الله حرم ذلك إلى يوم القيامة » وهي التكاثر الموقت بوقت مطوم سمى بها ، إذ القرض منه مجرد الاستمتاع بالمرأة ومتعتها بما تحلى ، وجوزها ابن عباس رضي الله عنهما ثم رجع عنه » .

(١) للجحمر : العود ، واستجمر بالجحمر : تبيخر بالعود . (٢) قال المسعودي في مروج الذهب : « وقد تنازع الناس في ذلك ، فهم من رأى أنه عني صفة النساء ، ومنهم من رأى أنه أراد صفة الحج ، لأن الزبير تزوج أسماء بكرة في الإسلام ، وزوجه أبو بكر ملتنا ، فكيف تكون صفة النساء ؟ » .

(٣) اللبقة : الفخورة . (٤) ثلبه : عابه . (٥) تغير لونه . (٦) الأكل : الرملة .

(٧) جميع غصيلة : وهي لحم الفخذين والعضدين والفترايين ، أو كل عصبية فيها لحم غليظ .

(٨) الفتيق : الفحل المكروم لا يؤذى لكرامته حل أهله ولا يركب .

ثم حَسَرَ عن ذِراعِيه ، وقال :

« يا معاوية حَتَّامٌ تَجَرَّعَ غِيظَكَ ، وإلى كَمَ الصبر على مكروه قولك ، وسبِّي أدبكَ ،
وذمِّمَ أخلاقَكَ ، هَيْلَتَكَ المَبُولَ (١) ، أما يزجرك ذِمَامُ (٢) الجالسة عن القَدْعِ (٣) للجلبسك
إذا لم تكن لك حُرْمَةٌ من دينك تنهاك عما لا يجوز لك ، والله لو عطفتك أوامرُ (٤)
الأرحام ، أو حاميت على سهمتك من الإسلام ، ما أرعيتَ بنى الإمامِ المُتَكِّ (٥) ، والعبيدِ
السُّكَّ (٦) أمراضَ قومك ، وما يحيل موضعَ الصَّعْوَةِ (٧) إلا أهلُ الجفوة ، وإنك لتعرف
وشائج (٨) قريش ، وصفوة غرائزها ، فلا يدعُونَك تصوب مافرط من خطئك في سفك
دماء المسلمين ، ومحاربة أمير المؤمنين ، إلى التماذي فيما قد وضع لك الصواب في خلافه ،
فاقصِدْ لنهج الحقِّ قد طال حَمَمُكَ (٩) عن سبيل الرشَد ، وخطبك في دَبَجُور (١٠) ظلمة
الغنى ، فإن آيت أن لاتتابنا في قبح اختيارك لنفسك ، فأعفينا عن سوء القالة (١١) فينا ،
إذا ضَمَّنَا وإياك التديي (١٢) ، وشأنك وما تريد إذا خلوت ، والله حسيبك ، فوالله لولا
ما جبل الله لنا في يديك لما أتيناك ، ثم قال : إن كلفتنى ما لم أطق ، ساءك ما ستر منى
من خلق . »

(١) هبلت أمه : تكلته ، والمبول : المرأة لا يمشي لها ولد . (٢) الذمام : الحرمة . (٣) قدعه وأقذعه :
وماءه بالفتح وسوء القول . (٤) جمع أصره ، وهي القرابة وحبل صني يشده أسفل الخباء . (٥) الملك : جمع
متكاد (كهمراء) وهي البطاراء والمفضضة والتي لاتملك البول . (٦) السك جمع أسك من السكك (مركبة) ،
وهو صغر الأذن ولزوقها بالأسر ، أو صغر فوف الأذن وضيق الصياخ . (٧) أى صفوة القوم وسادتهم .
(٨) فى الأصل « وشائك » وقد بحث فى مادة « وشك » فوجدت فيها « والشيك السريع والقريب ،
واسرة وشيك : أى سرية » فلو جملنا وشائك جمع وشيكة « أو وشيك على التأنيث » لم يستقم معنى العبارة ،
وأواء عرفا من « وشائج » بالجمع . جمع وشيعة ، وهي فرق للشجرة ، فنى وشائج قريش أصولها وعروقها
« والعرق أصل كل شيء » أى وإلك يا معاوية تصرف أصول قريش للكرمية لثاكية التى تأبى الضيم ولا تحمل
الثلب والإهانة « والشويج أيضا شجر الرماح » ونظير هذا التعبير قول الفرزدق : مشتقة من رسول الله
نبيه - - والنتج : شجر تتخذ منه القسي والسهام . (٩) ألغىه حركة : لتردد فى الضلال .
(١٠) الدبجور : الضلال . (١١) القول فى الخير ، والقال والقيل والقالة فى الشر . (١٢) التماذي .

قال معاوية : يا أبا جعفر تنبؤ انطلقا ، أقسمت عليك لتجلسن^(١) ، لمن الله من أخرج
حَبَّ صدرك من وَجَّارِه^(٢) ، محمول لك ما قلت ، ولك عندنا ما أملت ، فلو لم يكن
مَحْتَدِك^(٣) ومنصيبك لكان خُلُقُك وَخَلَقُك شافعين لك إلينا ، وأنت ابن ذى الجناحين
وسيد بنى هاشم ، فقال عبد الله : كلا بل سيد بنى هاشم حسن وحسين لا ينازهما
فى ذلك أحد ، فقال : أبا جعفر أقسمت عليك لمَّا ذكرت حاجة لك إلا قضيتها كأنه
ما كانت ، ولو ذهبت بجميع ما أملك ، فقال : أما فى هذا فى المجلس فلا ، ثم انصرف ،
فأتبعه معاوية بصره فقال : والله لكان رسول الله صلى الله عليه وآله مشيه وخَلَقه وخَلَقه ،
وإنه لمن مَشِكَاتِه^(٤) ، لو ددت أنه أخى بتفيس ما أملك .

ثم التفت إلى عمرو فقال : أبا عبد الله ما تراه منه من الكلام منك ؟ قال : مالا
خفاء به عنك . قال : أظنك تقول : إنه هاب جوابك ؟ لا والله ولكنك ازدراك واستحرق
ولم يرك الكلام أهلا ، أما رأيت إقباله علىّ دونك ، ذاهبا بنفسه منك ؟ فقال عمرو :
فهل لك أن تسمع ما أعددت له لجوابه ؟ قال معاوية : أرغب إليك أبا عبد الله ، فلات حين
جواب فيا يرى اليوم ؛ ونهض معاوية وتفرق الناس .

(شرح ابن أبي الحديد م ٢ : ص ١٠٤)

١٢٠ - الحسن بن عليّ وعمرو بن العاص

وَوَقَدَ الحسن بن عليّ رضى الله عنه على معاوية ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية :
يا أمير المؤمنين إن الحسن رجل أَمَّه^(١) ، فلو حلتته على المنبر فتكلم وسمع الناس كلامه
عابوه وسقط من عيونهم فقل ، فصيد على المنبر وتكلم فأحسن ، ثم قال : أيها الناس لو

(١) جحره . (٢) أسلك . (٣) المشكاة : الكوة التي ليست بتأففة .

(٤) أمه : وصف من الغفاهة ، وهي التي ، وفطه فهو كفرح ، وقياس الوصف منه أمه على أفضل لأنه
يدل على غلظة عيب كصور وعي وعرج ، ولكن الذي في كتب اللغة : أنه كعذب وفيه وفيه .

طلبهم ابنا لنبيكم ماين جابر بن إلى جابلق^(١) لم تجدوه غيري وغير اخي : (وإن أذري
أقله فتنه لكم ومتاع إلى حين) فساء ذلك عمرًا ، وأراد أن يقطع كلامه ، فقال له :
أبا محمد ، هل تنمت الرطب^(٢) ؟ قال : « أجل تُلقيحه الشمال ، وتخرجه الجنوب ،
ويضيجه برد الليل ، بحر النهار^(٣) » قال : أبا محمد ، هل تنمت الخراة^(٤) ؟ قال :
« نعم ، تُبمِد المَشَى في الأرض الصَّحَّح^(٥) ، حتى تتوارى من القوم ، ولا تستقبل
القبلة ، ولا تستديرها ، ولا تستنجج بالروثة ، ولا العظم ، ولا تبيل في الماء الراكد »
وأخذ في كلامه .

(العقد الفريد ٢ : ١١٥ ، وصيرون الأخبار م ٢ : ١٧٢ ، ومعجم البلدان ٣ : ٢٢)

١٢١ — الحسن بن علي ومروان بن الحكم

بينما معاوية بن أبي سفيان جالس في أصحابه إذ قيل له : الحسن بالبواب ، فقال
معاوية : إن دخل أفسد علينا ما نحن فيه ، فقال له مروان بن الحكم : اتذن له ، فإني أسأله
ماليس عنده فيه جواب ، قال معاوية : لا تفعل ، فإنهم قوم قد ألهموا الكلام وأذن له ،
فلما دخل وجلس ، قال له مروان : أسرع الشيب إلى شاربك يا حسن ، ويقال إن ذلك
من الخرق^(٦) ، فقال الحسن : ليس كما بلثك ، ولكننا مَمَّشَر بنى هاشم ، أفواهُنا عذبة

(١) جابر بن : مدينة بأقصى المشرق ، وجابلق : مدينة بأقصى المغرب ، وضبطها ياقوت في معجمه
بـسكون اللام ، وفي القاموس ولسان العرب بفتحها ، قال ياقوت : « وفي رواية : جابلص » وضبطها
صاحب اللسان بفتح اللام . وفي القاموس بفتح اللام أو سكونها : بلد بالمغرب ليس وراء أنس ، وفي العقد
الفريد : « لو طلبتم أبناء أبيكم ماين لايتها » ولا بتا للمدينة : حرتان تكتنفانها . (٢) يسأله هذا
وما بعده تمجيزا له . (٣) وفي العقد : « وتنضجه الشمس ، ويصبه القمر » . (٤) خرى كجمع
خرامة يفتح الخاء وكسرهما : ملح . (٥) الصصح : ما استوى من الأرض . وفي العقد الفريد
« للصصح » وهو تحريف . (٦) الخرق كتيب : الحق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور
والاسم الخرق كقفل .

شِفَاهُهَا ، فَسَاوُنَا يُقْبِلُنَ عَلَيْنَا بَأْنَامِسِنَ وَقُبْلَيْنَ ، وَأَنْتَ مَعَشَرٌ بَنَى أُمِيَّةَ فَيْكُمُ بَحْرٌ^(١)
شَدِيدٌ ، فَسَاوُكُمْ يَصْرِفُنَ أَفْوَاهِمِنَ وَأَنْفَامِسِنَ عَنْكُمْ إِلَى أَعْدَاغِكُمْ ، فَإِنَّمَا يَشِيبُ مِنْكُمْ
مَوْضِعُ الْعِدَارِ^(٢) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ . قَالَ سُرَوَانُ : إِنْ فَيْكُمُ يَابَنَى هَاشِمَ خَصَلَةً سَوَاهُ . قَالَ :
وَمَا هِيَ ؟ قَالَ : الْخُلَّةُ^(٣) . قَالَ : أَجَلٌ ، نَزَعْتُ الْخُلَّةَ مِنْ نِسَائِنَا ، وَوَضَعْتُ فِي رِجَالِنَا
وَنَزَعْتُ الْخُلَّةَ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَوَضَعْتُ فِي نِسَائِكُمْ ، فَمَا قَامَ لِأَهْوِيَةِ إِلَّا هَاشِمِيٌّ ؛ فَغَضِبَ مَعَاوِيَةُ
وَقَالَ : قَدْ كُنْتُ أَخْبَرْتُكُمْ ، فَأَبَيْتُمْ حَتَّى سَمِعْتُمْ مَا أَظْلَمَ عَلَيْكُمْ بَيْنَكُمْ ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكُمْ
مَجْلِسَكُمْ . (المنذ القريه ٢ : ١١٥)

١٣٢ — عقيل بن أبي طالب ومعاوية

وَكَانَ عَقِيلُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ قَدْ خَرَجَ إِلَى مَعَاوِيَةَ مُنَاصِبًا لِأَخِيهِ الْإِمَامِ عَلِيِّ كَرَّمَ اللَّهُ
وَجْهَهُ^(١) ، فَأَكْرَمَهُ مَعَاوِيَةُ ، وَقَرَّبَهُ إِلَيْهِ ، وَقَضَى حَوَائِجَهُ ، وَقَضَى عَنْهُ دَيْنَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ
فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ : « وَاللَّهِ إِنْ عَلِيًّا غَيْرُ حَافِظٍ لَكَ ، قَطَعَ قَرَابَتُكَ ، وَمَا وَصَلُكَ ، وَلَا
اصْطَلَمَتَكَ » قَالَ لَهُ عَقِيلُ : « وَاللَّهِ لَقَدْ أَجْزَلَ الْمُطْلِيَةَ وَأَعْظَمَهَا ، وَوَصَلَ الْقَرَابَةَ وَحَفِظَهَا ،
وَحَسَّنَ ظَنَّهُ بِاللَّهِ إِذَا سَاءَ بِهِ ظَنُّكَ ، وَحَفِظَ أَمَانَتَهُ ، وَأَصْلَحَ رَعِيَّتَهُ ، إِذْ خُتِمَ وَأَفْسَدَتُمْ
وَجُرْتُمْ ، فَا كَفَفْ لَا أَبَالُكَ فَإِنَّهُ عَمَّا تَقُولُ بِمَعْرُورٍ » .

وَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « أَبَا يُزَيْدَ ، أَنَا لَكَ خَيْرٌ مِنْ أَخِيكَ عَلِيٌّ » قَالَ « صَدَقْتَ ، إِنْ

(١) الخبر : الثنتين في القوم وغيره . (٢) العذار : جانبها الحية .

(٣) الخلة : شدة الشهوة كالشيق بالتحريك . (٤) وكان قد قدم عليه بالكوفة ، فسأله أن
يقضى عنه دينه ، قال : ولم دينك ؟ قال : أربعمائة ألفا ، قال : ما هي ، ولكن اصبر حتى يخرج
صالح فإنها أربعة آلاف فأدفعه إليك ، قال : بيوت المال بيدك وأنت تسوقني بملكك ؟ قال : أأنا من أن أدفع
إليك أموال المسلمين وقد اكتسبوا عليها ؟ قال : فإني آت معاوية ، فأذن له فقدم عليه . انظر أسد الغابة ٣ :
٤٣٣ والفهرست ص ٧٦ . اقرأ أيضا كلمة في هذا الصدد في شرح ابن أبي الهيثم ٣ : ٨٢ وفي ترجمة علي
ابن أبي طالب للمؤلف ص ٨٣ .

أَخِي آثَرَ دِينَهُ عَلَى دُنْيَاهُ ، وَأَنْتَ آثَرْتَ دُنْيَاكَ عَلَى دِينِكَ ، فَأَنْتَ خَيْرُ لِي مِنْ أَخِي ، وَأَخِي خَيْرٌ لِنَفْسِهِ مِنْكَ ^(١) .

وَقَالَ لَهُ مَرَّةً : « أَنْتَ مَعَنَا يَا أَبَا يَزِيدَ » قَالَ : « وَيَوْمَ بَدْرٍ قَدْ كَفْتُ مَعَكُمْ أ » .
وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : إِنْ عَلِيًّا قَدْ قَطَعَكَ وَوَصَلَتْكَ ، وَلَا يُرْضِيَنِي مِنْكَ إِلَّا أَنْ تَلْعَنَهُ عَلَى
عَلِيٍّ الْمَنْبَرِ . قَالَ : أَفْضَلُ ، فَأَصْعِدْ فَصْعِدْ ، ثُمَّ قَالَ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ : « أَيُّهَا النَّاسُ
إِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَعَاوِيَةَ أَسْرَفَنِي أَنْ أَلْتَمَسَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ فَالْعَنُوهُ ، فَعَلِيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ
وَاللَّامِئِكَ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ثُمَّ نَزَلَ ، فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : إِنَّكَ لَمْ تَبَيِّنْ - أَبَا يَزِيدَ - مَنْ
لَعَنْتَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ . قَالَ : وَاللَّهِ لَا زِدْتُ حَرْقًا وَلَا نَقَصْتُ آخَرَ ، وَالْكَلَامُ إِلَى
نَيْمَةِ التَّكْلَامِ .

وَدَخَلَ عَقِيلٌ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَقَدْ كَفَّ بَصَرَهُ ، فَأَجْلَسَهُ عَلَى مَرِيرِهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ :
« أَنْتُمْ مَشْرَبُ بَنِي هَاشِمٍ تُصَابُونَ فِي أَبْصَارِكُمْ » قَالَ : « وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ بَنِي أُمَيَّةٍ تُصَابُونَ
فِي بَصَائِرِكُمْ » .

وَقَالَ لَهُ يَوْمًا : مَا أَيْبَنَ الشُّبَّاقَ فِي رِجَالِكُمْ يَا بَنِي هَاشِمٍ ! قَالَ : لَسْكَنُهُ فِي نَسَائِكُمْ
أَيْبَنُ يَا بَنِي أُمَيَّةَ .

وَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمًا : « يَا هَاشِمُ الشَّامُ ، هَلْ سَمِعْتُمْ قَوْلَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ : (تَبَيَّنَتْ
يَدَايَ أَبِي لَهَبٍ ^(٢) وَتَبَّ) ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّ أَبَا لَهَبٍ مَعَهُ ، فَقَالَ عَقِيلٌ : فَبَلِّغْهُمْ
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : (وَأَمْرًا لَهُمْ حِمَالَةَ الْحَطَبِ ^(٣)) قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ : فَإِنَّهَا عَمَتُهُ ، ثُمَّ

(١) وَفِي الْبَيَانِ وَالتَّبَيُّينِ أَنَّ مَعَاوِيَةَ قَالَ : هَذَا أَبُو يَزِيدَ ، لَوْلَا أَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ خَيْرَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ لَمَا أَقَامَ
مَعَهُمَا وَتَرَكَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَقِيلٌ : « أَخِي خَيْرٌ لِي فِي دِينِي ، وَأَنْتَ خَيْرٌ لِي فِي دُنْيَايَ » . (٢) هُوَ أَبُو لَهَبٍ
ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَمُّ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَكَانَ شَدِيدَ الْإِيذَاءِ لَهُ ، يَرَى الْقَتْلَ عَلَى بَابِهِ .

(٣) هِيَ أُمُّ جَبِيلَ بِنْتُ حَرْبِ بِنْتِ أُمَيَّةَ أُخْتُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَقِيلَ لَهَا حِمَالَةُ الْحَطَبِ ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ
الشُّوكَ وَالسَّمَدَانَ وَتَلْقِيهِ فِي طَرِيقِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِإِيذَاءِ لَهُ وَكَانَتْ جَارَتَهُ ، أَوْ هِيَ الْغَنِيمةُ إِذْ كَانَتْ
تَسْمَى عَلَيْهِ بِالنَّخَامِ وَتَوَقَّعَ بِذَلِكَ نَارَ الْخَصْمَةِ : أَوْ حَطَبِ جِهَنَّمَ ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تَحْمِلُ الْأَوْزَارَ بِمَعَادَاتِهِ ، وَتَحْمِلُ
ذُوجَهَا عَلَى لِيذَائِهِ .

قال « يا معاوية ، إذا دخلت النار ، فاعديل ذات اليسار ، فإنك ستجد عى أبا لب ، مفترشا عمتك حاملة الحطب ، فانظر أيهما خير ؟ »

وقال له معاوية يوما : والله إن فيكم لخصلة ما تمجبنى يا بنى هاشم . قال : وما هى ؟ قال : لين فيكم . قال : لين ماذا ؟ قال : هو ذاك . قال إيانا تمجّر يا معاوية ؟ أجل والله إن فينا لئينا من غير ضعف ، وعزا من غير جبروت ، وأما أنتم يا بنى أمية ، فإن لينكم غدر ، وعزكم كفر . قال معاوية : ما كل هذا أردنا يا أبا يزيد .

وقال معاوية لعقيل : لم جفوتنا يا أبا يزيد ؟ فأنشأ يقول :

إنى امرؤ منى التكرؤم شيمة إذا صاحى يوما على المون أخيرا

ثم قال « وإيم الله يا معاوية ، لئن كانت الدنيا مهدتك مهادها ، وأغللتك بخذافير^(١) أهلها ، ومدت عليك أطناب سلطانها ، ماذا بالذى يزيدك منى رغبة ، ولا تخشعا لرغبة » قال معاوية : « لقد نمتها أبا يزيد نمتا هتن لها قلبى ، وإنى لأرجو أن أن يكون الله تبارك وتعالى مازداني برداء ملكها ، وحبايى بفضيلة عيشها ، إلا لسكرامة أخرها لى ، وقد كان داود خليفة ، وسليمان ملكا ، وإنا هو للثال يحتذى عليه ، والأمور أشباه ، وإيم الله يا أبا يزيد ، لقد أصبحت علينا كريما ، وإلينا حبيبا ، وما أصبحت أخيرا لك إساءة » .

(المقدم الفرید ٢ : ١١٠ — ١١٩ ، البيان والبيان ٢ : ١٧٤)

(١) الخذاير : جمع خذافير أو خذاف (كصفور وقرطاس) وهو الجانب .

١٢٣ - خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة

بعد مقتل الحسين عليهم السلام

لما قُتل الحسين بن عليّ عليهما السلام ، وأُدخِلَ النِّسْوةُ من كَرْبَلَاءَ إلى الكوفة جعلت نساؤها يَلْتَدِمْنَ^(١) ، وَيَهْتِكُنَّ الْجُيُوبَ عليه ، فرفع عليّ بن الحسين عليها السلام رأسه ، وقال بصوت خثيل - وقد نَحَلَ^(٢) من اللرض - يا أهل الكوفة إنكم تكونون علينا ، فمن قُتِلْنَا غَيْرَكُمْ ؟ وأومأت أم كلثوم بنت عليّ عليها السلام إلى الناس أن اسكتوا ، فلما سكنت الأنفاس ، وهذأت الأجراس^(٣) ، قالت .

« أبدأ بحمد الله ، والصلاة والسلام على آية^(٤) » ، أما بعد : يا أهل الكوفة يا أهل الخثير^(٥) ، واغزل ، لا ، فلا رَقَاتٍ^(٦) العتيرة ، ولا هذات الرثة^(٧) ، إنما مثلكم كمثل التي نَفَقَتْ غَزْلُهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةِ أَنْكَائِهَا^(٨) ، تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا^(٩) بَيْنَكُمْ ، ألا وهل فيكم إلا الصَّافِ^(١٠) والشَّنْفِ^(١١) ، وملق^(١٢) الإمام ، وغز الأعداء ، وهل أنتم

(١) لمت المرأة (كسرب) ، والتلت : لطبت وضربت صدوها في النياحة ، ويهتكن :

يمزقن ، والجيوب جمع جيب : وهو طوق القميص . (٢) كنع وعلم ونصر وكرم .

(٣) الأجراس جمع جرس كشمس : وهو الصوت . (٤) تريد جدّها رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وفي رواية : « والصلاة على جنى سيد المرسلين » . (٥) القدر والحديقة ، أو أقيع القدر .

(٦) رقاً الجمع : جف وسكن ، والعتيرة : اللعة قيل أن تقيض . (٧) الرقة : الصوت .

(٨) أنكائا : جمع نكت كسمل ، وهو ما تنقص لينزل ثانية - حال من غزها ، أو مفعول ثان لنقصت

لأنه بمعنى صيرت - وقيل هي ويطع بنت سعد بن تيم القرشية ، وكانت خرقاء تغزل طول يومها ثم تنفضه .

(٩) الدخل : ما يدخل في الشيء وليس منه ، وما داخِل من فساد في عقل أو جسم ، والقدر

والسكر والحديقة . (١٠) الصلف : التمع بما ليس هناك ، أو مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق

ذلك تكبرا . (١١) الشنف : النظر بمؤخر العين ، أو النظر إلى الشيء كالمتعرض عليه ، أو كالمتصحب

منه ، أو كالكاره له ، وشنف له كفرح فرحا : أبغضه وتكره . (١٢) ملق الجارية : مجامعها ،

أو هو ملق بالتحريك ، والملق : الملحق .

إلا كَمْ تَرَى عَلَى دِمْنَةٍ (١) ، وَكَفَيْتَ عَلَى مَلْحُودَةٍ (٢) ، أَلَا سَاءَ مَا قَدَّمْتِ أَنْفُسَكُنَّ أَنْ سَخِطَ
 اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، وَفِي الْعَذَابِ أَنْتُمْ خَالِدُونَ ، أَتَبْكُونَ ؟ إِي وَاللَّهِ فَابْكُوا ، وَإِنَّكُمْ وَاللَّهِ
 أَخْرِيَاءُ (٣) بِالْبَكَاءِ ، فَابْكُوا كَثِيرًا ، وَاضْحَكُوا قَلِيلًا ، فَلَقَدْ فَرِغْتُمْ بِمَارِهَا وَشَتَاكِهَا (٤)
 وَلَنْ تُرْجِعُوهَا (٥) يَنْتَقِلُ بِمَدِّهَا أَبَدًا ، وَأَنْتِ تُرْجِعُونَ قَتْلَ سَلِيلِ خَاتَمِ النَّبُوَّةِ ، وَمُعَدِّنِ
 الرِّسَالَةِ ، وَسَيِّدِ شِبَّانِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَمَفَارِ حُجَّتِكُمْ ، وَمِذْرَى (٦) حُجَّتِكُمْ ، وَمُفْرَخِ (٧)
 نَازِلَتِكُمْ ، فَتَمَسَّا وَنُكَّسَا (٨) ، لَقَدْ خَابَ السَّمِيُّ ، وَخَسِرَتِ الصُّفَّةُ (٩) ، وَبُؤْسَتْ (١٠)
 بِغَضَبِ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمْ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا (١١) ، تَكَادُ
 السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ، وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (١٢) ؛ أَتَذَرُونَ أَيْ
 كَيْدَ رَسُولِ اللَّهِ قَرِينِمْ ، وَأَيْ كَرِيمَةَ لَهُ أَبْرَزْتُمْ ، وَأَيْ دَمَ لَهُ مَفَكْتُمْ ؟ لَقَدْ جِئْتُمْ بِهَا
 شَوْهَاءَ خَرْقَاءَ (١٣) ، شَرُّهَا طِلَاعُ (١٤) الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ؛ أَنْصَبْتُمْ أَنْ قَطَرَتِ السَّمَاءُ دَمًا ،
 وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ؛ فَلَا سَتَاحْفَظُكُمْ الْمَلَأُ ، فَإِنَّهُ لَا تَحْفِزُهُ
 الْمُبَادِرَةُ (١٥) ، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ فَوْتُ النَّارِ ، كَلَّا ، إِنْ رَبُّكَ لَنَا وَلَهُمْ لِيَاكِزَّادُ (١٦) » ثُمَّ

-
- (١) اللعنة : آثار النار بعد الرحيل عنها من البحر والرماد وغيرها ، أغلقت هذا القول من قول
 جدها عليه الصلاة والسلام : « إِيَّاكُمْ وَخَضِرَاءَ الدَّمَنِ » وَهِيَ الْمَرْأَةُ الْحَسَنَاءُ فِي مَنَازِلِ السُّوءِ .
- (٢) ملحودة : مدفونة في لحدها ، تريد أنهم لا ينتفع بهم . (٣) جذيرون .
- (٤) الشنار : أقيح العيب . (٥) وحسه كنهه وأرخصه : غشله . (٦) دمه من القوم
 كنع : إذا تكلمت ودفع فهو مدمه . (٧) أي مذهب ومزيل ، يقال : « أفرغ دوعك » - على الأمر
 ويضم الداء من دوعك - أي اسكن وأمن ، والروح : القلب . (٨) النصب : الخلاك ، ونكسه نكسا :
 قلبه على رأسه ، والنكس بالضم حود المرض بعد النكس ، ويقال : تمسأه ونكسأه ، يضم النون وقد
 يفتح ازدواجاً . (٩) الليمة . (١٠) رجتم . (١١) أي فظيما منكرا . (١٢) ينتشقن ،
 وتخمر : تسقط ، هذا : أي نهد هذا . (١٣) بها أي بملكتكم هذه ، وخرقاء من الخرق : وهو الأبيض
 الرجل البلى والصر في الأمور . (١٤) طلاع الشيء : مأثوه . (١٥) أي لا تدفعه إلى العقوبة
 المبادرة إلى الذنب ، والضمير لله تعالى . (١٦) المرصاد : الطريق والمكان يرصد فيه العدو ، ورسده :
 رقبه ، أي يرصد أعمال المباد فلا يفوته منها شيء .

وَلْتَنْهَمِ ، فَظَلَّ النَّاسُ حَيَارَى ، وَقَدْ رَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ إِلَى أَفْوَاهِهِمْ . وَقَالَ شَيْخٌ كَبِيرٌ مِنْ
بَنِي جُثَيْنَةَ - وَقَدْ اخْضَلَّتْ (١) لَحِيَّتُهُ مِنْ دُمُوعِ عَيْنَيْهِ .

كَمُولُهُمْ خَيْرُ الْكَمُولِ وَنَسْلُهُمْ إِذَا عُدَّ ، نَسْلٌ لَا يَبُورُ وَلَا يَخْزَى

(بِلاغات النماء ص ٢٧)

١٢٤ - خطبة السيدة زينب بذت عليّ عليهما السلام

بين يدي يزيد

ولما وَجَّهَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ آلَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى يَزِيدٍ بِدَمَشْقٍ ، وَمَثَلُوا بَيْنَ
يَدَيْهِ أَسْرَ برَأْسِ الْحُسَيْنِ فَأَبْرَزَ فِي طَلَّتْ ، فَجَلَّ بِنَكْتِ ثَنَائِهِ بِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ ، وَهُوَ
يَقُولُ مِنْ آيَاتِ (٢) :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدُرُ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَرْجِ مِنْ وَقْعِ الْأَسْلِ (٣)

لَأَهْلُوا وَأَسْتَهْلُوا فَرَحًا ثُمَّ قَالُوا : يَا زَيْدُ لَا تَسْلُ (٤)

فَجَزَيْدَاهُمْ بِيَدِ مِثْلِهَا وَأَقْنَا مِثْلَ بَدْرِ فَامْتَدَل (٥)

فَقَالَتْ زَيْنَبُ بَذَتْ عَلَىٰ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ : صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ يَا زَيْدُ ! (ثُمَّ كَانَ
حَاقِبَةً الَّذِينَ أَسَاءُوا الشَّوْءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ) أَظُنْتُ
يَا زَيْدُ أَنَّهُ حِينَ أَخَذَ عَلَيْنَا بِأَطْرَافِ الْأَرْضِ وَأَكْذَابِ السَّمَاءِ فَأَصْبَحْنَا نَسَاقَ كَمَا يَسَاقُ

(١) ابطلت . (٢) تمثل يزيد بهذه الآيات وهو لعبد الله بن الزبير ، قالها في غزوة أحد ، وهو

يومئذٍ مشرك ، وكان حججو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شمره ، ثم أسلم بعد فتح مكة .

(٣) كانت الغلبة يوم بدر للمسلمين ويوم أحد للمشركين ، والأسل : الرماح والنبل ، والخروج : قبيلة

من الأنصار . (٤) كل من رضع صوته فقد أهل إهلا ولا يستهل استهلا ، وشلت يده تشل كصب يصب ،

وأشلت وشلت مبنين للمجهول : ييسر وهي جملة دعائية ، يقال في الدعاء : « لَا تَشْلُلْ بِنَا وَلَا تَكْلَلْ » -

والليت من قول يزيد - . (٥) لا تنس ما قمتناه لك من أن عليا كرم الله وجهه كان قد وتر آل أبي سفيان

يدور ، فقتل حنظلة بن أبي سفيان أميا معاوية ، والوليد بن حبة خاله ، وحنبة بن ربيعة جده لأمه .

الأسارى ، أن بناهوانا على الله ، وبك عليه كرامة ؟ وأن هذا لعظيم خطرك ؟
فَسَمَّخَتْ بِأُفْكِكَ ، ونظرت في عِطْفِكَ^(١) ، جَذْلَانِ فَرِحَا ، حين رأيت الدنيا مستوسقةً
لك ، والأمور منسقةً^(٢) عليك ، وقد أُمْنَيْتَ وَنُفَسَّتْ^(٣) ، وهو قول الله تبارك وتعالى :
(وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُضِلِّي لَهُمْ إِنَّمَا نُضِلِّي لَهُمْ
لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) آمِنِ الصِّدْقَ ، يابن الطَّلَقَاءِ تَحْدِيرُكَ^(٤) نساءك وإماءك
وسوقك بناتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هَتَكَتَ ستورهن ، وَأَصْحَلْتَ^(٥)
صوتهن ، مكثباتِ تَحْدِيدِي^(٦) بين الأباغرُ ، ويَحْدُو^(٧) بين الأعادي ، من بلد إلى
بلد ، لَا يَرِاقَبْنَ وَلَا يُؤَوِّنَنَّ ، ينشوقُهنَّ^(٨) القريب والبعيد ، لابس مهن ولى^(٩) من
رجلهن . وكيف يُنْتَبِطُّ في بِنَفْسِنَا من نظر إلينا بالشفف^(١٠) والاششنان ، والإحْنِ
والأضنان ؟ أقول « ليت أشيخي يبدرو شهدوا » غير متأنم ولا مستعظم ؟ وأنت تنكت
ثنايا أبى عبد الله بمخضرتك^(١١) ، ولم لا تكون كذلك وقد نَكَاتُ^(١٢) القرعة ،
واستأصلت الشافة^(١٣) ، ياهرأفك دماء ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونجوم

-
- (١) أى جانبيك ، وهو كناية من إصابته بنفسه . (٢) من استوسقت الإبل : أى اجتمعت ،
ومنسقة : منتظمة . (٣) أى فصح لك فى أمرك ، من نفس الله كبريت : فرجها . (٤) نهمل .
(٥) صوتهن فى خنودهن . (٦) اجتمعت ، جعل صوته كفرح : يبع .
(٧) غلى البعير والفرس كبرى : أسرع وزج بقوائمه ، أو هو ضرب من سيرها .
(٨) يسوق . (٩) يتناولون وينظر إليهن ويشرف عليهن . (١٠) قريب أو نصير .
(١١) سبق تفسيره ، وفى الأصل « بالشتق » وهو تحريف (والشتق : أن تكلف البعير بزماء حتى
تلزق ذفره بقادمة الرجل ، والغرى بكسر اللام : العظم الشاخص خلف الأذن) ، والاششنان : الكراهية ،
والإحْن : الأحقاد . (١٢) المنصورة : ما يأخذه الملك يشع به إذا خاطب . (١٣) نكأ القرعة
كنع : فخرها قبل أن تبرا فنديت ، كناية من نبشه مما كاد ينسى من الملاوة بين يديه ثم وبى أمة .
(١٤) الشافة : قرعة تخرج فى أسفل القدم فتكوى فتنهب ، واستأصل الله شافته : أذهب كما تذهب
تلك للقرعة .

الأرض من آل عبد المطلب ، ولقد رَدَّ عَلَى اللَّهِ وَشَيْكَاً^(١) مَوْرِدَهُمْ ، وَلَقَدْ نَزَّ أَنْكَ
عَمِيَّتٍ وَبَكَمْتٍ وَأَنْكَ لَمْ تَقُلْ : « فَاسْتَهْلُوا وَأَهْلُوا فَرَحاً » اللَّهُمَّ خُذْ بِمَقْتِنَا ، وَانْتَقِمْ لَنَا
عَنْ ظَلَمَتِنَا . وَاللَّهُ مَافَرَيْتَ إِلَّا فِي جِلْدِكَ . وَلَا حَزَزْتَ إِلَّا فِي لَحْمِكَ ، وَسَرَدْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَنَعِكَ^(٢) . وَعِزَّتُهُ وَلُحْمَتُهُ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُّوسِ^(٣) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ
تَحْتَهُمْ مَلُومِينَ مِنَ الشَّعْثِ^(٤) . وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (وَلَا تَخْشَى الْفِتْنَةَ قَتِلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ) وَسَيُطَمُّ مِنْ بَوَاكِ^(٥) وَمَكْنُكَ مِنْ
رِقَابِ الْمُؤْمِنِينَ - إِذَا كَانَ الْحُكْمُ لِلَّهِ ، وَالنَّصَبُ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَجَوَارْحُكَ
شَاهِدَةٌ عَلَيْكَ فَيَنْسُ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً - أَبْشَحُ شَرّاً مَكَاناً وَأَضْفُ جَنْدُاً ، مَعَ أَنِّي وَاللَّهُ
يَاعِدُوهُ اللَّهُ وَابْنُ عَدُوِّهِ ، أَسْتَصِفِرُ قُدْرَكَ ، وَأَسْتَغْثُ بِقَرَيْبِكَ^(٦) ، غَيْرَ أَنَّ الْعِيُونَ عَثَرِي
وَالصُّدُورَ حَرَرِي^(٧) ، وَمَا يَجْزِي ذَلِكَ أَوْ يُغْنِي عَنَّا ؛ وَقَدْ قَتَلَ الْحُسَيْنَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَحَزَبُ
الشَّيْطَانِ^(٨) يَقْرُبُنَا إِلَى حَزْبِ السَّفَهَاءِ^(٩) ، لِيَطْوَى أَمْوَالُ اللَّهِ عَلَى انْتِهَاكَ مَحَارِمِ اللَّهِ ،
فَهَذِهِ الْأَيْدِي تَنْطَلِفُ^(١٠) مِنْ دِمَائِنَا ، وَهَذِهِ الْأَفْوَاهُ تَحْتَلِبُ^(١١) مِنْ لَحْمِنَا ، وَتِلْكَ الْجَنَثُ
الزُّوَاكِي يَتَمَاتُهَا عَسَلَانِ الْقَلَوَاتِ^(١٢) ، فَلَنْ نَأْخُذَ نَا مَفْئِئَةً لِنَتَّخِذَنَّ مَقَرَّتَا ، حِينَ لَا نَجِدُ
إِلَّا مَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ ، تَسْتَصْرِخُ^(١٣) : يَا بَنَ مَرْجَانَةٍ ، وَيَسْتَصْرِخُ بِكَ ، وَتَتَمَاوَى وَأَنْتَابُكَ

(١) سريما . (٢) الرغم : اللذ . (٣) القتر : رطل الرجل وحشيره الأذنون ،
والحمة : القرابة ، والقلس : الطهر ، - أي في الجنة - . (٤) التفريق .
(٥) أي أهلك في كرب الخلة وهو معاوية . (٦) التفرج : التأييد . (٧) عين جوى : جرت
ميرتها ، والصدر حرى : شديدة الحرارة ، كناية عن شدة الحزن . (٨) تريد عبيد الله بن زياد ورجاله .
(٩) أي إلى يزيد وشيعته . (١٠) نطف الماء كسكر وضرب : سال ، ونطفت كفرج ، وعنى :
نطخت بيب . (١١) تحلب المرق : سال وتحلب بدنه مرقاً : سال عرقه . (١٢) الزواكي : جمع
زواكية من زكا إذا صلح وتتم ، واحتام : أخذ العينة بالكسر وهي خيار المال ، وعسل اللئب صلاتا
بكبرى جريانا : أعنت وأسرح ، والعامل : الذئب وجسمه كركع وفوارس ، والمراد هنا معنى الجمع لا المصدر :
أي ذبيان القلوات ، ولم أجد في كتب اللغة لعلل جميعاً غير هذين ، إلا أن يراد بالمصدر الوصف .
(١٣) تستغيث .

عند اليزان ؛ وقد وجدت أفضل زادٍ زودك معاوية فتلك ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما انتهيت^(١) غير الله ، ولا شكواى إلا إلى الله ، فكذلك كيدك ، واسع سميك ، وناصب جهلك^(٢) . فوالله لا يترخص عنك عارٌ ما أتيت إلينا أبدا ، والحمد لله الذى ختم بالسعادة والمنفرة لسادات شبان الجنان ، فأوجب لهم الجنة . أسأل الله أن يرفع لهم الدرجات ، وأن يوجب لهم المزيد من فضله ، فإنه ولى قدير .

(بلاغات النساء ص ٢٥)

١٢٥ - رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام

وقال الحسين بن على عند قبر أخيه الحسن عليهما السلام :

« رَحِمَكَ اللهُ أَبَا مُحَمَّدٍ ، إِنْ كُنْتُ لَتَنَاصِرُ الْحَقَّ مَقَالَةً^(٣) ، وَتَوَثَّرُ اللهُ عِنْدَ تَدَاخُصٍ^(٤) الْبَاطِلِ فِي مَوَاطِنِ النَّفْيَةِ بِمَحْسَنِ الرُّوِيَةِ ، وَتَسْتَشِفُّ^(٥) جَلِيلَ مَمَازِيهِ الدُّنْيَا بَعَيْنٍ لَهَا حَاقِرَةٌ ، وَتُفَيْضُ عَلَيْهَا بَدَا طَاهِرَةَ الْأَطْرَافِ ، نَفْيَةَ الْأَسِيرَةِ^(٦) ، وَتَرُدُّعَ بَادِرَةِ غَرْبٍ أَعْدَانُكَ بِأَيْسَرِ الْمُتُونَةِ عَلَيْكَ . وَلَا غَرَوَ وَأَنْتَ ابْنُ سُلَالَةِ النَّبُوَةِ ، وَرَضِيعُ لِبَانِ الْحِكْمَةِ . فَإِلَى رَوْحٍ وَرَمْحَانٍ وَجَنَّةٍ نَعِيمٍ . أَعْظَمَ اللهُ لَنَا وَلَكُمْ الْأَجْرَ عَلَيْهِ ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكُمْ السَّلَوةَ وَحَسَنَ الْأَمْرِ^(٧) عَنْهُ » (ميون الأخبار ٢ : ص ٣١٤)

(١) أى لا أخاف إلا الله . (٢) ناصبه المعاودة : أظهرها له .

(٣) فى الأصل « تناصر » بالياء وأراء بالنون ، وقوله « مقالة » أى فى مقامه ، أو هو بدل .

(٤) هى تقاض من الخضم ، دحض برجله كتح : فحص بها ، ودحضت رجله : زلقت ، والمضى :

عند تطاحن الباطل ومغالبة بضه بعضا . (٥) استشفه : نظر ماوراءه . (٦) الأسيرة جمع سراد

ككتاب : الخطوط التى تيدو فى ظاهر اليد والجهة . (٧) الأمى يضم الهزلة وكسرهما جمع أسوة بالضم

والكسر أيضا : ما يميز به .

١٢٦ - عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمر بن العاص

في مجلس معاوية

روى المسعودي في مروج الذهب قال :

« لما قُتِلَ عليّ كرم الله وجهه ، كان في نفس معاوية من يوم صفين قلى هاشم ابن عتبة بن أبي وقاص المرقال وولده عبد الله بن هاشم . إحن ؛ فلما استعمل معاوية زياداً على العراق ، كتب إليه : « أما بعد : فانظر عبد الله بن هاشم بن عتبة فشدْ يده إلى عنقه ، ثم ابست به إلى » غمله زياد من البصرة مُقيداً مقلولاً إلى دِمَشق ، وقد كان زياد طرّقه بالليل في منزله بالبصرة ، فدخل إلى معاوية ، وعنده عمرو بن العاص ، فقال معاوية لعمر بن العاص : هل تعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا الذي يقول أبوه يوم صفين ^(١) :

إني شَرِيتُ النفسَ لما اعتلَا وأكثَرَ القوَمَ وما أَقَلَّا ^(٢)

أعورُ يَبِينِي أَهْلَهُ مَحَلًّا قد طالع الحياةَ حتى بَلَّا ^(٣)

لا بد أن يُفْلَ أو يُفْلَا يَتَلَهُم بِذِي الكُؤُوبِ تَلًّا ^(٤)

لاخير عندي في كريم ولّي

(١) وذلك أن عمار بن ياسر جاء إلى هاشم بن عتبة (وكان هاشم أعور ففتت عنه يوم اليرموك بالشام) فقال : يا هاشم ، أمورا وجبنا ! لاخير في أعور لا يمشي بالأس ، اركب يا هاشم ، فركب ومضى معه وهو يرتجز : إني شريت النفس . . . الخ وعمار يقول : تقدم يا هاشم ، الجنة تحت ظلال السيوف ، والموت تحت أطراف الأسل ، وقد فُتحت أبواب السماء ، وترُفت المحور العين ، اليوم أتى الأسيرة محمدا وحزبه .

(٢) شريت النفس : أي بعتها في سبيل الله ، واعتله : نجى عليه (أي ادعى ذنبا لم يفعل) ، وفاطله شمير عمار بن ياسر ، فني لما اعتل أي لما رماني عمار بالجبن . (٣) يبنى أهله محلا : أي يبني محل أهله أي يطلب معبر أهله الذين استشهدوا في سبيل الله فسكنوا جنات الخلد ، فهو يبني لقادمهم والاجتماع بهم هناك .

(٤) يفل : يهزم ويطلب ، وتله صرعه ، أو ألقاه على عنقه وعنده (وفي الأصل : أسلمهم بذى الكؤوب سلا وهو تحريف ، إذ رواية الطبري ، وابن الأثير يطلهم بالثناء ، أو هو صحيح على معنى : أسلم أرواحهم وانزعمها) ، وذو الكؤوب : الرمح ، وكؤوب الرمح : التواثر في أطراف الأنايب .

فقال عمرو ومعتلا :

وقد يَنْبُتُ لِلرَّعَى عَلَى دِمَنِ النَّزَى وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هي^(١)
« دونك يا أمير المؤمنين الغضب الغضب^(٢) ، فاشخبُ أوداجه^(٣) على أسياجه^(٤) ،
ولا تردّه إلى أهل العراق ، فإنه لا يصبر على النفاق ، وهم أهل غدرٍ وشقاق ، وحزبُ
إبليسَ ليومِ هيجانه ، وإن له هوى سيؤديه^(٥) ، ورأيا سيُطفيه^(٦) ، ويطانة ستقويه ،
« وَجَزَلَهُ سَيِّئَةٌ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » .

(١) لندن : جمع دمنة ، وهي ما اسود من آثار الدار بالبر والرماد وغيرها ، وهذا البيت
لزفر بن الحارث السكلاي من قصيدة قالها ، وقد قتل ابنه يوم وقعة مرج راجط ، التي نشبت بعد
موت معاوية الثاني بين مروان بن الحكم وبين من خالف حل الأموية ودعا إلى الزيرية من الضحاك بن قيس
الفهري وأتباعه ، ومنهم زفر السكلاي ، وقد دارت عليهم الدائرة ، وقتل الضحاك « انظر تاريخ الطبري ،
ومروج الذهب ، والعقد الفريد » . (٢) الغضب : حيوان يرى يشبه الولد ، وهو يتلون ألوانا بحر
الشمس كما تتلون الحرياء ، وقد ضرب به المثل فقالوا : « أخدع من صب » ، وذلك أنهم كانوا يصيدونه ،
فيألق الحارث (حرش الغضب واحتشه : صاده) ويحرك يده على باب جحره ليظه حية فيخرج ذنبه ليضربها
فيأخذه ، ولكن الغضب شديد الحذر فإنه يمد بلذبه باب جحره ليضرب به حية أو شيئا آخر إن جاءه ،
فيجىء المحترش ، فإن كان الغضب مجريا أخرجه ذنبه إلى نصف الجحر ، فإن دخل عليه شيء ضرب به وإلا بقى في
جحره ، فهذا هو خدعه - يمتحن به شدة حفره - وقيل إن معناه أن جحره قلما يخلو من مقرب ، لا بينها
من الألفة والاصانة بها على المحترش ، فإذا أدخل المحترش يديه لدغته وأنشدوا :

وأخدع من صب إذا جاء حارث أعد له عند الثلابة عقربا

ويقولون : « فلان صب صب » (والصب بالفتح وبكسر المخادج) فيشبهون المحقد السكامن في قلبه
الذي يسرى ضرره ، يخرج الغضب في جحره (ومن أمثاله فيه أيضا) « أعق من صب » - ريدون الأنثى ،
وعقونها أنها تأكل أولادها ، وذلك أن القصة إذا ياضت حرسن يبيضها من كل ماقدرت عليه من ورل وحية
وغير ذلك ، فإذا نعت أولادها ، وغرجت من البيض . ظننا شيئا يريد يبيضها ، فوثبت عليها فقتلها ،
فلا يتجر منها إلا الشريد - وقالوا : « أعد من ذنب الغضب » ذكروا أن فيه إحدى وعشرين عقلة
- « وأجن من صب » ، « وأبلد من صب » ، « وأحيا من صب » - أي أطول عمرا .

(٢) الأوداج جمع وذج بالتحريك : عرق في اللحم ، وشخب أوداج القتليل دما من بابي قتل ونفخ :
جرت ، وشخب اللبن وكل مائع : دس وسال ، وشخبه أنا يتسلى ولا يتصل . (٤) الأسباغ جمع
سبغة « كفرصة » وسبغة القيص : لبنة - يثبته . (٥) أي وإن له ميلا إلى آل حل سبلكه .
(٦) طنى : جاوز القدر وارتفع وغلا في الكفر وأسرف في اللعاصي والظلم .

قال عبد الله : « يا عمرو إن أقتل فرجلاً أسفه^(١) قومه ، وأدركه يومه ، أفلا كان هذا منك إذ تحميد من القتال ، ونحن ندعوك إلى النزال ، وأنت تلوذ بسمال النطاف^(٢) ، وعقاق الرصاف^(٣) ، كالأمّة السوداء ، والنسجة القوداء^(٤) لا تدفع يد لايس^(٥) .

قال عمرو : « أما والله لقد وقعت في لمأذم^(٦) شدقم للأقران ذى ليد ، ولا أحسبك منفلتاً من محاليل أمير المؤمنين .

قال عبد الله : « أما والله يا بن العاص ، إنك لبطر في الرخاء ، جبان عند اللقاء ، غشوم^(٧) إذا ولت ، هباب إذا لقيت ، تهذر^(٨) كما تهذر النود المنكوس ، للقيد بين بحرى الشول ، لا يستفجل في المدة ، ولا يزنجي في الشدة ، أفلا كان هذا منك ، إذ غمرك أقوام لم يصفوا صفاراً ، ولم يزهقوا كباراً . لهم أيد شداد ، وألسنة حداد ،

(١) غذه . (٢) النطاف جمع نطفة (كفرصة) وهى الماء الصافي ، قل أو كثر ، وفى الحديث « تطلنا إليهم هذه النطفة » أى البحر وماءه ، وفى حديث عبل : « وميهاها عند النطاف والأعشاب » أى الإبل والماشية . يريد أنها إذا وردت على المياه والشب يدعها لترد وترعى . (٣) الرصفة بالتحريك الحجارة التى يرصف بعضها إلى بعض فى سبيل فيجتمع فيها ماء المطر ، والمقاتل : الفئران . يقال لكل مسيل شفه ماء السيل فأشهره ووسه عقيق ، والجمع أقة وعقاق ، وقيل المقاتل هى الرمال الحمر . (٤) مؤنت الأقود : وهو اللؤلؤ للنقاد . (٥) جمع لطم كجسفر : وهو القاطع من الأمّة ، والشدقم : الأسد ، والواسع الشدق ، وشدقم للأقران أى أسد ميتلج للأقران ، واليد جمع لبة بالكسر ، ولبة الأسد : ما تلد من شره على منكبيه ، وكنيته « ذو لبة » ويكنى أيضاً أبا الأبطال ، وأبا شبل ، وأبا العباس ، وأبا الحارث ، وأبا حفص ، وأبا القزفران . (٦) ظلوم ، غشمه كفر به غشياً ظلمه .

(٧) هذر الجبر وعذر بالتشديد : صوت ، وفى المثل « كاللهدر فى العنة » والعنة بضم العين وتشديد النون : الخطيرة . يضرب لمن يصيح ويحلب ولا ينفذ قوله ولا فعله ، كالجبر يحبس فى الخطيرة ممنوعاً من الضراب وهو يهذر ، والمود : المسن من الإبل ، والمنكوس : الذى عاوده المرض بعد النقه ، والشول جمع شائلة ، وهى من الإبل مائى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها .

يَدْعُمُونَ التَّوَجَّ (١) ، وَيُذْهِبُونَ الْحَرَجَ (٢) ، يُكْثِرُونَ الْقَلِيلَ ، وَيَشْفُونَ النَّيْلَ ،
وَيُمِزُّونَ الْقَلِيلَ ؟

فقال عمرو : « أما والله لقد رأيت أباك يومئذ تحقّق (٣) أحشاؤه ، وتَبَيَّنَ (٤) أمعاؤه
وتضطرب أصلاؤه (٥) ، كما نتما انطبق عليه ضمّد (٦) » .

فقال عبد الله : « يا عمرو ، إنا قد بلّوناك ومقاتلك ، فوجدنا لسانك كذوباً غادراً ،
خلوت بأقوام لا يعرفونك ، وجنّد لابساً منك ، ولو رمت المنطق في غير أهل الشام ،
لجَحَطَ (٧) إليه عقلك ، ولتلجّج لسانك ، ولاضطرب فتخذاك اضطراب القمود (٨) الذي
أنقله جملة » .

فقال معاوية : « إيهّا (٩) عنكما ، وأمر بإطلاق عبد الله ، فقال عمرو لمعاوية :
أمرتك أمراً حازماً فمصّيتني وكان من التفويق قتل ابن هاشم
أليس أبوه (يا معاوية) الذي أمان عليّ يوم حزّ القلاصم (١٠)
فلم يئنّني حتّى جرّت من دماثنا بصيفين أمثال البحور الخضارم (١١)
وهذا ابنه ، والمرء يشبه سنخه ويوشك أن تفرّغ به سنّ نادم (١٢)

(١) التوج : بالفتح ، في كل ما كان متصبيا مثل الإنسان والعصا والعود وشبهه ، والموج :
بالكسر ، ما كان في بساط أو أرض أو معاش أو دين ، وقيل بالفتح مصدر وبالكسر اسم منه ، ودعاه
(كنه) مال غافاه . (٢) حرج صدره كفرح حرجا : ضاق . (٣) تضطرب .

(٤) تخرج ، يق التبت يقول : طلع . (٥) جمع صلا بالفتح : وهو وسط الظهر من الإنسان ومن
كل ذي أربع ، وقيل هو ما انحدر من الوركين . (٦) ضمد جرحه : شده بالضاد والقضاد (بالكسر)
أي الضماصة ، والمجمع ضد ككعب . (٧) من جسطت العين ججوطا : إذا برزت مقلتها ، والمراد
اضطرب عقلك وشرذ ولم يسل لك قياد التفكير . (٨) القمود من الإيل : الذي يقتنه الراعي في كل حاجة .

(٩) أمر بالسكوت . (١٠) القلاصم : جمع غلصمة يفتح الفين والصاد ، وهي رأس الخلقوم
- الموضع ثنائيا في الحلق - أو أصل اللسان . (١١) الخضارم جمع خضرم بكسر الخاء والراء : البحر
الظيم . وإثبات الياء في ينتى مع الجازم لغة أو الضرورة أو إشباع والحرف الأصل محذوف الجازم .

(١٢) قرع فلان سه : حرقه فلما (حرق نابه - كنصر وضرب - سحقه حتّى سمع له صريف)
وسكن الفعل الضرورة ، والسنخ : الأصل من كل شيء ، (وي الأصل شيخه وهو تصحيف) .

فقال عبد الله يحميه :

مُأْمَرِي : إِنْ الْمَرْءَ عَمَزَا أَبَتْ لَهُ ضَنْبَةُ صَدْرٍ غِشَّاهَا غَيْرُ نَارِهِ
يَرَى لَكَ قَتْلِي (يَا بَنَ هِنْدِ) وَإِنَّمَا يَرَى مَا يَرَى عَمْرُو مُلُوكِ الْأَعَاجِمِ
عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَقْتُلُونَ أَسْرِمَ إِذَا مُنِعَتْ مِنْهُ هُدُودُ الْمَسَالِمِ
وَقَدْ كَانَ مِنَّا يَوْمَ صِفِّينَ نَمْرَةً عَلَيْكَ جَنَاهَا هَاشِمُ وَإِنْ هَاشِمُ^(١)
قَصَى مَا انْقَضَى مِنْهَا ، وَلَيْسَ الَّذِي مَضَى وَلَا مَا جَرَى إِلَّا كَأَضْفَاتِ حَالِمِ^(٢)
فَإِنْ تَنَفَّ عَنْ تَعْفٍ عَنْ ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ تَرَ قَتْلِي تَسْتَحِلُّ مَحَارِمِي^(٣)

فقال معاوية :

أَرَى النِّمْرَ عَنْ عَلِيٍّ قَرِيشَ وَسِيلَةٍ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ الْعَصِيبِ الْقُمَامِطِ^(٤)
وَلَسْتُ أَرَى قَتْلَ الْمُدَّةِ ابْنَ هَاشِمٍ بِإِدْرَاكِ تَأْرَى فِي لُؤَيٍّ وَعَامِرِ^(٥)
بَلِ الْعَفْوِ عَنْهُ بَعْدَ مَا كَانَ جُرْمُهُ وَزَلَّتْ بِهِ إِحْدَى الْجُدُودِ الْعَوَائِرِ
فَسَكَانَ أَبُوهُ يَوْمَ صِفِّينَ جَعْرَةً عَلَيْنَا فَأَرَدْتَهُ رِمَاحُ نَهْأَبِرِ^(٦)

(١) نمر القوم كنع : هاجوا واجتمعوا في الحرب ، ونمر الرجل خائف ، وفي الأصل « نفرة » وهو

تصنيف . (٢) قصي : مات وذهب ، وأضفأت حالم : رؤيا لا يصح تأويلها لاغتيالها .

(٣) كان عبد الله بن هاشم من أقرباء معاوية ، إذ هو ابن هاشم بن عتبة بن أبي وقاص مالك بن وهيب

ابن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، ومعاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف

ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي ، فهو يجتمع مع معاوية في جده كلاب . (٤) يوم مصيب :

شديد ، ويوم قاطر وقطرير : شديد أيضا . (٥) المداة جميع عاد : وهو العدو ، ولؤي هو الجد التاسع لمعاوية

وعبد الله بن هاشم (والجد الثامن للتبى عليه الصلاة والسلام) وعامر : هو عامر بن لؤي .

(٦) النهابر : المهاك جمع نهيرة بضم النون والياء وكذا النهابر جمع نهيرة .

١٢٧ - عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية

وحضر عبد الله بن هاشم ذات يوم مجلس معاوية ، فقال معاوية :
 « مَنْ يَخْبِرُنِي عَنِ الْجُودِ وَالنَّجْدَةِ وَالرُّوَّةِ ؟ » فقال عبد الله : يا أمير المؤمنين ،
 أما الجود : فابتدالُ المال ، والسُّطِيَّةُ قبل السؤال : وأما النجدة : فالجِزَاءُ على الإقدام ،
 والصبر عند لزومِ الأقدام ^(١) . وأما الرودة فالصلاح في الدين ، والإصلاح للحال ،
 والمخاطاة عند الجار .
 (مروج الذهب ٢ : ٥٧)

قيس بن سعد بن عبادة ومعاوية

ودخل قيسُ بن سعد بن عبادة بعد وفاة عليٍّ ووقع الصلح ، في جماعة من الأنصار ،
 على معاوية ، فقال لهم معاوية :

١٢٨ - مقال معاوية

« يا معشر الأنصار ، يَمْ تَطْلِبُونَ مَا قَبِلِي ؟ فَوَ اللَّهِ لَقَدْ كُنْتُمْ قَلِيلًا مَعِيَ ، كَثِيرًا
 مَعِ عَلِيٍّ ، وَلَقَدْ فَلَّغْتُمْ حَدِّي يَوْمَ صِفِّينَ ، حَتَّى رَأَيْتُ لِلنَّايَا تَلَطَّيَ ^(٢) فِي أَسِنَّتِكُمْ ،
 وَهَجَوْنِي فِي أَسْلَافِي بِأَشَدِّ مِنْ وَقْعِ الْأَسِنَّةِ ، حَتَّى إِذَا أَقَامَ اللَّهُ مَنَا مَا حَاوَلْتُمْ مَعَهُ ،
 قَلَمُ ارْزَعْ فِينَا وَصِيَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ^(٣) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، هِيَاهُتَ بِأَبِي الْحَقِيرِ الْقَدْرَةِ . »

(١) لى عند انحرافها وتزلزلها . (٢) تطلّى : لى تطلب . (٣) وقد وصى عليه الصلاة
 والسلام بأن يحسن إلى محسنهم ، ويتجاوز عن سيئهم .

١٣٩ - رد قيس بن سعد

فقال قيس : « نطلب ما قبلك بالإسلام الكافي به الله ، لا بما نمت به إليك من الأحزاب . وأما عداوتنا لك فلو شئت كففها عنك . وأما هجاؤنا إليك فقول يزول باطله ، ويثبت حقه . وأما استقامة الأمر فعلى كرمه كان منا . وأما قلنا حدك يوم صفين فإننا كنا مع رجل نرى طاعته لله طاعة ، وأما وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا فمن آمن به رعاها بعده . وأما قولك يابى الحقيق القدره ، فليس دون الله يد تعجزك من معاوية . »

فقال معاوية يومه : « ارضوا حوايجكم »

(مروج الذهب ٢ : ٦٣ ، والمقد الفريد ٢ : ١٢١)

١٣٠ - معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء

روى المسعودى فى مروج الذهب قال :

حبس معاوية صعصعة بن صوحان العبدي ، وعبد الله بن الكواء اليشكري رجلاً من أصحاب عليّ ، مع رجال من قريش ، فدخل عليهم معاوية يوماً ، فقال : « نشدتكم بالله إلا ما قلتم حقاً وصدقاً ، أى الخلفاء رأيتموني ؟ فقال ابن الكواء : « لولا أنك عزمت علينا ما قلنا ، لأنك جبار عنيد ، لا ترأى الله فى قتل الأخيار ، ولكننا نقول : إنك - ما قلنا - واسع الدنيا ضيق الآخرة^(١) ، قريب القربى بعيد المرمى^(٢) ، تجعل الظلمات نوراً ، والظهور ظلمات . » فقال معاوية : « إن الله أكرم هذا الأمر

(١) أى إنك ذو حظ وافر فى الدنيا وليس لك من ثواب الآخرة من نصيب .

(٢) قريب القربى : قريب الملوك فى القربى : أى قريب الأجل ، وبعيد المرمى : كناية عن أنه بعيد الأمل . والمعنى أنك واسع الآمال بعيد المرمى الأمانى ، مع يفيدك أن الاحتمال من هذه الدار وشيك .

بأهل الشام ، القاديين من بيضته ، التاركين لحارمه ، ولم يكونوا كأهل العراق ،
المتنهكين لحارم الله ، والمُحِلِّين ما حرَّم الله ، ولِلْحَرَمِينَ ما أحلَّ الله . قال عبد الله
ابن السكواء : « يابن أبي سفيان ، إن لكل كلام جوابا ، ونحن نخاف جَبْرُوتَكَ ، فإن
كنت تطلقُ السِّتْنَتَا ذَبَبْنَا عن أهل العراق ، بالسِّتَةِ جِدَاد ، لا يأخذها في الله لومة لائم
وإلا فإنا صابرون حتى يحكم الله ويضعنا على قَرَجِهِ » . قال : « والله لا يُطْلَقُ
لك لسان » .

ثم تكلم مصممة فقال : « تكلمت يابن أبي سفيان فَأَبْلَقْتَ ، ولم تُقَصِّرْ عما
أردت ، وليس الأمر على ما ذكرت ، أنى يكون الخليفةَ مِنْ مَلَكَ النَّاسِ قَهْرًا ،
ودانهم ^(١) كِبْرًا ، واستولى بأسباب الباطل كذبا ومكرًا ؟ أما والله ما لك في يوم بدر
مَضْرَب ولا مَرَمَى ^(٢) ، وما كنت فيه إلا كما قال القائل : « لَأَحْلِي وَلَا سِيرِي » ،
ولقد كنت أنت وأبوك في العير والتغير ^(٣) ممن أجلب على رسول الله صلى الله عليه وسلم
وإنما أنت طليق ابن طليق ^(٤) ، أطلقكما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتى
تصالح الخلافة لطليق ؟ » ، قال معاوية : « لولا أنى أرجع إلى قول أبي طالب
حيث يقول :

(١) دانه : ملكه وأذله واستعبده . (٢) أى مالك ضرب ولاوى . (٣) العير : الإبل تحمله
الميرة ، والمراد بها هنا عبر قريش التي كان يقودها أبو سفيان بن حرب — وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
تدعيم انصرافها من الشام — فلما دنا أبو سفيان من المدينة ، وعرف أن حيون رسول الله صلى الله عليه وسلم
ترصده ساحل بيمره (أى بها الساحل) وترك بدرا يسارا ، وقد كان يمتد إلى قريش حين فصل من الشام
ينبرهم بما يخافه من محمد ، فأقبلت قريش من مكة ، فأوصل إليهم أبو سفيان يخبرهم أنه قد أحرز العير (أى
حصنها) ويأمرهم بالرجوع ، فأبت قريش أن ترجع ، ووجدت بنو زهرة ومدلوا إلى الساحل مصيرين إلى
مكة فصادفهم أبو سفيان فقال : يابن زهرة لاقى العير ولا فى التغير (فذهب مثلا) قالوا أنت أرسلت إلى
قريش أن ترجع ، ومضت قريش إلى بدر فقاتلهم النبى وأظفره الله بهم ، والتغير : القوم يستغيثون للحرب
وهم مثلنا مشركو مكة الذين خرجوا يستغلون العير ، وكان رئيسهم هبة بن ربيعة بن عبد شمس جد معاوية لأمه .
(٤) الطلقاء : هم الذين عفا عنهم النبى صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة ، فقال لهم اذهبوا فأنتم الطلقاء .

قَابَلْتُ جَهَنَّمَ حِمْلًا وَمَقْفَرَةً وَالْعَفْوُ عَنْ قُدْرَةٍ ضَرَبَ مِنَ الْكَرَمِ
لَقَاتِكُمْ (مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣١ — صمصمة بن صوحان ومعاوية

ودخل صمصمة بن صوحان على معاوية ، فقال له :

« يا بن صوحان ، أنت ذو مرققة بالعرب وبجالحا ، فأخبرني عن أهل البصرة ، وإياك والمحلّ على قوم لقوم » قال : « البصرة واسطة ^(١) العرب ، ومُنْتَهَى الشرف والسودد ، وهم أهل الخِلْط ^(٢) في أول الدهر وآخره ، وقد دارت بهم سَرَوَات ^(٣) العرب كدَوْرَانِ الرُّحَى على قُطْبِهَا » ، قال : فأخبرني عن أهل الكوفة ، قال : « قُبَّةُ الْإِسْلَامِ ، وَذِرْوَةُ الْكَلَامِ ، وَمَصَانُ ذَوَى الْأَعْلَامِ — إِلَّا أَنْ بَهَا أَجْلَافًا ^(٤) تَمْتَحُ ذَوَى الْأَمْرِ الطَّاعَةَ ، وَتُخْرِجُهُمْ مِنَ الْجَمَاعَةِ — وَتَلِكُ أَخْلَاقُ ذَوَى الْهَيْئَةِ وَالْقَنَاعَةِ » . قال : فأخبرني عن أهل الحجاز ، قال : « أَسْرَعُ النَّاسِ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَضْعَفُهُمْ عَنْهَا ، وَأَقْلَهُهُمْ خَبَاءً ^(٥) » فيها ، غير أن لهم ثَبَاتًا فِي الدِّينِ ، وَتَمَسُّكًَا بِمَرْوَةِ الْيَقِينِ ، يَتَّبِعُونَ الْأَئِمَّةَ الْأَبْرَارَ ، وَيَتَخَلَّوْنَ الْفَسَقَةَ الْفُجَّارَ » فقال معاوية : مَنْ الْبَرَّةُ وَالْفَسَقَةُ ؟ فقال : « يَا بَنِي سَيْفَانَ ، تَرَكُوا الْإِدْعَاجَ ، مَنْ كَشَفَ الْقِنَاعَ ، عَلَى وَأَصْحَابِهِ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَبْرَارِ ، وَأَنْتَ وَأَصْحَابُكَ مِنْ أَوْلَئِكَ » ثم أحب معاوية أن يمضى صمصمة في كلامه ، بعد أن بان فيه التّغضب ، فقال : أخبرني عن القُبَّةِ الْحِمْرَةِ فِي دِيَارِ مُضَرَ ^(٦) ، قال :

(١) هو من التشبيه بواسطة البعد : وهي الجوهرة الفاخرة التي تجل وسطه . (٢) الخِلْط جمع خِطَة بالكسر : وهي الأرض تنزل من غير أن ينزلها نازل قبل ذلك ، ومنه خلط الكوفة والبصرة . وقد خلطها لنفسه واختلطها : وهو أن يطم عليها علامة بالخط ليطم أنه قد استأجرها . (٣) السَرَوَات بالفتح : المروءة في شرف ، سرور فهو سرى وجهه أسرياه وسرواه كفضلاء والسرارة بالفتح اسم جمع وجهه سرورات . (٤) جمع جلف بالكسر : وهو الرجل الجاني . (٥) خباء : كفاية . (٦) ذكروا أن نزار ابن ممد لما حضرته الوفاة جمع بنيه : مضر وإياد ، وربيعة ، وأحمار ، فقال : يا بني ، هذه القبة الحمراء —

« أَسَدٌ مُضَرٌّ بَسْلَاهُ بَيْنَ غِيلَيْنِ ^(١) ، إِذَا أُرْسَلَتْهَا أَفْتَرَسَتْ ، وَإِذَا تَرَكْتُهَا احْتَرَسَتْ » .
 فقال معاوية : « هنالك يابن صوحان ، العز الراسي ، فهل في قومك مثْلُ هذا ؟ قال :
 هذا لأهله دونك يابن أبي سفيان ، ومن أحب قوماً حُشِرَ معهم » قال : فأخبرني عن ديار ربيعة ،
 وَلَا يَسْتَصْفِنُكَ الْجَهْلُ ، وسابقة الحِجْيَةِ بالضمص لقومك ^(٢) ، قال : « والله ما أنا عنهم براص ،
 ولكني أقول فيهم وعليهم ، هم والله أعلام الليل ، وأذئاب في الدِّينِ والليل ، لن تُكَلِّبَ
 رأيها إِذَا رُشِّعَتْ ، خوارج الدِّينِ ، برازخ اليقين ، من نصره فَلَاحَ ^(٣) ، ومن خذله
 زَلِجَ ^(٤) » . قال : فأخبرني عن مضر ، قال : « كِنَانَةُ ^(٥) العرب ، ومُتَدِّينُ العز والحسب ،
 يَقْدِفُ الْبَحْرَ بِهَا أَذْيَةً ^(٦) ، وَالْبَرْزَ رَدِيَةً » ثم أمسك معاوية ، فقال له صمصمة : سَلْ
 يامعاوية ، وإلا أخبرتك بما تحيد عنه ، قال : وما ذاك يابن صوحان ؟ قال : « أهل
 الشام » قال : « فأخبرني عنهم » ، قال : « أطوع الناس لخلق ، وأعاصم لخلق ، عُصَاةُ
 الْجِبَارِ ، وَخِلْفَةُ ^(٧) الْأَشْرَارِ ، فليهم الدَّمار ، ولهم سوء الدار » . فقال معاوية : « والله

— وكانت من آدم — لمضر — وهذا الفرس الأدهم والخيال الأسود لربيعة ، وهذه الخادم — وكانت شطاه
 — لإياد ، وهذه البدة (بالفتح : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار) والمجلس
 لأنمار يجلس فيه ، فإن أشكل عليكم كيف تقسمون ، فأتوا الأضي الجرهى ، ومنزله بنجران ، فتشاجروا
 في ميراثه ، فاختصموا إلى الأضي الجرهى ، وهو حكم العرب ، فقصروا عليه قصتهم ، وأخبروه بما أوصى
 به أبوه فقال : ما أثبته القبة الحمراء من مال فهو لمضر ، فذهب بالنذائير والإبل الحمر ، فسمى مضر الحمراء
 لذلك ، وقال : وأما صاحب الفرس الأدهم والخيال الأسود ، فله كل شيء أسود ، فصارت لربيعة الخيل
 الأدهم ، فتبيل ربيعة الفرس ، وما أشبه الخادم للشطاه فهو لإياد ، فصار له الماشية الباقى من الخيل والبق
 (الخيلق : يفتح الماء والياء وتشديد اللام : غنم صفار لا تكبر ، أو قصار المز ودماها ، والتقد كسب :
 جنس من الغنم قبيح الشكل) فسمى إياد الشطاه ، وقضى لأنمار بالدرهم وبما فضل : فسمى أنمار الفضل
 فصدروا من عنده على ذلك . — جميع الأمثال ١ : ١٠ . (١) بسلاه جمع يأسل : وهو الأسد والشجاع
 والنيل بالكسر ويفتح : الشجر الكثير الملتف والأجعة . (٢) وكان صمصمة من بني عبد القيس
 ابن جفيلة بن أسد بن ربيعة بن زرار . (٣) قلع على خصمه : ظفر وقاذ . (٤) زلق وزل .
 (٥) الكنانة في الأصل : جنية السهام . (٦) الآتئ : الموج . (٧) الخلفة في الأصل :
 ما خلق خلف الراكب ، والمراد بها هنا أتباع .

يابن صوحان ، إنك لحامل مدينتك منذ أزمان (١) « إلا أن حلم ابن أبي سفيان يردُّه منك .
فقال صمصمة : « بل أسره الله وقدرته ، إن أسره الله كان قدراً مقدوراً » .

(مروج الذهب ٢ : ٧٨)

١٣٢ — صمصمة بن صوحان وعبد الله بن عباس

وروى للسعدي في مروج الذهب أيضاً ، قال :

« عن مصقلة بن هبيرة الشيباني قال : سمعت صمصمة بن صوحان وقد سأله ابنُ عباس : ما السُّوددُ (٢) فيكم ؟ فقال : إطمأء الطعام ، ولين الكلام ، وبذلُ النِّوال ، وكفُّ الرءفَّة عن السؤال ، والتَّوَدُّ للصغير والكبير ، وأن يكون الناس عندك شمرًا (٣) » . قال : فما الرُّوءة ؟ قال : « أخوان اجتماعهما ، فإن لقياً قهراً ، (وإن كان) (٤)
حارِسهما قليل ، وصاحبهما جليل ، محتاجان (٥) إلى صيانة ، مع نزاهة وديانة » . قال : فهل تحفظ في ذلك شمرًا ؟ قال : نعم ، أما سمعت قول مُرَّة بن دهل بن شيبان حيث يقول :
إِنَّ السَّيَادَةَ وَالرُّوءَةَ حُلُقًا حَيْثُ السَّمَاءُ مِنَ السَّمَاءِ الْأَعْزَلِ (٦)
وَإِذَا تَقَابَلَ مُجْرِيَانِ لِنَافِيَةٍ عَنَ الْمَحْجِينَ وَأَسْلَمَتِ الْأَرْجُلُ (٧)
وَيَجِيءُ الصَّرِيحُ مَعَ الْتِقَاقِ مُعَوِّدًا قَرَبَ الْجِيَادِ فَلَمْ يَجِئْهُ الْأَفْكَلُ (٨)

(١) كناية من مجارته بالمطاوعة . (٢) السودد بفتح الدال غير مهموز ، والسودد بضم الدال مهموزا والسيادة والسودد . (٣) شمرًا يسكون الراء وتفتحها أي سواه . (٤) أي أنهما قوتان ضليتان لصاحبهما ، تقهران ما يلقاه من الشدائد والصعاب . وقوله « وإن كان » أي وإن كان ما لقياه عظيمًا ، ولعله زيادة من خطأ النسخ أو الطباع . (٥) في الأصل « لحاجان » وهو تحريف . (٦) السبا كان الأعزل والرامي : نيمان نيران ، وصبي أمزل لأنه لاشيء بين يديه من السكواكب كالأعزل الذي لا سلاح معه كما كان مع الراسح . (٧) فرس هجين : إذا لم يكن عتيقًا كريمًا ، وأسلمته : غدله . (٨) لم يجئ الأتكل : أي لم تصبه للرحلة . ويلاحظ أن في هذا الشعر هيبا من عيوب القافية وهو الإقواء ، لأن حركة الروي في البيت الأول كسر ، وفي الثاني والثالث ضم ، وقد وقع في شعر النابغة النيباني ، وحسان ابن ثابت ، وبشر بن أبي خازم

في أبيات . فقال له ابن عباس : لو أن رجلاً ضرب آباط^(١) إبله ، مُنْزَعًا وَمُزْرَبًا ففائدة هذه الأبيات ما عَنَفْتُهُ ، إنا منك يا بن صُوحان لَدَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ واستنباط ما قد عَفَا^(٢) من أخبار العرب ، فن الحليم فيكم ؟ قال : « مَنْ مَلَكَ غَضَبُهُ فَلَمْ يَقْعِلْ ، وَسُيِّئَ إِلَيْهِ بِحَقٍّ أَوْ بَاطِلٍ فَلَمْ يَقْبَلْ » ، ووجد قاتل أبيه وأخيه ، فصنع ولم يقتل ، ذلك الحليم يا بن عباس . قال : فهل تجد ذلك فيكم كثيراً ؟ قال : « ولا قليلاً ، وإنما وصفت لك أقواماً لا تجدم إلا خاشعين راهبين ، لله مريدون ، يُبْذِلُونَ وَلَا يَنْالُونَ ، فَأَمَّا الْآخَرُونَ فَإِنَّهُمْ سَبَقَ جَهْلُهُمْ حِلْمَهُمْ ، وَلَا يَبَالِي أَحَدُهُمْ (إِذَا غَلَرِ بِبُغْيَتِهِ) حين الحفيظة^(٣) مَنْ كَانَ ، بعد أن يُدْرِك زعمه ، ويقضى بُغْيَتَهُ ، وَلَوْ تَرَءَهُ أَبَوْهُ لَقَتَلَ أَبَاهُ ، أَوْ أَخُوهُ لَقَتَلَ أَخَاهُ ، أما سمعت إلى قول رِيَّانُ بن عَمْرٍو بن رِيَّان ، وذلك أن عمرًا أباه قتله مالكُ بن كُؤْمَةٍ ، فَأَقَامَ رِيَّانُ زَمَانًا ثُمَّ غَزَا مَالِكًا ، فَأَنَاءَ فِي مَائَتِي فَارِسَ صَبَاحًا ، وَهُوَ فِي أَرْبَعِينَ بَيْتًا ، فَقَتَلَهُ وَقَتَلَ أَصْحَابَهُ وَقَتَلَ عَمَّهُ فِيمَنْ قَتَلَ ، — وَيُقَالُ بَلْ كَانَ أَخَاهُ — وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ جَاوِزًا ، فَقِيلَ لِرِيَّانِ فِي ذَلِكَ : قَتَلْتَ صَاحِبَنَا ، فَقَالَ :

فَلَوْ أُمِّي تَقَفْتُ بِمَحِيطٍ كَانُوا لَبَلَّ ثِيَابَهَا عَاقُ صَبِيبٍ^(٤)
وَلَوْ كَانَتْ أُمِّيَّةُ أُخْتٍ عَمْرُو بِهَذَا الْمَاءِ ، ظَلَّ لَهَا نَحِيبُ
شَهَرْتُ السِّيفِ فِي الْأَدْنَى رِيْقِي وَلَمْ تَعْلَفِ أَوَاصِرَنَا قُلُوبُ^(٥)

فقال ابن عباس : فن الفارسُ فيكم ؟ حَدَّثَ لِي حَدًّا اسْمُهُ مِنْكَ ، فَإِنَّكَ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ مُوَاضِعَهَا يَا بن صُوحان ، قَالَ : « الْفَارِسُ مَنْ قَصُرَ أَجَلُهُ فِي نَفْسِهِ ، وَضَعَفَ^(٦) عَلَى أَمَلِهِ بِضِرْسِهِ ، وَكَانَتْ الْحَرْبُ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْسِهِ ، ذَلِكَ الْفَارِسُ إِذَا وَقَدَتْ^(٧) الْحَرْبُ ،

(١) آباط جمع إبط كعجل وإبل : ياطن المنكب . (٢) درس وإحى . (٣) الحمية والنفس .

(٤) ثقفه كسمه : صانعه ، والعلق : الدم ، أو الشئ الذي الحمة ، وصيب : إلى مصبوب .

(٥) أواصر جمع أصرة : وهي القترية ، وحبل صغير يشد به أسفل الحياه . (٦) ضغفه كنع : ضعه .

(٧) وقدت النار (كودت) توقدت .

واشدت بالأفنى الكروب ، وتداعوا للزّال ، وتزاحفوا لإفقال ، وتخالسوا المّج^(١) ،
واقتمصوا بالسيف الأجاج ، قال : أحسنت والله يابن صوحان ، إنك لتسليل أقوام
كرام ، خطباء فصحاء ، ما ورثت هذا عن كلاله^(٢) ، زدني ، قال : نعم ، الفارس
كثير الحذر ، مدير النظر ، يلطف بقلبه ، ولا يدبر غرّات صلبه^(٣) . قال : أحسنت
والله يابن صوحان الوصف ، فهل في مثل هذه الصفة من شعر ؟ قال : نعم ، لزهير بن
جناب الكلابي^(٤) يرثي ابنه عمراً حيث يقول :

فارسٌ تُكَلِّلُ الصَّحَابَةُ مِنْهُ بِحُسامٍ يَمْزُ مَرَّ الحَرِيقِ^(٥)
لَا تَرَاهُ لَدَى الزَّغَى فِي تَجَالٍ يُغْفِلُ العَرَبَ لَا ، وَلَا فِي مَضِيقِ
مَنْ يَرَاهُ يَحْتَلُهُ فِي الحَرْبِ يَوْمَا أَنَّهُ أُخْرِقَ مُضَلَّ الطَّرِيقِ^(٦)

في أبيات ، فقال له ابن عباس : فأين أخواك منك يابن صوحان ؟ صِفْهُمَا لِأَعْرِفَ
وَرِثَكُم ، قال : أما زيد فكم كما قال أخو غنى^(٧) :

(١) المهج جمع هجة : وهى الروح ، وتخالسوها تبادلوا اختلاصها واستلهاها .

(٢) تقول العرب : لم يرته كلاله أى لم يرته من عرض بل عن قرب واستحقاق ، قال الفراء :

ورثتم قناة الملك غير كلاله من ابن مناف عهد شمس وهاشم

والكلاله : ما لم يكن من النسب لحاً ، وبنو المم الأبعاد ، وحكى عن أعرابي أنه قال : مالك كثير ورثته

كلاله متراخ نسبهم ، وكل وارث ليس بوالده لبيت ولا ولد له فهو كلاله موروث . (٣) أى فقرات

ظهره . (٤) شاعر جاهل ، وهو أحد المعمرين . (٥) كلاله : حفظه وحرسه .

(٦) الأخرق : الأحمق ، أما قوله في أول البيت « من يراه » فهو مثل : « ألم تأتلك والآباء تنسى »

ومثل : « كأنه لم ترى قبل أسيراً يمانية » . . . الخ ، وقد قال النحويون في ذلك إن إثبات حرف الملة مع

الجازم لغة ، وقيل ضرورية ، وقيل هو حرف إشباع ، والحرف الأصل محذوف للجازم . وعندى أنه ربما

كان الأصل « من رآه » وعليه فلا محذور ، مع استقامة وزن البيت . (٧) هو كعب بن سعد التميمي

(شاعر جاهل) والأبيات المذكورة من قصيدة له يرثي بها أخاه أبا المغوار وأولها :

تقول سليبي ما لمسك شاحبا كأنك يحملك الطام طيب

(انظرها في الأمالي : ١٥٠ ، والمقدّم القريد : ٢ : ١٩) .

فَقِيَ لَا يُبْنَى أَنْ يَكُونَ بُوْجِهَهُ (إِذَا نَالَ خَلَاتِ الْكِرَامِ) شُحُوبٌ^(١)
 إِذَا مَا تَرَاهُ الرِّجَالُ نَحَقُّوْا فَلَمْ يَنْطَقُوا التَّوَرَاءَ وَهُوَ قَرِيبٌ^(٢)
 حَلِيفُ النَّدَى ، يَدْعُو النَّدَى فَيُجِيبُهُ قَرِيبًا ، وَيَدْعُوهُ النَّدَى فَيُجِيبُ^(٣)
 يَبِيْتُ النَّدَى (يَا أُمَّ عَمْرٍو) ضَجِيحِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْمُنْفِيَّاتِ حَلُوبٌ^(٤)
 كَانَ بُيُوتَ الْحَيِّ (مَا لَمْ يَكُنْ بِهَا) بَسَائِسُ مَا يُنْفَى بِهِنَّ غَرِيبٌ^(٥)
 فِي آيَاتٍ ، كَانَ وَاللهُ يَابْنَ عَبَّاسٍ ، عَظِيمُ الْمُرُوءَةِ^(٦) ، شَرِيفُ الْأَخْوَةِ ، جَلِيلُ
 الْخَطَرِ ، بَعِيدُ الْأَثَرِ ، كَيْشُ^(٧) الرُّوَّةِ ، أَلِيفُ النَّدْوَةِ^(٨) ، سَابِمُ جَوَانِحِ الصَّدْرِ ، قَلِيلُ
 وَسَاوِسِ الدَّهْرِ ، ذَا كِرَامٍ لِلَّهِ طَرَفِي النَّهَارِ وَزَلَقًا^(٩) مِنَ اللَّيْلِ ، الْجَوْعُ وَالشَّبَعُ عِنْدَهُ
 سَيَّانٍ ، لَا يَنْفَاسُ فِي الدُّنْيَا ، وَأَقْلُ أَصْحَابِهِ مَنْ يَنْفَاسُ فِيهَا ، يُطِيلُ السَّكُوتَ ، وَيَحْفَظُ السَّكْلَامَ ،
 وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ بِعَقَامٍ^(١٠) يَهْرُبُ مِنْهُ الدُّعَارُ^(١١) الْأَشْرَارُ ، وَيَأْلَقُهُ الْأَحْرَارُ الْأَخْيَارُ .
 قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « مَا عَلَنَكَ بِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، رَحِمَ اللَّهُ زَيْدًا ، فَإِنْ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ
 مِنْهُ ؟ » ، قَالَ : كَانَ عَبْدُ اللَّهِ سَيِّدًا شَجَاعًا ، « وَوَلَقَا^(١٢) مُطَاعًا ، حَيَّرَهُ وَسَاعَ^(١٣) » ، وَشَرَهُ

- (١) خَلَاتٍ جَمْعُ خَلَةٍ بِالْفَتْحِ : وَهِيَ الْخِصْلَةُ ، وَشَحَبَ لَوْنُهُ كَجَمْعٍ وَفَصْرٍ وَكَرَمٍ وَعَنَى شَحُوبًا : تَغَيَّرَ مِنْ
 هِزَالٍ أَوْ جُوعٍ أَوْ سَفَرٍ . (٢) التَّوَرَاءُ : السَّكْلَةُ الْقَبِيحَةُ . (٣) النَّادِي : الْجُودُ .
 (٤) الْمُنْفِيَّاتُ : ذَوَاتُ التَّقَى (بِالْكَسْرِ) وَهُوَ الشَّعْمُ ، نَائِفَةٌ مُتَقِيَةٌ لَى سَمِيَّةٍ .
 (٥) بَسَائِسُ جَمْعُ بَسِيسٍ كَجَمْفَرٍ : وَهُوَ لَقَقَرُ الْخَالِ (وَفِي الْأَصْلِ بَسَائِسُ وَهُوَ تَصْغِيرُ) .
 (٦) مُسَهِّلٌ عَنِ الْمُرُوءَةِ . (٧) يُقَالُ رَجُلٌ كَيْشٌ الْإِزَارُ : أَيُّ مَشْرِجَادٍ ، وَرَجُلٌ كَيْشٌ : عَزُومٌ
 مَاضٍ سَرِيعٌ فِي أُمُورِهِ . (٨) النَّدْوَةُ وَالنَّادِي وَالْمُنْتَدَى : مَجْلِسُ الْقَوْمِ وَمُتَحَدِّهِمْ ، وَفِي الْأَصْلِ
 « الْبُدَّةُ » وَأَرَاهُ مَصْحُفًا ، أَوْ هُوَ فَعْلَةٌ مِنَ الْبَدْوِ وَهُوَ الظُّهُورُ ، أَيُّ ذُو مَشْهُرٍ حَسَنٍ يُؤَلِّفُ وَلَا يَمِجُ .
 (٩) جَمْعُ زَلْفَةٍ بِالضَّمِّ : وَهِيَ الْعَائِفَةُ مِنَ اللَّيْلِ . (١٠) دَاءُ عَقَامٍ : لَا يَبْرَأُ ، أَيُّ نَطَقَ بِقَوَارِسٍ مِنْ
 الْكَلِمِ جَارِحَةٍ مُؤَلَّةٍ لِأَدْوَادِهَا . (١١) جَمْعُ دَاعِرٍ وَصَفٌ مِنَ الدَّعَاوَةِ يَفْتَحُ لِلدَّالِ وَكَسْرُهَا : وَهِيَ الْخَبِثُ
 وَالْفَسَقُ . (١٢) أَلْفَتْهُ وَأَلْفَتْهُ : أَنْتَسَتْ بِهِ فَهُوَ مَأْلُوفٌ وَمُؤَلَّفٌ . (١٣) حَلُّ التَّشْبِيهِ بِالْفَرَسِ
 الْوَسَاحِ : وَهُوَ الْجَوَادُ الرَّاسِعُ الْخَطْوُ وَاللَّزْعُ ، وَالِدَفَاعُ : السَّيْلُ الْعَظِيمُ ، وَالثَّانِي الْعَظِيمُ يَدْفَعُ بِهِ ثَلَاثَةً
 « وَفَرَسٌ دَفَاعٌ كَتَشَادُ . إِذَا تَدَافَعُ جَرِيهِ » .

دُفَاع ، قَلْبِي النَّحِيْزَةُ ^(١) ، أَحْوَذِي ^(٢) الْغَرِيْزَةُ ، لَا يَنْهِنُو ^(٣) مِنْهُنَّ عَمَّا ارَادَهُ
وَلَا يَرْغَبُ مِنَ الْأَمْرِ إِلَّا عَتَادَهُ ^(٤) ، يَمَامُ عِدَا ^(٥) ، وَبَاذِلُ قِرَى ^(٦) ، صَبَّ الْمَقَادَةُ :
جَزَلَ الرِّقَادَةُ ^(٧) ، أَخُو إِخْوَانٍ ، وَفَتَى فِتْيَانٍ ، وَهُوَ كَمَا قَالَ الْبَرْجِيُّ عَامِرُ بْنُ سَنَانٍ :
يَمَامُ عِدَا ، بِالنَّبْلِ يَقْتُلُ مَنْ رَمَى وَبِالسِّيفِ وَالرَّمْحِ الرَّدْيِيُّ يَشْعَبُ ^(٨)
مَهِيْبٌ مُفْسِدٌ لِلنَّوَالِ مُعَوَّدٌ يَفْعَلُ النَّدَى وَالْمَكْرُمَاتِ جُرْجَبٌ
فِي أَبْيَاتٍ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَنْتَ يَا بَنَ صُوحَانَ بَاقِرُ ^(٩) « عِلْمُ الْعَرَبِ » .
(مروج الذهب ٢ : ٨٠)

١٣٣ — صمصمة بن صوحان ورجل من بني فزارة

وَوَقَفَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي فَزَارَةَ عَلَى صَمصَمَةَ ، فَأَسَمَهُ كَلَامًا (مِنْهُ) :
« بَسَطْتَ لِسَانَكَ يَا بَنَ صُوحَانَ عَلَى النَّاسِ فَهَيَّبُوكَ ، أَمَا لَنْ شَتُّ لَأَكُونَنَّ لَكَ
لِصَاقًا ^(١٠) ، فَلَا تَنْطِقْ إِلَّا جَدَدْتُ ^(١١) لِسَانَكَ بِأَذْرَبِ ^(١٢) مِنْ غُلْبَةِ السِّيفِ ، بِصَضَبِ قَوِيٍّ ،
وَلِسَانٍ عَلِيٍّ ، ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكَ فِي ذَلِكَ حَلٌّ وَلَا تَرْحَالُ » فَقَالَ صَمصَمَةُ : « لَوْ أَجِدَ

-
- (١) القلب : محض كل شيء ، والنحيزة : الطبيعة ، أي غامض الطبيعة صانها . (٢) الأحوذى :
التخفيف للحاذقة ، والمشرع للأمور القاهر لها لا يشذ عليه شيء . (٣) نهيه : كفه وزجره .
(٤) العتاد : العدة . (٥) يمام جمع سم مثلث السين ، والبداء بالسكسر والقسم اسم جمع مدو أي
هولاءهده اسم قاتل . (٦) قرى للضيف (كرى) قرى : أضافه ، والقرى أيضا : ماقرى به الضيف .
(٧) وفده (كضربه) أطعاه ووصله ، والرقادة في الأصل خرج كانت تخزجه قريش في كل موسم من
أموالها فيصنع به طعام للحاج ، والمراد بها هنا الطيبة . (٨) الردئي نسبة إلى رديئة امرأة سمير ،
وكانتا يقومان الرماح بنظ حجر ، ويشعب : أي يمزق ويصدح . (٩) أصل البقر : تنصع والشفق
والنوسة ، وكان يقال لحمد بن علي زين العابدين بن الحسين رضي الله عنهم عهد الباقر ، لأنه بقى العلم وعرف
أسله واستتب فرعه . (١٠) اللصاق : ما يلتصق به . والمضى لأكون لك ملاصقا ملازما .
(١١) جد الشيء من باب رد : قطعه . (١٢) أذرب : أحده ، من ذرب كفرج صار حديدا ماضيا ،
والنظة : حد السيف .

غَرَضًا^(١) منك لرميت ، بل أرى شَيْعًا ، ولا إخال مِتَالًا إِلَّا كَسْرَابٌ^(٢) بَيْعَةٍ ،
يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ، أَمَا لَوْ كُنْتَ كَفَنًا لَرَمَيْتُ
حَصَانِكَ^(٣) بِأَذْرَبٍ مِنْ ذَلِكِ^(٤) السَّانِ ، وَلَرَشَقْتُكَ بِبِنَالٍ ، تَرُدُّكَ مِنَ النَّضَالِ ،
وَتَلْطَمُتُكَ بِخَطَامِ^(٥) ، يَخْزِمُ مِنْكَ مَوْضِعَ الزَّمَامِ^(٦) . قَاتِلِ السَّكَّارِمَ بِابْنِ عَبَّاسٍ ،
فَاسْتَضْحَكَ^(٧) مِنَ الْفَزَارِيِّ ، وَقَالَ : « أَمَا لَوْ كَلَّفَ أَخُو فَرَّازَةَ نَفْسَهُ نَقْلَ الصَّخُورِ مِنْ
جَبَلِ شِمَامٍ^(٨) إِلَى الْمَضَابِ ، لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِنْ مَازَعَةِ أَخِي عَبْدِ الْقَيْسِ ، خَابَ
أَبْوَهُ ، مَا أَجَلَهُ ! يَسْتَجِئِلُ أَخَا عَبْدِ الْقَيْسِ وَقُوَاهُ الْمَرِيرَةَ^(٩) ! ثُمَّ تَمَثَّلُ :

صُبَّتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَنْصَبْ مِنْ أُمِّهِ . إِنْ الشَّاءَ عَلَى الْأَشْفَيْنِ مَضُوبٌ^(١٠)

(مروج الذهب ٢ : ٨٢)

١٣٤ - رجل من آل صوحان يحجبه^(١١) عبد الملك بن مروان

وهو يخطب

وخطب عبد لالك بن مروان ، فلما بلغ الغِلَظَةَ^(١٢) ، قام إليه رجل من آل صوحان ،
فقال : « مهلا مهلا يا بني مروان ، تأمرون ولا تأثمرون ، وتنهون ولا تُنهون ، وتعتلون

(١) الغرض : الهدف . (٢) السراب : ما يرى نصف النهار كأنه ماء ، والقيصة جمع قاع : وهو أرض
سهلة مطبقة قد انفرجت فيها الجبال والأكام ، ويجمع أيضا على قيع (بالكسر) وقيمان وأقواع وأنوع .
(٣) الحصائل جمع حصيلة ، يقال حصل الشيء تحصيلًا والاسم الحصيلة ، قال لبيد :

وكل امرئ يومًا سيمل غيبه إذا حصلت عند الإله الحصائل

والغنى : لرميت ما حصلت من العلم والمعرفة . (٤) ذلق السنان واللسان كفرح : ذرب فهو ذلق
وأذلق ، وذلق السنان من إضافة الصفة إلى الموصوف . (٥) الخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقاد
به ، وخطمه بالخطام جملة على أنفه ، أوجرَّ أنه يضع عليه الخطام ، وخطمه بالكلام قهره ومنه حتى لا يبيت .
(٦) خزم البعير : جعل في جانب منخره الخزمة (ككتابة) والزمام : ما يزِم به . (٧) استضحك
الرجل وتضاحك بمعنى . (٨) جبل بالعالية . (٩) لى القوية ، يقال رجل مربر أى قوى
ذويرة « والمرء بالكسر القوة » . (١٠) الأيم : القرب . (١١) جيبه كقطعه : لقيه بما يكره .
(١٢) وربما كان صوابها « الظة » أى مقام الظة والنصح بدليل قوله « وتعتلون ولا تنظرون » .

ولا تمنعظون . أفنتدبى بسيرتكم فى أنفسكم ، أم نطيع أمركم بالسفكم ؟ فإن قلتم اقتدوا بسيرتنا ، فأنت وكيف ؟ وما الحجة ؟ وما المصير من الله ؟ أفنتدبى بسيرة الظلمة القسمة ، الجورة الخونة ، الذين اتخذوا مال الله دولا^(١) ، وعبيده خولا^(٢) ؟ وإن قلتم اسمعوا نصيحتنا ، وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لنبيه من يمشى نفسه ؟ أم كيف نجيب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم خذوا الحسكة من حيث وجدتموها ، واقبلوا العطة ممن سمتموها . فعلام ولينا كم أمرنا ، وحكمنا كم فى دماننا وأموالنا ؟ أما علمتم أن فينا من هو أظلم منكم بالافات ، وأفسح بالمظلات ؟ فتخلوا عنها^(٣) ، وأطلقوا عقلمها ، وغلوا سبلها ، ينتدب^(٤) إليها آل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين شرذتموم فى البلاد ، ومزقتموم فى كل واد ، بل تثبت فى أيديكم لاقضاء للدة ، وبلوغ الملهة ، وعظم الميعة ، إن لكل قائم قدرا لا يمدوه ، وبوما لا يخطوه ، وكتابا بدمه يتلوه : (لا يُفَادِرُ صَفِيرَةٌ وَلَا كَبِيرَةٌ إِلَّا أَحْصَاهَا) (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْفَلِبُونَ) ثم التيس الرجل فلم يوجد (نهاية الأرب ٧ : ٢٤٩)

١٣٥ - وصف عقيل بن أبى طالب

آل صوحان

قال معاوية لعقيل بن أبى طالب : « مَبْزَى أَصْحَابِ عَلَى وَابْدَأَ بِأَكْ صُوحَانَ ، فإِنَّهُمْ تَخَارِقُ الْكَلَامَ^(٥) » . قال :

(١) جمع دولة بالفم : أى جعلوه متداولاً بينهم . (٢) الخول : ما أطاع الله تعالى من التميم (حركة) والمبيد والإمام وغيرهم من الخاشية لواحد والجميع والذكر والأنثى ، ويقال لواحد خائل . (٣) أى من الخلافة . (٤) انتدب إليه : أسرع . (٥) تخاريق جمع غرقاء بالكسر : وهو السيف ، والمبيد والمتصرف فى الأمور التى لا يقع فى أمر إلا خرج منه (والثور البرى يسمى غرقاء لأن الكلاب تطلبه فيقتل منها ، وفلان غرقاء حرباً أى صاحب حروب يخف فيها) .

« أَمَّا صَمْعَمَةُ فَظَلِمَ الشَّانَ ، عَصَبَ اللِّسَانِ ^(١) ، قَائِدُ فُرسَانَ ، قَاتِلُ أَقرَانَ ،
يَرْتُقِي ^(٢) مَا فَتَقَى ، وَيَفْتَقِي مَا رَتَقَى ، قَلِيلُ النَّظِيرِ . وَأَمَّا زَيْدٌ وَعَبْدُ اللَّهِ فَبَيْنَهُمَا نَهْرَانِ جَارِيَانِ
يَصُبُّ فِيهِمَا الْخُلُجَانِ ^(٣) ، وَيُنْفَكُ بِهِمَا الْبُلْدَانِ ، رَجُلًا جَدِيدًا لَالِيبٍ مَعَهُ ، وَأَمَّا بَنُو صُوحَانَ
فَكَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا نَزَلَ الْعَدُوُّ فَإِنْ عِنْدِي أُسُودًا تَخْلِسُ الْأَسَدَ النَّفُوسَا ^(٤)
(مروج الذهب ٢ : ٧٥)

١٣٦ — وصية محمد الباقر ^(٥) لعمر بن عبد العزيز

دَخَلَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ الْبَاقِرُ ، بِنَ عَلِيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ ، بِنِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، عَلَى
عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ : يَا أَبَا جَعْفَرٍ أَوْصِنِي ، قَالَ :
« أَوْصِيكَ أَنْ تَتَّخِذَ صَغِيرَ الْمُسْلِمِينَ وَلَدًا ، وَأَوْسَطَهُمْ أَخًا ، وَكَبِيرَهُمْ أَبًا ، فَارْحَمْ
وَلَهُكَ ، وَصِلْ أَخَاكَ ، وَبِرَّ أَبَاكَ ، وَإِذَا صَنَعْتَ مَعْرُوفًا قَرَبَهُ ^(٦) » .
(الأمال ٢ : ٤١٢)

(١) العصب : القاطع . (٢) الرتق : ضد الفتق . (٣) الخُلج : نهر يمشق من نهر الأعظم .

(٤) خلس الشيء : كضرب غلما : استلبه . (٥) توفي سنة ١١٢ هـ . (٦) أي أدومه ، يقال

رَبَّ بِلِسْكَانٍ وَأَرْبَ : أَقَامَ بِهِ وَدَامَ .

خطب الزبيريين وما يتصل بها^(١)

خطب عبد الله بن الزبير (قتل سنة ٧٣ هـ)

عبد الله بن الزبير ومعاوية

دخل الحسين بن عليّ رضي الله عنه يوماً على معاوية ، ومعه مولى له يقال له ذكوان
وعند معاوية جماعة من قریش ، فبهم ابن الزبير ، فرحب معاوية بالحسين ، وأجلسه على
سريره وقال : ترى هذا القاعد (يعني ابن الزبير) فإنه ليذكره الحسد لبني عبد مناف^(٢)
فقال ابن الزبير لمعاوية : قد عرفنا فضل الحسين وقربته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
لكن إن شئت أهلكك فضل الزبير على أبيك أبي سفيان فقلتُ ، فتكلم ذكوان مولى
الحسين بن عليّ ، فقال :

(١) تقدم لك في باب خطب بني هاشم وشيعتهم ، خطب أمراء الكوفة من قبل ابن الزبير - انظر
خطب عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة ، وعبد الله بن مطيع في ص ٦٥ - ٧٠ - ٧٦ - ٨٢ -
٦٦ - ٨٣ . (٢) عبد مناف جد يجمع بين هاشم وبين أمية ، فالرسول عليه الصلاة والسلام هو محمد
ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف . ومعاوية هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن
عبد شمس بن عبد مناف ، وأما عبد الله بن الزبير ، فمن بني أسد أبوه الزبير بن العوام بن خلود بن أسد بن عبد العزى
ابن قصي .

١٣٧ - مقال ذكوان

« يابن الزبير : إن مولاي ما عنسه من الكلام إلا أن يكون طلق اللسان ، رابط الجنان ، فإن نطق نطق بجم ، وإن صمت صمت بجم ، غير أنه كف الكلام ، وسبق إلى السنام ، فأقرت بفضله الكرام ، وأنا الذي أقول :

فيم الكلام لسابقي في غاية ^(١) والناس بين مقصر ومبطل
 إن الذي يجري ليدرك شأوه ^(٢) ينمى لغير مسود ومسود
 هل كيف يدرك نور بذرساطع ^(٣) خير الأنام وفرع آل محمد

فقال معاوية : صدق قولك يا ذكوان ، أكره الله في موالى الكرام مثلك ، فقال ابن الزبير : إن أبا عبد الله ^(٤) سكت وتكلم مولاه ، ولو تكلم لأجيبناه ، أو لكفنا عن جوابه إجلالاً له . ولا جواب لهذا البعد . قال ذكوان : هذا البعد خير منك . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مولى القوم منهم » ، فأنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت ابن العموم بن خويلد ، فنحن أكرم ولأء ، وأحسن فضلاً . قال ابن الزبير : إني لست أحيب هذا ، فهات ما عندك .

١٣٨ - مقال معاوية

فقال معاوية :

« قاتلك الله يا ابن الزبير ! ما أعياك ^(١) وأبناك ! أتفخر بين يدي أمير المؤمنين وأبي عبد الله ! إنك أنت التمدى لعمورك ، الذي لانرف قدرك ، فقس شيرك بفترك ^(٢)

(١) بلد تبليدا : لم يحبه شيء ، والقرس : لم يسبق ، والسحابة لم تطر .

(٢) الشأو : التاية ، وينى : ينسب . (٣) كنية الحسين . (٤) ما صبرك .

(٥) القتر : ما بين الإبهام وطرف السبابة .

ثم تَمَرَّفَ كيف تقع بين عرائين^(١) بنى عبد مناف ، أما والله لئن دَفَعْتَ في بحور
بنى هاشم وبنى عبد شمس ، لَتَبْقَطَنَّكَ بأمواجها ، ثم لتوهين^(٢) بك في أجاجها ، فابقاؤك
في البحور إذا غمرتك ، وفي الأمواج إذا بهرتك^(٣) ؟ هنالك تَمَرَّفَ نفسك ، وتندم على
ما كان من جرأتك ، وَتَمَسَّى^(٤) ما أصبحت إليه من أمان ، وقد حِيلَ بين العير
والتزوان^(٥) . فأطرق ابن الزبير ملكياً ، ثم رفع رأسه ، فالتفت إلى من حوله ، ثم قال :

١٣٩ — مقال ابن الزبير

« أسألكم بالله : أنملون أن أبي حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه
أبا سفيان حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ،

(١) بضع عرائين بكسر العين : وهو السيد الشريف (وفي الأصل : الأنثى أو ماصلب من عظمه) .

(٢) أوماء : أسقطه ، والأجاج : الملح المر . (٣) بهر بهرا (بالفتح) : غلبه .

(٤) مساء تمسي : قال له كيف أسويت أو مساك الله بخير ، والمراد : وتودع ماكنت فيه من أمان
نادما أسفا عليه ، وربما كان الأصل « وتمي » بخذف إحدى التانين أي وتمنى ، أو الأصل « ويتمنى » من
تمنى : إذا تقطع أي يحس ويندثر ما كنت فيه من أمان . (٥) العير : الحمار وغلب على الوحشي ،
والتزوان : الثوب . وهو مثل يضرب لقوى تخور قواء ، وأول من قاله صخر بن عمرو أخو الحنفاء ،
وذلك أنه غزا بني أسد ، فاكتسح إبلهم ، فجاهدهم المربيع فركبوا ، فالتقوا ، فظعن أبو ثور الأسد صخرا
طعنة في جنبه ، وجوى منها فرض حولا حتى مله أهله ، فسمع امرأة تقول لامراته سلمى : كيف بملك ؟
فقلت : لاسي فيرجو ، ولا ميت فبني ، لقد لقينا منه الأمرين ، وفي رواية أخرى : فرض زمانا حتى ملكه
امراته ، وكان يكرها فر بها رجل وهي قائمة ، وكانت جميلة ، فقال لها : يباع الكفل ؟ فقلت : نعم ما
قليل ، وكان ذلك اسمه صخر ، فقال : أما والله لئن قدرت لأقدمك قبل ، ثم قال لها : ناوليني السيف
أنظر إليه ، هل تقبله يدي ؟ فتأولته ، فإذا هو لا يقبله ، فقال :

أرى أم صخر لا تملى صيادق وملت سلمى مضجعي ومكافئ
فأرى امرئى سارى بأمر حليلة فلا حاش إلا في شقا وهوان
أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والتزوان

فلما طال به البلاء ، وقد نثنت طعنة من جنبه في موضع الطعنة ، قيل له لو قطعها لرجونا أن تبرا ، فقال
شأنك ، وأشفق عليه قوم قهوه فأنى ، فأخذوا شفرة فقطعوها فانت .

وأمة هند آكلة الأكباد؟ وجدّي الصديق، وجده للشيوخ^(١) بيدر، ورأس الكفر
وعنتي خديجة ذات الخطر^(٢) والحسب، وعمته أم جميل حائلة الخطب؟ وجدّي صفيّة^(٣)
وجده حكمة^(٤)؟ وزوج عتي خير ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم، وزوج عمته
شر ولد آدم أبو لمب، سيّمتي نازًا ذات لمب؟ وخالتي عائشة أم المؤمنين، وخالته
أشقيّ الأشقيين؟ وأنا عبد الله، وهو معاوية .

-
- (١) هو جد معاوية لأمه حبة بن ربيعة قتل على يوم بدر ، والمشدوخ : المكسور : أي المقتول .
(٢) القدر ، أو للمزلة وهي السيدة خديجة بنت خويلد الأسدية عمه أبيه ، وزوج الرسول عليه
الصلاة والسلام . (٣) هي صفيّة بنت عبد المطلب أم الزبير وعمه الرسول عليه الصلاة والسلام .
(٤) روى ابن أبي الحديد (م ١ : ص ١٥٧) قال :
« لما ارتحل عقيل بن أبي طالب عن علي عليه السلام أتى معاوية ، فكان في مجلسه يوما وجلساء معاوية
سوله ، فقال : يا أبا يزيد : أخبرني من صكرى وصكر أخيك ، فقد وردت عليهما ، قال : « أخبرك :
مروت والله بمسكر أخى ، فإذا ليل كليل رسول الله صلى الله عليه وآله ونهار كنهار رسول الله صلى الله عليه
وآله ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وآله ليس في القوم ، مارأيت إلّا مضلّا ، ولا سمعت إلّا قارئا ،
ومررت بمسكر فاستقبلني قوم من المنافقين من نفر رسول الله صلى الله عليه وآله ليلة العقبة » ثم قال :
من هذا من يمينك يا معاوية ؟ قال : هذا عمرو بن العاص ، قال : هذا الذي اختصم فيه ستة نفر ، فطلب
عليه جزار قرش ، فن الآخر ؟ قال الضمك بن قيس القهري : قال : أما والله لقد كان أبوه جيد الأخذ
لصب التيوس « وكان يبيع صلب الفحول في الجاهلية ، رالسب كملب : للكراء الذي يؤخذ على ضرب
الفحل ، أو ضرابه ، أو ماؤه ، وصب الرجل كضرب : أعطاه الكراء على الضراب ، وفي الحديث : « نسي
النبي صلى الله عليه وسلم عن صلب الفحل فإن إمارة الفحل مندوب إليها » فن هذا الآخر ؟ قال أبو موسى
الأشعري ، قال : هذا ابن السراقة ، قلنا وأى معاوية أنه قد أغضب جلساءه ، علم أنه إن استخبره عن نفسه
قال فيه سوما ، فأجب أن يسأله ليقول فيه ما يملئه من سوء ، فيذهب بذلك غضب جلسائه ، قال : يا أبا يزيد
فما تقول في ؟ قال : دعني من هذا ، قال لتقولن ، قال أنصرت حماة ؟ قال : ومن حماة يا أبا يزيد ؟ قال :
قد أخبرتك ، ثم قام فضى ، فأرسل معاوية إلى التسمية فدهاء ، فقال : من حماة ؟ قال : ولي الأمان ؟
قال نعم ، قال حماة جنتك أم أبي سفيان كانت بغيا في الجاهلية صاحبة راية ، فقال معاوية لجلسائه : قد
ساويتكم وزدت عليكم . فلا تغضبوا ! »

١٤٠ - مقال معاوية

قال له معاوية :

« وَيَحْكُ يَا بَنَ الزَّيْرِ ! كَيْفَ تَصِفُ نَفْسَكَ بِمَا وَصَفْتَهَا ، وَاللَّهِ مَا لَكَ فِي الْقَدِيمِ مِنْ رِيَاسَةٍ ، وَلَا فِي الْحَدِيثِ مِنْ سِيَاحَةٍ ، وَلَقَدْ قَدْ نَاكَ وَسُدْنَاكَ : قَدِيمًا وَحَدِيثًا ، لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِنْكَارًا ، وَلَا عَنْهُ فِرَارًا ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْخُضُورُ كَيْتَلُمُونَ أَنْ قَرِيشًا قَدْ اجْتَمَعَتْ يَوْمَ الْفَجَارِ ^(١) عَلَى رِيَاسَةِ حَرْبِ بْنِ أُمَيَّةٍ ، وَأَنْ أَبَاكَ وَأَسْرَتَكَ تَحْتَ رَايَتِهِ ، رَاضُونَ بِإِمَارَتِهِ ، غَيْرَ مُسْكِرِينَ لِقَضَاهُ ، وَلَا عَلَامِينَ فِي عَزْلِهِ ، إِنْ أَمَرَ أَطَاعُوا ، وَإِنْ قَالَ أَنْصَتُوا فَأَنْزَلَ فِينَا الْقِيَادَةَ ، وَهَزَّ الْوَلَايَةَ ، حَتَّى بَسَّ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

(١) حرب الفجار : هي حرب حاجت بين قريش وكنانة ، وبين هوازن (من قيس ميلان) وسبها أن النعمان بن المنذر ملك الحيرة كان يمشى إلى سوق حكاك في كل عام لطيمة (والبطيمة كصميفة : المير التي تحمل الطيب والبنز التجارة) لتباح له هناك ، ويشترى له بطن ذلك آدم من آدم الطائف ، وكان يرسل تلك الطيمة في جوار رجل من أشراف العرب ، فلما جهز الطيمة كان عنده جماعة من العرب فيهم البراض بن قيس - وهو من بني كنانة ، والبراض كشداد - وعروة الرحال بن عتبة - وهو من بني هوازن والرحال كشداد أيضا - فقال ، من يجبرها ؟ قال البراض : أنا أجبرها على بني كنانة يعني قومه ، فقال له النعمان : ما أريد إلا من يجبرها على أهل نجد ونهامة ، فقال له عروة الرحال : أنا أجبرها على أهل الشح والقيصوم من أهل نجد ونهامة ، فقال البراض : أهل بني كنانة يجبرها ياعروة ؟ قال : وعلى الناس كلهم ، ففضها النعمان إلى عروة ، فخرج بها ، وتبعه البراض ، وتبعه به وقتله ، فهاجت الحرب بين كنانة وهوازن ، وعاونت قريش كنانة ، وكان على كل قبيلة من قريش وكنانة سيدها ، وللقائد العام للجميع حرب بن أمية ولد أبي سفيان ، وقد قتل في هذه الحرب العوام بن غوييل ولد الزبير ، وقد حضرها النبي صلى الله عليه وسلم وله من العمر أربع عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، وقيل عشرون ، والفجار بمعنى المفاجرة كالمقاتلة بمعنى المقاتلة ، سميت قريش هذه الحرب فجارا ، لأنها كانت في الأشهر الحرم فقالوا : قد فجزنا إذ قاتلنا فيها أي فسقتنا ، وقيل إنها لم تكن في الشهر الحرام وإنما سبها كان في الشهر الحرام ، وهو قتل البراض لمروة الرحال ، هذا هو الفجار الرابع وهو الأكبر ، وكان قبله ثلاثة أفعرة أخرى - انظر السيرة الحلبية ١ : ١٢٢ ، والمقد لفرید ٣ : ٩١ ، وسيرة ابن هشام ١ : ١١٦ ، وجميع الأمثال ٢ : ٢٦٠ - .

فانتخبه من خير خلقه ، من أَسْرَتِي لَا أَسْرَتِكَ ، وبنى أبى لابنى أَيْبِكَ ، فَجَعَلْتَهُ قَرِيشَ أَشَدَّ الْجِسُودِ ، وَأَنْكَرْتَهُ أَشَدَّ الْإِنْكَارِ ، وَجَاهَدْتُهُ أَشَدَّ الْجِهَادِ ، إِلَّا مِنْ عَصَمِ اللَّهِ مِنْ قَرِيشَ ، فَسَادَ قَرِيشًا وَقَادِمَ إِلَّا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، فَكَانَتِ الثَّمَنَانِ ثَلَاثَتَيْنِ ، وَرِئِيسُ الْمَدَى مَنَا ، وَرِئِيسُ الضَّلَاةِ مَنَا ، فَهَدَيْتُكُمْ نَحْتِ رَايَةِ مَهْدِينَا ، وَضَالَّكُمْ نَحْتِ رَايَةِ ضَالَّنَا ، فَنَحْنُ الْأَرْبَابُ ، وَأَنْتُمْ الْأَذْنَابُ ، حَتَّى خَلَصَ اللَّهُ أَبَا سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بِفَضْلِهِ مِنْ عَظِيمِ شَرِّكَه ، وَعَصَمَهُ بِالْإِسْلَامِ ، مِنْ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ ، فَكَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَظِيمًا شَأْنُهُ ، وَفِي الْإِسْلَامِ مَعْرُوفًا مَكَانُهُ ، وَقَدْ أُعْطِيَ يَوْمَ الْفَتْحِ مَلَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنْ آبَائِكَ ، وَإِنْ مُنَادَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَادَى : مَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سَفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَكَانَتْ دَارُهُ حَرَمًا ، لَا دَارُكَ وَلَا دَارُ أَيْبِكَ ؛ وَأَمَّا هُنْدُ فَكَانَتْ ابْرَأَةً مِنْ قَرِيشَ ، فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَظِيمَةً أَلْطَرَّ ، وَفِي الْإِسْلَامِ كَرِيمَةً أَلْخَبَرَ ، وَأَمَّا جَدُّكَ الصَّدِّيقُ فَبِتَصَدِّيقِ عَبْدِ مَنَافٍ سُمِّيَ صَدِّيقًا ، لَا بِتَصَدِّيقِ عَبْدِ الْمُزَيِّ ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ جَدِّي الْمَشْدُوحِ يَبْدَرُ ، فَلَمَسْرِي لَقَدْ دَعَا إِلَى الْبَرَازِ هُوَ وَأَخُوهُ وَابْنُهُ ، فَلَوْ رَزَتْ إِلَيْهِ أَنْتَ وَأَبُوكَ مَا بَارَزُوكُمْ ، وَلَا رَأَوْكُمْ لَهْمُ أَكْفَاءَ ، كَمَا قَدْ طَلَبَ ذَلِكَ غَيْرُكُمْ ، فَلَمْ يَقْبَلُوكُمْ ، حَتَّى بَرَزَ إِلَيْهِمْ أَكْفَاؤُهُمْ مِنْ بَنِي أَيْبِهِمْ ، فَقَضَى اللَّهُ مَنَایَاهُمْ بِأَيْدِيهِمْ ، فَنَحْنُ قُتِلْنَا ، وَنَحْنُ قُتِلْنَا ، وَمَا أَنْتَ وَذَلِكَ ؟ وَأَمَّا عَمْتُكَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ فَبِنَا شَرُفَتْ ، وَسُمِّيتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالَتُكَ عَائِشَةُ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَأَمَّا صَفِيَّةُ فَفِي أَدْنَتِكَ مِنَ الظَّلِّ ، وَلَوْلَا هِيَ لَكُنْتَ ضَاحِيًا^(١) ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ ابْنِ عَمِّكَ وَخَالَ أَيْبِكَ^(٢) سَيِّدَ الشُّهَدَاءِ ، فَكَذَلِكَ كَانُوا رَحِمَهُمُ اللَّهُ ، وَغَرَمَهُمْ وَإِرْسَهُمْ لِي دُونَكَ ، وَلَا تَحْزَنْ لَكَ فِيهِمْ وَلَا إِرْثَ يَبْنُوكَ وَبَيْنَهُمْ .

(١) عَسَا كَسَى وَرَضَى : أَحَابَتُهُ لِلشَّمْسِ ، وَالظَّلَلُ : الْبُزْ وَلِلْمَنَةِ ، أَيْ أَنَّ شَرَفَهُمْ جَاءَ مِنْ مَصَاهِرَةِ

الْعَوَامِ لِبَنِي هَاشِمٍ ، وَزَوَاجِهِ بِصَفِيَّةٍ بِنْتِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ . (٢) ابْنُ عَمِّ : هُوَ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

ابْنِ الْعَوَامِ ، وَقَدْ قُتِلَ يَوْمَ الْفَارِ ، وَخَالَ أَيْبُهُ هُوَ حِزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، وَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ .

وأما قولك أنا عبد الله وهو معاوية ، فقد علّت قريش أئنا أجود في الإزم^(١) ، وأحزم في القدم ، وأمنع لِحَرَم ، لا والله ما أراك منهيًا حتى تروم من بني عبد مناف ما رام أبوك ، فقد طألمهم الدُّحُول^(٢) ، وقَدَّم إليهم الخيول ، وخدعهم أمّ المؤمنين ، ولم تراقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ مددتم على نساءكم السُّجُوف^(٣) ، وأبرزتم زوجته لِحُتُوف ، ومُفَارعة السيوف ، فلما التقي الجمعان نكس أبوك هاربًا ، فلم يُنجه ذلك أن طحنه أبو الحسين بِكَلْكَلِهِ طحن الحصيد^(٤) ، بأيدي العبيد ، وأما أنت فأفلتت بعد أن حَشَيْتَ^(٥) بَرَائِيْنَهُ ، ونالتك غاليه ، وإيم الله ليقومك بنو عبد مناف بِثِقَافِها^(٦) أو لتصبعن منها صباح أهلك بوادي السَّباع^(٧) ، وما كان أبوك للذَّهن حَذُّهُ^(٨) ، ولكنه كما قال الشاعر :

تدارل سِرْحَانٌ فريسةً ضَيَّعَهم قَضَفُضُهُ بالكف منه وطحًا^(٩)

(لقد للفريد ٢ : ١١٣)

١٤١ — عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً

دخل عبد الله بن الزبير على معاوية فقال :

« يا أمير المؤمنين ، لَا تَدْعَنَّ مَرْوَانَ يرى جاهل قريش بمشاقصه^(١٠) ، ويضرب صفاتهم بِمِغْوَاهُ ، أما والله لولا مكانك ، لكان أخف على رقابنا من فَرَّاشَةٍ ، وأقلّ

(١) الأزيمة (بالفتح ويحرك) الشدة ، وجمعها لزم (كشمس وهب) . (٢) جمع ذحل (بالفتح) وهو الثَّار ، والدَّوَاة ، ولقد : أبى كاشفهم بذلك . (٣) جمع سبف (بالفتح ويكسر) الستر . (٤) الحصيد : الزرع المحصود . (٥) حشه : خدشه . (٦) اللثاف : ما تسوى به الراح . (٧) مقتل أبيه الزبير . (٨) حده : رأسه ، والمذعن : المفضوش ، من أذهن أى قضى ، وللمنى أنه كان شديد اليأس لم تشب بسلته شاة خور ولكنه . . . الخ « وقى الأصل » المذعن خده « بانحاء وأراء مصفا » . (٩) السرحان : اللثب ، والضنيمن : الأسد ، وقضفقه قفضفقس : كسره ودعه ، وقضفقس : صوت كسر العظام . وقى الأصل قفضفقه بالفاء ، وهو تصحيف . (١٠) المشاقص : جمع مشقص كبير ، وهو النصل الطويل ، أو سهم فيه ذلك يرى به الوحش .

في أنفسنا من خشاة^(١) ، وإني لله لن ملك أعنة خيل تنقاد له ، لنزكبن منه طبقاً^(٢) نخافه . فقال معاوية : « إن يطلب مروان هذا الأمر ، فقد طمع فيه من هو دونه ، وإن يتركه يتركه لمن فوقه ، وما أراكم بمنتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يطفئ عليكم جراحة ، ولا يذكركم عند مليه ، يسومكم خنفاً^(٣) ، ويسوقكم عتفاً^(٤) . فقال ابن الزبير : « إذن والله يطلق عقال الحرب بكتائب تمور^(٥) كرجل الجراد ، حافئها الأسل ، لما دوى كدوى الريح ، تنبع غطريقاً^(٦) من قريش ، لم تكن أمه راعية ثله^(٧) . فقال معاوية : « أنا ابن هند ، أطلقت عقال الحرب ، فأكلت ذروته السنام ، وشربت عصفوان المكرج^(٨) ، وليس للآكل بدى إلا الفلذة^(٩) ، ولا الشارب إلا الرثق^(١٠) . فسكت ابن الزبير .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٣ ، والفتاوى ٢ : ١١٥ ، والبيان والبيان ٢ : ٤٤)

١٤٢ — عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمر بن العاص

قدم عبد الله بن الزبير على معاوية وافداً ، فرحب به وأدناه ، حتى أجلسه على سريرته ، ثم قال : حاجتك أبا خبيب^(١١) ؟ فسأله أشياء ، ثم قال له : سل غير ما سألت قال :

« نعم ، المهاجرون والأنصار ترد عليهم فيهم ، وتحفظ وصية نبي الله فيهم ، تقبل

(١) الخشامة : واحدة الخشاش يتكاثف الخاء ، وهي حشرات الأرض والمصاير ونحوها (وفي الأصل

خشاشة وهو تصحيف) . (٢) الطبق : الحال ومنه قوله تعالى : « لنزكبن طبقاً من طبق »

(٣) أي يوليكم ذلاً . (٤) السف : الظلم ، وسلوك الطريق حل غير هداية .

(٥) تمور : تقطرب . (٦) التطريق : السيد الشريف . (٧) الثله : جماعة الغنم

أو الكتيرة منها . (٨) عصفوان القث : أوله أو أول هجته ، والمكرج : اللود ، مفعول من كرج

في الماء أو في الإثارة . (٩) الفلذة : القطعة من اللحم . (١٠) ماء وثق كمثل وكث وجبل : كدر .

(١١) هي كنية ابن الزبير كني بابته غيب ، وكان أسن ولده ، ويكنى أيضاً أبا بكر .

من مُحْسِنِهِمْ ، وَتَجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ « قَالَ مَعَاوِيَةُ : « هِيَاهُ هِيَاهُ ؟ لَا وَاللَّهِ مَا تَأْمَنُ النَّسْبَةُ الْقَتْبَ وَقَدْ أَكَلَ أَلْيَتَهَا (١) » . قَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : « مَهْلًا بِمَعَاوِيَةَ ، فَإِنَّ الشَّاةَ لَتَقْدِرُ (٢) لِحَالِبِ ، وَإِنَّ اللَّدِيَّةَ فِي يَدِهِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ الْأَرِيْبَ لِيَصَارِعَ وَلَهُ الْقِيَّ خَرَجَ مِنْ صُلْبِهِ ، وَمَا تَدُورُ الرَّحَاءُ إِلَّا بِقَطْبِهَا (٣) ، وَلَا تَصْلُحُ الْقَوْسُ إِلَّا بِسَجْبِهَا (٤) » قَالَ : « يَا أَبَا خُبَيْبٍ ، لَقَدْ أَجْرَزْتَ الطَّرِيقَةَ قَبْلَ هِيَابِ الْفَحْلِ (٥) ، هِيَاهُ ! وَهِيَ لَا تَصْطَلِكُ لِحْيَاهَا اصْطَلَاكَ الْقُرُومُ السَّوَايَ (٦) » . قَالَ ابْنُ الزَّيْرِ : « الْمَطْنُ بِسَدِّ اللَّقْلِ ، وَالْمَلُّ بِسَدِّ النَّهْلِ (٧) وَلَا يَدُ الرَّحَاءِ مِنَ النَّفَالِ (٨) ثُمَّ نَهَضَ ابْنُ الزَّيْرِ ، فَلَمَّا كَانَ الْمَشَاءُ أَخَذَتْ قَرِيضَ مَجَالِسِهَا ، وَخَرَجَ مَعَاوِيَةُ عَلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، فَوَجَدَ عَمْرُو بْنُ النَّاصِ فِيهِمْ ، قَالَ : وَيَحْكُمُ يَا بَنِي أُمَيَّةَ ! أَفَيْكُمْ مِنْ يَكْنِيئِي ابْنَ الزَّيْرِ ؟ قَالَ عَمْرُو : أَنَا أَكْفَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ : مَا أَظْنُكَ تَفْعَلُ ، قَالَ : « بَلَى ، وَاللَّهِ لَا زَيْدَنَّ (٩) وَجْهَهُ ، وَلَا خَرَسَنَّ لِسَانَهُ ، وَلَا رَدَّتُهُ أَلَيْنَ مِنْ خَيْلَةٍ (١٠) » . قَالَ : دُونَكَ فَاعْرِضْ لَهُ إِذَا دَخَلَ ، فَدَخَلَ ابْنُ الزَّيْرِ - وَكَانَ قَدْ يَلْتَمِسُهُ كَلَامَ مَعَاوِيَةَ وَعَمْرُو - فَجَلَسَ نَضْبَ عَيْنَيْ عَمْرُو ، فَتَحَدَّثُوا سَاعَةً ، ثُمَّ قَالَ عَمْرُو :

وإني لنارٌ ما يَطَاقُ اصْطِلَاؤُهَا لَدَيْ كَلَامٍ مُعْضِلٍ مُتَعَفِّقٍ (١١)

فَأُطْرَقَ ابْنُ الزَّيْرِ سَاعَةً يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ ، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ :

(١) الألية : ما ركب العجز من شحم ولحم . (٢) در اللبن وغيره من بابي ضرب وقتل ، ودرت الناقة بلبني أدرته . (٣) قطب الرحا : ما تدور عليه ، والرحاء عدد الرحا . (٤) العجب : مؤخر كل شيء . (٥) ناقة طروقة الفحل : بلغت أن يضربها الفحل ، وأجره رسته : جعله يجره ، وهب الفحل من الإبل وغيرها هيبا وهيبا : أراد السفاد . (٦) تصطك : تقطرب . والقروم : جمع قرم بالفتح وهو الفحل ، والسواي جمع سام : وصف من سما الفحل حمالة : تطاول على شوله « والشول كركع جمع شائل وهي الناقة تشول بلفظها للقاح » . (٧) المطن : مبرك الإبل حول الحوض ، والمثل والمال : الشرب الثاني ، والنهل : الشرب الأول . (٨) النفال : جلد أو نحوه يمسح تحت الرحى ليقع عليه الطحين . (٩) أي لأصيرنه أريد ، من الريدة بالضم : وهي لون إلى القبرة . (١٠) الخيلة : القטיפعة ، وفي الأصل : « ولأوردته » وهو تحريف . (١١) تفاقم الأمر : حطم .

وإني لبحر ما يسأى عبأه متى يلقى بحرى حرّ تارك تحدى

فقال عمرو : والله يا ابن الزبير إنك ما علمت لئب تجلب جلايب الفتنة ، متأزّر بوصائل^(١) التّيه ، تتماطى الذّرى الشاهقة ، وللمال الباسقة ، وما أنت من قريش في لباب جوهرها ولا مؤثّق^(٢) حسبها . فقال ابن الزبير : « أما ما ذكرت من تماطى الذرى . فإنه طال بى إليها وسما مالا يطول بك مثله ، أنف سحى ، وقلب ذكّى ، وصارم مشرقى ، فى تكيد فارغ^(٣) ، وطريف مانع ، إذ قد بك انتفاخ سحر^(٤) ، ووجيب^(٥) قلبك ، وأما ما ذكرت من أنى لست من قريش فى لباب جوهرها ، ومؤثّق حسبها ، فقد حضرتنى وإياك الأ كفاد ، المالمون بى وبك ، فاجلهم بينى وبينك . فقال القوم : قد أنصفك يا عمرو . قال : قد فعلت . فقال ابن الزبير : « أما إذ أمكننى الله منك فلأريدنّ وجهك . ولأخرسنّ لسانك ، ولترجمنّ فى هذه الليلة ، وكأنّ الذى بين منسكبك مشدود إلى عروق أحد عيك^(٦) » ، ثم قال : أقسمت عليكم يا معاشر قريش ، أنا أفضل فى دين الإسلام أم عمرو ؟ فقالوا : اللهم أنت ، قال : فأبى أفضل أم أبوه ؟ قالوا : أبوك حواريّ رسول الله صلى الله عليه وآله وابن عمته ، قال : فأبى أفضل أم أمه ؟ قالوا : أمك أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وذات النطاقين ، قال : فعمتى أفضل أم عمته ؟ قالوا : عمك سلمى بنته النّوام صاحبة رسول الله صلى الله عليه وآله أفضل من عمته ، قال : لخالتى أفضل أم خالته ؟ قالوا : خالتك عائشة أم المؤمنين ، قال : سجدتى لأفضل أم جدته ؟ قالوا : جدتك صفية بنت عبد المطلب عمه رسول الله صلى الله عليه وآله ، قال : سجدتى لأفضل أم جده ؟ قالوا : جدك أبو بكر الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال :

قضت النمطارف من قريش بيننا فاصبر لفصل خصامها وقضائها

(١) الوصائل : جميع وصيلة ، وهى ثوب مخطط يمان . (٢) آتقى الشيء : إبتاعه . أصبغى : فهو مؤثّق وأثيق : أى حسن معجب . (٣) فارغ عال . (٤) السحر ويمرّح ويقم : اللذة ، وانتفخ سحره : عدا طوره وجاوز قهره . (٥) غفقان واشطراب . (٦) الأخدعان : عرقان فى موضع المجامعة .

وَإِذَا جَرَيْتِ فَلَا تُجَارِ مُبَرِّزًا بَذَّ الْجِيَادَ عَلَى احْتِضَالِ جِرَائِهَا^(١)
 أما والله يا بن العاص . لو أن القى أمرك بهذا واجهني بمنته لقصرتُ إليه من ساي
 بصره ، ولتركته يطلع لسانه ، وتضطرم النار في جوفه ، ولقد استعان منك بنير وافي ،
 ولجأ إلى غير كافٍ ، ثم قام فخرج .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٤٩٣)

١٤٣ - خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام

لما قتل الحسين عليه السلام ، قام عبد الله بن الزبير في أهل مكة ، وعظَّم مَقْتَلَه ،
 وعاب على أهل الكوفة خائفة ، ولام أهل العراق عاتمة ، فقال بعد أن حَمد الله وأثنى
 عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم :

« إن أهل العراق غَدُرَ فُجُورًا إِلَّا قَلِيلًا ، وإن أهل الكوفة شَرَّارُ أَهْلِ الْعِرَاقِ ،
 وإِنَّهُمْ دَعَوْا حُسَيْنًا لِيَنْصُرُوهُ وَيُؤْتُوهُ عَلَيْهِمْ ، فَلَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمْ ثَارُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا لَهُ : إِمَّا
 أَنْ تَضَعَ يَدَكَ فِي أَيْدِينَا ، فَتَبْتَ بَكَ إِلَى ابْنِ زِيَادٍ بِنِ سُمَيَّةٍ سِلَاقًا ، فَيَمْنَحِيَ فِيكَ حَكْمَهُ ،
 وَإِمَّا أَنْ تَحَارِبَ ، فَرَأَى وَاللَّهِ أَنَّهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ قَلِيلٌ فِي كَثِيرٍ - وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ
 يُطْلِعْ عَلَى النَّيِّبِ أَحَدًا - أَنَّهُ مَقْتُولٌ ، وَلَكِنَّهُ اخْتَارَ لِلْيَتَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى الْحَيَاةِ الْقَسِيمَةِ ،
 فَرَحَّمَ اللَّهُ حُسَيْنًا ، وَأَغْرَى قَاتِلَ حُسَيْنٍ . لِمَسْرَى لَقْد كَانَ مِنْ خِلَافِهِمْ إِيَّاهُ وَعِصْيَانِهِمْ
 مَا كَانَ فِي مِثْلِهِ وَاعْظُ وَتَأَمَّرْ عَنْهُمْ ، وَلَكِنَّهُ مَا حَمَّ^(٢) نَازِلٌ » ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا
 لَنْ يُدْفَعَ .

أفبعد الحسين نطعنُ إلى هؤلاء القوم ، ونصدق قولهم ، وقبيل لهم عهدا ؟
 لا ، ولا نزام لذلك أهلا ، أما والله قد قتلوه ، طويلاً بالليل قيامه ، كثيرا في النهار

(١) برز تبرزا : فاق أصحابه . وبذ : فاق وغلب ، واحتفل القوم : اجتمعوا ، والجرا والمجاراة :

صدر جاری . (٢) ما قدر .

صيامه ، أحقّ بما هم فيه منهم ، وأولى به في الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدّل بالقرآن النِّفَاء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحُدَاء ، ولا بالصيام شربَ الحرام ، ولا بالمجالس في حلق الذكر الركنَ في تَطَلُّبِ الصيد (يرمض يزيد) فسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا^(١) .

فَنَارَ إِلَيْهِ أَصْحَابَهُ ، فَقَالُوا لَهُ : أَيُّهَا الرَّجُلُ أَظْهَرَ يَمْنُكَ ، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ ، إِذْ هَلَكَ حُسَيْنٌ بِنَازِئِكَ هَذَا الْأَمْرَ ، وَقَدْ كَانَ يَبَايِعُ النَّاسَ سِرًّا ، وَيُظْهِرُ أَنَّهُ عَائِدٌ بِالْبَيْتِ .
(تاريخ الطبري ٦ : ٢٧٢)

١٤٤ - مناظرة ابن الزبير للخوارج

اجتمعت الخوارج حين نازع عبد الله بن الزبير بمكة (سنة ٦٤) وسار إليه مسلم ابن عقبة الرُّمِّي في جيش من أهل الشام ، بعد أن غزا المدينة ، وكان منه في وقعة الحرة ما كان ، فقال لهم نافع بن الأزرق : اخرجوا بنا نأتِ البيت ، ونلقِ هذا الرجل ، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو ، وإن يكن على غير رأينا دافسنا عن البيت ما استطعنا ، ونظرنا بعد ذلك في أمورنا ، فخرجوا حتى قلموا على عبد الله بن الزبير ، فُسِّرَ بِمَقْدَمِهِمْ وَنَبَأَهُمْ أَنَّهُ عَلَى رَأْيِهِمْ ، وَأَعْطَاهُم الرِّضَا مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَلَا تَفْقِيشٍ ، فَقَاتَلُوا مَعَهُ حَتَّى مَاتَ يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ ، وَانصَرَفَ أَهْلُ الشَّامِ عَنْ مَكَّةَ .

ثُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ آتَى بِمَعْضَمِهِمْ بَعْضًا فَقَالُوا : إِنَّ هَذَا الْقَدَى صَنَعَمُ أَمْسٍ بَنِيهِ رَأَى وَلَا صَوَابَ مِنَ الْأَمْرِ ، فَتَاتَلَوْا مَعَ رَجُلٍ لَا تَدْرُونَ لَهُ لَيْسَ عَلَى رَأْيِكُمْ ، إِنَّمَا كَانَ أَمْسٌ يِقَاتِلُكُمْ هُوَ وَأَبُوهُ ، وَيُنَادِي بِالنَّارَاتِ عِمَّانَ ، نَدْخُلُ إِلَيْهِ فَتَنْظُرُ مَا عِنْدَهُ ، فَإِنْ قَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ

(١) أى شرا وغسرا ، وكل شر عند العرب غي ، وكل خير رشاد ، وقيل هو على حذف مضاف أى جزاء غي كقوله تعالى : « وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » ، والأثام : الإثم ، أى يلقى جزاء إثمه (والأثام أيضا جزاء الإثم) .

وعمر، وبرى من عثان وعلى، وكفر أباه وطلحة بايضاء، وإن تكن الأخرى،
ظهر لنا ما عنده، فتشغلنا بما يُجدي علينا.

فدخلوا على ابن الزبير وهو مُتَبَذِل^(١)، وأصحابه متفرقون عنه، فقالوا: إنا جئناك
لتخبرنا رأيك، فإن كنت على الصواب بايضا، وإن كنت على غيره دعوناك إلى
الحق، ما تقول في الشيخين؟ قال: خيراً. قالوا: فما تقول في عثان الذي أحى^(٢) الحق،
وأوى الطريد^(٣)، وأظهر لأهل مصر شيئاً وكتب بخلافه، وأوطأ آل أبي مُعَيْط^(٤)
وقاب الناس، وآثرهم بنو المسلمين، وفي الذي بعده، الذي حَكَمَ في دين الله الرجال،
وأقام على ذلك غير تائب ولا نادم، وفي أبيك وصاحبه، وقد بايضا علياً وهو إمام عادل
مرضى لم يظهر منه كفر، ثم نكثنا برّض من أعراض الدنيا، وأخرجنا عائشة تقاتل،
وقد أمرها الله وصواحبها أن يقرن^(٥) في بيوتهن، وكان لك في ذلك ما يدعوك إلى التوبة
فإن أنت قلت كما تقول فكذلك الزلني^(٦) عند الله والنصر على أيدنا، ونسأل الله لك التوفيق
وإن أبيت إلا نصر رأيك الأول، وتصويب أبيك وصاحبه، والتحقيق بعمان والتوكل
في السنين الست التي أحلت دمه، وتقصت أحكامه، وأفسدت إمامته، خذلك الله

(١) المبتذل: لابس البذلة (بالكسر) أو المبهلة: وهي الثوب الخلق وما لا يسان من الثياب.

(٢) أحمى المكان: جعله حمى لا يقرب، وكان من المطامن التي وجهت إلى عثان رضي الله عنه أنه حمى
الحصى من المسلمين مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلهم سواء في الماء والكأ، ولما سئل في ذلك قال
إنما فعلت ذلك لإبل الصدقة، وقد أمطت الآن، وأنا أستغفر الله. وروى الواقدي أن عثان كان يحصى
الربة والشرف والبيع. فكان لا يدخل الحصى بغير له ولا فرس ولا لبنى أمية حتى كان آخر الزمان، فكان
يحصى الثور لإبله وكانت ألف بغير وإبل الحسك بن أبي العاص، ويحصى الربة لإبل الصدقة. ويحصى البقيع
تحليل المسلمين وخيله وعجل بنى أمية. شرح ابن أبي الحديد م ١: ص ٢٣٥

(٣) هو المحكم بن أبي العاص - انظر ص ١٠٤. (٤) عن ولاحم عثان الوليد بن عقبة بن أبي معيط
ولاه الكوفة، وهو أخو عثان لأمه. (٥) من قر بالمكان يقر (بالكسر والفتح) فراوا أى استغفر.
أصله يقررون حذف الأول من الرايين ونقلت حركتها إلى القاف. (٦) الزائمة والزلني: القرية والمنزلة.

واتصرك منك بأيدينا ، فقال ابن الزبير : « إن الله أمر (وله العزة والقدرة) في مخاطبة
أَكفر الكافرين ، وأعطى العتاة ، بأرأف من هذا القول ، فقال لموسى ولأخيه صلى الله
عليهما : « أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ، قَوْلَا لَهُ قَوْلَا لَيْنًا تَقْلَهُ يَتَذَكَّرُ
أَوْ يَخْشَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا تُؤْذُوا الْأَحْيَاءَ بِسَبِّ الْمَوْتَى » .
فنهى عن سبِّ أبي جهل من أجل عِكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو الرسول ،
وللقم على الشرك ، والجاد في المحاربة ، وللتبعض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل
المجرة ، والمحارب له بعدها ، وكفى بالشرك ذنباً ! وقد كان يُغنيكم عن هذا القول
الذى سمعتم فيه طلحة وأبي أن تقولوا : أتبرأ من الظالمين ؟ فإن كانا منهم دخلا
في عمار (١) المسلمين ، وإن لم يكونا منهم لم تُحفظوني (٢) بسبِّ أبي وصاحبه ، وأنتم تعلمون
أن الله جل وعز قال للمؤمن في أبيه : « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ
بِهِ عِلْمٌ ، فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي اللَّهِ نَيًّا مَتْرُوفًا » ، وقال جل ثناؤه : « وَقُولُوا لِنَاسٍ حَسَنًا »
وهذا الذى دعوتهم إليه أمر له ما بعده ، وليس يُفصمكم إلا التوقيف والتصريح (٣) ،
ولعمري إن ذلك لأخرى بقطع الحجب ، وأوضح لِنَهاج الحق ، وأولى أن يعرف كل
صاحبه من عدوه ، فروحوا (٤) إلى من عشيتكم هذه ، أكَشِفَ لَكُمْ مَا أَنَا عَلَيْهِ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

فلما كان اللَّيْلُ راحوا إليه ، فخرج إليهم وقد لبس سلاحه ، فلما رأى ذلك نبذة (٥)
قال : هذا خروج منايد (٦) لكم ، فجلس على رفيع من الأرض ، فخيد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على نبيه ، ثم ذكر أبا بكر وعمر أحسن ذكر ، ثم ذكر عثمان في السنين الأوائل
من خلافته ، ثم وصلهم بالسنين التى أنكروا سيرته فيها ، فبجلها كلامية ، وخبر أنه

(١) بالفم ويفتح جماعتهم . (٢) تغيبون . (٣) تبين الأمر .

(٤) الروح : النفس ، وراح إلى القوم : ذهب إليهم وراحا . (٥) هو نبذة بن عامر الحنفى من

كبار زعمائهم . (٦) قابله : كاشفه بالمداورة .

أدّى الحكم بن أبي العاص ياذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر الحنّى وما كان فيه من الصلاح ، وأن القوم استمحبوه من أمور ، وكان له أن يفعلها أولاً مُصِيباً ، ثم أعتهم بعد ذلك محسناً ، وأن أهل مصر لما أتوه يكتبون ذكره ، أنه منه ، بعد أن ضمن لهم المُتَنَبِّى^(١) ، ثم كُتِبَ لهم ذلك الكتاب بقتلهم ، فدفنوا الكتاب إليه ، حلف بالله أنه لم يكتبه ، ولم يأمر به ، وقد أمر الله عز وجل بقبول اليمين ممن ليس له مثل سابقته ، مع ما اجتمع له من صبر رسول الله ، ومكانه من الإمامة ، وأن بيعة الرضوان تحت الشجرة إنما كانت بسببه^(٢) ، وهما الرجل الذي لزمته يمين ، لو حلف عليها لحلف على حق ، فاختداهما بمائة ألف ولم يحلف ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف بالله فليصدق ، ومن حلف بالله فليرض » . فعيان أمير المؤمنين كصاحبيه ، وأنا وليه ، وعدته عدوه ، وأبي وصاحبه صاحب رسول الله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن الله عز وجل يوم أحد ، لما قُطِعَتْ إصْبَحُ طلحة : « سَقَيْتُهُ إِلَى الْجَنَّةِ » ، وقال : « أَوْجَبَ طلحة^(٣) » ، وكان الصديق إذا ذكر يوم أحد قال : « ذلك يوم كله أو جلّه لطلحة » . والزيور حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وصفوته ، وقد ذكر أنهما في الجنة ، فقال جل وعز : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ » . وما أخبرنا بعد أنه سَخِطَ عليهم ، فإن يكن ما سَمِعُوا فيه حقاً ، فأهل ذلك ثم ، وإن يكن زلة ففى عفو الله تمحيصها ، وفيها وقهم له من السابقة مع نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ومهما ذكرتموها فقد بدأتم بأمر عائشة رضى الله عنها ، فإن أبي آب

(١) الحنّى : الرضا . (٢) وذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام فى غزوة الخبيبية اختار عيان ابن عفان رسولاً من قبله إلى قريش ، يهدمهم بمقصده ، وأنه أتى مكة محسراً ، فقالوا : إن عبداً لا يدخلها علينا معة أبداً ، ثم إنهم حبسوه . فشاع عند المسلمين أنه قتل . فقال عليه الصلاة والسلام حيناً سمع بذلك : لا نبرح حتى نناجزهم الحرب . ودعا المسلمين إلى البيعة على القتال فبايئوه هناك تحت شجرة سميت بعد شجرة الرضوان . (٣) للرجبة من الحسرات التى توجب الجنة . وأوجب : ألقى بها .

أن تكون له أما نبذ اسم الإيمان عنه ، وقد قال الله جلّ ذكره ، وقوله الحق :
« النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » . فنظر بعضهم إلى بعض ،
ثم انصرفوا عنه .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٣ ، والمقد الفريد ١ : ٢١٢ ، وتاريخ الطبري ٧ : ٥٥)

١٤٥ — أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير

وروى أبو الفرج الأصبغاني قال :

لما ظهر ابن الزبير بالحجاز ، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية ، وتشاغل
بنو أمية بالحرب بينهم ، في مَرَجٍ راهط وغيره ، دخل عليه أبو صخر الهذلي في هَذِيلٍ ،
وقد جاءوه ليقبضوا عطاءهم ، وكان عارفاً بهَوَاهُ في بنى أمية ، فتمسك عطاءه ، فقال : عَلَامَ
تَمْنَعُنِي حَقَالِي ؟ وأنا امرؤ مُثْلٌ ما أحدثتُ في الإسلام حَدَثًا ، ولا أخرجت من طاعة يَدًا .
قال : عليك بنى أمية ، فاطلب عندهم عَطَاكَ . قال :

« إِنْ أَجَدَمَ سِبَاكًا ^(١) أَكْفُهُمْ ، سَمَحَةً أَغْضُهُمْ ، بُذْلًا لَأُمُومِهِمْ ، وَهَائِبِينَ
لِجَعْدِيهِمْ ^(٢) كَرِيمَةً أَعْرَاقُهُمْ ، شَرِيفَةً أَصُولُهُمْ ، زَاكِيَةً فِرْعَوْنُهُمْ ، قَرِيبًا مِنْ
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَسَبُهُمْ وَسَبَبُهُمْ ، لَيْسُوا إِذَا نُسِبُوا بِأُذُنَابٍ وَلَا وَشَائِظٍ ^(٣)
وَلَا اتِّبَاعٍ ، وَلَا مِمْ ، فَرِيضَ كِفْفَةِ الْقَاعِ ^(٤) ، لَمْ السُّودُودُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَلِلَّهِ فِي الْإِسْلَامِ
لَا كُنْ لَا يَمُودُ فِي عَيْرِهَا وَلَا تَغْيِرُهَا ^(٥) ، وَلَا حَكَمَ آبَاؤُهُ فِي تَغْيِرِهَا وَلَا فُطْمِرِهَا ^(٦) لَيْسَ

(١) رجل سبط اليدين : سخي (وسبط كشمس) . (٢) المجتدي : طالب الجدوى ، وهي العلية .

(٣) وشائظ جمع وشيظة ، يقال : هم وشيظة في قومهم أي حشو فيهم ، وفي الأصل : « وسائط »
وهو تصحيف . (٤) اللقع (بالفتح والكسر) البيضاء الرخوة من الكأنة وجسمه فقة كعنية ، والقعاقع :
أرص سهلة مطبقة ، قد انفرجت عنها الجبال والآكام . ويضرب المثل بالققع في الذل ، لأنه لا يمنع حل
من اجتناه ، أو لأنه يوطأ بالأرجل . (٥) أخذنا من المثل وهو « لا في هير ولا في النغير » وأول من

قاله أبو سفيان بن حرب ، يضرب الرجل : يحط أمره ، ويصغر قدره . وقد تقدم شرحه .

(٦) التغير : التكتة في ظهر النواة ، والتقطير : القشرة الرقيقة بين النواة والثمرة .

من أحلافها (١) الطيبين ، ولا من سادتها للطعمين ، ولا من جوداتها (٢) الوهابين ، ولا من هاشمها للنتخبين ، ولا عيد شمسها للسودين ، وكيف قاتل الروس بالأذنان ، وأين النصل من الجفن (٣) والسنان من الرُّج (٤) ، والدَّانِي (٥) من القَدَامِي (٦) وكيف يُفَضِّلُ الشَّحِيقَ على الجواد ، والثَّوْقَةَ على المَلَك ؛ والجامعُ بِمُخْلَا على الطَّعِيقِ فضلاً ؟ .

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائصه (٧) ، وعَرِقَ جبينه ، واهتز من قرنه إلى قدمه ، وامتقع لونه ، ثم قال له : يا ابن البوالة على حقيها ، ويا جِلْفَ (٨) ، يا جاهل . أما والله لولا الحُرُمَاتُ الثلاث : حُرْمَةُ الإسلام ، وحُرْمَةُ الحرم ، وحُرْمَةُ الشهر الحرام . لأخذت الذي فيه عينك ، ثم أسر به إلى سجن « عارم » فحبس به مدة ، ثم استوهبته هذيل ، ومن له من قريش خُثُولَةٌ في هذيل ، فأطلقه بعد سنة . وأقسم ألا يعطيه عطاء مع السنين أبداً .

فلما وليَ عبد الملك ، أسر له بما فاتته من العطاء ، ومثله صِلَةٌ من ماله وكسائه وحله .

(الأغانى : ٢١ : ٩٤)

١٤٦ — خطبته وقد قدم عليه وفد العراق

قَدِمَ وفد من العراق على عبد الله بن الزبير ، فَأَتَوْهُ في المسجد الحرام في يوم جمعة ، فسألوه عليه . فسأله عن مصعب أخيه ، وعن سيرته فيهم . فقالوا : أحسن الناس سيرةً ،

(١) الأحلاف : في قريش ست قبائل : عبد الدار ، وكعب ، وجبع ، وسهم ، ومخزوم ، وعلى ، لأنهم لما أراد بنو عبد مناف أخذ ما في أيدي عبد الدار من الحياجة والسقاية ، وأبت عبد الدار ، فقد كل قوم على أمرهم حلقاً مؤكداً على أن لا يتخاذلوا ، فأخرجت عبد مناف جفنة مملوءة طيباً ، فوضعتها لأحلافهم وهم أسد ، وزهرة ، وتيمم عند الكعبة ، فغمسوا أيديهم فيها وتماقدوا ، وتماقدت بنو عبد الدار وحلفاؤها حلفاء آخر مؤكداً فسموا الأحلاف ، وقوله المطيبين : لغرس أيديهم في الطيب . (٢) جوداء : جمع جواد ، وهو السخي ، ويجمع أيضاً على أجواد وأجاود . (٣) غمد السيف . (٤) الحديدية في أسفل الرج . (٥) اللنب . (٦) أربع أو عشر ویشات في مقدم الجناح . (٧) جمع قريصة ، وهي اللحمة بين الجنب والسكتف . (٨) الجلف : الرجل الجاهل .

وأفضأه بحق ، وأعدله في حكم ، فعلى عبد الله بالناس الجملة ، ثم صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه . ثم قال :

قد جرّوني ثم جرّوني من غلوتين ومن المئين (١)

حتى إذا شابوا وشيبوني خلوا عني ثم سيبوني (٢)

أيها الناس : « إني قد سألت هذا الوفد من أهل العراق ، عن عاملهم مصعب بن الزبير ، فأحسنوا الثناء عليه ، وذكروا عنه ما أحب . ألا إن مصعباً أطبى (٣) القلوب ، حتى ماتت ذل به ، والأهواء حتى ماتت حول عنه ، واستمال الألسن بشائها ، والقلوب بتضجها . والنفوس بمحببتها . فهو المحبوب في خاصته . المحمود في عامته . بما أطلق الله به لسانه من الخير . وبسط يده من البذل » . ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٤٩٢ ؛ والأمال ١ : ٢٨٦)

١٤٧ — خطبته لما بلغه قتل مصعب

لما قتل عبد الملك بن مروان مصعب بن الزبير (سنة ٧١ هـ) واتفق خبر مقتله إلى عبد الله بن الزبير ، أضرب عن ذكره أياماً ، حتى تحدث به إمام مكة في الطريق ، ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم ، والكأبة على وجهه ، وجبينه يرشع حرّاً . فقال رجل من قريش لرجل إلى جانبه : ماله لا يتكلم ، أترأه يهاب المنطق ؟ فوالله إنه لليب الخطباء . قال : لعله يريد أن يذكر مقتل مصعب سيد العرب ، فيشتد ذلك عليه ، وغير مكلوم ، ثم تكلم فقال :

« الحمد لله الذي له الخلق والأمر ، ومثلك الدنيا والآخرة ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويميز من يشاء ، ويميز من يشاء . أما بعد : فإنه لم يعز الله

(١) الغلظة : الثاية ، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه ، ويقال هي قدر ثلاثة ذراع إلى أربع مائة .

(٢) تركوني . (٣) أطبى : استمال .

مَنْ كَانَ الْبَاطِلُ مَعَهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعَهُ الْأَنَامُ طَرًّا^(١) ، وَلَمْ يُذِلَّ مَنْ كَانَ الْحَقُّ مَعَهُ وَإِنْ كَانَ مُتَفَرِّدًا ضَمِيمًا ؛ أَلَا وَإِنَّهُ قَدْ أَتَانَا خَبِيرٌ مِنَ الْعِرَاقِ ، بِدُخَانِ التَّنْدُرِ وَالشَّقَاقِ ، فَسَاءَنَا وَسَرَّانَا ، أَتَانَا أَنْ مَصْعَبًا قُتِلَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَتَفِرُّهُ ؛ فَأَمَّا أَقْدَى أَحْرَزْنَا مِنْ ذَلِكَ ، فَإِنْ لِفِرَاقِ الْحَيِّمِ لَدَعَةُ وَلَوْعَةٌ يَمِدُّهَا حَيِّمُهُ عِنْدَ الْمَصِيْبَةِ ، ثُمَّ يَرْعَوِي مِنْ بَعْدُ ذُو الرَأْيِ وَالْهَدَيْنِ إِلَى جَمِيلِ الصَّبْرِ ، وَكَرِيمِ الْمَرْءِ . وَأَمَّا أَقْدَى سَرَّانَا مِنْهُ فَإِنَّا قَدْ عَلِمْنَا أَنْ قَتَلَهُ شَهَادَةُ لَهُ ، وَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ جَاهِلٌ لَنَا وَلَهُ فِي ذَلِكَ الْخَلِيعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَسْلَمَهُ الْعُظَامُ^(٢) ، الثَّمَنُ الْآذَانِ ، أَهْلُ الْعِرَاقِ ، إِسْلَامُ النَّعَمِ الْمُخْطَلَةِ^(٣) ، وَبَاعُوهُ بِأَقْلٍ مِنَ الثَّنِ الَّذِي كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنْهُ ، فَإِنْ يُقْتَلُ قَدْ قُتِلَ أَبُوهُ وَعَمُّهُ وَأَخُوهُ^(٤) ، وَكَانُوا الْخَلِيَارَ الصَّالِحِينَ ، إِنَّا وَاقِعٌ لِمَوْتِ حَتَفِ آتَانَا^(٥) ، وَلَكِنْ قَصَصًا^(٦) بِالرَّمَاكِ ،

(١) جَمِياً . (٢) الْأَوْغَادُ . (٣) عَطَمَ الْبَحِيرَ بِالْخَطَامِ : جَمَلُهُ عَلَى أَنْفِهِ ، وَالْخَطَامُ كَكِتَابٍ : مَا وَضَعَ فِي أَنْفِ الْبَحِيرِ لِيَقْتَادَ بِهِ . (٤) بِمَدِّ أَنْ ائْتَزَلَ الزَّيْبِرُ بَيْنَ الْعَوَامِ أَصْحَابِ الْجَمَلِ ، انصَرَفَ إِلَى وَادِي السَّبَاعِ ، وَقَدْ تَجَسَّهَ هَرُورُ بَنِ جَرْمُوزٍ قَطْعُهُ فِي الصَّلَاةِ ، وَيَسْنَى بِمَعَهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنِ الْعَوَامِ بَنِ خُوَيْلِدٍ ، وَقَدْ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ الْيَرْمُوكِ ، وَفِي رِوَايَةٍ « وَابْنُ عَمِّ » وَيَسْنَى بِهِ عَبْدِ اللَّهِ بَنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بَنِ الْعَوَامِ ، وَقَدْ قُتِلَ يَوْمَ الدَّارِ » انْظُرْ أَسَدُ النَّبَاةِ ٣ : ٢١٣ .

وَأَمَّا أَخُوهُ فَهُوَ الْمُنْتَدِرُ بَنُ الزَّيْبِرِ ، وَذَلِكَ أَنَّ جَيْشَ يَزِيدَ بِمَدِّ أَنْ أَوْقَعَ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي وَقْعَةٍ لِلْمَرَّةِ كَأَقْدَمَانَا ، سَارَ إِلَى مَكَّةَ لِنُزُولِ ابْنِ الزَّيْبِرِ ، فَقَالَ لِأَخِيهِ الْمُنْتَدِرِ : مَا لِفَذَا الْأَمْرِ وَلِنَفْعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ غَيْرِي وَغَيْرِكَ — وَكَانَ أَخُوهُ الْمُنْتَدِرُ عَنِ شَهِدِ الْمَرَّةِ . ثُمَّ لَحِقَ بِهِ — فَجَرَدَ إِلَيْهِمْ أَغَاةً فِي النَّاسِ ، فَقَاتَلَهُمْ سَاعَةً قَاتِلًا شَدِيدًا ، ثُمَّ إِنْ وَجَلَا مِنْ أَهْلِ الْقَتَامِ دَعَا الْمُنْتَدِرَ إِلَى الْمُبَارَاةِ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ ، فَضَرَبَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ ضَرْبَةً غَرَّ صَاحِبَهُ هَا مِيتًا . وَكَانَ مَقْتَلُهُ سَنَةَ ٦٤ هـ — تَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٧ : ١٤ — . (٥) الْحَتَفُ : الْمَوْتُ ، وَيُقَالُ مَاتَ حَتَفَ أَنْفُهُ : أَيُّ مَلَ فَرَّاشُهُ مِنْ غَيْرِ قَتْلٍ ، وَلَا ضَرْبٍ ، وَلَا فِرْقٍ ، وَلَا حَرِّقٍ ، وَغَضَبٍ الْآنَفَةِ لِأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ رَوْحُهُ تَخْرُجَ مِنْ أَنْفِهِ بِتَتَابُعِ نَفْسِهِ ، أَوْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَيَّلُونَ أَنَّ الْمَرِيضَ تَخْرُجُ رَوْحُهُ مِنْ أَنْفِهِ ، وَالْمَرِيضُ مِنْ جِرَاحَتِهِ . (٦) الْقَصَصُ : الْمَوْتُ الْوَحْشِيُّ (أَيُّ السَّرِيعِ كَتَفِي) وَمَاتَ قَصَصًا : أَصَابَتْهُ ضَرْبَةٌ ، أَوْ رَمِيَتْ فَاتَتْ مَكَانَهُ ، وَفِي السَّكَاكِ ، وَغَيْرِ الْإِخْبَارِ : « إِنَّا وَاقِعٌ لِمَوْتِ حَبِجَا » وَزَادَ السَّكَاكِ « كَيْتَةُ آلِ أَبِي النَّاسِ » وَالْحَبِجُ حِمْرَةٌ : انْتِخَافَ بَطْنُ الْبَحِيرِ مِنْ أَكْلِ لَحْمِ الْفَرَسِ (كَبَشْفَرِ) ، وَرَجِمَا قَتَلَهُ ذَلِكَ « يَمْرُضُ بَيْنَ مَرُوانَ لِكُثْرَةِ أَكْلِهِمْ وَإِسْرَافِهِمْ فِي مَلَاذِ الدُّنْيَا ، وَأَنَّهُمْ يَمُوتُونَ بِالْخَمَةِ .

وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان ، والله ما قُتل منهم رجل في زحف في جاهلية ولا إسلام قط ؛ ألا وإنا الدنيا عارية من الملك القهار الذي لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه ، فإن تُقِيل الدنيا على لم آخذها أخذ الأثير الجَيطَر^(١) ، وإن تُذِير عني لم أبك عليها بكاء الخرق المَهِين^(٢) . أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم ثم نزل .

(الأنبا ١٧ : ١٦٦ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ ص ٣٢٠ - ٤ م ص ٤٩٢ ، والفتاوى القزوينية ٢ : ص ١٥٠ و ٢٦٨ ، وتاريخ الخلفاء ٧ : ١٩٠ ، وصيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٠ ، وتذليل الكفاية ١ : ١٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٣)

١٤٨ - خطبة أخرى له

وقال الجاحظ : لما جاءه قتل أخيه مصعب ، قام خطيباً بعد خطبته الأولى ، فقال : « إن مصعباً قدّم أبزّه ، وأخر خيرّه ، وشاغل بكاح فلانة وفلانة^(١) ، وترك حلبة^(٢) أهل الشام ؛ حتى غشيت في داره ، ولئن هلك مُصَعبُ إن في آل الزبير خلقتاً منه » .
(البيان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٤٩ - خطبته وقد بلغه قتل عمرو والأشدق

وروى الجاحظ أيضاً أنه لما بلغه قتل هبذ الملك بن مروان عمرو بن سعيد الأشدق ، قام خطيباً فقال :

(١) الأثر : البطر . (٢) من الخرق محرّكة وهو الدعش من خوف أو حياء ، أو أن يهت فانتها عينيه ينتظر ، والمهين : الحقير ، ويرى : « بكاء الخرف المَهْمَر » والخرف : من فد عقله من الكبر ، والمهتر : من ذهب عقله من كبر ، أو مرضى ، أو حزن ، من الهتر بالضم ، وقد أهر فهو مهتر (بضم الميم) وفتح اللام) : شاذ وقد قيل أهر بالبناء المجهول . (٣) كان تحه عقيلتنا قريش عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين . (٤) الحلبة : خيل تجتمع لسباق من كل أوب النصره .

« إِنْ أَبَا ذِيَّانَ ^(١) ، قَتَلَ لَطِيفَ الشَّيْطَانِ ^(٢) ، كَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا
بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .
(البیان والتبيين ٢ : ٤٧)

١٥٠ - عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر

دخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر ، في اليوم الذي قتل فيه ، وقد رأى من
الناس ما رأى من غيظهم ، فقال :

يَا أُمَّه : خَذَلَنِي النَّاسَ حَتَّى وَدِدْتُ وَأَهْلِي ، فَلَمْ يَبْقَ مَعِيَ إِلَّا الْيَسِيرُ مِنْ لَيْسَ عِنْدَهُ
مِنَ الدَّفْعِ أَكْثَرُ مِنْ صَبْرٍ سَاعَةٍ ، وَالْقَوْمُ يُعْطُونَنِي مَا أَرَدْتُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَا رَأَيْكَ ؟
فَقَالَتْ : أَنْتِ وَاللَّهِ يَا بَنِي أَعْلَمُ بِنَفْسِكَ ، إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ عَلَى حَقٍّ وَإِلَيْهِ تَدْعُو فَا مَضِ لَهْ ،
فَقَدْ قُتِلَ عَلَيْهِ أَحِبَّاؤُكَ ، وَلَا تَمَكِّنْ مِنْ رَقَبَتِكَ يَتَلَسَّبَ بِهَا غِلْمَانُ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَإِنْ كُنْتَ
إِنَّمَا أَرَدْتَ الدُّنْيَا ، فَبَيْسَ الْعَبْدُ أَنْتِ ، أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ ، وَأَهْلَكْتَ مَنْ قُتِلَ مَعَكَ ،
وَإِنْ قُلْتَ : كُنْتُ عَلَى حَقٍّ ، فَلِمَا وَهَنَ أَحِبَّاؤُكَ ضَعُفْتُ ، فَهَذَا لَيْسَ فِعْلُ الْأَحْرَارِ وَلَا أَهْلِ
الدِّينِ ، وَكَمْ خُلُوذُكَ فِي الدُّنْيَا ؟ الْقَتْلُ أَحْسَنُ ، وَاللَّهِ لَضَرْبَةُ السَّيْفِ فِي عِزٍّ ، أَحَبُّ إِلَيَّ
مِنْ ضَرْبَةِ بَسُوطٍ فِي ذُلٍّ ، قَالَ : إِنِّي أَخَافُ إِنْ قَتَلُونِي أَنْ يُمْتَلُوا بِي ، قَالَتْ : يَا بَنِي إِنْ
الشَّاةُ لَا يَضُرُّهَا سَلَخُهَا بِمَدِّ ذِمَّتِهَا .

فَدَنَا مِنْهَا وَقَبِلَ رَأْسَهَا ، وَقَالَ : هَذَا وَاللَّهِ رَأْيِي ، وَالَّذِي قَتَلَ بِهِ دَاعِيًا إِلَى يَوْمِي هَذَا ،

-
- (١) الذَّيَّانُ : الذَّيَّابُ ، والقُرْبُ تَكُونُ الْأَجْزَاءُ « أَبَا ذِيَّابٍ » وَيُضْمُّهُمْ يَكْنِيهِ « أَبَا ذِيَّانٍ » وَهَذَا غَلَبَ ذَلِكَ
عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَسَادَ كَانُ فِي قَهْ ، وَقِيلَ لِأَنَّ لَتَهُ كَانَتْ تَدْعِي فَيَقَعُ عَلَيْهَا الذَّيَّابُ .
(٢) هُوَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ الْأَشَدِيُّ ، سَمِيَ بِذَلِكَ لِجَلِّ كَانُ فِي قَهْ ، فَقِيلَ لَهُ مِنْ أَجْلِ : « لَطِيفُ الشَّيْطَانِ »
قَالَ الْوُزَيْرِيُّ لِكِتَابَةِ ابْنِ عَمِيدُونَ فِي مَرْتَبَةِ الشُّهُورَةِ لِدَوْلَةِ بَنِي الْأَنْطَلَسِ بِالْأَنْطَلَسِ إِلَى سُلْطَانِهِ :
« فَالْحَرُّ يَفْجِعُ بِمَدِّ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ » فَا الْبَكَاءُ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالصُّورِ
وَلَمْ تَدْعُ لِأَبِي الذَّيَّانِ تَأْذِيهِ لَيْسَ الْعَلِيمُ لَهَا عَمْرُو بِمُنْتَصِرٍ
(٣) وَكَانَ قَدْ خَرَجَ إِلَى الْحِجَاجِ ابْنَاهُ حَزْرَةُ وَغِيْبَ فَأَخْلَعَهُمَا مِنْهُ لَأَنْفُسَهُمَا أَمَانًا .

ما رَكَنْتُ إِلَى الدُّنْيَا ، وَلَا أَحْبَبْتُ الْحَيَاةَ فِيهَا ، وَمَا دَعَانِي إِلَى الْخُرُوجِ إِلَّا الْغَضَبُ اللَّهُ
أَنْ تُسْتَحْلَ حُرْمَتُهُ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَعْلَمَ رَأْيِكَ ، فَزِدْتَنِي بِصِيْرَةٍ مَعَ بَصِيْرَتِي ،
فَانْظُرِي يَا أُمِّه ، فَإِنِّي مُقْتَوْلٌ مِنْ بَوِي هَذَا ، فَلَا يَشْتَدُ حَزْنُكَ ، وَسَلِّ لَأَمْرِ اللَّهِ ، فَإِنَّ
ابْنَكَ لَمْ يَتَّصِدْ إِيْتَانِ مُنْكَرٍ ، وَلَا عَمَلًا بِفَاحِشَةٍ ، وَلَمْ يَجْرُ فِي حَكَمِ اللَّهِ ، وَلَمْ يَنْدِرْ فِي أَمَانٍ ،
وَلَمْ يَتَّصِدْ ظُلْمَ مُسْلِمٍ وَلَا مُعَاهَدٍ ، وَلَمْ يَبْلُغْنِي ظُلْمٌ عَنْ عَمَالٍ فَرَضِيَتْ بِهِ ، بَلْ أُنْكَرْتَهُ ،
وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ آثَرَ عِنْدِي مِنْ رِضَائِي ، اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَقُولُ هَذَا تَزَكِيَةً مَنِي لِنَفْسِي
- أَنْتَ أَعْلَمُ بِي - وَلَكِنْ أَقُولُهُ تَمْزِيَةً لَأُمِّي لَتَسَلِّوْا عَنِّي ، فَقَالَتْ أُمُّهُ : إِنِّي لَأَرْجُو مِنْ اللَّهِ
أَنْ يَكُونَ عَزَائِي فِيكَ حَسَنًا إِنْ تَقَدَّمْتَنِي ، وَإِنْ تَقَدَّمْتِكَ فِي نَفْسِي حَرَجٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَّامٌ
يَصِيرُ أَمْرُكَ . قَالَ : يَا أُمِّه جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا ! فَلَا تَدْعِي الدُّعَاءَ لِي قَبْلُ وَبَعْدُ ، فَقَالَتْ :
لَا أَدْعُهُ أَبَدًا ، فَنُ قُتِلَ عَلَى بَاطِلٍ فَقَدْ قُتِلْتَ عَلَى حَقٍّ ، ثُمَّ قَالَتْ : « اللَّهُمَّ ارْحَمْ طَوْلَ
ذَلِكَ الْقِيَامِ فِي اللَّيْلِ الطَّوِيلِ ، وَذَلِكَ النَّجِيبِ وَالظُّلْمِ فِي هَوَاجِرِ الْمَدِينَةِ وَمَكَّةَ ، وَبَرِّهَ بِأَبِيهِ
وَبِي ، اللَّهُمَّ قَدْ سَلَّمْتَهُ لِأَمْرِكَ فِيهِ ، وَرَضِيَتْ بِمَا قَضَيْتَ ، فَأَثْبِتْنِي فِي عِبَادَةِ اللَّهِ نَوَابِ الصَّابِرِينَ
الشَّاكِرِينَ » . ثُمَّ وَدَّعَهَا وَخَرَجَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٢ ، والقتري ١١١ ، والنفق القريد ٢ : ٢٧١ ، وبلغات النساء من ١٣٠)

١٥١ - خطبته يوم قتله

وخرج من عندها فصعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنْ الْمَوْتَ قَدْ تَنَشَّأَ كَمَا سَجَّاهُ ، وَأَحْدَقَ بِكُمْ رِبَابُهُ ^(١) ، واجتمع بعد
تفرقي ، وارجعن بعد تمشقي ^(٢) ، ورجس ^(٣) نحوكم رَهْدُهُ ، وهو مُفْرِغٌ عَلَيْكُمْ وَدَّعُهُ ^(٤) »

(١) الرِّبَابُ : السَّحَابُ الْأَبْيَضُ . (٢) ارجعن : ما لي من ثقله واهتر ، وتمشقي ثوبه : تمزق .

(٣) رجس : رجس البلاء : رجس شديداً وتعمقت . (٤) المفرد : للطر .

وقائِد إليكم البِلَايا ، تنبها للنّايا ، فاجلوا السيوف لها غَرَضًا ، واستعينوا عليها بالصبر .
وتمثل بأبيات ، ثم اتّحم يقاتل وهو يقول :

قد جدّ أصحابك ضربَ الأعناقِ وقامت الحربُ لها على ساق^(١)
(العقد القرية ٢ : ٢٧١)

١٥٢ - خطبة أخرى

وروى الطبري قال :

لما كان يوم الثلاثاء صَبِيحَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ من جادى الأولى سنة ٧٣ هـ وقد أخذ
الحجاج على ابن الزبير بالأبواب ، صلى بأصحابه الفجر ، ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ،
ثم قال :

« يا آل الزبير : لو طَئِمْتُمْ لى نَفْسًا عن أنفسكم ، كنّا أهل بيتٍ من العرب
استَظَلَّنا^(٢) فى الله ، لم تُصَبِّنا رِيبًا بَيِّنَةً^(٣) ، أما بعد يا آل الزبير : فلا بَرَّعْكُمْ وقع
السيوف ، فإنى لم أَحْضِرْ مَوْطِنًا قَطُّ إِلَّا أُرْتَدِّثُ^(٤) فيه من القتل ، وما أجد من دواء
جراحها أشدَّ مما أجد من ألمٍ وقَعِها ، صُونُوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم ؛ لا أعلم امرأ
كسر سيفه ، واستبقى نفسه ، فإن الرجل إذا ذهب سلاحه فهو كالمرأة أعزل ، غَضُّوا
أبصاركم عن البارقة^(٥) ، وَلْيَسْتَغْلِ كُلُّ امرئِ قِرْنَهُ ، ولا يُلْمِيْكُمْ السَّوَالُ^(٦) هنى ، ولا
تقولنَّ : أين عبد الله بن الزبير ، ألا من كان سائلاً هنى فإنى فى الرَّمِيلِ^(٧) الأول :

أبى لابن سُلَيْمٍ أَنَّهُ غَيْرُ خَالِدٍ مُلَاقٍ لِلنَّايَا أَيْ صَرَفَ تَيْمَمًا

(١) هو من مشطور السريح الموقوف . (٢) لى استظلنا . (٣) الزباء من الدوامى :

الشديدة ، ويقال لأنفله أليّة ؛ وبته ، لكل أمر لاربعة فيه . (٤) ارتث (مبنياء المجهول) حل

من المعركة رثيا لى جرحا وبه رمق . (٥) البارقة : السيوف . (٦) الرميل : القطة من الخيل
القليلة ، أو مقمتها .

فلستُ بمبتاعِ الحياةِ بسبِّةٍ ولا مُرتقيٍّ من خشيةِ الموتِ سُلماً
احلوا على بركة الله « ثم قاتل حتى أنحن بالجراحات وقتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠٤)

١٥٣ — خطبة مصعب بن الزبير

بسم عبد الله بن الزبير أخاه مُصَتَباً والياً على البصرة سنة ٦٧ هـ ، فصید للنبر ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . نَزَلَتْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ
نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ يَاتِلِقُ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَجَعَلَ
أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِيفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ ، يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ ، وَيَسْتَضْهِى نِسَاءَهُمْ ، إِنَّهُ
كَانَ مِنَ الْمُسْفِيْنَ » وأشار بيده نحو الشام « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِفُوا
فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » وأشار بيده نحو الحجاز « وَنُمْكِّنَ لَهُمْ
فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ » وأشار بيده
نحو العراق .

(البيان والتهنيت ٢ : ١٥٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٨ ، وتاريخ الطبري ٧ : ١٤٦)

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي .

خطب معاوية (توفي سنة ٥٦٠ هـ)

١٥٤ — خطبته بالمدينة عام الجماعة

قدم معاوية للمدينة عام الجماعة (سنة ٤١ هـ) فتلقاه رجال قريش ، فقالوا : الحمد لله الذي أهرز نصرتك ، وأهل كعبتك ، فما رد عليهم شيئاً حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، واثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد فإني والله ما وَلَّيْتُهَا بِمَحَبَّةٍ عَلِمْتُهَا مِنْكُمْ ، ولا مَسْرَّةٍ يُولَّيْتُ ، ولكني جالستكم بسببي هذا مُجَاهِدَةً ، ولقد رُضْتُ ^(١) لكم نفسي على عمل ابن أبي قُحافة ، وأردتها على عمل عمر ، فنفرت من ذلك نفاراً شديداً ، وأردتها على سُنَيَاتِ ^(٢) هُثَّان ، فأبَت على ، فسلكت بها طريقاً لي ولكم فيه منفعة : مؤاكلة حسنة ومشارية جميلة ، فإن لم تجدوني خيراً ، فإني خير لكم ولايةً ، والله لا أحمل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن منكم إلا ما يستشفى به القائلُ بلسانه ، فقد جعلت ذلك له دَبْرَ ^(٣) أذني ،

(١) من راضٍ المهرة : إذا ذلّه . (٢) سنة مصغرة ، والمراد حكم هُثَّان .

(٣) جعل كلامك دبر أذنه ، لم يصغ إليه ، ولم يصرح عليه .

وتحت قدمي ، وإن لم تجدوني أقوم بحسبكم كله ، فاقبلوا مني بعضه ، فإن أنا كم مني خير
فأقبلوه ، فإن السيل إذا جاد يُتري ؛ وإذا قل أغنى ، وإيا كم والفتنة ، فإنها تُفسد الميمنة
وتكدر النعمة » ثم نزل .
(المقد الفريد ٢ : ١٢٩)

١٥٥ — خطبة أخرى له بالمدينة

وخطب محمد الله وأثنى عليه ، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أما بعد ، أيها الناس ، إنا قدمنا عليكم ، وإنما قدمنا على صديق مستبشر .
أو على عدو مستتر ، وناس بين ذلك ينظرون وينتظرون . فإن أعطوا منها رضوا وإن لم
يُعطوا منها إذا هم يسخطون ، ولست واسمًا كل الناس ، فإن كانت تحمّدة ، فلا بد من
مذمة ، فلو ما هونا إذا ذكر غفر ، وإيا كم والتي إن أخفيت أو بقت ، وإن ذكّرت
أوقفت » ثم نزل .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٦ — خطبة له بالمدينة

وصعد منبر المدينة محمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، إني لست أحب أن تكونوا خلقًا خلّق العراق ، يعيبون الشيء
وم فيه ، كل امرئ منهم شيعته نفسه ، فأقبلونا بما فينا ، فإن ما وراءنا شر لكم ، وإن
معروف زماننا هذا مُنكر زمان قد مضى ، ومنكر زماننا معروف زمان لم يأت ،
ولو قد أتى فالزمت خير من الفتق ، وفي كلّ بلاغ ، ولا مقام على الرّزية » .
(المقد الفريد ٢ : ١٤٠)

١٥٧ - خطبته حين ولي المغيرة بن شعبة الكوفة

ولما ولى معاوية^(١) للمغيرة بن شعبة الكوفة في جمادى سنة ٥٦ هـ ، دعا ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإنّ قَدْرِي الحِلْمَ قبلَ اليوم ما تُقَرِّعُ المَصَا^(٢) ، وسدّ حال المتطس :

قَدْرِي الحِلْمَ قبلَ اليوم ما تُقَرِّعُ المَصَا وما عَمَّ الإنسانُ إلا لِيَمْلَأَ

وقد يُجْزِي^(٣) الحكيمُ بغير التسلُّيم ، وقد أردتُ إيصاءك بأشياء كثيرة ، فأنا تاركها اعتماداً على بَصَرِكَ بما يَرْضِي ، ويُسَدِّ سلطانِي ، وتصلِّحُ به رعيَّتِي ، ولست تاركاً إيصاءك بخصلةٍ : لا تَنَحَّمْ^(٤) عن شَمِّ عليٍّ وذمِّه ، والترحمِ على عثمان ، والاستغفار له ، والسبِّ على أصحاب عليٍّ ، والإقصاء لهم ، وترك الاستماع منهم ، وإبطاء شيعَةِ عثمان رضوانُ الله عليه ، والإدناء لهم ، والاستماع منهم » .

فقال المغيرة : « قد جَرَبْتُ وَجُرَبْتُ ، وَهَمِلْتُ قَبْلَكَ لَتُورِكَ ، فلم يُذَمِّمْ بِي دَفْعٌ ولا رَفْعٌ ، ولا وَضْعٌ ، فَسَتَبْلُو^(٥) فَتُحَمِّدُ ، أو تَذَمُّ » قال : « بل نَحْمَدُ إِنْ شَاءَ اللهُ » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨١)

(١) من أمثال العرب المشهورة : « إِنْ الصَّا قَرَعَتْ لَلِي الحِلْمَ » وهو مثل يضرب لمن إذا تبه انتبه ، وأول من قرعت له المصا حاكم بن القرب العدواني ، وقيل هو قيس بن خالد ، وقيل ربيعة بن غنائن ، وقيل عمرو بن حمة البوصي ، وقيل عمرو بن مالك . ذكروا أن حاكم بن القرب كان أحد حكام العرب الماهجرين : لا تمتد بفقهم فهما ، ولا يحكم حكماً ، فلما طعن في السن أنكر من عقله شيئاً ، فقال لبيته : إني قد كبرت سنِّي ، وعرض لي سهو ، فإذا رأيتموني خرجت من كلبي ، وأعلنت في غيري ، فاقروا لي المصا ، وقال المتطس يريده :

قَدْرِي الحِلْمَ قبلَ اليوم ما تُقَرِّعُ المَصَا البيت .

(٢) يجزي سهل من يجزي لى يضى ، يقال : أجزأت منك جزءاً فلان : أى أغنيت منك مغناه .

(٣) أحس وتحمى : امتنع . (٤) لى تختبر .

١٥٨ - خطبة له في يوم صائف

وخطب الجمعة في يوم صائف شديد الحر ، فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« إن الله عز وجل خلقكم فلم ينسكم ، ووعظكم فلم يهملكم ، فقال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » . قوموا إلى صلاتكم (لقد انفرد ٢ : ١٤٠)

١٥٩ - آخر خطبة له

صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قبض على لحيته ، وقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي مِنْ زَرْعٍ قَدْ اسْتَحْصَدَ ^(١) ، وَقَدْ طَالَتْ عَلَيْكُمْ إِمْرَتِي ، حَتَّى تَلْتَسِكُمْ وَمَلْتَمُونِي ، وَتَمْتِيتُ فِرَاقَكُمْ وَتَمْتِيتُ فِرَاقِي ، وَإِنَّهُ لَا يَأْتِيكُمْ بَعْدِي إِلَّا مَنْ هُوَ شَرُّنِي ، كَمَا لَمْ يَأْتِكُمْ قَبْلِي إِلَّا مَنْ كَانَ خَيْرًا مِنِّي ، وَإِنَّهُ مَنْ أَحْبَبَ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ لِقَاءَكَ ، فَأَحْبِبْ لِقَائِي » ثم نزل ، فاصعد المنبر حتى مات ^(٢) .
(الأمل ٢ : ٣١٥ ، وتهذيب الكمل ١ : ١٦)

١٦٠ - خطبته وقد حضرته الوفاة

ولما حضرت معاوية الوفاة قال لمولى له : من بالباب ؟ قال : غر من قريش يتباشرون بموتك ، قال : ويحك ؟ ولم ؟ قال : لا أدري . قال فوالله ما لهم ببدى إلا القى يسوم وأذن للناس فدخلوا ، فحمد الله وأثنى عليه ، وأوجز ثم قال :

(١) استحصد الزرع وأحصد : حان أن يحصد . (٢) سيرد عليك بقية خطبه بعد في موضعها .

« أيها الناس : إنا قد أصبحنا في دهر عَنُود ^(١) ، وزمن شديد ^(٢) يَمُدُّ فيه الحسن . مسيئاً ، ويزداد فيه الظالم هُتُوراً ، لا ننتفع بما علينا ، ولا نسأل عما جهلناه ، ولا نتخوف قارعة ^(٣) حتى نَحُلُّ بناءً فالناس على أربعة أصناف : منهم من لا يهتم من القساد في الأرض إلا مهانة نفسه ، وكلال حده ، ونضيض وفره ^(٤) ومنهم المصلِّ ^(٥) لسيفه ، المجلب بخيله ورجله ، الملمن بشره ، قد أشراط نفسه ، وأوبق دينه ، الحطام ينهزه ^(٦) . أو مقتب ^(٧) يقوده ، أو منير يفرعه ^(٨) ، ولبئس المنجبر أن تراهما لنفسك ممناً ، وبما لك عند الله عوضاً ، ومنهم من يطلب الدنيا بعمل الآخرة ، ولا يطلب الآخرة بعمل الدنيا ، قد طامن من شخصه ، وقارب من خطوه ، وشتر من ثوبه ، وزخرف نفسه للأمانة ، واتخذ ستر الله ذريعة للمصيبة ، ومنهم من قد أقمده عن طلب الملك ضئولة نفسه ، وانقطاع صبه ، فقصرت به الحال عن أمله . فتحلى باسم القناعة . وتزين بلباس الزهاد . وليس من ذلك في مزاج ولا مَعْدَى ، وبقي رجال غَضَّ أبصارهم ذكرُ الرجوع ، وأراق دموعهم خوفُ المَحْشَر ، فهم بين شريد نافر ، وخائف متقع ^(٩) ، وساكِت مكبوم ^(١٠) ، وداع مخلص ، وموجع تَبْكَلَان ، قد أخلتهم التَّجَنِّيَّة ^(١١) ، وشملتهم القلة ، فهم بحر أجاج ^(١٢) ، أفواهم ضامرة ^(١٣) ، وقلوبهم قريحة ، قد وَعَقَلُوا حتى مَلُوا ، وقَهَرُوا حتى ذَلُّوا ، وقتلوا

-
- (١) جائر . من عند عن الطريق كعصر وسبع وكرم عنودا : إذا مال . (٢) وفي نهج البلاغة : وزمن كنود وهو السكتور . (٣) الدامية التي تفرع أي تصيب . (٤) أي قلة ماله . (٥) أصلت السيف : سله . (٦) حيأها وأعدھا (من الشرط (حركة) وهو العلامة) أي حيأها للفساد في الأرض . وأوبقه : أهلكه . والحطام : المال . وأصله ما تكرر من اليبس . (٧) المقتب من الخيل : بين الثلاثين إلى الأربعين أو زهاء ثلثائة . (٨) يملوه . (٩) مقهور . (١٠) من كم البعير كنع : شد فاه لتلا يضي أو يأكل ، وفي البيان والتبيين مكبوم ، من عكم المزاج يمكه : شده بثوب . (١١) التفتية : للدائرة . (١٢) الأجاج : الملح . (١٣) ساكنة من ضمير كعصر وضرب : سكت ولم يتكلم . والبعير أسك جرت في فيه ولم يجتر .

حتى قَلَّوْا ، فلتكن الدنيا في أيمنكم أصغر من حُثَالَةِ الْقَرْظِ^(١) وقُرَاضَةِ الْجَلَمَيْنِ ،
واتعظوا بمن كان قبلكم ، قبل أن يتعظ بكم من بعدكم ، فارتضوها خميمةً فإنها قد رفضت
من كان أشفع بها منكم .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٤١ : ونهج البلاغة ١ : ٤٠ ، وإيضاح القرآن ٢١٣)

١٦١ - وصيته لابنه يزيد

لما حضرت معاويةَ الوفاةَ ، ويزيدُ غائبٌ ، دعا معاويةَ مُسْلِمَ بْنَ عُقْبَةَ الرَّمِّيَّ ،
وَالضَّحَّاكَ بْنَ قَيْسِ التَّيْهَرِيِّ ، فقال : أبلغنا عن يزيد وقولاه :

« يا بني ، إني قد كفيتك الشَّدَّ والتَّرَحُّالَ ، وطَأْتُ لك الأمورَ ، وذَلَّتْ لك الأعداءُ .
وأخضعت لك رِقَابَ الْعَرَبِ ، وجمعت لك مالم يحصمه أحدٌ ، فانظر أهلَ الْحِجَازِ ، فإنهم
أصلاك وعِزَّتْكَ^(٢) ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قد عتك فتعده ، وانظر أهلَ الْعِرَاقِ ،
فإن سألوك أن تمزحل عنهم كل يوم عاملاً فاضل ، فإنَّ عَزْلَ عَامِلٍ أَهْوَنُ عَلَيْكَ مِنْ سَلِّ
مِائَةِ أَلْفِ سَيْفٍ ، ثم لا تدرى علامَ أنت عليه منهم ؟ ثم انظر أهلَ الشَّامِ ، فاجعلهم
الشُّمَارَ^(٣) دون الدُّنَّارِ ، فإن رَأَيْتَ مِنْ عِدْوِكَ رَيْبٌ ، فارتضهم^(٤) بهم ، فإن

(١) القَرْظُ : ورق السلم أو تمر السطع يدبغ به ، والجلم : مقراض يميزه الصوف . وللقراءة :
ما يسقط منه عند الجز .

قال الجاحظ : « وفي هذه الخطبة أبقاك الله ضروب من العجب . منها أن هذا الكلام لا يشبه السب
الذي من أجله دعاهم معاوية . ومنها أن هذا المذهب - في تصنيف الناس ، وفي الاختيار عنهم ، وعما هم عليه
من التهر والإذلال ، ومن التقية والخوف - أشبه بكلام علي وبجماليته ، وبجمله من جمال معاوية . ومنها أنا لم
نجد معاوية في حال من الحالات يسلك في كلامه مسلك الزهاد ، ولا يذهب مذاهب الباطن ، وإنما نكتب لكم
ونخبر بما سمعناه ، والله أعلم بأصحاب الأخبار وبكثير منهم » .

ونسبها للتبريد الرضى إلى الإمام علي ، وقال هي من كلامه التي لا يشك فيه .

(٢) عِزَّةُ الرَّجُلِ : عِزَّتُهُ الْأَذْنُونُ . (٣) الشُّمَارُ : الثوب يلبس على شعر الجسد ، والدُّنَّارُ :

الذي يلبس فوق الشُّمَارِ . (٤) الرِّبُّ : الضمير للمعصية ، وهو الواحد والجمع ، والذكر والأنثى ، وقد ينشأ
ويجمع ويؤنث .

أظفرك الله بهم ، فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، ولا يُقسموا في غير بلادهم ، فيتأدبوا بنهر أدبهم .

وإني لست أخاف عليك أن ينافذك هذا الأمر إلا أريضة نغر من قريش :
الحسين بن عليّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبي بكر .
فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وَقَّده^(١) الورع ، وإذا لم يبق أحدٌ غيرهُ بايئك ؛
وأما الحسين بن عليّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفَيْكَ الله بمن قَتَلَ أباه وشذله
أُخاه ، ولا أعلن أهل العراق تاركه حتى يُخرجوه فإن خرج وظفرت به ، فاصنع عنه ،
فإن له رَحِمًا^(٢) مائة ، وحقًا عظيمًا ، وقرابة من محمد صلوات الله عليه وسلامه ؛ وأما
ابن أبي بكر ، فإن رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثلهم ، لبست له همةٌ إلا في النساء
والهوى ؛ وأما ابن الزبير ، فإنه خَبَّ خَبِّ^(٣) ، فإن ظفرت به فقطعه إزْبًا إزْبًا^(٤) .
« أو قال » وأما الذي يَحْتُمُ لك جُثُومُ الأسد ، وبرأوك مراوغة الثعلب ، فإن أمكنته
فُرصة وثب ، فذاك ابن الزبير ، فإن هو وثب عليك ، فظفرت به فقطعه إزْبًا إزْبًا ،
واحقن دماء قومك ما استطعت » .

(البيان والتبيين ٢ : ٦٦ وتاريخ الطبري ٦ : ١٧٩ ، المقدم القرطبي ٢ : ١٤١ - ٢٤٩ القنبري ص ١٠٢)

(١) وقته : صرعه وغلبه ، وتركه عليلًا كأوقته . (٢) قرابة . (٣) انظر تفسيرها

في صفحة ١٤١ . (٤) أي مضوا مضوا .

خطب يزيد بن معاوية (توفي سنة ٥٦٤هـ)

١٦٢ - خطبته بعد موت معاوية

« الحمد لله الذي ما شاء صنع : من شاء أعطى ، ومن شاء منع ، ومن شاء خفض ومن شاء رفع . إن أمير المؤمنين كان حَبَلاً من حبال الله ، مدّه ما شاء أن يمدّه . ثم قطعه حين أراد أن يقطعه ، وكان دون مَنْ قَبْلَهُ ، وخيراً ممن يَأْتِي بعده . ولا أزكّيه عند ربه وقد صار إليه . فإن يصفُ فبرحمته . وإن يعاقبه فيذنيه . وقد وُلّيت بعده الأمر . ولست أعتذر من جبل ، ولا أشتغل^(١) بطلب علم ، وعلى رِسْلكم ، إذا كره الله شيئاً غيرَه ، وإذا أحب شيئاً بغيره . »

(المقد للفريد ٢ : ١٤٢ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، حيون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٨)

١٦٣ - خطبة أخرى له

« الحمد لله أحده وأستعينه ، وأؤمن به ، وأتوكل عليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يُضِلّ فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاً لوحيه ، واختاره لرسالته ، بكتاب فعّله وفضّله ، وأعزه وأكرمه ، ونصره وحفّظه ، ضرب فيه الأمثال ، وحلل فيه الحلال ، وحرّم فيه الحرام ، وشرع فيه الدين إعذاراً وإنذاراً ، لئلا يكون

(١) في العقد للفريد : ولا آسى على طلب علم ، ولا آنى من طلب علم .

لنفس على الله حجة بعد الرسل ، ويصكون بلاغاً لقوم عابدين^(١) . أوصيكم بهاد الله
ببقوى الله العظيم الذي ابتدأ الأمور بملكه ، وإليه يصير مصادها ، وانقطع مدتها ،
وتصرم دارها ، ثم إنى أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّتْ بالشهوات ، وراقت
بالقليل ، وأينمت بالفانى ، ونجبت بالماجل ، لا يدوم نعيمها ، ولا تؤمن بجمعها ، أكالة
غواية غيرة ، لا تبقى على حال ، ولا يبقى لها حال . لن تعدوا الدنيا إذا تناهت إلى أمينة
أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله عز وجل : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا لِّحَيَاةِ
الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) نسأل الله ربنا وإلهنا وخالقنا ومولانا أن يجعلنا وإياكم
من فزيع يومئذ آمنين ، إن أحسن الحديث وأبلغ للوهظة كتاب الله ، يقول الله :
(وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِهِ وَانصَبُوا لَكُمْ تُرَجِّمُونَ) أعوذ بالله من الشيطان
الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم : (لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَاعَتَمَرُ^(٣) ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) . (المائدة الفريدة ٢ : ١٤٢)

١٦٤ - خطبة معاوية بن يزيد^(٤) (توفي سنة ٦٤)

أمر معاوية بن يزيد بن معاوية بعد ولايته ، فنودى بالشأم : الصلاة جامعة ،
فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أما بعد : فإنى قد نظرت فى أمركم فضغفت عنه ، فابتنيت لكم رجلا مثل عمر
ابن الخطاب رحمة الله عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده ، فابتنيت لكم سنة فى الشورى

(١) لى مهم العبادة . (٢) ناضرة . (٣) لى حتمك (مشتكم) .

(٤) استخلف فى شهر ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، ولم يلبث فى الخلافة إلا ثلاثة أشهر وقيل أربعين يوما .

مثل ستة عمر فلم أجدها ، فأنتم أولى بأمركم ، فاخاروا له من أحببتم ، فاكنت لأتزوّدّها ميتاً ، وما استتممت بها حياً » .

ثم دخل منزله ولم يخرج إلى الناس ، وتيب حتى مات ^(١) .

(تاريخ الطبري ٧ : ٣٤ ، والفتوح ص ١٠٧ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٧)

١٦٥ - وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر ، وقال له حين ودعه :

« أرسل حكماً ولا توصه ، أي بنى انظر إلى عمالك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم . وإياك أن يظهر لرعيك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبين لك فاكتب إلى يأتك رأي فيه إن شاء الله تعالى ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيك فلا تؤاخذ به عند سورة الغضب ، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطقاً الجرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين واللروة فليكونوا أصحابك وجلساءك ، ثم احرف منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا اقتباس ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » .

(المعتمد التريدي ١ : ٤٩)

(١) قيل دس إليه قس سباً ، وقال بعضهم طعن ، وتوفي وهو ابن ثلاث عشرة سنة وعمانية مشر يوماً وقيل ابن إحدى وعشرين سنة .

خطب عبد الملك بن مروان (توفي سنة ٨١٦ هـ)

١٦٦ - خطبته بمكة

خطب بمكة فقال في خطبته :

« أيها الناس : إني والله ما أنا بالخليفة المستضف (يريد عثمان بن عفان) ولا بالخليفة
اللداهن (يريد معاوية بن أبي سفيان) ولا بالخليفة للأفون^(١) (يريد يزيد بن معاوية)
فمن قال برأسه كذا ، قلنا له بسيفنا كذا » . ثم نزل^(٢) .

(المقدم الفريد ٢ : ١٤٢ و ٢٦٤ والبيان والتهجين ٢ : ٨٥)

١٦٧ - خطبته له موجزة

وخطب على المنبر فقال :

« أيها الناس إن الله حدّ حدوداً ، وفرض فروضاً ، فإزّلم تزددون في الذنوب ،
وتزددون في العقوبة ، حتى اجتمعنا نحن وأثم عند السيف » . (المقدم الفريد ٢ : ٢٦٤)

(١) الأفون : الضعيف الرأى والقل . (٢) قال أبو إسحق النخاس : « أما والله لولا نسيك من

هذا المستضف وسببك من هذا الدهان لكنت منها أبعد من العروق (يفتح العين وتشديد الياء نجم أحمر مقصود)
يطرأ (أقرأ) والله ما أخذتها بمرأاة ، ولا سابقة ، ولا قرابة ، ولا بدعى شوى ، ولا بوصية » .

١٦٨ - خطبته حين قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص^(١)

« ارمؤا بأبصاركم نحو أهل العصية ، واجعلوا سلفكم لن خير منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا^(٢) من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة^(٣) السطوات ، ونجوس خلالكم بوادئ النقمات ، وتطأ رقابكم يشغلها العقوبة ، فتجعلكم همدا رفاتا^(٤) ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا ، فإياي من قول قاتل ، ورشقة جاهل ، وإنما بيني وبينكم أن اسمع النفوة^(٥) ، فاصمم تصميم الحسام للطرور^(٦) ، وأصول صيال الخنيق للوتور^(٧) ، وإنما هي للصاخة والمكافحة ، بقلبات السيوف وأسنة الرماح ، وللماودة لكم بسوء الصباح ، قتال تائب ، وهديل خائب^(٨) ، والتوب مقبول ، والإحسان مهذول ،

(١) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، وانحاز الضمك بن قيس للفهري عن مروان ابن الحكم ، واستأهل الناس ودعا إلى ابن الزبير ، أتى مروان وعمر بن سعيد الأشدق (وهو عمرو بن سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف) فقال الأشدق لمروان : هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لي ولك ، فقال مروان : وما هو ؟ قال : أدعو الناس إليك وأعدك لك على أن تكون لي من بعدك . فقال مروان : لا بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية ، فرغى الأشدق بذلك ودعا الناس إلى يمة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعده خالد ، ثم مات مروان وخلفه ابنه عبد الملك ، ولما اعترم عبد الملك أن يخرج إلى العراق انتال مصعب بن الزبير بنفسه . قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق ، وقد كان أبوك وعدني هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من يلائق معه ما لم يخف عليك ، فاجعل لي هذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شيء ، فلما كان من دمشق حل ثلاث مراحل أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، فرجع إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرو ابن سعيد على أنه الخليفة بعده ففتح له ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله سنة ٦٩ .

(٢) غير بن ، وأغفال جمع غفل كغفل . (٣) الجوح والاجتياح : الإهلاك والاستئصال . (٤) الهامد : البالي من كل شيء ، والرقاات : الخطام . (٥) الفتنة والفتنة : أول التحير قبل أن تستتبته . (٦) المشحود : من الطر : وهو تحديده للسكين وغيرها . (٧) صاحب الوتر : وهو الثار . (٨) هدله يده كضربه : أرغاه ، وهدل الشفر كقشر : استرخى أي ضعف الخائب وخار ، ولعله سائب من الحوب يفتح الماء وضما وهو الإثم . حاب يكذا ثم جوا أي ضعف الأثم الملذب . (١٣) - جمرة خطب العرب - ثان)

لن عرف رُشدَه ، وأبصر حظه ، فانظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، وليكن أهل الطاعة بدأ على أهل الجهل من سفاهتكم ، واستدعوا النعمة التي ابتدأتكم برغبت عيشها ، ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والقدرة ، وآجل الجزاء والمثوبة ، عصمكم الله من الشيطان وقتته ونزغته ^(١) ، وأمدكم بحسن معونته وسفطه ، انهضوا بحكم الله إلى قبض أعطيائكم ، غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرة عليكم .
(صبح الأمل ١ : ٢١٨)

١٦٩ - خطبته لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير ^(٢)

لما قتل عبد الملك مُصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ دخل الكوفة فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :
« أيها الناس إن الحرب صعبة مُرة ، وإن السلم أُنْثَى ومَرسَة ، وقد رَبَفْتُمَا الحرب وَرَبَيْتُمَا ^(٣) ضررناها وألغناها ، فنحن بنوها وهي أُنْثَى . أيها الناس فاستقيموا على سبيل الهدى ، ودعوا الأهواء المُردية ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لاتسلون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ، ولن تزداد بعد الإحذار إليكم والحجة عليكم إلا عقوبة » ، فن شاء منكم أن يسود بعدُ لئلاها فليعدّ ، فإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن ربيعة الأنصاري :

من يَصلُ ناري بلا ذنب ولا تِرة يَصلُ بنار كَرِيمٍ غير غَدَارٍ ^(٤)
أنا للنذير لكم منى مجاهرة كي لا أَلَم على نهي وإنذار

(١) نزغ بينهم : أسد وأغرى . (٢) نسب القلقشندي هذه الخطبة إلى معاوية وذكر أنه خطبها بصيفين (صبح الأمل ١ : ٢١٥) وعزاها القائل في الأمل إلى عبد الملك بن مروان وهو ما ترجمه لما يدل عليه سياق الخطبة . (٣) أي دفعتنا ودفعتنا ، والذين : الدفع ، ومنه اشتقاق الترابية (جمع زينة أو زينة بكسر الزاي وسكون الياء) لأنهم يدفعون أهل النار إلى النار ومنه أيضاً حرب زبون يفتح الزاي . (٤) الترة والوتر : النار .

فإن عَصَيْتُمْ مَقَالِي الْيَوْمَ فَاعْتَرِفُوا أَنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خِزْيًا ظَاهِرًا
لَتَرْجِعُنَّ أَحَادِيثًا مُلَعَنَةً لَمَوْ الْقَسِيمِ وَلَمَوْ الْمُدْلَجِ الْحَارِي^(١)
مَنْ كَانَ فِي نَفْسِهِ حَوَاجَةٌ يَطْلُبُهَا عِنْدِي فَإِنِّي لَهُ رَغْفٌ بِأَحْصَارِ^(٢)
أَقِيمْ عَوِجَتَهُ إِن كَانَ ذَا عِوَجٍ كَمَا يَقُومُ قِدْحَ النَّبْتَةِ الْبَارِي^(٣)
وَصَاحِبِ الْوِثْرِ لَيْسَ الْهَرَمَ مَدْرَكُهُ عِنْدِي ، وَإِنِّي لَمُرَّاك بِأَوْتَارِ
(الأمالي ١ : ١٢)

١٧٠ - خطبته عام حجة

وحج عبد الملك في بعض أحواله ، فأمر الناس بالعطاء ، فخرجت بذرة^(١) مكتوب عليها من الصدقة ، فأبى أهل المدينة قبولها ، وقالوا : إنما كان عطاؤنا من النبي ، فقال عبد الملك وهو على المنبر :

« يا معشر قريش ، مثَلْنَا ومثَلَكُم أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين ، فزلا في ظل شجرة تحت صفاء^(٢) ، فلما دنا الرّواح خرجت إليهما من تحت الصفاء حية تحمل دينارًا ، فألقته إليهما ، فقالا : إن هذا لَمِنْ كَنْزٍ ، فأقاما عليها ثلاثة أيام ، كل يوم يخرج إليهما دينارًا ، فقال أحدهما لصاحبه : إلى متى ننتظر هذه الحية ؟ ألا نقتلها ونخبر هذا الكنز فنأخذه ، فهما أخوه ، وقال : ما تدري لملك تعطب ولا تدرك للسال ، فأبى عليه

(١) أدلج : صار من أول الليل ، فإن صار من آخره فقد ادلج بالثبديد ، والشارى : الذي يسير بالليل .
(٢) المروجاء : الحاجة . وقوله بأحصار : لئى لا أستتر عنه ، ولا أمتنع في الأماكن الحصينة ، من أصرح يقوم : برزوا إلى الصحراء . (٣) العوج بالفتح في كل ما كان متصبا مثل الإنسان والمسا والعود وشبهه ، والعوج بالكسر : ما كان في بسات أو أرض أو معشر أو دين ، قيل يانفح مصدر وبالكسر اسم منه ، والنفح : السهم قيل أن يرأى ويتصل بجمه قداح ، والنبجة واحدة للنج وهو شجر القسي والسمام .
(٤) البيرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار . (٥) الصفاء : الحجر الصلد الضخم .

وأخذ فأساً معه ، وردد الحية حتى خرجت ، فضربها ضربة جرحت رأسها ولم تقتلها . فتارت الحية قتلته . ورجعت إلى جحرها . فقام أخوه فدفعه وأقام حتى إذا كان من الغد خرجت الحية معصوباً رأسها ، ليس معها شيء . فقال لها : يا هذه إلى والله ما رضيت ما أصابك ، ولقد نهيت أخى عن ذلك ، فهل لك أن نجعل الله بيننا أن لا تضربنى ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه ؟ قالت الحية : لا ، قال : ولم ذلك ؟ قالت : إنى لأعلم أن نفسك لا تطيب لى أبداً وأنت ترى قبر أخيك ، ونفسى لا تطيب لك أبداً وأنا أذكر هذه الشجعة^(١) ، وأنشدم شعر الثابتة :

قالت أرى قبراً تراه مُقابلى وضربة فأس فوق رأسى فاغره

فيا مشرقريش وليكم عربن الخطاب ، فكان فظاً غليظاً مضيقاً عليكم ، فسمعتم وأطعتم ، ثم وليكم عثان فكان سهلاً ، فدوّتم عليه فقتلتموه ، وبشئنا عليكم « مُسلماً »^(٢) يوم الحرّة قتلناكم ، فنحن نعلم يا مشرقريش أنكم لا نجبوننا أبداً وأنتم تذكرون يوم الحرّة ، ونحن لا نجيبكم أبداً ونحن نذكر قتل عثان .

(مروج الذهب ٢ : ١٢٩)

١٧١ - خطبته وقد علم بخروج ابن الأشعث

ولما ورد إليه كتاب المجاج ينبئه بخروج ابن الأشعث خرج إلى الناس فقام فيهم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

(١) راجع مجمع البحال البيهقي ٢ : ٦١ في المثل : « كيف أحاولك وهذا أثر فأسك » .

(٢) هو سلم بن عقبة المرى صاحب وقعة الحرّة . وذلك أن أهل المدينة كانوا كرهوا خلافة يزيد ابن معاوية وغلطوه وحسروا من كان بها من بني أمية وأخافوهم ، فوجه إليها مسلم بن عقبة فعاصرها من جهة الحرّة ، « موضع بظاهر المدينة » ودخلها ، ودما الناس البيعة هل أنهم يحول يزيد يحكم في دماهم وأموالهم وأهلهم ماشاء ، وقد أباح المدينة ثلاثاً : فقتل ، ونهب ، وسبى قيل إن الرجل من أهل المدينة بعد ذلك كان إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ، ويقول لها لها انتضت في وقعة الحرّة . « وكانت في ذي الحجة من سنة ٦٣ هـ » .

« إن أهل العراق طال عليهم عمرى ، فاستمحبوا قَدْرى ، اللهم سلط عليهم سيوف
أهل الشام حتى يلبتوا رضاك ، فإذا بلبتوا رضاك لم يجاوزوا إلى سخطك » ثم نزل .
(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

١٧٢ - وصيته لبعض أمرائه

وأوصى عبد الملك أميراً سيّره إلى أرض الروم ، فقال :
« أنت تاجر الله لبياده ، فكن كالضارب السكّيس الذى إن وجد ربّاً تاجر ،
وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تُحرز السلامة ، وكن من احتياك
على عدوك أشدّ حذراً من احتيال عدوك عليك » .
(العقد الفريد ١ : ٤١)

١٧٣ - وصيته للشّعبى

وروى السعوى فى مروج الذهب قال :
ولما أفضى الأمر إلى عبد الملك بن مروان ، تافت نفسه إلى محادثة الرجال والأشراف
فى أخبار الناس ، فلم يجد من يصلح لمنادمته غير الشّعبى ، فلما حُلّ إليه وناداه ،
قال له :

« يا شّعبى ، لا تساعِدنى على ما قُبِح ، ولا تَرُدْ على الخطأ فى مجلسى ، ولا تكلفنى
جواب التّشبيّت^(١) والتهنئة ، ولا جواب السّؤال والتمزية ، ودع عنك (كيف أصبح
الأمير ، وكيف أمسى) . وكلّى بقدر ما استطِمْك ، واجعل بدل اللّح لى صواب
الاستماع منى ، واعلم أنّ صواب الاستماع أكثر من صواب القول ، وإذا سمعْتنى أحدث
فلا يفوتنك منه شيء ، وأرى فى فهمك من طَرَفك وسمْعك ، ولا تُجهد نفسك فى نظَر^(٢)

(١) التّشبيّت: التّناءى بالمطس . (٢) فى الأصل « فى نظرية صوابى » وأراه محرفاً ، والنظر: الانتظار .

صوابى . ولا تستدع بذلك الزيادة فى كلامى ، فإن أسوأ الناس حالا من استكدَّ الملوك بالباطل ، وإن أسوأ الناس حالا منهم من استخفَّ عنهم ، واعلم يا شهمى أن أقل من هذا يذهب بسالف الإحسان ، ويُتقط حق الحرمة . فإن العصمت فى موضعه ربما كان أبلغ من النطق فى موضعه وعند إصاحته وفرصته .
(مروج الذهب ٢ : ١٠٩)

١٧٤ — وصيته لآخيه عبد العزيز بن مروان

وأوصى عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز حين ولاه مصر فقال :
« ابسط يَشْرَكَ ، وألن كنفَكَ . وآثر الرفق فى الأمور ، فإنه أبلغ بك . وانظر حاجبك ، فليكن من خير أهلك ، فإنه وجهك ولسانك ، ولا يَقْنَأَ أحد بيباك إلا أعلمك مكانه ، لتكون أنت الذى تأذن له أو تَرُدَّه ، وإذا خرجت إلى مجلسك فابدأ بالسلام ، يأنسوا بك ، وتثبت فى قلوبهم محبتك ، وإذا انتهى إليك مُشْكِلٌ ، فاستظفر عليه بالمشاورة ، فإنها تفتح مقاليد^(١) الأمور ، وإذا سخطت على أحد فأخّر عقوبته ، فإنك على العقوبة بعد التوقف عنه أقدرُ منك على ردّها بعد إمضاءها » .
(الغنى : ١١٣)

١٧٥ — وصيته لولده عند وفاته

نظر عبد الملك إلى ابنه الوليد وهو يبكى عليه عند رأسه ، فقال :
« يا هذا أختين الحماة ؟ إذا أنا ميتٌ فشمّر واتزر ، والبس جلد تمر ، وضع سيفك على عاتقك ، فن أبدي ذات نفسه لك ، فاضرب عنقه ، ومن سكنت مات بدائه ،

(١) جمع مفلح بكسر الميم : وهو ما يلقب به الباب .

ثم أقبل عبد الملك يذم الدنيا ، فقال : « إن طوبى لك قصير ، وإن كثير لك قليل ، وإن كنا منك لنى غرور » . ثم أقبل على جميع ولده فقال : « أوصيكم بتقوى الله ، فإنها حصنة باقية ، وجنة واقية ، فالتقوى خير زاد ، وأفضل فى الماد ، وهى أحسن كهف ، وليتخطف الكبير منكم على الصغير ، وليرف للصغير حق الكبير ، مع سلامة الصدور ، والأخذ بحبل الأمور . وإياكم والبنى والتحامد ، فيها هلك الملوك للماضون ، وذو العز للمكين يا بنى : أخوكم مسئلة نابكم الذى تفرّون^(١) عنه ، ويحشركم^(٢) الذى تستعجلون به ، اسدروا عن رايه ، وأكرموا المحتاج فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، كونوا أولادا أبراراً ، وفى الحروب أحراراً ، والمعروف مناراً ، وعليكم السلام » .

(مروج الذهب ٢ : ١٥٤)

١٧٦ — خطبة للوليد بن عبد الملك بعد دفن أبيه (توفى سنة ٨٩٦ هـ)

لما رجع الوليد من دفن عبد الملك لم يدخل منزله حتى دخل المسجد ، ونادى فى الناس الصلاة جامعة ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس إنه لا مؤخر لما قدّم الله ، ولا مقدم لما أخر الله ، وقد كان من قضاء الله وسابق حكمه ، وما كتب على أنبيائه ، وسحابة عرشه من الموت موتى هذه الأمة ، ونحن نرجو أن يصير إلى منازل الأبرار ، الذى كان عليه من الشدة على المريب ، واللين على أهل الفضل والدين ، مع ما أقام من سنن الإسلام وأعلامه ، وحج هذا البيت ، وغزو هذه الثغور ، وشنّ الفارات على أعداء الله فلم يكن فيها عاجزاً . ولا وائياً ، ولا مفرطاً ، فليكن أيها الناس بالطاعة ، ولزوم الجماعة ، فإن الشيطان مع القد ، وهو من الجماعة أبعد ، واعلموا أنه من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذى فيه عيناه ، ومن سكّت مات بدائه » . ثم نزل .

(المقتدر ٢ : ١٤٢ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

(١) فرّ القادة : كشف من استأنها لينظر ماسئها . (٢) المكين : المكين : الترس .

١٧٧ - خطبة لسليمان بن عبد الملك (توفي سنة ٩٩ هـ)

« الحمد لله . ألا إن الدنيا دار غُرُور ، ومنزلٌ باطل ، تُضَعِّكُ بِأَكْيَا ، وتُبْكِي ضاحكا ، وتخيف آمنا ، وتؤمن خائفا ، وتُفْقِرُ مثرى ، وتُثْرِي مُقْتَرَا ^(١) مَيَّالَةَ غَرَّارَةِ ، لَمَّايَةَ بَاهِلَهَا . عباد الله ، فاتخذوا كتاب الله إمامًا ، وارتضوا به حَكَمًا ، واجعلوه لكم قائداً ، فإنه ناسخ لما كان قبله ، ولم يَنْسَخْهُ كتاب بعده . واعلموا عباد الله أن هذا القرآن يحلو كيد الشيطان ، كما يحلو ضيوع الصبح إذا تنفس ظلام الليل إذا هَمَسَ ^(٢) . »

(الفتحة الفريد ٢ : ١٤٣ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والبيان ١ : ١٦٦)

(١) من أقر ، أى اختار . (٢) تنفس الصبح : استقر ، وسمس الليل : أقبل ظلامه (أو أدير) .

خطب عمر بن عبد العزيز (توفي سنة ٥١٠ هـ)

١٧٨ - أولى خطبه

قال العُتْبِيُّ : أول خطبة خطبها عمر بن عبد العزيز رحمه الله قوله :
« أيها الناس ، أصليحوا سرائركم ، تصالح لسم علايتكم ، وأصليحوا آخرتكم ،
تصلح دنياكم ، وإن اسراً ليس بينه وبين آدم أب حتى لمُحَرِّق في اللوت » .
(العقد للقرئيد ٢ : ١٤٣ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٧)

١٧٩ - خطبة له بالمدينة

وفي سنة ٨٧ هـ وتي الوليد عمر بن عبد العزيز للمدينة فلما قدمها صلى الظهر ودعا عشرة
من قضاها ، فدخلوا عليه فجلسوا فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :
« إني إنما دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكفونون فيه أعوانا على الحق ، ما أريد
أن أطلع أمرا إلا برأيكم أو برأي من حضر منكم ، فإن رأيتم أحدا يتعدى أو يلبسكم
عن عامل لي علامة فأحرِّج^(١) الله على من يلبس ذلك إلا بقتى » .
فخرجوا يمجزونه خيرا .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦١)

(١) التصريح . التضييق ، أي فأشدد عليه بانه .

١٨٠ - خطبة أخرى

وروى للسعدي في مروج الذهب ، أنه لما أفضى إليه الأمر ، كان أول خطبة
خطب الناس بها أن قال :

« أيها الناس ، إنما نحن من أصول قد مضت فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟
وإنما الناس في هذه الدنيا أغراض تنتضِل^(١) فيهم النايا ، وهم فيها نُصَبُ المصائب ، مع
كل جرعة شَرَق^(٢) ، وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ،
ولا يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ منكم يوماً من عمره إلا يَهْدَمَ آخر من أجله » .

وأورد القالي في الأمالي هذه الخطبة بصورة أطول ، وهي :

« ما الجزع مما لا بُدَّ منه ، وما الطمع فيما لا بُرْجى ، وما الحيلة فيما سيزول ؟ وإنما
الشيء من أصله ، فقد مَضَتْ قبلنا أصول نحن فروعها ، فما بقاء فرع بعد أصله ؟ وإنما الناس
في الدنيا أغراض تنتضِل فيهم النايا ، وهم فيها نُصَبُ المصائب ، مع كل جرعة شَرَق ،
وفي كل أكلة غَصَص ، لا ينالون نعمة إلا بفراق أخرى ، ولا يَصِرُّ مُعَمَّرٌ يوماً من عمره
إلا يهدم آخر من أجله ، وأنتم أعوان الخوف على أنفسكم ، فأين المَهْرَب مما هو كائن ؟
وإنما تنقلب في قدرة الطالب ، فما أصغر المصيبة اليوم ، مع عظيم الفائدة غداً ، وأكبر
خيبة الخائب فيه ، والسلام » .

(مروج الذهب : ٢ : ١٦٨ ، والامال : ٢ : ١٠٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) جمع غرض : وهو المدف ، وانتضلت : تناخلت وتبارت في الزم .

(٢) شرق بريقه : غص .

١٨١ - خطبة أخرى

وروى أنه لما دَفَنَ سليمان بن عبد الملك ، وخرج من قبره ، سمع للأرض رَجَّةً ، فقال : ما هذه ؟ فقيل : هذه مَرَاكِبُ الْخِلَافَةِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قُرِبَتْ إِلَيْكَ لَتَرْكِبَهَا ، فقال : سَالِي وَلَمَّا ؟ نَحْوَهَا عَنِّي ، قُرَّبُوا إِلَيَّ بِقُلُقَى ، فقربت إليه فركبها . وجاءه صاحب الشَّرْطَةِ يسير بين يديه بِالْحَرْبَةِ ، فقال : تَنَحَّ عَنِّي ، مَالِي وَلَكْ ؟ إِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَارْوَاسِرْ مَعَهُ النَّاسُ ، حَتَّى دَخَلَ الْمَسْجِدَ ، فَصَدَّ الْمَنْبَرُ ، وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ ابْتَلَيْتُ بِهَذَا الْأَمْرِ عَنْ غَيْرِ رَأْيٍ كَانَ مِنِّي فِيهِ ، وَلَا طَلِبَةَ لَهُ ، وَلَا مَشُورَةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنِّي قَدْ خَلَعْتُ مَائِقَ أَهْنَاكُم مِّنْ بَيْعَتِي ، فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ » .

فصاح الناس صيحةً واحدةً : قَدْ اخْتَرْنَاكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَضِينَا بِكَ ، فَلَمْ أَمْرَنَا بِالْيَمْنِ وَالْبَرَكَةِ ، فَلَمَّا رَأَى الْأَصْوَاتُ قَدْ هَدَأَتْ ، وَرَضَى بِهِ النَّاسُ جَمِيعًا ، حمد الله ، واثني عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، وقال :

« أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ خَلَفَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَيْسَ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ عَزٌّ وَجَلٌّ خَلَفَتْ ، وَاحْمِلُوا لِآخِرَتِكُمْ ، فَإِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِآخِرَتِهِ كَفَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَمْرَ دُنْيَاهُ وَأَصْلَحُوا سِرَائِرَكُمْ ، يُصْلِحَ اللَّهُ الْكَرِيمَ عِلَاقَتَكُمْ ، وَأَكْثَرُوا ذِكْرَ الْمَوْتِ وَأَحْسِنُوا الْاِسْتِئْذَانَ قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ بِكُمْ ، فَإِنَّهُ هَادِمُ الْاِذْدَاتِ ، وَإِنْ مِنْ لَازِكٍ مِنْ آبَائِهِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا حَيٍّ لَمُتْرَقٍ فِي الْمَوْتِ ، وَإِنْ هَذِهِ الْأُمَّةُ لَمْ تَخْتَلَفْ فِي رِبْهَا عَزٌّ وَجَلٌّ ، وَلَا فِي نَبِيِّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَا فِي كِتَابِهَا ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفُوا فِي الدِّينَارِ وَالْدِرْهَمِ ، وَإِنِّي وَافَقُ لَا أُعْطِي أَحَدًا بِاطْلَالٍ ، وَلَا أَمْنَعُ أَحَدًا حَقًّا ، إِنِّي لَسْتُ

بخازن ، ولكنى أضع حيث أمرتُ . أيها الناس : إنه قد كان قبل ولادة نَحْتَرُونَ^(١) مودتهم ، بأن تدفوا بذلك ظلمهم عنكم ، ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، من أطاع الله وجبت طاعته ، ومن عصى الله فلا طاعة له ، أطيعوني ما أطعتُ الله فيكم ، فإذا عصيتُ الله فلا طاعة لي عليكم . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله العظيم لي ولكم .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٣ - ٢٠١ ، ولابن عبد الحكم ص ٣٩)

١٨٢ - خطبة أخرى

وروى أنه لما ولي الخلافة صمد النبر ، وكان أول خطبة خطبها : حمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أيها الناس من حَبِينَا فَلْيَصْحَبْنَا بِخَمْسٍ ، وإلا فلا يَقْرَبْنَا : برفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويُعيننا على الخير بمجده ، ويدلنا من الخير على ما لا نَهْتَدِي إليه ، ولا يفتَابِنُ عندنا الرعية ، ولا يمترض فيها لا يمينه . »

فانقش عنه الشراء والخطباء ، وثبت الفقهاء والزهاد ، وقالوا : ما يسعنا أن نفارق هذا الرجل ، حتى يخالف قوه ففعله .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٦)

١٨٣ - خطبة أخرى

وصد للنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، أيها الناس ، إنه ليس بعد نبيكم صلى الله عليه وسلم نبي ، وليس بعد الكتاب الذى أنزل عليه كتاب ، فما أحل الله على لسان نبيه فهو حلال إلى يوم القيامة

وما حرم الله على لسان نبيه فهو حرام إلى يوم القيامة ، ألا إنى لست بقاضٍ ، ولكنى متفدُّ لله ، ولست بمبتدع ، ولكنى متَّبِع ، ألا إنه ليس لأحد أن يطاعَ في معصية الله عز وجل ، ألا إنى لست بغيركم ، وإنما أنا رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حِمْلًا . يَا أَيُّهَا النَّاسُ : إِن أَفْضَلَ الْعِبَادَةِ أَدْلَاهُ الْفَرَائِضُ ، وَاجْتِنَابُ الْحَرَامِ . أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٥٦ ، وص ١٩٨ ، ولاين عبد الحكم ص ٣٨ ، ومروج الذهب ٢ : ١٦٨)

١٨٤ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ مَيْتُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ ، ثُمَّ إِنَّكُمْ مُحَاسَبُونَ ، فَلَعْمَرَى لئن كنتم صادقين لقد قصّرتُم ، وإن كنتم كاذبين لقد هلكتم . يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّهُ مِنْ يَدِّ رَازِلِهِ رِزْقُ بَرَأْسِ جَبَلٍ ، أَوْ بِحَضِيضِ أَرْضٍ يَأْتِيهِ ، فَأَتَجَلَّوْا فِي الطَّلَبِ » :

(إعجاز القرآن ص ١٢٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٨٥ — خطبة أخرى

وخطب فقال :

« إِنَّ الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِدَارِ قَرَارٍ ، دَارُ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهَا الْفَنَاءَ ، وَكَتَبَ عَلَى أَهْلِهَا مِنْهَا الظَّنَّ ، فَكَمْ عَامِرٍ مُؤْتَقٍ عَمَّا قَلِيلٍ يَخْزِبُ ، وَكَمْ مُقِيمٍ مُعْتَبِطٍ عَمَّا قَلِيلٍ يَظُنُّ ، فَأَحْسِنُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ مِنْهَا الرَّحْلَةَ ، بِأَحْسَنِ مَا يَحْضُرُكُمْ مِنَ النُّقْلَةِ : وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَتَفٌ خَلَّالٌ قَلَمٌ ^(١) فَذَهَبَ ، بَيْنَا بَيْنُ آدَمَ فِي الدُّنْيَا مَفَافِسُ ، وَبِهَا قَرِيرُ عَيْنٍ ،

(١) القلم : ما كان شمساً فينسخه الظل ، وتلص التل كضرب : انقبض .

إذ دعاه الله بقدره ورماء يوم حَتَفِهِ ، فسَلَبَهُ آثَارَهُ ودِيارَهُ ودُنْيَاهُ ، وصَيَّرَ لِقَوْمِ آخِرِيزِ
مَصَانِعَهُ وَمُفَنَّنَاهُ^(١) ، إِنْ الدُّنْيَا لَأَتَسَرَّ بِقَدْرِ مَا تَسَرَّ ، إِنْهَا تَسَرُّ قَلِيلًا ، وَتَجِرُّ حَزَنًا طَوِيلًا .
(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ١٩٧ ص ٢٢١)

١٨٦ - خطبة له يوم عيد

وخطب يوم عيد ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم تلا ثلاث آيات من كتاب الله عز وجل
ثم قال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي وَجَدْتُ هَذَا الْقَلْبَ لَا يَمُورُ عَنْهُ إِلَّا اللِّسَانُ ، وَلَمْ تَمُرْ
- وَإِنْ لِمَمْرِي مَنَى لَحْفًا^(٢) - لَوْ دِدْتُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ عَبْدٌ ابْتُلِيَ بِسَمَةِ ، إِلَّا نَظَرْتُ
قَطِيعًا مِنْ مَالِهِ ، يَجْمَعُهُ فِي الْفُقَرَاءِ وَالسَّاكِينِ ، وَالْيَتَامَى وَالْأَرَامِلِ ، بَدَأْتُ أَنَا بِنَفْسِي
وَأَهْلِي بِنَفْسِي ، ثُمَّ كَانَ النَّاسُ بَعْدُ » .

ثم كان آخر كلمة تسلم بها حين نزل : « لَوْلَا سُنَّةُ أَحْيَيْتُهَا ، أَوْ بَدَعَةُ أَمْتُهَا ،
لَمْ أَبَالِ أَنْ لَا أَبْقَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا قُرْآنًا^(٣) » . (سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٠١)

١٨٧ - خطبة له

وخطب فقال :

« أَمَا بَعْدُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، فَلَا يَطْلُوَنَّ عَلَيْكُمْ الْأَمَدُ ، وَلَا يَمُدُّنَّ عَنْكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،
فَإِنْ مِنْ زَاغَتْ^(٤) بِهِ مَنِيَّتُهُ ، فَقَدْ قَامَتْ قِيَامَتُهُ ، لَا يَسْتَتِيبُ مِنْ سَيِّئٍ ، وَلَا يَزِيدُ فِي حَسَنٍ ،

(١) المصانع : المباني من القصور والمصون ، والمغنى : المنزل . (٢) المر بالفتح والضم :
الحياة ، والتزموا للفتوح في القمم خاصة تخفيفا ، لكثرة استعماله فيه . (٣) الفواق كقراب ويفتح :
ما بين الخطين من الوقت ، أو ما بين فتح يذك وقبضها على الضرع . (٤) من زافت الحماسة : إذا نشرت
حناحيها وذنبها وسحبها على الأرض ، وفي رواية : « وانته » .

ألا لاسلامه لامرئ في خلاف السنة ، ولا طاعة لخلق في معصية الله ، ألا وإنكم
تَمْدُونُ الحارِبَ مِنْ ظُلْمِ إمامه عاصياً ، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم ، ألا وإنى
أعالجُ أمراً لا يُؤمنُ عليه إلا الله ، قد فني عليه الكبير ، وكبر عليه الصغير ، ونصَحُ عليه
الأنجى ، وهاجر عليه الأعرابى ، حق حِسْبوهُ دِيناً ، لا يَرَوْنَ الحقَّ غيرَهُ . ثم قال :
« إنه لحبيبٌ إلى أن أوفرُّ أموالكم وأعراضكم إلا بحَقِّها ، ولا قوَّةَ إلا بالله » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ٤٠ ، ولابن الجوزى ص ٢٠٤)

١٨٨ - خطبة أخرى

وصعد ذات يوم المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أيها الناس ، إنما يُرادُّ الطيبُ للرجع الشديد ، ألا فلا وجَّعَ أشدُّ من الجَلْبِ ،
ولا داءٌ أخبثُ من الذنوب ، ولا خوفٌ أخوفُ من الموت » . ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ٢٠٧)

١٨٩ - خطبة أخرى

وصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإن هؤلاء القوم قد كانوا أعطونا عطايا^(١) ، والله ما كان لهم أن
يُسَطِّطُواها ، وما كان لنا أن نَقْبَلَهَا ، وإن ذلك قد صار إلى ، ليس طيٌّ فيه
دون الله محاسبٌ ، ألا وإنى قد رَدَدْتُها ، وبدأت بنفسي وأهل بيتي » اقرأ يا مُزاحِم
- وكان مولاه -

وقد جرى قبل ذلك بسَطُّ فيه تلك الكتب ، فقرأ مزاحم كتاباً منها ، ثم ناوله

(١) يريد آباءه وما ورثوه لياه .

عمر ، وهو قاعد على النير وفي يده جِلْمٌ^(١) ، فجعل يقطعهُ ، واستأنف مزاحم كتاباً آتَ فقرأهُ ، ثم دفعهُ إلى عمر فقصهُ ، فلما زال حتى نُودى بصلاة الظهر .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩٠ — خطبة له

وكان يغضب فيقول :

« أيها الناس : من أَلَمَ بِذَنْبٍ فَلْيَسْتَغْفِرِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَلْيَتُبْ ، فَإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرْ وَلْيَتُبْ .
فإِنْ عَادَ فَلْيَسْتَغْفِرْ وَلْيَتُبْ ، فَإِنَّمَا هِيَ خَطَايَا مَطْوُوعَةٌ فِي أَعْنَاقِ الرِّجَالِ ، وَإِنَّ الْهَلَكَ كُلَّ
الْهَلَكَ الْإِمْرَارُ عَلَيْهَا » .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ص ١٩٨)

١٩١ — خطبة له

وخطب الناس بعد أن جمعهم فقال :

« إني لم أجعلكم لأمرٍ أحدثته ، ولكفى نظرت في أمر معادكم ، وما أنتم إليه
صائرُونَ ، فوجدت للصدق به أحقُّ^(٢) ، والمكذب به هالكاً » ثم نزل .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ص ٣٩)

١٩٢ — خطبة له

وخطب فقال :

« أيها الناس ، لا تستصبروا الذنوب ، وانتمسوا بتحصيل ما سَلَفَ مِنْهَا بالتوبة منها .
إِنَّ الْحَسَنَاتِ يَذْهَبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرِي لِذَلِكَ كَرِهْتُ . وقال مرةً وجل : « وَالَّذِينَ

(١) مقص . (٢) أي أحق بهواب الله ونعيم جنة .

إِذَا قَعَلُوا فَاجِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ دَكَّرُوا اللَّهَ فَأَسْتَفْقَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَنْفِرْ
الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ .

(العنكبوت ٢ : ٢٧٩)

١٩٣ - خطبة له

وخطب فقال :

« إن لكل سقر زاداً لا محالة ، فتزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة ، وكونوا
كن عين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه ، فرغبوا ورهبوا ، ولا يطولنَّ عليكم الأمد ،
فتفسدوا قلوبكم ، وتفقادوا لمدرك ، فإنه والله ما يُبسط أمل من لا يدري لعله لا يُصبح
بعد إمسه ، ولا يُتمنى بعد إصابه ، وربما كانت بين ذلك خطافات الناي ، فكم رأينا
ورأيت من كان بالدنيا متفرغاً ، فأصبح في حبال خطوبها ومناياها أسيراً ، وإنما تفرغ عين^(١)
من وثق بالنجاة من عذاب الله ، وإنما يفرح من آمن من أهوال يوم القيامة ، فأما من لا يبرأ
من كلِّ إلا أصابه جراح من ناحية أخرى ، فكيف يفرح ؟ أعود بالله أن أمركم
بما أنهى عنه نفسي ، فتخسر صفتي ، وتظهر عورتي ، وتبدو مشككتي ، في يوم يبدو
فيه النني والفقير ، والموازين منصوبة ، والجوارح ناطقة ، فلقد عُنيتم بأمر لو عُنيتم به
النجوم لانكدرت ، ولو عُنيتم به الجبال لذابت ، أو الأرض لانفطرت ، أما تطولون
أنه ليس بين الجنة والنار منزلة ، وأنكم صائرُونَ إلى إحداهما ؟ »

(شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٧٠ ، والفتح المفيد ٢ : ١٤٣ ،

وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٩٦)

(١) قوت عينه : بردت وانقطع بكافها ، أو وأت ما كانت مثبوتة إليه .

١٩٤ - خطبة له

وروى أنه قال :

« من وصل أخاه بنصيحة له في دينه ، ونظر له في صلاح دنياه ، فقد أحسن صلته ، وأدى واجب حقه ، فاتقوا الله فإنها نصيحة لكم في دينكم ، فاقبلوها ، وموعظة مُنْجِيَّة في العواقب ، فالتزموها ، الرزق مقسوم ، فلن يمدو^(١) للأومن ما قُسم له ، فأتجملوا في الطلب ، فإن في القنوع^(٢) سعةً وبُخلة ، وكفافاً ، إن أجل الدنيا في اعتناقكم ، وجهنم أمامكم ، وما ترون ذاهب ، وما مضى فمكان لم يكن وكل أموات عن قريب ، وقد رأيتم حالات الميت وهو يسوق^(٣) ، وبعد فراغه وقد ذاق الموت ، والقوم حوله يقولون قد فرغ رحمه الله ، وعابتم تسجيل إخراجها ، وقسمة ثرائه ، ووجهه مفقود ، وذكره منسى ، وبابه مهجور كأن لم يخاطب لإخوان الحفاظ^(٤) ، ولم يعمّر الديار ، فاتقوا هول يوم لا يُحقر فيه متقال ذرة في الموازين . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤٠ ، وصيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ٢٠٥)

١٩٥ - خطبة له

وقال : « من عمل على غير علم كان ما يُفسد أكثر مما يُصلح ، ومن لم يمدّ كلامه من عمله كثرت ذنوبه ، والرضا قليل ، ومُتَوَلِّ المؤمن الصبر ، وما أنعم الله على عبد نعمة ثم انتزعها منه ، فأعاضه بما انتزع منه الصبر ، إلا كان ما أعاضه خيراً مما انتزع منه ، ثم قرأ هذه الآية : « إِنَّمَا يَوَقُّ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » . »

(تاريخ الطبري ٨ : ١٤١ ، وصيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٣)

(١) وفي رواية : « فلن يمدد » ، أغدده وغادده : تركه . (٢) القنوع : الرضا بالقسم (وهو أيضا السؤال والتفأل) . (٣) ساق للمريض : شرع في نزع الروح . (٤) أى المحافظة على وده .

١٩٦ - خطبة له

وحدث شبيب بن شيبة ، عن أبي عبد الله قال : كنت من حرس الخلفاء قبل عمر ، فكنا نقوم لهم ، ونيدؤهم بالسلام ، فخرج علينا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه في يوم عيد ، وعليه قميص كفتان ، ورمامة على قنسوة لاطئة^(١) ، فثلنا بين يديه ، وسلمنا عليه ، فقال : مه أنتم جماعة وأنا واحد ، السلام على ، وأرد عليكم ، وسلم فردنا ، وقربت له دابة فاعرض عنها ، ومشي ومشينا ، حتى صعد المنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« وَدِدْتُ أَنْ أَغْيَاءَ النَّاسِ اجْتَمَعُوا ، فَرَدُّوا عَلَى قُرَائِهِمْ ، حَتَّى نَسْتَوِيَ مَعَهُمْ ، وَأَكُونَ أَنَا أَوْلَهُمْ » ، ثم قال : « مَالِي وَلَدُنِي ؟ أَمْ مَالِي وَلَمَّا ؟ وَتَكَلِّمُ فَارِقَ » : حتى بكى الناس جميعاً ، يميناً وشمالاً ، ثم قطع كلامه ونزل ، فدنا منه رجاء بن حيوة ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، كلت الناس بما أرق قلوبهم وأبكاهم ، ثم قطعت أحوج ما كانوا إليه ، فقال : يا رجاء إن أكره للبلهة .

(لقد لقيه ٢ : ١٤٣)

١٩٧ - آخر خطبة له

وخطب بخنصرة^(٢) خطبة لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّكُمْ لَمْ تَحْقُقُوا مَعِيَّتًا ، وَلَمْ تُتَزَكُوا سُدًى ، وَإِنْ لَكُمْ مَعَادًا بِحُكْمِ اللَّهِ فِيهِ بَيْعُكُمْ ، فَخَبِّ وَخَيْرٍ مِنْ خُرُوجٍ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وَسَّيَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، وَحُرِّمَ الْجَنَّةُ الَّتِي عَزَمَتْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْأَمَانَ غَدًا لِمَنْ خَافَ رَبَّهُ ، وَبَاعَ قَلِيلًا بِكَثِيرٍ

(١) لاطئة : لينة . (٢) خنصرة : بلد بالشام من عمل حلب .

وفانياً يباق ، ألا تَرَوْنَ أَنسَكُمْ فِي أَسْلَابِ^(١) الْمَالِكِينَ ، وَسَيُخْلِفُهَا مِنْ بَعْدِكُمُ الْبَاقُونَ ، كَذَلِكَ حَتَّى تُرْثُوهَا إِلَى خَيْرِ الْوَارِثِينَ ، ثُمَّ أَنْتُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ تَتَشَيَّعُونَ غَادِيًا وَرَائِحًا إِلَى اللَّهِ ، قَدْ قَضَى تَحْبَهُ^(٢) وَبَلَغَ أَجْلَهُ ، ثُمَّ تَتَشَيَّعُونَ فِي صَدْعِ^(٣) مِنَ الْأَرْضِ ، ثُمَّ تَدْعُوهُ غَيْرَ مُوسِدٍ وَلَا مُجْتَمِدٍ ، قَدْ خَلَعَ الْأَسْبَابَ ، وَفَارَقَ الْأَحْبَابَ ، وَوَجَّاهُ الْحِسَابَ ، مَرْتَهَنًا بِعَدْلِهِ ، غَنِيًا عَمَّا تَزْكُ ، فَقِيرًا إِلَى مَا قَدَّمْ ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنِّي لَأَقُولُ لَكُمْ هَذِهِ لِقَائُهُ وَمَا أَعْلَمُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْكُمْ مِنَ الْقُدُوبِ أَكْثَرَ مِمَّا عِنْدِي ، فَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكُمْ ، وَمَا تَبَلَّفُنَا عَنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ حَاجَةٌ يَتَسَعَّ لَهَا مَا هَدَيْنَا إِلَّا سَدَدْنَاهَا ، وَلَا أَحَدٌ مِنْكُمْ إِلَّا وَدِدْتُ أَنْ يَدُهُ مَعَ يَدِي ، وَلِحَقِّي^(٤) الَّذِينَ يَأُولُونِي ، حَتَّى يَسْتَوِيَ مَيْتَسْنَا وَعَيْشُكُمْ ، وَإِيمُ اللَّهِ إِنِّي لَوَارِدْتُ غَيْرَ هَذَا مِنْ عَيْشٍ أَوْ غَضَارَةٍ^(٥) لِيَكُنَّ الْإِنْسَانُ مَنًى نَاعِلًا ذُلُولًا ، عَالِمًا بِأَسْبَابِهِ ، لَكِنَّهُ مَضَى مِنَ اللَّهِ كِتَابُ نَاطِقٍ وَسِنَّةٌ عَادِلَةٌ ، دَلَّ فِيهَا عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنَهَى فِيهَا عَنْ مَعْصِيَتِهِ ، ثُمَّ بَكَى ، فَخَلَقَ دُجُوعَ عَيْنِيهِ بِطَرَفِ رِدَائِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ ، فَلَمْ يَرَّ عَلَى تِلْكَ الْأَمْوَادِ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ .

(١) الْبَيَانُ وَالْتَبْيِينُ ٢ : ٦٠ ، وَالْبَقْدُ الْفَرِيدُ ٢ : ١٤٤ ، وَتَارِيخُ الطَّبَرِيِّ ٨ : ١٤٠ ، وَشَرْحُ
ابْنِ أَبِي الْحَدِيدِ ١ : ص ٤٧٠ ، وَالْأَفْهَامُ ٨ : ١٥٢ ، وَحِوَارُ الْأَنْبِيَاءِ ٢ : ص ٢٤٦ ،
وَسِيرَةُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِابْنِ الْجَوْزِيِّ ص ٢٢٢ ، وَلِابْنِ عَبْدِ الْحَكَمِ ص ٤١ وَ ١٣٦)

١٩٨ - خطبة أخرى

وَرَوَى أَنَّ آخِرَ خُطْبَةٍ خَطَبَهَا رَحِمَهُ اللَّهُ : حَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :
« أَيُّهَا النَّاسُ . احْلُقُوا بِلَادَكُمْ ، فَإِنِّي أَنَا كُمْ عِنْدِي ، وَأَذْكُرْكُمْ بِلَادَكُمْ ، أَلَا وَإِنِّي
قَدْ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ رِجَالًا ، لَا أَقُولُ « ثُمَّ خِيَارُكُمْ ، وَلَكِنَّهُمْ خَيْرٌ مِنْ هُمُ شَرُّهُمْ ،
أَلَا فَنَ ظَلَمَهُ عَالِمُهُ بِمُظْلَمَةٍ فَلَا إِذْنَ لَهُ عَلَيَّ^(١) ، أَلَا وَإِنِّي مَنَعْتُ نَفْسِي وَأَهْلَ بَيْتِي هَذَا

(١) جَمَعَ سَلْبَ بِالْتَصْرِيكِ : وَهُوَ مَا يَلْبَسُ . (٢) الْقَتَبُ : الْأَجَلُ ، وَالْحَاجَةُ ، وَالنَّزَرُ .
(٣) شَقٌّ . (٤) الْحَمَةُ : الْقَرَابَةُ . (٥) الْغَضَارَةُ : الْقَتْلَةُ ، وَالسَّيَّةُ ، وَالْحَصْبُ .
(٦) أَيْ يَدْخُلُ عَلَى بِلَا إِذْنَ ، لَا يَحْمِلُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ .

المال ، فإن صَلَّيْتُ به عليكم إلى إذن لصين ، والله لولا أن أُنشِسَ^(١) سُنَّةً ، أو أُسِيرَ بحق ، ما أُحْبِيت أن أعيش فَرَاقًا .

(سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢١٠ ، ولابن عبد الحكم ص ٢٩)

١٩٩ — كلامه في مرضه الذي مات فيه

ودخل عليه مُسَلِّمٌ بن عبد الملك في المَرَضَةِ التي مات فيها ، فقال له : يا أمير المؤمنين «إِنَّكَ قَطَعْتَ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً^(٢) ، وَلَا بَدَّ مِنْ شَيْءٍ يَصْلَحُهُمْ ، فَلَوْ أُوصِيَتْ بِهِمْ إِلَى أَوْ إِلَى نَظَرَانِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ ، لَكَفَيْتُكَ مَتُونَهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ » فقال عمر : أَجْلِسُونِي . فَأَجْلَسُوهُ ، قَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ ، أَبَا اللَّهِ تَحَوَّنِي يَا مُسَلِّمَةُ ! أَمَا مَا ذَكَرْتَ مِنْ أَنْ قَطَعْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِي عَنْ هَذَا الْمَالِ ، وَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً ، فَإِنِّي لَمْ أَمْنَهُمْ حَقًّا هُوَ لَمْ ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ حَقًّا هُوَ لَمْ يَرْهَمْ ؛ وَأَمَا مَا سَأَلْتَ مِنَ الْوَصَايَةِ إِلَيْكَ ، أَوْ إِلَى نَظَرَانِكَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي ، فَإِنِّي وَصِيْتُ بِهِمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ، وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ، وَإِنَّمَا بَنُو عَمْرِو أَحَدُ رَجُلَيْنِ : رَجُلٌ اتَّقَى اللَّهَ ، فَجَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ بُشْرًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَبْثٍ لَا يَمُحُّ سِيبَ . وَرَجُلٌ غَفَرَ وَفَجَرَ ، فَلَا يَكُونُ عَمْرٌ أَوْلَى مِنْ أَعَانِهِ عَلَى ارْتِكَابِهِ ، ادْعُوا إِلَى بَنِي ، فَدَعَوْهُمْ ، وَهُمْ يَوْمَئِذٍ اثْنَا عَشَرَ غُلَامًا ، فَجَعَلَ بِصَدِّ بَصَرِهِ فِيهِمْ وَيَصُوبُهُ ، حَتَّى انْغَرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ بِالْهَمِّ ، ثُمَّ قَالَ : « بِنَفْسِي فِتْنَةُ تَرَكْتُهُمْ وَلَا مَالَ لَهُمْ ! يَا بَنِي : إِنْ قَدْ تَرَكْتُمْ مِنْ اللَّهِ بِخَيْرٍ ، إِنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ عَلَى سِلْمٍ وَلَا مُسَاهَدٍ إِلَّا وَلَكُمْ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، يَا بَنِي مَثَلْتُ^(٣) رَأْيِي بَيْنَ أَنْ تَتَّقُوا فِي الدُّنْيَا ، وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ أَبُوكُمْ النَّارَ ، فَكَانَ

(١) لَمْ يَشْهَدْ كَتَبَ وَأَنْشَسَ : رَفَعَهُ . (٢) قَرَأَ جَمِيعَ هَاتِلٍ مِنْ عَالٍ يَحِيلُ حِيلَةً (يُفْتَحُ الْعَيْنَ) لِي أَنْتَضِرَ .

(٣) انْتَهَلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ كَالْتَرَجِيعِ بَيْنَهُمَا ، فَقَوْلُهُ لِلْعَرَبِ : إِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ فَيْتِكَ الْأَمْرَيْنِ ، وَأَمَّا يَلِ بَيْنَهُمَا

أن تفتقروا إلى آخر الأبد خيراً من دخول أيكم يوماً واحداً في النار ، قوموا يا بنيَّ
عَصَمَكُمُ اللهُ ورزقكم . قالوا : فما احتاج أحد من أولاد عمر ولا افتقر .

(العقد الفريد ٢ : ٢٨٠ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ٢٨٠)

٢٠٠ — مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج

خرج سنة مائة بالجزيرة شَوْذَبُ الخارِجِيّ - واسمه بِسْطَام من بني بِشَكْر -
فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : بلغني أنك خرجت غضباً لله ولرسوله ، ولست أؤلّي بذلك
منى فهُلُمْ إلى أَناظرك ، فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ، وإن كان
في يدك ، نظرنا في أمرك ، فكتب بِسْطَام إلى عمر : قد أنصفت ، وقد بشتُ إليك
رجلين يدارسانك ويناظرانك ، وأرسل إلى عمر مولى لبني شَيْبَانَ حَبَشِيًّا اسمه عاصم ،
ورجلاً من بني بِشَكْر ، فقدما على عمر بِخُنَاصِرَةٍ ، فأخبر بِمَكَائِهِمَا ، فقال : قَتُوهَا
لا يكن معهما حديد وأدغلوهما ، فلما دخلا قالا : السلام عليك ثم جلسا ، فقال لهما عمر :
أخبراني ما ألقى أخرجكم مُخْرِجَكُم هذا ؟ وما نَقَمْتُم علينا ؟ فقال عاصم : ما نقمنا سيرتك ،
إنك لتتحرّمى العدل والإحسان ، فأخبرنا عن قيامك بهذا الأمر ، أعن رضا من الناس
ومشورة ، أم ابتزّزتم أمرهم ؟ فقال عمر : ما سألتهم الولاية عليهم ، ولا غلبتهم عليها ،
وَعُمِدَ إلى رجلٍ كان قبل ، قمت ولم ينكره على أحد ، ولم يكفره غيرك ، وأنتم ترون
الرضا بكل من عدل وأنصف ، من كان من الناس ، فأتركوني ذلك الرجل ، فإن خالفت
الحق ورغبت عنه فلا طاعة لي عليكم ، فقالا : بيننا وبينك أمر ، إن أنت أعطيتنا
فنعين منك وأنت منا ، وإن منعتنا فلست منا ولستنا منك ، قال عمر : وما هو ؟
قالا : رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن
زعمت أنك على هدى وم على ضلال ، فآلهم وتبرأ منهم ، فهذا الذي يجمع بيننا وبينك
أو يُفَرِّق ، فسلم عمر ، فحيد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إني قد علمت أنكم لم تخرجوا تخرجكم هذا لطلب دنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها ، إن الله عز وجل لم يبعث رسوله صلى الله عليه وسلم لئانا وقال إبراهيم : « فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » وقال الله عز وجل : « أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاؤُهُ اهْتَدَوْا » : وقد سميت أعمالهم ظلما ، وكفى بذلك ذما ونقصا ، وليس لمن أهل القنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلم إنها فريضة فأخبرني متى لنت فرعون ؟ قال : ما أذكر متى لنته . قال : أفيسمك أن لا تلن فرعون وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسفى أن لا لمن أهل بيتي وهم مصلون صارعون ؟ قال : أأمام كفار بظلمهم ؟ قال : لا ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقر به وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثا أنعم عليه الحد ، فقال الخارجى : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الناس إلى توحيد الله والإقرار بما نزل من عنده . قال عمر : فليس أحد منهم يقول لا أهل بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء . قال عاصم : فأبرأ من خالف عملك ، ورد أحكامهم ، قال عمر : أخبراني عن أبي بكر وعمر : أليسا من أسلافكما ومن تتوليان ، وتشهدان لها بالنجاة ؟ قال : اللهم نعم . قال : فهل علمتا أن أبا بكر حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب ، قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسب القدرارى ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن عمر قام بعد أبي بكر ، فرد تلك السبايا إلى عشارها بقدية ؟ قال : نعم ، قال : فهل برى عمر من أبي بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟ قال : لا . قال : فأخبراني من أهل التهوران أليسوا من صالحى أسلافكم ومن تشهدون لهم بالنجاة ؟ قال : بلى . قال : فهل تعلمون أن أهل الكوفة حين خرجوا كفوا أيديهم فلم يسفكوا دما ، ولم يخيفوا آمنا ، ولم يأخذوا مالا ؟ قال : نعم . قال : فهل علمت أن أهل البصرة حين خرجوا مع مستر بن قديك ، استعرضوا الناس يقتلونهم ، ولقوا عبد الله بن خباب

ابن الأَرْت : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قتلوه وقتلوا جاريته ؟ ثم صَبَحُوا
 حياً من أحياء العرب فاستعرضوهم ، قتلوا الرجال والنساء والأطفال حتى جعلوا يلقون
 الصبيان في قدور الأُطِيط^(١) وهي تفور ؟ قالوا : قد كان ذلك . قال : فهل يرى
 أهل البصرة من أهل الكوفة ، وأهل الكوفة من أهل البصرة ؟ قالوا : لا . قال : فهل
 تَبْرَهُونَ أُنْثَى من إحدى الطائفتين ؟ قالوا : لا . قال : أرأيتم الدينَ واحداً أم أثنين ؟ قالوا
 بل واحداً . قال : فهل يسعكم فيه شيء يمجز عني ؟ قال : لا . قال : فكيف ويسعكم أن
 توليتم أبا بكر وعمر ، وتولى أحدهما صاحبه ، وتوليتم أهل البصرة وأهل الكوفة ، وتولى
 بعضهم بعضاً ، وقد اختلفوا في أعظم الأشياء ، في السماء والفرج والأموال ، ولا يسعني
 فيما زعمتم إلا لمن أهل بيتي والتبرؤ منهم ؟ وَنَحْنُكُمْ ! إنكم قوم جبال ، أردتم أسراً
 فأخطأتموه ، فأنتم تَرُدُّونَ على الناس ما قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويأمن
 عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أَمِنَ عنده . قالوا : ما نحن كذلك . قال عمر :
 بل سوف تُقَيِّرُونَ بذلك الآن ، هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعِثَ إلى
 الناس وهم عبدة أوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً
 رسول الله ، فن فعل ذلك حَقَّقَ دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حُرْمَتُهُ ، وكانت له أَسُوءَةُ
 للسلين ؟ قالوا : نعم . قال : أفلستم أنتم تلقون من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله
 إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقتلوه دمه وماله ، وتلقون من ترك ذلك وأباه من
 اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم وتُحَرِّمُونَ دمه ؟ فقال الليثكري : أرأيت
 رجلاً وَلِيَ قَوْماً وأموالهم فسدل فيها ، ثم صدها بسده إلى رجل غير مأمون ، أترأى أدى
 الحق الذي يلزمه قَدْ عَزَّ وجَلَّ ؟ أو تراء قد سلم ؟ قال عمر : لا . قال : أفنسلم هذا الأمر
 إلى يزيد^(٢) من بعدك وأنت تعرف أنه لا يقوم فيه بالحق ؟ قال : إنما ولاء غيري ،

(١) الأُطِيط بفتح الهمزة وكسرهما : شيء يتخذ من الخيش القنس .

(٢) هو يزيد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١ - سنة ١٠٥ هـ) .

والسملون أولى بما يكون منهم فيه بعدى . قال : أفترى ذلك من صنع من ولاه حقاً ؟ فبكى عمر وقال : أنظر إني ^(١) ثلاثاً فخرجنا من عنده ثم عادا إليه ، فقال عاصم : أشهد أنك على حق ، فقال عمر ليشكرى : ما تقول أنت ؟ قال : ما أحسن ما وصفت ، ولكن لا أفأت على المسلمين بأمر ، أعرض عليهم ما قلت وأعلم حجتهم . فأما عاصم فأقام عند عمر ، فأمر له عمر بالطعام ، فتوفي بعد خمسة عشر يوماً ، فكان عمر يقول : أهلكنى أمر يزيد وخُصِمت فيه ، فاستغفر الله ، فخذف بنو أمية أن يُخرج ما بأيديهم من الأموال ، وأن يخلع يزيد من ولاية العهد ، فوضوا على عمر من سقاء سماً ، فلم يلبث بعد ذلك إلا ثلاثاً ، حتى مرض ومات .

(الكامل لابن الأثير ٥ : ١٧ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧١ ، وللمقد الفريد ١ : ٢١٦ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ١٣١ ، سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٣٠ ، ولابن الجوزى ٧٧)

٣٠١ - تأييده ابنه عبد الملك

ولما دفن عمر بن عبد العزيز ابنه عبد الملك ، وسوى عليه قبره بالأرض ، وجعلوا على قبره خشبتين من زيتون ، إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجله ، استوى عمر قائماً ، وأحاط به الناس ، فقال .

« رحمك الله يا بُنى ، قد كنت برّاً بأبيك ، والله ما زلتُ مذهبك الله لى بك مسروراً ، ولا والله ما كنت قط أشدّ سروراً بك ، ولا أرحى لحظى من الله فيك ، منذ وضعتك فى الوضع الذى صيرك الله إليه ، ففقر الله لك ذنبك ، وجازاك بأحسن عملك ، وتجاوز عن سيئاتك ، ورحم الله كل شافع يشفع لك بخير ، من شاهد أو غائب ، رضيماً بقضاء الله ، وسلماً لأمره ، والحمد لله رب العالمين » .

(البيان والبيان ٢ : ١٨٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ٢٦٤)

٢٠٢ - خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد^(١)

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ، ولا حرماً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، وما لي إطراره نفسي ، وإني لأظن لما إن لم يرحمني الله ، ولكن خرجت غضبا لله ودينه ، داعياً إلى الله ، وإلى سنة نبيه ، كما هدمت ممالك الهدى ، وأطقت نور أهل التقوى ، وظهر الجبار العنيد^(٢) ، للمستجير لكل حرمة ، والراكب لكل بدعة ، الكافر بيوم الحساب ، وإنه لابن عمي في النسب ، وكفيي^(٣) في الحسب ، فلما رأيت ذلك استخفرت الله في أمره ، وسأله ألا يكلني إلى نفسي ، ودعوت إلى ذلك من أجنبي من أهل ولايتي ، حتى أراح الله منه العباد ، وطهر منه البلاد ، بحوله وقوته ، لا بحولي وقوتي .

أيها الناس : إن لكم على ألا أضع حجراً على حجر ، ولا لينة على لينة ، ولا أكرى^(٤) نهراً ، ولا أكنز مالا ، ولا أعطي زوجاً ، ولا أقتله من بلد إلى

(١) قتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك اليلتين بقيتا من جباى الآخرة سنة ١٢٦ هـ ، وكان قبل الخلافة منهمكا في الهوى ، وشرب الخمر ، وانتهك حرمت الله ، فلما أفضت إليه الخلافة ، لم يزد إلا انفسا في اللذات ، واستبشارا بالمعاصي ، ذلك إلى ما ارتكبه من إغصاب أكابر أمته ، والإساءة إليهم ، وتنظيمهم ، فاجتمعوا عليه مع أعيان رعيته ، وهجموا عليه وقتلوه ، وكان المتولى لذلك يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وقد ولي الخلافة بعده ، وقوف هلال في الحجة سنة ١٢٦ . (٢) يشير إلى ما حدث من الوليد بن يزيد من أنه استفتح قالاً في المصحف فخرج « وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ » ، فنصبه غرضاً للشباب وأقبل يرميه حتى مزقه ، وهو يقول :

أتوجه كل جبار عنيد فهأنذاك جبار عنيد

إذا لا قيت بك يوم حشر قتل يارب مزقي الوليد

(٣) كفيه وكفوه بضم الكاف وكفأوه بكسرهما : مثله . (٤) كرى القهر : استحدث حفره .

بلد ، حتى أَسَدَ قَرْدَكَ الْبَلَدَ وَخَصَاةً^(١) أَهْنَهُ ، فَإِنْ فَضَلَ فَضْلٌ ، فَقَلَّه إِلَى الْبَلَدِ الْقَدَى
 بِهِ ، وَلَا أُجْرَكَ^(٢) فِي جَوْشِكُمْ ، فَأَتَيْتَكُمْ وَأَتَيْتَ أَهْلِيكُمْ ، وَلَا أَغْلِقَ بَابِي دُونَكُمْ ،
 فَيَا كُلَّ قَوْمِكُمْ ضَعِيفَكُمْ ، وَلَا أَهْلَ كُلِّ أَهْلٍ جَزَيْتَكُمْ مَا أَجَلِيهِمْ بِهِ عَنْ بِلَادِهِمْ ، وَأَفْطَحَ
 بِهِ نَسْلَهُمْ ، وَلَكُمْ عَلَى إِذْرَارِ الْمَطَاءِ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، وَالرَّزْقِ فِي كُلِّ شَهْرٍ ، حَتَّى يَسْتَوِيَ بِكُمْ
 الْحَالُ ، فَيَكُونُ أَفْضَلُكُمْ كَأَدْنَاهُمْ ، فَإِنْ أَنَا وَفَيْتُ لَكُمْ ، فَمَلِكُكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ ، وَحَسَنُ
 الْمُوَازَاةِ وَالْمُكَافَأَةِ^(٣) ، وَإِنْ لَمْ أَفِ لَكُمْ ، فَمَلِكُكُمْ أَنْ تَخْلَعُوا عَلَيَّ إِلَّا أَنْ تَسْتَتِيْبُونِي ، فَإِنْ
 أَنَا تَبَيْتُ قَبْلَهُمْ مَنِي ، وَإِنْ عَرَقْتُمْ أَحَدًا يَقُومُ مَقَامِي ، مِمَّنْ يُتْرَفُ بِالصَّلَاحِ ، يُعْطِيَكُمْ مِنْ
 نَفْسِهِ مِثْلَ الَّذِي أُعْطِيَكُمْ ، فَأَرَدْتُمْ أَنْ تَبَايَعُوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ بَايَعُهُ ، وَدَخَلَ فِي طَاعَتِهِ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِلْخُلُقِ فِي مَعْصِيَةِ الْخُلَاقِ ، وَلَا وِفَاءَ لَهُ بِنَقْضِ عَهْدٍ ، إِنَّمَا
 الطَّاعَةُ طَاعَةُ اللَّهِ فَأُطِيعُوهُ بِطَاعَةِ اللَّهِ مَا أَطَاعَ ، فَإِذَا عَصَى اللَّهَ وَدَعَا إِلَى الْمَعْصِيَةِ فَهُوَ أَهْلُ أَنْ
 يُمَسَّ وَيُقْتَلَ ، أَقُولُ قَوْلِي هَذَا ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ .

(ميون الأخبَار م ٢ : ص ٢٤٨ ، والمقدّم للفريد ٢ : ١٤٤ - ٢٩١ ، البيان والتبيين ٢ : ٦٩ ،

الفخرى ص ١٢٠ وتاريخ العبدى ٩ : ٢٦)

٢٠٣ : وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاء

لَمَّا وَلَّى يَزِيدُ بْنُ مَعَاوِيَةَ سَلْمَ بْنَ زِيَادٍ بَنِي أَبِيهِ عَلَى خُرَاسَانَ قَالَ لَهُ :
 « إِنْ أَبَاكَ كُنِيَ أَخَاهُ (يَسْنَى مَعَاوِيَةَ) عَظِيمًا ، وَقَدْ اسْتَكْفَيْتُكَ صَغِيرًا ، فَلَا تَتَكَلَّنْ
 عَلَيَّ عَذْرَ مَنِي لَكَ ، فَقَدْ اتَّكَلْتُ عَلَى كِفَايَةِ مَنِكَ ، وَإِيَّاكَ مَنِي قَبْلَ أَنْ أَقُولَ إِيَّايَ مَنِكَ ،
 فَإِنْ لَقِيتُ إِذَا أَخْلَفَ مَنِكَ أَخْلَفَ مَنِي فِيكَ ، وَأَنْتَ فِي أَدْنَى حَظِّكَ فَاطْلُبْ أَقْصَاهُ ، وَقَدْ
 اتَّبَعْتُكَ أَبَوُكَ ، فَلَا تُرِيحَنَّ نَفْسَكَ ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ تَكُنْ لَكَ ، وَإِذَا كَرِهْتَ يَوْمَكَ أَحَادِيثَ
 غَدِكَ تَسَعَّدَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى » .
 (البيان والتبيين ٢ : ٧٦)

(١) للفقر والحاجة . (٢) جبر الجيش : حبسهم في أرض العدو ولم يقفاهم . (٣) للمواونة .

خطب عتبة بن أبي سفيان^(١) (توفي سنة ٤٤ هـ)

٢٠٤ - خطبة له في تهدد أهل مصر

بلغ عتبة بن أبي سفيان عن أهل مصر شيء فأغضبه ، فقام فيهم ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« بأهل مصر ، إياكم أن تكونوا لليف حصيداً^(٢) ، فإن الله فيكم ذبيحاً لثمان ، أرجوان يولتي نُسكته ، إن الله جمعكم بأمر المؤمنين بعد الفقرة ، فأعلى كل ذي حق حقه ، وكان والله أذكركم إذا ذكر بخطئة ، وأصفتحكم بعد للقدرة من حقه ، نعمة من الله فيكم ، ونعمة^(٣) منه عليكم ، وقد بلغتكم عنكم بجم^(٤) قول ، أظهره تقدم حق منا ، فلا تصبروا إلى وحشة الباطل بعد أنس الحق ، بإحياء الفتنة وإمالة السنن ، فأطأكم الله وطأة ، لا رمت^(٥) معها ، حتى تُنكروا مني ما كنتم تعرفون ، وتستغشوا ما كنتم تستلثون ، وأنا أشهد عليكم الذي يعلّم خائفة الأعين^(٦) ، وما تخفي الصدور .

(المقد الفريد ٢ : ١٥٨)

(١) ولله أخوه معاوية مصر بعد وفاة عمرو بن العاص (وقد مات عمرو في شوال سنة ٤٣ هـ) وأقام عتبة والياً على مصر سنة واحدة وشهراً واحداً ، وتوفي في ذي الحجة سنة ٤٤ هـ (هكذا في كتاب التلخيص الزاهرة في ملوك مصر والفاخرة) وفي أحد النسخة في مرقاة الصحابة : « أنه توفي سنة ٤٤ هـ وقيل سنة ٤٣ هـ ، ولكني قرأت في تاريخ الطبري أن عتبة حج بالناس سنة ٤٦ هـ ، وقال أيضاً في حوادث سنة ٤٧ هـ « واختلقوا فيه من حج بالناس في هذه السنة ، فقال الواقدي : أقام الحج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . وقال غيره : بل الذي حج في هذه السنة عتبة بن أبي سفيان . (٢) أصله الزوج المحصور . (٣) هكذا في الأصل وقد يكون « سنة » . (٤) من نجم الليل : إذا ظهر وطلع . (٥) الرمي : بقية الحياة . (٦) بمسارقتها النظر إلى الحرم .

٢٠٥ - خطبة له في تقريرهم وتهديدهم

وخطب أيضاً وقد بلغه من أهل مصر أمور فقال :

« يا حَامِلِ الْأُمْرِ أَنْفِرْ رُكْبَتَ بَيْنِ أَعْيُنِ ، إِنَّمَا قَلَّتْ أَغْفَارِي عَنْكُمْ ، لِيَلْبِغَ مَسِيَّ إِيَّاكُمْ ، وَسَلَاتِكُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ ، إِذَا كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ، فَأَمَّا إِذَا أُبَيِّنَ إِلَّا الظُّلْمَ عَلَى الْأَسْرَادِ ، وَالنَّصَبَ عَلَى السُّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَا تَقْطَعُنَّ بَطُونَ الشَّيَاطِ عَلَى ظُهُورِكُمْ ، فَإِنْ حَسَمْتَ مُسْتَشْرِئِي^(١) دَائِكُمْ ، وَإِلَّا قَالَسِيفُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، فَكَمْ مِنْ عَقْلَةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجْرَةٌ مَنَاقِدُهَا قُلُوبُكُمْ ، وَلَسْتُ أَبْجُلُ عَلَيْكُمْ بِالْعُقُوبَةِ إِذَا جِئْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مُؤَيِّسًا لَكُمْ مِنَ الرَّاحَةِ إِلَى الْحَسَنِ ، إِنْ صَرْتُمْ إِلَى التَّيِّبِ أَمْ أَبْرَأْتَنِي » . (صبح الأمشي ١ : ٢١٦ ؛ والمقد للقرني ٢ : ١٥٩ ، والأمال ١ : ٢٤٥)

٢٠٦ - خطبة له فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية

واحتبست كتب معاوية حتى أَرْجَفَ أَهْلَ مِصْرَ بِمَوْتِهِ ، ثُمَّ وَرَدَ كِتَابُهُ بِسَلَامَتِهِ ، فَصَيَّدَ عَجَبَةَ الْمَنِيرِ ، وَالْكِتَابَ فِي يَدِهِ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ مِصْرَ : قَدْ طَالَاتْ مَعَانِبُنَا إِيَّاكُمْ بِأَطْرَافِ الرِّمَاحِ وَغُلْبَاتِ السُّيُوفِ ، حَتَّى صَرْنَا شَجَبِي فِي لَمَوَانِكُمْ ، مَا نَسِيفُنَا^(٢) حُلُوقَكُمْ ، وَأَقْدَاءُ فِي أَعْيُنِكُمْ ، مَا تَعْتَظُرُ^(٣) عَلَيْهَا جُنُودُكُمْ ، الْخَبْنِ أَشْتَدَّتْ عُرَى الْحَقِّ عَلَيْكُمْ عَقْدًا ، وَاسْتَرَحَّتْ عَقْدُ الْبَاطِلِ مِنْكُمْ حَلَاً ، أَرْجَفْتُمْ بِالْخُلَيْفَةِ ، وَأَرَدْتُمْ تَوْهِينَ^(٤) السُّلْطَانِ ، وَخَضَعْتُمْ الْحَقَّ إِلَى الْبَاطِلِ ، وَأَقْدَمْتُمْ عَهْدَكُمْ بِهِ

(١) استشرى اللاء : عظم وتفاقم . (٢) هو ما اعترض في الحق من عظم أو نحوه ، والهوات

جميع لهاة : وهي اللمعة المشرقة على الحق ، وأساغه : ابتلعه . (٣) جمع قذى : وهو ما يقع في العين والشراب ، وطرف بصرد : أطلق أحد جفنيه على الآخر ، وطرف بيمينه : حرك جفنيها . (٤) إضماص .

حديث ؟ فارتجوا أنفسكم إذ خسرتم دينكم ، فهذا كغاب أمير المؤمنين بالخير السارعه ،
واللهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ماظهر ،
نسلككم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً ، وإن أسررتهم شرّاً ، فإنكم حاصدون ما أنتم
زارعون ، وعلى الله تتوكل وبه نستعين .

(عيون الأخبار ٢ : ص ٢٢٩ ، والمقد القريني ٢ : ١٥٩)

٢٠٧ - خطبته فيهم وقد منعوا الخراج

وخطبهم وكانوا قد منسوا الخراج فقال :

« يا أهل مصر ، قد كنتم تمتدرون لبعض المنع منكم ، ببعض الجور عليكم ، فقد
وَلَيْسَ كُمْ مِنْ يَقُولُ وَيَفْعَلُ ، وَيَقُولُ وَيَقُولُ ، فَإِنْ رَدَدْتُمْ تَرَادُّكُمْ^(١) بيده ، وإن استصعبتم
ترادكم بسيفه ، ثم رجا في الآخرة ما أمل في الأولى ، إن البيعة متتابعة ، فلنا عليكم السمع
والطاعة ، ولكم علينا العدل ، فأئنا نَمْدُرُ فلا ذمة له عند صاحبه ، والله ما انطلقت بها
ألسنتنا حتى عُدَّتْ عليها قلوبنا ، ولا طلبناها منكم حتى بذلناها لكم تاجراً بناجز^(٢) ،
ومن حَذَّرَ كُنْ بَشَرٌ ، فنَادَوْهُ سَمّاً وطاعةً ، فنَادَاهُمْ عَدْلًا وعدلاً . (المقد القريني ٢ : ١٥٩)

٢٠٨ - خطبته فيهم إذ طعنوا على الولاية

وقدم كتاب معاوية إلى عتبة بمصر أن قبلك قوماً يطعنون على الولاية ويعتبون
السلف ، فخطبهم فقال :

« يا أهل مصر : خف على أنفسكم مدح الحق ولا تفعلونه ، وذم الباطل وأنتم

(١) يقال : تراد بالبيع من الرد والفسخ ، ومراده : ردكم . (٢) التاجر والتجيز : الحاضر ،
ومن أطلهم : ناجزاً بناجز ، أي حاضرنا بالحاضر ، كقولك هذا بيد ، وجازل بناجل ، وقالوا أيمنك
ساعة ناجزاً بناجز : أي مجبلاً .

تأثوته ، كالجار يحمل أسفارا ، أثقله حملها ، ولم ينقصه عليها ، وإيم الله لا أداوى أدواءكم بالسيف ما صلحتم على السوط ، ولا أبلغ السوط ما كفتى الدرّة ، ولا أبطى عن الأولى ما لم تسرعوا إلى الأخرى ، فازموا ما أمركم الله به تستوجبوا ما فرض الله لكم علينا ، وإياكم وقال ويقول ، قبل أن يقال فعل ويفعل ، وكونوا خير قوم سبها بهذا اليوم الذى ما قبله عقاب ، ولا بعده عقاب

(المقد الفريد ٢ : ١٦٠ ، وميون الأخبار م ٢ : ص ٢٣٩ ، وأسد الغاية فى معرفة الصحابة ٣ : ٣٦٩)

٢٠٩ - خطبته بمكة

وحج عتبة سنة إحدى وأربعين ، والناس قريب عهدم بالفتنة ، فصلى بمكة الجمعة ، ثم قال :

« أيها الناس ، إنا قد ولينا هذا المقام الذى يضاعف فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء فيه الوزر ، ونحن على طريق ما قصدنا له ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع من دوننا ، ورب متمن حقه فى أمنيته ، فاقبلونا ما قبلنا العافية فيكم ، وقبلناها منكم ، وإياكم ولوا ، فإن لولا قد أنصبت من كان قبلكم ، ولن ترجع من بعدكم ، وأنا أسأل الله أن يعين كلاً على كل » .

فصاح به أعرابي : أيها الخليفة ، فقال : لست به ولم تُبْعِد ، فقال : يا أخاه ، فقال : سمعتُ قتل ، فقال : « نأله لأن تُحْسِنُوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنّا ، فإن كان الإحسان لكم دوننا ، فما أحقكم باستنائه ، وإن كان منا فأولاكم بمكافأتنا ، رجل من بنى عاصم بن حصمة يلقاكم بالسومة ، ويقرب إليكم بالثبوة ، وقد كثر عياله^(١) ، ووطئه زمانه ، وبه فقر ، وفيه أجر ، وعنده شكر » فقال عتبة : « استغفر الله

(١) القيلال جمع ميل كجيد : وهو من يلزم الإفتاق عليه .

منكم ، وأستعينه عليكم ، وقد أمرنا لك بفتحك ، فليت إسماعنا إليك يقوم بإطاعتنا عنك .

(الأمال : ١ : ٢٤٠ ، والمقد الفريد : ٢ : ١٥٩ - ٨١ ، والبيان والتبيين : ٣ : ٢٣٠)

٢١٠ - خطبته في علته التي مات فيها

ولما اشكى شكاته التي مات فيها نحامل إلى المنبر فقال :

« يا أهل مصر لا غنى عن الرب ، ولا مهرّب من ذنب ، إنه قد تقدّمت مني إليكم عقوبات كنت أرجو يومئذ الأجر فيها ، وأنا أخاف اليوم الوزر منها ، فليتنى لا أكون اخترت دنياى على معادى ، فأصلحتكم بفسادى ، وأنا أستغفر الله منكم ، وأتوب إليه فيكم ، فقد خفت ما كنت أرجو نفعاً عليه ، ورجوت ما كنت أخاف اعتيالا به ، وقد شقي من هلك بين رحمة الله وعفوه ، والسلام عليكم سلام من لا تزونه عابداً إليكم » ، فلم يعد .

(المقد الفريد : ٢ : ١٥٩)

٢١١ وصيته لمؤدب ولده

وقال لعبد الصمد مؤدّب ولده :

« ليكن أول ما تبدأ به من إصلاح نبيّ إصلاح نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنتم ، والقبیح عندهم ما استقبحت ، وعلمهم كتاب الله ، ولا تُكرههم عليه قِيَمَلوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ، ثم رَوْهم من الشر أهون ، ومن الحديث أشرفه ، ولا تخرجه من علم إلى غيره حتى يُحكّوه ، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضَلَّةٌ للفهم ، وتَهْدِثُهم في ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يَمَجَل في إلقاء مِرْقَةٍ الفداء ، وجَنَّبهم محادثة النساء ، وروَّهم سِرَّ الحكماء ، واستزادنى

يزيادتك إيام أزدك ، وإياك أن تتكل على عذر مني لك ، قد اتكلت على كفاية
حنك ، وزدت في تأديبهم أزدك في برى إن شاء الله تعالى .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٥ ، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١ : ١٣٩)

٢١٢ - وصية سعيد بن العاص^(١) لابنيه

لما ولد لسعيد بن العاص ابنه عمرو وترعرع^(٢) ، تفرس فيه النجابة ، كان يفضل
على ولده ، فجمع بنيه ، وكانوا يومئذ أكثر من خمسة عشر رجلا ، ولم يدع عمرا
مهم ، وقال :

« يَا بَنِيَّ ، قد عرفتم خيرة الوالد بولده ، وإن أحاكم عمرا ، لندو همة واعدة^(٣) ،
يسمو جدّه ، ويعد صيته^(٤) ، ونشد شكيمته^(٥) ، وإني آمركم إن نزل بي من اللوت
ملا يحبس عنه ، أن تظاهروا وتوازرؤوه وتزروه ، فإنكم إن فاسم ذلك يتألف بكم
الكرام ، ويخسأ^(٦) حكم القتام ، ويلبسكم عز لا تنهجه^(٧) الأيام . »

فقالوا جميعا : « إنك تؤثروا علينا ، ونحايه دوننا » فقال : « سأريكم ما ستره

(١) هو سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، وقد تقدم لك أن منان
استعمله على الكوفة بعد الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وولاه معاوية المدينة ، فكان يولييه إذا عزل مروان
ابن الحكم عن المدينة ويول مروان إذا عزل ، ومات سنة ٥٧ وقيل سنة ٥٨ وقيل سنة ٥٩ .

(٢) شب وانتقل عن حد الصغر . (٣) من قولهم شجرة واحدة : إذا ظهر لرائتها أن قسما من ثمارها،
وأرض واحدة : إذا رعى غيرها من الثبت ، وظهر لرائتها أن قد قرب إمكان المرضي بها ، وفرس واحد :
يملك جريا بدجريا ، وسحاب واحد كأنه وعد بالطر ، ويوم واحد يعد بالجر أو بالجر أوله .

(٤) الصيت (بالكسر) والصلوات والصوت (بالفتح) : الذكر الحسن . (٥) الشكيمة : الألفة ،
وفي اللجام : الحديدة المعلقة في قم القفرس . وهو مثل يضرب الصرامة في الأمور والمقضاء فيها .

(٦) أى يمدح بطرده . من غسأ الكلب كعب : طرده ، وغسأ هو يفضه : يبد . (٧) أى لا تلبسه .
أبج الثوب ونهجه (كنه) : أخلقه وأبلاه ، ونهج الثوب مطقة الهد ، وأبج : يل .

البنى عنكم ، وصرهم ، ثم أمهلهم حتى ظن أن قد ذهبوا عما كان ، وراهم ^(١)
 عمرو البلوغ ، واستدعاهم دون عمرو ، فلما حضروا قال : « يا بني ، ألم تروا إلى
 أخيك عمرو ؟ فإنه لا يزال يلحف ^(٢) في مسألتى مالى ، فأحش غيله ^(٣) لصنره ،
 وأحبه ^(٤) بالشئ . دون الشئ من مالى إلى أن استغثت أن أمه بأعيتته ^(٥) على ذلك ،
 فزجرها فلم تكف . وهذا يخرجها الآن من همدى ، جاء يسألنى الصمصامة ^(٦) .
 كأن لا ولدى غيره ، وقد عزمت على أن أقسم مالى فيكم دونه ، تعلم أمه من يكيد ،
 فقالوا كلمهم : يا أبانا هذا عملك بإيتارك له علينا ، واختصاصك إياه دوننا ، فقال :
 « يا بني ، والله ما آرتنه دونكم بشئ من مالى قط ، ولا كان ماقلته لكم إلا اختلاقا
 تساهلت فيه ، لما آلمته من صلاح أمركم » ، ثم قال لهم : ادخلوا الخدع ^(٧) ، فدخلوا
 الخدع ، ثم أرسل إلى عمرو فأحضره ، فلما حضر قال :

- (١) راقى القلام : قارب الحلم (بضمين) . (٢) يلح . (٣) الليل واليلية : الانتظار
 والفتاة ، وأحش : أى أظطه وأمره ، من حش الحشيش (كرد) : قطعه ، وحش فلانا : أصلح من حاله ،
 (٤) وفى الأصل فأحسن بالثمن أى أجمل فقره حسنا وأزيل قبحه بطلاق إياه والأول أحسن .
 (٥) حسب (بالتشديد) وأحبه : أطبه وسقاه حتى شبع وروى . (٦) بناء الشئ : أحاطه على
 طلبه (ولا مانع أن يكون الأصل « أن أمه باهتته على ذلك ») . (٧) الصمصامة : سيف عمرو بن
 سعد يكره الزبيدي ، وكان قد صار إلى سيدين العاص . وذلك أن خالد بن الوليد لما غزا بني زبيد حين ارتدوا ،
 وكان خالد بن سعيد بن العاص « مع سعيد المذكور » من جملة أمرائه ، أوقع بهم وأسر ربيعة أخت عمرو
 ابن سعد يكره ، فقتلها خالد وأتاه عمرو الصمصامة ، ولم يزل ذلك السيف عند آل سعيد بن العاص حتى
 اشتراه منهم الخليفة المهدي العباسي بخمسين ألف درهم ، ووجه المهدي لآبته الهادي فهداه به بعد ماولى الخلافة
 فوضع بين يديه وأذن للشراء ، فلما دخلوا أمرهم أن يقولوا فى السيف شعرا ، فقدم ابن يمين البصري .
 فأطاه الهادي السيف والجائزة ، ففترها على الشعراء ، وقال : دخلتم معي ، وحرمت من أجل ، وفى السيف
 موعظ ، ثم بحث إليه الهادي ، فاشتري منه السيف بخمسين ألفا ، ثم وصل إلى المتوكل فهداه إلى غلامه باغزا
 التركي ، فقتله به ، ومن عند باغزا انقطع غيره . « أقرأ خبر الصمصامة فى سرح الميرون ، ص ٣١٢ ، والأغاني
 ١٤ : ٢٦ ، وأنبأه نجيب الأنياب ص ١٠٣ ومروج الذهب ٢ : ٢٢٦ . (٧) الخدع يضم الميم وكسرهما :
 الخزقة - بيت صغير يحرز فيه الشيء .

« يا بَنِيَّ : إني عليك حَدِيبٌ ^(١) مشفق ، لصغر منك ، وَنَفَاسَةٌ ^(٢) إخوتك على مكانك مني ، وإني لا آمَنُ بِنَفَقَةِ الأَجَلِ ، ولي كَنْزٌ أَدَّخَرْتَهُ لَكَ دون إخوتك ، وهأنا مُظْلَمٌكَ عليه ، فَكْتَمْتُ أَمْرَهُ . »

فقال : « يا أَبَتَ ، طال مُعْزَاكَ ، وَعَلَا أَمْرُكَ ، إني لأَرْجُو أَنْ يُحْسِنَ اللهُ عَنْكَ الدَّفْعَ ، وَيُعْطِلَ بِكَ الإِمْتَاعَ . فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَهُ مِنْ شَأْنِ الْكَزْ ، فَمَا يُنْجِبُنِي أَنْ أَقْطَعَ دُونَ إِخْوَتِي أَمْراً ، وَأُزْرِعَ فِي صَدْرِهِمْ غَمراً ^(٣) . »

فقال : « انصرف يا بَنِي ، فِذَاكَ أَبُوكَ ، فَوَاللهِ مَالِي مِنْ كَنْزٍ ، وَلَكِنِّي أُرِدْتُ أَنْ أُبَلِّغُكَ رَأْيَكَ فِي إِخْوَتِكَ وَبَنِي أَيْيِكَ » فَانْطَلَقَ عَمْرُو ، وَخَرَجَ إِخْوَتُهُ مِنَ الْخَدْعِ ، فَاعْتَذَرُوا إِلَى آبِيهِمْ ، وَأَعْطَوْهُ مَوْتَقَعَهُمْ عَلَى اتِّبَاعِ مَشُورَتِهِ . (أنباء نجباء الأبناء من ١٠٠)

(١) متعلف شقيق . (٢) نفس عليه بخير (كفرح) حسد ، ونفس عليه الشيء نفاسة

لم يره أهلاً له . (٣) التمر بحركة والتمر بكسر التين : الحقة والفضن .

خطب عمرو بن سعيد الأشدق^(١)

(قتل سنة ٥٦٩ هـ)

٢١٣ - خطبة له بالمدينة

قدم عمرو بن سعيد بن العاص الأشدق المدينة أميراً ، فخرج إلى منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد عليه وعَمَّصَ عينيه وعليه جُبَّةُ خَزْرَمِزٍ^(٢) ، ومُطَرَفٌ^(٣) خَزْرَمِز ، وعمامة خَزْرَمِز ، فبصل أهل المدينة ينظرون إلى ثيابه إعجاباً بها ، ففتح عينيه ، فإذا الناس ينظرون إليه ، فقال :

« ما بالكم يا أهل المدينة ترفعون إلى أبصاركم ، كأنكم تريدون أن تضر بونا بسيفوكم ؟ أغرَّكم أنكم قتلتم ما قتلتم ففقونا عنكم ، أما إنه لو أُثْبِتَ^(٤) بالأولى ما كانت الثانية ، أغرَّكم أنكم قتلتم عثمان ، فواقمتم تأثرنا^(٥) منا رفيقاً ، قد فنى غضبه وبقي حلمه ، اغتندوا أنفسكم ، فقد والله ملكناكم بالشباب المقتبل البعيد الأمل ، الطويل

(١) لقب بالأشدق لفصاحته ، والأشدق في الأصل : من عظمت أشداه (جمع شقيق بالكسر ويفتح وهو جانب القدم) مشتق من الشدق (يفتحون وهو سعة الشدق) وكانوا يتشادقون في الكلام ويمتدحون في الخطيب سعة القدم والشدين ، وقالوا خطيب أشدق : أي بليغ ، وقال شاعرهم في عمرو بن سعيد هذا :
تشادق حتى مال بالقول شدقه وكل خطيب لا أبالك أشدق

وقال آخرون : بل كانه أقدم مائل للذنق . « واللقم بالتحريك : تقدم للتأيا البليبا فلا تقع على السفل »
وقد ولي لماوية مكة وولاية يزيد مكة والمدينة ، وكان له الفضل في نيل مروان بن الحكم الخلافة ، وقد قُتِلَ له غير مقتله . (٢) القزميز : صيغ أحمر . (٣) المطرف : وداه من غز مربع ذوالعالم .
(٤) الثواب : الجزاء . (٥) التأثر : الأخل بالتأثر ، وواقمتم : أي وجدتم .

الأجل ، حين فرغ من العصر ، ودخل في السكبر ، حلیم حديد^(١) ، لئین شديد ، رفيق
كثيف ، رفيق عفيف ، حين اشتد عطشه ، واعتدل جسده ، ورعى القمر يعصره ،
واستقبله بأشره ، هو وإن عصّ نهس^(٢) ، وإن سطا قرّس^(٣) ، لا يُفَقِّلُ له الحمى ،
ولا تُفَرِّجُ له العصا^(٤) ، ولا يمشي السُّعْيَ^(٥) ، فما في يد ذلك إلا ثلاث سنين
وثمانية أشهر حتى قصّهُ اللهُ .
(المقدّمه ٢ : ١٥٧)

٢١٤ - خطبة له بمكة

واستعمل سعيد بن العاص - وهو وال على المدينة - ابنه عمرو بن سعيد والياً على
مكة ، فلما قدم لم يلقه قرشي ولا أموي إلا أن يكون الحارث بن نوفل ، فلما لقيه قال له :
يا حارث ، ما الذي منع قومك أن يلقوني كما لقيتني ؟ قال : ما منعهم من ذلك إلا ما استقبلتني
به ، والله ما كنت بئتي ، ولا أتمت اسمي ، وإنما أنك عن التشدد^(١) على أكفائك ،
فإن ذلك لا يرضك عليهم ، ولا يرضهم لك ، قال : والله ما أسأت للوعدة ، ولا أتهمك
على النصيحة ، وإن الذي رأيت مني تخلّتي^(٢) ، فلما دخل مكة قام على المنبر ، حمد الله ،
وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، معشر أهل مكة ، فإننا سكناها غبطة ، وخرجنا عنها رغبة ، ولذلك
كنّا إذا رُضت لنا الأهوة^(٣) بعد الأهوة أخذنا أسنانها ، ونزلنا أعلاها ، ثم شَرَجَ^(٤) أمر

(١) رجل حديد يكون في السن والظنم والفضب ، وحده عليه : فضب . (٢) نهس اللحم : أخله
بمقدم أسنانه وقطعه . (٣) قرش فريسة : دق عتقها . (٤) يشير إلى المثل المشهور « إن العاصي
قرعت لى الحلم » وقد سبق شرحه في ص ١٨٤ . (٥) السعي والسعي : اللابل والكلب ،
يقال : ذهب في السعي لى في اللابل ، وجرى ثلاث السعي : لى جرى إلى غير أمر يرفه .
(٦) تشلر : قومة وتهد وتفضب وتسرح إلى الأمر والمراد هنا التكبر . (٧) الملقى : البالي ،
والمراد أنه لا يعود إليه . (٨) الأهوة بالضم والفتح : العلية أو أفضل لطلابا وأجرتها .
(٩) من التخرج بالصريك : وهو التشقاق للفرس . فوس شرج : فيها شق ، والمراد حدث ونجم .

بين امرين ، فقتلنا وقُتِلنا ، فوالله ما نَزَعْنَا ولا نَزِعَ عَنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ، وأَكَلَ اللحمَ لَحْمًا ، وَفَرَعَ العَظْمَ عَظْمًا ، قَوْلِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرِسَالَةِ اللَّهِ إِيَّاهُ ، وَاخْتِيَارَهُ ، ثُمَّ قَوْلِي أَبُو بَكْرٍ لِأَبِيهِ وَفَضْلُهُ ، ثُمَّ قَوْلِي عُمَرُ ، ثُمَّ أُجِيلَتْ قِدَاحُ نَزْعِنَ مِنْ شِعَابٍ ^(١) جَوَاقِدُ سَعَةٍ ، فَتَازَ بِمَحْطِئِهَا ^(٢) أَصْلُهَا وَأَعْتَقَهَا ، فَكُنَّا بَعْضُ قِدَاحِهَا ، ثُمَّ شَرَجَ أَمْرَ بَيْنِ أَمْرَيْنِ فَتَقَلْنَا وَقُتِلْنَا ، فوالله ما نَزَعْنَا ولا نَزِعَ عَنَا ، حتى شَرِبَ الدَّمُ دَمًا ، وَأَكَلَ اللحمَ لَحْمًا ، وَفَرَعَ العَظْمَ عَظْمًا ، وَعَادَ الحَرَامُ حِلَالًا ، وَأُشْكِتَ كُلُّ ذِي حِسٍّ عَنْ ضَرْبٍ مُهَيَّئٍ ، عَزَّ كَأَرْكَأَ ، وَعَشَفَا عَشْفًا ، وَخَرَا وَنَهَسَا ، حتى طَابُوا عَنْ حَقْنَانَفْسًا ، وَاللَّهُ مَا أَعْطَوْهُ عَنْ هَوَادِيَةٍ ، وَلَا رِضْوَانٍ فِيهِ بِالقَضَاءِ ، أَصْبَحُوا يَقُولُونَ : حَقَّنَا غَلْبُنَا عَلَيْهِ ، فَجَزِينَاهُ هَذَا بَهَذَا ، وَهَذَا فِي هَذَا . يَا هَلْ مَكَّةُ : أَنْفَسَكُمْ أَنْفُسَكُمْ ، وَصَفَاءَكُمْ سَفَاءَكُمْ ، فَإِنْ مِى سَوَاطِنًا نَكَالًا ، وَسِيقًا وَبَالًا ^(٣) ، وَكُلُّ مَنْصُوبٍ عَلَى أَهْلِهِ ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المقدّم الفرید ٢ : ١٥٧)

٢١٥ — ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية

تلاحي ^(١) الوليد بن عقبة ، وحمرو بن سعيد بن العاص في مجلس معاوية ، فتكلم الوليد فقال له عمرو : كَذَبْتَ أَوْ كَذِبْتَ ^(٢) ، فقال له الوليد : اسكت يا طليقَ اللسان ، منزوعَ الحياء ، وبِأَلَمِ أَهْلِ بَيْتِهِ ، فَلَمْ صَرَى لَقَدْ بَلَغَ بِكَ الْبُخْلُ النَّايَةَ الشَّائِنَةَ لِلذِّلَّةِ لِأَهْلِهَا ، فَسَأَمْتَ خِلَافَتُكَ لِبُخْلِكَ ، فَكُنْتُ الْحَقُوقَ ، وَلَزِمْتَ الْمُتَقَوِّ ، فَأَنْتَ غَيْرُ مَشِيدِ الْبَيَانِ ، وَلَا فَرِيعِ الْكُنَانِ ، فقال له عمرو : والله إن قريشًا لتعلم أني غير حُلُوِّ الذِّقَاقَةِ ، وَلَا قَذِذِ

(١) الشَّعَابُ جَمْعُ شُعْبَةٍ بِالنِّسْبَةِ : وَهِيَ مَا بَيْنَ النَّصِيبَيْنِ وَطَرَفِ النَّصِيبِ . يُشِيرُ إِلَى أَصْحَابِ الشُّرُورِ السَّعَةِ .

(٢) الْخَطِي : ذُو الْخَطَرَةِ أَيْ الْمَكَاةِ . (٣) أَيْ سَوَاطِنًا ذَا نَكَالٍ . وَسِيقًا ذَا رِجَالٍ .

(٤) تَنْزَعُ . (٥) كَلْبُ الرَّجُلِ : أَخْبَرُ بِالْكَلْبِ .

لَللَّائِكَةِ^(١) ، وَإِنِّي لَكَاشِحٌ^(٢) فِي الْحَقِّ ، وَلَقَدْ عَلِمْتُ أَنِّي سَاكِنُ اللَّيْلِ ، دَاهِيَةُ
النَّهَارِ ، لَا أَتَّبِعُ الْأَنْفِيَاءَ ، وَلَا أَتَّقِي إِلَى غَيْرِ أَبِي ، وَلَا يُجْهَلُ حَسْبِي ، حَامِرُ الْخَفَاتِقِ
أَقْدَامُ^(٣) ، غَيْرُ هَيُوبٍ عِنْدَ الْوَعِيدِ ، وَلَا خَافٍ وَغَدِيدٍ^(٤) ، فَلَمْ تُتَبَّرْ بِالْبُخْلِ وَقَدْ جُبِلَتْ
عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَرَى لَقْدَ أَوْدَتْكَ الضَّرُورَةُ لَوْثَنَا ، وَالْبُخْلُ فُحْشًا ، قَطَعْتَ رِجْلَكَ ، وَبَجُرْتَ
فِي قَضِيَّتِكَ ، وَأَضَعْتَ حَقَّ مَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ ، فَلَسْتُ تُرْجَى الْعِظَامُ ، وَلَا تُعْرَفُ بِالْمَكَارِمِ ، وَلَا
تَسْتَيْفُ عَنْ الْحَارِمِ ، لَمْ تَقْدِرْ عَلَى التَّوْقِيرِ ، وَلَمْ تُحْكَمْ مِنْكَ التَّدْيِيرُ ، فَأَغْنَمَ الْوَلِيدُ^(٥) قَتَالَ مِثْلَ مِثْلِهِ :
— وَسَاءَ ذَلِكَ — كَفًّا لِأَبَا لِكَا ، لَا يَرْتَفِعُ بِكَ الْقَوْلُ إِلَى مَا لَا نَزِيدَ ، ثُمَّ أَنشَأَ
عَمْرُو يَقُولُ :

وَلَيْدٌ إِذَا مَا كُنْتُ فِي الْقَوْمِ جَالِسًا فَكُنْ سَاكِنًا مِنْكَ الْوَقَارُ عَلَى يَالِ
وَلَا يَبْدُرَنَّ الْعَمْرُ مِنْ فَيْكِ مَنِطِقَى بَلَا نَظَرَ قَدْ كَانَ مِنْكَ وَإِغْفَالٍ^(٦)
(الأمال ٢ : ٤٠)

٢١٦ - خطبته حين غلب على دمشق

ولما غلب على دِمَشْقَ ، صعد للنبر ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ مِنْ قَرِيشٍ قَبْلِي عَلَى هَذَا النَّبْرِ ، إِلَّا زَعَمَ أَنَّ لَهُ جَنَّةَ
وَنَارًا ، يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَطَاعَهُ ، وَالنَّارَ مَنْ عَصَاهُ ، وَإِنِّي أَخْبِرُكُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ
بِيَدِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ إِلَهٌ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ ، غَيْرَ أَنَّ لَكُمْ عَلَى حُسْنِ الْوَلَايَةِ وَالْعَطَاةِ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٧٦)

(١) اللزك : لوزة اللوز أو خضغ سلبه . (٢) ما انتزعني في الحلق من ظلم ونعمه .

(٣) ما يجب عليه . (٤) جبان . (٥) يبار : يفرط ويستهين .

٢١٧ - خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان

روى أن عبد الله بن يزيد بن معاوية جاء إلى أخيه خالد بن يزيد في أيام عبد الملك فقال : لقد هممت اليوم يا أخى أن أفتك بالوليد بن عبد الملك ، فقال له خالد : بئس والله ما هممت به في ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، فما ذاك ؟ قال : إن خيلي مرتت به فقيت بها وأصغرتني ، فقال له خالد : أنا أكفيك ، فدخل على عبد الملك ، والوليد عنده ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد ابن أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين ، مرت به خيل ابن عمه عبد الله بن يزيد فبثت بها وأصغره ، وكان عبد الملك مطرقة فرفع رأسه وقال :

(إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ، وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ، وَكَذَلِكَ يَفْتَلُونَ) فقال خالد : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ، فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ ، فَنَدْمُنَاهَا تَدْمِيرًا) . فقال عبد الملك : أفي عبد الله تكلمني ؟ والله لقد دخل أمسي على فإظلم لسانه لحقًا ، فقال خالد : أفضل الوليد تعول يا أمير المؤمنين ؟ قال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد ، فالتفت الوليد إلى خالد ، وقال له : اسكت ويحك يا خالد ! فوالله ما تممت في العير ولا في النغير ، فقال خالد : اسمع يا أمير المؤمنين : ثم التفت إلى الوليد فقال له : ويحك : فن صاحب العير والنغير غير جدى أبى سفيان صاحب العير ، وجدى عتبة صاحب النغير^(١) ؟ ولكن لو قلت : غنيات وحبيبات والطائف ، ورحم الله عمان لقلنا صدقت^(٢) .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١١ ، وتهذيب الكلل ١ : ٣٠٢ وجمع الأمثال ٢ : ١١٥)

(١) انظر ص ١٤٧ . (٢) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما طرد الحكم بن أبي العاص وجه عبد الملك إلى الطائف - انظر ص ١٠٤ - أقام بها ، فكان يرمى غنيات اتفلقا يشرب من لبنها ، ويأوى إلى حبيبة « مصغر حيلة كفرصة : وهي السكرمة » وقوله رحم الله عمان : أى لردء إياها ، وقد أبى ليو بكر وعمر أن يرداه .

٢١٨ - خالده بن عبد الله بن أسيد^(١) وعبد الملك بن مروان

جلس يوماً عبد الملك بن مروان ، وعند رأسه خالده بن عبد الله بن أسيد ، وعند رجله أمية بن عبد الله بن أسيد ، وأدخات عليه الأموال التي جاءت من قبل الحجاج ، حتى وضعت بين يديه فقال :

« هذا والله التوفير ، وهذه الأمانة ، لا مانع لهذا ، (وأشار إلى خالده) استعملته على العراق ، فاستعمل كل مُلَطِّ^(٢) فاسق ، فأدوا إليه العشرة واحداً ، وأدى إلى من العشرة واحداً ، واستعملت هذا على خراسان (وأشار إلى أمية^(٣)) فأهدى إلى يَزْدَوْنَيْنِ حَطْلَيْنِ^(٤) ، فإن استعملتكم ضيعتم ، وإن عزلتكم قلتم استخف بنا ، وقطع أرحامنا . »

فقال خالده بن عبد الله : « استعملتني على العراق ، وأهل رجلا : سامع مطيع مناصح ، وعدو مبغض مكاشح^(٥) ، فأما السامع المطيع المناصح فإنما جزيناه ، ليزداد وداً إلى وده ؛ وأما المبغض المكاشح ، فإننا داريناه ضيفته ، وسَلَّنا حَقْدَه ، وكَثَرْنَا لك المودة في صدور رعيتك ، وإن هذا جَبَى الأموال ، وزرع لك البغضاء في قلوب الرجال ، فيوشك أن تنبت البغضاء فلا أموال ولا رجال . »

فلما خرج ابن الأشعث قال عبد الملك : « هذا والله ما قال خالده . »

(المقدم الفرید ٢ : ١١٧)

(١) هو خالده بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي الناصر بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وقد ولاه عبد الملك بن مروان بعد قتل مصعب بن الزبير على البصرة وأعمالها سنة ٧١ هـ ، وعزله عنها سنة ٧٤ هـ وولاه أخاه بشر بن مروان ، وكان على ولاية الكوفة ، فسارت ولايتها وولاية الكوفة إليه . (٢) لط حقه وألته . (٣) هو أمية بن عبد الله أخو خالده هذا ، ولاه عبد الملك على خراسان ، حتى كانت سنة ٧٨ هـ فزله ، وجعل سلطانه الحجاج ، فبعث المهلب بن أبي صفرة إليها . (٤) فرس حطم ككف : إذا هزل وأسن فضصف وتهدم . (٥) الكشاح : الذي يضمرك الدابة ، كشح له بالدابة وكشحه يعني .

٢١٩ - نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

ورأى عمرو بن عتبة بن أبي سفيان رجلا يشتم رجلا ، وآخر يسمع منه ، فقال للمستمع :

« نَزَّهَ سَمْعُكَ عَنْ اسْتِمَاعِ الْخَلَا ، كَمَا تَنَزَّهَ لِسَانُكَ عَنِ الْكَلَامِ بِهِ ، فَإِنَّ السَّامِعَ شَرِيكَ الْقَاتِلِ ، وَإِنَّمَا نَظَرُ إِلَى شَرٍّ مِثْلِي وَعَيْنُهُ فَأَفَرَّغَهُ فِي وَعَائِكَ ، وَلَوْ رُدَّتْ كُلُّ جَاهِلٍ فِيهِ ، لَسَعِدَ رَأْثُهَا ، كَمَا شَقِيَ قَاتِلُهَا » . (البيان والتبيين ٢ : ١٦٠)

٢٢٠ - تأديب معاوية لجلسائه

أَذِنَ مَعَاوِيَةُ لِلْأَعْنَفِ بْنِ قَيْسٍ - وَقَدْ وَافَى مَعَاوِيَةَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْثَمِ - فَقَدَّمَهُ عَلَيْهِ ، فَوَجَدَهُ^(١) مِنْ ذَلِكَ مُحَمَّدُ بْنُ الْأَشْثَمِ ، وَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ يَجْلِسُ بَيْنَ مَعَاوِيَةَ وَالْأَعْنَفِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ :

« إِنَّا وَاللَّهِ مَا أَذِنَّا لَكَ قَبْلَكَ ، إِلَّا لِيَجْلِسَ إِلَيْنَا دُونَكَ ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا يَرْفَعُ نَفْسَهُ فَوْقَ قَدْرِهِ ، إِلَّا يَمِيزُ ذِلَّةٌ يَجِدُهَا ، وَقَدْ فَطَلَتْ رِفْلَ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ذِلَّةً وَضْعَةً ، وَإِنَّا كَمَا تَمْلِكُ أُمُورُكُمْ ، تَمْلِكُ تَأْدِيبُكُمْ ، فَأَرِيدُوا مِنَّا مَا نُرِيدُ مِنْكُمْ ، فَإِنَّهُ أَبْقَى لَكُمْ ، وَإِلَّا قَصَرْنَا كَمَا كَرَّمْنَا ، فَكَانَ أَشَدَّ عَلَيْكُمْ وَأَعْنَفَ بِكُمْ » . (البيان والتبيين ٣ : ٢٢٠)

٢٢١ - كلام معاوية وقد سقطت ثناياه

وَلَمَّا سَقَطَتْ ثَنِيَّتَا مَعَاوِيَةَ لَفَّ وَجْهُهُ بِمِصَامَةٍ ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ ، فَقَالَ :

« لَنْ أَبْتَلِيَتْ لَقَدْ ابْتَلَى الصَّالِحُونَ قَبْلِي ، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَئِنْ

عُوقِبْتُ لَقَدْ عَوَّقَ الْخُلَاطِثُونَ قَبْلِي ، وَمَا آمَنْتُ أَنْ أَكُونَ مِنْهُمْ . وَلَئِنْ سَقَطَ عُضْوَانُ مِنِّي ، لَمَّا يَبْقَى أَكْثَرُ . وَلَوْ أَتَى عَلَى نَفْسِي لَمَّا كَانَ لِي عَلَيْهِ خِيَارٌ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَرَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا دَعَا بِالْمَافِيَةِ ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ عَتَبَ عَلَيَّ بِمَعْضُ خَاصَّتِكُمْ ، لَقَدْ كُنْتُ حَدِيثًا^(١) عَلَى عَائَتِكُمْ .

(البیان والتبيين ٣ : ٢٢١)

٢٢٢ - تقرير عبد الملك بن مروان لأحد عماله

وروى الجاحظ قال :

« قال أبو الحسن : كان عبد الملك بن مروان شديد التيقظة ، كثير التواجد لولائه ، فبلغه أن عاملاً من عماله قبل هدية ، فأمر بإشخاصه إليه ، فلما دخل عليه قال : « أَقْبِلْتَ هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، بلادك عاصمة ، وخراجك موفور ، ورعيته على أفضل حال » قال : « أَجِبْ فَمَا سَأَلْتُكَ عَنْهُ ، أَقْبِلْتَ هدية منذ وليتكَ ؟ » قال : نعم ، قال : لئن كنت قبلت ولم تعوض إنك لآثم ، ولئن أنلت مهديك لآمن مالك ، أو استكفيت ما لم يكن يُستكفاه ، إنك لجائر خائن ، ولئن كان مذهبك أن تعوض للمهدي إليك من مالك ، وقبيل ما أهمك به عند من استكفأك ، وبسط لسان عائيتك ، وأطمع فيك أهل عملك إنك لجاهل ، وما فيمن أتى أمراً لم يخل فيه من دناءة ، أو خيانة ، أو جمل ، مُضْطَنَعٌ ، نَحْيَاهُ عَنْ عَمَلِهِ . »

(البیان والتبيين ٣ : ٢٣٠)

طلب معاوية البيعة ليزيد

لما كانت سنة ثلاث وخسين ، أظهر معاوية هذا مُقْتَمَلاً ، قرأه على الناس فيه
عقد الولاية ليزيد بعده ، فلم يزل يَرُوضُ الناسَ لبيعته سبع سنين ، ويشاور ، ويُعطى
الأقارب ، ويُداني الأباعد ، حتى استوثق له من أكثر الناس .

فقال لعبد الله بن الزبير : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » قال : « يا أمير المؤمنين ، إني
أناديك ولا أناجيكَ^(١) ، إن أخاك من صدَقَكَ ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل
أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكير قبل التندم فضحك معاوية وقال : « مُلَبِّ
رواغ ! تملت السجاعة^(٢) عند الكبر ، في دون ما سَجَّحت به على ابن أخيك ما يكفيكَ » .
ثم التفت إلى الأحنف بن قيس ، فقال : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » . قال :
« نخافكم إن صدقناكم ، ونخافُ الله إن كذبتنا » .

فلما كانت سنة خمس وخسين كتب معاوية إلى سائر الأمصار أن يَفِدُوا عليه ،
فوفد عليه من كل مصر قوم^(٣) ، وكان فيمن وفد عليه من المدينة محمد بن عمرو بن حَزَم ،
فحلبا به معاوية ، وقال له : « ما ترى في بيعة يزيد ؟ » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ما أصبح
اليوم على الأرض أحدٌ هو أَحَبُّ إلى رِشْدٍ من نفسك سوى نفسي ، وإن يزيد أصبح
غنياً في المال ، وَسَطاً في الحسب ، وإن الله سائلُ كلِّ راعٍ عن رعيته ، فأتق الله ،

(١) ناجيته : سارته . (٢) وفي القند « السجاعة » وهو تصحيف ، ولم أجد « سجاعة »
في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها هو « سبع » كشمس مصدر سبع كقطع ، وأرى أنها سجاعة ككتابة ، وقد
ورد في كلام المبرد : « فإن المختار كان يهوى أنه يلهم غربا من السجاعة لأموال تكون . . . الخ » .
(٣) هكذا ورد في القند الفريد ، وفي مروج الذهب : أن وفود تلك الوفود كان ستة وتسعين ،
والمفهوم مما ورد في الإمامة والسياسة أن وفودها كان قبل سنة ٥٠ ، وفي حياة الحسن بن علي رضي الله عنه
كما يتبين لك مما سبده بعد (وقد توفي الحسن سنة ٤٩ ، أو سنة ٥٠ أو سنة ٥١) .

وَانْظُرْ مَنْ تَوَلَّى أَمْرَ أُمَّةٍ مَعَهُ ، فَأَخَذَ مَعَاوِيَةَ بِرَأْسِهِ ^(١) حَتَّى تَنْفَسَ الصُّدَاءُ ^(٢) ، وَذَلِكَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ ، ثُمَّ قَالَ : « يَا عَمْدُ : إِنَّكَ اسْرُدْ نَاصِحًا ، قُلْتَ بِرَأْيِكَ ، وَلَمْ يَكُنْ عَلَيْكَ إِلَّا ذَاكَ . قَالَ مَعَاوِيَةُ : إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ إِلَّا ابْنِي وَأَبْنَاؤُهُمْ ، فَأَبْنَى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَبْنَائِهِمْ ، أَخْرَجَ عَنِّي » .

ثُمَّ دَعَا الضُّحَّاكَ بْنَ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ ، فَقَالَ لَهُ : إِذَا جَلَسْتُ عَلَى النَّبْرِ ، وَفَرِغْتَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِي وَكَلَامِي ، فَاسْتَأْذِنِي لِلْقِيَامِ ، فَإِذَا أُذِنْتَ لَكَ فَاحْدِثْ اللَّهَ تَعَالَى . وَاذْكُرْ يَزِيدَ . وَقُلْ فِيهِ الَّذِي يَحِقُّ لَهُ مِنْ حَسَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ . ثُمَّ ادْعُنِي إِلَى تَوَلِيَّتِهِ مِنْ بَعْدِي . فَأَنَّى قَدْ رَأَيْتَ وَأَتَجَمَعْتُ عَلَى تَوَلِيَّتِهِ . فَأَسْأَلُ اللَّهَ فِي ذَلِكَ وَفِي غَيْرِهِ الْخَيْرَ ^(٣) وَحَسَنَ الْقَضَاءِ . ثُمَّ دَعَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ عُمَانَ التَّحَفِّيَّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودَةَ الْفَزَارِيَّ ، وَثَوْرَ بْنَ مَمْنُ السَّلْمِيِّ ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عِصَامِ الْأَشْعَرِيِّ ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَقُومُوا إِذَا فَرِغَ الضُّحَّاكَ ، وَأَنْ يَصْدُقُوا قَوْلَهُ ، وَيَدْعُوهُ إِلَى يَزِيدَ .

وَجَلَسَ مَعَاوِيَةُ فِي أَصْحَابِهِ ، وَأَذِنَ لَوْفُودٍ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ، فَخَلَبَهُمْ ، فَلَمَّا فَرِغَ مِنْ بَعْضِ مَوْعِظَتِهِ ، وَهَؤُلَاءِ النَّفَرُ فِي الْجُلُوسِ قَدْ قَصَدُوا الْكَلَامَ - قَامَ الضُّحَّاكَ بْنُ قَيْسٍ فَاسْتَأْذَنَ فَأَذِنَ لَهُ .

٢٣٣ - خُطْبَةُ الضُّحَّاكَ بْنِ قَيْسِ الْفَهْرِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ ، وَأَتْنِي عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَصْلَحَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَمْتَعَ بِهِ ، إِنَّا قَدْ بَلَوْنَا ^(١) الْجُمَاعَةَ وَالْأَلْفَةَ ، فَوَجَدْنَاهَا أَحَقَّ لِلدَّمَاءِ ، وَأَتَمَّنَ السُّبُلَ ، وَخَيْرًا فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ ، وَلَا خَيْرَ لَنَا أَنْ نُتْرَكَ سُدًى ،

(١) البهر بالفتح : العجب (٢) تنفس طويل . (٣) أى أسأله أن يختار لنا الأفضل ، خاربه

على غيره غيره بكسر الهمزة مع سكون الباء وفتحها : فضله وشار الله له في الأمر : جيل له فيه الخير .

(٤) خبرنا .

والأيام عَوَجٌ^(١) رواجع ، وَالْأَرْضُ يُقْدَى عليها وَيُرَاحُ ، وَالله يقول : (كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) . ولست أدري ما يختلف به الْمُصْرَانِ^(٢) ، وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ميت ، كما مات من كان قبلك من أنبياء الله وخلفائه ، نَسَأَلُ الله تعالى بِكَ لِلتَّاجِ ، وقد رأينا من دَهَقِ يَزِيدِ ابْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَحُسْنِ مَذْهَبِهِ ، وَقَصْدِ^(٣) سِيرَتِهِ ، وَيُمْنِ نَقِيَّتِهِ^(٤) ، مع ما قسم الله له من المحبة في المسلمين ، وَالشَّيْبِ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، في عقله وسياسة وشيمته الرِّضْيَةِ ، مادعانا إلى الرضا به في أمورنا ، وَالْقُنُوعِ به في الْوَلَايَةِ علينا ، فَلْيُؤَلِّهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَكْرَمَهُ اللهُ - عَهْدَهُ ، وَلِيَجْعَلْ لَنَا مَلِجاً وَمَقَرّاً بعده ، نَأْوِي إِلَيْهِ إِنْ كَانَ كَوْنٌ^(٥) ، فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ أَحَقُّ بِهَا مِنْهُ ، فَأَعِزْ عَلَى ذَلِكَ ، عِزَّ اللهِ لَكَ فِي رَشْدِكَ ، وَوَقَفَكَ فِي أُمُورِنَا .

٢٢٤ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي : بحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أوصح الله أمير المؤمنين ، إنا قد أصبحنا في زمانٍ مختلفةٍ أهواؤه ، قد اُحْدَوْدَبَتْ علينا سِيَّاسَتُهُ^(١) ، واقطوطبت^(٢) علينا أدواؤه ، وأناخت علينا أنباؤه ، ونحن نُشِيرُ

(١) بمعنى رواجع جميع ما يجيء اسم فاعل من عاج إذا رجح : أي أن الأهم ترجح على الإنسان فتسلبه ما أسلفه من الحياة ومنع العيش . (٢) المصير : اليوم واليلة والفتى إلى احمرار اللبس والنداة .

(٣) القصد : استقامة الطريق . (٤) النقية : النفس ، وهي أيضا العقل ، والمشورة ، ونفاذ الرأي ، والبطيحة . (٥) أي إن حدث حدث . (٦) السياسة : منتظم تقار الظاهر ، وحمله على سياسة الحق أي على حده ، والحرب تضربه مثلا لشدة الأمر ، قال الشاعر :

لقد حلت قيس بن هيلان حربنا على يابن السياء عندوب الظاهر

يقول : حللناهم على مركب صعب كسياء الحمار ، أي حللناهم على ما لا يثبت على مثله .

(٧) اقطوطب : افصول على قلب ، وقب القوم : اجتمعوا ، وقلب بين يمينه : جمع ، ولكراد : اجتمعت وتراكمت علينا أدواؤه ، ولم أجد كلمة « اقطوطب » في كتب اللغة ، وإنما لقيتها « اقطوطي » أي قارب في شبه إسرائها .

عليك بالرشاد ، وتدعوك إلى السداد ، وأنت يا أمير المؤمنين أحسننا نظراً ، وأنبئتنا^(١) بصراً ، ويزيد ابن أمير المؤمنين قد عرفنا سيرته ، وبلونا علانيته ، ورضينا ولايته ، وزادنا بذلك انبساطاً ، وبه اعتباطاً^(٢) ، مع ما منحه الله من الشبه بأمر المؤمنين ، والمحبة في المسلمين ، فاعزم على ذلك ، ولا تضيق به ذرعاً^(٣) ، فافقه تعالى يُقيم به الأوَدَ^(٤) ، ويردع به الأدهم^(٥) ، ويؤمن به السبل ، ويجمع به السمل ، ويُنظم به الأجر ، ويُنحس به الذخر^(٦) . ثم جلس .

٢٢٥ — خطبة ثور بن معن السلمي

فقام ثور بن معن السلمي ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
« أصلح الله أمير المؤمنين ، إننا قد أصبحنا في زمان ، صاحبه مشاغِب^(١) ، وظلّه ذاهِب^(٢) ، مكتوب علينا فيه الشقاء والسعادة ، وأنت يا أمير المؤمنين ميت ، نسأل الله بك المتاع ، ويزيد ابن أمير المؤمنين أقدمنا شرفاً ، وأبدلنا عرفاً^(٣) ، وقد دعانا إلى الرضا به ، والقنوع بولايته ، والحرص عليه ، والاختيار له ، ما قد عرفنا من صدق لسانه ووفائه ، وحسن بلائه . فاجله لنا بمدك خفياً ، فإنه أوسعنا كنفاً^(٤) ، وأقدمنا سلفاً ، وهو رتق لما فُتق ، وزيمام لما شيعت^(٥) ، ونكالت لمن فارق وفاق ، وسلم لمن واظب . وحافظ الحق . أسأل الله لأمر المؤمنين أفضل البقاء والسعادة ، والخيرة فيما أراد ، والتوطن في البلاد ، وصلاح أمر جميع العباد .
ثم جلس .

(١) لعله وانبئتاه . (٢) يسط فلانا فانبسط : سره والاختيار : للسرة . (٣) شاق بالامر
دوما : شغفت طاقته ولم يجد من المكره فيه خلاصا . (٤) الاموجاج . (٥) الالاد : الحسم
الشحيح الذي لا يبرغ ذل الحق . (٦) صاحبه يعني به مساوية ، أي يشابهه المشاغبون ، اسم معمول من
الشغب : وهو تهيج الشر . (٧) كناية من دتو أجله . (٨) للمروف . (٩) الككتف :
الظل والجانب . (١٠) ثمت الأمر ، كفتح شتا : التثنية وقرق .

٢٣٦ — خطبة عبد الله بن عصام الأشعري

قام عبد الله بن عصام ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إنا قد أصبحنا في دُنْيَا مُنْقَضِيَةٍ ، وأهواء منجذمة ^(١) ، نخاف حَذَّهَا ، وننظر حِدَّهَا ، شديد مُنْجَذَرُهَا ، كثير وَغَرُّهَا ، شاحنة مَرَاتِبُهَا ^(٢) ، ثابتة مراتبها ، صعبة مراتبها ، ظلمتُ يا أمير المؤمنين وراءك ووراء العباد لا يخلد في الدنيا أحد ، ولا يبقى لنا أمد ^(٣) ، وأنت يا أمير المؤمنين مسئول عن رعيتك ، ومأخوذ بولايتك ، وأنت أنظر الجماعة ، وأهل بيتنا بحسن الرأي لأهل الطاعة ، وقد هدبت ليزيد في أكل الأمور ، وأفضلها رأيا ، وأجملها رضا ، فاقطع بيزيد قالة ^(٤) الكلام ، ونخوة ^(٥) اللبيل ، وشمت للفاقي ، واكبت ^(٦) به الباذخ ^(٧) للمادى ، فإن ذلك ألمٌ لشمسك ، وأسهل للوعث ^(٨) ، فأهزم على ذلك ، ولا تتراعى بك الظنون » .

٢٣٧ — خطبة عبد الله بن مسعدة الفزاري

ثم قام عبد الله بن مسعدة الفزاري ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، وأمتع به ، إن الله قد آتاك بخلافته ، واختصك بكرامته ، وجعلك عصمة لأوليائه ، وذات نكاية لأعدائه ، فأصبحت بأنعمه جدلا ،

(١) جلده فانجلم : قطعه . (٢) المراتب : جميع مرتب (كجفر) للسكان المشرف ، يقف عليه الرقيب . (٣) الأمد : القناعة والمنتهى . (٤) قالة : جمع كائل ، أو مصدر قال كالقول ، والقتال ، والقتل . (٥) الكبير والظلمة . (٦) كبت : صرعه وأغزاه ، ورد العدو بغيره ، وأذله . (٧) بلغ كفرج ونصر : تكبر وعلا ، وشرف باذخ : حال . (٨) وعث الطريق من باب تمب وقرب : إذا شق على السالك ، فهو وعث (يسكون العين وكسرها) .

وَلَمَّا حَمَلَتْ مُحْتَمِلًا ، يَكْشِفُ اللَّهُ تَعَالَى بِكَ الْمَيَّ (١) ، وَيَهْدِي بِكَ الْبِدَا ، وَيَزِيدُ
ابْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَحْسَنُ النَّاسِ بِرَهْنِكَ رَأْفَةً ، وَأَحَقَّهُمْ بِالْخُلَافَةِ بِمَدِّكَ ، قَدْ سَاسَ الْأُمُورَ
وَأَحْكَمَهُ الْهُمُورُ ، لَيْسَ بِالصَّغِيرِ التَّنْبِيهِ (٢) ، وَلَا بِالْكَبِيرِ السَّنِيهِ ، قَدْ احْتَجَبَ (٣) الْمَكَارِمَ
وَارْتَجَى حُلَّ التَّظَاهِيرِ ، وَأَشَدَّ النَّاسِ فِي الْعُدُوِّ نَكَابَةً ، وَأَحْسَنَهُمْ صُنْعًا فِي الْوِلَايَةِ ،
وَأَنْتَ أَغْنَى بِأَمْرِكَ ، وَأَحْظَ لَوْصِيَّتِكَ ، وَأَحْرَزَ لِنَفْسِكَ ، أَسْأَلُ اللَّهَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْعَافِيَةَ
فِي غَيْرِ جَهْدٍ (٤) ، وَالنِّعْمَةَ فِي غَيْرِ تَضْيِيرٍ .

٢٢٨ - خطبة عمرو بن سعيد الأشدق

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ لِعَمْرِو بْنِ سَعِيدِ الْأَشْدَقِ : قُمْ يَا أَبَا أُمِيَّةَ ، فَقَامَ خُفْدُ اللَّهِ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ يَزِيدَ بْنَ مَعَاوِيَةَ أَتَلَّ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلَّ تَأْمُونَهُ ، طَوِيلَ الْبَاعِ ،
رَحْبُ الدَّرَاعِ ، إِنْ اسْتَفْضَيْتُمْ إِلَيَّ حِلْمَهُ وَسِعْكُمْ ، وَإِنْ احْتَجَبْتُمْ إِلَيَّ رَأْيَهُ أَرَشَدَكُمْ ، وَإِنْ
افْتَقَرْتُمْ إِلَيَّ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ ، جَذَعٌ (٥) قَارِحٌ (٦) ، سُبُوقٌ فَسَبَقَ ، وَمَوْجِدٌ فَجَبَدَ ،
وَقُورِعٌ فَفَازَ سَهْمُهُ ، فَهُوَ خَلْفُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلْفَ مِنْهُ . فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ :
« اجْلِسْ أَبَا أُمِيَّةَ . فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ . »

قَالَ مَعَاوِيَةُ : « أَوْ كَلَّكُمْ قَدْ أَجْمَعَ عَلَى هَذَا رَأْيُهُ ؟ » فَقَالُوا : « كُلُّنَا قَدْ أَجْمَعَ »

(١) لَمِىَ هُنَا : ذَهَابَ بِصَرِّ الْقَلْبِ . (٢) التَّنْبِيهِ وَالْقَهْرُ : الْمَيْسُ ، فَهُوَ كَفَرَحٍ نَهَامَةٌ .
(٣) احْتَجَبَ الْمَالُ : قَسَمَهُ وَاحْتَوَاهُ . (٤) الْمَشَقَّةُ . (٥) الْجِسْفُ : الشَّابُّ الْمُدَّتْ .
(٦) أَيْ شَدِيدٌ يَجْرِبُ ، وَهُوَ فِي الْأَصْلِ وَصْفٌ لِلْقِرْسِ ، قِرْحُ الْفَرَسِ قِرْحًا : إِذَا أَلَى أَنْصَى أَسْنَانَهُ
() وَلَهُ أَوْبَحُ أَسْنَانٍ يَتَحَوَّلُ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، يَكُونُ جُلْعًا - وَذَلِكَ إِذَا كَانَ فِي السِّنَةِ الثَّانِيَةِ -
ثُمَّ ثَلَاثًا : يَفْتَحُ فِكْرَهُ مَعَ تَشْدِيدِ الْيَاءِ - فِي السِّنَةِ الثَّلَاثَةِ - ثُمَّ رِبَاعِيًا : يَفْتَحُ أَوَّلَهُ وَثَانِيَهُ وَتَخْفِيفِ الْيَاءِ - إِذَا
سَقَطَتْ رِبَاعِيَةٌ ، وَثَبَتَتْ مَكَانَهَا مِنْ ذَلِكَ إِذَا اسْتَمَّتْ الرِّبَاعِيَّةُ - ثُمَّ قَارِحًا - إِذَا سَقَطَتْ السِّنُّ أَلَى تَلٍّ رِبَاعِيَةٍ
وَتَبَتْ مَكَانَهَا ثَابَةً ، وَهُوَ قَارِحٌ أَلَى صَارِيهِ قَارِحًا ، وَلَيْسَ بِهِ الْقُرُوحُ سَقُوطُ سِنٍّ ، وَلَا ثَابِتُ سِنٍّ ، وَذَلِكَ
إِذَا اسْتَمَّتْ الْخَامِسَةُ وَدَخَلَ فِي السَّادَةِ .

رأيه على ما ذكرنا . قال : « فأين الأحنف ؟ » فأجاب ، قال : « ألا تتكلم ؟ »
فقام الأحنف .

٢٢٩ - خطبة الأحنف بن قيس

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن الناس قد أمسوا في مُنكَرٍ زمانٍ قد سَلَفَ ،
ومعروفٍ زمانٍ مُؤْتَنَفٍ ^(١) ، ويزيد ابن أمير المؤمنين نِعَمَ اِخْلَافٍ ، فَإِنْ تَوَلَّاهُ عهدك ،
فمن غير كَيْفٍ مُقْنٍ ، أو مَرَضٍ مُضْنٍ ، وقد حَلَبْتَ الدهور ^(٢) ، وجَرَبْتَ الأمور ،
فَاعْرِفْ من تَسْنِدٍ إليه عهدك ، ومن تَوَلَّاهُ الأمر من بعدك ، واعصِ رأي من يأمرك ،
ولا يَقْدِرْكَ ، ويشير عليك ولا ينظر لك ، وأنت أنظرُ للجاعة ، وأعلم باستقامة الطاعة ،
مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ، ولا يبأيون ليزيد ما كان
الحسن ^(٣) حيا . »

٢٣٠ - خطبة الضحاك بن قيس

فَضَب الضحاك بن قيس ، فقام الثانية ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أصلح الله أمير المؤمنين ، إن أهل النفاق من أهل العراق ، مُرُوهُمْ في أنفسهم
الشقاق ، وَأَلْقُوهُمْ في دينهم الفراق ، يَرَوْنَ الحق على أهوائهم ^(١) ، كَأَنَّمَا يَنْظُرُونَ

(١) مستأنف . (٢) هكذا في مروج الذهب . وفي الإمامة والسياسة : « وقد حلبت النهر اشطره »
وأصله من حلب شطرى الناقة (يفتح اللين) ولها شطران : قادمان وآخران (بكسر الخاء) والشار كل
خلفين من أخلانها . واخلف (بكسر الخاء) لما كالفرع البقرة ، وهو مثل يضرب للجرب ، واشطره يدل
من النهر منصوب . (٣) هنا وما ورد في كلام الضحاك والأحنف به ، يدل على أن تلك الخطب كانت
في حياة الحسن بن علي كما أشرنا إليه قبل . (٤) أى على أغراضهم وميوطن .

بِأَقْسَائِهِمْ . اخْتَالُوا جِلا وَبَطَرًا . لَا يَرْقُبُونَ مِنْ اللَّهِ رَاقِبَةً ، وَلَا يَخَافُونَ وَبَالَ عَاقِبَةٍ ،
اتَّخَذُوا لِإِبْلِيسَ لَهُمْ رَبًّا ، وَاتَّخَذُوا لِإِبْلِيسَ حِزْبًا . فَمَنْ يُقَارِبُوهُ لَا يَسْرِوْهُ ، وَمَنْ يَفَارِقُوهُ
لَا يَسْرِوْهُ . فَادْفَعْ رَأْيَهُمْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَحُورِمٍ ، وَكَلَامِهِمْ فِي صُدُورِهِمْ ، مَا لِلْحَسَنِ
وَذَوِي الْحَسَنِ فِي سُلْطَانِ اللَّهِ الَّذِي اسْتَخْلَفَ بِهِ مَعَاوِيَةَ فِي أَرْضِهِ ؟ هِيَ بَاتٍ لِأَنْوَارِ
الْخَلَائِفَةِ عَنْ كَلَاةٍ . وَلَا يَجِبُ غَيْرُ الْقَرِّ الْمَصْبَةِ . فَوَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ
عَلَى الْمُنَاصَحَةِ لِإِمَامِكُمْ . وَكَاتِبِ نِيَّتِكُمْ ^(١) وَصَهْرِهِ ^(٢) ، يَسَلِّمْ لَكُمْ السَّاجِلُ ، وَتَرْجِعُوا
مِنَ الْأَجَلِ .

٢٣١ - خطبة الأحنف بن قيس

ثم قام الأحنف بن قيس ، خمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنَّا قَدْ قَرَّرْنَا ^(١) عَنْكَ قَرِيبًا ، فوجدناك أَكْرَمَهَا رَنْدًا ،
وَأَشَدَّهَا عَقْدًا ، وَأَوْفَاها عَهْدًا ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَفْتَحِ الْعِرَاقَ قِتْوَةً ^(٢) ، وَلَمْ تَنْظُرْ عَلَيْهَا
قَمْعًا ^(٣) ، وَلَكِنَّكَ أَعْطَيْتَ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ مِنْ عَهْدِ اللَّهِ مَا قَدْ عَلِمْتَ ، لِيَكُونَ لَهُ الْأَمْرُ
مِنْ بَيْدِكَ ، فَإِنْ تَقَبَّ فَأَنْتَ أَهْلُ الْوَفَاءِ ، وَإِنْ تَقَدَّرَ ^(٤) تَعَلَّمَ وَاللَّهُ أَنْ وِرَاءَ الْحَسَنِ خِيُولًا
جِيَادًا ، وَأَذْرُهَا شِدَادًا ، وَسِيُوقًا حِدَادًا ، إِنْ تَذُنْ لَهُ شَيْئًا مِنْ غَدَرٍ ، تَجِدْ وِرَاءَهُ بَاعًا
مِنْ نَسْرِ ، وَإِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّ أَهْلَ الْعِرَاقِ مَا أَحْبَبُوا مِنْذُ ابْنِضُوكَ ، وَلَا ابْنِضُوا عَلَيْهَا وَحَسَنًا
مِنْذُ أَحْبَبُوهَا ، وَمَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ خَيْرٌ مِنَ السَّمَاءِ ، وَإِنَّ السُّيُوفَ الَّتِي شَمَرُوهَا عَلَيْكَ
مَعَ عَلِيٍّ يَوْمَ صِفِّينَ تَلَّتْ حَوَائِجَهُمْ ، وَالْقُطُوبَ الَّتِي ابْنِضُوكَ بِهَا ، لَتَبَيَّنَ جَوَانِحُهُمْ ، وَإِيمَ اللَّهِ
لِإِنْ الْحَسَنَ لِأَحَبُّ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ مِنْ عَلِيٍّ . »

(١) وكان معاوية من كتاب الوصي . (٢) وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج
النبي عليه الصلاة والسلام . (٣) فر الهابة : كشف من أسلحتها لينظر ما فيها ، وفر من الأمر : بحث عنه .
(٤) فتح البلد فترة : أنه قهرها . (٥) مات قنصا : أصابه شربة أو رمية فأتى مكانه .
(٦) غدره وغلو به كفسر وغرب وسمع .

٢٣٢ - خطبة عبد الرحمن بن عثمان الثقفي

ثم قام عبد الرحمن بن عثمان الثقفي ، لعهد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أصلح الله أمير المؤمنين ، إن رأى الناس مخطئ ، وكثير منهم منحرف ،
 لا يدعون أحداً إلى رشاد ، ولا يُحييون داعياً إلى سداد ، مجانبون لرأى الخلفاء ، مخالفون
 لهم في السنة والقضاء ، وقد وقفت ليزيد في أحسن القضية ، وأرضاها لحمل الرعية ،
 فإذا خار الله لك فاهزم ، ثم اقطع قالة الكلام ، فإن يزيد أعظمنا حيفاً وعلماً ، وأوسعنا
 كنفاً ، وخيرنا سلفاً ، قد أحكفته التجارب ، وقصدت به سبل المذاهب ، فلا يصرفنك
 عن بيئته صارف ، ولا يقفن بك دونها واقف ، عن هو شاسع ^(١) عاصر ، يتوص ^(٢)
 للفتنة كل مناص ، لسانه ملئ ، وفي صدره دلاء دوى ، إن قال فشرُّ قائل ، وإن
 سكت فداء غائل ^(٣) ، قد عرفنا من هم أولئك ، وما هم عليه لك ، من الجانية لتوفيق ،
 والتكلف لتفريق ، فاجل بيئته عنا النمة ، واجمع به تئمل الأمة ، ولا تخذ عنه
 إذ هديت له ، ولا تنبش عنه إذ وقفت له ، فإن ذلك الرأي لنا ولك ، والحق علينا
 وعليك . أسأل الله العون وحسن العاقبة لنا ولك بمنه . »

٢٣٣ - خطبة معاوية

فقام معاوية ، فقال :
 « أيها الناس : إن لإبليس من الناس إخواناً وخلّاناً ، بهم يستعد ، وإلّهم يستعين
 وعلى ألسنتهم ينطق ، إن رجوا طمعاً أو جفوا ^(١) وإن استخفى عنهم أزعفوا ^(٢) ،

(١) من شح للزول كبح : يبد . (٢) فاس مناص : تحرك . (٣) من خاله : أى أهلكه .

(٤) أسرعوا ، وجف البحر والفرس وجيفا : عفا ، وأوجفته : إذا أعتبه ، قال تمال :

« فَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رَكَابٍ » أى ما أعلم .

(٥) أوجف القوم : عاضوا في أخبار القوم ونحوها ، قال تمال : « وَالْمُرْجَفُونَ فِي الْمَدِينَةِ » .

نَمَّ يُلْقِحُونَ^(١) الْفَتَنَ بِالْفُجُورِ ، وَيَشْقُقُونَ لَهَا حَطَبَ النِّفَاقِ ، عَيَّابُونَ مَرْتَابُونَ ، إِنْ كَوَّزَا
عُرْوَةَ أَمْرِ حَفِيفُوا ، وَإِنْ دُعُوا إِلَى غَيْرِ أَسْرَفُوا ، وَلَيْسُوا أَوْلَئِكَ بِمُنْتَهَيْنَ وَلَا بِمُقْلَمِينَ وَلَا
مُتَّظِلِينَ ، حَقَّ تَصْيِبُهُمْ صَوَاعِقُ^(٢) خَزْيٍ وَبِيلٍ ، وَتَعَلَّ بِهِمْ قَوَارِعُ^(٣) أَمْرِ جَلِيلٍ ،
نَيْثُ^(٤) أَصُولِهِمْ كَاجْتِنَاطِ أَصُولِ الْفَقْعِ ، فَأَوَّلَى لِأُولَئِكَ نَمٌّ أَوَّلَى ، فَإِنَّا قَدْ قَدَّمْنَا
وَأَنْذَرْنَا ، إِنْ أَغْنَى التَّقَدُّمُ شَيْئًا أَوْ نَعِمَ التَّذَرُّعُ^(٥) .

٢٣٤ - خطبة يزيد بن المنعم

نَمَّ قَامَ يَزِيدُ بْنُ الْمُنَعِّمِ ، قَالَ :

« أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى مَعَاوِيَةَ - ، فَإِنْ هَلَكَ هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى
يَزِيدَ - ، فَسَ أَبَى هَذَا - وَأَشَارَ إِلَى سَيْفِهِ - ، قَالَ مَعَاوِيَةُ : اجْلِسْ فَإِنَّكَ
سَيِّدُ الْخُلَطَاءِ .

٢٣٥ - خطبة الأخنف

نَمَّ تَكَلَّمَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ ، قَالَ :

« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : أَنْتَ أَهْلُنَا يَزِيدُ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ ، وَمَتَدَخُلِهِ
وَمُخْرَجِهِ ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَهُ اللَّهُ رِضًا وَلِهَذِهِ الْأُمَّةُ ، فَلَا تَشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ

(١) فِي الْأَسْلَمِ « يُلْقِحُونَ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ ، وَسَوَابِغُ : « يُلْقِحُونَ » مِنْ أَلْقَحَ النَّاقَةَ وَالنَّخْلَةَ .

(٢) جَمْعُ صَاعِقَةٍ : وَهِيَ الْمَوْتُ وَكُلُّ طَائِفٍ مَهْلِكٍ . وَأَرْضٌ وَبِيلَةٌ : وَغِيَّةٌ لِلرَّيْحِ .

(٣) جَمْعُ قَارِعَةٍ ، وَهِيَ الدَّامِيَةُ الْفَاجِئَةُ . قَالَ تَمَالُ : « وَلَا يَزَالُ الْقَدِيرُ يَكْفُرُ وَتُصِيبُهُمْ

بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةً » . (٤) تَنْطَلِعُ ، وَالْفَقْعُ بِالْفَتْحِ وَيَكْسِرُ : الْبَيْضَاءُ لِلرَّعْوَةِ مِنَ الْكَلَاءِ .

(٥) التَّنْذَرُ : الْإِتْدَارُ . قَالَ تَمَالُ : « فَكَيْفَ كَانَ عَدَايَ وَتَذَرِي » أَيْ إِنْ سَلِمْتُ . وَفِي الْإِمَامَةِ

وَالسِّيَاسَةِ حَقَبُ هَذِهِ الْخُطْبَةِ : وَهَذَا مَعَاوِيَةُ لِقِسْمِكَ فَوَلَّاهُ الْكُوفَةَ ، وَهَذَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ فَوَلَّاهُ الْجَزِيرَةَ .

منه غير ذلك ، فلا تزودنه الدنيا وأنت صائر إلى الآخرة ، فإنه ليس لك من الآخرة إلا ما طالب ، واعلم أنه لا حجة لك عند الله إن قدمت يزيد على الحسن والحسين ، وأنت تعلم من سما ، وإلى ما سما ، وإنما علينا أن نقول : « سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ، غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » .

قال صاحب العقد : ففرق الناس ، ولم يذكروا إلا كلام الأحنف ، ثم بايع الناس ليزيد بن معاوية ، فقال رجل وقد دُعِيَ إلى البيعة « اللهم إني أعوذ بك من شر معاوية » فقال له معاوية : « تسوذ من شر نفسك ، فإنه أشد عليك وبايع » فقال : « إني أبايع وأنا كاره للبيعة » ، فقال له معاوية : بايع أيها الرجل فإن الله يقول : « قَسَمَ أَنْ تَبْغُوا شَيْئًا وَيَعْمَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا » .

أما ابن قتيبة فيقول :

قالوا : فاستخار الله معاوية ، وأعرض عن ذكر البيعة ، حتى قدم المدينة سنة خمسين ، ففتقاه الناس ، فلما استقر في منزله أرسل إلى عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وأمر حاجبه ألا يأذن لأحد من الناس حتى يخرج هؤلاء الثفر ، فلما جلسوا تكلم معاوية فقال :

٢٣٦ - خطبة معاوية

« الحمد لله الذي أمرنا بحمده ، ووعدنا عليه ثوابه ، ونحمدُه كثيرًا ، كما أنعم علينا كثيرًا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أما بعد : فإنني قد كبر سنِّي ، وَوَسَّنْ عَظْمِي ، وَقَرُبَ أَجْلِي ، وأوشكت أن أذْغِي فَأُجِيبُ ، وقد رأيت أن أستخلف عليكم بمدى يزيد ، ورأيت لكم رضا ، وأنتم عباد الله قريش وخيارها وأبناء خيارها ، ولم يمتني أن أحضر حسنًا وحسينًا إلا أنهما أولاد أبيهما ، على حسن رأي فيهما ، وشديد محبتي لهما ، فرُدُّوا على أمير المؤمنين خيرًا ، يرحم الله » .

٢٣٧ - خطبة عبد الله بن عباس

فصلى عبد الله بن عباس فقال :

« الحمد لله الذي آلمنا أن نحمده ، واستوجب علينا الشكر على آلائه ، وحسن بلائه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وصلى الله على محمد وآل محمد . أما بعد : فإنك قد تكلمت فأنصتوا . وقلت فسمعتنا ، وإن الله جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لرسالته ، واختاره لوحيه ، وشرقه على خلقه ، فأشرف الناس من تشرف به ، وأولاهم بالأمر أخصهم به ، وإنما على الأمة التسليم لتبليها إذ اختاره الله لها ، فإنه إنما اختار محمداً بملئه ، وهو العليم الخبير ، وأستغفر الله لي ولكم » .

٢٣٨ - خطبة عبد الله بن جعفر

فقام عبد الله بن جعفر فقال :

« الحمد لله أهل الحمد ومُنْتَهَاهُ ، نحمدُه على إلهامنا حمده ، ونرغب إليه في تأدية حقّه ، وأشهد أن لا إله إلا الله واحداً صَمداً^(١) ، لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً ، وأن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن هذه الخلقة إن أخذ فيها بالقرآن : قد أولو الأرحام بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله ، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبي بكر وعمر ، فأبى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟ وإيم الله لو وُلُوهُ بعد نبينهم ، لوضوا الأمر موضعه ، لحقه وصدق ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف في الأمة سيفان ، فأتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعياً ونحْن رعية ، فانظر لرعيك ، فإنك مسئول عنها غداً .

(١) الصمد : السيد لأنه يصمد إليه في الحوائج ، أي يقصد ، صمده من باب نصر : قصد .

وأما ما ذكرت من ابقى عي ، وتركك أن تحضرها ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك تعلم أنهما مقدي العلم والكرم ، قل : أودع ، واستغفر الله لي ولكم .

٢٣٩ - خطبة عبد الله بن الزبير

فكلم عبد الله بن الزبير فقال :

« الحمد لله الذي عرفنا دينه ، وأكرمنا برسوله ، أحده على ما أبلى وأولى ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تقناؤها بما أثرها السيئة ، وأضلها الرخصة ، مع شرف الآباء ، وكرم الأبناء ، فأتى الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا عبد الله بن جعفر ذي الجناحين ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى خلف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما ، وما هما ، فاتى الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك .

٢٤٠ - خطبة عبد الله بن عمر (المتوفى سنة ٧٤ هـ)

فكلم عبد الله بن عمر فقال :

الحمد لله الذي أكرمنا بدينه ، وشرقا بنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أما بعد : فإن هذه الخلافة ليست بيهرفلية ، ولا قيصرية ، ولا كسروية ، يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ولو كان كذلك كنت القائم بها بعد أبي ، فوالله ما أدخلني مع السعة من أصحاب الشورى ، إلا على أن الخلافة ليست شرطا مشروطا ، وإنما هي قرش خاصة ، لأن كان لها أهلا ، ممن ارتضاء الملون لأنفسهم ، من كان أتقى وأزكى ، فإن كنت تريد أئمة من قرش ، فلمصرى إن يزيد من قضاها ، واعلم أنه لا يبقى عنك من الله شيئا .

٢٤١ - خطبة معاوية

فصلى معاوية فقال :

« قد قلتُ وقلتم ، وإنه قد ذهبت الأبداء وبقيت الأبداء ، فابنى أحبُّ إلىَّ من أبنائهم ، مع أن ابني إن قالوا لقوم^(١) وجد مقالا ، وإنما كان هذا الأمر لبني عبد مناف ، لأنهم أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى الناس أبا بكر وعمر ، من غير مَدِينٍ للرك ولا الخلافة ، غير أنهما سارا بسيرة جميلة ، ثم رجع الملك إلى بنى عبد مناف ، فلا يزال فيهم إلى يوم القيامة ، وقد أخرجك الله يا بن الزبير وأنت يا بن عمر منها . فأما ابنا حمى هذان فليسا بخارجين من الرأى إن شاء الله » ثم أمر بالرحلة وأعرض عن ذكر البيعة ليزيد ، ولم يقطع عنهم شيئا من صلاتهم وأعطيتهم^(٢) ، ثم انصرف راجعا إلى الشام ، وسكت عن البيعة ، فلم يَمْرُضْ لها إلى سنة إحدى وخمسين .

قال ابن قتيبة : ثم لم يلبث معاوية بعد وفاة الحسن رحمه الله (سنة ٥١) إلا يسيرا حتى بايع ليزيد بالشام ، وكتب يبعثه إلى الآفاق ، وكان عامله على المدينة مروان بن الحكم فكتب إليه بذلك ، وأمره أن يجمع مَنْ قَبِلَهُ من قريش وغيرهم من أهل المدينة ، ثم يبايعوا ليزيد ، فلما قرأ كتاب معاوية أبى من ذلك وأبته قريش ، وكتب إلى معاوية : إن قومك قد أبوا إيجابتك إلى بيتك ابنتك ، فأرني رأيك ، فكتب إليه يأمره أن يعتزل عمله ، ويخبره أنه قد وثى للمدينة سعيد بن العاص ، فخرج مروان مُتَضَاعِفاً في أهل بيته وأخواله من بنى كِنانة حتى أتى دمشق ، ودخل على معاوية ، فسلم عليه بالخلافة ، ثم قال :

(١) قالوا : فاعل من القول ، كجاءت وعاطب وكألف (٢) أعطيت : جميع أصليته ، وهو جمع صلاته .

٢٤٢ - خطبة مروان بن الحكم

« إن الله عظيمٌ حَظْرُهُ ، لا يَقْدِرُ ^(١) قَادِرٌ قَدْرُهُ ، خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ عِبَادًا ، جَمَلَهُمْ لِدَعَائِهِمْ دِينَهُ أَوْتَادًا . هُمْ رِقَابُوهُ عَلَى الْبِلَادِ ، وَخُلَفَاؤُهُ عَلَى الْعِبَادِ ، أُسْفَرُ ^(٢) بِهِم الظُّلْمُ ، وَأَلْفَ بِهِم الدِّينَ ، وَشَدَّدَ بِهِم الْيَقِينَ ، وَمَنَحَ بِهِم الظُّفْرَ ، وَوَضَعَ بِهِم مِنْ اسْتَكْبَرِ ، فَكَانَ مَنْ قَبْلَكَ مِنْ خُلَفَائِنَا ، يَعْرِفُونَ ذَلِكَ فِي سَالِفِ زَمَانِنَا ، وَكَانُوا نَسْكُونُ لَهُمْ عَلَى الْعُلَاةِ إِخْوَانًا ، وَعَلَى مَنْ خَالَفَ عَنْهَا أَعْوَانًا ، بُشِدُّ بِنَا الْعَصْدُ ، وَيُقَامُ بِنَا الْأَوْدُ ، وَنُسْتَشَارُ فِي الْقَضِيَّةِ ، وَنُسْتَأْمَرُ ^(٣) فِي أَمْرِ الرِّعْيَةِ ، وَقَدْ أَصْبَحْنَا الْيَوْمَ فِي أُمُورٍ مُسْتَحِيرَةٍ ^(٤) ، ذَاتَ وَجْوهٍ مُسْتَدِيرَةٍ ، تَفْتَحُ بِأَزْمَةِ الضَّلَالِ ، وَتُخْلِسُ ^(٥) بِأَسْوَأِ الرِّجَالِ ، يُؤَاكِلُ جَزُورَهَا ^(٦) ، وَتَمْتَقُ أَحْلَابَهَا ^(٧) ، فَالْتَمَسْنَا لَانْتِصَارَ فِي رِضَاعِهَا ، وَنَحْنُ فِطَامُهَا وَأَوْلَادُ فِطَامِهَا ، وَأَيْمَنَ اللَّهُ لَوْلَا هَهُؤُمُ مَوَكَّدَةٌ ، وَمَوَاقِيقُ مُعَقَّدَةٌ ^(٨) ، لَأَقْتُ أَوْدَ وَلِيَّهَا ، فَأَقِمِ الْأَمْرَ يَا أَبَا سَفْيَانَ ، وَاعْدِلْ عَنْ تَأْيِيدِكَ الصَّبِيَّانَ ، وَأَعْلَمْ أَنَّ لَكَ فِي قَوْمِكَ نَظَرَاءَ ، وَأَنَّ لَهُمْ عَلَى سَنَاوَاتِكَ وَزَرَءَا .
فَنَضِيبُ مَعَاوِيَةَ مِنْ كَلَامِهِ غَضَبًا شَدِيدًا ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ غِيظَهُ بِحِلْيَةٍ ، وَأَخَذَ بِيَدِ مَرْوَانَ ، ثُمَّ قَالَ :

- (١) قدره من بابي نصر وضرب وقدره تقديرًا : عظمه ، قال تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ »
أي ما عظموه حق تعظيمه . (٢) سفر الصبح وأسفر : أضاء واشرق ، أو هو متبدد من سفرت الحرب
أي ولت ، وسفرت المرأة كسفت من وجهها ، فالملحى كشف بهم الظلم . (٣) الاستئثار : المشاورة .
(٤) في الأصل « مستحيرة » أي مستخير صاحبها ، من استخار الله في أمره : طلب أن يجعل له فيه الخير ،
وأرى أنها « مستحيرة » بالحاء : أي مستخير صاحبها أي متخير ، من استحار : إذا نظر إلى الشيء ، ففتى عليه
ولم يجد له سبيلًا ، ويؤيد هذا قوله بعد « ذات وجوه مستديرة » أي مستغلقة مبهمة ليست مستقيمة .
(٥) جلس الجبير كضربه : فشاه مجلس (يكسر الحاء) وهو كساه على ظهر الجبير تحت البرذعة « وفي
الأصل » وتجلس بأسوأ الرجال » بيمينين وهو تصحيف . (٦) الجزور : الجبير ، أو خاص بالثناثة
الجزورة . (٧) امتق الفصل ما في الضرع شره كله ، والأحلاب جمع حلب (بفتح الحاء) وهو اللبن المخلوب .
(٨) اسم مفعول من عقه بالتحديد مضف عقه الجبل والبيح والبهه : إذا شده .

٢٤٣ - خطبة معاوية

« إن الله قد جعل لكل نبي أهلاً ، وجعل لكل خير أهلاً ، ثم جعل في الكرم مني محمداً ^(١) ، والمزب مني والداً ، اخترت من قروم ^(٢) قادة ، ثم استللت سيّد سادة ، فأنت ابن ينايع الكرم ، فمرحباً بك وأهلاً من ابن عم ، ذكرت خلفاء مفقودين ، شهداء صديقين ، كانوا كانوا ، وكنت لهم كما ذكرت ، وقد أصبحنا في أمور مستعيرة ، ذات وجوه مستديرة ، وبك والله يا بن العم نرجو استقامة أودها ، وذلوله ^(٣) صوبتها ، وسفور ظلماتها ، حتى يتطأطأ ^(٤) جسيمها ، وبركب بك عظيمها ، فأنت نظير أمير المؤمنين ، وعُدته في كل شديدة وعُضده ، والثاني بعد ولي عهده ، فقد وليتكم قومك ، وأعظمت في الخراج سهمك ، وأنا مجيز وفدك ، ومحسن رفدك ^(٥) ، وعلى أمير المؤمنين غناك ، والنزول عند رضاك ^(٦) . »

٢٤٤ - مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر

وروى أن مروان لما ورد عليه كتاب معاوية ، قرأه على أهل المدينة وقال :
« إن أمير المؤمنين قد كبر سنه ، ودقّ عظمه ، وقد خاف أن يأتيه أمر الله تعالى ، فيدع الناس كالنم لاراعى لها ، وقد أحب أن يُسلم علماً ، ويقم إماماً » ، فقالوا : وقل الله أمير المؤمنين وسدده ، ليفعل ، فكتب بذلك إلى معاوية ، فكتب إليه أن سم يزيد ،

(١) المخت: الأصل . (٢) جمع قرم بالفتح : وهو السيد . (٣) هكذا في الأصل ، وفي كتب اللغة : « الدل بالكسر والضم اللين وهو ضد الصوبة ، ذل فهو ذلول ، يكون في الإنسان والدابة . »
(٤) طأطأ رأسه : خفقه خطأطأ . (٥) الرقد : العطاء والصلاة . (٦) قال المسعودي : « وجعله ولي عهد يزيد ، وردّه إلى المدينة ، ثم إنّه مزلّه عنها ، وولاه الوليد بن حبة بن أبي سفيان ، ولم يف لمروان بما جعل له من ولاية عهد يزيد » ، وقال ابن خثيمة : « فكان أول مارزق ألف دينار في كل حلال ، وفرغ له في أهل بيته مائة مائة . »

فقرأ الكتاب عليهم وسمى يزيد ، وخطبهم فخصهم على الطاعة ، وحذرهم الفتنة ، ودعاهم إلى بيعة يزيد وقال : سَنَةُ أَبِي بَكْرٍ الْهَادِيَةُ ، فقام عبد الرحمن بن أبي بكر ، فقال : « كَذِبْتَ وَاللَّهِ يَا مَرْوَانُ ، وَكَذَبَ مَعَاوِيَةَ مَعَكَ ، إِنْ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ وَالشَّيْءَ ، وَبَايَعَ لِرَجُلٍ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ ، وَاخْتَارَهُ لَأَمَةٍ مَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لَا يَكُونُ ذَلِكَ ، لَا تَحْدُثُوا عَلَيْنَا سَنَةَ الرُّومِ ، كُلَّمَا مَاتَ هِرَقْلٌ قَامَ مَكَانَهُ هِرَقْلٌ ، فَقَالَ مَرْوَانُ : « أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ هَذَا الْمُتَكَلِّمُ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ : « وَالَّذِي قَالَ لِلْوَلَدَيْنِ أَفْبَى لِكُلِّ أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي » (١) ، فَقَالَ لَهُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ :

(١) أخرج : أبيه ، قال صاحب الأمالي : « فسمعت ذلك عائشة رضي الله عنها فقالت : لا يزن الصديق يقول هذا ؟ استروني فستروها ، فقالت : كلبت والله يامروان إن ذلك لرجل معروف نسب » ، وقال المنصورون في هذه الآية : « والمراد (بالذي قال) الجنس القاتل ذلك القول ، ومن الحسن : هو في الكافر المارق لوالديه ، المكذب بالبهت ، ومن قتادة : نمت عبد سوء : عاق لوالديه ، فاجر لربه ، وقيل : زلت في عبد الرحمن بن أبي بكر قبل إسلامه ، وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمه أم رومان إلى الإسلام ، فألف بهما ، وقال : ابشروا إلى جلعان بن عمرو ، وعنان بن عمرو - وهما من أجداده سمي أسلمهما هما يقولان صدق ويشهد ببطانته أن المراد بالذي قال جنس القاتلين ذلك ، وأن قوله : « الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ » هم أصحاب النار ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم . ومن عائشة رضي الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان أن يبايع للناس ليزيد ، قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرطقة ، أتبايعون لأبنائكم ؟ فقال مروان : يأبى الناس هو الذي قال الله فيه « وَالَّذِي قَالَ لِلْوَلَدَيْنِ .. الآية » فسمعت عائشة تفضت ، وقالت : « والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، أما أنت يامروان ، فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أباهك وأنت في صلبه ، فأنت تفضض من لمة الله له . »
(وقرئنا نفرض كجبل ويروي كمنقذ وغراب أي قطعة منها) .

وجاء في السيرة الحلبية (١ : ٢٠٣) : « من الواقدي ، استأذن الحكم بن أبي العاص من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصرف صوته ، فقال : « اتننوا له لمة الله ومن يخرج من صلبه إلا اللزمين منهم - وقيل مام - ذوو حكر وعذبة ، يسطون الدنيا ، وما لهم في الآخرة من خلاق » ، وكان لا يولد لأحد واد بالملكية إلا أتى به النبي صلى الله عليه وسلم ، فألق إليه يامروان لمساو له ، فقال : « هو الوزغ بن الوزغ ، الملعون بن الملعون » ومن جبير بن مطعم : كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فر الحكم بن أبي العاص ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ويل لأمتي ما في صلب هذا » .

« يابن الزرقاء ^(١) ، أفينا تناول القرآن ؟ » وتكلم الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عمر ، وأنكروا بيعة يزيد ، وتفرق الناس ، فكتب مروان إلى معاوية بذلك . قال ابن قتيبة : تقدم معاوية المدينة حاجباً ، ثم أرسل إلى الحسين بن علي وعبد الله ابن عباس فخرأ ، واجتأ معاوية فقال :

٢٤٥ - خطبة معاوية

« أما بعد : فالحمد لله ولَّى النعم ، ومُنزل النعم ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، التتالي عما يقول المُلحدون علواً كبيراً ، وأن محمداً عبده المخلص المبعوث إلى الجن والإنس كافة ، لينذِرهم بقرآن : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، فأدبى عن الله ، وصَدَعَ ^(٢) بأمره ، وصَبَرَ على الأذى في جنبه ، حتى أوضع دين الله ، وأَعَزَّ أوليائه ، وقَمَعَ للشركين ، وظهر أمرُ الله وم كارهون ، ففضى صلوات الله عليه ، وقد ترك من الدنيا ما بَدَّلَ له ، واختار منها التَّرك لما سَخَّرَ له ، زَهَادَةً واختياراً لله ، وأَنَفَةً واقتداراً على الصبر ، وَبَقِيَ لما يدوم وَبَقِيَ ، وهذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم خَلَفَهُ رجلان محفوظان ، وَثَالِثٌ مشكوك ، وَبَيْنَ ذَلِكَ خَوْضٌ طالما عالجناه ، مشاهدة

وجاء في أسد الغابة في ترجمته : « ذكره عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، في هجائه لبسبب الرحمن ابن الحكم ، فقال :

إِن اللّٰهَ أَبْرَكَ فَاذِمَ عَظَامَهُ إِن تَرَمَّ تَرَمَ مَخْلُجًا مَجْنُونًا

وقد روى في لفته وثقاه أحاديث كثيرة لاحاجة إلى ذكرها ، إلا أن الأمر المقطوع به أن النبي صلى الله عليه وسلم ، مع حلمه وإفضائه على ما يكره ، ماصل به ذلك إلا لأمر عظيم ، وجاء في الفخرى ص ١٠٨ « ورويت أحاديث وأخبار في لمة الحكم بن أبي العاص ، ولمة في من صلبه ، وعصفتها قوم » .

(١) في الفخرى ص ١٠٨ « وكان من أولاد ذم مروان وصيه يقول له يابن الزرقاء « قالوا : وكانت الزرقاء جدتهم من ذوات الرايات التي يستل بها على بيوت البغايا في الجاهلية ، فذلك كانوا يسمون بها » .

(٢) قوله تكل : « فَأَصْدَعَ بِمَا تَوَأَّمُ » أي شق جماعتهم ، بالتوحيد أواجه بالقرآن ، أو أظهر أو احكم بالحق وانصل بالأمر ، أو اقصد بما تؤمر ، أو افرق به بين الحق والباطل .

وَمَكَافَأَهُ، وَمَعَانِيَةً وَسَمَاعًا، وَمَا أَعْلَمُ مِنْهُ فَوْقَ مَا تَمَلَّكُنَا، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَمْرِ يَزِيدَ مَا سَبَقَ
إِلَيْهِ وَلِأَيِّ تَجْوِيزِهِ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ مَا أَحَارَ بِهِ مِنْ أَمْرِ الرَّعِيَّةِ، مِنْ سَدِّ الْخَلَلِ، وَلَمْ يَصْغُرِ
بَوْلَابُهُ يَزِيدَ، بِمَا أَيْقَطَ الْعَيْنَ، وَأَتَمَدَّ الْفِعْلُ، هَذَا مَعْنَايَ فِي يَزِيدَ، وَفِيكَافَأَهُ الْقَرَابَةُ،
وَحِفْظُهُ الْمَسْلَمَ، وَكَالَ لِلرَّوْدَةِ، وَقَدْ أَصَبْتُ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ يَزِيدَ عَلَى الْمُنَازَرَةِ وَالْمَقَابَلَةِ،
مَا أَعْيَانِي مِنْهُ عِنْدَكَ، وَعِنْدَ غَيْرِكَ، مَعَ عَلَيْهِ بِالسَّنَةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، وَالْحِلْمِ الَّذِي يَرْجَحُ
بِالْعُسْمِ^(١) الصَّلَابَ، وَتَدَّ عَلَمًا أَنَّ الرُّسُولَ الْمُحْفَظَ بِعِصْمَةِ الرِّسَالَةِ، قَدَّمَ عَلَى الصَّدِيقِ
وَالْفَارُوقِ، وَمِنْ دُونِهِمَا مِنْ أَكْأَبَرِ الصَّطَابَةِ، وَأَوَّالِ الْمَاهِجِينَ، يَوْمَ غَزْوَةِ ذَاتِ
السَّلَاسِلِ^(٢)، مَنْ لَمْ يُقَارَبِ الْقَوْمَ، وَلَمْ يَمَانِدْ^(٣)، بِرَتْبَةٍ فِي قَرَابَةِ مَوْصُولَةٍ، وَلَا سُنَّةِ
مَذْكُورَةٍ، فَقَادِمَ الرَّجُلُ بِأَمْرِهِ، وَجَمَعَ بِهِمْ صَلَاتَهُمْ، وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ فَيْئَهُمْ، وَقَالَ وَلَمْ
يُقَلِّمْ مَعَهُ، وَفِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ، فَهَلَّا بَنَى عَبْدُ الْمَطْلَبِ، فَإِنَّا
وَأَنْتُمْ شَعْبًا نَفْعٌ وَحَيْدٌ، وَمَا زِلْتَ أَرْجُو الْإِنْصَافَ فِي اجْتِمَاعِكَ، فَايَقُولُ الْقَائِلُ إِلَّا
يَفْضَلُ قَوْلُكَ، فَرُدُّا عَلَى ذِي رَحِمٍ مُسْتَعْتَبٍ، مَا يَحْمَدُ بِهِ الْبَصِيرَةَ فِي عِتَابِكُمَا، وَأَسْتَنْفِرُ
اللَّهَ لِي وَلِصَّاحِبَيْكَ .

فَتَفَسَّرَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِكَلَامِهِ، وَنَصَبَ يَدَهُ لِلْخَطَابَةِ، فَأَشَارَ إِلَى الْحَسَنِ وَقَالَ : عَلَى
رِسْلِكَ، فَأَنَا الْمُرَادُ، وَنَصِبِي فِي النَّهْمَةِ أَوْفَرُ، فَأَمْسَكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، فَقَامَ الْحَسَنِ :

(١) الْعُسْمُ جَمْعُ أَسْمٍ : وَهُوَ الْمَجْرُ الصَّلْبُ الْمَصْمُوتُ . (٢) غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ ، وَهِيَ وَرَاوْدَى
الْقُرَى مِنْ أَرْضِ بَنِي عُلُوَّةَ : غَزَاهَا سَرِيَّةَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ سَنَةَ ثَمَانٍ لِهَجْرَةِ ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ يَهْتَفِئُ بِسُفَرِ الْعَرَبِ إِلَى الشَّامِ ، فَلَمَّا كَانَ عَلَى مَاءِ بَارُصٍ جَفَامَ ، يُقَالُ لَهُ السَّلْسَلُ - وَبَنِيكَ سَمِيَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ
غَزْوَةُ ذَاتِ السَّلَاسِلِ - خَافَ فِيمَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَعِذُّهُ ، فِيمَتْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ أَبَا عُبَيْدَةَ
ابْنَ الْجُرَاحِ مِنَ الْمَاهِجِينَ الْأَوَّلِينَ ، فَهَمَّ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ ، وَقَالَ لَأَبِي عُبَيْدَةَ حِينَ وَجَّهَهُ : لَا تَخْطَفَا ، فَفَرَجَ
أَبُو عُبَيْدَةَ ، حَتَّى إِذَا قَدَّمَ عَلَيْهِ ، قَالَ لَهُ عَمْرُو : إِنَّمَا جِئْتَ مَدْعَايَ ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَا ، وَلَكِنْ هَلْ مَا لَنَا
عَلَيْهِ ، وَأَنْتَ هَلْ مَا لَنَا عَلَيْهِ - وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ رَجُلًا لِينًا سَهْلًا ، هِينًا عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا - فَقَالَ لَهُ عَمْرُو : بَلِ
أَنْتَ مَدْعَى ، فَقَالَ لَهُ أَبُو عُبَيْدَةَ : يَاعَمْرُو ، إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَائِلٌ : لَا تَخْطَفَا ، وَإِنَّكَ إِنْ
صَغَبْتَنِي أَطْعَمْتُكَ ، قَالَ : فَإِنِّي الْأَمِيرُ عَلَيْكَ ، وَأَنْتَ مَدْعَى ، قَالَ : فَدُونَكَ ، فَصَلَّ عَمْرُو بِالنَّاسِ .
(٣) الْمَانِدَةُ : الْمُنَازَعَةُ ، أَيْ وَلَمْ يَمُزَّ عَلَيْهِمْ بِرَتْبَةٍ .

٢٤٦ - خطبة الحسين

الحمد لله ، وصلى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« أما بعد يا معاوية ، فلن يُؤدِّيَ القاتلُ - وإن أظنَّ - في صفة الرسول صلى الله عليه وسلم من جميعِ جزءا ، قد فهمتُ ما أَلَيْستُ ^(١) به اختلفَ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من إيجازِ الصفة ، والتَّكَبُّبِ عن استبلاغِ البَيِّنَةِ ، وهيهات هيهات يا معاوية ! فضع الصَّبحُ فُخْمَةَ الدُّحَى ، وَهَرَّتْ ^(٢) الشمسُ أنوارَ الشَّرْجِ ، ولقد فضَّلْتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجهفتَ ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وجرتَ حتى جاوزتَ ، ما بذلتَ لدى حقِّ من أتمَّ حقَّ بنصيبٍ ، حتى أخذَ الشَّيْطَانُ حَظَّهُ الأوفرَ ، ونصيبُهُ الأَكْلَ ، وفهمتَ ما ذكرته عن يزيد ، من اكتماله وسياسته لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، تريد أن توهم الناسَ في يزيد ، كأنك تصِفُ محجوباً ، أو تَنمُتُ غائباً ، أو تُخَبِّرُ عما كانَ بما احتويتهُ بلمِ خاصٍ ، وقد دَلَّ يزيدُ من نفسه على موقعِ رأيهِ ، فخذَ ليزيدَ فيما أَخَذَ به من استقرائِهِ ^(٣) الكلابَ للمُهاشِرَةِ ^(٤) عند التحارشِ ، والحمامَ الشَّيْقَ لِأَثَرِائِهِ ، وَالْقَيْنَاتِ ^(٥) ذواتِ المَازِفِ ، وضروبِ اللامِ ، نجمه ناصراً ، ودع عنك ما تحاولُ ، فإغناك أن تلقى الله بِوِزْرِ هذا الخلقِ بأكثر مما أنت لاقية ، فوالله ما برحتَ تَقْدِمُ باطلاً في جَوْرِ ، وَحَقِّقاً في ظلمٍ ، حتى ملأتَ الأُتْقِيَةَ ، وما بينك وبين اللوتِ إلا عَصَا ، فَتَقْدِمُ على عملٍ محفوظٍ . في يومٍ مشهودٍ ، ولات حين مناصٍ ، ورأيتُكَ عَرَضْتَ بنا بعد هذا الأمرِ ، وَمَتَمَعْنَا عن آبائنا تَرَاتُماً ، ولقد - لمرُّ الله - أوردنا الرسولَ عليه الصلاة والسلام

(١) ألبه : غلاه . (٢) يقال هِرَّتْ كَرْتَن : غلب ضومه ضوه الكواكب ، والسرَجُ جمع سراج : وهو المصباح . (٣) استقرأه الأشياء : تتبع أفرادها . (٤) المُهاشِرَةُ : تخريبها بعضها على بعض . (٥) جمع قينة : وهي الجارية تلغية أو أم ، والمَازِفُ : الآلات التي يضرب بها كالمرود ، جمع عزف كنز .

ولادة، وجئت لنا بما حَجَبْتُمْ به القائم عند موت الرسول عليه الصلاة والسلام، فأذن من الحجة بذلك، وردّه الإيمان إلى النصف، فركبتم الأفاعيل، وقلتم الأفاعيل، وقلتم كان ويكون، حتى أتاك الأسر يا معاوية، من طريق كان قصدًا لتفريق، فهناك^(١)، فاعتبروا يا أولى الأبصار، وذَكَرْتَ قِيَادَةَ الرَّجُلِ الْقَوْمَ بهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتأميره له، وقد كان ذلك، ولتمزوين العاص يومئذ فضيلة، بصحبة الرسول ويسته له وما صار لعمري ويومئذ حتى أَيْفَ الْقَوْمِ إِثْرَتَهُ، وكرهوا تقديمه وَعَدُّوا عَلَيْهِ أَمْنَهُ، فقال صلى الله عليه وسلم: « لا جَرَمَ^(٢) ممشر للهاجرين، لا يَمَلُّ عَلَيْكُمْ بعد اليوم غَيْرِي ». فكيف يُجْتَنَّبُ بالنسوخ من فعل الرسول، في أوكد الأحوال، وأولاهما بالاجتماع عليه من الصواب؟ أم كيف صاحبت بصاحبٍ تائبًا، وحوكَّ مَنْ لا يُؤْمِنُ في صحبته، ولا يُقْتَدُ في دينه وقرباته، وتتخطاهم إلى مُشْرِفٍ مَقْتُونٍ؟ تريد أن تلبس الناس شبهة، يَسْعُدُ بها الباقى في دنياه، وتُثَقِّقَ بها في آخرتك، إن هذا هو الخُسرانُ البين، وأُستغفر الله لي ولكم ».

فنظر معاوية إلى ابن عباس، فقال: ما هذا يا ابن عباس، ولما عندك أذهى وأمر؟ فقال ابن عباس: لعمري الله، إنها لَذُرِّيَّةُ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وأحد أصحاب الكِسَاءِ^(٣)، ومن البيت الطُّهَرِ، قاله عما تريد، فإن لك في الناس مَقْنَعًا، حتى يحكم الله بأمره، وهو خير الحاكمين، فقال معاوية: أَعُوذُ^(٤) الحليم التحلُّم، وخيرُهُ التحلُّمُ عن الأهل. انصرفا في حفظ الله.

ثم أرسل معاوية إلى عبد الرحمن بن أبي بكر، وإلى عبد الله بن عمر، وإلى عبد الله ابن الزبير، فجلسوا.

(١) سهل من هنا، يقال هنا الطعام: إذا ساء ولد، أي نهيننا لك ماثلت من الملائكة.

(٢) لا جرم: قال القرطبي هي كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة، فخرجت من ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم، وصارت بمنزلة حقا، فلذلك يجاب عنها باللام كما يجاب بها من القسم، ألا تراهم يقولون: « لا جرم لأتيتك ». (٣) انظر ص ٣٢. (٤) أعوذ: أنفع، والمائدة: المنفعة.

٢٤٧ - خطبة معاوية

حمد الله ، وأثنى عليه معاوية ، ثم قال :
 « يا عبد الله بن عمر : قد كنت نعتنا أنك لا تحب أن تبيت ليلة وليس في عنقك
 بيعة جماعة ، وأن لك الدنيا وما فيها . وإنى أحذرك أن تشق عصا للمسلمين ، وتسعى
 في تفريق مملكتهم ^(١) ، وأن تسفك دماءهم ، وإن أمر يزيد قد كان قضاء من القضاء ،
 وليس لعباد خيرة من أمرهم ، وقد وكّد الناس بيعتهم في أعتاقهم . وأعطوا على ذلك
 عهودهم ومواثيقهم » . ثم سكت .

٢٤٨ - خطبة عبد الله بن عمر

فتكلم عبد الله بن عمر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أما بعد : يا معاوية ، لقد كان قبلك خلفاء ، وكان لهم بنون ، ليس ابنك بخير
 من أبائهم ، فلم يرَوا في أبائهم ما رأيت في ابنك ، فلم يجأوا في هذا الأمر أحداً ،
 ولكن اختاروا لهذه الأمة حيث حلّوهم ، وأنت تحذرنى أن أشقّ عصا للمسلمين ، وأفرق
 ملائمتهم ، وأسفك دماءهم ، ولم أكن لأفعل ذلك إن شاء الله ، ولكن إن استقام الناس ،
 فسادخل في صالح ما تدخل فيه أمة محمد » .

فقال معاوية : يرحمك الله ، ليس عندك خلاف ، ثم قال معاوية لعبد الرحمن
 ابن أبي بكر نحو ما قاله لعبد الله بن عمر ، فقال له عبد الرحمن : إنك والله لو ودّنا أن
 نكلك إلى الله فيما جئرت عليه من أمر يزيد ، والى نقي يده لتجملتها شورى ،
 أو لأعيدتها جذعة ، ثم قام ليخرج ، فعلق معاوية بطرف رداءه ، ثم قال : على رسلك

(١) اللأ : الجماعة .

الهم اكفنيه بما شئت ، لا تظهرن لأهل الشام ، فإني أخشى عليك منهم ، ثم قال لابن الزبير نحو ما قاله لابن عمر ، ثم قال له : أنت تطلب رِزْوَاعاً ، كلما خرجت من جُحرِ ابجَحْرْت^(١) في آخر ، أنت أَلْبَت^(٢) هذين الرجلين ، وأخرجتهما إلى ما خرجا إليه . فقال ابن الزبير : أتريد أن تباع ليزيد ؟ أرايت إن باعناه أيكما نُطِيع ؟ أنطيعك أم نطيعه ، إن كنت ملّت الخلافه فاخرج منها ، وباعيس^(٣) ليزيد ، فنحن نبايعه ، ففكر كلامه وكلام ابن الزبير ، حتى قال له معاوية في بعض كلامه : والله ما أراك إلا قاتلاً نفسك ، ولكأنّي بك قد نجبت في الحباله . ثم أمرهم بالانصراف ، واحتجب عن الناس ثلاثة أيام لا يخرج ، ثم خرج فأمر المنادي أن ينادي في الناس ، أن يحتملوا لأمر جامع فاجتمع الناس في المسجد ، وقد هؤلا حول المنبر .

٢٤٩ — خطبة معاوية

الحمد لله ، وأثنى عليه ، ثم ذكر يزيدَ وفضله وقراءته للقرآن ، ثم قال :
« يا أهل المدينة ، لقد همتُ بيعة يزيد ، وما تركتُ قرية ولا مدرة^(١) إلا بعثت إليها بيعة ، فبايع الناس جميعاً وسلموا ، وأخرتُ المدينة بيعة ، وقلتُ : بيئته^(٢) ، وأصله ومن لا أخافهم عليه ، وكان الذين أتوا البيعة ، منهم من كان أجدر أن يسلّمه . والله لو علمتُ مكان أحد هو خير للمسلمين من يزيد لبايعتُ له » .

فقام الحسين فقال : « والله لقد تركتُ من هو خيرُ منه أباً وأماً ونفساً ! » فقال معاوية « كأنك تريد نفسك ؟ » فقال الحسين : « نعم . أصلحك الله ! » فقال معاوية : « إذن أخبرك ، أما قولك : خيرُ منه أما ، فلمرى أمك خير من أمه ، ولو لم يكن إلا أنها امرأة من قريش ، لكان نساء قريش أفضلهن . فكيف وهي ابنة رسول الله صلى

(١) أي دخلت ، جحر لقب كنع : دخل الجسر ، وجحر فلان القلب : أدخله فيه ، فانجمر .

(٢) التأييب : التبرؤ والإفصاد . (٣) المدرة : المدينة . (٤) جماعه وأصله .

الله عليه وسلم ثم فاطمة في دينها وسابقتها ؟ فأملك لعمر الله خير من أمه ^(١) . وأما أبوك فقد حاكم أباه إلى الله ، قضى لأبيه على أبيك » . فقال الحسين : « حَسْبُكَ جَهَنَّمُكَ . آتَرْتِ العَاجِلَ عَلَى الآجِلِ » . فقال معاوية : « وأما ما ذكرت من أنك خير من يزيد نفساً ، فيزيدُ والله خير لأمة محمد منك » . فقال الحسين : « هذا هو الإفك والزور ! يزيدُ شاربُ الخمر . ومشتريُ اللهو خيرٌ مِنِّي ! » فقال معاوية : « مهلاً عن شتم ابن عمك . فإنك لو ذكرت عنده بسوء لم يَشْتُمَكَ » ، ثم التفت معاوية إلى الناس . وقال : « أيها الناس : قد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُبِضَ ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، وكأنت بيعة بيعة هُدًى ، فمِلَ بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يستخلف عمر ، فمِلَ عمر بكتاب الله وسنة نبيه ، فلما حضرته الوفاة رأى أن يحملها شورى بين ستة نفر اختارهم من المسلمين ، فصنع أبو بكر ما لم يصنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنع عمر ما لم يصنعه أبو بكر ، كل ذلك يصنونه نظراً للمسلمين ، فلذلك رأيت أن أبايع ليزيد ، لما وقع الناس فيه من الاختلاف . ونظراً لهم بعين الإنصاف » .

* * *

وروى من طريق آخر : أن معاوية لما خرج إلى المدينة ودنا منها ، استقبله أهلها ، فيهم : عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، والحسين بن علي ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ؛ فأقبل على عبد الرحمن بن أبي بكر ، فسبّه وقال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً » ؛ فلما دخل الحسين عليه قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، بَدَنَةٌ ^(٢) يترقوق دُمُها والله مُهَرِّقُهُ » ؛ فلما دخل ابن الزبير قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، ضَبٌّ ثَلَمَةٌ ^(٣) ، مُدْخِلُ رَأْسِهِ تَحْتَ ذَنَبِهِ » ؛ فلما دخل عبد الله بن عمر قال : « لا مرحباً بك ولا أهلاً ، وسبّه » ، فقال :

(١) وأم يزيد هي عيسون بنت بحدل الكلبيّة . (٢) البينة : من الإبل والبقر كالأنصحية من الغنم تهدي إلى مكة ، للذكر والأنثى . (٣) الثلمة : ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها .

« إني لست بأهل لهذه القلعة » قال : « بلى ، ولينا هوشر منها » فدخل معاوية للدينة وأقام بها ، وخرج هؤلاء الرهط معتبرين ، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجاً ، فأقبل بعضهم على بعض ، فقالوا : لله قد ندم ، فأقبلوا يستقبلونه ، فلما دخل ابن عمر ، قال : « مرحباً بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق ، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة » ، وقال لابن أبي بكر : « مرحباً بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق ، هاتوا له دابة » ، وقال لابن الزبير : « مرحباً بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته ، هاتوا له دابة » ، وقال للحسين : « مرحباً بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيد شباب المسلمين ، قرئوا لأبي عبد الله دابة ، وجعلت أظفاره^(١) تدخل عليهم ظاهرة براها للناس ، وَيُحَسِّنُ إِذْ تَسْتَأْذِنُمْ وَشَفَاعَتِهِمْ وَحَلَمَهُ عَلَى الْعُذْرَابِ ، وخرج حتى أتى مكة ، ففضى حجه ، ولما أراد الشخص أمر بأهله قُدِّمَتْ ، وأمر بالمَنِيرِ قُرْبَ من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا ، وقال بعضهم لبعض : من يكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات ، فأنت صاحبنا . قال : على أن تطوفى عبد الله أن لا أقول شيئاً إلا تابعتوني عليه . قالوا : لك ذلك ، فأخذ صودم رجلاً رجلاً ، فدخلوا عليه ، فرحبَ بهم ، وقال : قد علمت نظرى لكم ، وتمطى عليكم ، وصلى أرحامكم ، ويزيد أخوك وابن عمك ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فكنوا ، فقال : أجيئوني ، فكنوا ، فقال : أجيئوني ، فكنوا ، فقال : لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم قال :

٢٥٠ — خطبة عبد الله بن الزبير

« نَحْيَرُكَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثَ ، أَيُّهَا أَخَذْتَ فَعَى لَكَ رَغْبَةً ، وَفِيهَا خِيَارٌ ؛ إِنْ شِئْتَ فَاصْبِرْ فِينَا مَا صَبَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَبْضَهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَخْلِفْ أَحَدًا ، فَرَأَى

(١) الإطراف : جمع لفة بالصريك ، وهي الهدية .

المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدفع هذا الأمر حتى يختار الناس لأخسهم ، وإن شئت فاصنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش وترك من ولده ومن رقطه الأذنين من كان لما أهلا ، وإن شئت ، فاصنع عمر ، جعلها شورى في ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لما أهلا .

فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية : « إني أتقدم إليكم ، وقد أهدر من أنذر ، إني قائم فقاتل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا على حق أئمتها ، فإن صدقت فلي صدق ، وإن كذبت فلي كذب ، وأقسم بالله لن رد على رجل منكم كلمة في مقامى هذا ، لا ترجع إليه كلمته ، حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبتغي إلا عليها ، وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفيهما ، فإن تسكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلا ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقي المنبر ، وحف به أهل الشام ، واجتمع الناس ، فقام خطيبا فقال :

٢٥١ - خطبة معاوية

قال بعد حمد الله ، والثناء عليه : إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار^(١) ، قالوا إن حسيئا ، وابن أبي بكر ، وابن عمر ، وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرقط سادة المسلمين وخيارهم ، لا نؤمر أمرا دونهم ، ولا نقضى أمرا إلا من مشورتهم ، وإني دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلّوا وأطاعوا .

فقال أهل الشام : وما يظلم من أمر هؤلاء ؟ أيذن لنا فنضرب أعناقهم ، لا نرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشرب .

وأحل دمام عديم ، أنصتوا فلا أسمع هذه القاعة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا
ثم قرَّبَتْ رواحله ، فركب ومضى ، فقال الناس للحسين وأصحابه : قلم لا نبايع ، فلما
دُعيتم وأرضيتم بآيتم . قالوا : لم فعل . قالوا : بلى قد فعلتم وبآيتم ، أفلا أنكرتم ؟
قالوا : خِفْنَا القتل وكادكم بنا وكادنا بكم .

(السند القوي : ٢ : ٢٤٧ - ١٥٧ ، الإمامة والسياسة ١ : ١٢١ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٩ ،
والأمال ٢ : ٧٣ ، وفيل الأمال ص ١٧٧ ، وحيون الأخبار ص ٢ ص ٢١٠ ، ١ : ٩٥ ،
والبيان والتبيين ١ : ١٦٣ - ١٦٤) .

تهنئة وتعزية

٢٥٢ - خطبة عبد الله بن مھام السلولى

لما توفى معاوية واستخلف يزيد ابنه (٦٠ هـ) اجتمع الناس على بابه ، ولم يقدروا على الجمع بين تهنئة وتعزية ، حتى أتى عبد الله بن مھام السلولى فدخل عليه فقال :
 « يا أمير المؤمنين ، آجرك الله على الرزية ، وبارك لك فى العلية ، وأعانك على الرحمة ،
 فلقد رُزيت عظيماً ، وأعطيت جسيماً ، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر له على ما رُزيت
 فقد فقدت خليفة الله ، ومنعت خلافة الله ، ففارقت جليلاً ، ووُهب جزيلاً ، إذ قضى
 معاوية نَحْبَه ، فنصر الله ذنبه ، وولَّيت الرئاسة ، فأعطيت السياسة ، فأوردك الله موارد
 السرور ، وودقك اصالح الأمور ، وأشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذائقةً واشكر جِءاء الذى بالملك أصفاً (١)
 لارزء أصبح فى الأقوام نمله كما رُزيت ، ولا فُقي كقباً كما
 أصبت وإلى أمر الناس كلهم فأنت تراءى والله يرعا كما
 وفى معاوية الباقي لنا خلف إذا نيمت ، ولا نسمع بمنما (٢)
 » وعبد الله بن مھام هو أول من فتح الباب فى الجمع بين تهنئة وتعزية ، فوجَّه
 الناس ، كما روى من غير وجه .

(زهر الآداب ١ : ٦١ ، ونهاية الأرب ٥ : ٢١٥ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٦ ، والمقد الفريد
 ١٤١ - ٣٥ - ٢٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٦) .

(١) أصفاً : آثره . (٢) هو أبو ايل معاوية بن يزيد .

٢٥٣ - خطبة عطاء بن أبي سفيان الثقفي

وروى للسودى أن يزيد بعد موت أبيه أذن للناس ، فدخلوا عليه لا يدرون أيهنثونه أم يمزونه ، فقام عطاء بن أبي سفيان ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أصبحت وقد رُزئت خليفة الله وأعطيت خلافة الله ، ومُنحت هبة الله ، وقد قضى معاوية نَجْبه ، ففرَّ الله له ذنبه ، وأعطيت بعده الرياسة ، ووليت السياسة ، فأحتسب^(١) عند الله أعظم الرزية ، واتَّخذَه على أفضل المطية » .

(مروج الذهب ٢ : ٩٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠٢ ، تهذيب الكامل ١ : ١٦ ،

وصبح الأمتى ٩ : ٢٧٨ ، والمقد الفريد ٢ : ٢٥)

٢٥٤ - خطبة عبد الله بن مازن

ثم قام عبد الله بن مازن ، فقال :

« السلام عليك يا أمير المؤمنين ، رُزئت خير الآباء وُسِّميت خير الأسماء ، ومُنحت أفضل الأشياء ، فهناك الله بالطية ، وأعانك على الرعية ، فقد أصبحت قرش منجوعة يَبْدُ ساستها ، مسرورة بما أحسن الله إليها من الخلافة بك ، وَالْمَقْى من بعده ، ثم أنشأ يقول :

الله أعطاك لقي لا فوقها وقد أراد المُلْحِدون عَوْقها
علك فيآبى الله إلا سَوْقها إليك ، حتى قَلْدُوك طَوْقها

ثم قام عبد الله بن همام فخطب خطبته السالفة . (مروج الذهب ٢ : ٩٣)

(١) احتسب به أجرا عند الله : اعتد به ينوى به وجه الله (ولحسب ابنه إذا مات كبيرا ، فإن مات صغيرا قبل أن يترطه) .

٢٥٥ - خطبة غيلان بن مسلمة الثقفي

وروى الجاحظ : أنه لما توفي عبد الملك ، وجلس ابنه الوليد دخل عليه الناس وهم لا يدرون أيهنثونه أم يمزونه ، فأقبل غيلان بن مسلمة الثقفي ، فلم عليه ، ثم قال :
« يا أمير المؤمنين ، أصبحت قد رزئت خير الآباء ، وسميت خير الأسماء ، وأعطيت أفضل الأشياء ، فمعلم الله لك على الرزية الصبر ، وأعطاك في ذلك نوافل ^(١) الأجر ، وأعانك على حسن الولاية والشكر ، ثم قضى عبد الملك ^(٢) بغير القضية ، وأنزله بأشرف المنازل المرضية ، وأعانك من بعده على الرعية » . (البيان والتبيين ٢ : ١٠٣)

(١) القناعة في الصلاة وغيرها : الزيادة . (٢) أي قضى على عبد الملك بإسقاط الجار .

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه المتوفى سنة ٥٣ هـ

٢٥٦ - خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهده.

كان الإمام عليّ عليه السلام وليّ زياداً فارس - أو بعض أعمال فارس - فضبطها
خطباً صالحاً ، وجبّ خراجها ورحاها ، فلما قتل الإمام بقي زياد في عمله ، وخاف معاوية
جانيه ، وعلم صموية ناحيته ، وأشفق من عمالته الحسن بن عليّ ، عليه السلام ، فكتب
إليه يتهده^(١) ، فنضب زياد غضباً شديداً ، وجمع الناس ، وصعد المنبر ، حمد الله ،
ثم قال :

« المعجب من ابن آكلة الأكباد^(٢) ، وقائلة أسد الله ، ومظهر الخلاف ، ومسرّ
النفاق ، ورئيس الأحزاب ، ومن أشق ما له في إطفاء نور الله ، كتب إلى يرعد ويبرق^(٣) »

(١) وما ورد في كتابه إليه قوله : « أس عبد ، واليوم أمير ! خطبة ما لارتفاعك منك يا بن سمية ، وإذا
أنتك كتابي هذا ، فخذ الناس بالعلامة والبيعة ، وأسرع الإجابة ، فإنك إن فعلت فعلك جفت ، ونفسك
تداركت ، وإلا اغضضت بك أنصف ويش ، وتلك بأهون سى ، وأقم قبا مبرورا أن لا أوق بك إلا في
زماوة ، تمشي حانيا من أرض فارس إلى الشام ، حتى أتيتك في السرق ، وأبيتك عبدا ، وأوطك إلى حيث
كنت فيه وخرجت منه . (٢) هي هند أم معاوية ، وذلك أنها بعد انتهاء غزوة أحد بقرت بطن حزة
ابن عبد المطلب مع النبي صل الله عليه وسلم ، وأغلقت كبده لتأكلها ، فلا كتبها ثم أرسلتها ، وكان قد قطعه
وحشى مولد جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس ، فإن أنت قطعت حزة بمسى طمينة فقلت حرة .
(٣) رعد الرجل وبرق (كسر) وأرعه وأبرقه : تهده وتوعد .

عن سحابة جفلي^(١) لا ماء فيها ، وحمًا قليل تصيرها الرياح قزعًا^(٢) ، والقي يذثنى على ضفحة تهذده قبل القدرة ، أفن إشفاقى على^(٣) تُنذِر وتُذَر ؟ كلا ، ولكن ذهب إلى غير مذهب ، وقمّص^(٤) لمن روى بين صواعق تيامة^(٥) ، كيف أربهه وبينه وبين بنت رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأبْنُ أَبِي عَمْرٍو في مائة ألف من المهاجرين والأنصار؟ والله لو أذن لي فيه أو نذبنى إليه ، لأرينه الكواكب نهارة ، ولأسمعنه^(٦) ماء الخردل دونه ، السلام اليوم ، والجمع غداً ، والشورة بعد ذلك إن شاء الله » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٦٨ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٩٧)

٢٥٧ - خطبته وقد بعث معاوية إليه المنيرة بن شعبة يستقدمه

وكتب إلى معاوية ردّ عليه ردّا شديد الهمجة^(١) ، فمّم ذلك معاوية وأحزنه ، وأوفد إليه المنيرة بن شعبة بكتاب يتلطّف به فيه ويستدنيه منه ، ويستلحقه بنسب أبيه

-
- (١) الجفل : السحاب هراق ماءه ومضى . (٢) القزع : قطع من السحاب رقيقة .
(٣) القطعة : صوت الرعد ، وتحريك الشيء اليابس الصلب مع صوت ، ومنه « ما يقطع له بالشتان » وصيقل تفسيره في خطبة الحجاج . (٤) روى : ارتوى ، والمراد نشأ وترعرع بينها ، واطمأ (روى) وذكروا أنه لما نصب الحجاج للجانيق لقتال عبد الله بن الزبير ، أظلمت سحابة فأرعدت وأبرقت وأرسلت الصواعق ، ففرح الناس وأسكروا من القتال ، فقام فيهم الحجاج ، فقال : « أيها الناس لا يهولنكم هذا فلان أنا الحجاج بن يوسف ، وقد أسحرت لربي ، فلو ركبتا عظيما لحال بيننا وبينه ، ولكننا جبال تامة لم نزل الصواعق تنزل بها » . (٥) سخطه للثور كتمه وتصممه وأسطه لياه : أدخله في أنفه .
(٦) ونص كتابه إليه : « أما بعد ، فقد وصل إلى كتابك يامعاوية ، وفهمت ما فيه . فوجدتك كالنريق يغليه الموج فيثبث بالطحلب ، ويضاق بأرجل الصفادح طمعا في الحياة ، إنما يكفر التمم ويستحي التتم من حاد الله ورسوله ، وسى في الأرض فسادا . فلما سبك لي فلولا حلم ينفى عنك ، وخوف أن أذى سفيها لأثرت لك عازي لا يغسلها الماء . ولما تميرك لي بسمية ، فإن كنت ابن عمية فانت ابن عمامة . وأما زعمك أنك تحفظني بأضعف ريش وتتناولني بأعون سى ، فهل وأيت بلزيا يفزعه صغير القنابر؟ أم هل سمعت يذنب أكله خروف ؟ فاض الآن لطيفك ، واجهد جهك ، فلت أنزل إلا بحيث تكره ، ولا أجهد إلا فيما يسومك ، وصلىم أينما الخاضع لصاحبه ، الخالق إليه والسلام » .

أبي سفيان^(١) ، وجعل النيرة يرفق به ، ويتصح له أن يصل جبهه بجبهه ، ولا يقطع رجه ، فترت زياد يومين أو ثلاثة يروى في أمره ، ثم جمع الناس ، فصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : ادموا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله في دوام العافية لكم ، فقد نظرت في أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحي . في كل عيد يذبحون ، ولقد أفتى هذان اليومان : يوم الجمل وصقين ما يُذيف على مائة ألف ، كلهم يزعم أنه طالب حق ، وتابع إمام ، وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا ، فالقاتل والمقتول في الجنة ، كلاً : ليس كذلك ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإني تخاف أن يرجع الأمر كما بدا ، فكيف لامرئٍ بسلامة دينه ، وقد نظرت في أمر الناس ، فوجدت أتخذ العاقبتين العافية ، وسأعل في أموركم ما تعمدون عاقبته وممبته ، فقد حثت طاعتكم إن شاء الله » ثم نزل .

وكتب إلى معاوية يستوثق منه^(٢) ، فأعطاه معاوية جميع ما سأل ، وكتب إليه بخط يده ما وثق به ، فدخل إليه الشام ، فقر به وأدناه ، وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ٦٩)

(١) وكانت دياجة كتابه إليه : « من أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان إلى زياد بن أبي سفيان » وفيه يقول : « وسلك سوء ظنك بي ، وبضلك لي حل أن عقلت قرائي ، وقطعت رحى ، وبنت نسي وحرقى ، كأنك لست نسي ، وليس صخر بن حرب أبك وأبي ! » وفي آخره يقول : « فإن أحبت جانبي وثقت بي ، فإبرة يامرة ، وإن كرهت جانبي ، ولم تثق بقول ، فقل جميل ، لأهل ولاي والسلام » .

(٢) وفي كتابه يقول : « إن كنت كتبت كتابك هذا من عند صحيح ، ونية حسنة ، وأردت بذلك برا فستروح في قلبي مودة وقبولا ، وإن كنت إنما أردت مكيدة ومكرا وفسادية ، فإن النفس تأبى ما فيه الطبع ، ولقد قت يوم قرأت كتابك مقاماً يما به الخطيب المدد » . فركت من حضر ، لأهل ورد ، ولا سند ، كاتنينين يمهه ضل هم الدليل ، وأنا حل أشال ذلك قدير » .

٢٥٨ - خطبته وقد استلحقه معاوية

ولما أراد معاوية استلحاق زياد ، وقد قدم عليه الشام ، جمع الناس وصعد المنبر ، وأصعد زيادا معه ، فأجلسه بين يديه على المِرْقاة^(١) التي تحت مرقانه ، وحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ تَسَبُّنَا أَهْلَ الْبَيْتِ فِي زِيَادٍ ، فَمَنْ كَانَ عَنْده شَهَادَةٌ فَلْيَقُمْ هَاهُنَا ، فَتَقَامُ نَاسٌ ، فَتَشْهَدُوا أَنَّهُ ابْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، وَأَنَّهُمْ سَمِعُوا مَا أُقِرَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ^(٢) ، فَلَمَّا انْقَضَى كَلَامُ مُعَاوِيَةَ وَمُنَاسَدَتُهُ ، قَامَ زِيَادٌ وَأَنصَتَ النَّاسُ ، فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَثْنٌ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) المِرْقَاة بفتح الميم وتكرس: الدرجة. (٢) فقام أبو مريم السلول - وكان خوارا في الجاهلية فقال: أشهد يا أمير المؤمنين أن أبا سفيان قد قدم علينا بالطائف ، فأتاني ، فاشتريت له لحما ونجرا وعلما ، فلما أكل قال : يا أبا مريم ، أصب لي نبييا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده وقد أرفق أن أصيب له نبييا ، فهل لك؟ فقالت : نعم يجي. الآن عبيد بغيته - وكان راعيا - فإذا تشى ووضع رأسه أتيت ، فرجعت إلى أبي سفيان فقلت لم أجد إلا جارية الحراث بن كلفة سمية ، فقال : اتنى بها على ذفرها وقدرها ، فقال له زياد : مهلا يا أبا مريم ، إنما بحثت شاهدا ، ولم تبحث شاهدا ، فقال أبو مريم : لو كنتم أعفيتهم لكان أحب إلـى ، وإنما شهدت بما علمت ورأيت ، والله لقد أخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب طعما ، فلم ألبث أن خرج على يسح جيئه ، فقلت : مه يا أبا سفيان ، فقال : ما أصبت مثلها يا أبا مريم لولا استرخاء من ثديها ، وذفرى لإبطها - والذفر بالتحريك ويسكن : الثنن ، والذفر بالتحريك : كل ريش ذكية من طيب أو ثخن أو ينحس برائحة الإبط الملتنة - وكانت أمه سمية قد وهبها أبو الخير بن عمرو النكلى الحارث بن كلفة - وكان طيبا يلمه - فولدت له حل فراشه نائما ، ثم ولدت أبا بكره ، فأنكر لونه ، وقيل له إن جاريتك بغى ، فأتتنى من أبي بكره ومن نافع ، وزوجها عبيدا وكان عبدا لابنته ، فولدت حل فراشه زيادا .

وذكروا أن عمر بن الخطاب كان قد بحث زيادا في إصلاح فساد واقع باليمن ، فلما رجع من وجهه خطب عند عمر خطبة لم يسمح بطلها ، وهو فلام حدث ، وأبو سفيان حاضر ، وحل عليه السلام ، وعمرو ابن العاص ، فقال عمرو : قد أبو هذا النلام لو كان قرشيا لساق العرب بمصاه ، فقال أبو سفيان : أما والله -

« أيها الناس : هذا أمرٌ لم أشهد أوثقه ، ولا أعلم لى بآخروه ، وقد قال أمير المؤمنين ما بلغكم ، وشهدت الشهود بما سمعتم ، فالحمد لله الذى رفع منّا ما وضع للناس ، وحفظ منّا ما ضيّعوا ، فأما عبيدٌ فإنما هو والد مبرور ، أو ربيبٌ ^(١) مشكور » ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٧٠ ، والعقد للفريد ٢ : ١٥١ ، ٣ : ٣٤ ،
ومروج الذهب ٢ : ٥٦ ، وذيل الأملك ص ١٨٩)

٢٥٩ - خطبته حين ولي البصرة (وهى البتراء)

وقدم زياد البصرة « غرة جمادى الأولى سنة ٤٥ هـ » واليا لمعاوية بن أبي سفيان ، وضم إليه خراسان وسجستان ، والفستق بالبصرة كثير فاشي ظاهر ، فخطب خطبة بتراء لمحمد الله فيها ، وقيل بل قال :

« الحمد لله على إفضاله وإحسانه ، ونسأله المزيد من نعمه وإكرامه . اللهم كما زدتنا نعمةً فألحمنا شكرها » أما بعدُ : فإن الجلالة الجلالة ^(٢) ، والضلالة القتياء ، والنقى الموقى بأهله على النار ، ما فيه سهاؤكم ، ويشتمل عليه حلاؤكم ^(٣) ، من الأمور العظام ، ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأه . اكتب الله ، ولم تسمعوا

- إنه لقرشى ، ولو مرعته لمرعت أنه خير من أمك ، فقال : ومن أبوه ؟ قال : أنا واثقه وضعت فى رحم أمه ، قال : فهلا تملطقه ، قال : أخاف هذا البير الجالس أن يخرق على إهابي .

ومن كتاب لعل عليه السلام إلى زياد ، وقد بلغه أن معاوية كتب إليه يريد خديته بإسطحاه : « وقد كان من أبي سفيان فى زمن عمر بين الخطاب قلعة من حطيت النفس ، ونزعة من نزعات الشيطان لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث » فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد بها ووب السكبة ، ولم تزل فى نفسه حتى ادهاه معاوية ، وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما اسطحق قال له أكثر الناس : زياد بن أبي سفيان ، قال الطبري : « وفى سنة ٤٤ اسطحق معاوية نسب زياد بن سمية بأبيه أبي سفيان فيما قيل . » (١) القريب هنا : زوج الأم . (٢) هذا الوصف تركيد البالغة ، ومطله : وتده واثقه ، وجميع هاجج ، وليلة ليلاء ، ويوم أيوم (أى شديد ، أو آخر يوم فى الشهر) .
(٣) عقلاؤكم .

ما أعدَّ اللهُ من الثواب للكرم لأهل طاعته ، والعذاب الألم لأهل معصيته ، في الزمن
السَّرمَدِيَّ^(١) الذي لا يزول ، أنكونون كمن طرقت^(٢) عينه الدنيا ، وسدَّتْ مسامته
الشهوات ، واختار الثانية على الباقية ، ولأنذركون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي
لم تُسبقوا إليه ، مِن تَرْككم الضَّعِيفَ يُهْرَبُونَهُ ويؤخذ ماله ، هذه اللواخير^(٣) النصوبة ،
والضعيفة للسلوبة في النهار المبصر ، والعدو غير قليل ، ألم يكن منكم نهاية^(٤) ، تمنع الفتوة^(٥)
عن دَلَج^(٦) الليل ، وغارة النهار ؟ قرَّبتم القرابة ، وباعدتم الدين ! تمتدرون بغير العذر ،
وتنقصون على المحتسب ، كلُّ امرئٍ منكم يَذُبُّ^(٧) عن صفبه ، صَنِيعٍ من لا يخاف
عاقبة ولا يرجو مَمَادًا ، ما أنتم بالخلفاء ، ولقد اتبعت السفهاء ، فلم يزل بكم ما تروون
من قيامكم دونهم ، حتى انتهكوا حُرْمَ^(٨) الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم ، كدُوسًا
في مكانيس الرِّيب^(٩) ، حرامٌ على الطعام والشراب ، حتى أسوَّيَها بالأرض هَدْمًا وإحراقًا .
إنِّي رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلح إلا بما صَاحَ به أوله ، لينَّ في غير ضَعْف ،

(١) العام . (٢) طرف عينه : أصابها شيء ، فلمت ، وطرف بصره : أطبق أحد جفنيه
على الآخر ، وطرفه عنه كضربه : صرفه ورده . (٣) جمع ماخوذ : وهو بيت الرابية مغرب
أو حرم من غمرت السفينة لتردد الناس إليه . (٤) جمع ناه ، وغواة جمع غاو .
(٥) السير من أول الليل ، وقد أجليوا ، فإن ساروا من آخره غادجوا بالتشديد .

(٦) يدفع . (٧) جمع حرمة ، وهي مالا يحل انتهاكه . روى الشعبي قول : « ما خطب زياد
خطبته البتراء بالبصرة ، فزول ، سمع تلك الليلة أصوات الناس يتحارسون ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : إن البلد
مفتون ، وإن المرأة من أهل المصر لتأخذها الفتيان الفساق ، فيقال لها : ناصي ثلاثة أصوات ، فإن أجابك
أحد ، وإلا فلا لوم علينا فيما صنع ! » . (٨) كنوس جمع كانس : أي مستمر كتمود وجلس جمع قاعد
وجالس ، وأصله من كنس القنبي كضرب : دخل في كتله (ككتاب) وهو مستتر من الشجر ، وجميع
كانس أيضا على كنس (كركج) ومنه الجوارى الكنس (وهي الخواكب السيارة ، أو التجموع
الخامسة : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والزهرة ، ويطارد . لأنها تكتسب في المنهب كالطباء في الكنس
(ككتاب) ، أو هي كل فنونم لأنها تبدو ليلا وتختفي نهارا) وغنوسها أنها تنيب كما يغنى الشيطان ! ذكر
الله عز وجل (ومكانيس الريب : مكانها للفتنة جمع مكنس كجلس .

وشدة في غير عتف ، وإني أقسم بالله لأخذنّ الولي^(١) بالنوّي ، والمقيم بالطاعن ، والمقبل بالذّبر ، والمطيع بالماضي ، والصحيح منكم في نفسه بالسقيم ، حتى يَبْقَى الرجل منكم أخاه ، فيقول : « أئجّ سَدُّ قَدِّكَ سَعِيدٌ^(٢) » أو نسيم لي فتأتكُمُ ، إن كَذِبَ المَنبر بَلَقَا^(٣) مشهورة ، فإذا تعلقم على بكذبة قد حَلَّتْ لَكُمْ مَمِصَتِي^(٤) ، فإذا سَمِعْتُمُوهَا مني فاعْتِزُّوهَا^(٥) في ، واعلموا أنّ عندي أمثالها ، من نَقِبَ منكم عليه فأنا ضامن لما ذَهَبَ منه^(٦) فَيَأْتِي ودَلَجَ الليل ، فإني لا أُوتِي بِمَذْلَجٍ إِلَّا سَفَكْتُ دمه ، وقد أَجَلَسْتُكم في ذلك بمقدار ما يَأْتِي الخَبْرُ الكوفةَ ويرجع إليكم^(٧) ، وإلّاي ودَعَوَى الجاهلية^(٨) ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إِلَّا قَطَعْتُ لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبةً ، فمن غرّق قوماً غرقناه ، ومن أحرّق قوماً أحرقناه ، ومن نَقَبَ

-
- (١) الولي : السيد ، والمولود هنا : العبد . (٢) سَدُّ وسديد هما ابنا نوبة بن أدّ خرجا في طلب إبل لأبيهما ، فوجدها سدة فردها وقتل سعيد ، فكان نوبة إذا رأى سوادا تحت الليل قال : سدة أم سعيد ؟ .
- (٣) من قبلنا بالكسريك : وهو ارتفاع التحجيل في الفرس إلى الفخذين (والتجصيل : بياض في قوائم الفرس) ، والفرس البلقاء مشهورة بتميزها عما سواها ببلقها . (٤) في الطبري « قال الشعبي : فوافقه ماتلقنا عليه بكذبة ، ولا وعدنا خيرا ولا شرا إِلَّا أنفذه » . (٥) عدوها من عبوي ، وانضمه : طعن عليه .
- (٦) في الطبري : « وكان زياد أول من شد أمر السلطان ، وأكد الملك لمعاوية ، وألزم الناس الطاعة ، وتقدم في العقوبة ، وجرد السيوف ، وأخذ بالثقة ، وعاقب حل الشبهة ، وعناه الناس في سلطانه خوفا شديدا ، حتى أمن الناس بعضهم بعضا ، حتى كان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة ، فلا يعرض له أحد ، حتى يأتيه صاحبه ، فيأمنه ، وتبيت المرأة فلا تطلق عليها بابها ، وساس الناس سياسة لم ير مثلاً ، وهابه الناس هبة لم يهابوها أحدا قبله ، وكان يقول : « لو ضاح حبل بيني وبين غرامان طمت من أعده » .
- (٧) في الطبري : « استعمل زياد عدل شرطته عبد الصنّ حصن ، فلمهل الناس حتى بلغ الخبر للكوفة وعاد إليه وصول الخبر إلى الكوفة ، وكان يؤخر المشاء حتى يكون آخر من يصل ، ثم يصل ، يأمر رجلا يقرأ سورة البقرة ومثلها ، يترتل القرآن ، فإذا فرغ أهل بقدر ما يرى أن إنسانا يبلغ الخربة (كجنتية موضع بالبصرة يسمى البصرة الصغرى) ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج فيخرج ، ولا يرى إنسانا إِلَّا قطعه فأخذ ليلة أعرابيا ، فأق به زيادا ، فقال : هل سمعت قتادة ؟ قال : لا والله ، فتمت بخلوة لي ، وشيئ الليل فاضطررها إلى موضع ، فأتت لأصبح ، ولا علم لي بما كان من الأمير ، قال : أظنك والله صادقا ، ولكن في تلك صلاح هذه الأمة ، ثم أمر به فضربت عنقه » . (٨) قولهم : يا قفلان ، والفرس مناصرة الحميرة .

يَتَأْتِيَنَّ مِنْ قَلْبِهِ ، وَمَنْ نَبِّشَ قَبْرًا دَفَنَاهُ حَيًّا فِيهِ ، فَكُفُّوا عَنْ أَيْدِيكُمْ وَالسَّكْمَ ، أَكْشَفْتُ عَنْكُمْ يَدَيَّ وَلِسَانِي ، وَلَا تَظْهَرُ مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ رِيَّةٌ بِخِلَافٍ ^(١) مَا عَلَيْهِ هَاتُكُمْ إِلَّا ضَرْبُ عَقْفِهِ ، وَقَدْ كَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَقْوَامٍ إِسْنٌ ^(٢) ، فَجِلْتُ ذَلِكَ دَبْرَ أَذْنِي ^(٣) وَتَحْتَ قَدَمِي ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُخْبِنًا فَلْيَزِدْ إِحْسَانًا ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسِيئًا فَلْيَنْزِعْ عَنْ إِسَاءَتِهِ ، إِنْ لَوْ عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدَكُمْ قَدْ قَتَلَ النَّيْلَ مِنْ بُغْيِي لَمْ أَكْشِفْ لَهُ فِنَاعًا ، وَلَمْ أَهْتِكْ لَهُ سِدْرًا ، حَتَّى يُيْذِيَ لِي صَفْحَتَهُ ^(٤) ، فَلِذَا فَضَلَ ذَلِكَ لَمْ أَنْظُرْهُ ، فَاسْتَأْنِفُوا أُمُورَكُمْ ، وَأَعِينُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، قَرُوبٌ مُبْتَلِسٌ بِقُدُومِنَا سَيُسْرُ ، وَسَرُورٌ بِقُدُومِنَا سَيُتَثَسُّ .

أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا أَصْبَحْنَا لَكُمْ سَاسَةً ، وَعَنْكُمْ ذَادَةً ، نَسُوكُمْ بِسُلْطَانِ اللَّهِ الْقَدِيِّ أَعْطَانَا ، وَنَذَرُودُ عَنْكُمْ بَنِيَّ اللَّهِ الْقَدِيِّ خَوْلَانَا ^(٥) ، فَلَنَا عَلَيْكُمْ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فَيَا أَهْلِيْنَا ، وَلَكُمْ عَلَيْنَا الْمَدْلُ فَيَا وَلِيْنَا ، فَاسْتَوْجِبُوا عَدْلَنَا وَفِيْنَا بِمَنَاحَتِكُمْ لَنَا ، وَاعْطُوا أُنَى مَهَا قَصَرْتُ عَنْهُ ، فَلَنْ أَقْصُرَ عَنْ ثَلَاثٍ : لَسْتُ بِمُحْتَجِّبٍ عَنْ طَالِبِ حَاجَةٍ مِنْكُمْ وَلَوْ أَنَّنِي طَارِقًا بَلِيلٌ ، وَلَا حَاسِبًا عَطَاءٍ وَلَا رِزْقًا عَنْ إِبَانَةِ ^(٦) ، وَلَا مُجَمَّرًا ^(٧) لَكُمْ بَعْنًا ، فَادْعُوا اللَّهَ بِالْصَّلَاحِ لِأَتَمَّتْكُمْ ، فَإِنَّهُمْ سَأَلُوكُمُ اللَّوْذِيُونَ لَكُمْ ، وَكَهَفُوكُمُ الْقَدِيُّ إِلَيْهِ تَأْوُونَ ، وَمَتَى يَصْلَحُوا تَصْلَحُوا ، وَلَا تُشْرِبُوا قُلُوبَكُمْ بِغَضَبِهِمْ ، فَيَشْتَدُّ لَذِكْ غِيْظُكُمْ ، وَيَطُولُ لَهُ حَزْنُكُمْ ، وَلَا تُذَرُّوا لَهُ حَاجَتُكُمْ ، مَعَ أَنَّهُ لَوْ اسْتُجِيبَ لَكُمْ فِيهِمْ لَكَانَ شَرًّا لَكُمْ . أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَمِيزَ كُلًّا عَلَى كُلِّ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُونِي أَنْفَذْ فِيكُمْ الْأَمْرَ ، فَأَنْفَذُوهُ عَلَى

(١) أَيْ تَخَالَفَ مَا لَجَّعَ عَلَيْهِ عَامَةُ الْقَوْمِ . (٢) جَمْعُ إِسْنَةٍ : وَهِيَ الْحَقْدُ وَالضَّيْقَةُ .

(٣) أَيْ خَلْفَ أَذْنٍ ، وَقَدْ اتَّخَذَهَا مِنْ كَلَامٍ مَعَاوِيَةَ كَمَا مَرَّ بِكَ . (٤) أَيْ يَجَاهِرُ بِالْمَعَاوَةِ .

(٥) مَلَائِكَتَا . وَالْقَدِيُّ : مَا كَانَ شَسَا فِيْهِ سَخَةُ النَّفْلِ ، وَالْخَرَجُ ، أَيْ نَفْعُ عَمَلٍ بِظَلِّ اللَّهِ وَنَمْسَةِ الْقِي

وَمَهْنَتَا ، أَوْ نَفْعُ عَمَلٍ بِمَا صَارَ مِنْ أَيْدِيْنَا مِنْ أَمْوَالِ الْخَرَجِ . (٦) وَتَهُ وَمَوْعِدُهُ . (٧) جَمْرُ الْجَمْدِ :

حَيْثُ يَمُوتُ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ وَلَمْ يَقْتُلْهُمْ .

أذلاله^(١) ، وإيمُ الله إن لي فيكم لصراً قتي كثيرة ، فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعى » .

فقام إليه عبد الله بن الأهم قال : « أشهدُ أيها الأمير لقد أوتيت الحسكة وفصل الخطاب » ، فقال له : « كذبت ذلك نبيُّ الله داود صلوات الله عليه » فقام الأحنف ابن قيس ، فقال : « إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نُذيقَ حتى نَبْتَلِي » فقال له زياد : صدقت ، فقام أبو بلال مِرْدَاس^(٢) ابن أدبَةَ وهو يَهْمِس ويقول : أنبأنا الله بغير ما قلت . قال الله تعالى : « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى » وأنت تزعم أنك تأخذ البريء بالسقيم ، وللطبيع بالعاصي وللقليل بالمدير ، فسمعنا زياد ، فقال : « إنا لا نبليغ ما تريد فيك وفي أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خروصاً » .

(البيان والتبيين ٢ : ٢٩ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٠ ، وصبح الأعشى ١ : ٢١٦ ،

وتاريخ الطبري ٦ : ١٢٤ ، والكامل لابن الأثير ٣ : ٢٢٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

٤ : ص ٥٧ ، وصيون الأخبار ٢ : ص ٢٤١ ، وذيل الأمال ١٨٨)

٢٦٠ - خطبته بالكوفة وقد ضمت إليه

ولما مات المنيرة بن شعبة أمير الكوفة سنة ٥٠ هـ ، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، فكان أول من تَجَمَّع له الكوفة والبصرة^(٣) ، فاستخلفَ على البصرة ، وشخصَ إلى الكوفة فاتأها ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن هذا الأمر أتانى وأنا بالبصرة ، فأردت أن أشخصَ إليكم في اثنين من مُشرطة

(١) أي وجوه وطرقه جمع ذل بالكسر . وذل الطريق : محجة ، وأمور الله جارية عل أذلالها

أي مجاريها .

(٢) وهو من رؤساء الخوارج . (٣) وكان يقم ستة أشهر بالكوفة ، وستة أشهر بالبصرة .

البصرة ، ثم ذكرت أنكم أهل حق ، وأن حَقَّكم طالما دَفَعَ الباطل ، فأنيتكم في أهل بيتي ، فالله الذي رَفَعَ مني ما وضع للناس ، وحَفِظَ مني ما ضَيَّعُوا ، حتى فرغ من الخطبة ^(١) .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٢١)

٢٦١ - خطبة أخرى له بالكوفة

وروى الطبري أيضا قال :

« فَبُعِثَتِ الكوفة والبصرة لزياد بن أبي سفيان ، فأقبل حتى دخل القصر بالكوفة ثم صعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإننا قد جُرُّبْنَا وجَرَّبْنَا ، وَسُنُّنَا وَسَانُنَا السَّائِسُونَ ، فوجدنا هذا الأمر لا يَصْلُحُ آخره إلا بما صلح أوله ، بالطاعة الآئنة المشبَّه سيرها ببتلانيتها ، وَغَيْبُ أهلها بشاهدهم ، وقلوبهم بالسنتهم ، ووجدنا الناس لا يُصْلِحُهُم إلا لينٌ في غير ضعف ، وشدة في غير عُنف ، وإني والله لا أقوم فيكم بأمر إلا أمضيته على أذْلالِهِ ، وليس من كَذِبَةٍ الشاهدُ عليها من الله والناس أكبرُ من كذبة إمامٍ على للنبر ، ثم ذكر عثمان وأصحابه قَرَظَهُمْ ، وذكر قَتْلَهُ وَلِسْنَهُمْ » .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٢ - خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة

وكان زياد قد ولى الكوفة عمرو بن الحرثيث ، ورجع إلى البصرة ، فبلغه أن حُجْرَ بن عَدِيٍّ يَجْتَمِعُ إليه شِيعَةٌ كَثِيرَةٌ ، ويظهرون لمن معاوية والبراءة منه ، وأنهم

(١) قال الطبري : فحسب على المنبر ، (لم يردى بالمصباح وهي المصلى) فجلس حتى أسكروا ، ثم دعا قوما من خاصته ، وأمرهم فأغضوا أبواب المسجد ، ثم قال : ليأخذ كل رجل منكم جليسه ، ولا يقتلوا لأحد من جليسي ، ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد ، فدعاهم أربعة أربعة ، يحلفون بالله ما منا من حبسك ، فن حلف بخلاء ، ومن لم يحلف حبسه وعزله ، حتى صار إلى ثلاثين ، ويقال بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان .

حَصَّبُوا عمرو بن الحرث ، فَشَنَخُوا إِلَى الْكَوْفَةِ ، حَتَّى دَخَلَهَا ، فَأَتَى الْقَصْرَ ، ثُمَّ خَرَجَ
فَصَمِدَ لِلنَّهْرِ ، وَعَلَيْهِ قَبَاءٌ سُدُّسٌ ، وَمُطَرَفٌ خَرَّ أَخْضَرَ ، قَدْ فَرَّقَ شَعْرَهُ ،
وَحَبْرٌ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ حَوْلَهُ أَحْبَابُهُ أَكْثَرَ مَا كَانُوا ، فَعَدَّ اللَّهُ وَأَتْنَى عَلَيْهِ ،
ثُمَّ قَالَ :

« أَمَا بَعْدَ : فَإِنَّ غَيْبَ الْبَنِيِّ وَقَتْنَى وَخَيْمٌ ، إِنَّ هَؤُلَاءَ جَمُوعٌ ^(١) فَأَشِيرُوا ، وَأَمِنُونِ
فَاجْتَرِدُوا عَلَىَّ ، وَإِيْمُ اللَّهِ لَنْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا لِأَدَاوِيْنِكُمْ بِدَوَانِكُمْ ، وَقَالَ : مَا أَنَا بِشَيْءٍ إِنْ لَمْ
أَمْنَعْ بِأَحَدٍ ^(٢) الْكَوْفَةُ مِنْ حُبْرٍ ، وَأَدَعَهُ نِكَالًا لَيْنَ بَعْدِهِ ، وَزِيلُ أُنْثَى يَا حَبْرُ ،
سَقَطَ النَّشَاءُ بِكَ عَلَى سِرِّحَانٍ ^(٣) » .
(تأريخ الطبري ٦ : ١٤٢)

٢٦٣ - خطبة أخرى له

وخطب زياد فقال :

« اسْتَوْصُوا بِثَلَاثَةٍ مِنْكُمْ خَيْرٌ : الشَّرِيفُ وَالْعَالِمُ وَالشَّيْخُ ، فَوَاللَّهِ لَا يَأْتِينِي شَيْخٌ
بِشَابٍ قَدْ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا أَوْجَعْتُهُ ، وَلَا يَأْتِينِي عَالِمٌ يَاجْهَلُ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا نَكَلْتُ بِهِ ،
وَلَا يَأْتِينِي شَرِيفٌ بَوْضِيعٍ اسْتَخَفَّ بِهِ إِلَّا انْتَقَمْتُ لَهُ مِنْهُ » .

(البيان والتبيين ٢ : ٧٣ ، والقصد للقريني ٢ : ١٥١ : شرح ابن أبي الحديد ٤ ص ٧٤)

٢٦٤ - خطبة أخرى

وخطب على النهير فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : لَا يَمْتَنِعُكُمْ سِوَهُ مَا تَطْعُونَ مِنْهُ أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنْهُ ،
فَإِنَّ الشَّاعِرَ يَقُولُ :

(١) من جم الماء جموعاً : كثر واجتمع . (٢) الباحة : الساحة . (٣) هو مثل : وأصله
أن رجلاً خرج يلتمس المشاء ، فوقع على ذئب فأكله . يضرب في طلب الحاجة يؤدي بصاحبها إلى التلف .

اعمل بقول وإن قصرت في عمل يفتك قولي ولا يضررك قصوري

٣٦٥ - وصية لزياد

وروى الجاحظ عن عمرو بن حبيب أنه قال : كتب عبد الله بن مروان وصية زياد بيده ، وأمر الناس بحفظها وتدبر معانيها وهي :

« إن الله عز وجل جعل لهادي عقولا ، عاقبهم بها على مصيبتهم ، وأثابهم بها على طاعتهم ، فالتاس بين تحسين نعمة الله عليه ، ومسيء بخذلان الله إياه ، والله النعمة على المحسن ، والحجة على المسيء ، فإول من تمت عليه النعمة في نفسه ورأى العبرة في غيره بأن يضع الدنيا بحيث وضعا الله ، فيعطى ما عليه منها ، ولا يعكثر بما ليس له منها ، فإن الدنيا دار فناء ، ولا سبيل إلى بقائها ، ولا بد من لقاء الله ، فأحذركم الله الذي حذركم نفسه ، وأوصيكم بصيبل ما أخرته التجرة ، قبل أن تصيروا إلى الدار التي صاروا إليها ، فلا تقديرون على توبة ، وليس لكم منها أوبة ، وأنا استغفلكم الله عليكم ، واستغفلكم منكم » .

قال الجاحظ : وقد روي هذا الكلام عن الجراح ، وزياد أحق به منه .

(البيان والبيان ١ : ٢٠٦)

٣٦٦ - ما كان يقوله لمن ولاه عملا

وكان زياد إذا ولى رجلا عملا قال له :

« خذ عهدك ، وسير إلى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سلتك ، وأنتك نصير إلى أربع خلال ، فآختر لنفسك . إنا إن وجدناك أميناً ضيقاً ، استبدلنا بك لضعفك ، ولسلتك من ممرتنا أمانتك ، وإن وجدناك قوياً خائفاً استبدلنا بقوتك ، وأوجعنا ظهرك »

وَقَتَلْنَا غُرْمَكَ ، وَإِنْ جَعَمْتَ عَلَيْنَا الْجُرْمَيْنِ ، جَعَمْنَا عَلَيْكَ اللَّعْنَتَيْنِ ، وَإِنْ وَجَدْنَاكَ أَمِينًا قَوِيًّا ، زِدْنَا فِي عَمَلِكَ ، وَرَفَعْنَا ذِكْرَكَ ، وَكَثَّرْنَا مَالَكَ ، وَأَوْطَأْنَا عَقِيكَ » .

(الأمال : ٢ : ٨٢)

٢٦٧ - خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

وخطب الضحاك بن قيس الفهري على منبر الكوفة - وقد كان بانه أن قوما من أهلها يشتمون عثمان ويبرءون منه ، فقال :

« بلغني أن رجالا منكم ضلّالاً يشتمون أئمة الهدى ، ويعيبون أسلافنا الصالحين ، أما والذي ليس له يد ولا شريك ، لئن لم تنهوا عما يبلغني عنكم ، لأضعن فيكم سيف زياد ، ثم لا تجدوني ضعيف السّورة^(٢) ، ولا كيليل الشفرة^(٣) ، أما إني لصاحبكم الذي أغرْتُ على بلادكم^(٤) : فكنتُ أول من غزاها في الإسلام ، وشرب من ماء التَّمْلِيَةِ

(١) ولله ماوية الكوفة سنة ٥٥ إلى سنة ٥٨ ثم جعله على شرطه ، ولما مات معاوية الثاني بايعه أهل دمشق على أن يعمل بهم ، ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ، ويمنه من إظهار ذلك أن يبي أمية كانوا يحضرته ، وكان يعمل في ذلك سرا ، ثم نشبت الحرب بينه وبين مروان بن الحكم في مرج راهط ، ودلّوت البائرة على جيش الضحاك وقتل متصفاً في الحجة سنة ٦٤ هـ .

(٢) سورة السلطان : سلطته واحتاؤه . (٣) الشفرة : حد السيف ، وكليل : غير قاطع .

(٤) وكان ذلك سنة ٣٩ هـ ، دعاه معاوية ، وقال : سر حتى تمر بتاحية الكوفة ، وترتفع عنها ما استطعت ، فن وجفته من الأعراب في طاعة على فأغر عليه ، وإن وجدت له مسلحة أو خيلاً فأغر عليها ، فسرعه فيما بين ثلاثة آلاف إلى أربعة آلاف ، فأقبل الضحاك تهب الأموال ، وقتل من لقى من الأعراب ومر بالتاحية فأغار على سالح على وأخذ أمتهم ، ومضى حتى انتهى إلى القنطرة ، فألقى عمرو ابن حمير بن مسعود - وهو ابن أخي عبد الله بن مسعود - وكان في خيل لمل ، وأسلمه أهله ، وهو يريد الحج ، فقتله وقتل ثماناً من أصحابه ، فلما بلغ ذلك علياً سرح حجير بن عدي الكندي في أربعة آلاف ، فلم يزل منذ في أثر الضحاك حتى لقيه بتاحية تدمر فواقه ، فاقتتلوا ساعة ، فقتل من أصحاب الضحاك تسعة عشر رجلاً ، وقتل من أصحاب حجير رجلاً ، وحجز الليل بينهم ، فهرب الضحاك وأصحابه . فلما أصبحوا لم يجدوا لم أترأ - شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٥٤ ، وتاريخ الطبري ٦ : ٧٨ - .

ومن شاطئ الفرات ، أعاقب من شئت ، وأغزو ممن شئت ، لقد ذعرت المخدرات
في خدورهن ، وإن كانت الرأى ليبيك ابنتها فلا ترهبه ولا تسكته إلا بذكر اسمي ،
فاتقوا الله يا أهل العراق ، أنا الضحاك بن قيس ، أنا أبو أنيس ، أنا قاتل عمرو
ابن مخيس .

فقام إليه عبد الرحمن بن عبيد ، فقال : « صدق الأمير ، وأحسن القول ! ما أعرفنا
والله بما ذكرت ! ولقد لقيناك يفرجى تذر فوجدناك شجاعاً مجرباً صبوراً ^(١) ! »
ثم جلس ، وقال : أيفخر علينا بما صنع بيلادنا أول ما قدم ؟ وإيم الله لأذكرته أبغض
مواطنه إليه ، فسكت الضحاك قليلا ، وكأنه خزي واستحيا ، ثم قال : نعم ، كان
ذلك اليوم بأخرة ^(٢) - بكلام قليل - ثم نزل .
(شرح ابن أبي الحديد ١ : ١٥٥)

٢٦٨ - خطبته عند موت معاوية

ولما مات معاوية (سنة ٦٠ هـ) خرج الضحاك بن قيس النهري - وكان صاحب
شرطته - حتى صد الدبر ، وأكفان معاوية على يديه تلوح ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

« إن معاوية كان عمود العرب ، وحده العرب ، قطع الله عز وجل به الفتنة ،
وملكه على العباد ، وفتح به البلاد ، ألا إنه قد مات ، فهذه أكفانه ، فنحن
مُدْرَجوه فيها ومُدْخِلوه قبره ، ومُحَلُّونَ بينه وبين عمله ، ثم هو في البرزخ ^(٣) إلى
يوم القيامة ، فن كان منكم يريد أن يشمه فليحضر عند الأولي ^(٤) . »

(تاريخ الطبري ٦ : ١٨٢ ، والعقد القريذ ٢ : ٢٥٠)

(١) هذا القول بهم به كما ترى . (٢) يقال : جاء أنفة وبأخرة بالتحريك : أي آخر كل شيء .

(٣) البرزخ : ما بين الدنيا والآخرة ، من وقت الموت إلى البعث ، فن مات فقد دخل البرزخ .

(٤) وفي العقد « فن أراد حضوره صلاة الظهر فليحضره » .

٢٦٩ - خطبة النعمان بن بشير بالكوفة^(١)

(قتل سنة ٦٤ هـ)

خطب النعمان بن بشير على منبر الكوفة ، قال :

« يا أهل الكوفة : إني والله ما وجدت مثلي ومثلكم إلا الضَّيْعَ والثَّملاب ، أنيا الضَّيْبُ في جُعره ، قتالا : أبا الحِمل^(٢) . قال : أجبتكما . قالا : جئناك نختم . قال : في بيته يؤتى الحكم . قالت الضيغ : فتحت عيني . قال : فقل النساء ضلت . قالت : فلقطتُ تمرًا . قال : حُلوا اجتنبت . قالت : فاختطفها ثُمالة^(٣) . قال : لنفسه بَنَى الخَيْرَ . قالت : فاطمته لَطَمَةً . قال : حُفًا قضيت . قالت : فاطمني أخرى . قال : كان حرًا فانتصر . قالت : فافض الآن بيننا . قال : حَدَّثَ حديثين امرأة ، فإن لم تفهم فأربعة^(٤) . » (المقد الفريد ١ : ٢٦٩ - ٢ : ١٥٨ ، وجميع الأمثال للميداني ٢ : ١٣)

(١) ولي الكوفة وحصص لمعاوية ويزيد ، وكان هواهما ، وميله إليهما ، فلما مات معاوية بن يزيد دعا الناس إلى بيعة عبد الله بن الزبير بالشام ، وكان أوله من خائفين أمراء الأجناد - وكان واليا على حمص - وانضم إلى الضحاك بن قيس الفهري ، أمده بجيش من أهل حمص عليه شرحبيل بن ذي الكلاع ونشبت الحرب بين الضحاك وبين مروان بن الحكم فخرج راضط ، ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل كما قلنا ، فلما بلغ الخبر النعمان بن بشير خرج عن حمص هاربا لئلا يوصيه امرأته وولده وثقله ، فسار ليكة جهاد متحيرا لا يدرى أين يأخذ ، فأنجاه خالد بن هدي الكلامي فبين خف منه من أهل حمص ، فلحقه وقتله ويصم برأسه إلى مروان ، وكان قتله في ذي الحجة سنة ٦٤ هـ . (٢) أبو حنبل وأبو حنبل : كنية الضيغ ، وفي جميع الأمثال أن الشخصين : الأرقب والثملاب . (٣) ثُمالة : اسم الثملاب الذكر والأنثى . (٤) وقد ذهبت أقوال الضيغ كلها أمثالا . قال الميداني في شرح المثل الأخير (١ : ١٣٠) : « أي زده ويزاد بالمحدثين حديثا واحدا تكرر مرتين ، فكأنك حديثها بمحدثين . واللفظ كرر لما الحديث لأنها أضعف نفعا ، فإن لم تفهم فاجعلهما أربعة ، وقال أبو سعيد : فإن لم تفهم بعد الأربعة فالأربعة (والمرية ككثرة الصا) وروى ، فأربع « أمر من ويح كتح » أي كف ، تقرب في سوء السمع والإجابة » .

٢٧٠ — خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية

(قتل سنة ٦٧ هـ)

قدم عبيد الله بن زياد على معاوية بعد هلاك زياد ، فجل بصدى منه بخلة ،
ليُسَبِّرَ من رأيه ما كره أن يُشْرَكَ في علمه ، فاستأذن عليه بعد انصداع الطلاب ، واشتغال
الخاصة ، وافترق العامة ، وهو يوم معاوية الذي كان يخلو فيه بنفسه ، ففطن معاوية
لما أراد ، فبعث إلى ابنه يزيد وإلى مروان بن الحكم وإلى سعيد بن العاص ، وعبد الرحمن
ابن الحكم ، وعمر بن العاص ، فلما أخذوا مجالسهم أذن له ، فسلم ووقف واجماً يتصفح
وجوه القوم . ثم قال :

« سَرِجُ الْمُفْجُوقِ مُكَامَّةُ الْأَدْنَيْنِ ، لَا خَيْرَ فِي اخْتِصَاصٍ وَإِنْ وَفَّرَ ، أَحَدُهُ اللَّهُ
إِلَيْكُمْ عَلَى الْآلَاءِ ^(١) ، وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى اللَّأْوَاءِ ^(٢) ، وَأَسْتَهْدِيهِ مِنْ عَمَى مُجْهَدٍ ، وَأَسْتَعِينُهُ
عَلَى عَدُوِّ مُرْصِدٍ ^(٣) ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لِلنَّقْدِ بِالْأَمِينِ الصَّادِقِ مِنْ شَفَا جُرْفٍ
هَارٍ ^(٤) ، وَمَنْ بَدَأَ غَارٍ ^(٥) ، وَصَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى الزَّكَاةِ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَنَذِيرِ الْأُمَّةِ ، وَقَائِدِ
الْهُدَى ، أَمَا بَعْدُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : فَقَدْ عَسَفَ بِنَا ظُلْمٌ فَرَّعَ ^(٦) ، وَفَذَعَ ^(٧) صَدْعٌ ، حَتَّى
طَمَسَ السَّجِيحَ ^(٨) ، وَبَيَّسَ الرِّفِيقَ ، وَدَبَّ الْوُشَاةُ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، فَكَلِمَةُ مُسْتَحْفِرٍ ^(٩)

(١) الصم . (٢) الشدة . (٣) أُرْصِدَتْ لَهُ : أَعْدِدَتْ .

(٤) الشفا : حُرِفَ كُلُّ ثِيٍّ ، وَالْجُرْفُ كَمَثَرٍ وَقَتْلٌ : مَا يَحْرِثُهُ السَّيُولُ وَأَكَلَتْهُ مِنَ الْأَرْضِ ، وَهَارُ

الْجُرْفِ : انْصَدَعَ وَلَمْ يَسْقُطْ فَهُوَ هَارٌ كَقَنَاصٍ ، وَهُوَ مَقْلُوبٌ مِنْ هَارٍ ، فَلِذَا سَقَطَ فَقَدْ انْهَارَ وَتَهَوَّرَ .

(٥) أَيْدٍ : التَّعَبِ ، وَالْفَارَى : الْمَلَاظِمُ الشَّامِلُ ، مِنْ غَرَا السَّنُّ قَلْبُهُ لَزَقَ بِهِ وَغَطَاهُ .

(٦) فَرَعَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَفَرَقَ بَعْثِي وَاحِدٌ : أَيْ أَنَّ هَذَا الثَّلَاثَ فَرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فَجَاءَتْ بَيْنَنَا .

(٧) هِيَ فِي الْأَصْلِ « فَرَعٌ » وَأَرَامًا مَحْرُوقَةٌ عَنْ قَطْعٍ وَهِيَ الَّتِي تَنَاسَبَ لِلْقَامِ . فَذَعَهُ قَدْ قَامَ (بِالْكَوْنِ)

وَمَادَ بِالْفَحْشِ وَسَوَّاهُ الْقَوْلَ كَأَنَّهُ ، وَلِلْقَنَازِ عِمْرَةٌ : الْخُفَا وَالْقَنْصُ وَالْقَدْرُ ، وَصَدَعٌ : شَقٌّ وَفَرَقَ : أَيْ أَنَّ مَا مَوَانَا

بِهِ الْوُشَاةُ لَيْدِكُ مِنْ سَوِّهِ الْقَوْلِ فَرَقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ . (٨) الْجَبِيدُ . (٩) فِي الْأَصْلِ هَكَذَا بَعْثِي مُحْتَرٌ ،

أَيْ مُحْتَرَلْنَا لِمَادَاتِهِ إِيَابًا ، أَوْ أَنَّهُ لَا يَلِيَالِي إِمَادَاتِنَا لِمَا نَابَتْنَا مِنَ الْقَضْفِ بِمَوْتِ زِيَادٍ ، وَبِمَا كَانَ « مُحْتَفِرًا لِمَادَاةٍ »

أَيْ مُتَوَثِّبٌ مُتَوَفِّرٌ أَوْ « مُسْتَحْفِرًا لِمَادَاةٍ » مِنْ اسْتَحْفَرٍ : إِذَا مَضَى مَعْرَا .

للعداوة . وقد قَامَصَ الآزرة ^(١) ، وشَمَّرَ عن عِطَافِهِ ^(٢) ليقول : مَصَى زياد بما اسْتَلْحَقَ به ، ودَلَّ على الأثَانَةِ ^(٣) من مُسْتَلْحِقِهِ ، فليت أمير المؤمنين سَلِمَ في دَعَتِهِ ^(٤) ، واسَلِمَ ^(٥) زياداً في ضِيَعَتِهِ ، فكان رِزْبُ ^(٦) عامَّتِهِ ، وأحد رَعِيَّتِهِ ، فلا تَشَخَّصَ ^(٧) إليه عين فَاظِرٍ ، ولا اصْبَحْ مُشِيرٍ ، ولا تَنْذَلِني ^(٨) عليه السَّنُ كَلَمَتُهُ حَيًّا ، وَنَبَشَتُهُ مَيِّتًا ؛ فإن تكن يا أمير المؤمنين حاييت زياداً بأول رُفَاتٍ ، ودِعْوَةِ أَمْوَاتٍ ، فقد حاباك زياد بجِدِّ هَظُورٍ ، وعَزَمِ جَسُورٍ ، حتى لانت شِكَاكُمُ الشَّرِسِ ، وذَلَّتْ صَمْبَةُ الْأَشُوسِ ^(٩) ، وبَدَّلَ لك يا أمير المؤمنين يَمِينَهُ وَيَسَارَهُ ، تأخذ بهما للفتح ، وتَقهر بهما البديع ، حتى مضى واللهُ يضرُّ له ، فإن يكن أخذ بحقِّ أنزله مَنَازِلَ الْأَقْرَبِينَ ، فإن لنا بعده ما كان له ، بِدَالَةٍ الرَّحِمِ ، وقرابة الحليم ، فإنا يا أمير المؤمنين نمشي الضَّرَاءَ ^(١٠) ، ونَشْتَفُ الدُّصَارَ ^(١١) ؟ ولك من خيرنا أكله ، وعليك من حُوبِنَا ^(١٢) أَقْلَهُ ، وقد شهد القوم ، وما ساءنى قريبهم لِيُقِرُّوا حقًّا ، وبردُّوا باطلاً ، فإن للحق مَنَارًا واضحًا . وسيلًا قَصْدًا ^(١٣) . قتل يا أمير

-
- (١) الآزرة والأزربضتين : جمع إزار ، وهو الملحفة . (٢) العِطَاف : الرداء ، وجمعه عطف بضمين ، وأعطفه ، وكذا الملحفت بالكسر ، وهو مثل إزار ، ومئزر ، ولحاف ، وملحف .
 (٣) في الأصل « الأنية » وأراد معرفة عن « الأثانة » وهي الحلم . (٤) الدعة : الخفض .
 (٥) أسلمه : خذله ، أي قاتله ترك زياداً ضائع النسب معذورا ولم يستلحقه .
 (٦) القرب : من وله ملك ، أي فكان تروا لأحد عامة الناس ، ولم يكن تروا لك فلا يقدر له قدر .
 (٧) أي فلا ترتفع . (٨) انذل السيل : اندفع ، والسيف انذل بلا سل ، أو شق جفته فخرج منه ، وكلسته : جرحه وأذته . (٩) وصف من الشوس بالتحريك ، وهو النظر بمؤخر العين تكبرا ، أو تمظنا .
 (١٠) الضراء : الشجر الملتصق في الوادي ، يقال توارى الصيد منه في ضراء ، وتلآن يمشي للضراء : إذا مشى مستخفيا فيما يوارى من الشجر . (١١) اشتف ما في الإناء : شربه كله ، والتضار : الذهب أو الفضة ، والمراد : نمنع منه ، ولا نمكن من أخذه ، أي بحال بيننا وبين الولاية .
 (١٢) الحوب بضم الميم ونقصها : الإنم ، أي وعليك من آثامنا التي ارتكبتها في سبيل تأييد سلطانك أنقلها . وفي بعض النسخ : « من جوابنا » أي من جوابنا حين يسألنا الولي عما أتينا من أخذ الناس بالصف والإرهاق فيمكن ملكك (١٣) القصد : استقامة الطريق .

للمؤمنين بأى أمريك شئت ، فانا نأزِرُ^(١) إلى غير جُحْرِنا ، ولا نستكثر بغير حَقِّنا ،
واستغفر الله لى ولكم .

٢٧١ — رد معاوية على ابن زياد

فنظر معاوية فى وجوه القوم كالمصجَّب ، فتصفهم بِلَحْظِهِ رجلا رجلا وهو مبتسم ،
ثم اتَّجِهَ تِلْكَاهُ ، وعقد حُبُوتَهُ^(٢) : وحَسَرَ عن يده ، وجعل يُؤمى بها ، ثم قال معاوية :
« الحمد لله على ما نحن فيه ، فكلُّ خير منه . وأشهد أن لا إله إلا الله ، فكل
شئ خاضعٌ له ، وأن عمداً عبده ورسوله ، دَلَّ على نفسه بما بَانَ من عجزِ الخلق أن
يأتوا بمثله ؛ فهو خاتَمُ النبیین ، ومُصَدِّقُ الرِّسَالِین ، وحجَّةُ رب العالمین ، صلوات الله
عليه وبركاته ؛ أما بعد : فربُّ خيرٍ مستور ، وشرٌّ مذكور ، وما هو إلا السَّهمُ الأَخْبِیُّ
لن طاربه ، والحظُّ للرَّغْبِ لمن فاز به ، فیهما التفاضلُ وفيهما التَّغَابُنُ ، وقد صَفَقَتْ^(٣)
یدای فی أیك صَفَقَةً ذی الخَلَّةِ من رِواضِ الفُضْلانِ ، عَامَلِ اصْطِناعی^(٤) له بالسَّكْرِ
لِما أولیته ، فارمیتُ به إلا اتَّصَلَ^(٥) ، ولا اتَّصِيتَهُ^(٦) إلا غَلَّقَ جَفْنُهُ ، ووزَّتْ^(٧)
لَسَعَتُهُ ، ولا قُلْتُ إلا عانَدَ ، ولا قُتُّ إلا أقصد ، حتى اختَرَمَهُ^(٨) اللوت ، وقد أوقع
مِخْطَرَهُ^(٩) ، ودَلَّ على حِقْدِهِ ، وقد كنت رأيتُ فی أیك رأياً حَفَرَهُ الخَطَلُ ، والتبس
به الزَّلَلُ ، فأخذ منى بِحِظِّ التَّغَفُّ ، وَمَا أَبْرَأُ نَفْسِی ، إِنْ النَّفْسُ لَأَمَارَةٌ بالسَّوءِ ،

(١) من أرزوت الحية : أى لا ذن بجرحها ووجعت إليه . (٢) احتبى بالنوب : انشمل ، أو جمع بين ظهره وماتيه يمامة ونحوها ، والاسم : الحبوَّة ، وحسر : كشف . (٣) صفق له بالبيع ، وصفق يده ، وعمل يده صفقا وصفقة : ضرب يده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . والفصلان جمع لفصل : وهو ولد الناقة إذا فصل من أمه ، والحلة : الحاجة . (٤) اصطنه لنفسه : اختاره لخاصة أمر استكناه إياه . (٥) اتصل السهم : سقط نصله . (٦) اتصيت السيف : استله ، والمخزن : غمد السيف . (٧) لزه طمته . (٨) أهلكه . (٩) المختَر : القدر والخليفة ، أو أتيح القدر ، وأوقع به : أهلكه .

فَا بَرِحَتْ هَكَاتٍ^(١) أَيْكَ تَخْطُبُ فِي حَيْلِ التَّطِيئَةِ ، حَتَّى اسْتَكْتَفَى^(٢) الْمُبَرِّمَ ، وَانْخَلَّ عَقْدُ الْوَدَادِ ، فَيَا لَهَا تَوْبَةٌ تَوْتَنَفُ^(٣) مِنْ حَوْبَةٍ أَوْرَثَتْ نَدَمًا ، أَسْمَعَ بِهَا الْمَانِفُ ، وَشَاعَتْ لَشَامَتُ ، فَلَمِيزَتْ^(٤) الْوَالِشِمَ مَا بِهِ احْتَقَرُ ، وَأَرَاكَ نَعَمْدَ مِنْ أَيْكَ جِدًّا وَجُسُورًا^(٥) هُمَا وَفِيًّا بِهِ عَلَى شَرَفِ التَّقَحُّمِ^(٦) ، وَغَبَطِ النِّعْمَةَ ، فَذَهَبَا قَدْ أَذْكَرْتُنَا مِنْهُ مَا زَهَدْنَا فَيْكَ مِنْ بَمَدِهِ ، وَبِهِمَا مَشَيْتَ الضَّرَاءَ ، وَاسْتَشْفَقْتَ النِّصَارَ ، فَادْهَبْ ، إِلَيْكَ ، فَأَنْتَ بَجَلُ الدَّغَلِ^(٧) ، وَنَثَرُ التَّنْثَلِ^(٨) ، وَالْأَجْرُ شَرٌّ .

٢٧٢ — مقال يزيد بن معاوية

فَقَالَ يَزِيدُ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ لَشَاهِدَ غَيْرَ حَكَمِ النَّاسِ ، وَقَدْ حَضَرَكَ زِيَادُ ، وَهُوَ مُوَاطِنٌ مَدْعُودَةٌ بِخَيْرٍ ، لَا يُفْسِدُهَا التَّغَطُّيُ^(١) ، وَلَا تَتَبَّرُهَا النَّهْمُ ، وَأَهْلُوهُ أَهْلُكَ التَّحْقُوقُ بِكَ ، وَتَوَسَّطُوا شَأْنَكَ ، فَسَافَرْتُ بِهِ الرُّكْبَانُ ، وَتَسَمَّيْتُ بِهِ أَهْلَ الْبُلْدَانِ ، حَتَّى اعْتَقَدَهُ الْجَاهِلُ ، وَشَكَّ فِيهِ الْعَالِمُ ، فَلَا تَتَحَجَّرُ^(٢) يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا قَدْ اتَّسَعَ ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الشَّهَادَاتُ ، وَأَعَانَكَ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ . »

فَاخْرُفَ مَعَاوِيَةَ إِلَى مَنْ مَعَهُ ، فَقَالَ : هَذَا وَقَدْ^(٣) نَفَسَ بَيْمَتَهُ ، وَطَمَنَ فِي أَمْرَتِهِ ، يَعْلَمُ ذَلِكَ كَأَعْلَمِهِ ، يَا لَرَجَالٍ مِنْ آلِ أَبِي سَفْيَانَ ! لَقَدْ حَسَكُمُوا وَبَدَّ^(٤) يَزِيدُ وَحْدَهُ ،

-
- (١) أَعْمَالُهُ وَسَيَاتُهُ جَمْعُ هَتَّةٍ . (٢) انْخَلَّ وَانْتَقَضَ . (٣) تَوْتَنَفُ : تَمْتَنَفُ ، وَالْمُتَوْتَنَفُ : الْإِيْثْمُ وَالذَّنْبُ . (٤) مِنْ هَتَّةٍ الْعَطْمُ : أَيْ سَاغَ وَلِذَ ، وَالْوَالِشِمُ قَاعِلٌ مِنَ الرُّشْمِ ، وَشَمِيْدٌ : إِذَا غَرَزَهَا بِإِبْرَةٍ ثُمَّ ذَرَطَهَا التَّلِيْجَ ، وَالْمُرَادُ بِهِ هُنَا الْمَلْدَى - وَالْوَشِيْمَةُ : الْمَدَاوَةُ - أَيْ نَهْنِيْنَا لِأَمْدَانِهِ الَّذِيْنَ حَقَرُوهُ وَقَالُوا مِنْ عَرَضِهِ ، فَهُوَ أَهْلٌ لِمَا قِيلَ فِيهِ : « يَرُدُّ مَعَاوِيَةَ بِذَلِكَ حَتَّى يَقُولَ صِيْدَانَهُ قِيلٌ » وَلَا تَنْتَلِقُ عَلَيْهِ أَلْسُنُ كُلِّهِ حَيًّا ، وَتَبِيْشُهُ مَيِّتًا . (٥) الْجُسُورُ : الْجِسَارَةُ . (٦) قَحَحْتُ بِهِ دَابَّتَهُ : نَدْتُ بِهِ وَرَبَّيَا طَوَحْتُ بِهِ فِي وَهْدَةٍ أَوْ وَقَعْتُ بِهِ ، وَالتَّقَحُّمُ كَفَرَةُ : الْوَرُودَةُ وَالْمُهْلِكَةُ ، وَالْمُرَادُ التَّمَرُّضُ بِالْهَلَاكِ . (٧) الدَّغَلُ وَالْفَسَادُ . (٨) تَغَلَّ الْأَيْدِي تَغَلًّا : فَسَدَ فِي الدَّبَاغِ ، وَالْمَرْجُ فَسَدَ . (٩) التَّنْثَلُ : إِعْمَالُ الثَّلَاجِ ، وَأَصْلُهُ التَّنْظَنُ . (١٠) أَيْ قَلَّ تَضْيِيقُ . تَجَبَّرَ عَلَيْهِ : ضَيَّقَ ، وَتَجَبَّرَ مَاوَسَهُ اللَّهُ : حَرَمَهُ وَخَفِيْهُ ، وَفِي الْمُهْدِيْثِ : « لَقَدْ تَجَبَّرَتْ وَأَسَا » أَيْ ضَيَّقَتْ مَاوَسَهُ اللَّهُ ، وَفِي الْأَصْلِ « فَلَا يَتَحَجَّرُ » وَهُوَ تَصْحِيْفٌ . (١١) فِي الْأَصْلِ « وَدَّ » وَلَمْ يَدَّ ، وَقَدْ ، وَقَدْ ، أَيْ غَلَبَ وَسَكَنَهُ . (١٢) فَاتَهُمْ .

ثم نظر إلى عبيد الله ، قال : يا بن أخي ، إني لأعترفُ بك من أهلك ، وكأنى بك في عَمْرَةٍ لا يَحْتَفُظُهَا ^(١) الساج ، فآزَمَ ابنُ حَك ، فإنَّ لِمَا قالَ حقاً ، فخرجوا ولزم عبيد الله يزيدُ يَرُدُّ مجلسه ، ويَطَأُ حَقِيْبَةَ أَيْمَانِهِ ، حتى رَمَى به معاوية إلى البصرة واليا عليها ^(٢) .

(النفق لقرئ ٢ : ١٤٠)

٢٧٣ - وصية المهلب بن أبي صفرة لابنائه عند موته ^(٣)

روى الطبري قال :

لما كان المهلبُ بنُ أبي صفرةَ يزأقولَ من مَرَوَ الرُّوْدِ (من خراسان) أصابه الشَّوْمَةُ ^(٤) (وقوم يقولون الشُّوكَةُ ^(٥)) فلما حَبِيْبًا ومن حضره من ولده ، ودعا بيسهامَ قَهْرُزِمَتَ ، وقال : أترُونكم كاسيريهما بحِصْمَةٍ ؟ قالوا : لا . قال : أترُونكم كاسيريهما مَفْرُوقَةً ؟ قالوا : نعم . قال : فهكذا الجماعة ، فأرسيكم بقوى الله وحِصْلَةِ الرَّحِمِ ، فإنَّ صلةَ الرَّحِمِ تُنْشِئُ ^(٦) في الأجل ، وتُثَرِّى المال ، وتُكَثِّرُ العدد ، وأنها كم عن القطيعة ، فإنَّ القطيعةَ تُغَيِّبُ النَّارَ ، وتُورِثُ الدَّهْلَ وَالْقِلَّةَ ، تَبَادُلُوا وَتَوَاسَلُوا تَحَابُّوا ، واجمعوا أَسْرَكم ولا تَعْتَظِلُوا ، وَتَبَارَكُوا تَجْمَعُ أُمُورُكم ، إنَّ بَنِي الأُمِّ يَخْتَلِفُونَ ، فكيف بَنِي التَّمَلَّاتِ ^(٧) ؟ وعليكم بالطاعة والجماعة ، ولكن فإلستم أفضل من قولكم ، فإنِّي أحبُّ للرجل أن يكون لِمَتْلِهِ فضلٌ على لسانه ، وأنقوا الجواب ، ورَزَلَةُ اللسان ، فإنَّ الرجلَ تَزِلُّ قدمه فيفتن من رَزَلَتِهِ ، ويَزِلُّ لِسَانُهُ فَيَهْلِكُ ، اعرِفُوا لِمَن يَنْشَأُكم حقَّ ، فكفى بِشُدُوِّ

(١) في الأصل : لا يَحْتَفُظُهَا ، وأراد : لا يَحْتَفُظُهَا . (٢) قال الطبري : : ولي معاوية حبيداته ابن زياد البصرة سنة ٤٥ هـ . (٣) سجد خطبه إن شاء الله في باب « خطب الخوارج وما يصلح بها » وذكر الطبري أنه توفي سنة ٨٢ هـ ، وابن خلكان أنه توفي سنة ٨٣ هـ ، وكان الحجاج قد ولاه بعد فراقه من حرب الأزارقة على خراسان ، فوجدوا واليا عليها سنة ٧٩ هـ ولم يزل واليا عليها حتى أدركه الوفاة هناك . (٤) الشَّوْمَةُ : حمة تملو الجسد . (٥) الشُّوكَةُ : حمة تملو الجسد . (٦) بنو التملات : بنو لمهات حتى من رجل واحد . (٧) تَزَعْرُ وتَلْعَلُ .

الرجل ورَواحِه إليكم تذَكِرَتُهُ ، وآثَرُوا الجُودَ على البخل ، وأَجَبُوا العرب ، واصطنعوا العرب ، فإن الرجل من العرب يَمُدُّ العِدَّةَ فيموتُ دونك ، فكيف الصنعة عنده ؟ وعليكم في الحرب بالأنفة والسكينة ، فإنها أنفعُ في الحرب من الشجاعة ، وإذا كان اللقاء نزل القضاء ، فإن أخذ الرجل بالحزم فظهر على عدوه ، قيل : أتى الأمر من وجهه ، ثم ظفر فحميد ، وإن لم يظفر بعد الأنفة ، قيل : ما فرط ولا ضيغ ، ولكن القضاء غالب ، وعليكم بقراءة القرآن ، وتعلم السنن وأدب الصالحين . وإياكم والخلفه وكثرة الكلام في مجالسكم ، وقد استخلفتُ عليكم يزيد ، وجعلتُ حبيباً على الجند ، حتى يُقدّم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد » فقال له الفضل : لو لم تُقدّمه لقدّمناه .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٩ ، ونهاية الأوب ٧ : ٢٤٩ ، والبيان والتبيين ٢ : ٩٨)

* * *

وعهد إلى ولده يزيد ، فكان من جملة ما قال له :

« يا بُنَيَّ ، استعِزَّ بالحاجب ، واستظَرِّف الكاتب ، فإن حاجِبَ الرجل وجهه ، وكاتبه لسانه » ، وكان يقول لبنيه : « يا بُنَيَّ أحسن ثيابكم ما كان على غيركم » . ومن كلماته المأثورة قوله : « الحياة خيرٌ من الموت ، والثناء الحسن خيرٌ من الحياة ، ولو أُعطيتُ ما لم يُعطه أحد لأحببت أن تكون لي أذنٌ أسمع بها ما يقال في غداً إذا ميتٌ » ، وقوله : « تجبتُ لمن يشترى السيد بماله ولا يشترى الأحرار بإفضاله » .

(وفيات الأيمان ٢ : ١٤٦ ، وشرح البيهقي ١٣٧)

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

(المتوفى سنة ٨٩٥ هـ)

٢٧٤ - خطبته بمكة بعد مقتل ابن الزبير (سنة ٨٧٣ هـ)

لما قَتَلَ الحجاجُ عبد الله بن الزبير ، اُرْتَجَتْ مكة بالبكاء ، فصعد للنبر ، فقال :
« أَلَا إِنَّ ابنَ الزبير كان من أخبار^(١) هذه الأمة ، حقَّ رغب في الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكَنَ بحَرَمِ الله ، ولو كان شيء مانعاً للمصاة ، لَمَنَعَ آدمَ حُرْمَةُ الجنة ، لأنَّ الله تعالى خَلَقَهُ بيده ، وأَسَجَدَ له ملائِكَته ، وأباحَهُ جَنَّتَهُ ، فلما عصاه أخرجه منها بِعَظِيمَتِهِ ، وآدَمُ على الله أَكْرَمُ من ابن الزبير ، والجنةُ أَعْظَمُ حُرْمَةً من الكعبة . »
(سرح البيوت ص ١٢٢ وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٠)

٢٧٥ - خطبته بعد قتل ابن الزبير

وصعد الحجاج بعد قتله ابن الزبير متلثياً ، فخطب الأتنام عنه ثم قال :
« مَوْجُ ليلِ النظم ، وانجلي بضوءِ صُبْحِهِ ، بأهلِ الحجاز ، كيف رأيتموني ؟
ألم أكَشِفْ ظُلْمَةَ الجَوَرِ ، وَطَخَيْتُ^(٢) الباطل بنور الحق ؟ والله لقد وطشكم الحجاج وطأة مُشْفِقٍ ، وعطفة رَحِمٍ ، ووصلَ قِرابَةٍ ، فأياكم أن تزولوا عن مَنَنِ أَقْنَاكم عليه ،

(١) جمع جبر: يفتح الحاء وكسرهما ، وهو العالم أو السالط . (٢) الطخية : القفلة ، ويطش .

فأقطع عنكم ما وصلته لكم ، بالصارم البتار ، وأقيم من أودكم ما بقيم للتقشف من أود^(١) القنار بالثار ، ثم نزل وهو يقول :

أخو الحرب إن عصت به الحربُ عصفاً وإن شمرت عن ساقها الحربُ شمرأ
(مواسم الأدب ٢ : ١٢٣)

٢٧٦ - خطبته حين ولي العراق^(٢) (سنة ٧٥ هـ)

حدث عبد الملك بن عمير القتيبي قال :

بينما نحن في المسجد الجامع بالكوفة ، وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم في العشرة والعشرين من مواليه ، إذ أتى آت ، فقال : هذا الحجاج قد قَدِمَ أميراً على العراق ، فإذا به قد دخل المسجد مُعْتَمِراً بِرِيعَامَةٍ قد غطى بها أكثر وجهه مقلداً سيفاً ، متكباً^(٣) قوساً ، يومئذ اللبر ، فقام الناس نحوه حتى صعد المنبر ، فكث ساعة لا يتكلم ، فقال الناس بعضهم لبعض : قُبِحَ الله بنى أمية ، حيث تستعمل مثل هذا على العراق ! حتى قال عُمَيْرُ بْنُ ضَايٍ الْبَرْجُمِي : أَلَا أَحْصِيَهُ لَكُمْ ؟ فقالوا : أنهرل حتى ننظر^(٤) ، فلما رأى عيون الناس إليه ، حَسَرَ النَّامُ عَنْ فِيهِ ، ونهض ، فقال :

« أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَا عُ الثَّنَائِيَا مَتَى أَضْعُرُ الْعِمَامَةَ تَعْرِفُونِي^(٥) »

(٣) مقوم الرماح . والأود : الاموجاج .

(٢) وروى : أنه خرج يريد العراق واليا عليها في اثني عشر راكباً من الجانب ، حتى دخل الكوفة فبأه حين انتشر الهار ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر فقال : هل بالناس ، فحسبوه وأصحابه غوارج فهموا به .
(٣) تنكب قوسه : اتفاحا على منكب . (٤) قال ابن نباتة : فلما سمعوا هذه الخطبة وكان بعضهم قد أخذ حصى أراد أن يرمي به - تساقط من أيديهم حزناً ورحماً . (٥) البيت لسعيد بن وهب الرياضي ، قاله الحجاج متهماً ، وقوله : أَنَا ابْنُ جَلَا ، أي الواضح الأمر المكتشف ، وقيل ابن جلا الصبح ، لأنه يملأ الظلمة . وهو مثل يضرب للجمهور المتعالم ، أي أنا الظاهر الذي لا يخفى وكل أحد يعرفني ، ولهم يقولون جلا لأنه أراد القتل ، فحكى على ما كان عليه قبل التسمية كقول الشاعر :

وَاللَّهِ مَا زِيدُ بِنَامَ صَاحِبَةٍ وَلَا مُخَالِطِ اللَّيَالِي بَجَانِبَةٍ

وتقديره أنا ابن الذي يقال له جلا الأمور وكشفها . وقال بعضهم : ابن جلا وابن أجل - رجل -

ثم قال: يا أهل الكوفة، أما والله إنى لأجمل الشر بمجمل، وأحذو بمتله، وأجزيه بمتله، وإنى لأرى أبصاراً طامحة، وأحافاً متطاولة، وردواً قد أبتمت وحن طافئها، وإنى لأصاحبها، وكأنى أنظر إلى الدماء بين الصائم والعمى تتزقزق، ثم قال:

هذا أوان الشد فاشتد زيم قد لقها الليل يسواق حطم
ليس يراعى إيل ولا غم ولا مجزار على ظهر وصم^(١)
ثم قال: قد لقها الليل بصلي أزوع خراج من الدوى^(٢)
مهاجر ليس بأهراي^(٣)

ثم قال: قد شمرت عن ساقها فتشدا وجدت الحرب بكم فجدا
والقوس فيها وتر عرذ مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد^(٤)

« بيته، قال في اللسان: « وكان ابن جلا هذا صاحب فتك يطلع في القنارات من ثنية الجبل حل أهلها » ولقنتها جمع ثنية: « وهى الطريق في الجبل، أراد به أنه جلد يطلع الثنايا في ارتفاعها وصوبتها، والمامة: المغفر والبهمة، قال ثعلب: « السامة تلبس في الحرب وتوضع في السلم. (١) الشعر لرويشه بن رميش العنبرى والشد: العدو، وزيم: اسم فرس أو ناقة، وقيل اسم للحرب، والحطم: والمطعة: القراعى القتلوم المشاة يشم بعضها بعض، فلا يبق من السير شيئاً، وقد ضرب اللؤلؤ لراحة القدم في الحلق قيل: « أحق من راحى ضأن ثمانين » قال الجاحظ في البيان والتهيين ١: ١٣٩ « فلما استحمق راحة القدم في الجلبة فكيف يكون ذلك صواباً؟ وقد رعى القدم عدة من جلة الأنبياء عليهم السلام » والغرض: كل ما قطع عليه اللحم. (٢) الصلي: الشديد القوى، والأروع: الذكى، أو من يسبك بشجاعته، وهو والدوية والدواية ويخفف: القلة المتسعة التى تسع لها دوي بالليل، ولما ذك الدوى من أعفاف الإبل، تنسج أمواتها فيها، وتقول جهلة الأعراب: إن ذلك عزيز الجن « أى خراج من كل غنم شهيدة، وهجر الرجل: خرج من البدو إلى المدن، والأهراي بطيسته غرس ساذج ليس في تجربته كأهل المدن. وسيرد عليك إن شاء الله في الجزء الثالث في خطبة أبى بكر بن ميثاق بالمدينة:

« إنى لست أتأويأ أعلم، ولا يدويأ أهتم ».

(٣) جديبه الأمر: الشدة، وعرد: أى شديد، والبكر: الفتى من الإبل، ولا بد من كذا: أى لا يحيد عنه.

إلى والله بأهل العراق ، وَمَعْدِنَ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، مَا يُقْتَضِعُ
 لِي بِالشُّنَانِ ^(١) ، وَلَا يُفْتَزِرْ جَانِبِي كَقَتْمَازِ التَّيْنِ ، وَلَقَدْ قُرِرتُ ^(٢) مِنْ ذِكَاةٍ ، وَقُتِّسَتْ
 مِنْ تَجْرِبَةٍ ، وَجَرِيتُ إِلَى الْغَايَةِ الْقُضْوَى ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاةً - نَزَرَ
 كِفَاتَهُ ^(٣) ، بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَمَجِّمٌ ^(٤) عِيدَانِهَا ، فَوْجَدَنِي أَمْرُهَا عَوْدًا ، وَأَصْلَبَتِهَا مَكْسِيرًا ^(٥) .
 فَمَا كَمْ بِي ، لَأَنْتُمْ طَالِمَا أَوْضَعْتُمْ ^(٦) فِي الْفِتَنِ ، وَاضْطَجَعْتُمْ فِي مَرَاغِدِ الضَّلَالِ ، وَسَدَنْتُمْ
 بَيْنَ النَّفْيِ ، أَمَا وَاللَّهِ لَأَلْحُوْكُمْ ^(٧) أَخَوَ الْعَصَا ، وَلَا تُقْرَعُكُمْ قَرْعَ الْمَرْوَةِ ^(٨) ،
 وَلَا تُغْصِبُكُمْ عَصَبَ السَّلَةِ ^(٩) ، وَلَا تُضْرِبُكُمْ ضَرْبَ غَرَائِبِ الْإِبِلِ ^(١٠) ، فَإِنَّكُمْ لِكَأَهْلٍ
 قَرِيَةٍ كَانَتْ أَيْمَةً مُطْمَئِنَّةً ، يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ
 بِأَنْتُمْ اللَّهُ ، فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَعْتَمُونَ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ
 لَا أَعِيدُ إِلَّا زَفِيَّتَ ، وَلَا أُمْمٌ إِلَّا أَمْضِيَتْ ، وَلَا أَخْلَقُ إِلَّا قَرِيْتُ ^(١١) ، فَلْيَأَيِّ وَهَذِهِ
 الشُّفْعَاءُ ، وَالزَّرَافَاتِ ^(١٢) وَالْجَمَاعَاتِ ، وَقَالَ وَقِيلَا ^(١٣) ، وَمَا تَقُولُ ؟ وَفِيمَ أَنْتُمْ وَذَلِكَ ؟

- (١) القَتْمَةُ : تحريك الفتح اليابس الصلب مع صوت مثل السلاح وغيره ، والشُّنَانُ : جمع شُنْ بالفتح ، وهو القربة البالية ، وهم يحركونها إذا أرادوا حث الإبل هل السير لتفزع قسرع : مثل يضرب لمن لا يروجه مالا حقيقة له ، وقد تمثل به معاوية من قبله . (٢) قر الدابة : نزع حنكها وكشف أستانها لينظر سنها ، وفر عن الأمر : بحث عنه . (٣) الكتانة : جمعة السهام . وفي رواية : « كب كتاته » أي قلبها . (٤) حجم اللود : حقه يعرف صلابته من غوره . (٥) وفي رواية : « وأصلها عودا » . (٦) أَوْضَعْتُ لِيضَاعًا : أَمْرُعُ فِي سِرِّهِ كَوَضَعُ . (٧) لَحَا الْعَصَا : نَشَرَ ، وفي رواية : « لَحَا اللود » . (٨) المرو : حياوة يهش براقة تورى النار .

- (٩) السلة : شجر كبير الشوك . قال الجاحظ في البيان والتبيين : « لأن الأشجار تنصب أفصانها ، ثم تنحيط بالنصي لسقوط اللود وحتم العيدان » (٢١: ٢) . (١٠) قال الجاحظ أيضا : (٢٧: ٢) « وهي تضرب من الحرب ، ومنه الخلط ، ومنه الخوض أشد الضرب » وقال الحارث بن سخر : يضرب يزيل اللحم عن سكتاته كما ذيد عن ماء الحياض الغرائب

- (١١) أخلق : أضر ، وفريت : قطعت . (١٢) الشفعاء جمع شفيع ، وكانوا يجتمعون إلى السلطان فيشفعون في أصحاب الجرائم ، فهادم من ذلك ، والزرافات جمع زرافة يفتح الزاى وضعا : الجماعة من الناس . (١٣) القول في الخبر ، والقتال ، والتبيل ، والقتالة في الشر .

أما والله لَتَنْتَفِيضُنَّ عَلَى طَرِيقِ الْحَقِّ ، أَوْ لَأَذَقَنَّ لِكُلِّ رَجُلٍ مِنْكُمْ شُغْلًا فِي جَسَدِهِ ،
وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمَرَنِي بِإِعْطَانِكُمْ أُعْطِيَاكُمْ^(١) ، وَإِنْ أَوْجِبَكُمْ لِحَاجَةِ عَدُوِّكُمْ مَعَ
الْمُهَلَّبِ بْنِ أَبِي صَفْرَةَ^(٢) ، وَإِنِّي أَقْسَمُ بِاللَّهِ لَا أَجِدُ رَجُلًا تَخَفُ بَعْدَ أَخْذِ عَطَائِهِ بِثَلَاثَةِ
أَيَّامٍ إِلَّا سَقَفْتُ دَمَهُ ، وَأَنْهَيْتُ^(٣) مَالَهُ ، وَهَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ۚ .

(الكامل لمبرد : ١ : ١٨١ ، والبيان والبيان : ٢ : ١٦٤ ، والنفق الفريد : ٢ : ١٥٣ - ٣ : ٧ ،
وتاريخ الطبري : ٧ : ٢١٠ ، وصحيح الأئمة : ١ : ٢١٨ ، وميون الأخبار : ٢ : ص ٢٤٤ ،
ومروج الذهب : ٢ : ١٢٢ ، وساهد التنصيص : ١ : ١١٥ ، والكامل لابن الأثير : ٤ : ١٥٦ ،
وسرح الميون : ١١٦ ، وتاريخ ابن صاكر : ٤ : ٥٣) .

٢٧٧ - خطبته وقد سمع تكبيرا في السوق

فلما كان اليوم الثالث خرج من القصر ، فَسَمِعَ تَكْبِيرًا فِي السُّوقِ ، فَرَأَاهُ ذَلِكَ ،
فَصَعَدَ الْمَنْبَرِ ، وَحَمْدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، يَا أَهْلَ الشَّقَاقِ وَالْفَنَاقِ ، وَمَسَاوِي الْأَخْلَاقِ ، وَبَنِي الْكَيْفَةِ^(١) ،
وَعَبِيدَ الْقَصَا ، وَأَوْلَادَ الْإِمَامِ ، وَالْقَتْعَ بِالْقَرْقَرِ^(٢) ، إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا لِإِرَادَةِ اللَّهِ بِهِ ،
وَأِنَّمَا يُرَادُ بِهِ الشَّيْطَانُ^(٣) ، إِلَّا إِنَّهَا عِبَاجَةٌ تَحْتَمِلُهَا قَصْفٌ^(٤) ، وَإِنَّمَا مَتَلِّي وَمَتَلِّكُمْ مَا قَالِ
عَمْرُو بْنُ يَزِيدَ الْهَمْدَانِيُّ :

وَكُنْتُ إِذَا قَوْمٌ غَزَوْنِي غَزَوْهُمْ فَمَنْ أَنَا فِي ذَاتِا لِهَمْدَانِ ظَالِمٌ !

(١) أصطبات جمع أصطبة ، وهي جمع طلاء . (٢) قائد الجيش الذي حارب الخوارج الأزواقة ،
وقل شوكتهم ، وسيلتي . (٣) جعلته فيها ينفذ عليه .

(٤) النجمة . (٥) القرقرة : أرض مسطحة لينة ، والقتع ويكسر : البيضاء الرخوة من
الكتانة ، ويقال للليل : هو أذل من ققع يقرقر ، لأنه لا يمنع حل من اجتلاء ، أو لأنه يوطأ بالأرجل .

(٦) وفي رواية : « إِنِّي سَمِعْتُ تَكْبِيرًا لَيْسَ بِالتَّكْبِيرِ الَّذِي يُرَادُ اللَّهُ بِهِ فِي التَّوْحِيدِ ، وَلَكِنَّهُ التَّكْبِيرُ
الَّذِي يُرَادُ بِهِ التَّوْحِيدُ » . (٧) الصباغ : الثياب ، والقصف : شدة الرمح .

مَنْ نَجَعَ الْقَلْبَ الذِّكْرَ وَصَارَ مَا وَأَنَا حَيًّا تَجْتَنِبُكَ الظُّلُمُ
أَنَا وَاللَّهُ لَا تَمْرَعُ عَصَا عَصَا إِلَّا جَلَسَتْهَا كَأَنَّ الدَّابَّ (١) .

(البيان والتبيين : ٢ : ٦٩ - ١ : ٢٠٩ ، والنفق الفريد : ٢ : ١٥٢ ، وإيجاز القرآن : ١٢٤ ،
وشرح ابن أبي الحديد : ١ : ص ١١٤ ، وتاريخ الطبري : ٧ : ٢١٢ ، وتهذيب الكامل : ١ : ١٩)

٢٧٨ - خطبته وقد قدم البصرة

وخطب لما قدم البصرة يتهدد أهل العراق ويقولهم فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : مِنْ أَعْيَاءِ دَاوُدَ ، فِينْدَى دَاوُدَ ، وَمِنْ اسْتَطَالَ أَجَلَهُ ، فَقَالَ أَنْ أَعِجَّلَهُ ،
وَمِنْ قُلَّ عَلَيْهِ رَأْسُهُ ، وَضُمْتُ عَنْهُ قَلْبَهُ ، وَمِنْ اسْتَطَالَ مَا فِي مَعْرِهِ . قَصَّرْتُ عَلَيْهِ بَاقِيَهُ ،
إِنَّ الشَّيْطَانَ طَيْفًا ، وَالسُّلْطَانَ سَيْفًا ، فَمِنْ سَقَمْتُ سَرِيرَتَهُ ، سَحَتُ عُقُوبَتَهُ ، وَمِنْ وَضَعَهُ
ذَنْبُهُ ، رَضَعَهُ صَبْنُهُ ، وَمِنْ لَمْ نَسَمَ الْعَاقِبَةَ ، لَمْ تَضِقْ عَنْهُ الْهَلَكَةُ ، وَمِنْ سَبَقَتْهُ بِإِدْرَافَةٍ ،
سَبَقَ بَدَنُهُ بِسَفْكَ دَمِهِ ، إِنْ أَنْذَرْتُ نِمَ لَا أَنْظِرُ (٢) ، وَأَحْذَرْتُ نِمَ لَا أَعْذِرُ ، وَأَتَوَعَّدُ
نِمَ لَا أَصُو ، إِنَّمَا أَفْهَمُكُمْ تَرْفِيقَ (٣) وَلَا نَسْكَمَ ، وَمِنْ اسْتَخْنَى لَيْبَهُ (٤) ، سَاءَ أَدَبُهُ ، إِنْ
الْحَزْمُ وَالْعَزْمُ سَلْبَانِي سَوَّلِي (٥) ، وَأَبْدَلَانِي بِهِ سَبَقِي ، فَقَاءَهُ فِي يَدِي ، وَنَجَادَهُ (٦) فِي عُنُقِي ،
وَذُبَابُهُ (٧) فَلَادَهُ لِمَنْ عَصَانِي ، وَاللَّهُ لَا أَمْرُ أَحَدِكُمْ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ ،
فِيَخْرُجَ مِنَ الْبَابِ الَّذِي بِيَدِي ، إِلَّا ضَرَبْتُ عُنُقَهُ . »

(نهاية الأرب : ٧ : ٢٤٤ صبح الأمل : ١ : ٢٢٠ وشرح الميون : ١٢٢)

-
- (١) وفي رواية الطبري خاصة : « أَلَا يَرِيعُ رَجُلٌ مَشْكَمٌ عَلَى ظِلِّهِ ، وَيَحْسَنُ حِفْظَ دَمِهِ ، وَيُصِرُّ
مَوْضِعَ قَدَمِهِ ، فَأَتَمَّ بِأَنَّهُ لَأَوْشَكُ أَنْ أَوْعَى بِكُمْ وَفَتْةً تَكُونُ تَكَالًا لَهَا بِلَاهَا ، وَأَدْبَا لَهَا بِدَعَا -
يَرِيعُ (كَيْفَ) يَفْزُ وَيَنْتَظِرُ ، وَالظَّلْعُ (كَشَس) : الدَّنَزُ فِي اللَّحْمِ ، وَيَقَالُ : أَرِيعُ عَلَى ظِلِّكَ ، أَيْ إِنْكَ
ضَعِيفٌ ، فَإِنَّهُ عَمَّا لَا يَلْقِيهِ . (٢) أَنْظَرُهُ : أَهْلُهُ . (٣) التَّرْفِيقُ : التَّصْفِيقُ فِي الْأَمْرِ (وَقَالَ الْبَدَنُ وَالْبَصْرَانِي).
(٤) الْبَابُ : مَا يَشُدُّ فِي صَدْرِ الْعَابَةِ يَمْنَعُ اسْتِخْوَافَ الْقُرْلِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْحَوَادِثَ وَالْأَيْنَ تَقْدُسُ أَدَبَ الرَّحْمَةِ .
(٥) هَكَذَا فِي نَهَايَةِ الْأَرْبِ ، وَفِي صَبْحِ الْأَمَلِ : « سَكَنَّا فِي وَسْطِي » وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ ، لَيْ أَلَهُ رَأَى مِنْ
الْحَزْمِ وَالْعَزْمِ : الْمُبَالَغَةُ فِي إِصْصَالِ الشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ فِي التَّأْدِيبِ ، فَطَرَحَ السُّوْطَ ، وَاسْتَبَدَلَ بِهِ مَا هُوَ أَشَدُّ
مَنْ هُوَ السِّيفُ . (٦) النِّجَادُ : حَلَاةُ السِّيفِ . (٧) ذُبَابُ السِّيفِ : حِدَهُ .

٢٧٩ - خطبته بعد وقعة دير الجماجم^(١)

وخطب أهل العراق بعد وقعة دير الجماجم قائل :

« يا أهل العراق ، إن الشيطان قد استبطنكم ، فحاط العمم والهمم والهمس ،
ولسأكسع والأطراف ، والأعضاء^(٢) ، والشفاف^(٣) ، ثم أفضى إلى اللخاخ^(٤) والأصناخ ،
ثم ارتفع فشش ، ثم باض وفرغ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً ، وأشركم خلافاً ، اتخذتموه
دليلاً تتبعمونه ، وقائداً تطليعمونه ، ومؤمراً^(٥) تستشيرونه ، فكيف تنفكم تجربة ،
أو نمظكم وقعة ، أو يعجزكم إسلام ، أو ينفكم بيان ؟ ألسن أصحابي بالأهواز^(٦) ؟

(١) وقعة دير الجماجم: هي وقعة نشبت بين الحجاج وبين عبد الرحمن بن محمد بن الأئمة قرب الكوفة سنة ٨٢ هـ. حزم فيها ابن الأئمة . وذلك أن عبيد الله بن أبي بكره عامل الحجاج على سجستان كان قد غزا رتييل ملك الترك ، وأدخل في بلاده فأصيبوا ، وهلك أكثرهم ، فوجه الحجاج إلى رتييل بن الأئمة على رأس جيش عظيم فحاربه ، فسار إليه وامتلك بعض بلاده ، وكان يرى أن يتخرج في الفتح ، فينتصمهم في كل عام طائفة من أرضهم ، ولا يتوغل في بلادهم لكيلا يمرض جيشه للعمار والمهلكة ، وكتب إلى الحجاج بذلك ، فأبى عليه الحجاج ، وكتب إليه يصفى رأيه ويأمره بالوقوف في أرضهم ولا مزله ، وكان من جراء ذلك أن بايع الجنيد ابن الأئمة على خلع الحجاج وقتاله ثم خلع عبد الملك بن مروان ، وسار ابن الأئمة بهم من سجستان إلى العراق ، وتجهز الحجاج لقاتله ، فسار بأهل الشام حتى نزل تسر (مدينة بالأهواز) فانهزمت مقدمته ، فرجع إلى البصرة حتى نزل القزوينية (موضع قرب البصرة) ودارت وحى الحرب بين الفريقين فهزم أهل العراق أهل الشام . فجاء الحجاج على ركبتيه وانفض نحو شهر من سيفه ، وأصعب لقاء الموت كرميا ففوت بذلك قلوب جنده واستسلموا حتى كان لهم النصر . وانهزم ابن الأئمة ، فأقبل نحو الكوفة ، حتى حزم هزيمة منكورة بهزم الجماجم وتهدد أمره ، وفر إلى فارس حتى نزل مدينة بست ؛ فسمع رتييل بمقدمه فأنزله عنده وأكرمه فكتب الحجاج إلى رتييل يأمره أن يبعث إليه بأبن الأئمة ويتوعد إن لم يفعل ، فلواد رتييل أن يرسله إليه ، فقتل ابن الأئمة نفسه بأن أتى نفسه من فوق قصر ، فأتى فحضر رتييل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج سنة ٨٥ هـ . (٢) في العهد القوي (والأضداد) . (٣) الشفاف : غلاف القلب أو جبهته . (٤) رواية نهاية الأرب « اللخاخ » وهو الوارد في كتب اللغة : مخ يجمع على مخاخ وخضنة (كمنبة) ، أما سائر المصادر التي روت هذه الخطبة ؛ فتروها (الأصناخ) ، وهو ما أراه في كتب اللغة . وقد روت جميع المصادر «الأصناخ» بهذا النص ، والذي في كتب اللغة : «الصاخ من الأذن : انفرق الرباط الذي يفضي إلى الرأس جمه أصمخة وصباخ » ومثل الصاخ الأصموخ كصفور ، وجهه أصاصيخ ، فصولب الكلمة «الصباخ» أو «الأصاصيخ» . (٥) أمره في كل ما يؤمره : شاوره . (٦) يشير إلى وقعة تسر.

حيث رُتِّمَ الكُورُ، وصيِّمَ بالقَدَرِ، واستجِمْ لِكُفْرِ، وظننم أن الله يَحْذُلُ دينه
وَخِلَافَتَه، وأنا أرميكم بطرق، وأنتم تَسْلُونَ لَوْ أَذَلَّ^(١)، وتنهزمون سِرَاعاً؟ ثم يوم
الزَّوَاية، وما يوم الزَّوَاية أبها كان قَتْلُكُمْ وتنازعُكم وتخاذلكم، وَرَّاءَةُ الله منكم،
وَنُكُوصُ وَلِيَّتِكُمْ عنكم، إذ وَلَّيْتُمْ كالإبل الشوارد إلى أوطانها، التنازع إلى
أوطانها^(٢)، لا يسأل الله عن أخيه، ولا يُلَوِّى^(٣) الشيخ على بنيهِ، حتى هَضَمَ^(٤)
السلاح، وقصَصْتُمْ الرماح، ثم يوم دَيْرِ الجناجم، وما يوم دَيْرِ الجناجم أبها كانت
للمارك ولللاحم^(٥)، بضرب يَزِيلُ المام^(٦)، عن مَقِيلِهِ^(٧)، وَيُذْهِلُ الخليل عن خَلِيلِهِ،
يأهل العراق، وَالْكَفَرَاتِ بِدِ الْقَجَرَاتِ، وَالْقَدَرَاتِ بِدِ الْخَلَقَاتِ^(٨)، وَالزَّوَاتِ^(٩)
بِدِ النِّزَوَاتِ، إِنْ يَبْعَثْكُمْ إلى تَوْرِكُمْ غَلَمٌ^(١٠) وَخُنْتُمْ، وَإِنْ أَيْتُمْ أَرْجَفْتُمْ، وَإِنْ
خُنْتُمْ نَاقَفْتُمْ، لا تذكرون حَسَنَةً، ولا تشكرون نِعْمَةً، هل استغفركم ناكث،
أو استنصركم غار، أو استنصركم ظالم، أو استعصدكم^(١١) خالغ، لا تَيْتِمُوهُ وآوَيْتُمُوهُ،
ونصرتموه وزكيتموه؟ يأهل العراق، هل شَفِبَ شاغب، أو تَبَّ ناهب، أو زفر
زافر إلا كنتم أتباعه وأنصاره؟ يأهل العراق: ألم تَنْهَكُمُ المواقظ، ألم تَزْجُرْكُمْ
الوقائع؟ .

ثم التفت إلى أهل الشام وم حول اللبر، فقال: «يأهل الشام، إنما أنا لكم
كالظليم^(١٢) الراح عن فراخه، يَنْفِي عنها المدر^(١٣)، ويباعد عنها الحجر، وَيُسْكِنُهَا

- (١) أي يلوذ بهمهم يمشي: لاوذ لولذا وملوذة . (٢) أوطان جمع وطن كسبب: مبرك الإبل
حول الخوض كالملطن، ونوازع: أي مشتاقة . (٣) لايلوى على أحد: أي لا يلقف ولا ينتظر .
(٤) في نهاية الأرب: «هلككم» «بالقاء»: عطلة الحرب كضته بالفساد .
(٥) جمع ملحمة وهي الرقعة النظيفة القتل . (٦) جمع هامة، وهي الرأس .
(٧) موفيه، أي الأعناق، قال الشاعر:

بضرب بالسيف وجوس قوم أزلنا عامهن من المقليل

- (٨) جمع غرة، واختركشمس: القدر والهدية أو أتبج القدر . (٩) جمع زوة، من زنا
زوانا: أي وثب . (١٠) غل كنصر ظلولا: خان . (١١) استعصده: سأل أن يصفده .
(١٢) ذكر النعام، والراح: أي الملقع، من رجع: أي طته بالرحس . (١٣) قطع العين اليابس .

من للطير، ويحميها من الضباب^(١)، ويعمرها من الذئب، يأهل الشام؛ أنتم الجنة والرداء، وأنتم المدة والحذاء.

(البيان والتحسين ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٥ ، والعقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٤ ، ودرج اللعب ٢ : ١٣٥ - وتاريخ ابن صاكر ٤ : ٥٥).

٢٨٠ - خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام

وخطب فقال :

« يا أهل الكوفة ، إن الفتنة تُلْقَحُ بالنجوى^(٢) ، وتُفْتَحُ بالشكوى ، وتُعَصَدُ بالسيف ؛ أما والله إن أبغضتوني لاتضروني ، وإن أحببتوني لاتنصفوني ، وما أنا بالمستوحش لعداوتكم ، ولا المستريح إلى مودتكم ، زعمت أني ساحر ، وقد قال الله تعالى : « وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ » . وقد أقبلت ، وزعمت أني أعلم الاسم الأكبر ، فلم تقاتلون من يعلم ما لاتعلمون ؟ » .

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : « لَا زَوَاجُكُمْ أَطِيبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَلَا بَنَاؤُكُمْ آسَرُ بِالْقَلْبِ مِنَ الْوَلَدِ ، وما أنتم إلا كما قال أخو بني ذبيان :

إذا حاولت في أسد فجورا فإني لست منك ولست مني

فمُ دِزِى التي استلأمت فيها إلى يوم النسار ومم يجي^(٣)

ثم قال : « بل أنتم يا أهل الشام كما قال الله سبحانه : « وَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الرُّسُلِينَ ، إِنْهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ، وَإِنْ جُنَدُنَا لَهُمُ النَّائِلُونَ » ثم نزل .

(شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١١٥)

٢٨١ - خطبة له بالبصرة

وخطب بالبصرة ، فقال :

قال الله تعالى : « فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ » ، فهدى الله ، وفيها منوبة^(٤) ، وقال :

(١) جمع ضب ، وهو حيوان كالوزغة والحرياء . (٢) النجوى : المسارة . (٣) اسلم : دليس

للأمة ، وهي الدرع ، النصار : ما لبى حاصر له يوم ، واللجن : القوس . (٤) ثواب .

« وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا » ، وهذه لعبد الله ، وخليفة الله ، وحبيب الله ، عبد الملك بن مروان ؛ أما والله لو أمرت الناس أن يأخذوا في باب واحد ، فأخذوا في باب غيره ^(١) ، لكانت دماؤهم لي حلالا من الله ، ولو قتل ريبة ومصر لكان لي حلالا .

« عذيري ^(٢) من أهل هذه الحثراء ، برى أحدم بالحجر إلى السماء ويقول : يكون لي أن يقع هذا خير ^(٣) ، والله لأجملنهم كائس ^(٤) الأثر ، وكالأس الفاجر ، عذري من عبد هذيل يقرأ القرآن كأنه رجز الأعراب ، أما والله لو أدركتك لضربت عنقه - يعني عبد الله بن مسعود ^(٥) - ، عذري من سليمان بن داود ، يقول لربه : « رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَنِيَّ » كان والله - فيها علت - عبدا حودا بخيلا .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٣ والمقد الفريد ٢ : ١٥٢)

٢٨٢ - خطبة أخرى له بالبصرة

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن الله كفانا مَثُونَةَ الدنيا ، وأمرنا بطلب الآخرة ، فليتهُ كفانا مَثُونَةَ الآخرة وأمرنا بطلب الدنيا ، مالى أرى علماءكم يذهبون ، وجهالكهم لا يمتطون ، وشراركم لا يتوبون ؟ مالى أراكم تحرصون على ما كُفيتُم ، وتضيِّعون ما به أُمرتم ؟ إن العلم يوشك أن يُرْفَع ، وَرَفَقَهُ ذهابُ العلماء ؛ ألا وإني أعلم بشراركم من البَيْبِطَارِ بالفرس ، الذين لا يقرءون القرآن إلا هَجْرًا ^(١) ، ولا يأتون الصلاة إلا دُبْرًا ^(٢) ؛ ألا وإن الدنيا عَرَضٌ حاضر ، يأكل منها الكيّدُ والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل مستأخر ، يحكم فيها ملك قادر

(١) وفي مروج الذهب : « لو أمر الناس أن يدخلوا في هذا القصب ، فدخلوا في غيره » والقصب بالكسر : سيل الماء في بطن الأرض ؛ والطريق في الجبل . (٢) الطير : العاذر والتصير ؛ والمال التي تحاولها تذل عليها . (٣) وفي مروج الذهب : يأتي أحدم الحجر إلى الأرض ويقول : إلى أن يبلغها يكون فرج الله . (٤) القرم : الأثر ، أو بقيته . والناثر : المدارس المسحور . (٥) هو من بني هذيل . (٦) أى هجرا له وتركها ، ومعناه أنهم لا يقرءونه ، ولا يظنونه . (٧) القبر من كل شيء : حقه وموخره ، أى ولا يأتون الصلاة إلا في آخر وقتها .

أَلَا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم مُلاقوه لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا
بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَقِّ ، أَلَا وَإِنْ أَنْظِرْ كُلَّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي الْجَنَّةِ ،
أَلَا وَإِنْ الشَّرَّ كُلَّهُ بِحَذَائِفِهِ فِي النَّارِ ، أَلَا وَإِنْ مَنْ يَمْتَلِ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَمْتَلِ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ، وَاسْتَغْفِرَ اللَّهُ لِي وَلَكُمْ ^(١) .

(المعنى القريب ٢ : ١٥٣)

٢٨٣ - خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ : إِنْ لَمْ أَجِدْ دَوَاءَ أَدْوَى لَدُنْكُمْ ، مِنْ هَذِهِ لِلْفَأْزَى وَالْبَعُوثِ ،
لَوْلَا طِيبُ لُبَّةِ الْإِيَّابِ ، وَفَرَحَةُ الْقَفْلِ ^(٢) ، فَإِنَّهَا تُقَبِّحُ رَأْيَهُ ، وَإِنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَرَى
الْفَرَحَ عِنْدَكُمْ ، وَلَا الرَّاحَةَ بِكُمْ ، وَمَا أَرَاكُمْ إِلَّا كَارْهِينَ لِمَقَالَتِي ، وَأَمَّا وَاللَّهِ لَرُؤْيَاكُمْ
أَكْرَهُ ، وَلَوْلَا مَا أُرِيدُ مِنْ تَنْفِيزِ طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِيكُمْ ، مَا حَلَّتْ قَضَى مَقَاسَاتِكُمْ ،
وَالصَّبْرَ عَلَى النَّظَرِ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّهِ أَسْأَلُ حَسَنَ التَّوَنِّ عَلَيْكُمْ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(المعنى القريب ٢ : ١٥٣)

٢٨٤ - خطبة أخرى

وخطب أهل العراق ، فقال :

« يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، بَلَنِي أَنْكُمْ تَرَوُونَ عَنْ نَبِيِّكُمْ أَنَّهُ قَالَ : « مَنْ مَلَكَ عَلَى عَشْرِ رِقَابٍ
مِنَ السَّالِمِينَ ، جِئَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنُفْلُوحَةٌ يَدَاهُ إِلَى عَقْبِهِ ، حَقٌّ يَفْكَهُ الْعَدْلُ ، أَوْ يُؤَيِّقُهُ
الْجُلُوزُ » . وَإِيمُ اللَّهِ إِنِّي لِأَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أُخْشَرَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ وَهَرٍ مَنُفْلُوحًا ، مِنْ أَنْ أُخْشَرَ
مَعَكُمْ مُطْلَقًا » .

(المعنى القريب ٣ : ١٧)

(١) وذكر صاحب المعنى أيضا هذه الخطبة من قوله : « أَلَا وَإِنْ الدُّنْيَا عَرْضٌ حَاضِرٌ » إل آخره
ومعناها إل شداد بن أوس الطائي . انظر المعنى القريب ٢ : ١٥٨ . (٢) الرجوع .

٢٨٥ - خطبته لما مات عبد الملك بن مروان

ولما مات عبد الملك بن مروان ، قام فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أيها الناس ، إن الله تبارك وتعالى نسي نبيكم صلى الله عليه وسلم إلى نفسه فقال :
 « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » ، وقال : « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
 الرُّسُلُ ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَيْنَا عَلَى أَغْصَانِكُمْ » . فأتى رسول الله صلى الله عليه
 وسلم ، ومات الخلفاء الراشدون للهادون للهادين ، منهم أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان
 الشهيد للظلم ، ثم تيمم معاوية ، ثم وليكم البازل^(١) الذي ذكره ، الذي جربته الأمور ،
 وأحكمت التجارب ، مع الفقه وقراءة القرآن ، والرواة الظاهرة ، والذين لأهل الحق ، والرواة
 لأهل الزيغ ، فكان راجعاً من الولاة المهديين الراشدين ، فاختار الله له ماعنده ، وألحقه
 بهم ، وفهم إلى شبهه في العقل والرواة والحزم والجلد والقيام بأمر الله وخلافته ،
 فاحموا له وأطيعوه .

أيها الناس ، إياكم والزيغ ، فإن الزيغ لا ينجي إلا بأهله ، ورأيتم سيرتي فيكم ،
 وعرفت خلافكم وطبيعتكم ، على معرفتي بكم ، ولو علمت أن أحداً أقوى عليكم مني ،
 أو أعرف بكم ما أوليتكم ؛ فإياي وإياكم ، من تكلم قتلناه ، ومن سكت مات بدائه غمّاً
 ثم نزل .
 (المعتمد القزويني : ٢ : ١٥٤)

٢٨٦ - خطبته حين أراد الحج

وأراد الحجاج أن يهيج ، فاستخلف محمداً ولده على أهل العراق ، ثم خطب فقال :
 « يا أهل العراق ، يا أهل الشقاق والنفاق ، إني أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم
 ابني محمداً ، هذا وما كنتم له بأهل ، وأوصيته فيكم بخلاف ما أوصى به رسول الله

(١) الرجل الكامل في تيممه .

صلى الله عليه وسلم في الأنصار، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى أن يُقتل من مُحْسِنِهِمْ، وأن يُتَّجَاوَزَ عَنْ مُسِيئَتِهِمْ، وإنى أمرته ألا يقبل من محسنكم، ولا يتجاوز عن مسيئكم؛ ألا وإنكم ستقولون بمدى مَقَالَةٍ ما يمنعكم من إظهارها إلا غفاتي : ألا وإنكم ستقولون بمدى : لا أحسن الله له الصحابة ، ألا وإنى مُعْجَلٌ لكم الإجابة : لا أحسن الله الخِلافةَ عليكم « ثم نزل .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٥ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٣ - ٣ : ١٨ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٤)

٢٨٧ — خطبته لما أصيب بولده محمد وأخيه محمد في يوم واحد

قال صاحب العقد : فلما كان غَدَاةُ الجمعة مات محمد بن الحجاج ، فلما كان بالمشي أتاه جريد من اليمن ب وفاة محمد أخيه ، ففرح أهل العراق ، وقالوا : انقطع ظهر الحجاج وهيب^(١) جَنَاحُهُ ، فخرج فصعد للبر ، ثم خطب للناس ، فقال :

« أيها الناس : مُحمدان في يوم واحد ! أمّا والله ما كنت أحبُّ أنهما مَيَّ في الحياة الدنيا ، لِمَا أرجو من ثواب الله لهما في الآخرة ، وإيمُ الله لِيُؤْشِرَنَّ الباقي مِنِّي ومنكم أَنْ يَفْنَى ، والجديدُ أَنْ يَبْلَى ، والحى مِنِّي ومنكم أَنْ يَمُوتَ ، وَأَنْ تُدَالَ^(٢) الأرضُ مِنَّا كَأَدْلُنَا منها ، فَمَا كُلَّ من لحومنا ، ونشرب من دماننا ، كما مشيتنا على ظهرها ، وَأَكَلْنَا من ثمارها ، وشربنا من مائها ، ثم نكون كما قال الله تعالى : « وَتَفْخُ فِي الصُّورِ فَإِذَا مِنْ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ^(٣) » ثم تمثل بهذين البيتين :

(١) حاض العظم : كسره بعد الجبور . (٢) أداله الله منه : نصره عليه .

(٣) الصور : القرن يتفخ فيه ، وقيل إنه تمثيل لانبعاث الموتى بانبعث الجيش إذا تفخخ في البوق ، وقيل : هو جمع صورة مثل بسرة ويسر (والهسر بالضم : التمر قبل إرطابه) أى تفخخ في صور الموتى الأرواح . وقرأ الحسن : « يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ » . والأجدات جمع جدث كسيب وهو القبر ، ونسل كضرب ونصر : أسرع .

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مِيتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَنِّي رَاضِيًا فَإِنْ سَرُورَ الْفَنَسِ فِيهَا هُنَالِكَ
(اللمعة القفريه ٢ : ١٥٤ - ٣ : ١٨ ، وشرح البيهقي ١٢٢)

٢٨٨ - خطبته وقد أرجف أهل العراق بموته

ومرض الحجاج قفرح أهل العراق ، وأرجفوا بموته ، فلما بلغه تحامل حتى صعد
المنبر فقال :

« إِنْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالنَّفَاقِ ، نَزَعُوا^(١) الشَّيْطَانَ بَيْنَهُمْ فَقَالُوا :
مَاتَ الْحَجَّاجُ ، وَمَاتَ الْحَجَّاجُ فَهَ؟ وَهَلْ يَرْجُو الْحَجَّاجُ الْخَيْرَ إِلَّا بَعْدَ الْمَوْتِ؟ وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنِي
أَلَّا أَمُوتَ ، وَأَنْ لِي فِي الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا ، وَمَا رَأَيْتُ اللَّهَ رَضِيَ بِالْخُلَيْدِ إِلَّا لِأَهْوَنِ خَلْقِهِ عَلَيْهِ
إِبْلِيسَ ، قَالَ : أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ، قَالَ : إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ، وَلَقَدْ دَعَا اللَّهَ
الْعَبْدُ الصَّالِحُ ، فَقَالَ : « رَبِّ اغْفِرْ لِي ، وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي »
فَأَعْطَاهُ ذَلِكَ إِلَّا الْبَقَاءَ ، فَمَا هَسَى أَنْ يَكُونَ أَيُّهَا الرَّجُلُ؟ وَكُلُّكُمْ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، كَأَنِّي
وَاللَّهِ بِكُلِّ حَيٍّ مِنْكُمْ مَيِّتًا ، وَبِكُلِّ رَطْبٍ يَابِسًا ، وَقَلِيلٌ فِي ثِيَابٍ أَكْفَانُهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَذْرَعٍ
طُولًا ، فِي ذِرَاعٍ عَرْضًا ، وَأَكَلَتْ الْأَرْضُ لَحْمَهُ ، وَمَصَّتْ صَدِيدَهُ ، وَانْصَرَفَ الْحَبِيبُ
مِنْ وَلَدِهِ يَقْسِمُ الْخَلِيبُ مِنْ مَالِهِ ، إِنْ الْقَبْرِ يَغْلِقُونَ يَطْلُونَ مَا أَقُولُ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(ميون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٤ ، وللمعة القفريه ٢ : ١٥٤ ، ٣ : ١٧ ، وشرح البيهقي ١٢٢ ،
ومروج الذهب ٢ : ١٤٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١١٥)

خطبه الوعظية

- ٢٨٩ -

وخطب الحجاج يوماً فقال :

« أيها الناس ، قد أصبحتم في أجلٍ مَنقُوص ، وعمل محفوظ ، رَبِّ دَائِبٍ مُضْمِع ،
وَسَّاعٍ لثِيرِهِ ، وَالْمَوْتُ فِي أَصْنَافِكُمْ ، وَالنَّارُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، وَالْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ ، خذُوا مِنْ
أَنْفُسِكُمْ لِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَنْ غَنَاكُمْ لِقَعْرِكُمْ ، وَمَا فِي أَيْدِيكُمْ لِيَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ ، فَكَأَنَّ مَا قَدْ
مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَكُنْ ، وَكَأَنَّ الْأَمْوَاتِ لَمْ يَكُونُوا أَحْيَاءَ ، وَكُلُّ مَا تَرَوْنَهُ فَإِنَّهُ ذَاهِبٌ ،
هَذِهِ شَمْسٌ عَادِيَةٌ وَمُتَوَدِّ قُرُونٍ كَثِيرَةٌ بَيْنَ ذَلِكَ ، هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي طَلَمَتْ عَلَى التَّبَابَةِ
وَالْأَكْسِيرَةِ ، وَخَزَائِنِهِمُ السَّائِرَةِ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ، وَقُصُورِهِمُ الشَّيْئَةِ ، ثُمَّ طَلَمَتْ عَلَى قُبُورِهِمْ ، أَيْنَ
لِللَّوْكَ الْأَوَّلُونَ ، أَيْنَ الْجَبَّارَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ ؟ الْحَاسِبُ اللَّهُ ، وَالْعَرَّاطُ مَنْصُوبٌ ، وَجَهَنَّمَ تَزْفِرُ ^(١)
وَتَتَوَقَّدُ ، وَأَهْلُ الْجَنَّةِ يَنْتَمُونَ ، فِي رَوْحَةٍ يُحْبَرُونَ ^(٢) ، جِئْنَا اللَّهَ وَإِلَيْكُمْ مِنَ الَّذِينَ
إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا خُمًا وَعُمِيَانَا . »

فكان الحسن البصري رحمه الله يقول : « أَلَا تَسْجُبُونَ مِنْ هَذَا الْفَاجِرِ ؟ يَرَفَى
عَثَبَاتِ اللَّيْلِ ، فَيُتَكَلَّمُ بِكَلَامِ الْأَنْبِيَاءِ ، وَيُنْزِلُ فَيُفْتِكُ فَكَّ الْجَبَّارِينَ ، يُوَافِقُ اللَّهَ فِي قَوْلِهِ
وَيُخَالِفُهُ فِي فِعْلِهِ . »

(شرح ابن أبي الحديد ١ ص ١٥٠)

(١) زفرت النار كضرب : سمع لتوقها صوت . (٢) أحبره : مره . والحيور : السرور .

وقال مالك بن دينار : غَدَوْتُ إِلَى الْجُمُعَةِ ، فَجَلَسْتُ قَرِيبًا مِنَ الْمَنِيرِ ، فَصَعِدَ الْحِجَابُ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَمَرُوا حَاسِبَ نَفْسِهِ ، أَمَرُوا رَاقِبَ رَبِّهِ ، أَمَرُوا زَوَّارَ ^(١) عَمَلِهِ ، أَمَرُوا فَكْرَ فِيمَا يَفْرُؤُهُ غَدًا فِي صَحِيفَتِهِ ، وَبِرَاءَ فِي مِيزَانِهِ ، أَمَرُوا كَانَ عِنْدَ هَمِّهِ أَمِيرًا ، وَعِنْدَ هَوَاهُ زَاجِرًا ، أَمَرُوا أَخَذَ بِمَتْنَانِ قَلْبِهِ ، كَمَا يَأْخُذُ الرَّجُلُ بِخِطَامِ جِلْدِهِ ، فَإِنْ قَادَهُ إِلَى حَقِّ تَبِعِهِ ، وَإِنْ قَادَهُ إِلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَفَّهُ ، إِنَّا وَاللَّهِ مَا خَلَقْنَا لِقَنَاءِ ، وَإِنَّمَا خَلَقْنَا لِلْبَقَاءِ ، وَإِنَّمَا نَنْتَقِلُ مِنْ دَارٍ إِلَى دَارٍ » .

(عيون الأخبار م ٢ : ص ٥٢١ ، المقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتبيين ٢ : ٨٨ ، شرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ١٥٠)

وخطب يومًا ، فقال :

أيها الناس ، أَقْدَحُوا ^(٢) هَذِهِ الْأَنْفُسَ ، فَإِنَّهَا أَسْأَلُ ^(٣) شَيْءًا إِذَا أُعْطِيَتْ ، وَأُعْصَى ^(٤) شَيْءًا إِذَا سُئِلَتْ ، فَرَحِمَ اللَّهُ اسْمًا جَلَّ لِنَفْسِهِ خِطَامًا وَزِمَامًا فَقَادَهَا بِخِطَامِهَا إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَخَطَفَهَا بِزِمَامِهَا عَنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي رَأَيْتُ الصَّبْرَ عَنْ تَهَارِمِ اللَّهِ ، أَيْسَرَ مِنَ الصَّبْرِ عَلَى عَذَابِ اللَّهِ ^(٥) .

(شرح ابن أبي الحديد م : ص ١٥٠ ، وشرح العيون ١٢١ ، وعيون الأخبار م ٢ : ص ٢٤٧ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠٦ ، وتهذيب الكامل ١ : ١٩)

(١) زوره : حسنه . (٢) قدحه كتمه وألقمه : كفه وكبحه . (٣) وفي عيون الأخبار : « أيها الناس ، احفظوا فروجكم ، وغلظوا الأنفس بضميرها ، فإنها أسوك شيء وأسوك : أضغف ، من سلك الرجل سواكاً : سار ميلاً ضميماً . (٤) وفي رواية « وأعطى شيء » وهو تحريف . (٥) قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس يروون هذا الكلام من عل عليه السلام » .

- ٢٩٢ -

وخطب فقال :

« اللهم أرني القى غياً فأجنيه ، وأرني الهدى هدىً فأتيه ، ولا تكلفني إلى نفسى
فأضلّ ضلالاً بعيداً ، والله ما أحبُّ أن ماضى من الدنيا لي ييمامني هذه ، ولما بقي منها
أشبه بما مضى من الماء بالماء » .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٢ ، والبيان والتهيين ٢ : ٦٩ ، ١ : ٢٠٦ ، وشرح ابن أبي الحديد

١ م : ١٥٠ ، وشرح العمون ص ١٢٢)

- ٢٩٣ -

ومن كلامه :

« إن أسراً أنت عليه ساعة من عمره ، لم يذْكر فيها ربه ، ويستغفر ربه من ذنبه ،
ويفكر في معاده ، لجدير أن يطول حزنه ، ويقضاض أسفه ، إن الله كتب على الدنيا
الفناء ، وعلى الآخرة البقاء ، فلا بقاء لما كتب عليه الفناء ، ولا فناء لما كتب عليه
البقاء ، فلا يفرّنكم شاهد^(١) الدنيا ، من غائب الآخرة ، وانهمروا طول الأمل ،
يقصر الأجل^(٢) » .

(شرح ابن الحديد ١ م : ١٥٠ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨ ، والبيان والتهيين :

٢ : ٩٩ ، شرح العمون ١٢١ ، وتهذيب الكمال ١ : ١٩)

(١) أي حاضرهما . (٢) قال الشعبي : سمعت الحجاج يقول بكلام ماسبق إليه أحد ، سمعته يقول :
« إن الله عز وجل كتب على الدنيا الفناء . . . الخ » ، وروى الجاحظ عن أبي عبد الله الخفاف عن حماد قال :
سمعت الحسن البصري يقول : لقد وقلنت كلمة سمعتها من الحجاج ، قلت : وإن كلام الحجاج ليقظك؟ قال :
نعم ، سمعته على هذه الأعراد يقول : « إن أسراً ذهبت ساعة من عمره في قعر ساعلك له لخرى أن تطول عليها
حسرتة » .

خطب قتيبة بن مسلم الباهلي (قتل سنة ٨٩٦ هـ)

٢٩٤ - خطبته بحث على الجهاد وقد تهاها لغزو « طخارستان »

قدم قتيبة بن مسلم الباهلي خراسان والياً عليها من قبل المجاج^(١) سنة ٨٦٦ هـ ، فلما تهاها لغزو أخرون وشومان - وما من بلاد طخارستان^(٢) - خطب الناس وحثهم على الجهاد فقال :

« إن الله أحلَّكم هذا الحَلَّ لِيُمِزَ دينه ، وَيَذُبَّ بكم عن الحرُمات ، وَيَزِيدَ بكم السَّالَ استِفاضةً ، والهدوَّ وقاً^(٣) ووعد نبيّه صلى الله عليه وسلم النصرَ بمحدثٍ صادق ، وكتابٍ ناطق ، قال : (هُوَ الْقَدِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) ووعد المجاهدين في سبيله أحسنَ الثَّواب ، وأعظمَ الدَّخر عنده ، فقال : (ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا يَخْمَصُهُ^(٤) فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلَا يَطْشُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ، وَلَا يُنْفِقُونَ فَنَقَةً صَمِيمَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) ، ثم أخبر عن قُتْلٍ في سبيله أنه حَيٌّ مرزوق ، قال : « وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ

(١) ولي قتيبة خراسان محمد يزيد بن المهلب ، وغزا بلاد ماوراء النهر ، وانفتح بخارى ، وممرقند ، وغوارزم ، ووصل في فوجهِ إلى كُشُر من بلاد الصين ، وقتل سنة ٨٩٦ هـ . (٢) ناحية كبيرة شرق خراسان على نهر جيحون ، وقد سيطها ابن خلِّكان حكلاً - انظر ونهايات الأيمان ١ : ٩٠ في ترجمة جشار بن برد - وسيطها ياقوت في معجم البلدان بفتح اللام . (٣) وقه : قهره وأذله . (٤) مجاعة .

قَتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاكَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَّوْنُ (فَتَجَرُّوا مَوْجِدَ رَبِّكُمْ ،
وَوَطَّنُوا أُنْفُسَكُمْ عَلَى أَقْصَى آثَرٍ ، وَأَمْسَى الْمَ ، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُؤَنَّى .

(تاريخ الطبري ٨ : ٥٩)

٢٩٥ - خطبته وقد تها لغزو بلاد السند

ولما صالح قُتَيْبَةُ أَهْلَ خُوَارَزْمَ ، وَصَارَ إِلَى الشُّنْدِ (١) سَنَةَ ٩٣ هـ خُطِبَ
النَّاسَ ، فَقَالَ :

« إِنَّ اللَّهَ قَدْ فَتَحَ لَكُمْ هَذِهِ الْبَلَدَ فِي وَقْتٍ الْفَتْحِ فِيهِ تُمْكِينٌ ، وَهَذِهِ الشُّنْدُ
شَاغِرَةٌ (٢) بِرَجُلَيْهَا ، قَدْ تَقَضَّوْا الْعَهْدَ الَّذِي كَانَ بَيْنَنَا ، وَنَمَتُوا مَا كُنَّا صَاحِبِيهَا عَلَيْهِ
طَرَحُونَ ، وَصَنَعُوا بِهِ مَا بَلَغَكُمْ ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (قَدْ نَكَتْ فَايَمًا بِفَكَتُ عَلَى
نَفْسِهِ) ، فَسِيرُوا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَرْجُو أَنْ يَكُونَ خُوَارَزْمُ وَالشُّنْدُ كَالنَّضِيرِ (٣)
وَقَرِيبَةً (٤) ، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٨٥)

(١) وكان قتيبة حين وضع بخارى سنة ٩٠ هـ ، وأوقع بأهلها ، هاجه أهل السند ، وهي بين نهري سيحون
وجيحون ، وكانت قصبتها سمرقند ، وهي بالسجن ، وربما قيلت بالصاد ، وأتاه طرخون ملك السند ، وسأله
الصلح على فدية يؤديها إليه ، فأجابته قتيبة إلى ما طلب وصلحه ، ثم تلقوا يهودهم . (٢) شجر الكلب
كنع : رفع إحدى رجليه ليبول . (٣) بنو النضير : حي من يهود خيبر ، وكان بينهم وبين رسول
الله صل الله عليه وسلم عهد يأمن بها كل فريق الآخر ، ولكنهم لم يفوا بها أحدا منهم وبنيها ، فبينما رسول الله
صل الله عليه وسلم ويمن أصحابه في ديارهم ، إذا انتم رجاعة منهم على قتله بأن يلقى عليه أحدهم صخرة من علو ،
فانطلق عليه الصلاة والسلام على قصدهم ، فرجع ، ثم أرسل إليهم يأمرهم بالجلاد ، لما تقدم منهم من القدر ،
فهبوا لفرحل ، فأرسل إليهم إخوانهم للناقون يقولون : لا تخرجوا من دياركم ونحن معكم ، فسار عليه الصلاة
والسلام لقتالهم ، وتحصن بنو النضير في حصونهم ، وظنوا أنهم آمنون من الله ، فصاح بهم ست ليال ، ثم أمر بقطع نخيلهم
كي يسلوا ، فقتل الله في قلوبهم الرعب ، فسألوه أن يخليهم ويكف من دعاتهم ، وأن لهم ما حملت الإبل من
أموالهم إلا آلة الحرب فضل ، وصار اليهود يخرجون بيوتهم بأيديهم ، لتلا يسكنها المسلمون .

(٤) كان يهود بين قريظة يسكنون المسلمين في المدينة ، فالتهموا فرصة اشتغال المسلمين بصد جموع
الأحزاب - في غزوة الخندق - وتقصوا يهودهم معهم ، وذلك أن حسي بن أعطب سيد بني النضير الذين -

٢٩٦ - خطبته وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة

وَأَنى قَتِيْبَةُ السُّنْدُ فَحَصَرَهَا شَهْرًا ، وَخَافَ أَهْلُهَا طَوْلَ الْحَصَارِ ، فَكَتَبُوا إِلَى مَلِكِ الشَّاشِ وَفَرْغَانَةِ ^(١) « إِنَّا نَحْنُ دُونَكُمْ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَرَبِ ، فَإِنْ وُصِّلَ إِلَيْنَا كُنْتُمْ أَضْفَ وَأَذَلَّ ، فَمَا كَانَ عِنْدَكُمْ مِنْ قُوَّةٍ فَأَبْذُلُوهَا ، فَجَمِعُوا جُوعَهُمْ ، وَوَلَّوْا عَلَيْهِمْ ابْنًا ثَلَاثَانَ ^(٢) ، وَسَارُوا وَقَدْ أَجْمَعُوا أَنْ يَبِيتُوا عَسْكَرَ قَتِيْبَةَ ، وَنَبَى ذَلِكَ إِلَيْهِ ، فَاتَّخَذَ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالْبَاسِ وَوُجُوهُ النَّاسِ ، وَخَطَبَهُمْ فَقَالَ :

« إِنْ عَدَّوْكُمْ قَدْ رَأَوْا بِلَاءَ ^(٣) اللَّهِ عِنْدَكُمْ ، وَتَأْيِيْدَهُ إِيَّاكُمْ فِي مُرَاحَتِكُمْ وَمُكَاتَرَتِكُمْ ^(٤) ، كُلَّ ذَلِكَ يُفْلِحُكُمْ ^(٥) اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، فَأَجْتَمِعُوا عَلَى أَنْ يَحْتَالُوا غِرَّتَكُمْ وَيَيَّاَتَكُمْ ، وَاخْتَارُوا دَهَاقِيْنَهُمْ ^(٦) وَمُلُوكَهُمْ ، وَأَنْتُمْ دَهَاقِيْنُ الْعَرَبِ وَفُرْسَانُهُمْ ، وَقَدْ

= أجلوا من ديارهم ؟ توجه إلى كعب بن أسد القرظي ؟ ضمن له نقض العهد ؟ ولم يزل به حتى أجابه لقتال المسلمين ؟ فاشتد وجل المسلمين ؟ وزلزلوا زلزالا شديدا ؟ وأرسل الله على الأعداء ريحا باردة في ليلة مظلمة وجنودا لم يروها ، فاجموا أهرم على الرحيل قبل أن يصبح الصباح : وكفى الله للمتزين شر الأحزاب ، ولم يهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سار إلى بني قريظة ، فحصبوا بمحصولهم ؟ وحاصروهم المسلمون نجما وحشرين ليلة ؟ فلما ضاقوا بالمحصار ذرعا ؟ طلبوا أن ينزلوا على ما نزل عليه بنو النضير ؟ من الجلاء بالأموال وترك السلاح ، فأبى الرسول إلا أن ينزلوا على حكمة فقبلوا ؟ فتوالت الأوس فقالوا : يا رسول الله ؟ إنهم كانوا موالينا دون الخزرج ؟ وقد ضلقت في موالك إخواننا بالأس مائة طمت - وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بني قريظة قد حاصر بني قيتقاع ؟ وكانوا حلفاء الخزرج ؟ فنزلوا على حكمة ؟ فسأله لإهم عبد الله بن أبي بن سلول فوجههم له - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر الأوس ألا ترضون أن يحكم فيهم وجل منكم ؟ قالوا : بلى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذاك إلى سعد بن معاذ - وكان جريحا من سهم أصيب به في غزوة الخندق - وأرسل من هاتئ به ؟ فقال : إني أسكن فيهم أن تقتل الرجال ؟ وتقتل الأموال ؟ وتسبى النساء والفلوات ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : فقد حكمت فيهم بحكم الله يا سعد ؟ ثم أمر بتفريق الحكم ؟ فنقض فيهم . (١) الشاش وفرغانة : كورتان وراء نهر سيحون متاخستان للصين .

(٢) ثمانين : اسم لكل ملك من ملوك الترك ؟ وقد عتقوه على أنفسهم : أي رأسوه (بالتشديد) .

(٣) أي نمته . (٤) كاتروهم فكثروهم : غالبوهم فغلبوهم . (٥) أي ينصركم عليهم ؟

ويظهركم هم . (٦) جمع دهقان بكسر الدال وضمها : زعيم قلاسي الصميم ، ورئيس الإقليم . معرب .

فَضَّلَكُمْ اللَّهُ بِدِينِهِ ، فَأَبْلَوْا^(١) قُدْرَةَ بِلَاءِهِ حَسَنًا تَسْتَوْجِبُونَ بِهِ التَّوَابَ ، مَعَ الذَّبِّ مِنْ أَصَابِكُمْ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٧)

٢٩٧ - خطبه حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك

وقام بخراسان حين خَلَعَ سليمان بن عبد الملك^(٢) ، ودعا الناس إلى خلعهم فقال للناس :
« إني قد جمعتكم من عين التَّمَرِ^(٣) ، وَقَبَضُ الْبَحْرِ ، فَضَمَمْتُ الْأَخَ إِلَى أَخِيهِ ،
وَالوَدَّ إِلَى أَبِيهِ ، وَقَسَمْتُ بَيْنَكُمْ فَيْتَكُمْ ، وَأَجْرَيْتُ عَلَيْكُمْ أُعْطِيَاتِكُمْ غَيْرَ مُكْدَرَةٍ
وَلَا مُؤَخَّرَةٍ ، وَقَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كَمْ أُمِّيَّةٌ^(٤) ، فَكُتِبَ إِلَيَّ أَمِيرٌ لِلزُّمَنِيِّينَ :
إِنَّ خَرَجَ خُرَاسَانَ لَا يَقُومُ^(٥) بِمَطْبِئِي ، نَمَّ جَاءَكُمْ أَبُو سَعِيدٍ^(٦) فَدَوَّمَ^(٧) بِكُمْ ثَلَاثَ
سَنِينَ ، لَا تَدْرُونَ أَوْيَ طَاعَةِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَصِيبَةٍ ؟ لَمْ يَجِبْ قِيَّتًا ، وَلَمْ يَنْكُثْ^(٨) عُدْوًا ،
نَمَّ جَاءَكُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، يَزِيدُ غُلًّا تَبَارَى إِلَيْهِ النَّسَاءُ ، وَإِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ
هَبْنَقَةُ الْقَيْسِيِّ^(٩) » فَلَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ فَغَضِبَ ، فَقَالَ :

(١) الْإِبْلَاءُ : الْإِتْمَامُ وَالْإِحْسَانُ ، يُقَالُ : أَبْلَيْتُ عَنْهُ بِلَاءً حَسَنًا ، وَأَبْلَاهُ اللَّهُ بِلَاءَهُ حَسَنًا ، وَأَبْلَيْتُ
مَعْرُوفًا . وَالْمَعْنَى : فَاصْطَفَا الْقِتَالَ ، وَهَمَعُوا مَعْرُوفًا تَخُونُ بِهِ ثَوَابَ اللَّهِ . (٢) وَسَبَبُ ذَلِكَ أَنَّ الْوَلِيدَ
ابْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَرَادَ أَنْ يُجْعَلَ ابْنُهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَلِيَّ عَهْدِهِ ، وَدَسَّ فِي ذَلِكَ إِلَى الْقَتَادِ وَالشَّهْرَاءِ ، فَبَاهِيَهُ عَلَى خُلْعِ
سُلَيْمَانَ الْحِجَاجِ وَتَقْبِيَةِ ، ثُمَّ مَاتَ الْوَلِيدُ وَقَامَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَخَالَفَهُ قَبِيَّةٌ وَخَشِيَ أَنْ يُولِيَ سُلَيْمَانَ يَزِيدَ
ابْنَ الْمُهَلَّبِ خُرَاسَانَ . (٣) بَلَدٌ عَلَى الْقَفَرَاتِ قَرِيبَ الْكُوفَةِ . (٤) هُوَ أُمِيَّةٌ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خَالَةَ
ابْنَ أَبِيهِ بْنِ أَبِي الْعَاصِ بْنِ أُمِيَّةَ بْنِ عَبْدِ شَمْسٍ ، وَكَانَ حَمَلًا عَلَيْهِ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ حَتَّى كَانَتْ سَنَةُ ٧٨
فَنَزَلَهُ وَجَمَعَ سُلْطَانَهُ الْحِجَاجَ فَبِعَثَ الْمُهَلَّبَ إِلَيْهَا . (٥) فِي الْأَصْلِ « لَا يَقِيمُ » وَهُوَ تَحْرِيفٌ أَوْ « لَا يَقِيمُ
مَطْبِئِي » . (٦) أَبُو سَعِيدٍ : كَتَبَ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صَفْرَةَ . (٧) مِنْ دَوَسَتْ الْكَلَابِ : أَيْ أَمْسَتْ
فِي الْمَسِيرِ : وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى « فَدَوَّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ » وَسَتَلَّى . (٨) نَكَثًا لِدَوِّ وَتَكَاهُ نَكَايَةً : قَتَلَ وَجَرَحَ .
(٩) هُوَ يَزِيدُ بْنُ ثُرَوَانَ هَبْنَقَةُ ذُو الْوَدَاعَاتِ ، وَيَكُنَّى أَبَا نَافِعٍ أَحَدُ بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ . يُضْرَبُ بِهِ لِلْخُلْعِ
فِي الْحَقِّ يُقَالُ : « أَحَقُّ مِنْ هَبْنَقَةٍ » وَلَهُ فَوَائِدُ فِي الْحَقِّ . مِنْهَا أَنَّهُ جَعَلَ فِي عَهْدِهِ ثَلَاثَةَ مَنَ وَدَعٍ وَعَظَامَ وَخَزَفٍ
وَمَوْذُوخٍ طَوِيلَةٍ ، فَضَلَّ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ : لَأَهْرَفُ بِهَا نَفْسِي ، وَلِثَلَا أَضَلَّ ، فَبَاتَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ، وَأَخَذَ أَمْرَهُ —

« لَا أَعَزَّ اللَّهُ مِنْ نَصْرَتِهِ ، وَلَهُ لَوِ اجْتَمَعَ عَلَى عَنَزٍ مَا كَسَرْتُمْ قَرْيَتَهَا ، يَأْهَلُ
السَّافَةِ ، وَلَا أَقُولُ أَهْلَ الْعَالِيَةِ . يَا أُوَيْشُ ^(١) الصَّدَقَةُ ، جَعَلْتُمْ كَمَا تَجْتَمِعُ إِلَى الصَّدَقَةِ
مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ^(٢) . يَا مَعْشَرَ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، يَا هَلُ النَّفْعِ ^(٣) وَالْكَذِبِ وَالْبُخْلِ ، يَا
يَوْمَنِيكُمْ تَفْخَرُونَ : يَوْمَ حَرَبِكُمْ ، أَمْ يَوْمَ سَلَيْكُمْ ؟ فَوَ اللَّهِ لَا تَأْأَعَزُّ مِنْكُمْ يَا أَصْحَابَ
مُسَيْلَةَ . يَا بَنِي ذَيْمٍ ، وَلَا أَقُولُ نَيْمٍ . يَا هَلُ الْغَوَرِ ^(٤) وَالْقَصَفِ ^(٥) وَالْقَدَرِ ، كُنْتُمْ
تُسَمُّونَ الْقَدَرَ فِي الْجَاهِلِيَةِ « كَيْسَانَ ^(٦) » ، يَا أَصْحَابَ سَجَّاحٍ ^(٧) ، يَا مَعْشَرَ عَبْدِ الْقَيْسِ
الْقُسَاةَ ، تَبَدَّلْتُمْ بِأَبْرِ الْفَضْلِ ^(٨) أَعِيَّةَ الْخَلِيلِ ، يَا مَعْشَرَ الْأَزْدِ ، تَبَدَّلْتُمْ بِقُلُوسِ ^(٩) السُّفْنِ ،
أَعِيَّةَ الْخَلِيلِ وَالْخُسْنِ ^(١٠) ، إِنْ هَذَا لِبِدْعَةٍ فِي الْإِسْلَامِ . وَالْأَعْرَابُ ، وَمَا الْأَعْرَابُ ؟
لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْأَعْرَابِ ، يَا كُفَاةَ الصَّرِيرِ ، جَعَلْتُمْ مِنْ مَنَابِتِ الشَّيْخِ وَالْقَيْصُومِ ^(١١) ،

= قَلادته فضلاها ، فلما أصبح ، ورأى القلادة في عنق أخيه ، قال يا أعي : أَلَيْتَ أَنَا فَنَ أَنَا ؟ وَمِنْهَا : أَنَّهُ ضَلَّ
لَهُ بَعِيرٌ ، لَجَلَّ يَهْدَاهُ : مَنْ وَجَدَ بَعِيرِي فَهُوَ لَهُ ، فَقِيلَ لَهُ فَلَمْ تَشْهَدْ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ حَلَاوَةُ الْوُجْدَانِ ؟ وَمِنْهَا :
أَنَّهُ اخْتَصَمَتْ الْفُجَاوَةُ وَيَتَوَلَّسُ فِي رَجُلٍ ادْعَاهُ هُؤُلَاءُ وَهَؤُلَاءُ ، ثُمَّ قَالُوا : وَرَضِينَا بِأُولَئِكَ مِنْ يَطْلُعُ عَلَيْنَا ،
فِيهِمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ حَبِيقَةٌ ، فَقَصُّوا عَلَيْهِ نَصَبَهُمْ ، فَقَالَ : الْحَكْمُ عِنْدِي فِي ذَلِكَ أَنَّهُ يَذْهَبُ بِهِ إِلَى نَهْرِ
الْبَصْرِ ، فَيَلْقَى فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ وَاسِعِيَا رَسَبَ فِيهِ ، وَإِنْ كَانَ طَفَاوِيَا طَفَا ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَا أُرِيدُ أَنْ أَكُونَ
مِنْ أَحَدٍ هَلَيْنِ الْخَبِيرِ .

وقول قتيبة : « إِنَّمَا خَلِيفَتُكُمْ حَبِيقَةٌ » ذَلِكَ لِأَنَّ حَبِيقَةَ كَذَبٍ يَحْسَنُ إِلَى السَّيِّئِ مِنَ إِلَهٍ ، فَيُرْمِيهَا فِي الْعُشْبِ
وَيَنْحِي الْمُهْتَزِلَ ، فَقِيلَ لَهُ : وَيَعْلَى ! مَا تَصْنَعُ ؟ فَقَالَ : « إِنَّمَا أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ ، وَأَعْلَى مَا أَعْلَى اللَّهُ ، وَكَذَلِكَ
كَانَ سُلَيْبَانِ يَطْلِي الْأَعْيَاءَ ، وَلَا يَطْلِي الْفُقَرَاءَ وَيَقُولُ : « أَصْلَحَ مَا أَصْلَحَ اللَّهُ ، وَأَفْسَدَ مَا أَفْسَدَ اللَّهُ » - انظر
جميع الأشكال ١ : ١٤٦ ، والبيان والفتن ١ : ١٢٦ - . (١) الأويش : السفلة ، جمع ويش كسبب .
(٢) الطريق والجهة . (٣) القفر والكبر . (٤) القصف . (٥) الهو .

(٦) كيسان : حل الغور . (٧) هي سجاج بنت الحارث ادعت النبوة بعد موت رسول الله صل الله
عليه وسلم بالمزورة في بني تغلب . (٨) أبو النخل أبرا : أصله . (٩) القلوس جمع قلنس كشمس :
وهو جبل عظيم من ليف أو عوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر . (١٠) جمع حصان .

ومنابت القليل^(١) ، تركبون البقر والحمر في جزيرة ابن كاوان^(٢) ، حتى إذا جمعتم
كما يجتمع قزح الخريف^(٣) قلتم : كيت وكيت ، أما والله إنى لأبى آية^(٤) وأخو آية ،
أما والله لأعصبتكم عصب الشفة ، إن حول الصليان الزمزمة^(٥) ، بأهل خراسان ،
هل تدرون من وليتكم ؟ وليكم يزيد بن تروان ، كفى بأمر مزجاء^(٦) ، وحكمكم
قد جاءكم ، فليحكم هل فيكم وأطلالكم ، إن هاهنا ناراً ، ارموها ارممكم ،
ارموا غرضكم الأنفى ، قد استخيف عليكم أبو نافع ذو الودعات ، إن الشام أب
مكفور ، حتى متى ينطح أهل الشام بأفئدتكم وظلال دياركم ؟ بأهل خراسان انسيبوني
نجدوني عراق الأم ، عراق الأب ، عراق الولد ، عراق الموى والرأى والدين ، وقد
أصبحت اليوم فيا ترون من الأمن والعافية ، قد فتح الله لكم البلاد ، وآمن سبلكم ،
فالظئمة^(٧) تخرج من مرو إلى بلخ بغير جوار ، فاتخذوا الله على النعمة ، وسلوه الشكر
والمزيد . ثم نزل .
(تاريخ الطبري ٨ : ١٠٥)

وورد كلام تقيية في هذا الصدد في العقد الفريد ، والبيان والتبيين في ثلاث خطاب

هذا نصها :

- (١) ثبت له حب أسود حسن الثم . (٢) هي جزيرة في الخليج الفارسي بين عمان والبحرين .
(٣) القزح : كل شيء يكون قطعا مضفرة (وتم قبل لقطع السحاب في السماء قزح) وغرقت اثمار آخرها
كتسر : اجتلبها ، والثر غرور وخريف ، وفي كلام سيدنا علي رضي الله عنه « كما يجتمع قزح الخريف » .
(٤) أي ابن أبي . (٥) الصليان : نبت من أفضل المرمي يخل (يجز) الخليل حتى لا تفلق الحى ،
والزمزمة : صوت حنى لا يكاد يفهم ، معنى صوت الفرس (بالتحريك) إذا وآه ، وأصلها صوت للجوس
عند أكلهم - يتراطنون هل الأكل ، وهم صموت لا يستملون لسانا ، ولا شفة ، لكنه صوت تديره في
خيالها وحلوقها ، فهمم بعضها عن بعض - وهو مثل يضرب لرجل يحوم حول الشيء ولا يظهر مرأته .
والمنى في المثل : أن ماتم من الأصوات والجلب ، لطلب ما يؤكل ويصنع به . قال المياني : ويروى
« حول الصليان الزمزمة » الصليان جمع صليب ، والزمزمة : صوت عابديها . (٦) هو مزجاء المعلى
أي كثير الإزجاء لها ، زجاءها وأزجاءها : ساقها ودفنها : والمراد أنه قاس ظنوم . (٧) الظئمة : المرأة
مادامت في الهودج .

قام بخراسان حين خلع سليمان بن عبد الملك ، فصعد المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
ثم قال :

« أتدرون من تباعون ؟ إنما تباعون بيزيد بن مروان - يعني هبة الله القيسي -
كأنى بأمر مزاج ، وحكم قد أتاكم ، يحكم في أموالكم ومما نكسكم وفروجكم وأبشاركم^(١)
ثم قال : الأعراب وما الأعراب ؟ لسة الله على الأعراب ، جمعكم كما يجمع قزح الخريف^(٢)
من منابت الشيع والتقصوم ، ومنابت القليل ، وجزيرة ابن كاوان ، تركبون البقر ،
وتأكلون الحبيد^(٣) ، فخلتكم على الخليل ، وألبستكم السلاح ، حتى منع الله بكم البلاد ،
وأعاد بكم الفناء^(٤) » قالوا : سرنا بأسرك . قال : غرؤوا غيري .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٠١)

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يا أهل العراق ، ألسنت أعلم الناس بكم ؟ أما هذا الخي من أهل العالية ، فتمم
الصدقة ، وأما هذا الخي من بكر بن وائل فملجة^(١) بظرواه ، لا تجمع رجلها ، وأما هذا
الخي عبد القيس فما ضرب القير بذنيه ، وأما هذا الخي من الأزدي ، فملوج^(٢) خلق الله
وأناطه^(٣) ، وإنهم الله لو ملكتم أمر الناس لنقضت أيديهم ، وأما هذا الخي من تميم ،
فإنهم كانوا يسمون القندري الجاهلية كيتان^(٤) .

(العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) أبشار جمع بشر : وهو جمع بشرة ، وهي ظاهر الجلد . (٢) في العقد الفريد : « كما يجمع
مرج الخريف » وفي البيان والتبيين والعلوي « قرع الخريف » والصواب ما ذكرنا . (٣) المنزل .
(٤) مؤنث الصلح ، وهو حمار الوحش السمين القوي . وأما بظرواه : طويلة البظر كشمس ، وهو ما بين
شفرى الرحم . (٥) جمع طليح (بالكسر) وهو الرجل من كفار النجم . (٦) سبل من الناس
كلوا يخذلون سواد العراق ثم استعمل في أغلاط الناس وحواسهم .

وخطب مرة أخرى ، فقال :

« يَا أَهْل خِرَاسَانَ ، قَدْ جَرَّبْتُمُ الْوَلَاةَ قَبْلِي ، أَنَا كُمْ أُمِيَّةٌ ، فَكَانَ كَاسِمِيَّةَ أُمِيَّةَ الرَّأْيِ ، وَأُمِيَّةَ الدِّينِ ، فَكَتَبْتُ إِلَى خَلِيفَتِهِ : إِنْ خَرَجَ خِرَاسَانَ وَسِجِسْتَانَ ، لَوْ كَانَ فِي مَطْبَعِهِ لَمْ يَكْفِهِ ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَعْدَهُ أَبُو سَعِيدٍ ، فَدَوَّخَ بِكُمْ الْبِلَادَ ، لَا تَدْرُونَ أَفِي طَاعَةِ اللَّهِ أَنْتُمْ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَحِبَّ فَيَنْتَهِ ، وَلَمْ يَنْكُأْ عَدُوًّا ، ثُمَّ أَنَا كُمْ بَنُوهُ بَعْدَهُ ، مِثْلَ أَطْبَاءٍ ^(١) السَّكْبَةِ ، مِنْهُمْ ابْنُ الرَّحْمَةِ ^(٢) ، حِصَانٌ يَضْرِبُ فِي عَانَةِ ^(٣) ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُوهُ يَخَافُهُ عَلَى أُمَّهَاتِ أَوْلَادِهِ ، ثُمَّ أَصْبَحْتُمْ وَقَدْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ الْبِلَادَ ، وَأَمِنَ لَكُمْ السُّبُلُ ، حَتَّى إِنْ الظُّلُمَةُ لَتَخْرُجَ مِنْ مَرَوْ إِلَى سَمَرْقَنْدَ فِي غَيْرِ جَوَارٍ .

(المقدم الفريد ٢ : ١٥٥ ، والبيان والتبيين ٢ : ٦٧)

(١) جمع طبي يقتل . والطبي : لذات الخلف والظلف كالتي للمرأة . (٢) يريد به يزيه

ابن المهلب . (٣) العانة : الأتان ، والقطع من حر الخوخ ، والمراد بها النساء .

٣٠١ - كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم

وَحَرَجَتْ خَارِجَةً بِخُرَّاسَانَ ، قَتِيلَ لِقَتِيبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ : لَوُوجَتْ إِلَيْهِمْ وَكَيْعَ بْنِ أَبِي سُودٍ^(١) ، قَالَ : - وَكَانَ وَكَيْعٌ رَجُلًا عَظِيمَ الْكِبَرِ ، فِي أَنْفِهِ خُزْنُؤَانَةٌ^(٢) ، وَفِي رَأْسِهِ نَمْرَةٌ^(٣) - وَإِنَّمَا أَنْفُهُ فِي أَسْلُوبٍ^(٤) ، وَمَنْ عَظُمَ كِبَرُهُ اشْتَدَّ عُجْبُهُ ، وَمَنْ أُعْجِبَ بِرَأْيِهِ لَمْ يُشَاوِرْ كَفِيَّةً ، وَلَمْ يُؤَاوِرْ^(٥) نَصِيحًا . وَمَنْ تَفَرَّدَ بِالنَّظَرِ لَمْ يَكْمُلْ لَهُ الصَّوَابُ ، وَمَنْ تَبَجَّجَ^(٦) بِالْأَفْرَادِ ، وَفَقَّرَ بِالْإِسْتِبْدَادِ ، كَانَ مِنَ الصَّوَابِ بَعِيدًا ، وَمَنِ اخْتَلَدَ لَانِ قُرْبَا ، وَانْطَلَعَ الْجَمَاعَةُ ، خَيْرٌ مِنَ الصَّوَابِ مَعَ الْفُرْقَةِ ، وَإِنْ كَانَتْ الْجَمَاعَةُ لَا تَخْطِئُ ، وَالْفُرْقَةُ لَا تُصِيبُ ، وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى عُدُوهِ حَقَرَهُ ، وَإِذَا حَقَرَهُ تَهَاوَنَ بِأَمْرِهِ ، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِخَصْمِهِ ، وَوَقَّعَ يَفْضُلَ قُوَّتِهِ قَلَّ أَحْقَارُهُ ، وَمَنْ قَلَّ أَحْقَارُهُ كَثُرَ عِثَارُهُ ، وَمَا رَأَيْتَ عَظِيمَ الْكِبَرِ صَاحِبَ حَرْبٍ ، إِلَّا كَانَ مُنْكَوَبًا ، فَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَكُونَ عُدُوهُ عِنْدَهُ ، وَخَصْمُهُ فِيهَا تَغْلِبُ

(١) هو وكيع بن أبي سود النخعي ، أحد الأبطال البواسل ، كان مع قتيبة في فتح بخارى ، وأبلى في القتال بلاء محموداً - انظر غيره في الطبقات ٨ : ٦٨ - وولاه الناس أمرهم حين ثاروا بقتيبة وقتلوه .

(٢) الخنزوان ، والخنزوانة ، والخنزوانية : الكبر ، يقال : هو ذو خنزوانات .

(٣) النمرة : الخيل والكبر . (٤) الأسلوب : الشموخ في الألف ، ويقال : إن أنفه في أسلوب إذا كان متكبرا ، قال الرازي :

أسلوب إذا كان متكبرا ، قال الرازي :

أنوفهم ملغنى في أسلوب وشعر الأستاء في الجيوب

(وهو في معنى المثال المشهور : أنف في الساء واست في الماء ، والجيوب كصبور : الأرض ، والأستاء

جميع من كشمس وسبب وهو الاست ، وقوله : ملغنى أصله : من لغن ، وتظيره قول جميل بثينة :

وما أنسى ملأ شيا لآنس قولها (وقفقرت نفسى) أمصر زيد؟

أي من الأشياء ، وقول قطري بن النجاعة :

فإذا طفت علماء بكر بن وائل وجبت صدور الخيل نحر تميم

أي مل للماء . (٥) الكنى : الكافي ، ويؤاير : يشاور . (٦) تبجج به : افتخر وتباهى .

عليه ، أسمع من قرَس ، وأبصر من عُقاب ، وأهدى من قَطَاة ، وأحذر من حَقَق^(١) ،
وأشد إقداماً من الأسد ، وأوثب من القَهْدِ ، وأخفد من جل ، وأروغ من ثلب ،
وأغدر من ذئب ، وأسعى من لَانِظَة^(٢) ، وأشع من صبي ، وأجمع من ذَرَّة^(٣) ،
وأحرص من كلب ، وأصبر من صَب ، فإن النفس تسمع من العناية على قدر الحاجة ،
وتتصقف على قدر الخوف ، وتطلب على قدر الطمع ، وتطمع على قدر السبب .

(جمهرة الأمثال ١ : ١١٧)

ومن كلماته البليغة قوله حين قدم خراسان :

« من كان في يديه شيء من مال عبد الله بن خازم^(٤) فَلْيَنْبِذْهُ ، وإن كان في فيه
فَلْيَلْفِظْهُ ، وإن كان في صدره فَلْيَنْفُثْهُ » فَصَحِبَ النَّاسُ مِنْ حَسَنِ مَا فَصَّلَ وَقَسَمَ .
(البيان والبيان ٢ : ٥٤)

(١) الحقق : نوع من الثربان ، وهو ذو لونين : أبيض وأسود طويل القنب ، يشبه صوته العين
والقاف — ولذا سمى حقيقاً — وقيل لأنه يحق فراشه ، فيتركهم بلا طعم ، وجميع الثربان يفعل ذلك — وقد
ضربوا به المثل في الخسر ، فقالوا : « أحذر من حقق » — انظر جمهرة الأمثال — كما قالوا : « أحذر من
غراب » وقالوا أيضاً : « أنس من حقق » لأن في طبعه شدة الاختلاف لما يراه من الخيل — وقالوا : « أحق
من حقق » لأنه كالنمالة التي تصعب يعضها وأفراشها ، وتشغل بيض غيرها ، وإليها حتى هدبة بقوله :
كتاركة يعضها بالدرء ومليمة يعض أخرى جناحا
انظر حياة الحيوان الكبير للعمري ٢ : ٢٠٩ ، وجميع الأمثال .

(٢) رواء المدياني : « أسمع من لَانِظَة » وقال : قد اختلطوا فيها ، فقال بعضهم : هي العز التي تثل
الحلب — أشل دابته : أراحها العذلة لتأنيبه ، وأشلها : دعاها الحلب — فجيء لَانِظَة بجرتها فرحا بالحلب .
وقال بعضهم : هي الحماة لأنها تخرج ماق يطنها لفرشها ، وقال بعضهم : هي البوك ، لأنه يأخذ الحية بمنقاره
فلا يأكلها ، ولكن يلقها إلى الدجاجة ، والماء فيها البياضة هاهنا . وقال بعضهم : هي الرحي لأنها تلفظ
ما تلطمه أي تذف ، وقال بعضهم : هي البحر لأنه يلفظ بالذرة ، قال الشاعر :

تجدو فحيزل قبل السؤال وكفكك أسمع من لَانِظَة

(٣) اللر : صغار النمل ، وفي كلام عمر بن عبد العزيز : قاتل الله زيادا جمع لم (أي لأهل العراق)
كأتجمع الذرة ، وحاطهم كاحوط الأم البيرة ، وقال الشاعر :

تجمع الوارث جسما كما تجمع في قريتها قدر .

(٤) وكان من أمره أنه لما مات يزيد بن معاوية ، ومعاوية بن يزيد ، وثب أهل خراسان بعلمهم
نأخروهم ، وطلب كل قوم على ناحية ، ووقفت الفتنة ، وطلب عبد الله بن خازم على خراسان ، ثم كتب إليه =

٣٠٢ - خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس

لما دانت بلاد المغرب لموسى بن نصير - وكان ولياً عليها من قبل الوليد بن عبد الملك - طمّح بصره إلى فتح بلاد الأندلس ، فبث مولاة طارق بن زياد على جيش جُلّه من البربر سنة ٩٢ هـ فمهر بهم البحر ، وتمّى خيره إلى قُدرِيق ملك القوط ، فأقبل لمحاربتهم بجيش جرّار ، وخاف طارق أن يستحوذ العرب على جنده لقتلهم ، فأحرق السفن التي أفلتتهم ، حتى يقطع من قلوبهم كل أمل في العودة ، وقام فيهم ، بحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم حثهم على الجواد ، ورغبهم في الشهادة ، فقال :

« أيها الناس ، ابن المرق ؟ الحر من وراثكم ، والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق ^(١) والعبر ، واعلموا انكم في هذه الجزيرة أضيّع من الأيتام في مادِب ^(٢) القُدَم ، وقد استقبلكم عدوكم بحبسه ، وأسلحته وأقواته مؤنورة ، وأنتم لا وزر ^(٣) لكم إلا سيوفكم ، ولا اقوات إلا ما تستصلحونه من أيدي عدوكم ، وإن امتدّت بكم الأيام على انضاركم ، ولم تُنجزوا لكم أمراً ، ذهبت ربحكم ، وتوسّست القلوب من رغبها منكم المرأة عليكم ، فادفروا عن أنفسكم خذلاً لأن هذه العاقبة من أمركم ، بمنّا جرة ^(٤) هذا الطاغية ، فقد ألقت به إليكم مدينته الحبيبة ، وإن انتهز الفرصة فيه لمُشْكِن ، إن سمّحت لأنفسكم بالموت ، وإني لم أحذركم أمراً أنا عنه ينجّو ^(٥) ،

— عبد الملك بن مروان بعد مقتل عبد الله بن الزبير — وقيل قبله — يدهوه إلى الفخول في طاعة حل أن يطعمه خراسان عشر سنين ، فأبى وحلف ألا يطعمه طاعة أبداً ، وكان ابن خازم يقاتل بغير بن وراق الصريمي بأبر شهر ، وغلبته على مرو بكير بن وشاح ، فكتب عبد الملك إلى بكير يمهده على خراسان ، ووعده وساء ، فدعا إلى عبد الملك ، وأجابه أهل مرو ، وبلغ ابن خازم فغاف أن يأتيه بكير ، فيجتمع عليه أهل مرو وأهل أبر شهر ، فترك بجراً وأقبل إلى مرو ، فقاتله بغير فلقه ، ودارت بينهما الحرب فقتل ابن خازم في المعركة — انظر تاريخ الطبري ٧ : ص ٤٤ ، وص ١٩٦ . (١) أي الصدق في القتال ، والصدق : الشدة ، يقال صدق القتال . (٢) جمع مأدبة بالفتح والقسم : وهي طعام صنع لخدمة أو عرس . (٣) لاملجأ .

(٤) أي مبارزة . (٥) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

ولا حَلَفْكُمْ عَلَى خَطَاةٍ أَرْخَصُ مَتَاعٍ فِيهَا النَّفُوسُ ، أَرْبَابًا^(١) فِيهَا بِنَفْسِي ، وَاَعْلَمُوا
أَنْكُمْ إِنْ صَبَرْتُمْ عَلَى الْأَشَقِّ قَلِيلًا ، اسْتَمْتَعْتُمْ بِالْأَرْقَةِ الْأَدْنَى طَوِيلًا ، فَلَا تَرْغَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ
عَنْ نَفْسِي ، فِيمَا حَفَلْكُمْ فِيهِ أَوْفَرُ مِنْ حَتَّى .

وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحُورِ^(٢) الحِسان ، من بنات اليونان ،
الرَّافِلَاتِ^(٣) فِي الدَّرِّ وَالْمَرْجَانِ ، وَالْحُلُلِ النَّسُوجَةِ بِالْعَيَّانِ^(٤) ، الْقَصُورَاتِ^(٥)
فِي قُصُورِ الْمُلُوكِ ذَوِي التَّيْجَانِ ، وَقَدْ اسْتَعْبَكُمُ الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْأَبْطَالِ
عُزْبَانًا^(٦) ، وَرَضِيَكُمْ الْمُلُوكُ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ أَشْهَارًا^(٧) وَأَخْتَانًا^(٨) ، فِقَّةٌ مِنْهُ بَارِتِيَا حَكَمَ
قَطْمَانَ ، وَإِسْمَاحَكُمُ^(٩) بِمَجَالَةِ الْأَبْطَالِ وَالْقُرَّاسَانِ ، لِيَكُونَ حَفْلُهُ مِنْكُمْ ثَوَابٌ لِقَدَرِ اللَّهِ عَلَى
إِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ ، وَإِظْهَارِ دِينِهِ بِهَذِهِ الْجَزِيرَةِ ، وَلِيَكُونَ مَفْضَمُهَا خَالصًا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ ، وَمِنْ
دُونِ الْمُؤْمِنِينَ سِوَاكُمْ ، وَاللَّهُ تَعَالَى وَلِيُّ إِعْجَادِكُمْ عَلَى مَا يَكُونُ لَكُمْ ذِكْرًا فِي الدَّارَيْنِ .

وَاَعْلَمُوا أَنِّي أَوَّلُ عَجِيبٍ إِلَى مَا دَهَوْتَكُمْ إِلَيْهِ ، وَأَنْتَى عِنْدَ مُلْدَقِي الْجَنَّةَيْنِ ، حَامِلٌ
بِنَفْسِي عَلَى طَافِيَةِ الْقَوْمِ قُذْرِي ، فَقَاتِلْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، فَاحْلُوا سَيْ ، فَإِنْ هَلَكْتُ بِيَدِهِ ،
فَقَدْ كَفَيْتُمْ أَمْرَهُ ، وَلَنْ يُعْزِزَ كُمْ بَطَلٌ عَاقِلٌ تُسَيِّدُونَ أُمُورَكُمْ إِلَيْهِ ، وَإِنْ هَلَكْتُ قَبْلَ
وَصُولِي إِلَيْهِ ، فَاخْلُقُونِي فِي عَزِيمَتِي هَذِهِ ، وَاحْلُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَلَيْهِ ، وَاكْتَفُوا الْمُؤْمِنَ مِنْ فَتْحِ
هَذِهِ الْجَزِيرَةِ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّهُمْ بِيَدِهِ يُخَذَّلُونَ .

(نفع الطيب ١ : ١١٢ ، ووفيات الأعيان ٢ : ١٣٥)

(١) رباً بنفسه : علا بها وارتفع ، أى أنتمى عن مشاركتكم . (٢) جمع حوراء ، من الحور
بالضمة بكسر الهمزة وفتح الحاء ، وهو شدة سواد العين وبياضها . (٣) رقلت : جرت ذيلها وتبخترت ، أو شطرت يدها .
(٤) للهب . (٥) المخدرات : المخيمات . (٦) جمع مزيب . والمزيب والمزيب والأمزيب :
من لازوجة له . (٧) جمع صهر : كحمل ، وهو زوج بنت الرجل وزوج أخته . (٨) جمع
ختن كسب ، وهو الصهر ، أو كل من كان من قبل للمرأة كالأب والأخ . (٩) صبح وأصبح : جاد وكرم .

٣٠٣ - نص آخر لخطبة طارق

وروى ابن قتيبة هذه الخطبة في الإمامة والسياسة بصورة أخرى ، قال :
لما بلغ طارقاً دُنُوَّ قَدْرِيْق ، قام في أصحابه ، فحمد الله ، ثم حض الناس على الجهاد ،
وَرَفَّعِهِمْ فِي الشَّهَادَةِ ، وَبَسَطَ لَهُمْ فِي أَمَالِهِمْ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : أَيْنَ لِلْفَرِّ ؟ الْبَحْرُ مِنْ وَرَائِكُمْ ، وَالْمَدَى أَمَامَكُمْ ، فَلَيْسَ ثَمَّ وَاللَّهِ
إِلَّا الصَّدْقُ وَالصَّبْرُ ، فَإِنَّهُمَا لَا يُقْلَبَانِ ، وَهُمَا جَنْدَانِ مَنْصُورَانِ ، وَلَا تَغْرُؤُ مَعَهُمَا قِلَّةٌ ،
وَلَا تَنْفَعُ مَعَ الْخَوَرِ وَالْكَسَلِ وَالْفَتَلِ وَالْإِخْطِلَافِ وَاللَّجْبُ كَثْرَةُ ، أَيُّهَا النَّاسُ :
مَا ضَلْتُ مِنْ شَيْءٍ فَاضْلَوْا مِنِّي ، إِنْ حَلْتُ فَأَحِلُّوا ، وَإِنْ وَقَعْتُ فَصَفُّوا ، ثُمَّ كُونُوا كَهَيْئَةِ
رَجُلٍ وَاحِدٍ فِي الْقِتَالِ ، أَلَا وَإِنِّي عَامِدٌ إِلَى طُلُغَيْهِمْ ، بِحَيْثُ لَا أَتَيْبِيهِ حَتَّى أَخْلِيَهُ ،
وَأَقْتُلَ دُونَهُ ، فَإِنْ قُتِلْتُ فَلَا تَهِنُوا ^(١) وَلَا تَحْزِنُوا ، وَلَا تَتَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ
رِيْعُكُمْ . وَتَوَلَّوْا الدُّبُرَ لِمَدُوكُمْ ، فَتَبْذُلُوْا بَيْنَ قَتِيلٍ وَأَسِيرٍ . وَإِيَّاكُمْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَرْضَوْا
بِالدَّيْنَةِ ، وَلَا تَمْطُوا بِأَيْدِيكُمْ ، وَارْغَبُوا فِيمَا يُجْبَلُ لَكُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالرَّاحَةِ ، مِنَ التَّيَمُّنَةِ
وَالْقِلَّةِ ، وَمَا قَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنْ ثَوَابِ الشَّهَادَةِ ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَفَلَّوْا ^(٢) (وَاللَّهِ مَعَكُمْ وَمُعِيزُكُمْ)
تَبْهَرُوا بِالْخُسْرَانِ الْمُبِينِ ، وَسَوْفَ الْحَدِيثُ غَدًا بَيْنَ مَنْ عَرَفَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَآنَذَا حَامِلٌ
حَتَّى أَغْشَاءَ ، فَأَحِلُّوا بِحِمْلَتِي » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٥٣)

٣٠٤ - خطبة عثمان بن حيان المرى بالمدينة

وولى الوليد بن عبد الملك عثمان بن حيان المرى للدينة سنة ٩٤ هـ ، وقد خطب
على المنبر ، فقال بعد حمد الله :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّا وَجَدْنَاكُمْ أَهْلَ غِيْثٍ لِأُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ وَحَدِيثِهِ ،

(١) فَلَا تَقْصُرُوا . (٢) إِنْ تَقَلَّوْا وَتَهْزَمُوا .

وقد ضوى^(١) إليكم من يزيدكم خيالاً : أهل العراق ، هم أهل الشقاق والنفاق ،
 هم والله من الشقاق ، وبقيته التي تفقت عنه ، والله ما جربت عراقياً قط إلا وجدت
 أفضلهم عند نفسه ، الذي يقول في آل أبي طالب ما يقول ، وما هم لهم بشيمة ، وإنما
 لأعدائهم ولتوهم ، ولكن لما يريد الله من صفك دملهم ، فإني والله لا أوتى بأحد
 أقوى أحداً منهم أو أكثره منزلاً ، أو أنزه ، إلا خدمت منزله ، وأنزلت به
 ما هو أهله^(٢) .

ثم إن البلدان لما مصرها عمر بن الخطاب ، وهو مجتهد على ما يصلح رعيته ، جل
 يمر عليه من يريد الجهاد ، فيستشيره : الشام أحب إليك أم العراق ؟ فيقول : الشام
 أحب إليّ .

إني رأيت العراق ذاه غصلاً ، وبها فرخ الشيطان ، والله قد أعصوا^(٣) بي ،
 وإني لأراني سائرهم في البلدان ، ثم أقول : لو فرقهم لأفسدوا من دخلوا عليه بمجك
 وججاج ، وكيف ؟ ولم ؟ وسرعن وجيف^(٤) في الفتنة ، فإذا خيروا عند السيوف ،
 لم يختبر منهم طائيل^(٥) ، لم يصلحوا على عمان ، فأتى منهم الأميين^(٦) ، وكانوا أول
 الناس فتق هذا الفتق العظيم ، ونقضوا عرا الإسلام عروة عروة ، وأنزلوا^(٧) البلدان ،
 والله إني لأتقرب إلى الله بكل ما أضل بهم لما أعرف من رأيهم ومذاهبهم ، ثم ولّيتهم
 أمير المؤمنين معاوية ، فداحجهم^(٨) فلم يصلحوا عليه ، وولّيتهم رجل الناس^(٩) جلداً ،

(١) ضوى كرى : انضم ولبأ ، واللبال : الفساد . (٢) ولم يترك بالهيئة أحداً من أهل العراق ، تاجراً
 ولا غير تاجر ، وأمرهم أن يخرجوا ، وجس بعضهم وحالهم ، ثم يثبهم في جوامع إلى الحجاج بن يوسف .
 (٣) عضل به الأمر وأعضل : اشتد ، وأعضله أيضاً . (٤) وجف يجف وجيفا : اضطرب .
 والوجيف : ضرب من سبر الخيل والإبل . (٥) الطائل والطائلة والطلول : الفضل والقدرة .
 (٦) الأميران : الفقر والحرم ، وهو كتابة عن اشتداد الأمر . (٧) أضلوا : من نزل الأديم
 كفرح : فسد في البياض ، وأفضله : أفسده . (٨) الداحجة مثل اللداجة وداحجه عليه : واقفه .
 (٩) يرهبه الحجاج بن يوسف .

فَبَسَطَ عَلَيْهِمُ السَّيْفَ وَأَخَافَهُمْ ، فَاسْتَغَامُوا لَهُ ، أَحْبَبُوا أَوْ كَرَهُوا ، وَذَلِكَ أَنَّهُ خَبَرَهُمْ وَعَرَّفَهُمْ .

أيها الناس : إنا والله ما رأينا شِعَاراً قَطُّ مِثْلَ الْأَمْنِ ، وَلَا رَأَيْنَا حِلِيّاً ^(١) قَطُّ شَرّاً مِنْ الْخَوْفِ ، فَالْزَمُوا الطَّاعَةَ ، فَإِنَّ عَدُوَّ بَهِلِ الْمَدِينَةِ خَيْرَةٌ مِنْ اخْتِلَافِ ، وَاللَّهِ مَا أَنْتُمْ بِأَصْحَابِ قِتَالٍ ، فَكُونُوا مِنْ أَهْلِ بَيْتِكُمْ ، وَخَصُّوا عَلَى الْفَوَاحِشِ ، فَإِنِّي قَدْ بَشَّرْتُ فِي مَجَالِكُمْ مِنْ يَسَعَ فَيَلْتَقِي عَنْكُمْ ، إِنَّكُمْ فِي نُصُولِ كَلَامٍ غَيْرِهِ الْزَمْتُ لَكُمْ ، فَذَهَبُوا عَيْنَ الْوَلَاةِ ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِنَّمَا يُنْقَضُ شَيْئاً شَيْئاً حَتَّى تَكُونَ الْفِتْنَةُ ، وَإِنَّ الْفِتْنَةَ مِنَ الْبَلَاءِ ، وَالْفِتْنُ تَذْهَبُ بِالَّذِينَ وَالْمَالُ وَالْوَلَدُ .
(تاريخ الطبري ٨ : ٩٢)

٣٠٥ - وصية يزيد بن المهلب لابنه محمد (قتل سنة ١٠٢ هـ)

وَمَا وَلِيَّ يَزِيدَ بْنِ الْمُهَلَّبِ خُرَاسَانَ فِي عَهْدِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَتَحَ جُرْجَانَ ^(٢) وَطَبَرِسْتَانَ ^(٣) (سنة ٩٨) ، وَقَدْ أَوْصَى ابْنَهُ مُحَمَّدًا حِينَ اسْتَخْلَفَهُ عَلَى جُرْجَانَ ، فَقَالَ :

« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي قَدْ اسْتَخْلَفْتُكَ عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ ، فَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْيَمَنِ ، فَكُنْ لَهُمْ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِذَا كُنْتَ مُرْتَادَ الرِّجَالِ لِنَفْسِهِمْ .

فَرِشْ وَأَصْطَلِخْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرْبِي ^(٤)

وَانْظُرْ هَذَا الْحَيَّ مِنْ رُبْعَةٍ ، فَإِنَّهُمْ شَيْعَتُكَ وَأَنْصَارُكَ ، فَاقْضِ حَقَّوْقَهُمْ ، وَانْظُرْ هَذَا

(١) الخلس : سباط البيت ، وكساه على ظهر الجبر تحت رحله ، والمراد : ما رأينا مركباً شراً من الخوف ، وفلان جلس من أحلاس البيت : لقي لايروح البيت . (٢) في الجنوب الشرقي من بحر قزوين . (٣) جنوبي بحر قزوين . (٤) واش السهم يرش : ألزق عليه الريش ، وراش الصديق : أطعمه رصفاه وكساه وأصلح حاله ونفسه ، وأصلطع عنه : صنمته : اتخذها ، والبيت لأبي ذؤاد الإبادي .

الحى من تميم ، فامطروهم^(١) ، ولا تزده^(٢) لهم ، ولا تؤذيتهم فيطعموا ، ولا تقصمهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحى من قيس ، فإنهم أكفاه قومك في الجاهلية ، ومُناسِفُوم النابى في الإسلام ، وريضاء منك البشُر .

يا بنى : إن لأبيك صنائعَ فلا تُفسيدها ، فإنه كفى بالمرءَ نفاقاً أن يهْدِمَ ما بَقِيَ أبوه ، وإياك والسماءَ فإنها لا بَغِيَّةَ معها ، وإياك والأعراسَ ، فإن الحرَّ لا يُرضيه من عِرْضه عِوَضٌ ، وإياك وضربَ الأَبْشارِ ، فإنه عارٌ باقٍ ، وَوَتْرٌ مطلوبٌ ، واستعملْ على النجدة والفضل دون الموتى ، ولا تمزِلْ إلا عن عِجْزٍ أو خيانة ، ولا يَمْنَعُكَ من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه ، فإنك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صَنِيعُكَ عند من يكافئك عنه ، احمل الناس على أحسن أدَبِكَ يَكْفُوكَ أنفسهم ، وإذا كتبتَ كتاباً فأكثرِ النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يَفْقَهُ عَنِي وعنك ، فإن كتاب الرجل موضعُ عقله ، ورسوله موضعُ سيره ، وأستودعك الله ، فلا بد للمودع أن يسكت ، وللشعاع أن يرجع ، وما عَفَّ من اللطع ، وقل من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك ، وكذلك سَلَكَ هذا السَلَكُ الحمود .

(شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ١٥٥ ، وبلوغ الأرب ٣ : ١٧٣)

(١) مطروهم السماء : أصابتهم بالطر ، ومطروهم بخير : أصابهم وما طر منه خيراً — وبخير . :

لى ما أصابه من خير .

(٢) تزدهو : فكبروا وانهى ، زهى كنى ، وكما قليلة .

٣٠٦ - نصيحة عمر بن هبيرة لبعض بنيهِ

وقال عمر بن هُبَيْرَةَ^(١) يُوذَّبُ بعض بنيهِ :

« لا تكونَنَّ أول مُشِيرٍ ، وإياكَ والهُوَى والرأى القَطِيرَ^(٢) ، وتجنب ارتجال الكلام ، ولا تُشِرْ على مُنْبَذٍ ، ولا على وَغْدٍ ، ولا على مُتَلَوِّنٍ ، ولا على لَجُوجٍ ، وَخَفِ اللَّهَ في مُوَافَقَةِ هَوَى المُشِيرِ ، فإن التماس موافقته لُؤْمٌ ، وسوء الاستماع منه خِيَانَةٌ . »

وقال : « من كثر كلامه كثر سَقَطُهُ ، ومن ساء حُلُقُهُ قلَّ صَدِيقُهُ . »

(البيان والتبيين ٢ : ٩٨)

(١) هو عمر بن هبيرة القنزاري ، وكان معلماً على الجزيرة لعمر بن عبد العزيز ، وولي العراق (وأضيفت إليه غراسان) يزيد بن عبد الملك . (٢) كل شيء أمجسته من إدراكه فهو قطير - والسجين القطير : ضد التميز : أي الذي لم يختص - وكان عبد الله بن وهب الراسبي أمير الخوارج يقول : نموذ بالله من قرأى البعري - والبعري بالضمريك وتسكن الباء : الذي يعرض من بعد وقوع الشيء - ولا تقل بعري فبعضين فإنه من لحن الحديثين . »

خطب خالد بن عبد الله القسري^(١)

(توفي سنة ١٢٦هـ)

٣٠٧ - خطبته بركة يدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة

خطب خالد بن عبد الله القسري بركة ، فقال :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّكُمْ بِأَعْظَمَ بِلَادِ اللَّهِ حُرْمَةً ، وَهِيَ الَّتِي اخْتَارَ اللَّهُ مِنْ الْبِلَادِ أَنْ يَضَعَهَا بِهَا بَيْتَهُ ، ثُمَّ كَتَبَ عَلَى عِبَادِهِ حِجَّتَهُ ، مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، أَيُّهَا النَّاسُ : فَمَلِكُكُمْ بِالطَّاعَةِ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّبُهَاتِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَا أَوْتَى بِأَحَدٍ يَطْعُنَ عَلَى إِمَامِهِ إِلَّا صَلَبْتُهُ فِي الْحَرَمِ ، إِنْ اللَّهُ جَعَلَ الْخِلَافَةَ مِنْهُ بِالْمَوْضِعِ الَّذِي جَعَلَهَا ، فَسَلُّوا وَأَطِيعُوا ، وَلَا تَقُولُوا كَيْتَ وَكَيْتَ ، إِنَّهُ لَا رَأْيَ فِيمَا كَتَبَ بِهِ الْخَلِيفَةُ أَوْ رَأَى إِلَّا إِمْنًاؤُهُ ، وَاعْلَمُوا أَنَّهُ بَلَّغُنِي أَنْ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْخِلَافِ يَقْدَمُونَ عَلَيْكُمْ ، وَيَقِيمُونَ فِي بِلَادِكُمْ ، فَإِيَّاكُمْ أَنْ تُنْزِلُوا أَحَدًا مِنْ تَطْعُونُ أَنَّهُ زَائِعٌ عَنِ الْجَمَاعَةِ ، فَإِنَّهُ لَا أَجَدَ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي مَنْزِلٍ أَحَدٍ مِنْكُمْ إِلَّا هَدَمْتُ مَنْزِلَهُ ، فَانْظُرُوا مَنْ تُنْزِلُونَ فِي مَنَازِلِكُمْ ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالطَّاعَةِ ، فَإِنَّ الْفُرْقَةَ هِيَ الْبَلَاءُ الْعَظِيمُ » .

وَسَمِعَ يَوْمًا يَقُولُ : « وَاللَّهِ لَوْ أَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْوَحْشَ الَّتِي تَأْمَنُ فِي الْحَرَمِ لَوْ نَطَقَتْ

(١) ولادة الوليد بن عبد الملك سنة ٨٩هـ ، وولي المراقبة في عهد هشام بن عبد الملك ، وكانت أمه نصرانية ، قالوا وكان يتم في دينه ، وهو من خطباء العرب المعبودين المشهورين بالفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٢٦هـ .

لم تَقِرَّ بالطاعة ، لأخرجتها من الحرم ، إنه لا يسكن حَرَمُ الله وأُمنته يخالف للعبادة زائر^(١) عليهم .
(تاريخ الطبري ٨ : ٨٠)

٣٠٨ - خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد

ومن غلَّوه أنه خطب على منبر مكة ، فقال :

« أيها الناس ، أيُّها أعظم ؟ أخليفةُ الرجل على أهله ، أمُ رسولِهِ إليهم ؟ والله لو لم تسلموا فضلَ الخليفة إلا أن إبراهيم خليلَ الرحمن استسقى رَبَّهُ ، فسقاه مِلْحًا أجابًا ، واستسقاه الخليفة فسقاه عَذْبًا فَرَاتًا^(٢) » يعنى بِرَّاً حفرها الوليد بن عبد الملك بالثَنِيَّتَيْنِ : ثَنِيَّة طُوًى ، وثَنِيَّة الحُجُوجِ^(٣) ، فكان يُنْقَلُ ماؤها ، فيوضع في حَوْضٍ من أَدَمٍ إلى جنب زمزم ، ليعرف فضلُه على زمزم .

(تاريخ الطبري ٨ : ٦٧ ، وشرح الطبري ص ٢٠٥ والأغاني ١٩ : ٦٠)

٣٠٩ - خطبته بمكة في الحجاج

وصَعدَ خالد اللبني في يوم جمعة - وهو على مكة - فذكر الحجاج - فحمد طاعته ، وأثنى عليه خيراً ، فلما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك ، يأمره فيه بِشَرِّ الحجاج ونَذْرٍ عيوبه ، وإظهار البراءة منه . فصعد اللبني ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إن إبليسَ كان مَلَكًا من الملائكة ، وكان يُظهِرُ من طاعة الله ما كانت الملائكة تَرى له به فضلاً ، وكان الله قد عَلِمَ من غِيْثِهِ وَخَبِيْثَتِهِ ما خَفِيَ على ملائِكَتِهِ ،

(١) زرى طيه : عابه . (٢) ماء أجاج : ملح مر ، والقرات : الماء العذب جدا .

(٣) ذو طوى مثلث القلاع ويحيط بموضع قرب مكة ، والحجون : جبل مشرف بمكة . وفي شرح

الطبري أنه قال : « قد جئكم بماء العذبة ، لا تشبه ماء أم الحناص » يعنى زمزما .

فلما أراد الله فضيحتة أسرته بالسجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يُخفيه عنهم ، فلمنوه ، وإن الحجاج كان يُظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غشه وخبيثه على ما خفي علينا ، فلما أراد الله فضيحتة أجبرني ذلك على يدى أمير المؤمنين ، فلمنه ، فالتنوه لعنه الله « ثم نزل .

(لقد القرية ٢ : ١٥٨ - ٢ : ١١)

٣١٠ - خطبة له في الحث على مكارم الأخلاق

وقام على المنبر بواسط ، حمد الله ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس ، نافسوا في المكارم ، وسارعوا إلى النجاة ، واشتروا الحد بالحدود ، ولا تكسبوا بالمظلم دما ، ولا تمتدوا بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة فلم يبلغ شكرها ، فافقه أحسن لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . واعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من الله عليكم ، فلا تملأوا النعم فتحوّلوا نفعاً . واعلموا أن أفضل المال ما أكسب أجرا ، وأورث ذكرا ، ولورايم المعروف رجلا رأيتوه حسنا جيلا يسر الناظرين ، ولورايم البخل رجلا رأيتوه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتنفى عنه الأبصار .

أيها الناس ، إن أجود الناس من أعطى من لا يرجو ، وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدرته ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ، ومن لم يطلب حرمته ، لم يترك نبتة ، والأصول عن متفارسها تنمو ، وبأصولها تنمو . أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم . (صبح الأمي ١ : ٢٢٢ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٥٥ ، وشرح البيون ص ٢٠٥)

٣١١ - خطبة له يوم عيد

حسب فذكر الله وَجَلَّاهُ ، ثم قال :

« كُنْتَ كَذَلِكَ مَا شِئْتَ أَنْ تَكُونَ ، لَا يَنْظُرُ كَيْفَ أَنْتَ إِلَّا أَنْتَ ، ثُمَّ ارْتَأَيْتَ أَنْ تَخْلُقَ الْخَلْقَ ، فَلَا جُنْتَ بِهِ مِنْ عَجَائِبِ صُنْعِكَ ؟ وَالْكَبِيرُ وَالْعَصِيرُ مِنْ خَلْقِكَ ، وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ مِنْ ذَرِّكَ ، مِنْ صُنُوفِ أَفْوَاجِهِ ^(١) ، وَأَفْرَادِهِ وَأَزْوَاجِهِ ، كَيْفَ أَدَجَيْتَ ^(٢) قَوَائِمَ الدَّرَّةِ وَالْبَعُوضَةِ ، إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، مِنَ الْأَشْبَاحِ ، الَّتِي امْتَزَجَتْ بِالْأَرْوَاحِ » .

(حيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٦)

٣١٢ - قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه

وَكُنْ خَالِدٌ إِذَا تَكَلَّمَ يَظُنُّ النَّاسُ أَنَّهُ يَصْنَعُ الْكَلَامَ ، لِمَذُوبَةٍ لِقْفَلِهِ ، وَبِلَاغَةِ مَنْطِقِهِ ، فَبَيْنَا هُوَ يَخْطُبُ يَوْمًا إِذْ سَقَطَتْ جَرَادَةٌ عَلَى ثَوْبِهِ ، فَقَالَ :

« سَبْحَانَ مَنْ الْجَرَادَةُ مِنْ خَلْقِهِ ، أَدْمَجَ قَوَائِمَهَا ، وَطَوَّعَهَا جَنَاحَهَا ، وَوَوَّشَى ^(٣) جِلْدَهَا ، وَسَلَّطَهَا عَلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا » .

(حيون الأخبار ٢م : ص ٢٤٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦٣)

٣١٣ - خطبة يوسف بن عمر الثقفي ^(٤) (قتل سنة ١٢٧ هـ)

قام خطيباً ، فقال :

اتَّقُوا اللَّهَ عِبَادَ اللَّهِ ، فَكُم مِّنْ مُّؤْمِلٍ أَمَلَا لَا يَبْلُغُهُ ، وَجَامِعٌ مَّالًا لَا يَأْكُلُهُ ، وَمَانِعٌ عَمَّا سَوْفَ يَتْرَكُهُ ، وَلَهُ مِنْ بَاطِلٍ حِمْمَةٌ ، وَمِنْ حَقٍّ مَّتَمَّةٌ ، أَصَابَهُ حَرَامًا ، وَأُورِثَهُ

(١) جمع فوج كشمس ، وهو الجماعة . (٢) من أدمج الليل : أسكّم ظله في رقة .

(٣) نقش ونظم وزين . (٤) هو ابن ابن عم الحجاج ، وولاه هشام بن عبد الملك حين سنة ١٠٦ هـ

م وولاه القراق سنة ١٢٠ هـ بعد عزل خالد بن عبد الله القسري ، وقتل سنة ١٢٧ هـ .

مَدُّوْا ، فَاحْتَمِلْ إِصْرَهُ ^(١) ، وِبَاءَ بِيْزْرِهِ ، وَوَرَدَ عَلَى رَبِّهِ أَسْفًا لَاهِفًا ، قَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ ، ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

(المقتطف : ٢ : ١٥٨ ، والبيان والتبيين : ٢ : ٧١ ، ونهاية الأرب : ٧ : ٢٥٥)

٣١٤ — خطبة يوسف بن عمر

ولما قتل يوسف بن عمر زيد بن علي سنة ١٢٢ هـ أقبل حتى دخل الكوفة فصعد
المنبر فقال :

« يَا أَهْلَ الْمَدْرَةِ الْخَبِيْثَةِ : إِنِّي وَاللهَ مَا تَقَرَّنَ بِي الصُّبَّةُ ، وَلَا يَقْمَعُ لِي الشَّتَانُ ، وَلَا
أَخَوْفُ بِالذُّبِّ ، هَيْهَاتَ ! حُبَيْتُ بِالسَّاعِدِ الْأَشَدِّ .

أَبَشِّرُوا يَا أَهْلَ الْكُوفَةِ بِالصَّغَارِ وَالْهَوَانِ ، لَا عَطَاءَ لَكُمْ مَعْدُنَا وَلَا رِزْقَ ، وَلَقَدْ هَمَمْتُ
أَنْ أَخْرَبَ بِلَادَكُمْ وَدُورَكُمْ ، وَأَحْرَمَكُمْ أَمْوَالَكُمْ ، أَمَّا وَاللهَ مَا هَلَوْتُ مَنِيْرِي إِلَّا أَسْمَعْتُكُمْ
مَا تَسْكُرْهُونَ عَلَيْهِ ، فَإِنَّكُمْ أَهْلَ بَنِي وَخْلَافٍ ، مَا مِنْكُمْ إِلَّا مَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ إِلَّا
حَكِيمٌ بِنَ شَرِيكِ الْخَارِجِيِّ ، وَلَقَدْ سَأَلْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَأْذَنَ لِي فِيكُمْ ، وَلَوْ أَذِنَ لَقُتِلْتُ
مَقَاتِلَتَكُمْ وَسَبَّيْتُ ذُرَارِيَكُمْ » .

(تاريخ الطبري : ٨ : ٢٧٨)

خطب الفتن والأحداث

فتنة المدينة ووقعة الحرّة

٣١٥ — خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري

وقد علم بقدم جيش الشام إلى المدينة (قتل سنة ٦٣ هـ)

لما كره أهل المدينة خلافة يزيد بن معاوية ، وبايعوا عبد الله بن حنظلة الأنصاري على خليفته ، ووَثَّبوا على من كان بالمدينة من بني أمية وحصرهم وأخافهم ، وجّه إليهم يزيد جيشاً من أهل الشام بقيادة مُسْلِم بن عُقبة الرُّمِّي ، ونمى إليهم خيراً مُقَدِّمِهِ عليهم ، فجتمع عبد الله بن حنظلة ، فقال : « تبايستني على الموت ، وإلا فلا حاجة في بيعتكم » فبايئوه على الموت ، ثم صعد المنبر : فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنما خرجتم غَضَبًا لديكم ، فأبُلُوا إلى الله بلاءً حسنًا ، ليُوجِبَ لكم به الجنةَ وَتُفَرِّتَهُ ، وَيُحِلَّ بِكُمْ رِضْوَانَهُ ، وَاسْتَمِدُّوا بِأَحْسَنِ عُدَّتِكُمْ ، وَتَأَهَّبُوا بِأَكْلِ أَهْبَتِكُمْ ، فَقَدْ أَخْبِرْتُ أَنَّ الْقَوْمَ نَزَلُوا بِذِي غُصْبٍ ^(١) وَمَعَهُمْ مَرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ ، وَاللَّهُ إِنْ شَاءَ مُهْلِكُهُ بِنَقْضِهِ الْمَهْدَ وَالْمِثَاقَ عِنْدَ مَنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ^(٢) . »

(١) ذو غصب : واد على مسيرة ليلة من المدينة . (٢) وذلك أن أهل المدينة كانوا قد أخرجوا مروان بن الحكم وكبراء بني أمية من المدينة ، وحلفوهم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن يلقوا جيش يزيد ليردوهم منهم إن استطاعوا ، فإن لم يستطيعوا مضوا إلى الشام ، ولم يرجعوا معهم ، فحلفوا لهم على ذلك .

فصاح الناس ، وجعلوا يناقون منه ويسبونه ، فقال لهم : « إن الشتم ليس بشيء ،
تصدّقهم القاء ، والله ما صدّق قوم قط إلا نصبروا » ، ثم رفع يديه إلى السماء ، وقال :
« اللهم إنا بك واثقون ، وعليك متوكلون ، وإليك ألبأنا ظهورنا » ثم نزل .
(الإمامة والسياسة ١ : ١٥٤)

٣١٦ - خطبة مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام

وأقبل مسلم يمشي إلى المدينة ، فحاصرها من جهة الحرة^(١) ، ودعا أهلها إلى الطاعة
وصراحة الحق ، وأجلهم ثلاثاً فلم يذعنوا لقوله ، ونشبت الحرب بين الفريقين ، وحملت
خيل ابن حنظلة على أهل الشام فأنكشفوا ، وقُتِلَ صاحب رايهم ، فأخذ مسلمُ
الراية ، ونادى :

« يا أهل الشام . أهذا القتالُ قتال قوم يريدون أن يذفوا به عن دينهم ؟ وأن
يُعزّوا به نصر إمامهم ؟ فبجّ الله قتالكم منذ اليوم ، ما أوجمته لقلبي ، وأغيظته لنفسى !
أما والله ما جزاؤكم عليه إلا أن تحرّموا الطّاء ، وأن تجرّوا في أقاصي النفود ، شدّوا مع
هذه الراية ، ترخّ^(٢) الله وجوهكم إن لم تعتبوا^(٣) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٧ - خطبة مسلم يحرضهم

ثم إن خيل مسلم ورجاله أقبلت نحو ابن حنظلة ورجاله حتى دَنَوْا منه ، وأخذ مسلم
يسير في أهل الشام ويحرضهم ، ويقول :

« يا أهل الشام ، إنكم لستم بأفضل العرب في أحسابها ولا أنسابها ، ولا أكثرها

(١) الحرة : أرض يظهر المدينة بها حجارة سود كبيرة . (٢) ترح ترحا كفرح فرحاً : حزن ،
وترحه ترحباً : أحزنه . (٣) أجهه : أعطاه العتبي (كقري) وهي الرضا ، أي إن لم ترضوا
بصدقكم القتال .

عَدَدًا ، وَلَا أَوْسَعِيَا بَلَدًا ، وَلَمْ يَخْصُفْكُمْ اللَّهُ بِالَّذِي خَصَّكُمْ بِهِ مِنَ النَّصْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، وَحُسْنِ الْمَرْثَةِ عِنْدَ أَعْيُنِكُمْ ، إِلَّا بِطَاعَتِكُمْ وَاسْتِقَامَتِكُمْ ، وَإِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ وَأَشْبَاهَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ غَيْرُوا ، فَغَيِّرَ اللَّهُ بِهِمْ ، فَتِمُّوا^(١) عَلَى أَحْسَنِ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، يَتِمُّمَ اللَّهُ لَكُمْ أَحْسَنَ مَا يُنِيلُكُمْ مِنَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ^(٢) .
(تاريخ الطبري ٧ : ٩)

٣١٨ - خطبة ابن حنظلة يحرّض أصحابه

وَقَامَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَنْظَلَةَ فِي أَصْحَابِهِ حِينَ رَأَوْا قَدْ أَقْبَلُوا يَمْشُونَ تَحْتَ رَايَتِهِمْ ، فَقَالَ :
« يَا هَؤُلَاءِ : إِنْ عَدُوُّكُمْ قَدْ أَصَابُوا وَجْهَ الْقِتَالِ الَّذِي كَانَ يُنْبِئُ أَنْ تَقَاتِلُوهُمْ بِهِ ، وَإِنِّي قَدْ ظَنَنْتُ أَلَّا تَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً ، حَتَّى يَفْصِلَ اللَّهُ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، إِمَّا لَكُمْ وَإِمَّا عَلَيْكُمْ ، أَمَّا إِنْكُمْ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ وَدَارِ الْمَجْرَةِ ! وَاللَّهِ مَا أَظُنُّ رَبَّكُمْ أَصْبَحَ عَنْ أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْمُسْلِمِينَ بِأَرْضِي مِنْهُ عَنْكُمْ ، وَلَا عَلَى أَهْلِ بَلَدٍ مِنْ بُلْدَانِ الْعَرَبِ بِأَسْخَطَ مِنْهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقَاتِلُونَكُمْ ، إِنْ لَكُلِّ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ مِيتَةٌ هُوَ مِيتٌ بِهَا ، وَاللَّهِ مَا مِنْ مِيتَةٍ بِأَفْضَلَ مِنْ مِيتَةِ الشَّهَادَةِ ، وَقَدْ سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، فَاعْتَمِنُوهَا ، فَوَاللَّهِ مَا كَلِمًا أَرَدْتُمُوهَا وَجَدْتُمُوهَا » .

وَدَارَتِ الدَّائِرَةُ عَلَى أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، وَقَتِلَ ابْنُ حَنْظَلَةَ فِيمَنْ قَتَلَ ، وَدَخَلَ مُسْلِمُ الْمَدِينَةِ^(٣)
وَكَانَتْ وَقْعَةُ الْحَرَّةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ٦٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٧ : ١٠)

(١) تَمَّ عَلَى الْأَمْرِ وَتَمَّ عَلَيْهِ كُفْرُ ب : أَيْ اسْتَمَرَّ عَلَيْهِ . (٢) الْفَتْحُ : الْغُزْوُ وَالنَّصْرُ .

(٣) انظر ص ١٩٥ هـ

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

٣١٩ - خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه

قام عبيد الله بن زياد بن أبيه خطيباً بعد موت يزيد بن معاوية - وهو يومئذ أمير العراق - فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يَا أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، انْسُبُونِي ، فَوَاللَّهِ مَا مُهَاجِرُ أَبِي إِلَّا إِلَيْكُمْ ، وَمَا مَوْلَى إِلَّا فِيكُمْ ،
وَمَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، وَلَقَدْ وَلَيْتُكُمْ وَمَا أَحْصَى دِيوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ إِلَّا سَبْعِينَ أَلْفَ
مُقَاتِلٍ ، وَلَقَدْ أَحْصَى الْيَوْمَ دِيوانُ مُقَاتِلَتِكُمْ ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَمَا أَحْصَى دِيوانُ عُمَالِكُمْ
إِلَّا ثَمَانِينَ أَلْفًا ، وَاقْدِ أَحْصَى الْيَوْمَ مِائَةً وَأَرْبَعِينَ أَلْفًا ^(١) ، وَمَا تَرَكْتُ لَكُمْ ذَا ظِلَّةٍ ^(٢)
أَخَافُهُ عَلَيْكُمْ ، إِلَّا وَهَوِي سِجْنِكُمْ هَذَا ، وَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : يَزِيدَ بْنَ مُعَاوِيَةَ قَدْ تَوَقَّيْ
وَقَدْ اخْتَلَفَ أَهْلَ الشَّامِ ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ أَكْثَرُ النَّاسِ عَدَدًا ، وَأَعْرَضَهُ فِئَاءً ، وَاغْتَاهَ عَنْ
النَّاسِ ، وَأَوْسَعَهُ بِلَادًا ، فَاخْتَارُوا لَأَنْفُسِكُمْ رِجَالًا تَرْتَضُونَهُ لِهَيْبَتِكُمْ وَجَاهَتِكُمْ ، يُجَاهِدُ
عَدُوَكُمْ ، وَيُنْقِصُ مَظْلُومَكُمْ مِنْ ظَالِمِكُمْ ، وَيَكْفُتُ سَفَهَاءَكُمْ ، وَيَنْجِي لَكُمْ فَيْتَكُمْ ،
وَيَقْسِمُهُ فِيمَا بَيْنَكُمْ ، فَأَنَا أَوَّلُ رَاضٍ مِنْ رَضِيئِهِمْ وَتَابِعٍ ، فَإِنْ اجْتَمَعَ أَهْلُ الشَّامِ عَلَى
رَجُلٍ تَرْتَضُونَهُ ، دَخَلْتُمْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ لِلْمَلُومِ ، وَإِنْ كَرِهْتُمْ ذَلِكَ كُنْتُمْ عَلَى جِدِّيلَتِكُمْ ^(٣) »

(١) وفي البيان والتبيين : « والله لقد وليكم أبي ومما قتلتكم إلا أربعون ألفًا ، فبلغ بها ثمانين ألفًا ،
ومما خربتكم إلا ثمانون ألفًا ، وقد بلغ بها عشرين ومائة ألف ، وأنتم أوسع الناس بلادًا ، وأكثره جنودًا
وأبعد مقادًا ، وأغنى الناس عن الناس . . . الخ » . (٢) الظلة : الهمة . (٣) المجديلة : الطريقة ،
يقال : ما زال على جديلة واحدة ، أي على حال واحدة ، وطريقة واحدة .

حق تَطْلُوا حاجكم ، فإبكم إلى أحد من أهل البُلْدَان حاجةً ، وما يستغنى
الناس عنكم .

قامت خطباء أهل البصرة ، فقالوا : قد سمعنا مَقَالَكَ أيها الأمير ، وإنا والله ما نعلم
أحدًا أقوى عليك ، فهُلِمُ فَلَنُبَايِعَكَ ، فقال : لا حاجة لي في ذلك ، فاختاروا
لأنفسكم ، فأبوا عليه ، وأبى عليهم ، حتى كُرِّرُوا ذلك عليه ثلاث مرات ، فلما أبوا
بَسَطَ يده فباصوه .

فلما خرجوا من عنده جعلوا يمسحون أكفهم بالحيطان وباب الدار ، ويقولون :
ظن ابن مَرْجَانَةَ أَنَا نُؤَيِّدُ أمرنا في الفُرْقَةِ وأقام عبيد الله أميرًا غير كثير ، حتى جعل
سلطانه يَضُمُّ ، ويأمر بالأمر فلا يُقَصِّى ، وَيَرَى الرأى فيُرَدُّ عليه ، ويأمر بحبس
الخطيئ فيَحَال بين أعوانه وبينه .

(تاريخ الطبري ٧ : ١٨ ، والبيان والتهيين ٢ : ٦٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٠٥)

٣٣٠ — خطبة أخرى له

وبلغه أن سَلَمَةَ بن ذُوَيْب يدعو الناس إلى ابن الزبير ، فأمر فنودي : الصلاةُ
جامعةً ، فتجمع الناس ، فأنشأ عبيد الله يَقُصُّ أول أمره وأمره ، وما قد كان دعام
إلى من يرتضونه ، فبإيه مهم ، وقال : « وإنسك أبينم غيري ، وإنه يفتني أنسك مسختم
أكفكم بالحيطان وباب الدار ، وقلتم ما قلتم ، وإني أمر بالأمر فلا يُفْقَد ، وَيُرَدُّ على
رأبي ، ونحوال القباثل بين أعوانى وَطْلَيْتى ^(١) » ، ثم هذا سَلَمَةَ بن ذُوَيْب يدعو إلى الخلاف
عليكم ، إرادة أن يُفَرِّق جماعتكم ، ويضرب بعضكم حياة بعض بالسيف .

فقال الأحنف بن قيس والناس جميعًا نحن نأتيك بسَلَمَةَ ، فأنوته فإذا نجته قد كُفِّ
وإذا التفتي قد آنس على الراتقي ، وامتنع عليهم ، فقدموا عن ابن زياد فلم يأتوه .

(١) طلبك : ماله .

وروى أنه قال في خطبته : « يَـأْهُلُ البَصْرَةَ ، والله لقد لَبِسْنَا الْخَزْءَ وَلَيْسَتْهُ ^(١) وَالْقَيْنُ من الثياب ، حتى لقد أَجْنَأْنَا ^(٢) ذَكَ ، وَأَجْمَعْتُهُ جُلُودَنَا ، فَمَا بَنَا إِلَى أَنْ نُنْفِرَ الْحَدِيدَ ؟ يَـأْهُلُ البَصْرَةَ ، والله لو اجتمع على ذَنْبٍ عَظِيمٍ لَتَكْثُرُوهُ مَا كَثُرَتْ مَوْتُهُ » .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٠)

٣٣١ - خطبة عمرو بن حريث

ولما بايع أهلُ البصرة عبيدَ الله بن زياد - وكان خليفته على الكوفة عمرو ابن حُرَيْث - بعث وافدين من قبله إلى الكوفة : عمرو بن مِثْمَع ، وسعد بن القُرْحَاء ^(٣) التميمي ، ليُعلم أهل الكوفة ما صنع أهلُ البصرة ، ويسألانهم البيعة لابن زياد ، حتى يصطالح الناس ، فجمع الناسَ عمرو بن حريث ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« إِنْ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ قَدْ أَتَيَاكُمْ مِنْ قِبَلِ أَمِيرِكُمْ ، يَدْعُوَانَكُمْ إِلَى أَمْرِ يَجْمَعُ اللَّهُ بِهِ كَلْبَكُمْ ، وَيُصْلِحُ بِهِ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ، فَاسْمَعُوا مِنْهُمَا ، وَاقْبَلُوا عَنْهُمَا ، فَإِنَّهُمَا بِرُشْدٍ مَا أَتَيَاكُمْ » .

٣٣٢ - خطبة عمرو بن مسمع

فقام عمرو بن مِثْمَع ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وذكر أهل البصرة ، واجتمع رأيهم على تأمير عبيد الله بن زياد ، حتى يرى الناس رأيهم ، فيمن يولون عليهم وقال :

« قَدْ جِئْنَاكُمْ لِنَجْمَعَ أَمْرَنَا وَأَمْرَكُمْ ، فَيَكُونَ أَمِيرُنَا وَأَمِيرَكُمْ وَاحِدًا ، فَإِنَّمَا الْكُوفَةُ مِنَ الْبَصْرَةِ ، وَالْبَصْرَةُ مِنَ الْكُوفَةِ » .

(١) أجمعة : برد يقي . (٢) أجمع : أراحه ، وأصله من أجم القوس : ركبته فلم يركبه ففقه من تعبته ، والجمام بالفتح : الراحة . (٣) القرحاء في الأصل : الروضة في وسطها نور أبيض .

وقام ابن القرحاء ، فشكل نحوًا من كلام صاحبه ، فقام يزيد بن الحارث الشيباني فحَصَّبهما أولَ الناس ، ثم حصَّبهما الناس بعدُ ، ثم قال : أعين نيايح لابن مَرْجَانة ؟ لا ولا كرامة ! ورجع الوفد إلى البصرة ، فأعلم الناس الخبر ، فقالوا : أهل الكوفة يظلمونه ، وأنتم تُؤثِّونَه وتبايعونه ؟ فَوَثَّبَ به الناس ، فاستجار بمسعود بن عمرو الأزدي فأجاره ومنعه ، ثم خرج إلى الشَّام في خِفارة رجال من الأزدي وبكر بن وائل .
(تاريخ الطبري ٧ : ٣٠)

٣٣٣ - خطبة الأحنف بن قيس

واستخلف ابنُ زياد مسعودَ بن عمرو الأزدي على البصرة ، فقالت بنو تميم وقيس : لا نؤلي إلا رجلاً نرضاه جماعتنا ، فقال مسعود : قد استخلفني ، فلا أدع ذلك أبداً ، وبينما هو على المنبر يبائع من أمائه ، إذ رماه رجل من الخوارج قتلته ، فخرجت الأزدي إلى الخوارج ، فقتلوا منهم وجرحوا ، وطردوهم من البصرة ، وجاءهم الناس ، فقالوا لهم : تعلمون أن بني تميم يزعمون أنهم قتلوا مسعود بن عمرو ؟ فبعثت الأزدي تسأل عن ذلك ، فإذا أناس منهم يقولونه ، فاجتمعت الأزدي عند ذلك ، وازدلفوا إلى بني تميم ، وخرجت مع بني تميم قيس ، وخرج مع الأزدي بكر بن وائل ، فالتقى القوم ، واقتتلوا أشد القتال ، فقتل من الفريقين قتلى كثيرة ، فقالت لهم بنو تميم : الله الله يا معشر الأزدي في دمائنا ودمائكم ، بيننا وبينكم القرآن ، ومن شقَّ من أهل الإسلام ، فإن كانت لكم علينا بيئة أنا قتلنا صاحبكم ، فاختاروا أفضل رجل فينا ، فاقتلوه بصاحبكم ، وإن لم تكن لكم بيئة ، فإننا نحلف بالله ما قتلنا ولا أمرنا ، ولا نمل لصاحبكم قاتلاً ، وإن لم تريدوا ذلك ، فمنن ندي صاحبكم بمائة ألف درهم ، فاصطلحوا ، فأتاهم الأحنف ابن قيس ، فقال :

« يا معشر الأزدي : أنتم جِئْتُمْنَا في الدار ، وإِخْرَجْتُمْنَا عن القتال ، وقد أتيناكم

في حالكم ، لإطفاء حشيتكم^(١) ، وسَلَّ سَخِيَّتكم^(٢) ، ولكم الحكم مُرْسَلًا^(٣) ،
 قتلوا ، على أحمالنا وأموالنا ، فإنه لا يَتَمَاطَمُنَا^(٤) ذهاب شيء من أموالنا كان فيه .
 صلاح بيتنا » ، فقالوا : أَتَدُون صَاحِبَنَا عَشْرَ دِيَّاتٍ ؟ قال : هي لكم ، فانصرف الناس
 واصطلحوا^(٥) .

وروى الجاحظ وابن عبد ربه هذه الخطبة بصورة أخرى ، وهما هي ذى :

قال بعد حمد الله والثناء عليه : « بامعشر الأزدِ وَرَبِيعَة ، أنتم إخواننا في الدين
 وشركاؤنا في الصبر ، وأشقاؤنا في النسب ، وجيراننا في الدار ، ويدنا على العدو ،
 والله لأزُدُ البصرةَ أَحَبَّ إلينا من تميم الكوفة ، ولأزُد الكوفة أحب إلينا من تميم
 الشام ، فإن استَشَرَفَ شَأْنُكُمْ^(١) ، وأبَى حَسَدُ صُدُورِكُمْ ، ففى أموالنا ، وَسَمَةِ
 ! أحلامنا ، لنا ولكم سَمَةِ » .

(تاريخ الطبري ٨ : ٣١ ، والبيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥٧)

-
- (١) أى تارك المودة . من حش النار : أوقدها ، فهى ضيلة بمعنى مفعولة (وإن كانت لم ترد فى كتب
 اللغة بهذا المعنى ، لكن القياس لا يمنحها ، والوارد : الحشيشة طائفة الكلاذ) . (٢) السخينة : الخقد .
 (٣) أى مطلقا كما تشامون . (٤) تماظه : عظم عليه . (٥) واجتمع أهل البصرة على
 أن يحملوا عليهم منهم أميرا يصل بهم حتى يجتمع الناس على إمام ، فحملوا عبد الملك بن عبد الله بن عامر شهرا
 ثم حملوا عبد الله بن الحارث بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب - وهو ببة - فصل بهم شهرين ، ثم قدم
 عليهم عمر بن عبيد الله بن معمر من قبل ابن الزبير ، فكث شهرا ، ثم قدم الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة
 المعروف بالقبياع ، ثم مصعب بن الزبير ، أما أهل الكوفة فإنهم لما ردوا وفد البصرة ولوا عليهم علم
 ابن مسعود القرشي ، ثم قدم عليهم عبد الله بن يزيد الأنصاري من قبل ابن الزبير كما تقدم .
 (٦) استشرَف : انتصب ، أى زاد واستحكم ، والشتان : اليأس والكراهية .

٣٣٤ - خطبة روح بن زنباع الجذامي بالمدينة^(١)

لما نَمَى هلاك يزيد بن معاوية إلى الحُصَيْن بن نُخَيْر - وهو على حرب ابن الزبير

(١) هو روح بن زنباع سيد جذام - إحدى قبائل الحِمْيَر - وقد خلفه مسلم بن عقبة المري ، على المدينة بعد فراغه من قتال أهلها - في وقعة الحرّة - وشخصه إلى مكة لقتال ابن الزبير - وقد نزل الموت بمسلم في الطريق ، وول أمر الجيش الحسين بن نخير - ولما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثاني ، دعا حسان بن مالك ابن بحدل الكلبي - وكان على فلسطين والأردن - روح بن زنباع فاستخلفه على فلسطين ، ونزل هو والأردن فوثب نائل بن قيس الجذامي على روح ، فأخرجه من فلسطين ، وباع لابن الزبير . « الطبري ج ٧ : ص ١٢ و ٣٤ ، والأغاني ١٧ : ١١١ » ، وكان لروح اليد الطولى في ظفر مروان بن الحكم بالخلافة ، قال صاحب البقد « ج ٢ : ص ٢٥٩ » لما مات معاوية بن يزيد بايع أهل الشام كلهم ابن الزبير إلا أهل الأردن ، وباع أهل مصر - أيضا ابن الزبير ، واستخلف ابن الزبير الفضل بن قيس القهري على أهل الشام ، فلما رأى ذلك رجال بني أمية وناس من أشراف الشام ووجوههم منهم روح بن زنباع وغيره ، قال بعضهم لبعض : إن الملك كان فينا أهل الشام ، فانتقل منا إلى الحجاز لارضى بذلك ، هل لكم أن تأخذوا رجلا منا فينظر في هذا الأمر ؟ فقال : استخبروا الله ، فأتوا عمرو بن سعيد بن العاص ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا ، فجاؤا إلى خالد بن يزيد بن معاوية ، فقالوا له : ارفع رأسك لهذا الأمر ، فأروه حدثا حريصا على هذا الأمر ، فلما خرجوا من عنده قالوا : هذا حديث فأتوا مروان بن الحكم ، فقالوا : يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر ، فقال : استخبروا الله ، واسألوه أن يختار لأمة محمد صل الله عليه وسلم غيرها وأعلمها ، فقال له روح بن زنباع : إن منى أربعمائة من جذام ، فأنا أمرهم أن يتقدموا في المسجد غدا ، ومرت أنت ابنك عبد الوهيز أن يخطب الناس ويدعوهم إليك ، فإذا فعل ذلك تنادوا من جاب المسجد : صدقت صدقت ! فينظن الناس أن أمرهم واحد ، فلما اجتمع الناس قام عبده العزيز فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان ، كبير قرشي ، سيدها ، والذي نفسى بيده

لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر » فقال الجذاميون : صدقت صدقت ! فقال خالد بن يزيد : أمر دبر بليل ! فجاؤوا مروان بن الحكم . ومن أجل ذلك كان روح أثيرا عند عبد الملك بن مروان « كما يقول المبرد في السكامل ٢ : ١٢٢ » ، ويقول ابن نباتة في سرح الليون ص ١١٣ : « وكان روح بمنزلة نائب عبد الملك » ويقول صاحب البقد : « وكان روح بن زنباع وزير عبد الملك » - ٧ : ٧٠ ، ٤ : ٦ - قال ابن طباطبا في الفخرى ص ١٣٦ : « والوزارة لم تتمهذ قواعدها ؛ وتقرر قوانينها إلا في دولة بني العباس -

بمكة - انصرف بمجيئه إلى الشام ، فلما صاروا إلى المدينة ، جل أهلها يَهْتَفُونَ^(١) بهم ، ويتوعدونهم ، ويذكرون قتلام بالحرة ، فلما أكثروا من ذلك وخافوا الفتنة وهيجها ، صمد رَوْح بن زَيْنَاع الجَذَائِي عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وكان في ذلك الجيش - فقال :

« يَ أَهْلَ لِلدِينَةِ : مَا هَذَا الْإِسَاءُ^(٢) الَّتِي تُوْعِدُونَنَا ؟ إِنَّا وَاللَّهِ مَا دَعَوْنَاكُمْ إِلَى « كَلْب » لِمَا بِيَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، وَلَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ « بَلْقَيْن »^(٣) وَلَا إِلَى رَجُلٍ مِنْ « لَحْم » أَوْ « جُدَام » وَلَا غَيْرِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ ، وَلَكِنْ دَعَوْنَاكُمْ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ - يَعْنِي بَنِي أُمِيَّةٍ - ثُمَّ إِلَى طَاعَةِ يَزِيدَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ، وَعَلَى طَاعَتِهِ قَاتَلْنَاكُمْ ، فَلْيَايَا تُوْعِدُون ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّا لَا بَنَاءَ لِلطَّمْعِ وَالطَّاعُونَ ، وَفَضَّلَاتُ الْمَوْتِ وَاللَّنُونِ ، فَاشْتُمْ^(٤) ، وَمَضَى الْقَوْمُ إِلَى الشَّامِ .
(مروج الذهب ٢ : ١٠٤ ، والبيان والبيان ١ : ٢٠٨)

= فأما قبل ذلك ، فلم تكن مقننة القواعد ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الملوك أتباع وحاشية فإذا حدث أمر استشار ذوي الحسب والآراء الصائبة ، فكل منهم يجري مجرى وزير ، فلما ملك بنو العباس تفرقت قوانين الوزارة ، وصحى الوزير ووزيرا ، وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، وأول وزير وذر لأول خليفة عباسي حفص بن سليمان أبو سلة الخلال وزير السفاح . (١) يصيحون .
(٢) يقال : وعده غيراً وبه ، ووعده شراً وبه - ومن هذا قوله تعالى :

« النَّارُ وَعْدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَبْسُ الْمَصِيرُ » فإذا استقلوا الخير والشر ، قالوا في الخير وعد وفي الشر أوعده ، وقالوا أوعده غيراً وشراً بالآلث أيضاً ، وأدخلوا الباء مع الألف في الشر خاصة ، فقالوا أوعده بالسجن ونحوه . (٣) أصله بنو القَيْنِ كما قالوا : بلحاوث في بني الحارث ، ويعلم في بني العتب . قال المبرد في الكامل ٢ : ١٨٣ « وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المرة ، فإنهم يجيئون منه حلف النون التي في قواك (بنو) لقرب نخرج النون من اللام ، وذلك قواك فلان من بلحاوث ويعلم وبهجهج » أي بني الهجيم كزبير . (٤) وروى الجاحظ أن ووحاً خطب هذه الخطبة يصر إلىبيعة يزيد بن معاوية ، وفي آخرها يقول : « وعدنا إن أجبتهم وأطعتم من الموتة والقائدة ماشتم » .

٣٢٥ — خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة

ولما اجتمع الرأي على البيعة لمروان بن الحكم ، قام رَوْح بن زَيْنَباع ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أيها الناس : إنكم تذكرون عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وصُحْبَتَهُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَقَدَّمَهُ في الإسلام ، وهو كما تذكرون ، ولكن ابن عمر رجل ضئيف ، وليس بصاحب أَمْرٍ محمد الضئيف ؛ وأما ما يذكر الناس من عبد الله ابن الزبير ، وَيَدْعُونَ إليه من أمره ، فهو والله كما يذكرون ، إنه لَا بُدَّ الزبير : حَوَارِيَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَأَبْنُ أَسْمَاء بنت أبي بكر الصَّدِّيق ذات النُّطَاقَيْن ، وهو بعدُ كما تذكرون في قدمه وفضله ، ولكن ابن الزبير منافق ، قد خلع خليفَتين : يزيد وابنته معاوية بن يزيد ، وَسَقَّ الدِّمَاء ، وشقَّ عَصَا المسلمين ، وليس صاحب أَمْرٍ محمد صلى الله عليه وسلم للناقص ؛ وأما مروان بن الحكم ، فوالله ما كان في الإسلام صَدْعٌ قَطُّ ، إِلَّا كَانَ مروان مِمَّنْ يَشْعَبُ ^(١) ذَلِكَ الصَّدْع ، وهو الذي قَاتَلَ عن أمير المؤمنين عثمان بن عفَّان يوم الحار ^(٢) ، والذي قَاتَلَ علي بن أبي طالب يوم الجمل ، وإنا نرى للناس أن يُبَايِعُوا الكبير ، وَيَسْتَشِيرُوا ^(٣) الصَّغِير — يعني بالكبير مروان بن الحكم ، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية — » .

فأجمع رأي الناس على البيعة لمروان . ثم لخَّاه بن يزيد من بعده ، ثم لعمر بن

سميد بن الحارث من بعد خالد . (تاريخ الطبري ٧ : ٣٨) .

(١) يصلح . (٢) يوم تسور الحارث عليه داره وقتلوه . (٣) يفتظرونه حتى يشب .

٣٣٦ — خطبة الغضبان بن القبصري يحض على قتل الحجاج

لما هلك بشر بن مروان ، وَوَلَّى الحجاج العراق ، بلغ ذلك أهل العراق ، فقام الغضبان بن القبصري الشيباني بالمسجد الجامع بالكوفة خطيباً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« يا أهل العراق ، ويا أهل الكوفة ، إن عبد الملك قد وُلِّيَ عليكم من لا يقبل من تحسُّنكم ، ولا يتجاوز عن مُسيئكم ، الظَّالِمُ النَّشُومُ ^(١) الحَجَّاجُ ، ألا وإن لكم من عبد الملك منزلةً ، بما كان منكم من خِذلان مُصَنَّبٍ ^(٢) وَقَتْلِهِ ، فاعترضوا هذا الخبيث في الطريق فاقتلوه ، فإن ذلك لا يُعَدُّ منكم خُلماً ، فإنه متى يملُ على مَن منكم ، وصدر سَريركم ، وقاعة قصركم ، ثم قتلتموه عُدَّ خُلماً ، فأطيعوني وتقدَّوا به ، قبل أن يقتلني بكم » .

فقال له أهل الكوفة : « جَبْنْتَ يَا غَضْبَانُ » بل ننظر سيرته ، فإن رأينا مُنْكَرًا غَيْرَ نَاهٍ قال : ستملون ، فلما قَدِمَ الحجاج الكوفة بلغته مقاتله ، فأمر به ، فأقام في حبسه ثلاث سنين .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٦)

(١) الظلوم . (٢) وذلك أن مصعب بن الزبير لما كان على العراق حج سنة ٧١ ، تقدم هل أخيه عبد الله بن الزبير ، ومعه وجوه أهل العراق ، وسأله أن يعطيهم ، فأبى وقبض يده ، فلما حرمهم ابن الزبير ماعنده فسدت قلوبهم ، فراسلوا عبد الملك بن مروان ، حتى خرج إلى مصعب وقتله ، فاهو إلا أن التوا حتى حولوا وجوههم ، وصاروا إلى عبد الملك ، وبقى مصعب في شرمة قليلة ، فجاهد عبد الله ابن ظبيان — وكان مع مصعب — فقال : أين الناس أيها الأمير ؟ فقال : قد غدرتم يا أهل العراق ! فرجع عبد الله السيف ليضرب مصعباً ، فبدره مصعب فضربه بالسيف على البيضة ، فقتب السيف في البيضة ، فجاهد غلام لعبد الله بن ظبيان فضرب مصعباً بالسيف قتله ، ثم جاء عبد الله برأسه إلى عبد الملك بن مروان ، فلما نظر إلى رأس مصعب خر ساجداً ، قال عبد الله بن ظبيان — وكان من فتاك العرب — ما ندمت على شيء قط ندى على عبد الملك بن مروان ، إذ أنيته برأس مصعب قنر ساجداً ، أن لا أكون ضربت عنقه ، فأكون قد قتلت ملكي العرب في يوم واحد .

٣٢٧ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وقدم مُطَرِّف بن المنيرة بن شعبة المدائن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :
 « أيها الناس : إن الأمير الحجاج أصلحه الله قد ولاني عليكم ، وأمرني بالحكم
 بالحق ، والعدل في السيرة ، فإن علمتُ بما أمرني به ، فأنا أسعد الناس ، وإن لم أفعل
 فنفسي أوبقتُ ، وحظُّ نفسي ضيَعُ ، ألا إني جالس لكم المصريين فأرضوا إلى
 حوائجكم ، وأشيروا عليّ بما يصلحكم ويصلح بلادكم ، فإني لن آلوكم خيرا ما استطعت ،
 ثم نزل .
 (تاريخ الطبري ٧ : ٢٥٩)

٣٢٨ - خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة

وفي سنة ٧٧ هـ خرج المطرف بن المنيرة بن شعبة على الحجاج وخلع عبد الملك بن
 مروان - وكان الحجاج قد استعمله على المدائن - وجمع إليه رؤوس أصحابه فذكر الله
 بما هو أهله وصلى على رسوله ثم قال لهم :

« أما بعد - فإن الله كعب الجهاد على خلقه ، وأمر بالعدل والإحسان ، وقال فيما أنزل
 علينا (وَتَمَازِنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَمَازِنُوا عَلَى الْإِنِّمِ وَالْمُدَّانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
 شَدِيدُ الْعِقَابِ) وإني أشهد الله أني قد خلعت عبد الملك بن مروان والحجاج بن يوسف ،
 فمن أحب منكم صحبتي وكان على مثل رأيي فليتابعني ، فإن له الأسوة وحسن الصحبة ،
 ومن أبى فليذهب حيث شاء ، فإني لست أحب أن يتبعني من ليست له نية في جواد
 أهل الجور ، أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى قتال الظلمة ، فإذا جمع الله لنا أمرنا
 كان هذا الأمر شوري بين المسلمين ، يرتضون لأنفسهم من أحبوا .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٦٢)

٢٢٩ — خطبة سعيد بن المجالد

خرج الجزل بن سعيد في طلب الخوارج الشيبية وأقبل حتى انتهى إلى التهران فأدركوه فلزم عسكره وخندق عليه، وجاء إليه سعيد بن المجالد حتى دخل عسكر أهل الكوفة أميراً فقام فيهم خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« يا أهل الكوفة ، إنكم قد عجزتم ووهتم وأغضبتم عليكم أميركم ، أنتم في طلب هذه الأعراب المجنفة منذ شهرين وهم قد خرّبوا بلادكم ، وكسروا خراجكم ، وأنتم حاذرون في جوف هذه الخنادق لا تزايدونها ، إلا أن يبلنكم أنهم قد ارتحلوا عنكم ونزلوا بلداً سوى بلدكم ، اخرجوا على اسم الله إليهم » فخرج وأخرج للناس معه .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢٩)

فتنة ابن الأشعث

جهز الحجاج عشرين ألف رجل من أهل الكوفة ، وعشرين ألف رجل من أهل البصرة ، لمحاربة رُئَيْبِلَ مَلِكِ التُّرْكِ^(١) ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ابن قيس الكندي ، فخرج بهم حتى قَدِمَ سِجِسْتَانَ (سنة ٨٨٠) فجمع أهلها حين قَدِمَها وخطبهم فقال :

٣٣٠ - خطبة ابن الأشعث بسجستان

صَمِدَ النَّبِيرِ ، فُحْدَ اللَّهِ ، وَأَتَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنَّ الْأَمِيرَ الْحَجَّاجَ وَلَاتِي تَفَرَّكُمْ ، وَأَمَرَنِي بِجِهَادِ هَذِهِكُمْ الْقَدَى اسْتِباحَ بِلَادَكُمْ ، وَأَيَّدَ خِيَارَكُمْ ، فَأَيَّاكُمْ أَنْ يَتَخَلَّفَ مِنْكُمْ رَجُلٌ فَيُحِلَّ بِنَفْسِهِ الْمُعُتُوبَةَ ، أَخْرُجُوا إِلَى مُقَسِّكُمْ فَصُكُّوْا بِهِ مَعَ النَّاسِ » . (تاريخ الطبري ٨ : ٤)

* * *

٣٣١ - خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج

فلما حاز من أرض رُئَيْبِلَ أَرْضًا عَظِيمَةً ، وَمَلَأَ يَدَيْهِ مِنَ الضَّائِمِ وَالْأَسْلَابِ ، حَبَسَ النَّاسَ عَنِ الْوُغُولِ فِي أَرْضِهِ ، وَقَالَ : نَكْتَفِي بِمَا أَصْدَنَاهُ الْعَامَ مِنْ بِلَادِهِمْ ، حَتَّى نَجْعِيَهَا وَنَعْرِقَهَا وَنَجْعِيَّ الْمُسْلِمُونَ عَلَى طَرَقِهَا ، ثُمَّ تَصَالَى فِي الْعَامِ الْمُقْبِلِ مَا وَرَاءَهَا ، ثُمَّ لَمْ نَزَلْ

(١) انظر ص ٢٩٢ .

نَقَضَهُمْ فِي كُلِّ عَامٍ طَائِفَةٌ مِنْ أَرْضِهِمْ ، ثُمَّ لَا تُزَالُ بِلَادُهُمْ حَتَّى يَهْلِكَهُمُ اللَّهُ ، وَكَتَبَ إِلَى الْحِجَابِ بِذَلِكَ . فَوُورِدَ عَلَيْهِ كِتَابُ الْحِجَابِ يَضْمُنُ رَأْيَهُ ، وَيَأْمُرُهُ بِالْوُغُولِ فِي أَرْضِهِمْ ، وَيَنْهَدُهُ بِالْعَزْلِ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ، فَدَعَا ابْنَ الْأَشْثَثِ النَّاسَ إِلَيْهِ .

فَحَمْدُ اللَّهِ ، وَأَتَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي لَكُمْ نَاصِحٌ ، وَلصَّلَاحِكُمْ مُحِبٌّ ، وَلَكُمْ - فِي كُلِّ مَا يُحِيطُ بِكُمْ نَفْعٌ - نَافِعٌ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ رَأْيِي فِيَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ عَدُوِّكُمْ رَأْيٌ ، أَسْتَشَرْتُ فِيهِ ذَوِي أَحْلَامِكُمْ ، وَأُولَى التَّجَرِبَةِ لِحَرْبِ مَنْكُمْ ، فَرَضُوا لَكُمْ رَأْيًا . وَرَأَوْهُ لَكُمْ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ صَلَاحًا ، وَقَدْ كَتَبْتُ إِلَى أَمِيرِكُمُ الْحِجَابِ ، فُجَاءَنِي مِنْهُ كِتَابٌ يَعْجِزُنِي وَيَضْعُفُنِي وَيَأْمُرُنِي بِتَسْجِيلِ الْوُغُولِ بِكُمْ فِي أَرْضِ الْعَدُوِّ ، وَهُوَ الْبِلَادُ الَّتِي هَلَكَ إِخْوَانُكُمْ فِيهَا بِالْأَمْسِ ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ ، أَمْضِي إِذَا مَضَيْتُمْ ، وَآبَيْ إِذَا أَبَيْتُمْ » .

فَتَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالُوا : لَا ، بَلْ نَأْتِي عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ ، وَلَا نَسْمَعُ لَهُ وَلَا نَطِيعُ .

(تَارِيخُ الطُّبَرِيِّ ٨ : ٨)

٣٣٢ - خُطْبَةُ عَامِرِ بْنِ وَائِلَةَ الْكِنَانِيِّ

فَقَامَ عَامِرُ بْنُ وَائِلَةَ الْكِنَانِيِّ - وَكَانَ أَوَّلَ مُتَكَلِّمٍ يَوْمَئِذٍ ، وَكَانَ شَاعِرًا خَطِيبًا - فَقَالَ بَعْدَ أَنْ حَمَدَ اللَّهَ ، وَأَتَى عَلَيْهِ :

« أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ الْحِجَابَ وَاللَّهَ مَا يَرَى بِكُمْ إِلَّا مَا رَأَى الْقَاتِلُ الْأَوَّلُ ، إِذْ قَالَ لِأَخِيهِ : « أَجْعَلْ عَبْدُكَ عَلَى الْفَرَسِ ، فَإِنْ هَلَكَ هَلَكْتُ ، وَإِنْ نَجَا فَهَلَكْتُ » . إِنْ الْحِجَابَ وَاللَّهَ مَا يَبَالِي أَنْ يُخَاطِرَ بِكُمْ ، فَيَقْطَعَ بِكُمْ بِلَادًا كَثِيرَةً الْهُوبِ ^(١) وَالْأَصُوبِ ^(٢) ، فَإِنْ ظَفَرْتُمْ فَغَنِمْتُمْ

(١) الْهُوبُ جَمْعُ لُحْبٍ كَعَمَلٍ ، وَهُوَ مَهْوَةٌ مَا بَيْنَ كُلِّ جَبَلَيْنِ ، أَوِ الصَّدْعُ فِي الْجَبَلِ ، أَوِ الشَّعْبُ الصَّغِيرُ فِيهِ (وَالشَّعْبُ كَعَمَلٍ : الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ) . (٢) جَمْعُ لُحْبٍ كَعَمَلٍ أَيْضًا ، وَهُوَ الشَّعْبُ الصَّغِيرُ فِي الْجَبَلِ أَصْبَقُ مِنَ الْهُوبِ وَأَوْسَعُ مِنَ الشَّعْبِ .

أكل البلاد ، وحاز للال ، وكان ذلك زيادة في سلطانه ، وإن غفر عدوكم كنتم أنذ
الأعداء البقضاء الذين لا يبالي عنهم ، ولا يثق عليهم ، اخلعوا عدو الله الحجاج ، وباعوا
عبد الرحمن ، فإنى أشهدكم أنى أول خالع .

فنادى الناس من كل جانب : فضلنا فضلنا ، قد خلعنا عدو الله .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٣ — خطبة عبد المؤمن بن شبت بن ربيع

والم عبد المؤمن بن شبت بن ربيع التميمى ثانياً ، فقال :

« عباد الله ، إنكم إن أطعتم الحجاج ، جعل هذه البلاد بلادكم ما يقيم ، وجعلكم
تجيمير فرعون الجنود ، فإنه بلغنى أنه أول من جمر البعوث ، ولن تصابنوا الأجابة فيما
أرى أو يموت أكثركم ، باعوا أميركم ، وانصرفوا إلى عدوكم ، فافضوه عن بلادكم ،
فوثب الناس إلى عبد الرحمن فباعوه .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٣٣٤ — خطبة ابن الأشعث بالمربد

ولما كانت الحرب بينه وبين الحجاج بالمربد^(١) خطب الناس ، فقال :

« أيها الناس : إنه لم يبق من عدوكم إلا كايبق من ذنب الوزغة^(٢) تضرب به
يميناً وشمالاً ، فالتبث إلا أن تموت^(٣) .

(البيان والتهجين ٢ : ٨٧ ، وتهذيب الكمال ١ : ٢١)

(١) موضع بالهيرة . (٢) الوزغة : سام أبرص ، سميت بها لثقلها وسرعة حركتها .

(٣) قال الجاحظ : فر به رجل من بني قشير فقال : « قبح الله هذا ورأيه » يأمر أصحابه بقتل الاحراس
وبعدم الأضاليل ، وبينهم البلال ، وناس كثير يرون أن ابن الأشعث هو الحسن دون القشيري .

٣٣٥ - خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق

ولما نزل ابن الأشعث بِدَيْرِ الجاحم ، واجتمع أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، وأهل الثغور وَالْمَسَاحِ^(١) بِدَيْرِ الجاحم والقرءاء من أهل المصرين ، واجتمعوا جميعاً على حرب الحجاج ، بَحَمِهِمْ عليه بُغْضُهُمْ وكرَاهِيَتُهُمْ له - وهم إذ ذاك مائة ألف مقاتل ، بمن يأخذ المطاء ، ومعهم مثلهم من مَوَالِيهِمْ ، واشتد القتال بين الفريقين ، بعث عبد الملك بن مروان ابنه عبد الله وأخاه محمداً ، وأمرهما أن يَمْرِضَا على أهل العراق تَرْجَحَ الحجاجَ عنهم ، وأن يجرى عليهم أعطياتهم ، كما تجرى على أهل الشام ، وأن ينزل ابن الأشعث أياً بلغ من العراق شاء ، يكون عليه والياً مادام حياً ، وكان عبد الملك والياً ، فمرض ذلك على أهل العراق ، فقالوا : ترجع الْمَشِيَّةُ ، فاجتمعوا عند ابن الأشعث ، فلم يبق قائد ، ولا رأس قوم ، ولا فارس إلا أناه .

حمد الله ابن الأشعث ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فقد أعطيتم أسراً ، انتهزكم اليوم إياه فُرْصَةً ، ولا آمن أن يكون على ذى الرأي عَدَا حَسْرَةً ، وإنكم اليوم على النِّصْفِ ، وإن كانوا اعتدوا بالزاوية ، فأنتم تمتدنون عليهم بيوم مُسْتَرٍّ ، فاقبلوا ما عَرَضُوا عليكم ، وأنتم أعزاهم أنفويدهم ، وللقوم لكم هانيون ، وأنتم لهم منتقصون ، فلا والله لا زلت عليهم أجراً ثاءً ، ولا زلت عندكم أعزاهم ، إن أنتم قِيلَمَ أبداً ما بقيتم . »

فوثب الناس من كل جانب ، فقالوا : إن الله قد أهلكمم ، فأصبحوا في الأُزُلِ^(٢) والضنك والجماعة والقلة والقلة ، ونحن ذوو العدد الكثير ، والسَّعْرُ الرقيق ، وللمادة القرية لا والله لا نقبل ، فأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وكان ما كان مما أسلفنا لك ذكره .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥)

(١) جمع مسلة بالفتح ، وهي الثغر . (٢) الضيق والشد .

٣٣٦ - عامر الشعبي والحجاج

وكان عامر الشعبي^(١) من خرج مع ابن الأشعث ؛ فلما أتى الحجاج بأشركى الجاهل ، أتى فيهم بالشعبى مؤثماً - وكان قد تقدم كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج فى أشركى الجاهل أن يقرضهم على السيف ، فمن أقر منهم بالكفر فى خروجهم علينا فيخلّ سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فيضرب عنقه - قال الشعبي : فلما جئت باب القصر لقيت يزيد بن أبى مسلم كاتبه ، فقال : إنا لله يا شعبي ! لما بين دفتيك من العلم ، وليس اليوم يوم شفاعة . قلت له : فما المخرج ؟ قال : بؤ^(٢) للأمير بالنزك والنفاق على نفسك ، وبالحرى أن تنجو ، ثم لقيت محمد بن الحجاج ، فقال لى مثل مقالة يزيد ، فلما دخلت على الحجاج قال لى : وأنت يا شعبي من ألب علينا مع ابن الأشعث ؟ اشهد على نفسك بالكفر . قلت : « أصالح الله الأمير ، نبأ بنا المنزل^(٣) » ، وأجذب بنا الجناب ، وأستحللنا^(٤) الخوف ، واكتحللنا السر ، وضق المساك ، وخبطنا فتنة لم نكن فيها برة أنفيا ، ولا فجرة أقويا » قال : صدقت والله ما يرزتم بخروجكم علينا ولا قويم ، خلوا سبيل الشيخ .

(مروج الذهب ٢ : ١٤٤ ، والمقد الفريد ١ : ١٥١ - ٣ : ١٢)

٣٣٧ - أيوب بن القريّة والحجاج

وكان الحجاج قد بعث أيوب بن القريّة^(٥) رسولا إلى ابن الأشعث ، حين خلع الطاعة بسجستان ، فلما دخل عليه ، قال له ، اتقوا من خطيبا ، وتخلصن عبد الملك ،

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبي (نسبة إلى شعب) وهو يطن من همدان وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم ، توفى سنة ١٠٥ هـ ، وكانت أمه من سبى جلولا .

(٢) ارجع . (٣) نيا منزله به : لم يوافق . (٤) لى لم يفارقت .

(٥) هو أبو سليمان أيوب بن زيد الحلال ، والقريّة جدته ، وكان أعرابيا أميا معدودا من جملة خطباء

العرب المشهورين بالفصاحة والبلغة .

وَلتَسْبِيحُ الحِجَابِ ، أَوْ لِأَضْرَبَنَّ عُنُقَكَ ، قَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ قَالَ : هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ ، فَقَامَ وَخَطَبَ وَخَلَعَ عَبْدَ اللَّهِ ، وَشَتَمَ الْحِجَابَ ، وَأَقَامَ هُنَاكَ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ ابْنُ الْأَشْثَمِ مَهْزُومًا ، كَتَبَ الْحِجَابُ إِلَى عُمَاةِ بَلَدِهِ وَأُصْبَهَانَ وَمَا بَيْنَهُمَا ، بِأَسْرَمِ الْأَيَّامِ يَوْمَ أَحَدٍ مِنْ قَبْلِ ابْنِ الْأَشْثَمِ إِلَّا بَشَوْا بِهِ أَسِيرًا إِلَيْهِ ، وَأَخَذَ ابْنُ الْقُرَيْبَةِ فِيمَنْ أَخَذَ .

فَلَمَّا أُدْخِلَ عَلَى الْحِجَابِ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَمَّا أَسَأَفُ ؟ قَالَ : سَلْنِي عَمَّا شِئْتَ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ ، قَالَ : أَعْلَمُ النَّاسَ بِحَقِّ وَبَاطِلِهِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْحِجَابِ ، قَالَ : أَسْرَعَ النَّاسَ إِلَى فِتْنَةٍ ، وَأَعْجَزُهُمْ فِيهَا ، قَالَ : فَأَهْلُ الشَّامِ ، قَالَ : أَطْوَعُ النَّاسَ لِمُلْفَأَتِهِمْ ، قَالَ : فَأَهْلُ مِصْرَ ، قَالَ : حَبِيدٌ لِمَنْ غَلَبَ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : نَبِطٌ ^(١) اسْتَعْرَبُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ عُحْمَانَ ، قَالَ : عَرَبٌ اسْتَنْبَطُوا ، قَالَ : فَأَهْلُ الْوَصِيلِ ، قَالَ : أَشْجَعُ فُرسَانَ ، وَأَقْتَلُ لِلْأَفْرَاقِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْبَحْرَيْنِ ، قَالَ : أَهْلُ سَمْعِ وَطَاعَةٍ ، وَلِزُومِ الْجَمَاعَةِ ، قَالَ : فَأَهْلُ الْهَيْمَةِ ، قَالَ : أَهْلُ حِفَاءٍ ، وَاخْتِلَافِ أَهْوَاءٍ ، وَأَصْبَرُ عِنْدَ الْإِقْمَاءِ ، قَالَ : فَأَهْلُ فَارِسَ ، قَالَ : أَهْلُ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَشَرٍّ عَتِيدٍ ، وَرَيْفٌ ^(٢) كَبِيرٌ ، وَقَرِيٌّ سِيرٌ ، قَالَ : أَخْبِرْنِي عَنْ الْعَرَبِ ، قَالَ : سَنَانِي ، قَالَ : قَرِيْشٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أَحْلَاجًا ، وَأَكْرَمُهَا مَقَامًا ، قَالَ : فَبَنُو عَاصِمِ بْنِ صَعْمَةَ ، قَالَ : أَطْوَلُهَا رِمَاحًا ، وَأَكْرَمُهَا صَبَاحًا ، قَالَ : فَبَنُو سُلَيْمٍ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا مَجَالِسَ ، وَأَكْرَمُهَا تَحَابِسَ ^(٣) ، قَالَ : فَتَقِيْفٌ ، قَالَ : أَكْرَمُهَا جُدُودًا ، وَأَكْثَرُهَا وَفُودًا ، قَالَ : فَبَنُو زُبَيْدٍ ، قَالَ : أَلْزَمُهَا لِلرَّايَاتِ ، وَأَدْرَكُهَا لِلرَّيَاتِ ^(٤) ، قَالَ : فَفَضَّاعَةٌ ، قَالَ : أَعْظَمُهَا أخطَارًا ، وَأَكْرَمُهَا نِجَارًا ^(٥) ، وَأَبْجَدُهَا آثَارًا ، قَالَ : فَلَا نِصَارَ ، قَالَ : أَتْبَتْهَا مَقَامًا ، وَأَحْسَنُهَا إِسْلَامًا ، وَأَكْرَمُهَا أَيْامًا ، قَالَ : فَتَقْسِيمٌ ، قَالَ : أَظْهَرُهَا جَلَدًا ، وَأَنْزَلُهَا عَدَدًا ،

(١) النبط : جيل من الناس ، كانوا ينزلون سواد العراق . (٢) الريف : أرض فيها زرع وخصيب .

(٣) المحابيس : جمع محبس كقعد ، وهو الشجاعة . (٤) القترات جمع قرة : وهي الثأر .

(٥) النجار : الأصل .

قال : قَبِكر بن وائل ، قال : أثبتُّها صفوطا ، وأحدُّها سيوطا ، قال : فعبد القَيْس ، قال : أسبقُها إلى النايات ، وأصبرُها تحت الرّايات ، قال : فبنو أسد ، قال : أهل عدَد وجَدَد وعُسْر ونَكَد ، قال : فَلَنَحْم ، قال : مُلُوك ، وفيهم نُوك^(١) ، قال : فَجَذام ، قال : يُوقِدُون الحرب وَيَسْرُونها^(٢) ، وَيُلْقِيُونها ثُمَّ يَمْرُونها^(٣) ، قال : فبنو الحارث قال رُعاةً لِقَدِيم ، ومُهاة من الحَرِيم ، قال : فَمَكَم ، قال : لُيُوثُ جَاهِدَة ، في قُلوْبٍ فاسدة قال : فَتَغْلِب ، قال : يَصْدُقُون - إذا لَقُوا - ضَرْبًا ، وَيَسْرُونَ للأعداء حربًا ، قال : فَنَسَان ، قال : أكرمُ العرب أحسابا ، وأثبتُّها أنسابا ، قال : فأى العرب في الجاهلية كانت أمتَع من أن تُصَام ؟ قال قريش ، كانوا أهل رَهْوَة^(٤) لا يَسْتَطَاع ارتقاؤها . وَهَضْبَة لا يَرَامُ انْتزاؤها^(٥) ، في بلدة حَتَّى أَفْه ذِمَارها ، ومنع جَارها ، قال : فأخبرني عن ما آثر العرب في الجاهلية ، قال : كانت العرب تقول : حَيَّرَ أَرْبابَ الْمَلِك ، وَكِنْدَة لُبَابِ الْمُلُوك ، وَمَذْحِجُ أَهْلِ الطُّغْمَان ، وَمَهْدَانُ أَحْلَاسِ^(٦) الخليل ، والأزْد آسَادُ النَّاس ، قال : فأخبرني عن الأَرْضَيْن ، قال : سَلَى ، قال : المَند ، قال : بَحْرها دُر ، وجبيلها ياقوت ، وشجرها عُود ، وورقها عِطْر ، وأهلها طَنَام ، كَقَطْعِ الحِمَام^(٧) ، قال : فَخُرَّاسَان ، قال : ماؤُها جامد ، وعدوها جاحد ، قال : فَمَسَان ، قال : حَرَّها شديد ، وصيدها عَتِيد ، قال : فالبَحْرَيْن ، قال : كُنَاسَة بين البَصْرَيْن ، قال : ظالِمَيْن ، قال : أصلُ العرب ، وأهلُ النُّبُوتات وَالْحَسَب ، قال : فَسَكَة ، قال : رجالُها علماء جُفَاءً ، ونساؤها كِسَاءُ عُرَاةٍ ، قال : فالْمَدِينَة ، قال : رَسَخَ العلم فيها ، وظهر منها ، قال : فالْبَصْرَة ، قال : شتاؤها جَلِيد ،

(١) النوك بالضم والفتح : الحق . (٢) سر الحرب كنع ، وأسرها : أوقدها .

(٣) مرى الناقة كرم : مسح ضرعها لئلا . (٤) الرهوة : المكان المرتفع (والمنخفض أيضا ، ضد) . (٥) أى احتلّوها نزا نزوا ونزوانا : وثب ، وانتهى : اقتتل من النزوة . وفي حديث وائل بن حجر : « إن هذا انتزى على أرضي فأغلها » . (٦) كناية عن إدامتهم وكوئها .

(٧) الطغمان : أوغاد الناس ورجال الطير ، والقَطْع بالكسر : اسم ما قطع من الشيء ، ويقال : ثوب قطع وأصلح أى مقطوع ، أو هو قطع بالضم جمع قطع .

وجرحها شديد ، وماؤها مِلْح ، وحربها صَلْح ، قال : فالكوفة ، قال : ارتفعت عن حَرِّ البحر ، وَتَقَلَّتْ عن بَرْدِ الشَّام ، فطاب ليلها ، وكثُر خيرها ، قال : فواسط ، قال : جَنَّة ، بين سَحَاء وَكَنَّة ، قال : وما سَحَاءُها وَكَنَّتْها^(١) ؟ قال : البصرة والكوفة يَحْسُدُانِها ، وما ضَرَّها ، وَدَرَجَةُ الزَّاب^(٢) يتجاربان بإفاضة الخير عليها ، قال : فالشَّام ، قال : قَرُوس ، بين نسوة جُلُوس ، قال : تَكَلَّتْ أَثْلُكَ ابْنُ القِرْبَةِ ، لولا اتِّبَاعُكَ لأهل العراق ! وقد كنت أنْهَكَ عنهم أن يتبعهم ، فتأخذ من فظافهم ، ثم دعا بالسيف ، وأومأ إلى السيف أن أُنْسِكَ ، فقال ابن القِرْبَةِ : ثلاث كلمات أصلح الله الأمير كأنهن رَكْبٌ وَوُقُوف ، يَسْكُنُ مَتَلًا بَدَى ، قال : هَات ، قال : لكل جَوَادِ كِبُوءَ ، ولكل صَارِمِ نَبُوءَ ، ولكل حليم هَفُوءَ ، قال الحجاج : ليس هذا وقت الزَّاح ، يا غلام أَوْجِبْ جَرَّحَهُ ، فَضْرِبْ عَقَقَهُ .

وقيل إنه لما أراد قتله قال له : العرب تزعم أن لكل شيء آفة ، قال : صدقتِ العرب ، أصلح الله الأمير ، قال : فما آفة اللحم ؟ قال : الغضب ، قال : فما آفة العقل ؟ قال : المُجْب ، قال : فما آفة العلم ؟ قال : النسيان ، قال : فما آفة السخاء ؟ قال : اللَن عند البَلَاء^(٣) ، قال : فما آفة الكرام ؟ قال : مجاورة الثَّام ، قال : فما آفة الشجاعة ؟ قال : البنى ، قال : فما آفة العبادة ؟ قال : الفَتْرَةُ ، قال : فما آفة الدَّهْنِ ؟ قال : حديث النَّفْسِ ، قال : فما آفة الحديث ؟ قال : الكذب ، قال : فما آفة المال ؟ قال : سوء التدبير ، قال : فما آفة الكامل من الرجال ؟ قال : المُذْم ، قال : فما آفة الحجاج بن يوسف ؟ قال : أصلح الله الأمير ، لا آفةَ لِيَنَّ كَرَّمَ حَسْبُهُ ، وطالب نسيه ، وزكَّأ فرعه ، قال : امتلأتْ شِقَاقًا ، وأظهرتْ نِفَاقًا ، اضربوا عَقَقَهُ ، فلما رآه قتيلا ندم ، وكان قتله سنة ٨٤ هـ .



(١) الكفة : امرأة الابن أو الأخ . (٢) الزاب الأسفل ، والزاب الأعلى : نهيران بصبان ودجلة .

(٣) الإبلاء : الإنعام والإحسان بلوث للرجل ، وأبليت عنه بلاد حسنا ، وأبلاء الله بلاد حسنا .

وفي رواية أخرى أنه لما دخل على الحجاج ، قال له : يا ابن القرية ، ما أعددت لهذا الموقف ؟ قال : « أصلح الله الأمير ، ثلاثة حروف ، كأنهن ركبٌ وقوف ، دنيا وآخرة ومعروف ، قال : اخرج بما قلت ، قال : « أقتلُ ، أما الدنيا فالإنسان حاضر ، يأكل منه البركة والآخر ، وأما الآخرة فيزيان عادل ، وشاهدٌ ليس فيه باطل ، وأما المعروف فإن كان عليّ اعترفتُ وإن كان لي اعترفتُ^(١) » قال : أما لي فاعترف بالسيف إذا وقع بك ، قال : « أصلح الله الأمير ، أفلني عترتي وأسفني ربيقي ، فإنه لا بد للعباد من كبوة ، والسيف من نبوة ، والعليم من هفوة^(٢) ؟ قال : كلا والله حتى أوردك جهنم ، ألتست القائل برستنا يا ذئب الجذئ قبل أن يتعضا كم ؟ قال : فأرخني فإني أجد حرها ، قال : قدّمه يا حرمي فاضرب عنقه ، فلما نظر إليه يتشطح^(٣) في دمه ، قال : لو كنا تركنا ابن القرية ، حتى نسمع من كلامه ! ثم أمر به فأخرج فرمى به^(٤) .

(وفيات الأعيان ١ : ٨٢ ، والبيان والتهيين ١ : ١٨٩ ، وتاريخ الطبري ٨ : ٣٧)

٣٣٨ - كلمة لابن القرية

وقال ابن القرية : الفاس ثلاثة : عاقل ، وأحمق ، وفاجر : فالعاقل : الدين شريسته والحلم طبيعته ، والراعي الحسن سجيته ، إن سئل أجاب ، وإن نطق أصاب ، وإن سمع العلم وعي ، وإن حدث روى ؛ وأما الأحمق : فإن تكلم عجل ، وإن حدث وهل^(١) ، وإن استنزل عن رأيه نزل ، فإن جمل على القبيح حل ؛ وأما الفاجر فإن ائتمنته خانك ، وإن حدثته شاكك ، وإن وثقت به لم يتركك ، وإن استكثمت لم يسكنك ، وإن علم لم يعلم ، وإن حدث لم يفهم ، وإن فهم لم يفقه .

(زهر الآداب ٢ : ٨٦)

(١) أي وأصلبت للناس منه . (٢) وفي رواية : « فإنه ليس جواد إلا له كبوة ، ولا شجاع إلا له هبوة » والمهوبة : الغيرة . (٣) يضطرب . (٤) وروى أبو الفرج الأصبهاني أنه قيل : ثلاثة لم يكونوا قط ، ولا عرفوا : ابن أبي العقب صاحب قصيدة الملاحم ، وابن القرية ، ومجنون بنى حامر . انظر الألفاظ ج ١ ص ١٦٢ . (٥) ضعف وفتح .

فتنة يزيد بن المهلب

٣٣٩ - أيوب بن سليمان بن عبد الملك يسأل عمه الوليد

أن يؤمن يزيد بن المهلب^(١)

لما قرَّ يزيدُ بنُ المهلب من سجنِ الحجاج وعذابه (سنة ٩٠ هـ في خلافة الوليد ابن عبد الملك) نزل على أخيه سليمان متعوذاً به ، وكتب سليمان إلى الوليد يطلب له الأمان ، فكتب إليه يُقسِم أنه لا يؤمنه حتى يبعث به إليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكتب معه كتاباً ، فلما دخل به على عمه ، قال :

« يا أمير المؤمنين نفسى فداؤك ، لَا تُخْتَرِ^(٢) ذِمَّةَ أبى ، وأنتَ أَحَقُّ مَنْ مَنَعَهَا ،

(١) وغير ذلك أن الحجاج كان وقد حل عبد الملك ، فر في منصرفة بدير فزله ، ف قيل له : إن في هذا الدهر شيئاً من أهل الكتب علماً ، فدعا به وسأله : أتعلم حالاً ، من يليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع في نفسه أنه يزيد بن المهلب ، إذ كان لا يرى من هو أهل لذلك سواء ، وكان يكرهه لما يرى فيه من النجاسة ، ويخشى منه ، وكان قد ولاء غراسان بعد وفاة أبيه سنة ٨٧ ، فكتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، ويتهمهم بأنهم زبيريّة الهوى ، ويخوفه خدرهم ، وما زال به حتى أجابه إلى ماسأل ، فزول يزيد سنة ٨٥ ، وولى مكانه قتيبة بن مسلم ، وفي سنة ٨٧ حبس الحجاج يزيد وإخوته وعظيهم وأفرغهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، ف قيل له : إنه رى منشابة ، فثبت فصلها في ساقه ، فهو لا يمسا شيء إلا صاح ، فأمر أن يذب ويهدق ساقه (أى تقمز شديداً) فلما فعل به ذلك صاح - وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج - فلما سمعت صياح أخيها صاحت وناحت فطلقها ، ثم إن يزيد وإخوته أعلوا الحيلة في الفرار من سجن الحجاج (سنة ٩٠) ولحقوا بسليمان بن عبد الملك مستجيرين به ، وكتب الحجاج إلى الوليد : إن آل المهلب خانوا مال الله ، وهربوا منى ، ولحقوا بسليمان ، واستشفع سليمان أخاه الوليد ، وما زال به حتى شفعه فيه ، فلما ولى الخلافة سليمان سنة ٩٦ ولى يزيد أمر العراق ، ثم ولاء غراسان سنة ٩٧ .

(٢)

خفر به كضرب ، وأخفزه : نقص مهده وغدره .

ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا ، لئلا نكون منك ، ولا تُذِلَّ
من رجا الميز في الاقطاع لئلا ليرنا بك «
(تاريخ الطبري ٨ : ٧٣)

٣٤٠ - خطبة يزيد بين يدي الوليد

وتكلم يزيد ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ،
ثم قال :

« يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينس ذلك قلنا ناسيه ،
ومن يكفر قلنا كافريه ، وقد كان من بلاننا أهل البيت في طاعتكم ، والطعن
في أمين أهدائكم ، في المواطن المطام ، في المشرق والمغرب ، ما إن المنة علينا
فيها عظيمة . »

فأمنه الوليد وكف عنه . (تاريخ الطبري ٨ : ٧٤)

٣٤١ - خطبة مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي

عمر بن عبد العزيز

ولما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب^(١) ، أقبل ابنه مخلد من خراسان ،
ودخل على الخليفة ، حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

(١) وسبب ذلك : أن يزيد بن المهلب لما فتح جرجان وطبرستان سنة ٩٨ ، كتب بالفتح إلى سليمان
ابن عبد الملك ، وفي كتابه يقول : « وقد صار عندي من خسر ما أفاء الله على المسلمين ، بعد أن صار إلى كل
ذي حق حقه من الزه والفتنة ، ستة آلاف ألف ، وأنا حامل ذلك إلى أمير المؤمنين إن شاء الله . وقد قال
له كاتبه المغيرة بن أبي قرة : لا تكتب بتسمية مال ، فإنيك من ذلك بين أمرين ، إما استكثره فأمر بك بحمله ،
ولما سخط نفسه لك به فوضعه فتكلفت الهدية ، فلا يأتيه من قبلك شيء إلا أسقطه ، فكأن بك قد استغفرت
ما سميت ، ولم يقع منه مرقعة ، ويقي المال الذي سميت مخلدا عنهم عليك في دواوينهم ، فإن ولي وال بسطة

« إن الله يا أمير المؤمنين صَنَعَ لهذه الأمة بولايتك عليها ، فلا نكن أشقى الناس بولايتك ، عَلَامَ تَحْبِسَ هذا الشيخ ؟ أنا أحمل ما عليه ، فَصَالِحِي عَلَى مَا إِيَّاهُ نَسَأُ » فقال عمر : لَا ، إِلَّا أَنْ تَحْمِلَ جَمِيعَ مَا نَسَأَهُ إِيَّاهُ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن كانت لك بَيْدَتُهُ فخذ بها ، وإن لم تكن بَيْدَتُهُ فَصَدِّقْ مَقَالَهَ يَزِيدَ ، وإلا فاستَحْلِفْهُ ، فإن لم يفعل فَصَالِحِي ، فقال له عمر : ما أجد إلا أَخَذَهُ بِجَمِيعِ الْمَالِ .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٢٢)

= أخذك به ، وإن ول من يتحامل عليك لم يرض منك بأضعافه ، فلا تمس كتابك ، ولكن اكتب بالفتح ، وسله اللقود ، فقتلناه بما أحببت مشافهة وتقصير ، فإني إن تقصر عما أحببت أخرى من أن تكفر ، فأبي يزيدي وأضفى الكتاب ، فلما ولي عمر بن عبد العزيز (سنة ٩٩) - وكان عمر ينفذ يزيدي وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم - دعا يزيدي وسأله من تلك الأموال التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيت ، وإنما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به (والتسليم : إزالة الخمول بنشر الأكر) ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخلف بشيء سمعت به ، ولا بأمر أكرهه ، فقال له : ما أجد في أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأد ما قبلك ، فإنها حقوق المسلمين . ولا يسئ تركها ، ولم يزل يزيدي في عهده ، حتى بلغه مرض عمر ، فأخذ يعمل للهروب بخلاف يزيدي بن عبد الملك ، لأنه كان قد حذب أصحابه آل أبي عقيل (إذ كانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف أمي الحجاج بن يوسف عند يزيدي بن عبد الملك ، فولدت له ابنة الوليد) وكان يزيدي بن عبد الملك قد عاهد الله أن لا يملكه الله من يزيدي بن المهلب ، ايقطن من طابقا (يفتح الجاء وكسرهما أي مضوا) فغشى ذلك فهرب من السجن سنة ١٠١ ، ومات عمر وأفضت الخلافة إلى يزيدي بن عبد الملك ولحق ابن المهلب بالبصرة ، فقلب عليها ، وأخذ عامل يزيدي بن عبد الملك عليها (وهو عدو بن أوطاة الفزاري) فحسبه وعلع يزيدي ، فسير إليه الخليفة العباس بن الوليد بن عبد الملك ، وسلمة ابن عبد الملك لحربه فقتل ابن المهلب في أثناء المعركة سنة ١٠٢ هـ .

٣٤٢ - خطبة يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال

وقد سير يزيد بن عبد الملك العباس بن الوليد بن عبد الملك

ومسلة بن عبد الملك لقتاله

قام في أصحابه فحرضهم ورغبهم في القتال ، فكان فيما قال :

« إن هؤلاء القوم لن يردكم عن غيبتهم إلا الطعن في عيونهم ، والضرب بالمشرقية^(١) على هاميتهم ثم قل : إنه قد ذكر لي أن هذه الجردة الصفراء - يعني مسلة بن عبد الملك - وعافر ناقة ثمود^(٢) - يعني العباس بن الوليد - (وكان العباس أزرق^(٣)) أحر ، كانت أمه رومية) والله لقد كان سليمان أراد أن ينفيه ، حتى كلفته فيه ، فأقره على نسبه ، فبلغني أنه ليس ههنا إلا التماسي في الأرض ، والله لو جاءوا بأهل الأرض جميعاً ، وليس إلا أنا ، ما برحت الرصة^(٤) حتى تكون لي أولهم » ، قالوا : نخاف أن تمنيتنا^(٥)

(١) المشرقية : سيف منسوبة إلى مشارف الشام ، وهي ترمى من أرض العرب تدنمون للريف ، والهام :

جمع هامة ، وهي الرأس . (٢) هو قدار (كشجاع) بن سالف ، ويلقب بأحر ، قال زهير في وصف الحرب :

فَتَفْتَحُ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلِّهِمْ كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تَرْضِخُ فِقْطَظِيمَ

(قال الأسيدي : أعطا زهير في هذا ، لأن عافر ناقة ليس من عاد ، وإنما هو من ثمود ، وقال المبرد :

لا غلط ، لأن ثمود يقال لهم عاد الآخرة ، ويقال لقوم هود عاد الأولى) ويضرب به المثل في الشرم ، فيقال :

« أشأم من أحر عاد » لأن الله أهلك بقوله ثمود ، وذلك أنهم قالوا لنبيهم صالح حين دعاهم إلى الإيمان :

يا صالح إن كنت صادقاً فأظهر لنا من هذه الصخرة ناقة ، وصفوها له ، فأخرجها الله بإذنه من الصخرة

(إِنَّا مَرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَاضْطَبِرْ) . فكان بعضهم عند ظهور هذه الآية ،

ثم قال لهم : (هَذِهِ نَاقَةُ لَمَّا شَرِبْتَ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ، وَلَا تَمْشَوْهَا بِسُوءِ

فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ، فَعَقَرُوهَا فَاصْبِرُوا نَادِمِينَ ، فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ) .

(والشرب : التصيب من الماء) . (٣) أي أزرق العينين . (٤) الرصة : كل بقعة بين

الدور واسعة ليس فيها بناء . (٥) مناه : اتبعه .

كما عَنَّانا عبد الرحمن بن محمد^(١) ، قال : إن عبد الرحمن فَضَحَ الدُّمَارَ^(٢) وَفَضَحَ حَسْبَهُ ،
وَهَلْ كَانَ يَعْدُو أَجْلُهُ ؟ ، ثم نزل . (تاريخ الطبري ٨ : ١٥٢)

٣٤٣ - خطبة أخرى له

ورويت له خطبة أخرى في هذا الغرض ، وها كها :
عن خالد بن صفوان قال : خَطَبَنَا يَزِيدُ بْنُ الْمُهَلَّبِ بِوَأَسِطَ ، حمد الله ، وأثنى عليه ،
وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :
« أيها الناس : إني أسمع قول الرَّعَاعِ ، قد جاء العباس ، قد جاء مسلمة ، قد جاء
أهل الشام ! وما أهل الشام إلا نعمة أسياف ، منها سبعة معي ، واثنتان على ، وما مسلمة
إلا جَرَادَةٌ صفراء ، وأما العباس فنسطوس^(٣) بن نسطوس ، أنا كم في بَرَايِرَةٍ
وَصَقَالَةٍ^(٤) وَجَرَامِقَةٍ وَجَرَامِجَةٍ^(٥) ، وأقباط وأنباط^(٦) ، وأخلاق من الناس ؛ إنما أقبل
إليكم الفلاحون والأوباش كَأَشْلَاءٍ^(٧) ، اللهم ، والله ما لقوا قطُّ حِداً كحِداًكم . ولا حديداً
كحديدكم ، أعيروني سوايكم ساعة من نهارٍ تَصِفِقُونَ بها خراطيمهم^(٨) ، فإنها هي غُدُوَّةُ
أَوْ رَوْحَةٍ ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين . »
(البيان والتبيين ١ : ١٦٠ ، العقد الفريد ٢ : ١٥٥ ، ومروج الذهب ٢ : ١٧٧)

(١) هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث السالف الذكر . (٢) مايلزمك حفظه وحمايته .
(٣) هو في العقد ، ومروج الذهب بالناء ، وفي البيان والتبيين بالنون ، وليس من ألفاظ العربية ،
وأقول : هو إما علم رومي ، فهو يشير إلى أصل العباس بن الوليد إذ كانت أمه رومية ، أو محرف من
« نسطوري بن نسطوري » أي نصراني نسطوري من النساطرة إحدى فرق المسيحية نسبة إلى نسطوريوس
صاحب المذهب ، وكان أسقفاً بالقسطنطينية . توفي حول سنة ٤٥٠ م . (٤) البرابرة : جبل بالمغرب ؛
والصقالبة : جبل ببلادهم تتاخم بلاد الخزر « شمال بحر الخزر ، وهو بحر قزوين » إلى جنوب روسيا .
(٥) الجرمامقة : قوم من المصم صادروا بالوصل في أوائل الإسلام ، والجرمامقة : قوم من المصم بالجزيرة ،
أو نبط الشام . (٦) أنباط : جمع نبط كجبل وقد تقدم . (٧) أشلاء : جمع شلو كحمل ، وهو الضئو
وكل مسلوخ أكل منه شيء ، وبقيت منه بقية . (٨) صفقه بالسيف : ضربه ، والخراطيم : جمع خرطوم ،
وهو الأنف .

٣٤٤ - خطبة أخرى له

وقال مقاتل : سمعت يزيد بن المهلب يخطب بواسط ، فقال :

« يا أهل العراق ، يا أهل التَّيْقِ والتَّيْقِ ، ومكارم الأخلاق ، إن أهل الشام في أفواههم لَقَمَةٌ دَسِجَةٌ ، قد رَتَبَتْ^(١) لها الأَشْدَاقُ ، وقوا لها على ساقٍ ، وهم غيرُ تاركِها لكم بِالْإِراءِ وَالْجِدَالِ ، قَالَبُوا لهم جُلُودَ الثَّوَرِ^(٢) » .

(البيان والتبيين ١ : ٢١٨)

٣٤٥ - خطبة الحسن البصري يثبِّط الناس عن يزيد بن المهلب

وكان مروان بن المهلب وهو بالبصرة ، يحث الناس على حرب أهل الشام ، ويسرِّحهم إلى يزيد ، وكان الحسن البصري يُثَبِّطُ الناس عنه ، وكان يقول في تلك الأيام :

« أيها الناس : الزموا رجالكم ، وكفوا أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم بعضاً على دُنْيَا زَانِلَةٍ ، وطمع فيها يسير ، ليس لأهلها بريق ، وليس الله عنهم فيما كنسبوا براص ، إنه لم يكن فتنةٌ إلَّا كان أكثر أهلها الخطباء والشعراء والسفهاء ، وأهل التَّيِّه والخِلَاء ، وليس يسم منها إلَّا المجهول الخفي ، والمعروف التقي ، فمن كان منكم خفياً فَلْيَلْزَمْ الحقَّ ، وليحسب نفسه عما يتنازع الناس فيه من الدنيا ، فكما والله بمعرفة الله إياه بالخير شرفاً ، وكفى له به من الدنيا خلفاً ؛ ومن كان منكم معروفًا شريفًا ، فترك ما يتنافس فيه نظرًاؤه من الدنيا - إرادةً الله بذلك - فواها لهذا ، ما أسعده وأرشدته ، وأعظم أجره ، وأهدى سبيله فهذا غدا - يعني يوم القيامة - القَرِيرُ هينًا ، الكريمُ عند الله مآبًا » .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٥٣)

(١) دسجت أي ثبتت ولم تتحرك وذلك لاحتلام الأفراد . (٢) أي تنكروا لهم ، واستعدوا لمناصلتهم .

٣٤٦ - خطبة مروان بن المهلب

فلما بلغ ذلك مروان بن المهلب ، قام خطيباً كما يقوم ، فأمر الناس بالجد والاحتشاد
ثم قال لهم :

« قد بلغني أن هذا الشيخ الضالّ المرائي - ولم يُسمَّه - يبطئ الناس ، والله لو أن
جاره نَزَعَ من خُصٍّ داره قَصَبَةً ، لَقَالَ يَرْفَعُ^(١) أَفْعُهُ ، أَيْنَكِرُ علينا ، ودلى أهل
مصرنا ، أن نطلب خيرنا ، وأن نُنْكِرَ مَظْلِمَتِنَا ؟ أمّا والله ليكفّن من ذكرنا ، وعن
جمعه إلينا سَقَاطَ الْأُبُلَّةِ^(٢) ، وَعُلُوجَ فُرَاتِ الْبَصْرَةِ ، قوما ليسوا من أنفسنا ، ولا من
جرت عليه النعمة من أحدٍ منا ، أو لَا تُجِئَنَّ عَلَيْهِ مِيرْدًا خَشِينًا . »

فلما بلغ ذلك الحسن ، قال : والله ما أكره أن يُكْرِمَنِي اللهُ بهواه ، فقال ناس
من أصحابه : لو أرادك ثم شئتَ لمُعَاكَ ، فقال لهم : قد خالفتكم إِذْنٌ إلى ما بهيْتُكم عنه ،
أَمَرْتُكُمْ أَلَّا يَقْتُلَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا مع غيبي ، وأدعوكم إلى أن يقتل بعضكم بعضاً دوني ؟
فبلغ ذلك مروان بن المهلب ، فاشتدَّ عليهم وأخافهم ، وطلبهم حتى تفرقوا ، ولم يدع
الحسن كلامه ذلك ، وكفَّ عنه مروان .

(تاريخ الطبري ٨ : ١٣٠)

(١) رفع : خرج من أفقه العم . (٢) جمع ساقط : وهو الثيم في حبه ولفظه ، والأبلة :

موضع بالبصرة .

خطب الأحنف بن قيس التميمي^(١)

٣٤٧ - الأحنف ومعاوية

كان الأحنف بن قيس ، قد شهد مع الإمام علي ، كرم الله وجهه ، وقعة صفين ، فلما استقرت الأمور لمعاوية ، دخل عليه يوماً ، فقال له معاوية : « والله يا أحنف ما أذكرك يوم صفين إلا كانت حَزَازَةً^(٢) في قلبي إلى يوم القيامة » .
فقال له الأحنف :

« يا أمير المؤمنين لم تَرُدُّ الأمور على أحوالها ؟ أنا والله إن القلوب التي أبغضناك بها لبين جوارحنا ، والسيوف التي قاتلناك بها لملى عَوَاتِقنا ، ولئن مددت يَدِي من غَدَرٍ ، لَمُدَّتْ باعاً من خَتَرٍ^(٣) ، ولئن شئت لَمَسْتَصِفِينَ كَدَّرَ قلوبنا بِصَفْوِ حَلِكِ » ، قال معاوية : فإني أفعل .
ثم قام وخرج ، وكانت أخت معاوية من وراء حِجَابٍ تسمع كلامه ، فقالت :
يا أمير المؤمنين : من هذا الذي يَتَهَدَّدُ ويتوعد ؟ قال : هذا الذي إذا غَضِبَ ، غَضِبَ لَنَضِبُه مائة ألف من بني تميم ، لَا يَذَرُونَ فِيمَ غَضِبَ .

(وفیات الامیاء لابن خلکان ١ : ٢٣٠ ، ونهایة الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والمقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) هو أبو یحیی الفصحاک بن قیس سید بنی تميم ، والمضروب به المثل في الملم ، وهو من سادات التميمين ؛ أدرك عهد النبي صلى الله عليه وسلم ولم يصحبه ؛ وشهد بعض فتوح غراسان في زمن عمر وعثمان رضي الله عنهما ؛ وشهد مع حل رضي الله عنه وقعة صفين ؛ ولم يشهد وقعة الجمل مع أحد الفريقين ؛ وبقى إلى زمن مصعب بن الزبير ؛ فخرج معه إلى الكوفة ؛ فأتى بها سنة ٦٧ هـ (وقيل له الأحنف ؛ لأنه كان أحنف الرجل - مائلها - يظأ على وحشها) . (٢) الحزازة : وجع في القلب من غيظ ونحوه .
(٣) الباع : قدر مد اليدين ، والمخر : أقيح الشعر .

٣٤٨ - الأحف ومعاوية أيضا

جلس معاوية يوما ، وعنده وجوه الناس وفيهم الأحف ، فدخل رجل من أهل الشام ، فقام خطيبا ، فكان آخر كلامه أن لَمَنَ عليا رضى الله عنه ، فأطرق الناس وتكلم الأحف ، فقال :

« يا أمير المؤمنين : إن هذا القائل ما قال آتيا ، لو علم أن رِضاك في لَمَنَ للرسلين لَمَنَهُمْ ، فاتى الله ، ودع عليا ، فقد آتَى الله ، وَأَفْرَدَ في حُفْرَتِهِ ، وَخَلَا بِمِلْهِ ، وكان والله - ما عَلَيْنَا - للبرَزِّ بِشِقِّهِ ^(١) ، الطاهر في خُلُقِهِ ، اليمونَ النَّقِيَّةِ ^(٢) العظيمِ المصيبة . »

قال معاوية : « يا أحف ، لقد أغضيتَ العين على القذى ، وقلتَ بغير ما ترى ، وإني لله لَتَصْمَدَنَ للبر فَلَتَلَمَنْتَهُ طائما أو كارهما » فقال الأحف : « إن تُعْفِنِي فهو خير ، وإن تَجِيرَنِي على ذلك ، فوالله لا تجرى به شفتاي » ، فقال معاوية : قم فاصمد . قال : « أما والله لَأَنْصِفَنَّكَ في القول والفعل » ، قال معاوية : وما أنت قائلٌ إن أنصفتني ؟ ، قال : « اصعدُ فأحمد الله ، وأثنى عليه وأصلى على نبيه ، ثم أقول :

« أيها الناس : إن معاوية أمرني أن أَلَمَنَ عليا ، ألا وإن عليا ومعاوية اختلفا واقتتلا ، وأدعى كل واحد أنه مَبْنِيٌّ عليه وعلى فِئْتِهِ ، فإذا دعوتُ فأَمَتُوا رَحِمَكُمُ الله » ا
ثم أقول : اللهم لمن أنت وملائِكَتُكَ وأنبيَاؤُكَ وجميع خلقك الباغي منها على صاحبه ، وَالْفِئَةِ الباغية على المَبْنِيِّ عليها ، اللهم الصنمُ لِمَا كَبُرَا ، آمَنُوا ، رَحِمَكُمُ الله » ، يا معاوية لا أُزِيدُ على هذا ، ولا أَقْصُ منه حَرَفَا ، ولو كان فيه ذهابُ نفسى .
فقال معاوية : « إذن نُفَعِّيك يا أبا محر » .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والعقد الفريد ٢ : ١١٨)

(١) الشق : الجانب ، ورواية العقد « المبرز سيفه » وبرز تبريزا : فاق أصحابه فضلا أو شجاعة .

(٢) النقيبة : النفس .

٣٤٩ - قوله في مدح الولد

ودخل الأحنف على معاوية ، وزيدٌ بين يديه ، وهو ينظر إليه إعجاباً به ، فقال :
يا أبا جرم ما تقول في الولد ؟ ضلِمَ ما أراد ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، هم عمادُ ظهورنا ،
وَنَمَرُ قلوبنا ، وَفَرْكَةُ أعيننا ^(١) ، بهم نَصُولُ على أعدائنا ، وهم الخَلَفُ منا لمن بعدنا
فكُنْ لهم أرضاً ذَليلةً ، وسماً ظَليلةً ، إن سألوك فَأَعْطِهِمْ ، وإن استعتبوك فَأَعْتِبْهُمْ ^(٢) .
لا تمنعهم رِفْدك ^(٣) ، فَيَمُتُوا قُرْبَكَ ، ويكرهوا حَيَاتَكَ ، ويستغيثُوا وفانَكَ » .
فقال : فَهُ دَرَكٌ يَا أبا جرم كما وصفت . (الأمال ٢ : ٤٣)

٣٥٠ - شفاعته لدى مصعب بن الزبير

وأتى مصعب بن الزبير بكلمه في قوم حبسهم ، فقال : « أصلح الله الأمير ،
إن كانوا حَبَسُوا في باطل ، فَالْحَقُّ يُخْرِجُهُمْ ، وإن كانوا حَبَسُوا في حقٍّ ، فَالْقَوُّ
يَسْتَمُهُمْ » ، فغلام ^(٤) . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٨)

٣٥١ - نصيحته لقومه

وقال بخراسان : « يا بني تميم تحابُّوا تَجَمُّعَ كلِّكم ، وَتَبَادَلُوا تَمَدِّدَ أموركم ،
وابدءوا بِجِهَادِ بطونكم وفِرَوجكم ، يَصْنَعُ لَكُمْ دينكم ، ولا تَقْلُوا ^(١) يَسْلُمَ لَكُمْ
جِهَادُكُمْ » . (نهاية الأرب ٧ : ٢٣٩ ، والبيان والتبيين ٧ : ٤٦)

(١) قوت عينه : بردت ، وانقطع بكأظها ، أو رأت ما كانت متشوقة إليه . (٢) استجبه :
طلب إليه التمسى (لى الرضا) وأجبه : أسطأ التمسى . (٣) الرغد : البطأ . (٤) وقى وفيات
الأعيان لابن خلكان ١ : ٢٤٤ ، أن هذا القول الشعبي كلف به عمر بن حبيزة القزازى أمير العراق .
(٥) أى لا تخونوا .

٣٥٢ - خطبته في قوم كانوا عنده

وَحَدَّثَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَيْمٍ قَالَ : حَضَرْتُ مَجْلِسَ الْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ ، وَعِنْدَهُ قَوْمٌ مُجْتَمِعُونَ فِي أَسْرِهِمْ ، لِحَيْدِ اللَّهِ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« إِنْ السُّكْرُ يَمْنَعُ الْحُرْمَ ^(١) ، مَا أَقْرَبَ النِّعْمَةَ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ، لَا خَيْرَ فِي لِقَاءِ تَعْتِيبٍ
عِنْدَمَا ، لَنْ يَهْلِكَ مِنْ قَصْدٍ ^(٢) ، وَلَنْ يَفْتَقِرَ مِنْ زَهْدٍ ، رَبُّ هَٰذَا قَدْ عَادَ جِدًّا ، مِنْ أَمِنْ
الزَّمَانِ خَانَهُ ، وَمَنْ تَعَلَّمَ عَلَيْهِ أَهَانَهُ ، دَهْوَا الْمَزَاحَ ، فَإِنَّهُ يُورِثُ ^(٣) الضَّغَائِنَ ، وَخَيْرُ
الْقَوْلِ مَا صَدَّقَهُ الْفِعْلُ ، احْتَمَلُوا لِمَنْ أَدَلَّ ^(٤) عَلَيْكُمْ ، وَاقْبَلُوا عَذْرَ مَنْ اعْتَذَرَ إِلَيْكُمْ . أَطِيعْ
أَخَاكَ وَإِنْ عَصَاكَ ، وَصِلْهُ وَإِنْ جَفَاكَ ، أَنْصِفْ مَنْ نَفَسَكَ قَبْلَ أَنْ يُنْتَصَفَ مِنْكَ ،
وَأِيَّاكُمْ وَمَشَاوِرَةَ النِّسَاءِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ كُفْرَ النِّعْمَةِ لَوْمْ ، وَصُحْبَةَ الْجَاهِلِ شَوْمْ ، وَمَنْ
السُّكْرُ الْوَفَاءُ بِالْقَدِّمِ ، مَا أَقْبَحَ الْقَطِيعَةَ بَعْدَ الصَّلَةِ ، وَالْجَفَاءَ بَعْدَ الْعَطْفِ ^(٥) ، وَالْحَادَاوَةَ
بَعْدَ الْوَدِّ ! لَا تَكُونَنَّ عَلَى الْإِسَاءَةِ أَقْوَى مِنْكَ عَلَى الْإِحْسَانِ ، وَلَا إِلَى الْبُخْلِ أَسْرَعَ
حَنَكٍ إِلَى الْبَذْلِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحَتْ بِهِ مَثْوَاكَ ^(٦) ، فَأَتَّقِ فِي حَقِّهِ ،
وَلَا تَكُونَنَّ خَازِنًا لِنَفْسِكَ ، وَإِذَا كَانَ التَّنَدُّرُ فِي النَّاسِ مُوجُودًا ، فَالْتَقِ بِكُلِّ أَحَدٍ عَجِيزٍ ،
اعْرِفِ الْحَقَّ لِمَنْ عَرَفَهُ لَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ قُطِيعَةَ الْجَاهِلِ تَبْدِيلُ صِلَةِ الْعَاقِلِ » .

(الأمال ٢ : ٢٢)

(١) الحرم : جميع حرمة بالنفس ، وهي ما لا يحل انتهاكه . (٢) القصد : الاقتصاد : ضد الإسراف .

(٣) التأييد : إيقاد النار . (٤) تدل . (٥) العطف : اسم من العطف بالنفس .

(٦) آخرتك .

٣٥٣ - كلمات حكيمة للاخف

قال : في ثلاث خصال ما أقولن إلا ليحتر مُمْتَر : ما دخات بين اثنين قَطُّ حتى يَدْخِلَانِي بينهما ، ولا أنيت باب أحد من هؤلاء - يعني الملوك - ما لم أَدْعُ إليه ، وما حَلَّتْ حَبُونِي ^(١) إلى ما يقوم الناس إليه . وقال : « أَلَا أدلكم على المَحْصَدَةِ بلا مَرْزُئَةٍ ^(٢) ؟ الخلق السَّجِيح ^(٣) » والكف عن القبيح ، ألا أخبركم بأذو الله ؟ الخلق الدني ، والسان البَذِيء ، وقال : « ماخان شريف ، ولا كذب عاقل ، ولا اغتاب مؤمن . » وقال : « ما ادخرت الآباء للأبناء ، ولا أبقت الموتى للأحياء ، أفضل من اصطناع معروف عند ذوى الأحساب والآداب » ، وقال : « كثرة الضحك تذهب الهيبة ، وكثرة المزاح تذهب الروعة ، ومن لَزِمَ شيئاً عُرِفَ به . » وسمع رجلاً يقول : ما إلى أُمْدِحْتُ أم ذُمْتُ . فقال له : « لقد استرحت من حيث تُعَيِّبُ الكرام » ، وقال : « جنبوا مجلسنا ذكر الطعام والنساء ، فإنى لأُبْفِضَ الرجل يكون وصافاً لقرْجِه ويطنه ، وإن الروعة أن يترك الرجل الطعام وهو يشبهه . » وكان يقول : إذا عَجِبَ الناس من حِلْمِهِ : « إني لأَجِدُ ما تَجِدُونَ ولكنى صَبُور . » وكان يقول : « وجدت الحلم أنصر لي من الرجال . » وقال : « الكذب لاحيلة له ، والحسود لاراحة له ، والبخيل لامرودة له ، واللؤلؤ لاوفاء له ، ولا يسود سَمِّي الأخلاق ، ومن للروعة إذا كان الرجل بخيلاً أن يكتم ذلك ويتجمل . » وقال : « أربع من كنَّ فيه كان كاملاً ، ومن تملقَ مَحْصَلَةٍ منهن كان من صالحي قومه : دينٌ يَرْضِيهِ ، أو عقلٌ يُسَدِّدُهُ ، أو حَسَبٌ يَصُونُهُ ، أو حيالةٌ يَقْنَاهُ ^(٤) . » وقال : « المؤمن بين أربع : مؤمنٌ يحسِّدُهُ ، وموافقٌ يُبْفِضُهُ ، وكافرٌ يجاهدهُ ،

(١) احتبى الرجل : جمع بين ظهره وساقيه بممامة ونحوها ، والاسم : الحيوة بالفتح ويقوم .

(٢) رزاء مرزئة : أسباب منه غمرا ، والشيء نقصه : أى دون أن تفرموا في سبيلها مالا .

(٣) الذين السهل . (٤) قى الحياء كرضى ووى : لزمه كاتفى .

وَشَيْطَانٌ يَفْتِنُهُ ؛ وَأَرْبَعٌ لَيْسَ أَقْلٌ مِنْهُمْ : الْيَقِينُ ، وَالْعَدْلُ ، وَدِرْزَمُ حَلَالٍ ، وَأَخٌ فِي اللَّهِ »
 وقال : « لَأَنْ أَدْعَى مِنْ بَعِيدٍ ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَفْصَى مِنْ قَرِيبٍ » . وكان يقول :
 « إِيَّاكَ وَصَدْرَ الْجُلُوسِ ، وَإِنْ صَدَّرَكَ صَاحِبُهُ ، فَإِنَّهُ مَجْلِسُ قُلْتَمَةِ ^(١) » . وقال : « مَنْ لَمْ
 يَصْبِرْ عَلَى كَلِمَةٍ سَمِعَ كَلِمَاتٍ » . وقال : « رَبُّ غَيْظِ نَجْرٍ عَنْهُ عَخَافَةٌ مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ » . وقال :
 « مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ كَثُرَ سَقَطُهُ ، وَمَنْ طَالَ صَمْتُهُ كَثُرَتْ سَلَامَتُهُ » . وقال : « ثَلَاثٌ
 لَا أُنَاقَةُ فِيْهِنَّ عِنْدِي » . قيل : « وَمَا هُنَّ يَا أَبَا بَكْرٍ ؟ » . قال : « الْمُبَادَرَةُ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ،
 وَإِخْرَاجُ مِيتِكَ ، وَأَنْ تُنْكِحَ الْكَفَّ ، أَيْمَكَ ^(٢) » . وكان يقول : « لَأَفْصَى تَحَكُّمِكَ
 فِي نَاحِيَةِ بَيْتِي ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَيْمٍ رَدَدْتُ عَنْهَا كُفْتًا » .

(وفيات الأعيان ١ : ٢٢١ ، وجميع الأشغال المعيداني ١ : ١٤٨ ، والأمال

١ : ٢٣٦ ، والبيان والبيان ٢ : ص ٣٧ ، ٥٨ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١٠٥)

٣٥٤ - صفية بنت هشام المنقرية تؤمن بالأحنف

وروى أنه لما حُلِمَتْ جِنَازَةُ الْأَحْنَفِ ، وَوُدِّلَ فِي قَبْرِهِ ، أَقْبَلَتْ ابْنَةُ عَمِّ صَفِيَّةَ بِنْتَ
 هِشَامِ الْمُنْقَرِيَّةِ عَلَى نَجِيبٍ لَهَا مُحْتَصِرَةٍ ^(١) ، فَوَقَفَتْ عَلَى قَبْرِهِ ، فَقَالَتْ :
 « اللَّهُ دَرَكٌ مِنْ لَحْنٍ فِي جَنِّ ^(٢) ، وَمُدْرَجٌ ^(٣) فِي كَفْنٍ ! إِنْ أَلَّاهُ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ !

(١) مجلس قلمة : يحتاج صاحبه إلى أن يقوم مرة بعد مرة . (٢) الأيم : من لا زوج ، لها بكرا
 أو ثيبا . قال الجاحظ : وكان يقال : « ما بعد الصواب إلا الخطاء » وما بعد منهن من الأكفاه ، إلا بلغن
 السفلة والتوفاه . (٣) النجيب : الجبل السريع الخفيف في السير القوي ؛ واختصر : أسلك المختصرة
 « والمختصرة ككتبة : عصا يسكنها اللطيف يشير بها إذا خطب » ، وتخصر بانقصاب أيضا : أسكنه .
 وفي رواية الجاحظ : « وقات فرغانة بنت أوس بن حجر على قبر الأحنف بن قيس وهي على راحلة
 فقالت . . . » وفي رواية أبي علي القاتل : « جاءت امرأة من قومه من بني منقر عليها يقول من لقتنا ؛
 فوقفت على قبره فقالت . . . » - والقبول بالفتح ويضم : الحسن - . (٤) من أجهته : إذا سقره ؛
 والجن : جمع جنة كقبة ، وهي الوقاية ؛ والجن كسبب : القبر والكفن . (٥) ملوى .

نسأل الله الذي سَجَمْنَا بِمَوْتِكَ ، واجلانا بِقُدْرَتِكَ ، أن يُوسِعَ لَكَ في قبرِكَ ، وأن يَغْفِرَ
لَكَ يومَ حَشْرِكَ ، وأن يجعلَ سَبِيلَ الْخَيْرِ سَبِيلَكَ ، ودَلِيلَ الرِّشَادِ دَلِيلَكَ ، ثم أَقْبَلْتَ
بِوَجْهِهَا عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَتْ : « مَتَشَرَّ النَّاسِ ، إِنْ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ ، شُهُودٌ عَلَى عِبَادِهِ ،
وإِنَّا قَاتِلُونَ حَقًّا ، وَمُتَنُونَ صِدْقًا ، وَهُوَ أَهْلُ الْحَسَنِ النَّهْأِ ، وَطَيِّبِ الدَّعَاءِ ؛ أَمَا وَاللَّهِ
كُنْتُ مِنْ أَجَلِهِ فِي عِدَّةٍ ، وَمِنْ الْخَضَارِ ^(١) إِلَى غَايَةِ ، وَمِنْ الْحَيَاةِ إِلَى نَهَايَةِ ، الَّذِي رَفَعَ
عَمَلَكَ ، عِنْدَ انْقِضَاءِ أَجَلِكَ ، لَقَدْ عِشْتَ حَمِيدًا مَوْدُودًا ، وَلَقَدْ مِتَّ فَقِيدًا سَعِيدًا ، وَإِنْ
كُنْتُ كَأَعْظَمِ السَّلَمِ ، فَاضِلَ الْحِلْمِ ، صَاحِبِ الْأَدِيمِ ^(٢) ، مَنِيْعِ الْحَرَمِ ، وَارِي الزَّانَادِ ،
رَفِيعِ الْعِمَادِ ، وَإِنْ كُنْتُ فِي الْمَحَافِلِ لَشَرِيفًا ، وَعَلَى الْأَرَامِلِ أَمْعُودًا ، وَفِي الشَّيْثَةِ
مُسَوِّدًا ، وَإِلَى الْخُلَفَاءِ مُؤَفِّدًا ، وَلَقَدْ كَانُوا لِقَوْلِكَ مُسْتَمْعِينَ ، وَلِرَأْيِكَ مُتَّبِعِينَ » .
ثم انصرفت . (ذيل الأمال ص ٢٨ ، وبلاغات النساء ص ٥٥ ، والبيان والتهيين ٢ : ١٦٠)

(١) في الأمال : « ومن الضمان » ؛ وفي بلاغات النساء : « ومن الضمان » وأرى أن صوابه « ومن

الضمان » لقوله بعد : « إلى غاية » . (٢) الأديم : الجلد ؛ والمراد صحيح العرض .

خطب الوفود

وما ألقى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

٣٥٥ - وفود الأحنف بن قيس والنمر بن قطبة على معاوية

دخل الأحنف بن قيس على معاوية وافداً لأهل البصرة ، ودخل معه النمر بن قطبة ، وعلى النمر عبادة قطوانية^(١) ، وعلى الأحنف مدرة^(٢) صوف وثملة^(٣) ، فلما مثلاً بين يدي معاوية اقترحتهما^(٤) عينه ، فقال النمر : يا أمير المؤمنين إن العباد لا تسلمك ، وإنما يكلمك من فيها ، فأومأ إليه فجلس ، ثم أقبل على الأحنف ، فقال : ثم مه ؟ فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل البصرة عدد يسير ، وعظم كبير ، مع تنازع من الحول^(٥) ، وانصال من الذحول^(٦) ، فالكثير فيها قد اطرق ، وللقيل قد املق ، وبلغ منه الخنق ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينشئ الفقير ، ويجر الكسير ، ويسهل المسير ، ويصنع من الذحول ويدأوى للحول ، ويأسر بالمطاء ، ليكشف البلاء ، ويزيل الأواء^(٧) ، وإن السيد من يسم ولا يخص ، ومن يدعو الجفلى^(٨) ولا يدعو الثقوى ، إن أحسن إليه شكر ،

(١) نسبة إلى قطوان : موضع بالكوفة من الأكبية . (٢) المدرة : ثوب ولا يكون إلا من صوف . (٣) الثملة : كساء دون القטיפه يشتمل به . (٤) ائزودتهما . (٥) جمع محل كشمس : وهو القشط والجذب . (٦) جمع ذحل كشمس أيضاً : وهو الثأر . (٧) اللثة . (٨) الدعوة العامة ، والفقير : الدعوة الخاصة .

وإن أرى، إليه غفر ، ثم يكون من وراء ذلك لعنته محاداً ، يدفع عنهم اللئام ،
ويكشف عنهم المغضلات ، فقال له معاوية : ها هنا يا أبا بحر ، ثم تلا : (وَكَلَّمَرَفْتَهُمْ
فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ^(١)) . (زهر الآداب ١ : ٥٧)

٣٥٦ — وفد أهل العراق على معاوية وفيهم الأحنف

ولما قَدِم وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحنف ، خرج الأذن ،
فقال : إن أمير المؤمنين يَعْزِم عليكم ألا يتكلم أحد إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه
قال الأحنف :

« لولا قَرْمَة أمير المؤمنين لأخبرته أن دَاقَةَ ^(٢) دَفَّت ، ونازلة نزلت ، ونايبة نابت ،
ونايبة نَبَتَتْ ، وكلهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين وبرّه » ، فقال : حَسْبُكَ
يا أبا بحر فقد كَفَيْتَ النَّائِبَ وَالشَّاهِدَ .

(نهاية الأرب ٧ : ٢٣٧ ، والبيان والبيان ٢ : ٤٣)

وفد أهل العراق على معاوية ومعهم زياد وفيهم الأحنف

وفد أهل العراق على معاوية ، ومعهم زياد بن أبيه ، وفيهم الأحنف بن قيس ،
فقال زياد :

٣٥٧ — خطبة زياد

« يا أمير المؤمنين : أَشْخَصَتْ إِلَيْكَ أَقْوَامًا الرِّغْبَةَ ، وَأَقْعَدَتْكَ آخَرِينَ الشُّدْرَ ،
فقد جعل الله تعالى في سَمَةِ فَضْلِكَ مَا يُجَبِّرُ به المتخلف ، وَيُكَافَأُ به الشَّاخِصُ » .

(١) أي فمناه ونحوه . (٢) الداقة : الجماعة من الناس تقبل من بلد إلى بلد ، يقال : دفت
ملينا من بني فلان دافة ، والداقة أيضا : قوم من الأعراب يريدون المصر ، والدافة : الجيش يدفعون نحو الموعد
أي يذهبون .

٣٥٨ — خطبة معاوية

قال معاوية : « مَرَحَبًا بِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ، أَمَّا وَاللَّهِ لَأَنْ فَرَّقَتْ بَيْنَكُمْ الدَّعْوَةُ ، لَقَدْ جَمَعْتُمْكَمُ الرَّحِمُ ، إِنْ اللَّهَ اخْتَارَكُمْ مِنَ النَّاسِ لِيَخْتَارَنَا مِنْكُمْ ، ثُمَّ حَفِظَ عَلَيْكُمْ نَسَبَكُمْ بِأَنْ تَخَيَّرَ لَكُمْ بِلَادًا يُحْتَازُ عَلَيْهَا الْمَنَازِلُ ، حَتَّى صَفَّاكُمْ مِنَ الْأُمَمِ كَمَا تُصَفَّى الْقِصَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ خَبَثِهَا ، فَصُونُوا أَخْلَاقَكُمْ ، وَلَا تَذْنُبُوا أَنْسَابَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ ، فَإِنَّ الْحَسَنَ مِنْكُمْ أَحْسَنُ لِقَرَبِكُمْ مِنْهُ ، وَالْقَبِيحُ مِنْكُمْ أَقْبَحُ لِبُعْدِكُمْ عَنْهُ » .

٣٥٩ — خطبة الأحنف بن قيس

قال الأحنف : « وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَقَدَّمْ مِنْكُمْ قَائِلًا جَزِيلًا ^(١) ، وَرَأْيًا أَسِيلًا ، وَوَعْدًا جَمِيلًا ، وَإِنْ أَخَاكَ زِيَادًا لَتَتَّبِعَنَّ آثَارَكَ فِينَا ، فَتَسْتَمْتِعَ اللَّهُ بِالْأَمِيرِ وَالْمَأْمُورِ ، فَإِنْ كُمْ كَمَا قَالَ زُهَيْرٌ — فَإِنَّهُ أَلْقَى عَلَى الْمَدَّاحِينَ فَصُولَ الْقَوْلِ — :

وَمَا يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ آبَاؤُهُمْ قَبْلُ
وَهَلْ يُنْبِتُ الْخَطَى إِلَّا وَشِيحُهُ وَتُقَرَّرَسُ إِلَّا فِي مَنَاقِبِنَا التَّغْلُ ^(٢)
(زهر الآداب ١ : ٥٨)

٣٦٠ — وفد العراق على معاوية وفيهم دَعْنَلُ النَسَابَةِ

قدم وفد العراق على معاوية ، وفيهم دَعْنَلُ ^(٣) ، فقال له معاوية : يَا دَعْنَلُ أَخْبِرْنِي عَنْ ابْنِ نِزَارٍ : رِبْعَةٌ وَمُضَرٌّ ، أَيُّهُمَا كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً ؟ فقال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُضَرٌّ بِنِ نِزَارٍ كَانَ أَعَزَّ جَاهِلِيَّةً وَعَالَمِيَّةً . قال معاوية : وَأَيُّ مُضَرٍّ كَانَ أَعَزَّ ؟ قال :

(١) الجَزِيلُ : العَاقِلُ الْأَسِيلُ الرَّأْيُ . (٢) الْخَطَى : الرِّجْسُ ، نَسَبُهُ إِلَى الْخَطِّ : مَرَفَأُ السَّفِينِ بِالْبَحْرِينِ
تَنَسَّبَ إِلَيْهِ الرَّمْلُ لِأَنَّهُ تَبَاعَدَ بِهِ لَأَنَّهُ مَنْتَبَهَا ، وَالْوَشِيحُ : شَجَرُ الرَّمْلِ جَمْعُ وَشِيحَةٍ . (٣) هُوَ دَعْنَلُ
ابْنُ حَنْظَلَةَ النَّسَابَةِ مِنْ بَنِي شَيْبَانَ .

بنو النضر بن كنانة ، كانوا أكثر العرب أمجاداً ، وأرقمهم حماداً وأعظمهم رَمَاداً
 قال : فأىُّ بني كنانة كان بدم أعزُّ ؟ قال : بنو مالك بن كنانة ، كانوا يملكون من
 سأكهم ، ويكفون من نأواهم ، ويصدقون من عاداهم . قال : فمن بدم ؟ قال :
 بنو الحارث بن عبد مناة بن كنانة ، كانوا أعزُّ بنيه وأمتهم ، وأجودهم وأنعمهم . قال :
 ثم من بدم ؟ قال : بنو بكر بن عبد مناة ، كان بأسهم مرهوباً ، وعدوم منكوباً ،
 وثأرهم مطلوباً . قال : فأخبرني عن مالك بن عبد مناة بن كنانة ، وعن مرة وعاصم
 ابني عبد مناة . قال : كانوا أشرفاً كراماً ، وليس لقوم أكفاء ولا نظراء . قال :
 فأخبرني عن بني أسد ؟ قال : كانوا يطعمون السَّديف^(١) ، ويكرمون الضيوف ،
 ويضربون في الرُّحوف^(٢) ، قال : فأخبرني عن هذيل ، قال : كانوا قليلاً أكياس^(٣) ،
 أهل منعة وبأس ، ينتصفون من الناس ، قال : فأخبرني عن بني ضبة ؟ قال : كانوا
 بجرمة من جمرات العرب الأربع^(٤) ، لا يسطلي بنارهم ، ولا يُفانون بنارهم ، قال :
 فأخبرني عن مزيعة ، قال : كانوا في الجاهلية أهل منعة ، وفي الإسلام أهل دعة . قال :
 فأخبرني عن تميم ، قال : كانوا أعزُّ العرب قديماً ، وأكثرها عظيماً ، وأمنها حريماً ،
 قال : فأخبرني عن قيس ، قال : كانوا لا يفرحون إذا أُدبِلوا^(٥) ، ولا يحزنون إذا اُبتُلوا ،
 ولا يبخلون إذا سُئلوا ، قال : فأخبرني عن أشراطهم في الجاهلية ، قال : غطفان بن سعد
 وعاصم بن ضمصة وسليم بن منصور ؛ فأما غطفان فكانوا كراماً سادة ، والخصيس^(٦)

(١) شحم السمك . (٢) مصدر زحف أو جمع زحف كشمس وهو الجيش يزحفون إلى العدو .

(٣) جمع كيس : وهو المساقل . (٤) قال صاحب المقد : « جمرات العرب » هم

بنو تميم بن عامر بن صعصعة ، وبنو الحارث بن كعب ، وبنو ضبة بن أد بن طابخة ، وبنو عيس
 ابن مغيص ، وإنما قيل لهذه القبائل جمرات ، لأنها تجمت في أنفسها ، ولم يدخلوا معهم غيرهم ، والتجيمر :
 التجميع ، ومنه قيل : جمرعة العقبة لاجتماع الحصى فيها ، ومنه قيل : لا تجمروا المسلمين فضفتوهم ، وتفتنوا
 نساءهم ، يعني لا تجمعوهم في المغازي . . الفقه - المقد ٥٧ : ٢ . (٥) أدله الله من عباده : نصره عليه .

(٦) الخصيس : الجيش . سمي بذلك لأنه غرس فرق : المقعدة ، والقلب ، والميمنة ، والميسرة .

قادة ، وعن البيض دادة^(١) ؛ وأما بنو عامر فكثيرٌ سادتهم ، تخشيةً سَطَوَتِهِمْ ، ظاهرةً بِنَجْدَتِهِمْ ؛ وأما بنو سليم فكانوا يُدْرِكُونَ النَّارَ ، ويمنمون الجار ، ويُمْظِلُونَ^(٢) النار ، قال : فأخبرني عن قومك بكر بن وائل واصدقني ، قال : كانوا أهلَ عزٍّ قاهر ، وشرف ظاهر ، ومجد فاخر ، قال : فأخبرني عن إخوانهم ثغاب ، قال : كانوا أَسُودًا زُرْهَبَ ، ورِيحًا^(٣) لَا تُقَرَّبُ ، وأبْطَالًا لَا تُكْذَبُ ، قال : فأخبرني كم أُدْبِلُوا عَلَيْكُمْ فِي قِتْلِكُمْ كُلِّيًّا ؟ قال : أربعين سنة ، لانْتَصَفَ مِنْهُمْ فِي مَوْطِنٍ نَلَقَاهُمْ فِيهِ ، حَتَّى كَانَ يَوْمَ التَّحَالِيْقِ ، يَوْمَ الْحَرْثِ بْنِ مُبَادٍ بَعْدَ قِتْلَةِ ابْنِهِ بِحَيْرٍ ، وَكَانَ أَرْسَلَهُ فِي الصَّلْحِ بَيْنَ الْقَوْمِ فَقَتَلَهُ مَهْلِيلُ ، وَقَالَ : يَا بَشِيعُ^(٤) نَمَلُ كَلِيبٍ ، فَقَالَ الْغَلَامُ : إِنْ رَضِيتَ بِهَذَا بَنُو بَكْرِ رَضِيتُ ، فَبَلَغَ الْحَرْثُ ، فَقَالَ : نَعَمْ الْقَتِيلُ قَتِيلًا إِنْ أَصْحَحَ اللَّهُ بَيْنَ بَكْرِ وَثَغَابٍ وَبَاءَ بِكَالِيبِ ، فَقِيلَ لَهُ : إِنَّمَا قَالَ مَهْلِيلُ مَا قَالَ (الْكَلِمَةُ^(٥)) ، فَتَشَمَّرَ الْحَرْثُ لِلْحَرْبِ ، وَأَمَرْنَا بِمَخْلَقٍ رَدَوْسَنَا أَجْمَعِينَ ، وَهُوَ يَوْمُ التَّحَالِيْقِ ، وَهُوَ خَيْرُ طَوِيلٍ ، وَقَالَ :

قَرَّبًا مَرَبِطُ النَّعَامَةِ مَنِ لَقِيتَ حَرْبُ وَاثِلٍ عَنِ حِيَالٍ^(٦)
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا - عَلِمَ اللَّهُ - وَلَمَّا بَجَرَّهَا الْيَوْمَ صَالٍ
قَرَّبًا مَرَبِطُ النَّعَامَةِ مَنِ لَمْ يَبِيعَ الْكِرَامَ بِالشَّعْغِ غَالٍ

فَأَدْلَانَا عَلَيْهِمْ يَوْمَئِذٍ ، فَلَمْ نَزَلْ مِنْهُمْ مَخْتَمِينَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا . قَالَ : فَمِنْ ذَهَبٍ يَذْكُرُ ذَلِكَ الْيَوْمَ ؟ قَالَ : الْحَرْثُ بْنُ عُبَادٍ ، أَسْرَ مَهْلِيلًا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَقَالَ لَهُ : دُلَّنِي عَلَى مَهْلِيلِ بْنِ رَيْحَةَ ، قَالَ : مَا لِي إِنْ دَلَلْتُكَ عَلَيْهِ ؟ قَالَ : أَطْلُقْكَ ، قَالَ : عَلَى الْوَفَاءِ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ لَهُ : أَنَا مَهْلِيلُ ، قَالَ : وَيَحْكُ ! دُلَّنِي عَلَى كَفِّهِ كَرِيمٍ ، قَالَ : امْرُؤُ الْقَيْسِ^(٧)

(١) البيضة : حوزة كل شيء وساحة القوم ، وبيضة الفارس : وسطها .

(٢) كناية عن الكرم . (٣) جمع سم مطك السين . (٤) الشع : سير يشد به النمل .

(٥) هي قوله (يا بَشِيعُ نَمَلُ كَلِيبٍ) . (٦) النعامة : اسم فرسه ، ولقمت الناقة : قبلت الفلاح

وسالت حيوالا : لم تلقه سنة ، أو سنتين ، أو سنوات . (٧) هو امرؤ القيس بن أبان التغلبي .

وأشار بيده إليه عن قُرب ، فأطلقه الحرث ، وانطلق إلى امرئ القيس فقتله ، وبكر كاه
صَبَرَتْ وَأَبْلَتْ حَسُنْ بِلَاؤُهَا ، إِنْ مَا كَانَ مِنْ ابْنِ لُجَيْمٍ : حَذِيفَةُ وَبِجِلٌ ، وَيَشْكُرُ
ابن بكر ، فَإِنْ سَمِعَ بِنَ مَالِكِ بْنِ ضُبَيْمَةَ جَدَّ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ ، هَجَامُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ،
فَقَالَ :

إِنْ لُجَيْمًا عَجَزَتْ كُلُّهَا أَنْ يُرْفِدُونِي فَارِسًا وَاحِدًا^(١)
وَيَشْكُرُ الْعَامَ عَلَى خَيْرِهَا لَمْ يَسْمَعْ النَّاسُ لِمِ حَامِدًا^(٢)
وَقَالَ فِيهِمْ أَيْضًا :

يَا بُؤْسَ لِحَرْبِ أَلْيَ وَضَعْتُ أَرَاهِطَ فَأَسْتَرَحُوا^(٣)
إِنَّا وَإِخْوَتُنَا غَدًا كَنُحُودِ حِجْرٍ يَوْمَ طَاحُوا^(٤)
بِالْمَشْرِقِيِّ لَآئِفَ رَ وَلَا نُبَاحُ وَلَنْ تُبَاحُوا^(٥)
مِنْ صَدٍّ عَنْ نِيرَانِهَا فَأَنَا ابْنُ قَيْسٍ لَا يَرَّاحُ^(٦)
فَقَالَ مَعَاوِيَةُ : أَنْتَ وَاللَّهِ يَا دَغْقَلُ أَعْلَمُ النَّاسَ قَاطِبَةً بِأَخْبَارِ الْعَرَبِ .

(ذيل الأمل ٢٦)

(١) الإرفاد : الإعاقة والإعطاء . (٢) الخمر : القدر أو ألقبه . (٣) أراهط : جمع
الجمع لرهط . (٤) الحجر : وادي بين المدينة والشَّام : مساكن تُعَدُّ قَوْمٌ صَالِحٌ .
(٥) مشارف الشام : قرى من أرض العرب تغفر من الريف منها السيوف المشرفية . وفي ذيل الأمل
« وَلَا نُبَاحُ وَلَنْ نُبَاحُوا » بِالنُّونِ وَقَدْ أَصْلَحَتْ « وَلَنْ تُبَاحُوا » بِالتَّاءِ عَلَى الْإِلْفَاتِ مِنَ التَّكَلُّمِ إِلَى الْخُطَابِ ،
أَيْ وَلَنْ تُبَاحُوا بِأَقْوَمِ مَا دَعَا لَكُمْ حَاةً ، وَقَالَ مَصْحُحُ الْأَمَالِ : « وَلَنْ تُبَاحُوا » كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَعَلَّ هُنَا
تَحْرِيفًا ، وَوَجْهٌ لِلْكَلَامِ « كَنْ يَبَاحُ » . (٦) قولهم لَا يَرَّاحُ كَقَوْلِهِمْ لَا يَرِيبُ ، وَيَجُوزُ وَفِيهِ فَتَكُونَ لَا
يَعْتَزَلُ لَيْسَ .

٣٦١ - دغفل وجماعة من الأنصار

ووقف جماعة من الأنصار على دَغْفَل بعد ما كف ، فسلموا عليه ، فقال :
 مِنَ الْقَوْمِ ؟ قالوا : سَادَةُ الْبَيْتِ ، فقال : « أَمِنْ أَهْلِ مَجْدِهَا الْقَدِيمِ ، وَشَرَفِهَا الْعَمِيمِ ،
 كِنْدَةَ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ الطُّوَالُ قَصَبًا ، الْمُتَحَصِّنُونَ نَسَبًا ، بَنُو عَبْدِ الْمَدَّانِ ؟ »
 قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَقْوَدُهَا لِلزُّخُوفِ ، وَأَخْرَقُهَا لِلصُّفُوفِ ، وَأَضْرَبُهَا بِالسُّيُوفِ ،
 رَهْطُ عَمْرِو بْنِ مَعْدِيكَرِبٍ ؟ » قالوا : لا ، قال : « فَأَنْتُمْ أَحْضَرُهَا قَرَاءً ^(١) ، وَأَطْيَبُهَا
 فِنَاءً ، وَأَشَدُّهَا لِقَاءً ، رَهْطُ حَاتِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ؟ » قالوا : لا ، قال : فَأَنْتُمْ الْفَارِسُونَ لِلنَّخْلِ ،
 وَالطُّعْمِيُّونَ فِي النَّحْلِ ^(٢) ، وَالتَّقَاتِلُونَ بِالسُّدُلِ ، الْآنَصَارُ ؟ » قالوا : نعم .
 (الأنال ٢ : ٢٨٧)

٣٦٢ - وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان

قال عبد الملك بن مروان يوماً لجلسائه : خَبِّرُونِي عَنْ حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ ، فِيهِمْ
 أَشَدُّ النَّاسِ ، وَأَسَخَى النَّاسِ ، وَأَخْطَبُ النَّاسِ ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي قَوْمِهِ ، وَأَحْلَمُ النَّاسِ ،
 وَأَحْضَرُ مِنْ جَوَابًا .

قالوا : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَعْرِفُ هَذِهِ الْقَبِيلَةَ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ فِي قُرَيْشٍ ،
 قَالَ : لا ، قالوا : فِي حِمْيَرَ وَمُلُوكَهَا ، قَالَ : لا ، قالوا : فِي مُضَرَ ، قَالَ : لا ، قَالَ مَصْقَلَةُ
 ابْنِ رُقَيْعَةَ التَّمْدَدِيِّ : فَعَى إِذَنْ فِي رَيْعَةٍ ، وَنَحْنُ هُمْ ، قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ جُلَسَاؤُهُ : مَا نَعْرِفُ
 هَذَا فِي عَبْدِ الْقَيْسِ إِلَّا أَنْ تَخْبِرَنَا بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : نَعَمْ .
 أَمَّا أَشَدُّ النَّاسِ ، فَحَكِيمُ بْنُ جَبَلٍ ، كَانَ مَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -

(١) قَرَى الصَّيْفُ كَرَى قَرَى بِالْكَسْرِ ، وَالتَّعَصَّرَ : وَقَرَأَ بِالْفَتْحِ وَالِدَ : أَشَافَهُ .

(٢) الْبُحْلُ : الْجَدْبُ وَالشُّدَّةُ .

فَقَطَّعَتْ ساقه ، فضدها إليه ، حتى مرَّ به الذي قطعها ، فرماه بها فجدَّه^(١) عن دابَّته ، ثم جثا إليه فقتله واتكأ عليه ، فرَّ به الناس ، فقالوا له : يا حكيم ، مَنْ قطع ساقك ؟ قال : وسادي^(٢) هذا ، وأنشأ يقول :

يَا سَاقُ لَا تَرَامِي إِنَّمَا مَعِيَ ذِرَاعِي أَتُحِبُّ بِهَا كُرَاعِي^(٣)

وأما أسخى الناس فبعد الله بن سُوَّار ، استعمله معاوية على السُّنْد ، فسار إليها في أربعة آلاف من الجند ، وكانت توقدُ معه نار حيتاً سار ، فَيَطْعِمُ الناس ، فبينما هو ذات يوم إذ أبصر نارا ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : أصحح الله الأمير ، اعتلَّ بعض أصحابنا ، فاشتغى خبيصاً^(٤) ، فعملناه ، فأمر خبَّازَه ألاَّ يُطْعِمَ الناس إلاَّ الخبيص ، حتى صاحوا وقالوا : أصحح الله الأمير ، رُدُّنا إلى الخبز واللحم ، فسُدِّي مُطْعِمُ الخبيص .

وأما أطوع الناس في قومه ، فالجَارُود بن بَشْر بن القلاء ، فإنه لما قُبِضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتدت العرب ، خطب قومه ، فقال :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ كَانَ مُحَمَّدٌ قَدْ مَاتَ ، فَإِنَّ اللَّهَ حَتَّى لَا يَمُوتَ ، فَاسْتَمْسِكُوا بِدِينِكُمْ ، فَنَزَّهَ فِي هَذِهِ الرِّدَّةِ دِينَارٌ أَوْ دَرَمٌ أَوْ بَعِيرٌ أَوْ شَاةٌ ، فَلَهُ عَلَى مِثْلَاهُ » فَاخْلَعَهُ مِنْهُمْ رَجُلٌ .

وأما أَحَصَرُ الناس جواباً ، فَصَصَمَةُ بن صُوحَانَ ، دخل على معاوية في وفد أهل العراق ، فقال معاوية : مَرَّحَبًا بِكُمْ يَا أَهْلَ الْعِرَاقِ ، قَدِمْتُمْ أَرْضَ اللَّهِ الْمُقَدَّسَةَ ، مِنْهَا الْمُنْشَرُ ، وَإِلَيْهَا الْمَخْشَرُ ، قَدِمْتُمْ عَلَى خَيْرِ أَمِيرٍ يَبْرُكُ كَبِيرُكُمْ ، وَيَرْحَمُ صَغِيرُكُمْ ، وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ وَكَلَّ أَبَى سَفِيَانَ لَكَانُوا حُلَاءَ عَقْلَاءَ ، فَأَشَارَ النَّاسُ إِلَى صَصَمَةَ فَقَامَ :

نَحْمَدُ اللَّهَ ، وَأَتْنِي عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جدله : صرعه على الجذلة (كسابة) وهي الأرض . (٢) الوساد : المتكأ ، واللحظة كالرسادة ويظن . (٣) لا ترامي : لا تغزى ، والكراع : جماعة الخيل . (٤) الخبيص : نقي الدقيق يخلط بالسل ، والخبيصة : أخضر منه ، وخبيص اللؤلؤ كضرب ، وخبيصها : بالتشديد خلطها وعملها .

« أما قولك يا معاوية : إنا قَدِمْنَا الأرضَ المقدَّسةَ ، فلمصرى ، ما الأرضُ تقدَّسَ
الناسَ ، ولا يقدَّسُ الناسَ إلا أعمالُهم ، وأما قولك : منها المَلَشَرُ ، وإليها المَلَشَرُ ،
فلمصرى ، ما ينفعُ قَرِبُهَا ، ولا يضرُّ بُعْدُهَا مؤمِنًا ، وأما قولك : لو أن الناسَ كلَّهم وفدُ
أبى سفيانَ لكانوا حُلَمَاءَ عَقْلَاءَ ، فقد ولدَمَ خيرٌ من أبى سفيانَ آدَمُ صلواتُ الله عليه ،
فَنهم الحليم والسفيه ، والجاهل والعالم . »

وأما أحمل الناسَ ، فإن ولدَ عبدِ القيسِ قَدِمُوا على النبي صلى الله عليه وسلم يَصَدِّقَانِهِمْ
وفيهما الأشجُّ^(١) ، فقرَّعَها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أولُ عطاءِ فَرَّقَهُ في أصحابه ،
ثم قال : يَا أَشَجُّ ادْنُ مِنِّي ، فدنا منه ، فقال : « إِنَّ فِيكَ خَلَّتَيْنِ يَجْهَبُهَا اللهُ : الأناةُ ،
والحلمُ » وكفى برسولِ الله صلى الله عليه وسلم شاهدًا ، ويقال : إن الأشجَّ لم يَنْصَبْ قَطُّ^(٢) .
(المقد للفريد ٢ : ٥٦)

٢٦٣ - وفود العرب ومعاوية

عن عمرو بن عُقْبَةَ بن أبى سفيان ، قال :
حَقِّمَتِ النساءُ أَنْ يَلِدْنَ مِثْلَ عُمِّي ! شهيدته يومًا ، وقد قَدِمَتِ عليه وفود العرب ،
فَقَفَى حوائجهم ، وأحسنَ جوائزهم ، فلما دخلوا عليه ليشكروه ، سبقهم إلى الشكر ، فقال لهم :
« جزاكم الله يا معشرَ العرب عن قريش أفضلَ الجزاء ، بتقدُّمكم ليَّام في الحرب ،
وتقديمكم لهم في السِّلم ، وخَفِيتُكم دماءهم بِتَفَكُّيكم منكم ، أمَّا والله لا يؤثِّرُ عليكم غيرُكم
منهم حازِمٌ كريم ، ولا يرغبُ عنكم منهم إلا عاجزٌ لثيم ، شجرةٌ قامت على ساق ،
ففرَّعَ أهلها ، واجتمع أصلها ، عَصَدَ اللهُ مِنْ عَصَدِهَا ، فيالها كلمة لو اجتمعت ! وأيد
لو اتلفت ! ولكن كيف بإصلاح ما يريد الله إفساده ؟ » . (المقد للفريد ٢ : ٤١)

(١) هو عبد الله بن عوف الأشج .

(٢) هذا المقال يزيد على العنوان الذى منوطه به ، وقد أردت من ذلك استيفاء حديث عبد الملك .

٣٦٤ - وفود عبد العزيز بن زُرارة على معاوية

وفد عبد العزيز^(١) بن زُرارة على معاوية ، وهو سيد أهل الكوفة ، فلما أذن له وقف بين يديه ، وقال :

« يا أمير المؤمنين : لم أزلُ أهرُ ذَوَائِبَ^(٢) الرِّحَالِ إِلَيْكَ ، إذ لم أجد مُتَوَلًّا إِلَّا عَلَيْكَ ، أَمِطِي اللَّيْلَ بَعْدَ النَّهَارِ ، وَأَسِمْ^(٣) الْمَجَاهِلَ بِالْآثَارِ ، يَقُودُنِي إِلَيْكَ أَمَلٌ ، وَتُسَوِّفُنِي بَلْوَى ، وَالْجَهْدُ يُمَدِّرُ ، وَإِذْ بَلَنْتُكَ قَطَعْتَنِي^(٤) » ، قَالَ مُعَاوِيَةُ : أَحْطَطْ عَنْ رَاحِلَتِكَ رَحَلَهَا .

وروى الجاحظ هذا القول بصورة أخرى ، فقال :

« ولما وصل عبد العزيز بن زُرارة إلى معاوية قال : « يا أمير المؤمنين ، لم أزلُ أَسْتَدِلُّ بِالْمَعْرُوفِ عَلَيْكَ ، وَأَمِطِي النَّهَارَ إِلَيْكَ ، فَإِذَا أَلَوِي^(٥) بِي اللَّيْلَ ، فَتَقَبَّضَ الْبَصَرُ ، وَهَفَى الْأَثَرُ ، أَقَامَ بَدْنِي ، وَسَافَرَ أَمْلِي ، وَالنَّفْسُ تُلُومُ ، وَالْجَهْدُ يَمُدِّرُ ، وَإِذْ بَلَنْتُكَ قَطَعْتَنِي » .

وخرج عبد العزيز بن زُرارة مع يزيد بن معاوية إلى الصَّائِفَةِ^(٦) ، فَهَلَكَ هُنَاكَ ، فَكَتَبَ يَزِيدُ إِلَى أَبِيهِ مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لَزُرَارَةَ : أَتَأْنِي الْيَوْمَ نَعْيُ سَيِّدِ شَبَابِ الْعَرَبِ ، قَالَ زُرَارَةُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ ابْنِي أَوْ ابْنُكَ ؟ قَالَ : بَلْ ابْنُكَ ، قَالَ : لِلدَّوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ .

(السند الغريبي ١ : ١١٨ ، وصحح الأُمَني ١ : ٢٥٧ ، والبيان والتهيين ٢ : ٣٧ ، والأمال ١ : ٢٠١)

-
- (١) في صبح الأُمَني « عهد العزى » وفي الأمال : « قال رجل لعبد الملك بن مروان . . . الخ » .
 (٢) جمع ذَوَابَّة : وهي الجملنة الملققة على آخرة الرجل ، وفي صبح الأُمَني « ذَوَائِبُ الرِّجَالِ » .
 (٣) وصححه بسمه : علمه بهلالة . (٤) فحسبى . (٥) المراد جنس ، وأحدثت في ظلمته ، يقال : أَلَوِي بِهِ : ذَمَبَ بِهِ ، وَأَلَوْتُ بِهِ الْمَتَاءَ : طَارَتْ بِهِ ، وَأَلَوِي بِمَا فِي الْإِنَاءِ : اسْتَأْذَنَ بِهِ .
 (٦) الصَّائِفَةُ : غزوة الروم ، لأنهم كانوا يغزون صيفا لسكان البرد والثلج .

٣٦٥ — وفود زيد بن مئنة على معاوية

قدم زيد بن مئنة على معاوية من البصرة ، (وهو أخو يعلَى بن مئنة ^(١) صاحب جبل عاتية ، ومتولّى تلك الحروب ، ورأس أهل البصرة ، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج ابنة يعلَى بن مئنة) ، فلما دخل على معاوية شكّا إليه ديناً لزمه ، فقال : يا كعبُ أعطه ثلاثين ألفاً ، فلما ولى قال : وليوم الجمل ثلاثين ألفاً أخرى ، ثم قال له : اتلخق بصهرك ، (يعنى عتبة ، وكان يومئذ حامل مصر) فقدم عليه مصر ، فقال :

« إني سرت إليك شهرين أخوضُ فيهما للتألف ، ألبس أردية الليل مرة ، وأخوضُ في لجج السراب ^(٢) أخرى ، مُوقراً ^(٣) من حُسن الظن بك ، وهارباً من دهرٍ فطَم ^(٤) ، ودين لَزِم ^(٥) ، بعد غنى جدّ غنا به أنوف الحاسدين ، فلم أجد إلا إليك مهرباً ، وعليك مُتَوَلّياً » ، فقال عتبة : « مرحباً بك وأهلاً ، إن الدهر أعاركم غنى ، وخلطكم بنا ، ثم استرد ما أمكنه أخذه ، وقد أبقى لكم منا مالا ضيقة ^(٦) معه ، وأنا واضع يدي ويدك بيد الله » ، فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

(المقد الفريد ١ : ١١٨ ، وصبح الأضى ١ : ٢٥٧)

(١) في صبح الأضى والمقد هنيهة بالياء وهو تصحيف والصواب « مئنة » وهو اسم أمه ، واسم أبيه أمية ، والتصحيح من تاريخ الكامل لابن الأثير . وكان يعلَى عاملاً لميثان رضى الله عنه على اليمن ، فلما ولي على رضى الله عنه الخلافة مزله ، وولى على اليمن جبير الله بن عباس ، فالتصرف يعلَى إلى مكة ومعه مال كثير ، وانضم إلى السيدة عائشة رضى الله عنها في قتال على في وقعة الجمل . (٢) السراب : ما تراه نصف النهار كأنه ماء .

(٣) محملاً من الوقر بالكسر : وهو الحمل الثقيل أو أعم ، وأوقر الدابة لإيقارها .

(٤) يروى بالفاء والقف ، فطمه وقطمه : قطعه ، وضبط في صبح الأضى بالقاف ، وبالعلاء المكسورة وصف من قطم كفرح : انتهى اللحم أو غيره . (٥) وفي صبح الأضى : « ودين لَزِم » ولَزِم كضرب وفرح : غنى بالقم كله شديداً . (٦) الضيقة : الفقر وسوء الحال ، ويفتح .

٣٦٦ - وفود ضرار بن حمزة الصدائي على معاوية

دخل ضرار بن حمزة الصدائي^(١) (وكان من خواص عليّ كرم الله وجهه) على معاوية وأخذاً ، فقال له : يا ضرار ، صف لي علياً ، قال : أعفني يا أمير المؤمنين ، قال : لتصفته ، قال : «أما إذ لا بد من وصفه ، فكان والله بعيد المدى^(٢) ، شديد القوى ، يقول قصلاً ، ويمحّم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنفق الحكمة من نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويستأنس بالليل ووحشته ، وكان والله غزير العبرة ، طويل الفكرة ، يُقلب كفه ، ويخاطب نفسه ، يُنجه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، كان فينا كأحدنا ، يُجيبنا إذا سألناه ، ويُغفينا إذا استئباناه ، ونحن مع تربيته إيانا ، وقربيه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته ، يُعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ؛ لا يطعم القوي في باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه ، وقد أرخى الليل سدوله^(٣) ، وغارت نجومه ، وقد مثل في خجابه قابضاً على لحيته ، يتلملح تملح السليم^(٤) ، ويكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غرّني غيري ، ألي تمرّضت ، أم إني تشوّفت ؟ هيهات هيهات ا قد باينتك ثلاثاً لارجة فيها ، فعمرك قصير ، وخطرك^(٥) حقيق ، آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! » فبكي معاوية وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ، فكيف حزنك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبح وأحدها في حجرها .

(الأمالي ٢ : ١٤٩ ، ومروج الذهب ٢ : ٤٧ ، وشرح ابن

أبي الحديد ٤ : ٢٧٦ ، وزهر الآداب ١ : ٤٧)

(١) صدق كثراب : حى باليمن . (٢) القافية . (٣) السدول : جمع سدل بالضم والكسر ،

وهو السر . (٤) السليم : الملدوخ ، وسمى بذلك تفاؤلاً له بالسلامة ، كما تسمى البيداء مفازة :

تفاؤلاً بالقوز . (٥) الخطر : القدر .

الوافدات على معاوية

٣٦٧ - وفود سودة بنت عمارة على معاوية

وَقَدَّتْ سَوْدَةُ بِنْتُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْثَرِ الْحَمْدَانِيَّةُ ، عَلَى مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيْهِ فَأُذِنَ لَهَا ، فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ سَلَّمَتْ ، فَقَالَ لَهَا : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ الْأَشْثَرِ ؟
قَالَتْ : بِخَيْرٍ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ لَهَا : أَنْتِ الْقَائِلَةُ لِأَخِيكَ يَوْمَ صَفَيْنَ ؟ :

تَمَرٌ كَفَعِلَ أَيْبُكَ يَا بِنْتَ عِمَارَةَ يَوْمَ الطَّعْمَانِ وَمُلْتَقَى الْأَفْرَاقِ
وَأَنْصُرَ عَلِيًّا وَالْحُسَيْنَ وَرَفِضَةَ وَأَقْصِدْ لِهِنْدٍ وَابْنِهَا سَهْوَانَ
إِنَّ الْإِمَامَ أَخُو النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلِمَ الْهُدَى وَمَتَارَةَ الْإِيمَانِ
فَقَدَّرَ الْجَبُوشَ وَسَيَّرَ أَمَامَ لَوَائِهِ قُدُّمًا بِأَيْصَرَ صَارِمٍ وَسِينًا^(١)

قَالَتْ : إِي وَ اللَّهِ ، مَا مِثْلِي مِنْ رَغِبٍ عَنِ الْحَقِّ ، أَوْ اعْتَذَرٍ بِالْكَذِبِ ، قَالَ لَهَا :
فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟ قَالَتْ : حُبٌّ عَلَىَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَاتِّبَاعُ الْحَقِّ ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا أَرَى
عَلَيْكَ مِنْ أَثَرٍ عَلَى شَيْءٍ ، قَالَتْ : أُنْشِدُكَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِعَادَةَ مَا مَضَى ، وَتَذْكَارَ
مَا قَدْ نُسِيَ ، قَالَ : هَبْهَاتِ ! مَا مِثْلُ مَقَامِ أَخِيكَ يُنْسَى ، وَمَا لَقِيتُ مِنْ أَحَدٍ مَا لَقِيتُ
مِنْ قَوْمِكَ وَأَخِيكَ ، قَالَتْ : صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَا كَانَ أَخِي خَفِيَ الْقَامَ ،
ذَلِيلَ الْكَانِ ، وَلَسَكِنْ كَمَا قَالَتِ الْخَنَسَاءُ :

وَإِنْ صَغُرَا لَتَأْنُمُ الْهَدَاةُ بِرِ كَأَنَّهُ عَلِمَ فِي رَأْسِهِ نَارًا^(٢)

(١) التمدد : الشجاع ؛ وفي بلاغات النساء : « فقه الحنفية وسر أمم لوائه » .

(٢) التمدد : الجبل .

قال : صدقت ، لقد كان كذلك ، فقالت : مات الرأس وَبَقِيَ الذَّنْبُ ، وبالله
أسأل أمير المؤمنين إعفائي مما استغفرتُ منه ، قال : قد فعلتُ ، فقولى حاجتك ،
قالت : يا أمير المؤمنين ، إنك أصبحت للناس سيِّداً ، ولأُمُورهم مُتَعَلِّداً ، والله سَأَلْتُكَ
عن أمرنا وما افترض عليك من حَقِّنا ، ولا تزال تُتَقَدَّم علينا من يَنْهَضُ بِرِزْكَ ، وَيَبْسُطُ
سلطانك ، فيحصدُنا حِصادَ السَّذْبُلِ ، ويدوسنا دِباسَ ^(١) البقر ، وَيَسُومُنَا ^(٢) الخِيسَةَ ،
وَيَسْلُبُنَا الْجَلِيلَةَ ، هذا ابن أُرْطَاة ^(٣) قَدِمَ بِلادى ، وقتل رجالى ، وأخذ مالى ، ولولا الطاعةُ
لكانَ فينا عِزٌّ وَمَنْعَةٌ ، فإِذَا عَزَلْتَهُ عَنَّا فَشَكَرْنَاكَ ، وإِذَا لَا قَرَفْنَاكَ ، فقال معاوية :
إِنَّمَا يَهْدِيَنِي بِقَوْمِكَ ؟ والله لقد هممتُ أَنْ أَجِلكَ عَلَى قَتَبٍ ^(٤) أَشْرَسَ فَأَرَدْتُكَ إِلَيْهِ ،
يُنْفِذُ فِيكَ حَكْمَهُ ، فَأُطْرَقَتْ تَبْكِي ، نِمِ انْشَأَتْ تقول :

صَلَّى إِلَهُهُ عَلَى رُوحِهِ تَصَمَّنُهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْمَذَلُّ مَدْفُونًا
قَدْ حَالَفَ الْحَقَّ لَا يَبْقَى بِرِثْمَنَا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْرُونًا

قال : ومن ذلك ؟ قالت : عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ، قال : وما صنع بك
حقى صار عندك كذلك ؟ قالت : أتَيْتُهُ يَوْمًا فِي رَجُلٍ وَلَمْ أَصْدَقَانِي ، فَكَانَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ
مَا بَيْنَ النَّفْسِ ^(٥) وَالسَّيْنِ ، فوجدته قائماً يُصَلِّي ، فَأَغْتَلَّ مِنَ الصَّلَاةِ ، ثُمَّ قَالَ بِرَأْفَةٍ

(١) الفوس والنباس والدياسة : الرطبة بالرجل . (٢) يكلفنا . (٣) هو يسرين أُرطاة ،
وقيل ابن أبي أُرطاة ، وكان معاوية في أيامه على سيرة إله الجواز واليمن ليقول شيعة على ويأخذ البيعة له ، فسار
إلى المدينة ، فقتل بها أفضلاً شنيعة ، وسار إلى اليمن ؛ وكان عليها عبيد الله بن النُّبَاس من قبل على ، فهرب
عبيد الله فزها بسر ، وذبح عبيد الرحمن وقتل ابنى عبيد الله وها صغيران بين يدي أمهما عائشة بنت عبد المطلب ؛
فأسأها من ذلك حزن عظيم ؛ فأنشأت تقول :

يا من أحس بنيتى اللذين هما كالدرتين تشظى منهما الصدف
يا من أحس بنيتى اللذين هما صمى وقلبي ؛ فقلبي اليوم مختلف
يا من أحس بنيتى اللذين هما مخ النظام ؛ ففتى اليوم حردف

(٤) القتب : الإكاف الصغير على قدر ستام البير ، والمراد به هنا الجير لوصفه بالأشرس فيه مجاز .
أو الأشرس : الخشن القليظ . (٥) النفس : للهزول .

وتصطف : ألك حاجة ؟ فأخبرته خبر الرجل ، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء ، فقال : اللهم إنك أنت الشاهد علىّ وعليهم ، إنّي لم آمرهم بظلم خلقك ، ولا ترك حقك ، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب ، فكتب فيها :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ : قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ^(١) ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ، وَلَا تَمْشُوا ^(٢) فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ، يَقِيَهُ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ، إِذَا أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَاحْفَظْ بِمَا فِي يَدِكَ مِنْ عَمَلِنَا ، حَتَّى يَأْتِيَ مِنْ يَقِيضُهُ مِنْكَ وَالسَّلَامُ » . فأخذته منه والله ما خرّمه بخزام ، ولا ختمه بختم ^(٣) قرائته ، فقال معاوية : اكتبوا لها بالإنصاف لها ، والمدل عليها ، فقالت : ألي خاصة ، أم لقوى عامة ؟ قال : وما أنت وغيرك ؟ قالت : هي والله إذن الفحشاء والقوم ، إن لم يكن عدلا شاملا ، وإلا يستغنى مايسع قوى ، قال : هيأت ا لظلم ^(٤) ابن أبي طالب الجراءة على السلطان فبطينا ما تفتطمون ، وغرّكم قوله :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ لَقُلْتُ لِهَٰمْدَانَ أَذْخُلُوا بِسَلَامٍ

وقوله :

نَادَيْتُ هَمْدَانَ وَالْأَبْوَابُ مُخْلَقَةٌ وَمِثْلُ هَمْدَانَ سَقَى فَتَحَةَ الْبَابِ ^(٥)

كَأَلِهِنْدُوَانِي لَمْ تُقَلِّلْ مَضَارِبُهُ وَجَهٌ جَمِيلٌ وَقَلْبٌ غَيْرُ وَجَابِ ^(٦)

اكتبوا لها ولقومها . (المعتمد الفريد ١ : ١٢٩ ، وديانات النساء ص ٣٥)

(١) القسط : العدل . (٢) حثا يمشو عثوا : أفسد . (٣) الخزام جمع خزيمة بالكسر ، وهي في الأصل : حلقة تجمل في أحد جانبي منخري البعير ، وخزيمة النمل : سحر وثيق يخرم بين الشراكين . الختام : اللين يتم به على الشيء ، (والخاتم : ما يوضع على الطينة) . (٤) القسط : التدقيق ، وأن يحرك الإنسان لسانه في فم بعد الأكل ، يتبع به بقية من الطعام بين أسنانه ، ويخرجه فيسح به شفاهه ، واسم مايق في الفم المماطة بالضم ، ويقال : لظ فلانا (بالتشديد) لماطه : أى شيطا يططفه ، ولظه من حقه شيئا : أسطاه (والعامة تبدل الظاء ضادا) . (٥) سناه تسنيه : سهله وتيسره . (٦) سيف هندوانه بكسر الهاء ، ويجوز ضمها إتباعا للال منسرب إلى الهند ، ووجاب من وجب القلب وجوبا إذا غرق .

٣٦٨ - وفود أم سنان بنت خيثمة على معاوية

جلس مروان بن الحكم ، وهو والى اللديفة ، في خلافة معاوية ، غلاما من بني ليث في جناية جناها ، فأنته جده الغلام ، وهي أم سنان بنت خَيْثَمَةَ^(١) للذَّحِجِيَّة ، فكلَّمته في الغلام فأغلظ لها مروان ، فصرجت إلى معاوية ، فدخلت عليه فانقسبت فرفضها ، فقال لها : مَرَحَبًا بك يا بنة خَيْثَمَةَ ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عَهِدْتُكَ كَثْبَيْلِنَا^(٢) وَتَحْضِينَ علينا عدونا ؟ قالت : إن لبني عبد مناف أخلاقا طاهرة ، وأعلاما ظاهرة ، وأحلاما وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يسهون بعد حِلْم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولى الناس باتِّباع ماسن أباهُ لَأَنْتَ ، قال : صدقت ، نحن كذلك ، فكيف قولك ؟

عَزَبَ الرُّقَادُ ، فَمَقَلْتِي لَا تَرُقُدُ وَالْأَيْلُ يُضْدِرُّ بِالْمُومِ وَيُورِدُ^(٣)
يَا آلَ مَذْحِجٍ - لَا مَقَامَ ، فَشَرُّوا إِنَّ الْعَدُوَّ لَآلَ أَحَدٍ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَى كَلَامِ لَلَّالِ تَحْمُهُ وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْمَدُ^(٤)
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَابْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِنَّ يَهْدِيَكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مَذْ شَهِدَ الْحُرُوبَ مُظْفَرًا وَالنَّصْرُ فَوْقَ لَوْنِهِ مَا يُفْقَدُ
قالت : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، وأرجو أن تكون لنا خلفًا بعده ، فقال رجل من جلسائه : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائمة :

إِنَّا هَلَكْتُ أَبَا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيَا مَهْدِيًا
فَاذْهَبْ ، عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ فَوْقَ النُّصُوفِ حَمَامَةٌ قُمْرِيَّةٌ^(٥)

(١) في صحيح الأعمى « جشية » ، وهو تحريف : ما ذكرنا . (٢) وفي بلاغات النساء : « تشتين قربي » أي تبغضين . (٣) حزب : همد . (٤) سمود النجوم عشرة : سمود بلع (يضم ففتح) وسمد الأخبية ، وسمد الذابح ، وسمد السمود ، وهذه الأربعة من منازل القمر ، وسمد نائرة ، وسمد الملك ، وسمد البهام ككتاب ، وسمد الهدام كشجاع ، وسمد البارح ، وسمد مضر . وهذه الستة ليست من المنازل . (٥) ضرب من الحمام والجمع قارئ .

قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا ، فكنت وفيّاً
واليوم لا خلف يؤمل بعده هيهات تأمل بعده إنسياً
قالت : يا أمير المؤمنين لسان نطق ، وقول صدق ، ولئن تحقق فيك ما ظننناه ،
لخطك الأوفر ، وأقهر ما أورثك الشنآن^(١) في قلوب المسلمين إلّا هؤلاء ، فأدحض
مقاتلهم ، وأبعد منزلهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدّد من الله قرباً ، ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : يا سبحان الله ، والله ما مثلك من مدح
بباطل ، ولا اعتذار إليه يكذب ، وإنك لتعلم ذلك من رأينا ، وضيق قلوبنا ، كان والله
على أحب إلينا منك ، وأنت أحب إلينا من غيرك قال : بمن ؟ قالت : من مروان
ابن الحكم وسعيد بن العاص . قال : وبم استحققت ذلك عندك ؟ قالت بسمة حلك ،
وكريم غفوك ، قال : وإنهما يطعمان في ذلك ؟ قالت : هما والله لك من الرأي على مثل
ما كنت عليه لسان بن عفان رحمه الله تعالى^(٢) . قال : والله لقد قاربت ، فإحاجتك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين إن مروان تبّنك^(٣) بالمدينة تبّنك من لا يريد منها البرّاح ،
لا يحكم بديل . ولا يقضى بسنة ، يتتبع عترت المسلمين ، ويكشف عورات المؤمنين ،
حبس ابن ابني ، فأتيته ، فقال : كيّت وكيت ، فألقته أحسن من الحجر ، وألقته
أمر من الصبر ، ثم رجعت إلى نفسي باللائمة ، وقلت : لم لا أصرف ذلك إلى من هو
أولى بالعموم منه ، فأتيتهك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظرأ ، وعليه مُنديأ^(٤) ،
قال : صدقت ، لا أسألك عن ذنبه ولا عن القيام بحجته ، اكتبوا لها بإطلاقه . قالت :
يا أمير المؤمنين ، وأنى لي بالرجعة ، وقد فسد زادي ، وكلت راحتي ، فأمر لها بإحالة
موطأة ، وخمسة آلاف درهم .

(المقد الفريد ١ : ١٢١ ، وصباح الأعشى ١ : ٢٥٧ ، وبلاغات النساء ص ٦٧)

(١) البغض . (٢) تريد أنهما يملأن الخلقة بعدك كما كنت تملأها بعد عثمان . (٣) تبّنك

ه : أقالم . (٤) أعداء عليه : نصره ، وأمانه ، وقراء .

٣٦٩ - وفود بكاره الهلالية على معاوية

استأذنت بكاره الهلالية على معاوية بن أبي سفيان ، فأذن لها وهو يومئذ بالمدينة ، فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسننت ، وعشيت^(١) بعمرها ، وضمت قوتها ، ترشش بين خادمين لها ، فسلت وجلست فردا عليها معاوية للسلام ، وقال : كيف أنت يا خالة ؟ فقالت : بخير يا أمير المؤمنين ، قال : غَيْرِكَ الدَّهْرُ ، قالت : كذلك هو ذو غَيْرٍ^(٢) ، من عاش كبير ، ومن مات قُير ، قال عمرو بن العاص : هي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ فَاحْتَفِرْ مِنْ دَارِنَا سَيِّئًا حُسَامًا فِي الْقُرَابِ دَفِينَا
قَدْ كُنْتُ أَذْخَرُهُ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ فَالْيَوْمِ أَيْرَزُهُ الزَّمَانُ مَصُونَا
قال مروان : وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أَرَى ابْنَ هَذِهِ الْخُلَافَةِ مَالِكًا هِيَاهُ ، ذَاكَ - وَإِنْ أَرَادَ - بَعِيدُ
مَنْتَكَ نَفْسَكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالَةً أَغْرَاكَ عَمْرُو لَشَقَا وَسَعِيدُ
قال سعيد بن العاص هي والله القائلة :

قَدْ كُنْتُ أَطْمَعُ أَنْ أَمُوتَ وَلَا أَرَى فَوْقَ النَّارِ مِنْ أُمِّيَّةٍ خَاطِبَا
فَإِنَّهُ أَخْرُ مُدَّتِي فَتَطَاوَلَتْ حَتَّى رَأَيْتُ مِنَ الزَّمَانِ مَجَانِبَا
فِي كُلِّ يَوْمٍ لَزِمَانٍ خَطِيبُهُمْ بَيْنَ الْجَمِيعِ لَيْلَ أَحَدٍ عَائِبَا

ثم سكت القوم ، فقالت بكاره : نبحقن كلابك يا أمير المؤمنين واعتورتني ، فقصر عجبتي^(٣) ، وكثر عجبتي ، وعشيت بصري ، وأنا والله قائلة ما قالوا ، لا أدفع ذلك بكذيب ، وما خفي عليك مني أكثر ، فامض لشأنك ، فلا خير في العيش بعد

(١) صفت . (٢) ذو أحداث . (٣) تناوبتي وتداولتني ، والمجن : لصا للبطوة الرأس .

أمير المؤمنين ، فضحك معاوية وقال : ليس بمننا ذلك من برّك ، اذكرى حاجتك ،
قالت : أما الآن فلا .

وقيل : إنه قد قضى حوائجها وردها إلى بلادها .

(المقد القريني ١ : ١٣٠ ، وبلغات النساء ص ٣٩)

٣٧٠ - وفود أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية

دخلت أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية وهي عجوز كبير ، فلما رآها
معاوية قال : مرحباً بك وأهلاً يا عمّة ، فكيف كنتِ بعدنا ؟ فقالت : « يا بن أخي ،
لقد كثرت يد النعمة ، وأسأت لابن عمك المصنعة ، ونسيت بنير اسمك ، وأخذت
غير حقك ، من غير بلاء كان منك ولا من آباءك ، ولا سابقة في الإسلام ، ولقد كفرتم
بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، فأنتم الله منكم الجُدود ^(١) ، وأضرع ^(٢) منكم
الخدود ، وردّ الحق إلى أهلها ، ولو كره المشركون ، وكانت كلمتنا هي العليا ، ونبينا
صلى الله عليه وسلم هو المنصور ، فولّيت علينا من بعده - وتحتجون بقرايتكم من رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أقرب إليكم ، وأولى بهذا الأمر - فكنا فيكم بمنزلة بني إسرائيل
في آل فرعون ، وكان عليّ بن أبي طالب رحمه الله بعد نبينا صلى الله عليه وسلم بمنزلة
هرون من موسى ^(٣) ، ففأينكنّا الجنة ، وغايكن النار » .

فقال لها عمرو بن الماص : كفى أيتها المجوز الضالة ، وأقصري من قولك ، وغضّي

(١) جمع جد : وهو الخط . (٢) أذل ، وفي بلغات النساء وأسر . (٣) ورواية
بلغات النساء : « فكنا أهل البيت أعظم الناس في الدين خطاً ، ونصيباً وتقياً ، حتى قبض الله نبيه صلى
الله عليه وسلم ، فمفورا ذنبه ، مرفوعاً درجة ، شريفاً عند الله مرشياً ، فصرنا أهل البيت منكم بمنزلة قوم
موسى من آل فرعون ، يلجئون أبناءهم ، ويستحيون نساءهم ، وصار ابن عم سيد المرسلين فيكم بعد نبينا
بمنزلة هرون من موسى حيث يقول : « يَأَيُّنْ أُمُّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَفُّوْني ، وَكَادُوا يَقْتُلُوْني »
ولم يصح بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم شغل ، ولم يسهل لنا وعمر .

من طرفك، قالت : ومن أنت ، لا أم لك ؟ قال : عمرو بن العاص ، قالت : يابن الغنماء ^(١) الثابتة تتكلم ، وأنت كانت أشهر امرأة تنقئ بمكة ، وأخذهن لأجرة ! ازيغ على ظلمك ، واعن بشأن نفسك ، فوالله ما أنت من قريش في اللباب من حسبها ، ولا كريم منصبيها ، ولقد ادعاك خسة ^(٢) فز من قريش ، كلهم يزعم أنه أبوك ، فسنات أمك عنهم ، فقالت : كلهم أثنائي ، فانظروا أشبههم به ، فالحقوه به ، فقلب عليك شبه الداص ابن وائل ، فليحت به ، ولقد رأيت أمك أيام منى بمكة مع كل عبد عاهر ^(٣) ، فأنتم بهم فإنك بهم أشبه .

فقال مروان : كفى أيها العجوز ، وأقصري لما جئت له ، سأخ بصرك مع ذهاب عقلك ، فلا تجوز شهادتك ، فقالت : وأنت أيضاً يابن الزرقاء تتكلم ؟ فوالله لأنت إلى سفيان بن الحارث بن كلفة أشبه منك بالحكم ، وإنك لشبهه فرزقة عينيك ، وحمرة شعرك ، مع قصر قامته ، وظاهر دمايته ^(٤) ، ولقد رأيت الحكم ماذا ^(٥) لقائته ، ظاهر الأمة ^(٦) ، سبط ^(٧) الشعر ، وما بينكما قرابة إلا كقرابة الفرس للضامر من الأتان القرب ^(٨) ، فاسأل أمك تخبرك بشأن أهلك إن صدقت ، ثم التفتت إلى معاوية ، فقالت : والله ما جراً على هؤلاء غيرك ، وإن أمك لقائله يوم أحد في قتل حمزة رحمة الله عليه : نحن جزبناكم بيوم بدر والحرب بعد الحرب ذات سمر ^(٩) ما كان عن عتبة لي من صبر أبي وعمي وأخي وصهري ^(١٠)

(١) رجل أثنى وأمة الخناء : لم يحنأ ، ولعن السقاء ، وغيره كتحرج : أثنى ، والجوزة فصدت ، ومن شتم العرب « يابن الغنماء » كأنهم يقولون يادق الأصل ، أو ياتبع الأم ، والثابتة أم عمرو ، وقد تقدمت - انظر ص ٢٥ . (٢) وفي بلاغات النساء : سعة . (٣) فاجر . (٤) العمامة : القبرج . (٥) عتدها . (٦) الإعتبال السكرويضم : الشأن والنعمة والمهبة . (٧) طويلة . (٨) الأتان : الحمار ، والمقرب التي قرب ولادها فيكون بطنها كبيراً . (٩) السمر بالفتح مصدر سمر الحرب : أهرق دماها ، وبالقسم : الجنون . (١٠) قتلوا أديبهم يوم بدر : أبوها عتبة بن ربيعة بن عبد شمس - قيل اشترك في قتل حل ، وحمزة ، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب - وعمها شيبة بن ربيعة - قتل حمزة - وأخوها الوليد بن حبة - قتل حل - وابن زوجها حنظلة بن أبي سفيان - وليست هند أمه ، قيل اشترك في قتل حمزة ، وحل ، وزيد بن حارثة .

شَقَّيْتُ (وَحْشِيَّ) غَلِيلَ صَدْرِي شَقَّيْتُ نَفْسِي وَقَضَيْتُ نَذْرِي^(١)
فَشَكَرْتُ وَحْشِيَّ عَلَى دَهْرِي حَتَّى تَرِمَّ أُعْطَى فِي قَبْرِي^(٢)

فأجبتها :

يَا بَنْتَ جَبَّارٍ عَظِيمِ الْكَفْرِ خَزَيْتِ فِي بَذْرِ وَغَيْرِ بَذْرِ
صَبَّحَكَ اللَّهُ قُبَيْلَ النَّجْرِ بِالْمَاشِئِينَ الطَّوَالِ الزُّهْرِ^(٣)
بِكُلِّ قِطَاعٍ حُسَامٍ يَفْرِي حَمْرَةَ لَيْثِي ، وَعَلَى صَفْرِي

فقال معاوية لمروان وعمر : ويلكما ! أنما هـَضْبَانِي لَهَا ، وَاحْمَتَانِي مَا أُكْرَهُ ،
ثم قال لها : يَا عَمَّةُ أَقْصِدِي قَصْدَ حَاجَتِكَ ، وَدَعِي عَنْكِ أَسَاطِيرَ النِّسَاءِ ، قَالَتْ :
تَأْمُرُنِي بِأَنِّي دِينَارٌ ، وَأَنْتِي دِينَارٌ ، وَأَنْتِي دِينَارٌ ، قَالَ : مَا تَصْنَعِينَ يَا عَمَّةُ بِأَنِّي دِينَارٌ ؟
قَالَتْ : أَشْتَرِي بِهَا عَيْنًا خَرْخَارَةً^(٤) فِي أَرْضِ خَوَّارَةٍ^(٥) ، تَكُونُ لَوْلَدِ الْحَارِثِ بْنِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضْعُهَا ، فَا تَصْنَعِينَ بِأَنِّي دِينَارٌ ؟ قَالَتْ : أَزُوجُ بِهَا
فَتِيَانِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَكْفَانِهِمْ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ وَضْعُهَا ، فَا تَصْنَعِينَ بِأَنِّي دِينَارٌ ؟
قَالَتْ : أَسْتَعِينُ بِهَا عَلَى حُسْرِ الْمَدِينَةِ ، وَزِيَارَةِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، قَالَ : نَعَمْ الْمَوْضِعُ
وَضْعُهَا ، هِيَ لَكَ نَعْمٌ وَكَرَامَةٌ^(٦) ، ثُمَّ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ عَلَيَّ مَا أَمَرَكَ بِهَا ،
قَالَتْ : صَدَقْتَ ، إِنْ عَلَيَّ أَدْوَى الْأَمَانَةِ ، وَعَمِلَ بِأَمْرِ اللَّهِ ، وَأَخَذَ بِهِ ، وَأَنْتِ ضَمِيتِ
أَمَانَتَكَ ، وَخُفْتُ اللَّهَ فِي مَالِهِ ، فَأَعْطَيْتَ مَالَ اللَّهِ مِنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ ، وَقَدْ فَرَضَ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ
الْحَقُوقَ لِأَهْلِهَا وَيَتِيمَهَا ، فَلَمْ تَأْخُذْ بِهَا ، وَدَعَانَا (أَيَّ عَلَى) إِلَى اخْذِ حَقِّنَا ، الَّذِي قَرَضَ

(١) وحشي: غلام جبيل بن مطعم قاتل حمزة يوم أحد . (٢) دم العظم كسرب وأدم: يدل فهو دميم .

(٣) الزهر: الحسن البصري الوجوه . (٤) الخرخار: الماء الجاري ، أي عين ماء جارية .

(٥) أفراد أرض سهلة تصلح للزراعة ، من قولهم : خوار للثعلب ، أي سهل للمطف ، كثير الجري .

(٦) يقال : نعم عين ونعمة وتنام ونعم يعصمهم ، ونسي ونعاى وتنام ونعم ونعمة بضمهم ، ونعمة وتنام يكسرهما ، أي أفضل ذلك إنعاماً لغيرك وإكراماً .

الله لَنَا فَشُئِلَ بِمَرْبِكَ مِنْ وَضْعِ الْأُمُورِ مُوَاضِعَهَا ، وَمَا سَأَلْتُكَ مِنْ مَالِكَ شَيْئًا فَتَمَنَّ بِهِ
إِنَّمَا سَأَلْتُكَ مِنْ حَقِّكَ ، وَلَا تَرَى أَخَذَ شَيْءٍ غَيْرَ حَقِّكَ ، أَتَذَكَّرُ عَلِيًّا ؟ فَصَنَّ اللهُ فَالَكَ^(١)
وَأَجِدَ بَلَاءَكَ ، ثُمَّ عَلَا بِكَأُوهَا وَجِلَّتْ تَنْدُبُ عَلِيًّا ، فَأَمَرَ لَهَا بِسِتَةِ آلَافِ دِينَارٍ ، وَقَالَ
لَهَا : يَا عَمَّةُ : أَتَفِيقُ هَذِهِ فَيَا تَحِيَّينَ ، فَإِذَا احْضَبْتَ فَأَكْتُبِي إِلَى ابْنِ أَخِيكَ يُحْمِنُ صَدَقَكَ^(٢)
وَمَوَاسِئَكَ ، إِنْ شَاءَ اللهُ . (الفتح القريب ١ : ١٣٤ ، بلاغات النساء ص ٣٢)

٣٧١ — أم البراء بنت صفوان ومعاوية

استأذنت أم البراء بنت صفوان على معاوية فأذن لها ، فدخلت عليه وعليها ثلاثة
دروع^(٣) (بُرُودٍ) تَشَعُّبُهَا ذُرَاعًا ، قَدْ لَأَمَتْ^(٤) عَلَى رَأْسِهَا كَوَرًا كَالْمُنْشَفِ ،
فَتَلَّتْ وَجِلَّتْ ، قَالَ لَهَا معاوية : كَيْفَ أَنْتِ يَا بِنْتَ صَفْوَانَ ؟ قَالَتْ : بِخَيْرٍ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : كَيْفَ حَالُكَ ؟ قَالَتْ ضَعُفْتُ بـ^(٥) جَلَدًا ، وَكَسِلْتُ بَعْدَ نَشَاطٍ ،
قَالَ : شَتَّانَ بَيْنَكَ الْيَوْمَ وَحِينَ تَقُولِينَ :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْتٍ عَصَبَ الْمَهْرَةِ لَيْسَ بِالْخَوَارِ^(٦)
أَمْرِجْ جَوَادِكَ مُسْرِعًا وَمُسَمَّرًا لِلْحَرْبِ غَيْرَ مُعَرِّدٍ لِقِرَارٍ^(٧)
أَجِبِ الْإِمَامَ وَدُبُّ نَحْتِ لَوَانِهِ وَالْقَى الْقُدُورُ بِصَارِمٍ بِتَّارٍ
يَا لَيْفِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَصِيدَةً فَأَذُبُّ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْقُنَّجَارِ
قَالَتْ : قَدْ كَانَ ذَلِكَ ، وَمِنْكَ مِنْ عَفَا ، وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ : « عَفَا اللهُ عَنْمَا سَلَفَ ،
وَمَنْ عَادَ قَبِلْتَقِيمُ اللهُ مِنْهُ » قَالَ : هِيَاتِ ، أَمَا وَاللهِ لَوْ عَادَ لَسُدَّتِ ، وَلَكِنَّهُ

(١) تدعو عليه: أي ثر الله أسنانك . (٢) الصنف : السقاء . (٣) درج المرأة : قميصها
(مذكر) ودرج الحادي مؤنث وقد يذكر . (٤) اللوث : حسب الصلابة ، والكور : لوث الصلابة
وإدارتها ، والمنشف : ما يفيض به الحب ، شيء طويل مصوب الصدر أطاله مرتفع . (٥) الضرب :
السيف للقطع ، والخوار من غار : إذا ضحك وكل . (٦) مرد تعريفا ، ومرد كسج : حرب .

اخْتَرِمَ^(١) مِنْكَ ، قَالَتْ : أَجَلٌ ، وَاللَّهِ إِنِّي لَمَلِي بَيْتَةٌ مِّن رَّبِّي ، وَهَدَىٰ مِن أَمْرِي ،
قَالَ : كَيْفَ كَانَ قَوْلُكَ حِينَ قُتِلَ ؟ قَالَتْ : أَنَسَيْتُهُ ، قَالَ بَعْضُ جَلَسَائِهِ : هُوَ وَاللَّهُ
حِينَ تَقُولُ :

يَا لَرَّجَالٍ لَمْ تَطْمَهِ هَوْلٌ مُصِيبَةٌ فَدَحَتْ ، فَلَيْسَ مُصَابُهُا بِالْحَائِلِ^(٢)
الشمس كاسفةً لفقْدِ إمامنا خير الخلائق والإمام العادل
ياخيرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطِيَّ وَمَنْ مَسَىٰ فوق التراب لمخفٍ أو ناعِل
حاشا للنبي لقد هددت قُوءا فخلق أصبح خاضعاً للباطل^(٣)

فَقَالَ معاوية : قَاتِلْكَ اللَّهُ ! فَا تَرَكْتَ مَقَالًا لِقَاتِلٍ ، اذْكُرِي حَاجَتَكَ ، قَالَتْ :
أَمَّا الْآنَ فَلَا ، وَقَامَتْ فَعَثَرَتْ ، قَالَتْ : تَمَسَّ شَأْنِي عَلَى^(٤) ، فَقَالَ : زَعَمْتَ أَنَّ لَا ،
قَالَتْ هُوَ كَمَا عَلِمْتُ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الضُّدِّ بَشَّ إِلَيْهَا بِجَائِزَةٍ ، وَقَالَ : إِذَا ضَيَعْتُ الْحِلْمَ
فَنَ يَحْفَظُهُ ؟ (صحيح الأصبهاني ١ : ٢٦١ بلاغات النساء من ٧٨)

٣٧٢ - دارمية الحجونية ومعاوية

وَحَجَّ معاوية سَنَةً مِّن سِنِيهِ ، فَسَأَلَ عَنْ إِسْرَاءَ مِّن بَنِي كِنَانَةَ كَانَتْ تَنْزِلُ
بِالْحُجُونِ^(٥) ، يُقَالُ لَهَا دَارِمِيَّةُ الْحُجُونِيَّةِ ، وَكَانَتْ سَوْدَاءَ كَثِيرَةِ اللَّحْمِ ، فَأَخْبَرَ بِسَلَامَتِهَا ،
فَبَشَّ إِلَيْهَا بِجَائِزَةٍ ، فَقَالَ : مَا حَاقَكَ يَا بَنَتَ حَامِرٍ ؟ قَالَتْ : لَسْتُ لِحَامِرٍ إِنِّي عِبْتَنِي ،
إِنَّمَا أَنَا إِسْرَاءُ مِّن بَنِي كِنَانَةَ ، نَمَتَ مِّن بَنِي أَبِيكَ ، قَالَ : هَدَفْتِ ، أَنْتَ دَرِينٌ لِمَ بَشَّتِ
إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : لَا يَلِمُ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ، قَالَ : بَشَّتِ إِلَيْكَ لِأَسَافِكَ ، عَلَامَ أَحْبَبْتِ عَلِيًّا
وَأَبْغَضْتِنِي ، وَوَلَّيْتِهِ وَعَادَيْتَنِي ؟ قَالَتْ : أَوْ تُنْفِقَنِي بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : لَا أَتُفِئِكَ ،

(١) ملك . (٢) المتحول : المتغير . (٣) جمع القوة قوى ، وإنما قالت قواء بالمد للضرورة .

(٤) أى منفضه . (٥) الحجون : جبل بعمالة مكة .

قالت : وأما إذ آيت فإن أحببتُ علياً على عدله في الرحمة ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتُك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطببتُك^(١) ما ليس لك بحق ؛ ووليتُ علياً على ما عهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأولاء^(٢) ، وعلى حبة المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وشقك العصا ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى .

قال : فلذلك انتفخ بطُنك ، وعظمُ ثدياك ، ورَبَّتْ عَجَبَتُكَ ، قالت : يا هذا بهند^(٣) والله كان يُضْرَبُ للثُل في ذلك لآي ، قال معاوية : يا هذه اربى^(٤) ، فإنما لم نقل إلا خيراً ، إنه إذا انتفخ بطنُ المرأة تَمَّ خَلْقُ ولدها ، وإذا عظمُ ثديها تَرَوَّى^(٥) رضيعها وإذا عظمُ عَجَبَتِها رَزَنَ مجلسها ، فرجعت وسكنتُ ، فقال لها : يا هذه هل رأيت علياً ؟ قالت : إى والله لقد رأيته ، قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته والله لم يفتنه الملكُ الذي فتنك ، ولم تَسْمَلْهُ النعمة التي شغلتك ، قال : فهل سمعتِ كلامه ؟ قالت : نعم والله فكان يحلو القلوب من المي ، كما يحلو الزيتُ الطَّسْت من الصدا ، قال : صدقت ، فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل إذا سألتك ؟ قال : نعم ، قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها غلها وراعيا ، قل : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيى بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشار ، قال : فإن أعطيتك ذلك ، فهل أحلَّ عندك محلَّ علي بن أبي طالب ؟ قالت : ما ولا كصداً^(٦) ،

(١) الطيبة : الطلب . (٢) تشير إلى قوله : اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه .

(٣) هي أمه هند بنت عتبة . (٤) ربيع : وقف وانتظر وتحميس . (٥) ارتوى .

(٦) صدا : عين لم يكن عندهم ماء أعذب من مائها . ويروى عن أئمة هاشم بن قبيصة : أنه لما قتل لقيط بن زرارعة (من دارم) تزوجها رجل من أهلها ، فكان لا يزال يراها تذكر لقيطاً ، فقال لها ذات مرة : ما استحسنيت من لقيط ؟ قالت : كل أموره حسن ، ولكنني أحذرك أنه خرج إلى الصيد مرة وقد ابتقى في ، فرجع إلى ، وبقية صبحه فضع من دمه صيد ، وللملك يسوع من أطرافه ، ورائحة الشراب من فيه ، فضنى شمة وشنى شمة ، فليقن متعة ، ففعل زوجها مثل ذلك ثم شتمها ، وقال لها : أين أنا من لقيط ؟ قالت : ما ولا كصدا .

وَمَزَعْنِي وَلَا كَالسَّعْدَانِ^(١)، وَفَقِي وَلَا كَالِكِ^(٢)، سُبْحَانَ اللَّهِ أَوْ دُونَهُ، فَأَنْشَأَ مَعَاوِيَةَ يَقُولُ :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مِنْ عِلْمِكُمْ فَنَ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤْمَلُ بِالْحِلْمِ
خَذَيْبَهَا هَنِيئًا، وَأَذْكَرِي فِئْلَ مَا جِدِ جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعِدَاوَةِ بِالسَّلْمِ
نَمَّ قَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ عَلَيَّ حَيًّا مَا أَعْطَاكَ مِنْهَا شَيْئًا، قَالَتْ : لَا وَاللَّهِ
وَلَا وَبَرَّةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ مَالِ الْمُسْلِمِينَ .

(العقد القريبه ١ : ١٢٢ وصبح الأمان ١ : ٢٥٩ وبلاغات النساء من ٦٧)

٣٧٣ — شداد بن أوس ومعاوية

وَأَمْرُ مَعَاوِيَةَ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ الطَّائِي أَنِ يَنْقُصَ عَلَيَّ، فَقَامَ فَقَالَ :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَجَعَلَ رِضَاهُ عِنْدَ أَهْلِ التَّقْوَى آتَرَ مِنْ رِضَا خَلْقِهِ، عَلَى ذَلِكَ مَضَى أَوْلَهُمْ، وَعَلَيْهِ يَمْضَى آخَرُهُمْ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ الْآخِرَةُ وَعَدُ صَادِقٍ، يَحْكَمْ فِيهَا مَلِكٌ قَادِرٌ، وَإِنْ الدُّنْيَا عَرَضٌ حَاضِرٌ، يَا كُلَّ مِنْهَا الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وَإِنْ السَّمْعُ الْمَطْبُوعُ لِلَّهِ لَاحِجَةٌ عَلَيْهِ، وَإِنْ السَّمْعُ الْعَامِصُ لِلَّهِ لَاحِجَةٌ لَهُ . وَإِنْ اللَّهُ إِذَا أَرَادَ بِالْعِبَادِ صَلَاحًا عَمِلَ عَلَيْهِمْ صَلَاحًاوَهُمْ، وَقَضَى بَيْنَهُمْ قَضَاوَهُمْ، وَمَلَكَ لِلْمَالِ مُتَمَحَاوَهُمْ، وَإِذَا أَرَادَ بِهِمْ شَرًّا، عَمِلَ عَلَيْهِمْ سُقْمَاوَهُمْ، وَقَضَى فِيهِمْ جَلَاوَهُمْ،

(١) السعدان : ثبت ذو شوكة ، وهو من أفضل مرامى الإبل ، ولا تحسن من نبت حسنها عليه ، وأول من قال ذلك الخنساء بنت عمرو بن الثريد ، وذلك أنها أقبلت من الموسم ، فوجدت الناس مجتمعين على هند بنت عتبة بن ربيعة ، ففرجت عنها وهي تتشدهم مراثي أهل بيتها ، فلما دنت منها قالت : هل من تكيين ؟ قالت : أبكي سادة مضوا ، قالت : فأنشديني بعض ما قلت ، فأنشدها ، فقالت الخنساء : مرعى ولا كالسعدان ثم أنشدتها مراثي به أعلاها صخرًا . وقيل إن المثل لامرأة من طيء كان زوجها امرؤ القيس بن حجر السكني وكان مفركا (يفتح وراءه تيففه النساء) فقال لها : أين أنا من زوجك الأول ؟ فقالت : مرعى ولا كالسعدان . (٢) قاله متممين نورة في أعنيه مالك لما قتل في كردة . والأمثال الثلاثة تصرف الشيء يفضل على أقرانه

وملك المال بخلاؤهم ، وإن من صلاح الولاية أن يصلح قُراناؤها، وَتَصَحَّ لك يا معاوية مَنْ أَسْطَظَكَ بالحق ، وَعَشَّكَ مَنْ أَرْضَاكَ بالباطل .

قال : اجلس رحلك الله قد أمرنا لك ببال ، قل : « إن كان من مالك الذي تَهْدَتْ بجمعه مخافة تيمته ، فأصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا ، فَنَمَّ ، وإن كان مما شارك فيه المسلمون ، فَحَتَمْتَهُ ^(١) دونهم ، فأصبته اقترافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول في كتابه : « إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ » .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٠)

• • •

وروى أن معاوية قال له : « يا شداد ، أنا أفضل ، أم علي ؟ وأينا أحب إليك ؟ » ، فقال : « عليٌّ أَقْدَمُ هِجْرَةً ، وأكثرُ مع رسول الله إلى الخير سابقَةً ، وأشجع منك قلبا ، وأسلم منك نفسا ، وأما الحب ، فقد مضى عليٌّ ، فأنت اليوم عند الناس أرحمى منه » .
(مبرر الأخبار ٢٢ : ص ٢١١)

٣٧٤ — معاوية ورجل من أهل سبأ

وقال معاوية لرجل من أهل سبأ : « ما كان أجمل قومك ، حين ملكوا عليهم امرأة » ، فقال : « بل قومك أجمل ، قالوا حين دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحق ، وأراهم البينات : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْعِلْ عَلَيْنَا حَبَارَةَ بَنِي السَّامِ أَوْ أَتْنِنَا بِمَذَابِ آلِهِمْ » ، ألا قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَاهْدِنَا لَهُ » .

(البيان والتهيين ٣ : ٢٢٠)

٣٧٥ - حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المذان

سأل معاوية بعد الاستقامة^(١) عبد الله بن عبد الحजर بن عبد المذان فقال له :

كيف علمك بقومك ؟ قال : كملى بنفسى ، قال : ما تقول فى مراد ؟ قال : مذركو الأوتار ، وحماة الدمار ، ومخريزوا الخطار^(٢) ، قال : فما تقول فى النخع ؟ قال : مانئو السرب^(٣) ، ومسيرو الحرب ، وكاشفو الكرب ، قال : وما تقول فى بنى الحرث ؟ ابن كعب ؟ قال : فراجو الككك ، وفرسان المراك ، وزازو الضكك ، ترالك^(٤) ترالك ، قال : فما تقول فى سعد الشيرة ؟ قال : مانئو الضنم ، وبأنو الرنم ، وشافو النيم^(٥) قال : ما تقول فى جني ؟ قال : فرسان الصباح^(٦) ، ومعلو الرماح ، ومبارزو الرياح ، قال : ما تقول فى بنى زبيد قال : كناة أنجاد^(٧) ، سادات أجداد ، وقرعد الدياد^(٨) صبر عند الطراد ، قال : ما تقول فى جنب ؟ قال : كفاة يعمون عن الحرم ، ويغريجون عن الكظيم^(٩) ، قال : فما تقول فى صداة ؟ قال : سيمام الأعداء ،

(١) أى بعد استقامة الأمر له : عام الجماعة . (٢) جمع وتر : وهو الثار ؛ والدمار : ما يلزمك

حفظه وحمايته ؛ والخطار : جمع خطر بالتحريك ، وهو سبق يتراهن عليه . (٣) السرب : مرمى

من المال . (٤) الككك : الزحام ؛ ومثلها الضكك ؛ ولزه كرده : شدة وألسقه والقرار

ككتاب : خشبة يلز بها الباب ؛ وفلان لزاز العظام : أى يلز بها ويقرن ليلها ومه قول ليد :

إنا إذا التقت المجامع لم يزل منا لزاز عطية جشامها

وترك : اسم فعل بمعنى ترك ، والأمر هنا للصنم ، أى دِم هؤلاء ولا تتحدث بشأنهم ، فإنهم فى اسمى

مكان . (٥) الرنم : الدرجة والفضل والزيادة ، والنيم : السلى . (٦) القنارة .

(٧) ضبط فى الأصل بفتح الزاى ، وهو خطأ ؛ زيد كزبير : بطن من مذبح ، دحط عمرو بن معديكرب

وكلمير : بلد باليمن ، وكناة جمع كى : وهو الشجاع أو لايس السلاح ، والأنجاد جمع نجد كشهم وكشورجل :

الشجاع للماضى فيما يميز غيره . (٨) قرع جمع وقور ، وصبر جمع صبور ، والدياد والذود : للفتح .

(٩) الكظيم والكظوم : المكروب .

وَسَاكِبُ الْمَيْتَابِ^(١) ، قَالَ : فَا تَقُولُ فِي رَهَاء ؟ قَالَ : يُنْهِنُونَ^(٢) عَادِيَةَ الْقَوَارِسِ ،
وَيَرِدُونَ الْمَوْتَ وَرَدَّ الْخَوَاسِ^(٣) قَالَ : أَنْتَ أَعْلَمُ بِقَوْمِكَ :

(الأمال : ١ : ١٦٠)

٣٧٦ - حديث الحثيار بن أوفى النهدي مع معاوية

دخل الحثيار بن أوفى النهدي على معاوية ، فقال له : يا حثيار كيف تجدك ،
وما صنع بك الدهر ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، صدح الدهر قناتي ، وأثكلني لدائي^(١)
وأوحى عمادي ، وشيب سوادى ، وأسرع في تلادى^(٢) ، ولقد عشت زمناً أضني
الكتاب^(٣) ، وأسرت الأصحاب ، وأجيد الضراب^(٤) ، فبان ذلك عني ، ودنا الموت مني ،
وأنشأ يقول :

غَبَرْتُ زَمَانًا يَرْهَبُ الْقِرْنَ جَانِبِي كَأَنِّي شَيْبٌ بِاسِلُ الْقَلْبِ خَادِرُ^(٥)
يَخَافُ عَدُوِّي صَوَّلَتْنِي وَبِهَائِي وَيُكْرِهَنِي قِرْنِي وَجَارِي الْمَجَاوِرُ
وَتُعْصِي الْكِتَابَ لِمَتْنِي وَشِمَائِلِي كَأَنِّي غُصْنٌ نَاعِمُ النَّبْتِ نَاضِرُ^(٦)
فَبَانَ شِبَابِي وَاعْتَرَفَنِي رَثِيَّةٌ كَأَنِّي قَنَافَةٌ أُطْرَفَتْهَا لِلْسَّاطِرِ^(٧)
أُودِبْتُ إِذَا رُمْتُ الْقِيَامَ كَأَنِّي لَدَى الْمَشْيِ قَرْمٌ قَيْدُهُ مُتَقَاصِرُ^(٨)
وَقَصُرُ اللَّفْتِ شَيْبٌ وَمَوْتُ كَلَامَا لَهُ سَائِقٌ يَسِي بِذَلِكَ وَنَاطِرُ
وَكَيْفَ يَلْذُ الْقَمَشُ مَنْ لَيْسَ زَائِلًا رَهِيْنَ أُمُورٍ لَيْسَ فِيهَا مَصَادِرُ

(١) الهجاء : الحرب ، وهو مسمى حرب (كلهم) أي موقد نارها . (٢) يكفون .

(٣) الخس بالكسر : أن ترمى الإبل ثلاثة أيام ، وترد الرابع ، وهي إبل خواس .

(٤) اللذة : من ولد مملوك . (٥) التلاد : المال القديم .

(٦) كتب لئى الجارية : نهد ، وهي كاهب وكتاب . (٧) ضرب الفحل ضرباً : نكح .

(٨) القيرن : كقولك في الشجاعة أو علم . والثقيم : الأسد المابس ، والخسدر : أجرة الأسد . ومته

أسد خادر . (٩) اللذة : الشعر المجاوز شمة الأذن . (١٠) الرثية : وسج المفاصل واليدين

والرجلين . والأطر والتأطير : صلف الشيء ، وتأطر الريح : تثنى واعمج . (١١) القرم : الفحل .

فقال معاوية : أحسنت القول ! واعلم أن لها مصادر ، فنسأل الله أن يطلنا من
الصادر بن بخير ، فقد أوردنا أنفسنا موارد نرغب إلى الله أن يصدرنا عنها وهو راض .
(الأمال ٢ : ٩٤)

٣٧٧ - حديث عرابية بن أوس بن حارثة مع معاوية

قال معاوية لعرابية بن أوس بن حارثة الأنصاري : بأي شيء سدت قومك يا عرابية ؟
قال : أخبرك يا معاوية بأني كنت لهم كما كان حاتم لقومه . قال : وكيف كان ؟
فأنشدته :

وأصبحتُ في أمرٍ التَّشِيرِ كُلِّهَا كَذِي الحِلْمِ يُرَضَى ما يقول ويُعرف
وذاك لأنِّي لا أعادى سَرَّائِهِمْ ولا من أخى سَرَّائِهِمْ اتَّسَكْتُ^(١)
وإني لأعطي سَائِلِي ، ولو سَأَلَا أَكَلْتُ ما لا أستطيع فأَكَلْتُ
وإني لَمَذْمُومٌ إذا قيل : حاتم نَبَا نَبْوَةٍ ، إن الكريم يُمْنَف
وواقه إني لأعفو عن سقيمهم ، وأحلمُ من جاهلهم ، وأسى في حوائجهم ، وأعطي
سائلهم ، فن فعل ففلي فهو مثلي ، ومن فعل أحسن من ففلي فهو أفضل مني ،
ومن قصر عن ففلي فأنا خير منه ، فقال معاوية : لقد صدق الشَّاعِرُ حيث
يقول فيك :

رأيت عَرَابِيَةَ الأَوْسَى يَسْمُو إلى الخيول منقطعَ القَرِينِ
إذا مارايةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدِرٍ تلقاها عَرَابِيَةُ باليمنِ
(الأمال ١ : ٢٧٧)

٣٧٨ - سعيد بن عثمان بن عفان ومعاوية

دخل سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه على معاوية ، وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : « ائتمنك أبى واصطنعك ، حتى يأتك باصطناعه إياك للذى الذى لا يُجَارَى . والغاية التى لا تُسَامَى ، فما جازيت أبى بآلائه ، حتى قدّمتَ هذا علىّ » ، وجعلت له الأمر دونى - وأرأى إلى يزيد - والله لأبى خير من أبيه ، وأبى خير من أمه ، ولأنا خير منه » فقال معاوية : « أمّا ما ذكرت يابن أخى من توارى آلانكم علىّ » ، وتظاهر تنابهم لدىّ » ، فقد كان ذلك ، ووجب علىّ المكافأة والمجازاة ، وكان شكرى إياه أن طلبت بدمه ، حتى كابدتُ أهوال البلاء ، وغشيتُ عباكر المنايا ، إلى أن شُفيتُ حَزَازَاتِ الصدور ، ونجّلتُ تلك الأمور ، ولستُ لنفسى باللائم فى التشهير ، ولا الزارى ^(١) عليها فى التقصير ، وذكرت أن أباك خير من أبى هذا - وأشار بيده إلى يزيد - فصدقت ، لعمر الله لثمانٍ خير من معاوية ، أكرم كريماً وأفضل قديماً ، وأقرب إلى محمد صلى الله عليه وسلم رجلاً ، وذكرت أن أمك خير من أمه ، فلمصرى إن امرأة من قریش خير من امرأة من بنى كلب ، وذكرت أنك خير من يزيد ، فوالله يابن أخى ما يسرنى أن القُوطه ^(٢) عليها رجال مثلُ يزيد .

فقال له يزيد : « مَهْ يا أمير المؤمنين ، ابنُ أخيك استعمل اللهَ عليك ، واستعقبك لنفسه ، واستزاد منك فزده ، وأجملَ له فى ردك ، وأجملَ على نفسك وولاه خُرَاسان بشفاعتى ، وأعطه بمال يُظهر به مَوْرُوثه » ، فولّاه معاوية خُرَاسان ، وأجازه بمائة ألف درهم فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(صبح الاضی ١ : ٢٥٦ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٩)

(١) زرى عليه : ما به . (٢) مدينة دمشق أو كورنها .

٣٧٩ - مصقلة بن هبيرة ومعاوية

مرض معاوية مرضاً شديداً ، فأرجف به مصقلة بن هبيرة ، وساعده قوم على ذلك ثم تمائل^(١) ، وم في إرجافهم ، فخل زياد مصقلة إلى معاوية ، وكتب إليه أنه يجمع مراً من مرق العرق ، فيرجفون بأمر المؤمنين ، وقد حملته إليه ليرى رأيه فيه ، فقدم مصقلة ، وجلس معاوية للناس ، فلما دخل عليه ، قال : ادن مني ، فدنا منه ، فأخذ بيده فجذبه فسقط مصقلة ، فقال معاوية :

أبقى الحوادث من خليك مثل جندة للراجيم^(٢)
 صلباً إذا خار الرجا ل' أبل' بمنع الشكائم^(٣)
 قد رامى الأعداء قبلك فامتعت من الظالم

فقال مصقلة : « يا أمير المؤمنين ، قد أبقى الله منك ما هو أعظم من ذلك بطشا وحلماً راجحاً ، وكلاً وترى لأوليائك ، وتسمي ناصراً لأعدائك ، كانت الجاهلية فكان أولك سيد المشركين ، وأصبح الناس مسلمين وأنت أمير المؤمنين » وقام ، فوصله معاوية ، وأذن له في الانصراف إلى الكوفة ، فقيل له : كيف تركت معاوية فقال : زعمت أنه كبير وضئف ، والله لقد غرز في غرزة كاد يخطئ ، وجذبتني جذبة كاد يكسر عضواً مني .
 (زمر الآداب : ١ : ٥٧ والأمل : ٢ : ٣١٥)

٣٨٠ - روح بن زنباع ومعاوية

وَولى معاوية رَوْحَ بنِ زَنْبَاع ، فَعَتَبَ عَلَيْهِ في جَنَابِهِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ بِالْقَدُومِ ، فَلَمَّا قَدِمَ أَمَرَ بِضَرْبِهِ بِالسَّيَاطِ ، فَلَمَّا أُنِمْ لِيُضْرَبَ قَالَ : « نَشَدْتُكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ تَهْدِمَ مِنِّي رَكْبًا أَنْتَ بَنَيْتَهُ ، أَوْ أَنْ تَضَعَ مِنِّي خَسِيمةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تُشِيتَ بِي هَدَؤَانْتَ

(١) تمائل لليل : قارب البرء . (٢) الجندل : الحجارة ، والواحدة جندلة .

(٣) الأبل : المتعص ، والأله : الجدل ، والشكائم جمع شكية : وهي من العجائم الجديدة المنرضة .
 وقوم القرس ، وفلان شديد الشكية : ألف أبل لا يتقاد .

وقته^(١) ، وأسألك بالله إلا أتى حلتك وعفوك دون إفساد صباييك » ، فقال معاوية :
« إذا الله سقى عَفْدُ امْرِئٍ تَيْسَرًا » خلوا سييله .

(الأمال ٢ : ٢٥٩ ، وزهر الآداب ٢ : ١٩٤)

٣٨١ - محاسبة أبي الأسود الدؤلى وامراته بين دى زياد بن أبيه

جربى بين أبى الأسود الدؤلى وبين امرأته كلام ، فى ابن كان لما منه ، وأراد أخذه منها ، فسار إلى زياد وهو والى البصرة .

فقال المرأة : « أصلحك الله الأمير ، هذا ابنى ، كان بطنى وعاده ، وججربى ففكاه ، وتذبى سقاءه^(٢) ، أكلوه^(٣) إذا نام ، وأحفظه إذا قام ، فلم أزل بذلك سبعة أعوام ، حتى إذا استوفى فصاه^(٤) ، وكملت خصاله ، واستوكت^(٥) أرساله ، وأملت نفعه ، ورجوت دفعه ، أراد أن يأخذه منى كرها^(٦) ، فأدنى^(٧) إليها الأمير ، فقد رام قهرى . وأراد قسرى^(٨) . »

فقال أبو الأسود : « أصلحك الله ، هذا ابنى حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تنصه ، وأنا أقوم عليه فى أدبه ، وأنظر فى أوده ، وأمنحه على ، وألميه على ، حتى يكمل عقله ، ويستحكم فقهه . »

فقال المرأة : « صدق أصلحك الله ، حمله خفًا^(٩) ، وحملته قفلا ، ووضعه شهوة ، ووضعه كرها . »

فقال له زياد : اردد على المرأة ولدها ، ففى أحق به منك ، ودعنى من سجعك

أو قال : « إنها امرأة عاقلة يا أبا الأسود ، فادفع ابنها إليها ، فأخلى أن تحسن أدبه . »
(الأمال ٢ : ١٤ ، وأمال السيد المرتضى ١ : ٢١٤)

(١) وقته : قهره وأذله . وفى زهر الآداب : « كبه . » (٢) السقاء : جلد السخلة يكون الماء والبن . (٣) أرحاه . (٤) غطاه . (٥) اشعث وشعث . (٦) الإباء والمثقة بالفتح والضم ، أو بالفتح : ما كرهك غيرك عليه ، وبالقسم ما كرهت نفسك عليه . (٧) أداه على ثلاث : أمداه وأمانه . (٨) الإكراه . (٩) الخف : الخلف .

٣٨٢- صورة أخرى

وروى أحمد بن أبي طاهر طيفور هذا الخبر بصورة أطول وهما كما :

قال أبو محمد القشيري : كان أبو الأسود الدؤلي من أكبر الناس عند معاوية بن أبي سفيان ، وأقر بهم مجلساً ، وكان لا ينطق إلا بمقل ، ولا يتكلم إلا بعد فهم ، فبينما هو ذات يوم جالس ، وعنده رجوة قريش وأشراف العرب ، إذ أقبلت امرأة أبي الأسود الدؤلي ، حتى حاذت معاوية ، وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ؛ إن الله جعلك خليفة في البلاد ، ورفيقاً على العباد ، يُسْتَسْقَى بك المطر ، وَيُسْتَنْبَتُ بك الشجر ، وتؤلف بك الأهواء ، ويأمن بك الخداف ، وَيُرَدَعُ بك الجانف^(١) ، فأنت الخليفة المصطفى ، والإمام المرتضى ، فاسأل الله لك النعمة في غير تغيير ، والعافية من غير تعذير^(٢) . قد ألباني إليك يا أمير المؤمنين أمرٌ ضاق على فيه للنهج ، وتفاقم على منه المخرج ، لأمر كرهت طاره^(٣) ، كما خشيت إظهاره ، فليُصَيِّفْني أمير المؤمنين من الخهم ، فإني أعوذ بِمَقْوَتِهِ^(٤) من العار الويل ، والأمر الجليل ، الذي يشتد على الحرائر ، ذوات البُعُول الأجار^(٥) ، فقال لها معاوية : وَمَنْ بَطْلُكَ هذا الذي تصفين من أمره المنكر ، ومن فعله المشهر^(٦) ؟ فقالت : هو أبو الأسود الدؤلي ، فالتفت إليه فقال : يا أبا الأسود : ما تقول هذه للراة ؟ فقال أبو الأسود : هي تقول من الحق بعضاً ، ولن يستطيع أحدٌ عليها نقصاً ؛ أما ما ذكرت من طلاتها فهو حق ، وأنا أخبر أمير المؤمنين عنه بالصدق ، والله يا أمير المؤمنين ما طلقناها عن ربيعة

(١) المائل : الجائر . (٢) أي من غير نقص ، من عثر في الأمر تعليلها : إذا قصر ولم يجتهد

(أر من غير تشويه ، من عذر الشيء : لطفه بالعلوة كفرحة) . (٣) تمكن بذلك من طلاتها .

(٤) النقرة : ماحول الدار . (٥) البول والجملة : جمع بول وهو التزوج ، والأجار : جمع

أجور ، أصل تفضيل من جار . (٦) شهره كنهه ، وشهره بالتشديد : أظهره في شدة .

ظهرت ، ولا لأى حقوة حضرت ، ولكنى كرهت شمائلها ، فقطعتُ عنى حباثلها ، فقال معاوية : وأى شمائلها يا أبا الأسود كرهت ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إنك مهيجها على بحواب هتيد^(١) ، ولسان شديد ، فقال معاوية : لا بُدَّ لك من محاورتها ، فاردد عليها قولها عند مراجعتها ، فقال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، إنها كثيرة الصَّحَب ، دَائِمَةُ الْقَرْبِ^(٢) ، مُهَيِّئَةٌ لِلْأَهْلِ ، مُؤَذِيَةٌ لِلْبَيْتِ ، مُسَيِّئَةٌ إِلَى الْجَارِ ، مُظْهِرَةٌ لِلْمَارِ ، إِنْ رَأَتْ خَيْرًا كَتَمَتْهُ ، وَإِنْ رَأَتْ شَرًّا أَذَاعَتْهُ » ، فقالت : « والله لولا مكانُ أمير المؤمنين ، وحضورُ من حَصَرَهُ من المسلمين ، لَرَدَدْتُ عَلَيْكَ بَوَادِرَ كَلَامِكَ ، بِنَوَافِدِ أَقْرَعُ بِهَا كَلَّ سِيَهَامِكَ^(٣) ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجْمُلُ بِالرَّأَةِ الْحَرَّةُ أَنْ تَشْتِمَ بَعْلًا ، وَلَأَنْ تَظْهَرَ لِأَحَدٍ جِلًّا ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : عَزَمْتُ عَلَيْكَ لِمَا أَجَبْتُهُ ، فَقَالَتْ : « يا أمير المؤمنين ، مَا عَلِمْتُهُ إِلَّا سَتُولًا جَوُولًا ، مُلِحًا بَخِيلًا^(٤) ، إِنْ قَالَ فَشَرُّ قَائِلٍ ، وَإِنْ سَكَتَ فَذُو دَغَائِلٍ^(٥) ، لَيْتَ حِينَ يَأْمَنُ ، وَتُعْلَبُ حِينَ يَخَافُ ، شَحِيحٌ حِينَ يُضَافُ^(٦) ، إِنْ ذَكَرَ الْجُودَ انْقَمَعَ^(٧) ، لِمَا يَعْرِفُ مِنْ قِصَرِ رِشَائِهِ^(٨) ، وَلَوْ لَمْ آبَاهُ ، ضَيْفُهُ جَائِعٌ ، وَجَارُهُ ضَانِعٌ ، لَا يَحْفَظُ جَارًا وَلَا يَحْمِي ذِمَارًا ، وَلَا يَذْكُرُ نَارًا ، أَكْرَمَ النَّاسِ عَلَيْهِ مِنْ أَهَانِهِ ، وَأَهْوَنُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَكْرَمِهِ » ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : سَبَّحَانَ اللَّهِ لِمَا تَأْتِي بِهِ هَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنَ السَّجْعِ ! فَقَالَ

(١) حاضر مهياً . (٢) الصَّحَب : شدة الصوت ، واللَّوْب : حدة اللسان وبذامته .

(٣) البوادر : جمع بادرة ، وهى ما يبدو من حدثك فى اللُصْب من قول أو فعل ، بنوافذ أى بمجيج نافذة ماضية ، وكل السيف وغيره فهو كل وكليل : لم يقطع . (٤) وكان أبو الأسود معروفاً بالبخل . ومن طريف ما يروى منه أن رجلاً قال له : « أنت والله ظرف لفظ ، وظرف علم ، ووعاء سلم ، غير أنك بخيل » فقال : « وماخير ظرف لا يمسك مائيه ؟ » وسلم عليه امرأى يوماً ، فقال أبو الأسود : كلمة مقولة ، فقال له : أتأذن فى السؤال ؟ قال : ورايك أوسع لك ، قال : فهل عندك شيء ؟ قال : نعم ، قال : أظمئ ، قال : حيال أحق منك ، قال : ما رأيت ألام منك ! قال : نسيت نفسك . « أمال المرفقى : ١ : ٢١٤ . »

(٥) دغائل : جمع دغيلة كسفينة . والدغلة والدغل بالتحريك : دخل فى الأمر نفسه .

(٦) ضائفه بضمه : زل عليه ضيفا . (٧) انقمع : دخل البيت مستخفياً .

(٨) الرشاد فى الأصل : الخيل .

أبو الأسود : أصحح الله أمير المؤمنين ، إنها مطلقة ، ومن أكثر كلاماً من مطلقة ؟ فقال لها معاوية : إذا كان رَوَّاحاً^(١) فتعالى أقصِلْ بينك وبينه بالقضاء .

فلما كان الرواح جاءت ومعهما ابنتها قد احتضنته ، فلما رآها أبو الأسود قام إليها لينزع ابنه منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود ، لا تمسح المرأة أن تنطق بحجتها ، قال : يا أمير المؤمنين ، أنا أحق بحمل ابني منها ، فقال له معاوية : يا أبا الأسود دعها تفل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، حملته قبل أن تحمله ، ووضعت قبل أن تضعه » ، فقالت : « صدق والله يا أمير المؤمنين : حملته خفاً ، وحملته ثقلاً ، ووضعه شهوة ووضعه كرهاً ، إن يطأ لوعاؤه ، وإن ندي لسقاؤه ، وإن حبرى لفناؤه ، فقال معاوية : سبحان الله لما تأتين به ! فقال أبو الأسود : إنها تقول الأبيات من الشعر فتجيدها ، فقال معاوية : إنها قد غلبتك في الكلام ، فكلفت لها أياتاً لملك تغلبها ، فأنشأ أبو الأسود يقول :

مرحّباً بالتي تجور علينا ثم سهلاً بالعامل المحمول
أغلفت بابها على وإن خير النساء ذات البمول
شملت نفسها على فراغا هل سمعتم بالفارغ المشمول ؟

فأجابته وهي تقول :

ليس من قال بالصواب وبالحق كمن جار عن مفار السبيل
كان ندي سقاؤه حين يضحى ثم حبرى فناؤه بالأصيل
لست أبني بواحدى وابن حرب بدلاً ما علمته والغليل^(٢)

فأجابها معاوية :

ليس من غداه حيناً صغيراً وسقام من نديه مخدول

(١) أي إذا كان الوقت رواساً ، والرواح : المشي . (٢) أي أقسم بخليل الله وهو سيدنا محمد

صل الله عليه وسلم .

مِىَ أَوَّلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رَحْمًا مِنْ أَيْمِهِ بِالْوَحَى وَالْأَنْزِيلِ^(١)

أُمُّهُ مَا حَتَّتْ عَلَيْهِ وَقَامَتْ مِىَ أَوَّلَى بِجَمَلِ هَذَا الضَّئِيلِ^(٢)

قضى لها معاوية عليه ، واحتملت ابنها وانصرفت . (بلاغات النساء ص ٥٢)

٣٨٣ — وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير

لَمَّا قَدِمَ الْأَحْنَفُ فِي وَجْهِهِ أَهْلَ الْبَصْرَةِ ، إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ ، تَكَلَّمَ أَبُو حَاضِرِ الْأَسَدِيِّ - وَكَانَ خَطِيبًا جَمِيلًا - فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ : اسْكُتْ فَوَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنْ لِي بِكُلِّ عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، سَرَفَ الدِّينَارِ بِالْدَّرَمِ ، قَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : إِنْ لَنَا وَلَكَ مَثَلًا ، أَفْتَأَذُنُ فِي ذِكْرِهِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « مَثَلُنَا وَمَثَلُكَ وَمَثَلُ أَهْلِ الشَّامِ قَوْلُ الْأَعْمَى حَيْثُ يَقُولُ :

عُلِقَتْهَا عَرَضًا وَعُلِقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(٣)

أَحَبُّكَ أَهْلُ الْعِرَاقِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ ، وَأَحَبُّ أَهْلِ الشَّامِ عَبْدُ الْمَلِكِ

ابن مَرْوَانَ . (البيان والتبيين ١ : ١٦٤)

٣٨٤ — كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان

بَعَثَ الْحُجَّاجُ خُطْبَاءَ مِنَ الْأَحْمَاسِ^(١) إِلَى عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، فَتَكَلَّمُوا ، فَلَمَّا

انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَى خُطْبِيبِ الْأَزْدِ ، قَامَ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُ الْعَرَبُ أَنَّا حَيٌّ فِيمَا لَمْ ، وَلَسْنَا بِحَيٍّ مَقَالٍ ، وَأَنَا نَجْزِي بِفِعْلِنَا عِنْدَ أَحْسَنِ

(١) الرحم : الرحمة والرفقة والتخلف . (٢) في الأصل : « أم ما حنت عليه . . . » وهو تحريف ،

إذ يخل وزن البيت . (٣) علق فلان امرأة (بالبناء المجهول مشددا) : أحبا . (٤) الحس

كفعل : الأمانة الصلبة جمع أحس ، ولقب به قريش ، وكثانة ، وجذيلة ، ومن تأييدهم في المجاهلة

لتحسبهم في دينهم ، أو لانجبتهم بالمساء وهي الكمية ، وأحس العرب : من أمهاتهم من قريش ، وكانوا

يتشددون في دينهم ، وكانوا شجعان العرب لا يطلاقون .

قولهم ، إن السيوف لتعرف أكتفنا ، وإن للوت لَيَسْتَنْدِبُ أرواحنا ، وقد علت الحربُ الزُّيُون ، أَنَا قَرَعَ جَاحِهَا ، وَغَلِبَ مَرَاهَا^(١) » ثم جلس^(٢) .
(الأمال ٢ : ٢٥٩)

٣٨٥ — سؤال عبد الملك للحجاج وما أجاب به

ودخل الحجاج^(٣) على عبد الملك بن مروان ، قال : يا حجاجُ : بلغني أنك لا تُقدِّر على الهِجاء ، قال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ قَدَّرَ على تشييد الأبنية ، أَسَكَّنَهُ إِخْرَابُ الأُخْبِيَّةِ ، قال : فإيمنك من ذلك ؟ قال : إن لنا عِزًّا يَمْنَعُنَا من أن نُظَلَّمَ ، وإن لنا حِلْمًا يَمْنَعُنَا من أن نُظَلِّمَ ، فَمَلَأَ الهِجَاءُ ؟ قال : لَكَلَّمَكَ أَشْعُرُ من شَمْرِكَ فَأَتَى لَكَ عِزٌّ يَمْنَعُكَ من أن تُظَلِّمَ ؟ قال : الأدب البارع ، والتهم الناصع ، قال : فإي الحِلْمِ القِي يَمْنَعُكَ من أن تُظَلِّمَ ؟ قال : الأدب المُسْتَطَرَفُ ، والطَّبْعُ النَّائِدُ ، قال : يا حجاج لقد أصبحتَ حَكِيمًا . قال : وما يَمْنَعُنِي وَأَنَا بَهِيمٌ^(٤) أمير المؤمنين ؟ .

(الأمال ٢ : ٤٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٤)

٣٨٦ — وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة

على عبد الملك بن مروان

لما وَلِيَ الحجاج بن يوسف الحَرَمَيْنِ بعد قتله ابنَ الزبير ، اسْتَخَصَّ إبراهيم بن محمد ابنَ طَلْحَةَ ، فَرَفَّهَ وعَظَّمَ منزلته ، فلم تزل تلك حاله عنده ، حتى خرج إلى عبد الملك بن مَرْوَانَ ، فخرج معه مُعَادِلًا ، لَا يَقْصُرُ لَهُ في بَرٍّ وإِعْظَامٍ ، حتى حضر به عبد الملك ، فلما

(١) الصري: بقية العين . (٢) وفي رواية الجاحظ: وقالوا: ولما قصت خطباء تزارع معاوية، تذهبت في الطلب كل مذهب، قام صبرة بن شيان فقال: « يا أمير المؤمنين: إنا حي فعال، ولنا حي مقال، ونحن نبليغ بفعلنا أكثر من مقال غيرنا (البیان والتبيين ١ : ١٦٤) ، وروي للبهردي في الكامل هذا القول من صبرة أيضا — انظر تهذيب الكامل ١ : ١٦ — ، وقد تقدم لك أن صبرة بن شيان من الأزد — انظر الجزء الأول ص ٤٣٦ . (٣) هو الحجاج بن ربيعة وابنه مجيد مشهور، مات سنة ٨٩٠ . (٤) سار .

دخل عليه لم يبدأ بشيء بعد السلام ، إلا أن قال له : « قَدِمْتُ عَلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِرَجُلِ
 الْحِجَازِ ، لَمْ أَدْعُ لَهَا نَظِيرًا فِي الْفَضْلِ وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ
 الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَوْتُ مِنْهُ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحُسْنِ
 الْمُوَاظَرَةِ . وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، وَقَدْ أَحْضَرْتَهُ بِأَيْدِكَ ، لِيَسْتَهْلَ عَلَيْهِ إِذْنُكَ ،
 وَتَعْرِفَ لَهَا مَعْرِفَتَكَ » . فَقَالَ : أَذْكَرْتَنِي رَحِمًا قَرِيبَةً ، وَحَقًّا وَاجِبًا ، يَا غُلَامُ : أَتَذُنُّ
 لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ طَلْحَةَ ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ أَذْنَاهُ عَبْدُ الْمَلِكِ حَتَّى أَجْلِسَهُ عَلَى فَرَائِشِهِ ،
 ثُمَّ قَالَ لَهُ : يَا بَنَ طَلْحَةَ ، إِنَّ أَبَا مُحَمَّدٍ (الْحِجَاجِ) ذَكَرْنَا مَالَهُ نَزَلَ نَمْرُوكَ بِهِ مِنَ الْفَضْلِ
 وَالْأَدَبِ ، وَالْمُرُوءَةِ ، وَحَسَنِ الْمَذْهَبِ ، مَعَ قَرَابَةِ الرَّحِمِ ، وَوُجُوبِ الْحَقِّ ، وَعِظَمِ قَدْرِ
 الْأَبَوَةِ ، وَمَا بَلَاهُ مِنْكَ فِي الطَّاعَةِ وَالنَّصِيحَةِ ، وَحَسَنِ الْمُوَاظَرَةِ ، فَلَا تَدَعَنَّ حَاجَةً فِي خَاصَّةِ
 نَفْسِكَ وَعَامَتِكَ إِلَّا ذَكَرْتَهَا . فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّ أَوَّلَ الْحَوَائِجِ ، وَأَحَقَّ مَا قُدِّمَ
 بَيْنَ يَدَيِ الْأُمُورِ ، مَا كَانَ اللَّهُ فِيهِ رِضًا ، وَلِحَقِّ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آدَاءُ ، وَكَفٍ فِيهِ
 وَجَلَاءُ الْمُسْلِمِينَ نَصِيحَةً ، وَعِنْدِي نَصِيحَةٌ لَا أَجِدُ بُدًّا مِنْ ذِكْرِهَا ، وَلَا أَقْدِرُ عَلَى ذَلِكَ
 إِلَّا وَأَنَا خَالٍ ، فَأَخْلِيكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَرِدُ عَلَيْكَ نَصِيحَتِي ، قَالَ : أَدُونْ أَبِي مُحَمَّدٍ ؟ قَالَ :
 نَعَمْ ، دُونَ أَبِي مُحَمَّدٍ ، قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : الْحِجَاجُ قَمِي ، فَلَمَّا خَطَرَفَ ^(١) الشَّرَّ أَقْبَلَ عَلَى
 إِبْرَاهِيمَ ، فَقَالَ : يَا بَنَ طَلْحَةَ قُلْ نَصِيحَتُكَ ، قَالَ : بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَقَدْ عَهَدْتُ إِلَى
 الْحِجَاجِ فِي تَقَطُّرُسِهِ وَتَمَجُّرُفِهِ ، وَبُعْدِهِ مِنَ الْحَقِّ ، وَقُرْبِهِ مِنَ الْبَاطِلِ ، فَوَافِيَتِهِ الْحَرَمِينَ ،
 وَهَامَا مَا وَبِهَا مِنْ جِهَتَيْهَا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَالْمَوَالِي الْأَخْيَارِ ، بِسُوءِهِمْ الْخُتُفَ ^(٢)
 وَيَحْكُمُ فِيهِمْ بِتِيرِ السُّنَّةِ ، بَعْدَ الْقَدِيِّ كَانَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِهِمْ ، وَمَا انْتَهَيْتُ مِنْ حَرَمِهِمْ ،
 وَيَطْلُومُ بَطْنَانِ أَهْلَ الشَّامِ ، وَرَعَاعَ لَأَرْوِيَّةٍ لَمْ فِي إِقَامَةِ حَقِّ ، وَلَا فِي إِزَاحَةِ بَاطِلٍ ،
 ثُمَّ تَظُنُّ أَنَّ ذَلِكَ يَنْجِيكَ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَكَيْفَ بِكَ إِذَا جَانَاكَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 غَدًا لِلْخُصُومَةِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنَّكَ لَنْ تَنْجُو هُنَاكَ إِلَّا بِمُحَبَّةٍ تَضَعَنَّ لَكَ

(١) المراد أوعى ، من خُطِرَ جِلْدُ الْمَرْءِ : إِذَا اسْتَرَضَى . (٢) يُولِيهِمُ اللَّهُ .

النجاة ، فارتفع على نفسك أو دَع ، وكان عبد الملك مُسَكِّنًا ، فاستوى جالسًا ، وقال : كذبتَ وَمَنْتَ^(١) فيما جئت به ! واقد ظن بك الحجاج ظنًا لم نجد فيه فيك ، وقد يُظَنّ الخيرُ بغير أهله ، قم فأنت المائتُ الحاسد ! قال : قمت والله ما أبصر شيئًا ، فلما حُطِفَ السترُ لحفي لاحق ، فقال للحاجب : امنع هذا من الخروج . وأذن للحجاج ، فدخل فلبث مليًا ، ولا أشكُ أنهما في أمرى ، ثم خرج الإذن لى ، فدخلت ، فلما كشف لى الستر ، إذا أنا بالحجاج خارج ، فاعتنقنى ، وقَبَّلَ ما بين عينيَّ ، وقال : أما إذا جرى الله المتواخيين خيرًا بفضل توأصلهما ، فجزاك الله عنى أفضلَ الجزاء ، فوالله لئن سلمتُ لك لأُرفعنَّ ناظرَيك ، ولأُعدينَّ كعبك ، ولأُثَبِّعنَّ الرجالَ غبارَ قدمَيْك ، قال : قلت في نفسى إنه ليسغَرَ لى ، فلما وصلت إلى عبد الملك أدنانى حتى أدنانى مجلسى الأول ، ثم قال : يا ابن طلحة : هل أعلمت الحجاج بما جرى أُرْشاركك أحد في نصيحتك ؟ فقلت : لا والله ، ولا أعلم أحدًا أظهرَ يَدًا عندى من الحجاج ، ولو كنت محاييًا أحدًا بدبى لكان هو ، ولكنى آثرتُ الله ورسوله والمسلمين ، قال : قد علمت أنك لم ترد الدنيا ، ولو أردتها لكانت لك فى الحجاج ، ولكن أردت الله والدار الآخرة ، وقد عزلتك عن الحرمين لما كرهت من ولايته عليهما ، وأعلمته أنك استقرت لى به عنهما استقلالاً لهما ، ووليتهُ العرافين وما هنالك من الأمور ، التى لا يُدَحِّضُها إلا مثله ، وإنما قلت له ذلك ليوذى ما يلزمه من ذمامك ، فإنك غير ذام لصحبته مع يدك عنده ، فخرجت مع الحجاج وأكرمنى أضاف إكرامه .

(العقد القريد ١ : ١٢١ ، وشرح السيوطى ص ١١٩)

(١) مان مينا : كلب .

٣٨٧ - قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك

لما فرغ الحجاج من دير الحجاج ، وقَدِم على عبد الملك ومعه أشرف أهل المِصرين - البصرة والكوفة - أدخلهم عليه ، فبينما هم عنده ، إذ ثَمَا كروا البُلدان ؛ فقال محمد بن ابن عُمَيْر بن عَطَّارْد : « أصلح الله الأمير ، إن الكوفة أرض ارتفعت عن البصرة وَحَرَّهَا وَغَمَّقَهَا ^(١) ، وَسَفَلَتْ عن الشَّامِ وَوَبَّأَتْهَا ، وجاورها الْفُرَاتُ ، فَتَذُبْ ماؤها ، وطاب ثَمَرُهَا » ، فقال خالد بن صَفْوَان الأَحمسي : « أصلح الله الأمير ، نحن أَوْسَعُ منهم بَرِّيَّةً ، وَأَسْرَعُ منهم في السَّرِيَّةِ ^(٢) ، وَاكْثَرُ منهم قَنَدًا ^(٣) ، وَعَاجًا ، وَسَاجًا ^(٤) ، وَنَاسًا ^(٥) ، ماؤنا صَفْوٌ ، وَخَيْرُنا عَفْوٌ ، لَا يَخْرُجُ مِنْ عِنْدِنَا إِلَّا قَائِدٌ وَسَاقٌ وَنَاقٍ ^(٦) » ، فقال الحجاج : « أصلح الله أمير المؤمنين ! إني بالبلدين خبير ، وقد وَطِئْتُهُمَا جَمِيعًا » ، فقال له : قل فأنت عندنا مُصَدِّقٌ ، فقال : « أَمَّا البصرة فمَجُوزٌ شَطْلًا ، دَفْرَاءٌ ، بَحْرَاءٌ ، أُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ حَلْيٍ وَزِينَةٍ ؛ وَأَمَّا الكوفة ، فَشَابَةِ حَسَناءَ جَمِيلَةٍ ، لَاحِلٌ لَهَا وَلَازِمَةٌ » . فقال عبد الملك : فَضَلْتَ الكوفةَ على البصرة . (مروج الذهب ٢ : ١٤٨)

• • •

وروى الجاحظ قال :

قال خالد بن صفوان ^(٧) - وَسُئِلَ عن الكوفة والبصرة - : « نَحْنُ مَتَابِقُنَا قَصَبٌ ، وَأَنهَارُنَا عَجَبٌ ، وَسَمَاؤُنَا رُطَبٌ ^(٨) ، وَأَرْضُنَا ذَهَبٌ » .

(١) التقي : ركوب التقي الأرض ، أرض غيقة كفرجة : ذات نقي ونقل ، أو قريبة من المياه ، وق الأصل : « وعمقها » وهو تصحيف (٢) البرية : من خمسة أقدس إلى ثلثائة ، أو أربعمائة ، والمراد في التهورى القتال . (٣) القند : عسل قصب السكر . (٤) الساج : خشب أسود وزين يجلب من الهند ، ولا تكاد الأرض قبله ، وهو يشبه الأبنوس . (٥) في الأصل : « وباسا » بالياء ، وأراه بالنون . (٦) يريد بالسائق : الأمير ، وبالنابق : الخليل . (٧) أى يصف البصرة ، وكلنا بابه . (٨) السماء : كل ماعلاك ، يشير إلى كثرة النخيل في مشان البصرة ، « مشان كسماب : قرية قريبة منها » ، وأن النمر لكثرة ووقته يظلمهم .

وقال الأحنف : « نحن أبعد منكم سرية ، وأعظم منكم تجربة ^(١) ، وأكثر منكم ذرية ، وأغذى منكم برية » .
وقال أبو بكر المذلي : « نحن أكثر منكم ساجاً ، وعاجاً ، وديباجاً ، وخراجاً ، ونهراً عجاجاً ^(٢) » .
(البيان والبيان ٢ : ٤٦)

٣٨٨ - وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة

لما هزم المهلب بن أبي صفرة قطري بن الفجاءة : صاحب الأزارقة . بحث إلى مالك بن بشير ، فقال له : إني مؤفدك إلى الحجاج ، فسير ، فإنما هو رجل مثلك ، وبعث إليه بجائزة فردها ، وقال : إنما الجائزة بعد الاستحقاق وتوجه ، فلما دخل على الحجاج قال له : ما اسمك ؟ قال : مالك بن بشير ، قال : مُلْك وبشارة ! كيف تركت المهلب ؟ قال : أدرك ما أمل ، وأتيت من خاف ، قال : كيف هو لجنده ؟ قال : والله رهوف . قال : فكيف رضاهم عنه ؟ قال : وسيمهم بالفضل ، وأقنعهم بالعدل ، قال : فكيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم ؟ قال : نلقاهم بمجدنا فنقطع فيهم ، ويلقوننا بمجدهم فيقطعون فينا ، قال : كذلك الجند إذا لقي الجند ؟ قال : فما حال قطري ؟ قال : كادنا يبيض ما كدناه . قال : فما متمعن من أتباعه ؟ قال : رأينا المقام من ورائه خيراً من أتباعه ، قال : فأخبرني عن وفد المهلب ، قال : أعباء القتال بالليل ، حُماة السرح ^(٣) بالنهار ، قال : أيهم أفضل ؟ قال ذلك إلى أيهم ، قال : لنقولن ، قال : هم كخفّة مضروبة لا يعترف طرفاً ، قال : أقسمت عليك هل رأت ^(٤) في هذا الكلام ؟ قال : ما أطلع الله على غيبه أحداً ، فقال الحجاج لجلسائه : هذا والله الكلام المطبوع ، لا الكلام المصنوع .

(المقد القوي ١ : ١٢٢ ، ومروج الذهب ٢ : ١٤٨)

(١) نجر كنصر نجر و تجارة : نجر ، وأرى أن « بحرية » مصدر صناعي لنجر يريد أن أهل البصرة أعظم أطول باعاً من أهل الكوفة في التجارة - لأن البصرة ثغر على الخليج الفارسي ، فهي متصلة ببلاد الهند والشرق . (٢) السجاج : الصياح من كل ذي صوت . (٣) السرح في الأصل : المال الصالح . (٤) روى في الأمر : نظر فيه وتعبه ، ولم يسجل بجواب .

٢٨٩ - وفود كعب الأشقرى على الحجاج

أوفد للمهلب بن أبي صفرة كعب بن معدان الأشقرى - ومعه مئة بن تليد الأزدي - إلى الحجاج بعد هزيمة الأزارقة، وقتل أميرهم عبد ربّه الصنير، فلما دخل عليه بدر كعب فأنشده قصيدته التي مطلعها :

يَا خَفْصُ : إِنِّي عَدَائِي عَسْكَ الشَّقَرُ . وقد سِرْتُ فَأَذَى عَيْنِي السَّهَرُ

قال له الحجاج : أشاعر أم خطيب ؟ قال : كلاهما ، ثم أقبل عليه ، فقال له : أخبرني عن بني المهلب ، قال : « لِلْفَيْرَةِ فَارِسُهُمْ وَسَيْدُهُمْ ، نَارُ ذَا كِيَةٍ ^(١) ، وَصَدَّةٌ ^(٢) عَالِيَةٌ ، وَكَفَى بِيَزِيدَ فَارِسًا شَجَاعًا ، لَيْثُ غَابِرٍ ، وَبَحْرُ جَمِّ عُبَابٍ ، وَجَوَادُهُمْ وَسَخِيهِمْ قَبِيصَةٌ ، لَيْثُ الْخُمَارِ ^(٣) ، وَحَامِي الْقُدَامِ ، وَلَا يَسْتَحْيِي الشُّجَاعُ أَنْ يَفِرَّ مِنْ مُذْرِكٍ ، فَكَيْفَ لَا يَفِرُّ مِنَ الْمَوْتِ الْحَاضِرِ ، وَالْأَسَدُ الْخَادِرُ ؟ وَبَعْدُ الْمَلِكِ سَمٌ نَاقِعٌ ، وَسَيْفٌ قَاطِعٌ ، وَحَبِيبُ الْمَوْتِ الْإِثْمَانُ ، إِنَّمَا هُوَ طَوْدٌ شَامِخٌ ، وَفَضْرٌ بَاذِخٌ ^(٤) ، وَأَبُو مُيَيْمِنَةَ الْبَطَّلِ الْمُحَامٍ ، وَالسَّيْفُ الْحَسَامُ ، وَكَفْنَاكَ بِالْفَضْلِ نَجْدَةٌ ، لَيْثُ هُدَارٍ ، وَبَحْرُ مَوَّارٍ ^(٥) ، وَبَعْدُ لَيْثُ غَابٍ ، وَحُسَامٌ ضِرَابٍ ، قال : فكيف كانوا فيكم ؟ قال : كانوا حُمَاةَ السَّرْحِ نَهَارًا ، فَإِذَا أَلْيَلُوا ^(٦) فَفَرَّسَانِ الْبَيَاتِ ، قال : فَأَيُّهُمْ كَانَ أَنْجَدُ ؟ قال : كانوا كَالْحَلْقَةِ الْمُفَرَّغَةِ : لَا يُدْرَى أَيْنَ طَرَفُهَا ، قال : فكيف كان لكم المهلب وكنتم له ؟ قال : كان لنا منه شَفَقَةُ الْوَالِدِ ، وَهُوَ مَتَّارٌ الْوَالِدِ ، قال : فكيف جماعة الناس ؟ قال : هم أحسن حال ، أَدْرَكُوا مَا رَجَوْا ، وَأَمِنُوا مِمَّا خَافُوا ، وَأَرْضَاهُمُ الْعَدْلُ ، وَأَغْنَاهُمُ النَّقْلُ ^(٧) ، قال : فكيف كنتم أنتم وعدوكم ؟ قال : كنا إِذَا أَخَذْنَا عَفْوًا ، وَإِذَا أَحْذَوْا يَتَيْسَنَا مِنْهُمْ ،

(١) ذَكَتِ النَّارُ : اشتهت لها . (٢) الصَّلَاةُ : القنطرة المستوية تَنْبِتُ كَذَاكَ . (٣) أَغَارُ عَلَى

الْعَدُوِّ إِفْطَارَةً وَمَقَارًا . (٤) الطَّوْدُ : الْجَبَلُ ، وَيَاذِخٌ : عَالٍ . (٥) مَارٍ : مَاجٍ وَاضْطَرَبَ .

(٦) أَلْيَلُوا : دَخَلُوا فِي اللَّيْلِ . (٧) النَّفِيَّةُ وَالْمَجِيءُ .

وإذا اجتهدوا واجتهدنا طبعنا فيهم ، فقال الحجاج : إن العاقبة للمتقين ، قال : كيف أفلتكم قطري ؟ قال : كدناه بيمض ما كادنا به ، نصرنا منه إلى الذي نحب ، قال : فلا اتبعتموه ؟ قال : كان أَلَدَ عندنا أثر من القَلِّ^(١) ، قال : أ كنت أعددت لي هذا الجواب ؟ قال : لا يعلم الغيب إلا الله ، فقال : هكذا تكون والله الرجال ، المهلب كان أعلم بك حيث وجهك ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، وحمله على فرس ، وأوفده على عبد الملك بن مروان ، فأمر له بعشرة آلاف أخرى .

(الكامل للبرد ٢ : ٢٣٢ ، والأغانى ١٢ : ٥٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٠٥ ، وزهر الآداب ٣ : ٩٣)

٣٩٠ - سليك بن سلكه والحجاج

دخل على الحجاج سُلَيْكُ بن سُلْكَه^(٢) ، فقال :
« أصلح الله الأمير ! أَعِزَّنِي بِمَمْلَكَ ، واغْضُضْ عَنِّي بِبَصْرِكَ ، واكْفِفْ عَنِّي حَزْبِكَ ؛
فَإِنْ سَمِعْتَ خَطَاؤِي زَلَّلاً فَذَوْنُكَ وَالْعُقُوبَةُ ، فَقَالَ : قُلْ ، قَالَ : عَصَى عَاصٍ مِنْ عُرْضِ
الشَّيْثَةِ ، فَخَلَّقَ عَلَى اسْمِي ، وَهَدِمَتْ دَارِي ، وَحَرِمْتُ عَطَائِي ، قَالَ : هِيَاتِ ، أَمَا سَمِعْتَ
قول الشاعر :

جَانِيكَ مَنْ يَجْنِي عَلَيْكَ وَرَبِّمَا تُمْدِي الصَّحَّاحَ مَبَارِكُ الْجُرُوبِ^(٣)
وَزَرْبُ مَأْخُوذٍ بِذَنْبِ حَشِيرِهِ وَنَجْمُ الْمُقَارِفِ صَاحِبُ الْقَدَبِ

(١) القوم المهزومون . (٢) هو غير سليك بن سلكه الذي ضرب به الخليل العود ، فقيل : « أهدى من السليك » ، فإن سليكا اللداه جاهل ، (وهو سليك بن عمرو التميمي ، والسلكة أمه ، وهي أمة سوداء ، وكان أحد صديقات العرب ولصوصهم المدائين الذين لا يلسقون ، ولا تعلق بهم الخليل إذا عدوا ، وهم : السليك ابن السلكة ، والشنفرى ، وتأبط شراً ، وعمرو بن براق ، ونفيل بن برة) ، قال صاحب القاموس في مادة غرب : « وأغربة العرب سودانهم ، والأغربة في الجاهلية : حنرة ، وخفاف بن ثلبة ، وأبو صير بن المهلب ، وسليك بن السلكة ، وهشام بن عقبة بن أبي معيط ، إلا أنه مخضرم قد ول في الإسلام ... الخ » ، وقال ابن نباتة في شرح البيون « وهو جاهل قديم » - انظر ترجمته في شرح البيون ص ٨٠ والأغانى ١٨ : ١٣٣ - . (٣) في الأصل « جانيك من يجني عليك وقد » على أن العروض حذاه كالقرب وهو صحيح ، ولكن رأيت العروض في البيت الذي يليه تامة ، فوضعت « وربما » بدل « وقد » فبشاكلة بين العروضين .

قال أصلح الله الأمير، سمعتُ الله قال غير هذا، قال : وما ذاك ؟ قال : قال :
« يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا ، فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ، إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ »
قال : مِمَّذَا اللهُ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا أَطْلَلُونَا .

قال الحجاج : على^(١) يزيد بن أبي مسلم^(٢) ، فَأَتَى بِهِ قَتْلَ بَيْن يَدَيْهِ ، فقال :
فَكَرَّ لِهَذَا عَنْ اسْمِهِ ، وَاصْلُكَ^(٣) لَهُ بِطَلَانِهِ ، وَابْنُ لَهُ مَنْزِلُهُ ، وَصِرْ مَنَادِيَا يَنَادِي
فِي النَّاسِ ، صَدَقَ اللهُ ، وَكَذَّبَ الشَّاهِرُ .
(الحمد لله الذي هدانا لهذا) (٦ : ٣)

٣٩١ - جامع المحاربي والحجاج

شكا الحجاج سوء طاعة أهل العراق . وتنفق مذهبهم ، وتخطط طريقهم ، فقال له
جامع الحارثي - وكان شيخاً صالحاً خطيباً لسيما - : « أما إنهم لو أحبوك لأطاعوك ،
على أنهم ما شئتوك لنسبك ، ولا ليلذك ، ولا ليدان نفسك ، فدع ما يبيدك منك ،
إلى ما يقربهم إليك ، واتيسر العافية من دونك ، تُعطى من فوقك ، وليكن إيقاعك
بعد وعيدك ، ووعيدك بعد وعيدك . قال الحجاج : « إني والله ما أرى أن أردُّ^(١)
بني القسمة إلى طاعتي إلا بالسيف » ، فقال « أيها الأمير ، إن السياف إذا لاقى السياف
ذهب الخيليار » ، فقال الحجاج : « الخيليار يومئذ لله » ، قال : « أجل ، ولكن
لا تدري لمن يحميه الله » ، فنضب الحجاج وقال : « يَا هَتَاهُ^(٢) إناك من محارب » ،
فقال جامع :

وَالْحَرْبُ سُمِّيَتْ ، وَكَانَ مُحَارِبًا إِذَا مَا اتَّقْنَا أَمْسَى مِنَ الطُّغْيَانِ أَهْمًا

(١) كاتب الحجاج . (٢) صكه كقتل : كتب له صكاً ، وهو الكتاب الذي يكتب في الماملات : (الشك) .

(٣) من : كلمة يكتفي بها عن اسم الإنسان ، فإذا ناديت مذكراً بغير التصريح باسمه قلت : ياهن أقبل ،
وفد تزد الألف والهاء في آخره في النداء خاصة ، فيقال ياهن أقبل ، أي ياقولن ، وهذه أفعال تصير تاء
في الوصل ، وتقم على تقدير أنها آخر الاسم وتكسر لاجتماع الساكنين .

فقال الحجاج: « والله لَهَمَّتْ أَنْ أخلع لسانك ، فأضرب به وجهك » ، فقال جامع : « إِنْ صدَّقَكَ أغضبتك ، وإن عَشَشْتَكَ أغضبتنا الله ، فنَضِبُ الأمير أهون علينا من غضب الله » قال : أجل ، وسَكَنَ ، وشَئِلَ الحجاج بيمض الأمر ، فأنسل جامع ، فرَّ بين صفوف خيل الشام ، حتى جاوز إلى خيل أهل العراق - وكان الحجاج لا يخطئهم فأبصر كِبْكَبَةً^(١) فيها جماعةٌ من بكر العراق ، ونعيم العراق ، وأزد العراق ، وقيس العراق ، فلما رأوه أشرأبوا إليه ، وبلغهم خروجه ، فقالوا له : ما عندك ؟ دافع الله لنا عن نفسك ، فقال : وَيَحْكُمُ عُثْمُو بِالظلم كما يَنْصَحُكم بالعداوة ، ودَعُوا الصادي ما عاداكم ، فإذا ظفرتهم به تراجعتم وتعاقتهم ، أيها التميمي : هو أمدى لك من الأزدى ، وأيها القيسي : هو أمدى لك من النضائي ، وهل ظفّر بمن ناواه منكم إلا بمن بقي معه منكم ؟ وهرب جامع من قوره ذلك إلى الشام ، فاستجار نِزْفَر بن الحارث .

(البيان والبيان ٢ : ٦٨ ، والمقد الفريد ٢ : ١٥١ - ١ : ١٥٢ ،

ومعجون الأخبار ٢ ص : ٢١٢ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٣٠)

٣٩٢ - ليلي الأخيلية والحجاج

نَ مَوْلَى لَمَنْبَسَةَ بن سَيد بن العاصي قال :

كفت أدخل مع عُنْبَسَةَ بن سَيد بن العاصي إذا دخل على الحجاج ، فدخل يوماً ، فدخلت إليهما ، وليس عند الحجاج أحد إلا عُنْبَسَةُ ، فأقصدني ، فحى الحجاج يطبق فيه رُطْب ، فأخذ الخادم منه شيئاً فجاءني به ، ثم حى يطبق آخر ، حتى كثرت الأطباق ، وجعل لا يأتون بشيء إلا جاءني منه بشيء ، حتى ظننت أن ما بين يدي أكثر مما عندهما ، ثم جاء الحاجبُ فقال : امرأة بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها . فدخلت ، فلما رآها الحجاج طأطأ رأسه ، حتى ظننت أن ذَفَنَته قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى قدمت

(١) الكِبْكِبَةُ : الجماعة .

بين يديه ، فنظرت فإذا امرأة قد أسفت ، حسنة الخلق ، ومعهما جاريتان لها ، وإذا هي
تتلى الأختيائية ، فسألها الحباج عن نسبها ، فاستبكت له ، فقال لها : يا ليلى ، ما أتى بك ؟
قالت : « إغلافُ الشَّجُومِ »^(١) ، وقلةُ القُيُومِ ، وكَلْبُ البَزْدِ^(٢) ، وشدةُ الجُمْدِ ،
وكنْتُ لنا بعد الله الرَّقْدُ^(٣) » فقال لها : صفي لنا الفِجَاجِ^(٤) ، فقالت : « الفِجَاجُ مُنْجَرَةٌ
والأرضُ مُقْشَمَرَةٌ ، وَالْمَرْبُوكُ^(٥) مُعْتَلٌّ ، وذو العِيَالِ مُعْتَلٌّ^(٦) ، وَالْمَالُ لِكُلِّ لَقْلٍ^(٧) ،
وَالنَّاسُ مُسْتَنَوُونَ^(٨) ، رَحِمَهُ اللهُ يَرْجُونَ ، أَصَابَتْنَا سِنُونُ مَجْحُفَةٍ مُبِلَطَةٍ^(٩) ، لَمْ تَدَعْ لَنَا
هُبَّتًا وَلَا رُبْمًا^(١٠) ، وَلَا عَافِطَةً وَلَا نَافِطَةً^(١١) ، أَذْهَبَتِ الْأُمُوالُ ، وَمَزَقَتِ الرِّجَالُ ،
وَأَحْلَسَتِ الْعِيَالُ » ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال : هاني ، فأنشأت تقول :

أَحْجَاجٌ لَا يُفْلِلُ سِلَاحُكَ ، إِنَّمَا السَّمْنَابُ بِكَفِّ اللهِ حَيْثُ تَرَاهَا^(١٢)
أَحْجَاجٌ لَا تَمُطِي الْعَصَا مُنَافِمٌ وَلَا اللهُ يُعْطِي الْعَصَا مُنَاهَا
إِذَا هَبَطَ الْحَبَاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً تَتَّبِعُ أَقْصَى دَانِهَا فَتَشْفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْمُضَالِ الَّذِي بِهَا غَلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا
سَقَاهَا فَرَوَاهَا بِشُرْبٍ سِجَالِهِ دَمَاءُ رِجَالٍ حَيْثُ مَالُ حَشَاهَا^(١٣)

(١) أي أغلفت النجوم التي يكون بها المطر ، فلم تأت بقطر . (٢) كلب البرد : شدته ، وأصل
الكلب : السمار (بالضم) الذي يصيب الكلاب والذئاب . (٣) الرقد (بالفتح) : الموت ، ومصدر
وفده كضربه : أماته وأطاه ، وبالسكس : البطاء والصلابة . (٤) الحباج جمع فج : بالفتح ، وهو
الطريق الواسع بين جبلين . (٥) أرادت به الإبل الباردة فيه . (٦) معتل : محتاج من اتللة
بالفتح وهي الحاجة . (٧) لقل : أي مالك من أجل القلة . (٨) أي مقحطون ، والسنة : القسط .
(٩) مجفة : قاشرة ، ومبلطة : ملزقة بالبلاط ، والبلاط : الأرض المسطحة ، والحجارة التي تفرش
في الدار ، وأبلط الرجل فهو مبطل : إذا نزع بالأرض . (١٠) المبع : التفصيل ينتج في الصيف
(في آخر الشتاء) والريبع : التفصيل ينتج في الربيع (وهو أول الشتاء) . (١١) النافطة : الضائقة
(النتيجة) ، من المبط ، وهو الضرب ، فطقت كضرب : ضربت ، فهي مافطة ، والمبط أيضا : تثير
الفسان ، تثير بأنوثها كما يثير الحمار ، والنافطة المنز ، من النطف ، فطقت المنز كضرب نثرت بأنثها ،
أو عطست - فهي نافطة ، أو لأنها تنطف بيوتها أي تنفض دما ، أو النافطة إتياب النافطة ، أو النافطة الأمة
الراعية ، والنافطة الدابة . (١٢) السلاح مذكر ويؤنث كما في هذا البيت . (١٣) السجال : جمع
سجل كشمس ، وهو الدلو العظيمة .

إِذَا سَمِعَ الْحِجَابُ رِزًّا كَتَبِيَّةً أَعَدَّ لَهَا قَبْلَ النُّزُولِ قِرَاهَا^(١)
أَعَدَّ لَهَا مَسْمُومَةً فَارِسِيَّةً بِأَيْدِي رَجَالٍ يَحْلُبُونَ سَرَاهَا^(٢)
فَمَا وَلَهُ الْأَبْكَارُ وَالْعَوْنُ مِثْلَهُ يَبْخَرِ وَلَا أَرْضٍ يَحِثُّ نَرَاهَا^(٣)

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ! والله ما أصاب صِغَرِي شاعر
مَنْ دَخَلَ الْعِرَاقَ غَيْرَهَا ، ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ سَيْدٍ ، قَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعِدُّ لِلْأَمْرِ
عَسَى أَنْ لَا يَكُونُ أَبَدًا ، ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ : حَبُوكِ ! قَالَتْ : إِنِّي قَدْ قُلْتُ أَكْثَرَ
مِنْ هَذَا . قَالَ : حَبُوكِ وَنَحْمُكَ احْبُكِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا غِلَامِ اذْهَبْ إِلَى فُلَانٍ فَقُلْ لَهُ :
اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَذَهَبَ بِهَا ، فَقَالَ لَهُ : يَقُولُ لَكَ الْأَمِيرُ : اقْطَعْ لِسَانَهَا ، فَأَمَرَ بِإِحْضَارِ
الْحِجَابِ ، فَانْتَفَتَ إِلَيْهِ ، فَقَالَتْ : تَكَلَّفْتُكَ أَمْكُ ! أَمَا سَمِعْتَ مَا قَالَ ؟ إِنَّمَا أَسْرَكَ أَنْ تَقْطَعَ
لِسَانِي بِالْعَلَّةِ ، فَبِثَّ إِلَيْهِ بِسَيْفِهِ ، فَاسْتَشَاطَ الْحِجَابُ غَضَبًا ، وَهَمَّ بِقَطْعِ لِسَانِهِ ، وَقَالَ :
ارْزُدْهَا ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ ، قَالَتْ : كَادَ وَأَمَانَةُ اللَّهِ يَقْطَعُ مَقُولِي ! ثُمَّ انْشَأَتْ تَقُولُ :

حَجَّاجُ أَنْتَ الْاِدَى مَا فَوْقَهُ أَحَدٌ إِلَّا الْخَلِيفَةُ وَالْمُسْتَخْفَرُ الصَّمَدُ^(٤)

حَجَّاجُ أَنْتَ شِهَابُ الْحَرْبِ إِنْ لَقِيتِ وَأَنْتِ لِنَاسِ نَوْرٍ فِي الدُّجَى يَفِيدُ^(٥)

ثُمَّ أَقْبَلَ الْحِجَابُ عَلَى جِلْسَانِهِ ، فَقَالَ : أَنْتَدِرُونَ مِنْ هَذِهِ ؟ قَالُوا : لَا وَاللَّهِ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ،
إِلَّا أَنَّا لَمْ نَرَوْكَ قَطُّ أَفْصَحَ لِسَانًا ، وَلَا أَحْسَنَ مَحَاورَةً ، وَلَا أَمْلَحَ وَجْهًا ، وَلَا أَرْضَنَ شِعْرًا
مِنْهَا ، فَقَالَ : هَذِهِ لِيِ الْأَخِيلِيَّةِ ، الَّتِي مَاتَ تَوْبَةُ الْخَفَاجِيِّ مِنْ حُبِّهَا ، ثُمَّ انْتَفَتَ إِلَيْهَا
فَقَالَ : أَنْشِدِينَا يَا لِيِ بَعْضَ مَا قَالَ فِيكَ تَوْبَةُ ، قَالَتْ : نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ هُوَ الْاِدَى يَقُولُ :

وَهَلْ تَبْكِينَ لِيِ إِذَا مِتُّ قَبْلَهَا وَقَامَ عَلَى قَبْرِى النِّسَاءُ النَّوْائِحُ ؟

(١) الرز : الصوت تسمعه من بعيد . (٢) المرى : بقية اللبن . (٣) اللون جمع لوان .

كسحاب ، وهى التى كان لها زوج . (٤) الصمد : الذى يحمى أى يقصد فى قضاء الحاجات .

(٥) لقيت : أسلمه من لقيت لثقة أى قبلت اللقاح ، والشهاب : شملة من فارس سلطنة ، ويقعد يتوقد .

كما لو أصاب الموت ليلى بكيها وجاد لها دمع من العين سافح^(١)
وأغبط من ليلى بما لا أناله بلى ، كل ما قوت به العين طامع
ولو أن ليلى الأختيلة سلئت على ، ودوني جندل وصفاح^(٢)
سلئت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صامع^(٣)

فقال : زيدينا من شعره يا ليلى ، قالت : هو القى يقول :

حامة بطن الوديعين ترنمي سفاك من الغر النوادي مطيرها^(٤)
أبيني لنا ، لا زال ريشك فارعا ولا زلت في خضراء غصن نصيرها
وكنت إذا ما زرت ليلى تفرقت وقد رآني منها الشدة سفورها
وقد رآني منها صدود رأيت وإراضها عن حاجتي وبسورها^(٥)
وأشرف بالقور اليفاع للى أرى نار ليلى أو يرانى بصيرها^(٦)
يقول رجال : لا يصيرك نأيتها بلى ، كل ما شفت النفوس يصيرها
بلى ، قد يصير العين أن تكثر البكا ويمتنع منها نومها وسرورها
وقد زعمت ليلى بأنى فاجر لنفسي فقاها ، أو عليها فبورها

فقال الحجاج : يا ليلى ، ما القى رآه من سفورك ؟ فقالت : أيها الأمير ، كان
يلى بي كثيرا ، فأرسل إلى يوما : إني آتيك ، وفطن الحى ، فأرصدوا له ، فلما أتاني
سقرت من وجهي ، فلم أن ذلك لشره ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال : لله درك !

(١) سافح : منصّب . (٢) الجندل : المجارة ، والصفائح : حجارة القبر المراض .

(٣) زقا : صاح ، والصدى - وهو الهامة - طائر يخرج من رأس المتوكل ، يزعم الأعراب أن روح القتيل يخرج ، فتصير حامة إذا لم يدرك بثأره ، فتصيح على قبره : اسقوني اسقوني حتى يثأر به ، وهذا مثل يراد به تحريض ولي القتيل على طلب دمه ، فبعله جهلة الأعراب حقيقة . (٤) النوادي : جمع غادية ، وهي السحابة تنشأ غداة . (٥) يسر كدخل : عيس وكلح . (٦) القور : جمع قارة ، وهي الجبل الصغير ، المنقطع عن الجبال ، واليفاع : التل .

فهل رأيت منه شيئاً تكرهينه ؟ فقالت : لا والله الذي أسأله أن يصلحك ، إنه قال مرة
قولا ظننت أنه قد خضع لبعض الأسماء ، فأنشأت أقول :

وذي حاجة قلنا له لا تبغ بها فليس إليها ما حيت سبيلُ
لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه وأنت لأخرى صاحب وخطيلُ
فلا والله الذي أسأله أن يصلحك ، مارأيت منه شيئاً ، حتى فرق الموت بيني وبينه ،
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن خرج في غزاة له ، فأوصى ابن عم له ، إذا أتيت
الحاضر من بني عبادة فناد بأعلى صوتك :
عفا الله عنها ، هل أبيتن ليلةً من الدهر لا يسري إلى خيالها ؟
وأنا أقول :

وعنه عفا ربّي وأحسن حاله فمرّت علينا حاجة لا ينالها
قال : ثم مه ؟ قالت : ثم لم يلبث أن مات ، فأتانا نعيه ، فقال : أنشدنا بعض
مرائيك فيه ، فأنشدت :

لَيْبِكُ الْبَذَارَى مِنْ خَفَاجَةِ نِسْوَةٍ بِمَاءِ شُثُونِ الْمَبْرَةِ الْمُتَعَدِّ^(١)
قال لها : فأنشدنا ، فأنشدته :

كَأَنَّ فِتْيَ الْفِتْيَانِ تَوْبَةً لَمْ يُنْخَ قَلَائِمُ يَفْخَصُنَ الْحَصَى بِالْكَرَاكِ^(٢)
فلما فرغت من القصيدة ، قال مخصن القمصى : - وكان من جلساء الحجاج -

(١) الشئون : جمع شأن ، وهو مجرى الدمع إلى العين . وكتب مصحح الأمل قال : « قوله المتعذر
كذا في النسخ ، وكتب بهامش بعضها له المتعذر بالآلف قبل اللال ، لتستقيم القافية ، وفي هامش يعض
النسخ بعد البيت الآتي :

فَوَيْ لَا تَخْطَأُ الرِّفَاقَ وَلَا يَرَى لَقَدْرَ عِيَالٍ دُونَ جَارٍ مَجَاوِرٍ » اهـ

(٢) القلائص جمع قلوص كصبور ، وهي لناقة الشابة ، أو الباقية على الدهر ، يفحصن : يقلبن ،
من نحس المطر التراب عليه ، وقصص القطا التراب : اتخذ فيه أنحوصاً وهو مجشمه ، والكراكر : جميع كركرة
بالسكر ، وهي زور البحر .

من الذي تقول هذه هذا فيه ؟ فوالله اني لأظنها كاذبة ، فنظرت إليه ، ثم قالت : أيها الأمير إن هذا القاتل لو رأى توبة لسره أن لا تكون في داره عذراه إلا هي حامل منه ، فقال المجاج : هذا وأبيك الجواب ، وقد كنت عنه غنيا ، ثم قال لها : سئلي يا ليلى تَعطى ، قالت : أعط ، ففك أصلى فأحسن ، قال : لك عشرون . قالت : زد ففك زاد فأجمل ، قال : لك أربعون ، قالت : زد ، ففك زاد فأكمل ، قال : لك ثمانون ، قالت : زد ، ففك زاد فتمم ، قال : لك مائة ، وأعلى أنها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، أنت أجود جوداً ، وأجحد مجداً ، وأوزى زنداً ، من أن تبخلها غنا ، قال : فما هي ؟ ونحك ليلى ؟ قالت : مائة من الإبل برعائها ، فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت : تدفع إلى النانة الحمدي ، قال : قد فعلت ، وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فيبلغ النانة ذلك ، فخرج هارياً عائداً ببذل لك ، فاقبته إلى الشام ، فهرب إلى قُتيبة بن مسلم بخراسان ، فاقبته على البريد بكتاب المجاج إلى قتيبة ، فانت بثؤمس^(١) ، ويقال بمخولان .

(الامال ١ : ٨٦ ، وزهر الآداب ٣ : ٢٦٥)

٢٩٣ الغضبان بن القبصري والحجاج

ورد على الحجاج كتاب من عبد الملك ، يأمره أن يبيت إليه بثلاثين جارية ، عشرين من النجائب ، وعشرين من قمد النكاح ، وعشرين من ذوات الأحلام ، فلما نظر إلى الكتاب لم يدري ما وصفه من الجوارى ، فصره على أصحابه فلم يعرفوه ، فقال له بعضهم : أصلح الله الأمير ، ينبغي أن يعرف هذا من كان في أوليته بدويتاً ، فله معرفة أهل البدو ، ثم غزا فله معرفة أهل الفزو ، ثم شرب الشراب ، فله بداه أهل الشراب ، قال : وأين هذا ؟ قيل : في حبسك ، قال : ومن هو ؟ قيل الغضبان الشيباني ، فأحضر

(١) قوس : صقع كبير بين غرابان وبلاد الجبل .

فلما مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، قال : أنتَ التَّكَاثُلُ لِأَهْلِ الْكَوْفَةِ يَتَعَذَّوْنَ بِي قَبْلَ أَنْ أُنْشَى بِهِمْ ^(١) ؟
 قال : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : مَا نَفَعَتْ مَنْ قَالَهَا ، وَلَا ضُرَّتْ مَنْ قِيلَتْ فِيهِ ، قال : إِنْ
 أَمِيرَ لِلْمُؤْمِنِينَ كُتِبَ إِلَيَّ كِتَابًا لَمْ أَذِرْ مَا فِيهِ ، فَبَلِّغْ عِنْدَكَ شَيْءًا مِنْهُ ؟ قال : يُقْرَأُ عَلَيَّ ،
 فَيُرَى عَلَيْهِ ، فَقَالَ : هَذَا بَيِّنٌ ، قال : وَمَا هُوَ ؟ قال : « أَمَّا التَّحِيَّةُ مِنَ النِّسَاءِ : فَالَّتِي
 عَظُمَتْ هَامَتُهَا ، وَطَالَ عُنُقُهَا ، وَبَعُدَ مَا بَيْنَ مَفْكَيْهَا وَتَدْبِيهَا ، وَاتَّسَعَتْ رَاحَتُهَا ،
 وَتَحَنَّنَتْ رُكْبَتُهَا ، فَهَذِهِ إِذَا جَاءَتْ بِالْوَلَدِ جَاءَتْ بِهِ كَالْقَلْبِ ؛ وَأَمَّا قَعْدُ النِّكَاحِ ، فَهِيَ
 ذَوَاتُ الْأَهْجَازِ ، مُنْكَسِرَاتُ التَّنْدِي ، كَثِيرَاتُ اللَّحْمِ يَقْرُبُ بَعْضُهُنَّ مِنْ بَعْضٍ ،
 فَأُولَئِكَ يَشْرِيَنَّ الْقَرَمُ ^(٢) وَيُرْوِيَنَّ الظَّمَأَنَ ؛ وَأَمَّا ذَوَاتُ الْأَحْلَامِ ، فَبِنَاتُ خَسَى وَثَلَاثِينَ
 إِلَى الْأَرْبَعِينَ ^(٣) .

قال الحجاج : أَخْبِرْنِي بِشَرِّ النِّسَاءِ ، قال : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ : شَرُّهُنَّ الصَّغِيرَةُ
 النَّفِثَةُ ^(٤) ، الْحَدِيدَةُ الرُّكْبَةُ ، السَّرِيمَةُ الْوُثْيَةُ ، الْوَاسِطَةُ ^(٥) فِي نِسَاءِ الْحَيِّ ، الَّتِي إِذَا
 غَضِبَتْ غَضِبَ لَهَا مَائَةٌ ، وَإِذَا سَمِعَتْ كَلِمَةً قَالَتْ لَا وَاللَّهِ لَا أَتَّهِى حَتَّى أَقْرَأَهَا قَرَارَهَا ،
 الَّتِي فِي بَطْنِهَا جَارِيَةٌ ، وَيَتْبَعُهَا جَارِيَةٌ ، وَفِي حِجْرِهَا جَارِيَةٌ ، قال الحجاج : عَلَى هَذِهِ
 لَعَنَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : وَيَحْكُ ، فَأَخْبِرْنِي بِخَيْرِ النِّسَاءِ ، قال : خَيْرُهُنَّ الْقَرِيبَةُ الْقَامَةُ مِنَ السَّاءِ
 الْكَثِيرَةِ الْأَخْذِ مِنَ الْأَرْضِ ، الْوَدُودُ الْوَلُودُ ، الَّتِي فِي بَطْنِهَا غِلَامٌ ، وَفِي حِجْرِهَا غِلَامٌ ،
 وَيَتْبَعُهَا غِلَامٌ ، قال : وَيَحْكُ فَأَخْبِرْنِي بِشَرِّ الرِّجَالِ ، قال : شَرُّهُمُ السَّنُوطُ الرَّبُوطُ ^(٦) ،
 الْحُمُودُ فِي حَرَمِ الْحَيِّ ، الَّذِي إِذَا سَقَطَ لِإِحْدَاهُنَّ دَلْوٌ فِي بَيْتٍ انْحَطَّ عَلَيْهِ حَتَّى يُخْرِجَهُ ،

(١) انظر خطيبه في ص ٢٢٧ . (٢) للقرم حركة : شدة شهوة اللحم ، وكثر حتى قيل في الشوق
 إلى الحبيب . (٣) هنا سطر استغناء ؛ فليُنظر في الأصل من شاء . (٤) القوجه .

(٥) وسطهم (كوه) : جلس وسطهم ، كنوسطهم . (٦) السنوط : الذي لا شمر في وجهه
 ألبته « الكوسج » كجسر ، وفي الأصل « السبوط » بالياء ، ولم أجده في كتب اللغة ، وإنما الذي فيها من
 هذه المادة : « أسبط بالأرض : لصق » فالوصف منه « سبط » ومعناه على هذا : الشكل المتعاقد من السبي ،
 والربوط ، يريد به اللازم لبيته الذي لا يفرج منه لتصرف والعمل كأنه قد ربط نفسه فيه .

فَهَنَ زَيْنَةَ الْخَيْرِ ، وَيَقْلَنَ عَاقَى اللَّهِ فَلَانًا ، قَالَ : عَلَى هَذَا لَعْنَةُ اللَّهِ ، حَاجِرِي سَعِيرِ رَجُلٍ ،
قَالَ : خَيْرُهُمُ الْقَدَى يَقُولُ فِيهِ الشَّمَاخُ التَّنَلِيُّ :

فَتَى لَيْسَ بِالرَّاضِي بِأَذَنِي مَعِيْشَةٍ وَلَا فِي يَمِينِ الْحَيِّ بِالْمَتَوَلِّجِ ^(١)
فَتَى يَمْلَأُ الشَّيْزَى وَيُرْوِي سِنَانَهُ وَيَضْرِبُ فِي رَأْسِ السَّكَمِيِّ الْمَدَجَّجِ ^(٢)
فَقَالَ لَهُ : حَبُّكَ ، كَمْ حَبَسْنَا عَطَاكَ ؟ قَالَ : ثَلَاثَ سَنِينَ ، فَأَمْرُهُ بِهَا

وَحُلَّ سَبِيلُهُ . (مروج الذهب ٢ : ١٤٧)

٣٩٤ - ابن القرية يعدد مساوي المزاح

وقال الحجاج بن يوسف لابن القرية : مَا زَالَتْ الْحُكَمَا تَكْرَهُ الْمِزَاحَ وَتَنْهَى عَنْهُ ،
فَقَالَ : « الْمِزَاحُ مِنْ أَدْنَى مَنْزِلَتِهِ إِلَى أَقْصَاهَا عَشْرَةُ أَبْوَابٍ : الْمِزَاحُ أَوَّلُهُ قَرَحٌ وَآخِرُهُ
تَرَحٌّ ، الْمِزَاحُ قَنَاضُ السَّفَهَاءِ كَالشَّمْرِ قَنَاضُ الشُّعْرَاءِ ، وَالْمِزَاحُ يُؤْغِرُ صَدْرَ الصَّدِيقِ ،
وَيَنْفِقُ الرَفِيقَ ، وَالْمِزَاحُ يُبْذِي السَّرَائِرَ ، لِأَنَّهُ يُظْهِرُ لِلْعَايِرِ ، وَالْمِزَاحُ يُسْقِطُ الْمُرُوءَةَ ، وَيُبْذِي
الْخَلْفَ ، لَمْ يَجْرَ الْمِزَاحُ خَيْرًا وَكَثِيرًا مَا جَرَّ شَرًّا ، الْغَالِبُ بِالْمِزَاحِ وَاتَرَّ ، وَالْمَغْلُوبُ بِهِ نَازَرُ ،
وَالْمِزَاحُ يَجْلِبُ الشَّمَّ صَغِيرُهُ ، وَالْحَرْبُ كَبِيرُهُ ، وَلَيْسَ بَعْدَ الْحَرْبِ إِلَّا عَفْوٌ بَعْدَ قُدْرَةٍ ،
فَقَالَ الْحَجَّاجُ : « حَبُّكَ ، الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ عَفْوٍ مَعَهُ قُدْرَةٌ » .

(زهر الآداب ٢ : ٨٥)

(١) الداخل .

(٢) الشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع ، يكتفى من كرمه ، والمذجج : الشاك في السلاح .

٣٩٥ - يزيد بن أبي مسلم وسليمان بن عبد الملك

لَمَّا وَلِيَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، أَتَى يَزِيدَ بْنَ أَبِي مُسْلِمٍ : مَوْلَى الْحِجَابِ ، فِي جَامِعَةٍ ^(١) ، وَكَانَ رَجُلًا دَمِيًّا تَفْتَحُهُ ^(٢) الْعَيْنُ ، فَلَمَّا رَأَى سُلَيْمَانَ قَالَ : لِمَنْ اللَّهُ أَمْرًا أَجْرَكَ رَسَنَكَ ^(٣) ، وَوَلَّى مِثْلَكَ ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّكَ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَنِّي مُذَبَّرًا ، وَلَوْ رَأَيْتَنِي وَالْأَمْرَ عَلَى مُقْبِلٍ ، لَاسْتَعْظَمْتَ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَعْصَرْتَ ، وَلَا اسْتَحْجَلْتَ مَا اسْتَحْقَرْتَ ، فَقَالَ لَهُ سُلَيْمَانُ : « أَيْنَ تَرَى الْحِجَابَ ، أَيُّهُوَ فِي النَّارِ ، أَمْ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي قَعْرِهَا ؟ » ، فَقَالَ : « يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ : لَا تَقُلْ هَذَا ، إِنَّ الْحِجَابَ قَعَّ لَكُمْ الْأَعْدَاءُ ، وَوُطِّئَ لَكُمْ النَّبَارُ ، وَزَرَعَ لَكُمْ الْحَمِيَّةَ فِي قُلُوبِ النَّاسِ ، وَبَعْدُ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ بَيْنِ أَيْبِكَ ، وَشِمَالِ أَخِيكَ الْوَلِيدِ ، فَضَمَّ مِنَ النَّارِ حَيْثُ شِئْتَ » ، فَصَاحَ سُلَيْمَانُ : اخْرُجْ إِلَى أَمَةِ اللَّهِ ، ثُمَّ التَفْتُ إِلَى جِلْسَائِهِ ، فَقَالَ : قَبِّحَ اللَّهُ مَا كَانَ أَحْسَنَ رَتَبَتِهِ لِنَفْسِهِ وَلِصَاحِبِهِ ، وَلَقَدْ أَحْسَنَ الْمَكَافَاةَ ، أَطْلَقُوا سَبِيلَهُ .

(أَمَلُ السَّيِّدِ الْمُرْتَضَى ١ : ٢١٥ ، وَالْعَقْدُ الْفَرِيدُ ١ : ١٥٠ ،

وَمَرْجُ الْغَيْبِ ٢ : ١٦٤ ، وَالْبَيَانُ وَالْتَبْيِينُ ١ : ٢١٥)

(١) الْجَامِعَةُ : الْقَيْدُ . (٢) تَزِدُّهُ . (٣) الْرَسَنُ : الْحَبْلُ ، وَأَجْرُهُ رَسَمُهُ : تَرَكُهُ يَصْنَعُ مَاهَاهُ ، يَعْنِي الْحِجَابَ ، وَكَانَ سُلَيْمَانُ يَكْتُبُ إِلَى الْحِجَابِ فِي أَيَّامِ أَخِيهِ الْوَلِيدِ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ كِتَابًا فَلَا يَنْظُرُ لَهُ فِيهَا ، فَحَقَّدَ عَلَيْهِ ، وَكُتِبَ إِلَيْهِ كِتَابًا شَدِيدُ الْمُهْجَةِ ، وَفِيهِ يَقُولُ « وَأَيُّمُ اللَّهِ لَنْ أَسْكُنِيَ اللَّهُ مِنْكَ لِأَدُوْسِكَ دُوسَةً تَلِينُ مِنْهَا فَرَاتُكَ ، وَلَأَجْلُكَ شَرِيْدًا فِي الْجِبَالِ ، فَلَوْ بِأَطْرَافِ الشِّمَالِ » وَيَقُولُ : فَرَوَيْكَ حَتَّى تَنْظُرَ كَيْفَ يَكُونُ مَصِيرُكَ إِنْ كَانَتْ فِي وَبِكَ مَدَّةُ أَتَمَّقٍ بِهَا « فَرَدَّ عَلَيْهِ الْحِجَابُ بِكِتَابٍ يَقُولُ فِيهِ : « وَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ لَصَبِي حَسِبْتُ أَنَّ تَمَقَّرَ بِقَلَّةِ حَقْلِكَ ، وَحِدَاةِ مِنْكَ ، وَبَرِيقِ نَيْفِكَ خَيْرُكَ » وَيَقُولُ : « جَمَعْتُ أُمُورًا دَلَّاهُ فِيهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَسْوَأِ أَمْرِكَ ، فَكَانَ الْجَفَاءُ مِنْ خَلِيقَتِكَ ، وَالْحَقُّ مِنْ طَبِيعَتِكَ ، وَأَقْبَلَ الشَّيْطَانُ بِكَ وَأَدْبَرَ . . . الْخ » . انْظُرِ الْعَقْدَ الْفَرِيدَ ج ٣ ص ١٦ ، وَهَدَمَتْ الْحِجَابُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ سُلَيْمَانُ الْخَلَاةَ بَسْمَةً .

٣٩٦ - وفود العراق على سليمان بن عبد الملك

وقدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك بعد ما استخلف ، فأمرهم بشم الحجاج ، فقاموا يشتمونه ، فقال بعضهم : « إن عدو الله الحجاج كان عبدا زبانيا »^(١) ، فتور بن قنور^(٢) ، لا نسب له في العرب ، قال سليمان : أي شتم هذا ! إن عدو الله

(١) بائع زبيب ، قيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف ، وذكروا أنه كان أول أميره يلم الصبيان مع أبيه بالطائف - ويسى كليا - وفيه يقول الشاعر :

أينسى كليب زمان المزال وتعلمه سورة الكور ؟
وغيث له ظك دائر وآخر كالقمر الأزهر .

« يشير إلى خبز الملمين ، فإنه مختلف في الصغر والكبر على قدر بيوت الصبيان » ويقول آخر :

فلولا بنو مروان كان ابن يوسف كما كان عبدا من عبدة إباد
زمان هو العبد المقر بهذه يروح صبيان القرى ويهادي

« راحهم وروحهم : ذهب إليهم وراحا » ، ثم صار دبا فكا يدل على ذلك جهاد كعب الأشقرى له ، وذلك أن المهلب بن أبي صفرة لما أطال قتال الأزارقة ، كتب إليه الحجاج يستبكه ويضغفه ويسجزه في الأخير متاجزهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له : إن الشاهد يرى مالا يرى للقاتل ، فإن كنت نصبتى لحرب هؤلاء القوم على أن أديرها كما أرى ، فإن امكننى الفرصة انبذتها ، وإن لم تمكنى فأنأ أذبر ذلك بما يصلحه ، وإن أردت مني أن أهمل يرايك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلك ، وإن كان خطأ فلي ، فاهبت من رأيت مكانى » وقام كعب الأشقرى إلى المهلب ، فأنشده بحضرة رسول الحجاج أبياتا منها :

إن ابن يوسف غره من غزوك غفص المقام بجانب الأمصار
لوشاهد الصفيين حين تلاقيا ضاقت عليه رحبة الأقطار
ورأى معاودة الدباغ بخيمة أزمان كان مخالف الإقتار

قبلت آياته الحجاج ، فكتب إلى المهلب يأمره بإشخاص كعب الأشقرى إليه ، فأعلم المهلب كعب بذلك ، وأوفده إلى عبد الملك من ليك ، وكتب إليه يستوهبته ، تقدم كعب على عبد الملك واستفدته ، فأصعبه ما سمع منه ، فأوفده إلى الحجاج ، وكتب إليه يقدم عليه أن يفوته ، فلما دخل عليه قال : إيه يا كعب ، « ورأى معاودة الدباغ بخيمة » ! فقال له : أيها الأمير ، والله لقد وددت في بعض ما شاهدت في تلك الحروب وأزمانها ، وما يورده المهلب من خطرها ، أن أجهز منها ، وأكون سجاما أو - هكذا - فقال له الحجاج : أولك ، لولا قسم أمير المؤمنين لما نفطك ما سمع ، فالحق بصاحيك ، وبعض الرواة ينكر هذا القول ، ويقول : هذه من أكاذيب الشعراء - انظر الأغانى ج ١٣ ص ٥٧ ، وشرح البيهقي ص ١١٢ ، ولقد ألفريد ٢ : ٦ . (٢) قنور : الثرس الصب من كل شيء ، وكستور : العبد .

الحجاج كتب إلى : « إنما أنت نقطة من مداد ، فإن رأيت في ما رأى أبوك وأخوك كفت لك كما كفت لما ، وإلا فأنا الحجاج وأنت النقطة ، فإن شئت تحوتك ، وإن شئت أئبثك » قالنوه لعنه الله ، فأقبل الناس يلعنونه ، فقام ابن أبي يردة بن أبي موسى الأشعري فقال : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله يعلم » قال : هات ، قال : « كان عدو الله يزيّن تزيّن المومنة ^(١) ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة ، وأكذب في حديثه من الدجال » ، فقال سليمان لرجاء بن حيوة : « هذا وأبيك الشّم ، لا ما تأتي به السّفة ^(٢) » . (البيان والتهيين ١ : ٢١١)

٣٩٧ - كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك

حج سليمان بن عبد الملك ، فلما قدم المدينة للزيارة بعث إلى أبي حازم الأهرج ، وعنده ابن شهاب ، فلما دخل قال : تكلم يا أبا حازم . قال : فيم أنكلم يا أمير المؤمنين ؟ قال : في المخرج من هذا الأمر . قال : يسير إن أنت فعلته . قال : وما ذلك ؟ قال : لا تأخذ الأشياء إلا من حِلّها ، ولا تضعها إلا في أهلها . قال : ومن يقوى على ذلك ؟ قال : من قلده الله من أمر الرعية ما قلده ، قال : عطفى أبا حازم . قال : اعلم أن هذا الأمر لم يصبر إليك إلا بموت من كان قبلك ، وهو خارج من يديك بمثل ما صار إليك . قال : يا أبا حازم أشر على ، قال إنما أنت سوق ، فأنفق ^(٣) عندك حِلّ إليك من خير أو شر ، فاخترا أيهما شئت . قال : مالك لا تأتينا ؟ قال : وما أصنع بإنيانك يا أمير المؤمنين ؟ إن أدنيقني فتنقني ، وإن أقصبتني أخزيتني ، وليس عندك ما أرجوك له ، ولا عندي

(١) امرأة موسى ومومنة : فاجرة ، أو مجاهرة بالفجور من الرمس كوعه : وهو احتكاك الشيء بالشيء.

حتى يتهجد ، وأومست : أمكنت من الرمس . (٢) سفلة الناس كنقمة وفرحة : أسافلهم وغوغاؤهم .

(٣) راج .

ما أخافك عليه : قال : فارتفع إلينا حاجتك . قال : قد ردتها إلى من هو أقدر منك عليها ،
فأعطاني منها قِليلٌ ، وما منعتني منها رِضيتهُ .

(المقد الفريد ١ : ٣٠٦ ، والبيان والتبيين ٢ : ٧٧)

٣٩٨ — أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضاً

ودخل عليه أبو حازم الأعرج ، فقال : يا أبا حازم ما لنا فكره الموت ؟ فقال :
لأنكم حرمت دنياكم ، وأخرتكم آخرتكم ، فأنتم تكثرهون الثقل من الثمران إلى
الخراب ، قال : فأخبرني ، كيف القُدوم على الله ؟ قال : أما المحسن فكالغائب يأتي
أهله مسروراً ؟ وأما المسيء فكالعبد الآبق^(١) يأتي مولاه محزوناً ، قال : فأى الأعمال
أفضل ؟ قال : أداء الفرائض مع اجتناب المحارم ، قال : فأى القول أعدل ؟ قال : كلمة
حق عند من تخاف وترجو ، قال : فأى الناس أعدل ؟ قال : من عمل بطاعة الله ، قال :
فأى الناس أجهل ؟ قال : من باع آخرته بدنيا غيره ، قال : عظمى وأوجز ، قال :
يا أمير المؤمنين ، نزه ربك ، وعظمه أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك ،
فبكى سليمان بكاء شديداً ، فقال له بعض جلسائه : أسرفتَ ويحك على أمير المؤمنين ،
فقال له أبو حازم : أسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليُبَيِّنَنَّهُ للناس
ولا يكتُمونه ، ثم خرج فلما صار إلى منزله بعث إليه سليمان بمال ، فردّه وقال للرسول :
قل له : والله يا أمير المؤمنين ما أَرْضاه لك ، فكيف أَرْضاه لنفسى ؟

(مزوج الذهب ٢ : ١٦٤ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ١٤٧)

٣٩٩ - وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز

لما استخلف عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، قدّم عليه وفود أهل كل بلد ، فتقدم إليه وفد أهل الحجاز ، فأشار أبّ منهم غلام الكلام ، فقال عمر : مهلاً يا غلام ، ليعلم من هو أسنُّ منك ، فقال الضّلام : «هلا يا أمير المؤمنين ، إنما المرء بأصقرّيه قلبه ولسانه ، فإذا منح الله العبد لساناً لا فظاً ، وقلباً حافظاً ، فقد استجد له الحليّة ، ولو كان التّقدم بالسّنّ لكان في هذه الأمة من هو أحقّ بمجلسك منك ، فقال عمر : صدقت ، تكلم ، فهذا السّحر الحلال ، فقال : يا أمير المؤمنين ، نحن وفد التّهنئة لا وفد المرزّة^(١) ، قدّمنا إليك من بلدنا ، نحمد الله النّدى من بك علينا ، لم يُخرجنا إليك رغبةً ولا رهبةً ، لأنّا قد أمّنا في أيامك ما خفنا وأدركنا ما طلبنا ، فقال : عطفنا يا غلام وأوجز ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن أناساً غرّم حِلْمُ الله عنهم ، وطولُ أمليهم ، وحسنُ ثناء الناس عليهم ، فلا يقرّ بك حِلْمُ الله عنك ، وطولُ أملاك ، وحسنُ ثناء الناس عليك ، فترل قدّمك ، فنظر عمر في سن الضّلام ، فإذا هو قد أتت عليه بضعة عشرة سنة^(٢) ، فأنشأ عمر يقول :

تلم فليس المرء يوفد طالما وليس أخو علم كن هو جاهل
وإن كبير القوم لا حِلْمَ عنده صميرٌ إذا التفت عليه الحافل

(مروج الذهب ٢ : ١٦٩ ، وزهر الآداب ١ : ٩)

(١) وزاه ماله كجمل وعلم : أصاب منه شيئاً ، وززاه مرزقة : أصاب منه خيراً ، أى لستنا واندين للسلطان.

(٢) وفي زهر الآداب : « فسأل عمر عن سن الضّلام ففعل عشر سنين ».

٤٠٠ — خالد بن صفوان يعزى عمر بن عبد العزيز ويهنته

وعزى خالد بن صفوان عمر بن عبد العزيز وهناً بالخلافة ، فقال :
 « الحمد لله الذى منّ على الخلق بك ، والحمد لله الذى جعل موتكم رحمةً ، وخلافتكم
 عِصمةً ، ومصائبكم أسوةً ، وجعلكم قدوة »
 (زهر الآداب ٣ : ٢٤٧)

٤٠١ — خطبة عبد الله بن الأهم

دخل عبد الله بن الأهم على عمر بن عبد العزيز - رحمه الله تعالى - مع العامة ، فلم
 يفتجأ عمر إلا وهو مائل بين يديه يتكلم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد ، فإن الله خلق الخلق ، غنياً عن طاعتهم ، آمناً من معصيتهم ، والنامسُ
 يومئذٍ في المنازل والراى مختلفون ، والعرب يشتر تلك المنازل ، أهل الوتر وأهل المدرة ،
 تحتأز دونهم طيبات الدنيا ورَفَاقَةٌ^(١) عيشتها ، مَيِّتُهُمْ في النار ، وحَبِيبُهُمْ أَعْمَى ، مع
 ما لا يَحْصَى من الرغوب عنه ، والمزهود فيه ، فلما أراد الله أن يَنْشُرَ فيهم رحمته ، بث
 إليهم رسولا منهم « عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ » ،
 فلم يَعْصِهِمْ ذلك أن جَرَّحُوهُ في جسده ، ولَقَّبُوهُ في اسمه^(٢) ، ومعه كتاب من الله لا يَرَحُلُ
 إلا بأمره ولا يَنْزِلُ إلا بإذنه ، واضطروه إلى بطن غار ، فلما أمر بالزئمة أسفر لأمر الله
 لونه ، فافلَحَ^(٣) الله حُجَّتَهُ ، وأعلى كَلْتَهُ ، وأظهر دعوته ، ففارق الدنيا نَقِيّاً نَقِيّاً ،
 صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم قام بعده أبو بكر رضى الله تعالى عنه ، فسلك سُنَّتَهُ وأخذ سَبِيلَهُ ،
 وارتدت العرب فلم يقبل منهم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم إلا الذى كَانَ قابلاً منهم ،

(١) الرفافة والرفافة : سعة العيش والخصب . (٢) توصفوه بأنه ساحر ، وكذاب ،

وكانم ، وشامر . (٣) نصر .

فاتنضى السيوف من أغمارها ، وأوقد النيران من شُلتها ، ثم ركب بأهل الحق أهل الباطل ، فلم يَبْرَحْ يفصل أوصالهم ، ويسقي الأرض دماءهم ، حتى أدخلهم في الذي خرجوا منه ، وقرَّروهم بالذي نفروا منه ، وقد كَانَ أصاب من مال الله بَكْرًا^(١) يرتوى عليه ، وحَبَشِيَّة تُرَضِّع ولداً له ، فرأى ذلك غُصَّة عند موته في حلقه ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وَبَرَى إِلَيْهِمْ منه ، وطارق الدنيا نقيًا نقيًا ، على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنه . ثم قام من بعده عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، فصرَّ الأمصار ، وخالط الشدة باللين ، فحسّر عن ذراعيه ، وشمر عن ساقيه ، وأعدَّ للأمور آخرتها^(٢) ، ولعرب آلتها ، فلما أصابه قِن^(٣) للغيرة بن شُعبة ، أمر ابن عباس يسأل الناس : هل يُثَبِّتُونَ قَاتِلَهُ ؟ فلما قيل له قِنٌ للغيرة ، استهل^(٤) بحمد الله أن لا يكون أصابه ذوق في الشيء ، فيستحلّ دمه بما استحلَّ من حقه ، وقد كَانَ أصاب من مال الله بضعا وثمانين ألفًا ، فكسرها رِباعه^(٥) ، وكره بها كغفلة أمهه وولده ، فأدَّى ذلك إلى الخليفة من بعده ، وطارق الدنيا نقيًا نقيًا على منهاج صاحبه ، رضى الله تعالى عنها ، ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم^(٦) ، ثم إنك يا عمر ابن الدنيا ، ولدتك ملوكها ، وأقتنك ثديها ، فلما وليتها ألقيتها حيث ألقاها الله ، فالجدد الذي جلا بك حَوْبَهَا^(٧) ، وكشف بك كُرْبَتَهَا ، امض ولا تلتفت ، فإنه لا يَدِلُّ على الحق شيء ، ولا يميز على الباطل شيء ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم وللمؤمنين والمؤمنات ، ولما أن قال : « ثم إنا والله ما اجتمعنا بعدها إلا على ظُلْم » سكت الناس كلهم إلا هشامًا فإنه قال : « كذبت » .

(١) البيان والتبيين ٢ : ٥٩ . والمقد الفريد ٢ : ١٤٣ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ص ١٠٩ . وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٢٦ .

-
- (١) الفقه من الإبل . (٢) أسبابها التي تقاد بها ، جمع قرن كسب ، وهو الحبل يجمع به البعيران . (٣) القن : حيد ملك هو أبوه ، أو الذي ولد منك ولا تستطيع إخراجك منك (٤) صلاح . (٥) الرباع جمع ربع كشمس : وهو لدار . (٦) جمع ظالم : وهو للثم والمائل ، وأصله من ظلم البعير كنع : غمز في شيء . (٧) الحوبة : الهم والحاجة .

٤٠٢ — مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز

قام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز ، فقال :

« إنما الدنيا سوق من الأسواق ، فنها خرج الناس بما ينفعهم وبما يضرهم ، وكم من قوم قد غرّم مثل الذي أصبحنا فيه ، حتى أتاهم الموت فاستوعبهم ، فخرجوا من الدنيا مرملين^(١) ، لم يأخذوا ما أحبوا من الآخرة عُدَّةً ، ولا لما كرهوا جُنَّةً ، وانقسم ما جمعوا من لم يحمّدهم ، وصاروا إلى من لا يعدمهم ، فانظر الذي نحب أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فقدمه بين يديك حتى تخرج إليه ، وانظر الذي تكره أن يكون معك إذا قَدِمْتَ ، فاجنّب به البَدَلَ ، حيث يجوز البذل ، ولا تذهبن إلى سِلعة قد بارت على غيرك ، ترجو جوازها عنك . يا أمير المؤمنين ، افتح الأبواب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، ورُدّ الظالم » .

(حيوة الأنبياء ٢ ص ٢٤٢ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٢٤)

٤٠٣ — وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك

وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان ، وفيهم محمد بن أبي الجهم^(٢) بن حذيفة الصدوي ، وكان أعظمهم قدراً ، وأكبرهم سناً ، وأفضلهم رأياً وحِلماً ، فقام متوكئاً على عصا ، فقال :

أصلح الله أمير المؤمنين ، إن خطباء قريش قد قالت فيك فاطنبت ، وأثنت عليك فأحسنت ، ووالله ما بلغ قائلهم قدرك ، ولا أحصى مُثنيهم فضلك ، أفأذن لي في الكلام؟ قال: تسكلم ، قال: أفأؤجز أم أطنب؟ قال: بل أؤجز ، قال: « تولاك الله أمير المؤمنين

(١) أرمئ : فقد زاده وانصر . (٢) في الأمل : إسماعيل بن أبي الجهم .

بالحسنى، وَزَيْتِكَ بالقوى، وَجَمْعُكَ خَيْرَ الآخِرَةِ وَالْأُولَى، إِنْ لِي حَوَائِجُ أَفَادَ كَرَهَا؟
 قال: هاتِهَا، قال: كَثُرَتْ سَيِّئٌ، وَضَعْتُ قَوَايَ، وَاشْتَدَّتْ حَاجَتِي، فَإِنَّ رَأَى
 أمير المؤمنين أَنْ يُجِيرَ كَسْرِي، وَيُنْفِقَ قَرَرِي، قال: يَا بْنَ أَبِي الْجَهْمِ، وَمَا لِي بِجِيرِ
 كَسْرِكَ، وَيُنْفِقُ فَرَقِكَ؟ قال: أَلْفَ دِينَارٍ، وَأَلْفَ دِينَارٍ، وَأَلْفَ دِينَارٍ، فَأَطْرَقَ هَاشِمُ
 طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ: هَيْهَاتَ يَا بْنَ أَبِي الْجَهْمِ، يَتُّ الْمَالُ لَا يَحْتَمِلُ مَا سَأَلْتَ! فَقَالَ: أَمَّا
 إِنْ الْأَمْرُ لَوَاحِدٌ، وَلَكِنْ اللَّهُ آتَرَكَ لِمَلِكِكَ، فَإِنْ تَمَطَّلْنَا فَخَفْنَا أَذْبِتَ، وَإِنْ تَمَتَّنَا نَسَأَلُ
 الَّذِي بِيَدِهِ مَا حَوَيْتَ، إِنْ اللَّهُ جَلَّ الْمَاءُ مَحَبَّةً، وَالْمَنْعُ مَبْنَصَّةً، وَلَا أَنْ أُحْيِكَ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ أَنْ أُبْنِضَكَ، قال: فَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قال: أَقْضِي بِهَا دَيْنًا قَدْ حُمِّمْتُ^(١) قَضَاؤُهُ،
 وَقَدْ حُمِّمْتُ^(٢) سَحْلَهُ، وَأَرْهَقْتُ^(٣) أَهْلَهُ، قال: نَعَمْ الْمَلِكُ أَسْلَكَهَا، دَيْنًا قَضَيْتَ، وَأَمَانَةً
 أَذْبِتَ، وَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قال: أَزُوجُ بِهَا مَنْ أَدْرِكُ مِنْ وَلَدِي، فَأَشُدَّ بِهِمْ عَضْدِي
 وَيَكْثُرَ بِهِمْ عَدْدِي، قال: وَلَا بَأْسَ أَغْضَضْتَ طَرَفًا، وَحَصَصْتَ فَرْجًا، وَأَمَرْتُ^(٤)
 نَسْلًا، وَأَلْفَ دِينَارٍ لِمَاذَا؟ قال: أَشْتَرِي بِهَا أَرْضًا يَبِيشُ بِهَا وَلَدِي، وَأَسْتَعِينُ بِفَضْلِهَا
 عَلَى نَوَائِبِ دَهْرِي، وَتَكُونُ ذُخْرًا لِمَنْ بَعْدِي، قال: وَلَا بَأْسَ، أُرِدْتَ ذُخْرًا،
 وَرَجَوْتَ أَجْرًا، وَوَصَلْتَ رَجَاءً، قَدْ أَسْرَمْنَاكَ بِمَا سَأَلْتَ، قال: فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ،
 وَجَزَاكَ اللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالرَّحِمَ خَيْرًا، وَخَرَجَ، فَقَالَ هَاشِمُ: تَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا
 أَلَطَفَ فِي سَوَالٍ، وَلَا أَزَقَّ فِي مَقَالٍ مِنْ هَذَا، هَكَذَا فَلْيَكُنِ الْقَرَشِيُّ، وَإِنَّا لَنَعْرِفُ
 الْحَقَّ إِذَا نَزَلَ، وَنَكْرَهُ الْإِسْرَافَ وَالْبَيْعَلَ، وَمَا تُعْطَى تَبْذِيرًا، وَلَا نَمْنَعُ تَقْتِيرًا،
 وَمَا نَحْنُ إِلَّا خُرَّانُ اللَّهِ فِي بِلَادِهِ، وَأَمْنَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، فَإِنْ أَذِنَ أَعْطَيْنَا، وَإِذَا مَنَعَ أَبَيْتُنَا؛
 وَلَوْ كَانَ كُلُّ قَائِلٍ يَصْدُقُ، وَكُلُّ سَائِلٍ يَسْتَحِقُّ، مَا جِئْتُنَا^(٥) قَائِلًا، وَلَا رَدَدْنَا سَائِلًا،
 فَسَأَلَ الَّذِي بِيَدِهِ مَا اسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجِيرِيهِ عَلَى أَيْدِينَا، فَإِنَّهُ يَسْطُرُ الرُّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ

(١) حَمَّ الْأَمْرُ: تَقَيَّ وَتَعَدَّى. (٢) أَنْفَقْتُ. (٣) الْإِرْهَاقُ: أَنْ تَحْمِلَ الْإِنْسَانُ حَمْلًا
 مَا يَلِيقُ بِهِ. (٤) كَثُرَتْ. (٥) جِئْتُنَا: أَتَيْتُنَا بِمَا يَكُونُ.

وَيَقْدِرُ^(١)، إِنَّهُ كَانَ يِعْبَادُهُ خَيْرًا بَصِيرًا، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لقد تكلمت فأبغضت، وما بلغ في كلامه ما قصصت، فقال: إنه مبتدئ، وليس المبتدئ كالمفتدى. (صحيح الأئمة ١: ٢٦٤، والأمال ١: ١٤٧، والنفق الفريد ٢: ٢٨٥)

٤٠٤ — مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام

قال خالد بن صفوان: وفدت على هشام فوجدته قد بدأ يشرب الخمر، وذلك في عام باكر ونميه، وتتابع وليه^(٢)، وأخذت الأرض زخرفها، فمضى كازرابي^(٣) المبتئث، والقباطي^(٤) المنشورة، وثرأها كالكافور، لو وضعت به بضة^(٥) لم تترب^(٦)، وقد ضربت له سرادقات حجر^(٧)، بحث بها إليه يوسف بن عمر من اليمن، تتلألا كالقناني^(٨)، فأرسل إلي، فدخلت عليه، ولم أنزل واقفا، ثم نظر إلي كالمنطق لي، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتم الله عليك نعمة، ودفع عنك نقمة، وجعل ما قللك من هذا الأمر رثدا، وعاقبة ما يتول إليه حندا، وأخلصك لك بالثقي، وكثر لك بالثما، ولا كدر عليك منه ما صفا، ولا خالط سرور. بالردى، فلقد أصبحت للمؤمنين ثقة ومستزاحا، إليك يقصدون في مظالمهم، ويفزعون في أمورهم، هذا مقام زين الله به ذكرى، وأطاب به نثرى^(٩)، إذ أراى وجه أمير المؤمنين، ولا أرى لمقامى هذا شيئا هو أفضل من أن أنبه أمير المؤمنين لعزل نعمة الله عليه، ليعمد الله على ما أعطاه،

(١) يقبض ويضيق. (٢) الوسمى: مطر الربيع الأول، سمى بذلك لأنه يسم الأرض، والاول:

المطر بعد الوسمى. (٣) جمع زوبى بالكسر ويضم: الفارق والبيط، أو كل ما يسطو واتكى عليه

(والفارق: الوسائد الصغيرة). (٤) قباطى بضم الأول مع تشديد الآخر، وقباطى بفتح الأول

مع تخفيف الآخر جمع قبطية بالهم مل غير قياس، وقد تكسر: ثياب كتان بيض رفاق كانت تحمل في مصر.

(٥) البضة وقد تكسر: القطعة من اللحم. (٦) أثربه وثر به: جعل عليه الثراب.

(٧) حجر جمع سيرة كنية: ضرب من برود اليمن. (٨) القناني: الذهب.

(٩) التثر: الرانحة الطيبة.

ولا شيء، أحضر من حديث سلف لك من ملوك العجم، إن أذن لي فيه حديثه به، قال: هات، قلت: «كأن رجل من ملوك الأعاجم جمع له فتاة^(١) السن، وصحة الطباع، وسمة الملك، وكثرة المال، وذلك بالخوزنقي، فأشرف يوماً، فنظر ما حوله، فقال لمن حضره: هل علم أحد أوتي مثل الذي أوتيت؟ فقال رجل من بقايا حملة الحجلة: إن أذنت لي تسكمت. فقال: قل، فقال: أرايت ما جمع لك، شيء هو لك، لم يزل ولا يزول، أم هو شيء كان لمن قبلك زال عنه، وصار إليك، وكذلك يزول عنك؟ قال: لا. بل شيء كان لمن قبلي، فزال عنه، وصار إلي، وكذلك يزول عني، قال: فسررت بشي. تذهب لذه، وتبقى تبعته، تكون فيه قليلا، وتترهن به طويلا؟ فبكي وقال: أين المهرَّب؟ قال: إلى أحد أمرين: إما أن تُقيم في ملكك، فتتمل فيه بطاعة ربك، وإما أن تُلقني عليك أماسا^(٢)، ثم تلحق ببجل، تعبد فيه ربك. حتى يأتي عليك أجلك، قال: فإني إذا أنا فعلت ذلك؟ قال: حياة لا تموت، وشباب لا يهرم، وصحة لا تنعم، وملك جديد لا يبلى، قال: فإذا كان السحراق فرغ على بابي، فإني مختار أحد الرأيين، فإن اخترت ما أنا فيه، كنت وزيراً لا يمضي، وإن اخترت فلوات الأرض وقفر البلاد، كنت رفيقاً لا يخالف، فقرع عليه عند السحر بابيه، فإذا هو قد وضع تاجه، وخلع أطواره، وليس أمامه، ونهياً للسياحة، فازما والله الجبل، حتى أتاها أجلهما، وأنشده قول عدي بن زيد:

وتفكر رب الخوزنقي إذا أصبح يوماً ولهدى تفكير
مره حاله وكثرة ما بمنك والبهز مفرحاً والسدير^(٣)
فارعوى قلبه، فقال: وما غبطة حتى إلى المات يصير؟^(٤)
فبكي هشام وقام ودخل، فقال لي حاجبه: لقد كسبت نفسك شرأ، دهاك أمير المؤمنين.

(١) الفتاة كسبه: الشباب. (٢) الأساح جمع مسح كحمل: وهو الكساء من شعر كتوب الرهبان.

(٣) مفرحاً: من أمرض الشيء إذا ظهر وبرز. (٤) الغبطة: المنة.

لنجدته وتلقاه ، وقد عرفت علمه ، فازدت على أن تبيت إليه نفسه ، فأقت أياتاً أتوقع الشر ، ثم أتاني حاجبه ، فقال : قد أمرتك بجماعة ، وأذن لك في الانصراف .
(عبود الأخبار ٢ : ص ٢٤١ ؛ الأغاني ٢ : ٢٣)

٤٠٥ — خالد بن صفوان يصف جريراً والفرزدق والأخطل

قال هشام بن عبد الملك ليشية بن هِقال - وعنده جرير والفرزدق والأخطل ، وهو يومئذ أمير - الاتخيري عن هؤلاء الذين قد مزقوا أعراضهم ، وهتكوا أستارهم ، وأغزوا بين عشائهم ، في غير خير ولا ير ولا نفع ، أيهم أشمر ؟ قال شية : « أما جرير فيعرف من بحر ، وأما الفرزدق فينحت من صخر ، وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر » ، فقال هشام : ما فسرنا لنا شيئاً نحصله ، فقال : ما عندي غير ما قلت . فقال لخالد بن صفوان : صفهم لنا يا ابن الأحم ، فقال :

« أما أعظمهم غرأ ، وأبدم ذكراً ، وأحسنهم عذراً ، وأسيرهم مثلاً ، وأقلهم غزلاً ، وأحلام عيلاً ، الطائي إذا زخر ، والحامي إذا زار^(١) ، والسامي إذا خطر ، الذي إن قدر قال ، وإن خطر سال ، الفصيح اللسان ، الطويل اللسان ، والفرزدق ؛ وأما أحسنهم نعتاً ، وأمدحهم بيتاً ، وأقلهم قوتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، فالأخطل ؛ وأما أغزرم بجراً ، وأرقهم شعراً ، وأعتكهم لعدوه سترأ ، الأغز الأبلق ، الذي إن طلب لم يستبق ، وإن طلب لم يُباحق ، جرير ، وكلهم ذكي القواد ، رفيع العباد ، وأرى الزناد » .

فقال له مسلمة بن عبد الملك : ما سمعنا بمثلك يا خالد في الأولين ، ولا رأينا في الآخرين ، وأشهد أنك أحسنهم وصفاً ، وألينهم عطفاً ، وأهمهم مقالا ، وأكرمهم فعلا .

فقال خالد : « أتم الله عليكم نصته ، وأجزل لديكم نصته ، وأنس بكم الغربة ،

(١) وفي رواية زهر الأدب : « إذا زخر » .

وفرج بكم الكربة ، وأنت والله ما عليتُ أيها الأمير كريمُ الفِرَاس ، عالم بالناس ، جواد في المآجل ^(١) ، بَسَام في التبدل ، حلِيم عند العليش ، في ذِرْوَة قريش ، ولُباب عبد شمس ، ويومك خيرٌ من أمس .

فضحك هشام وقال : « ما رأيتُ كنتخلصك يابن صفوان في مدح هؤلاء ووصفهم ، حتى أَرْضِيَهُمْ جميعًا ، وسَلِّتُ منهم » .

(الأغاني ٧ : ٦٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٦٣)

٤٠٦ - خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة

قال أبو النذر هشام بن محمد السائب الكلبي : كان بلال بن أبي بردة ^(٢) جَلْدًا حين أُنْبِئِي ، أحضره يوسف بن عمر في قيوده ، ليعض الأمر ، وم بالحيرة ، فقام خالد بن صفوان ، فقال ليوسف : « أيها الأمير ، إن عدو الله بلالاً ضربني وجبسي ، ولم أفارق جماعةً ، ولا خملتُ يدًا من طاعة » ، ثم التفت إلى بلال فقال : « الحمد لله الذي أزال سلطانك ، وهذا أركانك ، وأزال جَمَاحَكَ ، وغيرَ حالِكَ ، فوالله لقد كنتُ شديدَ الحجاب ، مستخفًا بالشريف ، مُظْهِرًا للعصبيَّة ^(٣) » .

فقال بلال : « يا خالد ، إنما استطلتَ عليّ بثلاث ، هن معك عليّ ، الأميرُ مُقْبِلٌ عليك ، وهو عني مُعْرِضٌ ؛ وأنت مُتْلَقٌ ، وأنا مأسورٌ ؛ وأنت في طينتك وأنا غريبٌ » ، فأخذه .

وكان سبب ضرب بلالٍ خالدًا في ولايته ، أن بلالاً مرَّ بخالد في مَوْكِبٍ عظيمٍ ، فقال خالد : سحابةٌ صيفٍ عن قليلٍ تَقَشَّعُ ^(٤) ، فسمعه بلال ، فقال : والله لا تَقَشَّعُ أو يصيبك منها شُوْبوب ^(٥) بَرْدٍ ، وأمر بضربه وجبسه .

(زهر الآداب ٣ : ١٩٠)

(١) القحط والجذب . (٢) هو بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري .

(٣) وكان أصله من العرب البياطين . (٤) تنكشف وتنفرد . (٥) الشُّوبوب : اللعنتين المطر.

٤٠٧ - خطبة الكميث بن زيد بين يدي هشام يستعطفه

روى صاحب العقد قال :

كَانَ الْكُمَيْثُ بْنُ زَيْدِ الْأَسَدِيِّ يَدْعُو بَنِي هَاشِمٍ وَيَرْضَى بِنِي أُمَيَّةَ ، فَطَالِبُهُ هِشَامُ ، فَهَرَبَ مِنْهُ عَشْرِينَ سَنَةً ^(١) ، لَا يَسْتَقِرُّ بِهِ الْقَرَارُ ، مِنْ خَوْفِ هَاشِمٍ ، وَكَانَ مَسْأَلَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ لَهُ عَلَى هِشَامٍ حَاجَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ يَقْضِيهَا لَهُ ، وَلَا يَرْضَاهُ فِيهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ مُسَلِّمَةً يَوْمًا إِلَى بَعْضِ صُيُودِهِ ، أَتَى النَّاسُ يَسْأَلُونَ عَلَيْهِ ، وَأَمَّا الْكُمَيْثُ بْنُ زَيْدٍ فَيَمْنُ أَتَى ، فَقَالَ :

السَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَمَا بَعْدُ :

قَفْ بِالْهَيْارِ وَوُقُوفَ زَائِرٍ وَتَأَنٍّ ، إِنَّكَ غَيْرُ صَاحِرٍ ^(٢) حَتَّى أَتَمُّ إِلَى قَوْلِهِ :

يَا مَسْلَمَ بْنَ أَبِي الْوَلِيدِ لِمَ لَيْتَ إِنْ شِئْتَ نَائِرٍ ^(٣)
عَلَيْتَ حِبَالِي مِنْ حَبَاكَ دَمَّةَ الْجَارِ الْجَارِ
فَلَاآنَ صِرْتُ إِلَى أُمَيَّةَ ، وَالْأُمُورُ إِلَى الصَّابِرِ
وَالْآنَ كُنْتُ بِهِ لِلصَّبَبِ كَهَيْتِهِ ، بِالْأُمْسِ حَاضِرٍ

فَقَالَ مُسَلِّمَةً : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَنْ هَذَا الْهِنْدِكِيُّ ^(٤) أَلْجُلُجَابُ ^(٥) ، الَّذِي أَقْبَلَ مِنْ أَخْرِيَاتِ النَّاسِ ، فَبَدَأَ بِالسَّلَامِ ، ثُمَّ أَمَّا بَعْدُ ، ثُمَّ الشُّعْرُ ؟ قِيلَ لَهُ : هَذَا الْكُمَيْثُ بْنُ زَيْدٍ ، فَأَعْجَبَ بِهِ لِقَاصَاتِهِ وَبِلَاغَتِهِ ، فَسَأَلَهُ مَسْأَلَةً عَنْ خَيْرِهِ ، وَمَا كَانَ فِيهِ طَوْلُ غِيَتِهِ ، فَذَكَرَ لَهُ سَخَطَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ ، فَضَمِنَ لَهُ مُسَلِّمَةً أَمَانَتَهُ ، وَتَوَجَّهَ بِهِ حَتَّى أَدْخَلَهُ عَلَى هِشَامٍ -- وَهَاشِمٌ لَا يَعْرِفُهُ -- فَقَالَ الْكُمَيْثُ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ،

(١) يلاحظ أن مدة خلافة هشام كانت عشرين سنة من سنة ١٠٥ - إلى سنة ١٢٥ هـ . (٢) صاغر : ذليل .

(٣) نشره وأشره : أحياء . (٤) رجل متدك : من أهل مكة ، (وهو هنا على التشبيه) .

(٥) الجلاب : الشيخ الكبير ، والضم الجلاب ، (والوجه : الذي انحصر الشعر من جانب رأسه) .

الحمد لله ، قال هشام : نعم . الحمد لله ، ما هذا ؟ قال الكيث : مبتدئ الحمد ومبتدعه ،
الذى خصّ بالحمد نفسه ، وأمر به ملائكته ، جعله قاتمة كتابه ، ومنتهى شكره ،
وكلام أهل جنته ، أحدهم حمد من علم يقينا ، وأبصر مستبيننا ، وأشهد له بما شهد به
لنفسه « قاتما بالقسط »^(١) ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده العربي ،
ورسوله الأنبي ، أرسله والناس في هفوات حيرة ، ومُدْهِمَات ظلمة ، عند استمرار أئمة^(٢)
الضلال ، فبلغ عن الله ما أمر به ، ونصح لأمتيه ، وجاهد في سبيله ، وعبد ربه ، حتى
أتاه اليقين ، صلى الله عليه وسلم .

ثم إنى يا أمير المؤمنين ، نهت في حيرة ، وحرث في سكرة ، اذلأ^(٣) بي خطرها ،
وأهاب^(٤) بي داعيها ، وأجابني غاويها ، فاقطوطيت^(٥) إلى الضلالة ، وتسكمت^(٦)
في الظلمة والجهالة ، جأرا عن الحق ، قاتلا بغير صدق ، فهذا مقام العائز^(٧) ، ومنطق
التائب ، ومبصر الهدى بعد طول العمى ، يا أمير المؤمنين كم من عار أفلم عثرته ،
ومحترم^(٨) عفوتهم عن جرته .

فقال له هشام - وأيقن أنه الكيث - ونحك لمن لك القوابة ، وأهاب بك
في العماية^(٩) ؟ قال : الذى أخرج أبى آدم من الجنة : ففسي ولم يجد له عزما ،
وأمر المؤمنين كريح رحمة أثارت سحابا متفرقا ، فلفقت^(١٠) بعضه إلى بعض ، حتى التعم
فاستحكم هدر^(١١) رعد ، وتلاؤ برقه ، فنزل الأرض فرويت ، واخضلت^(١٢)

(١) العدل . (٢) الأئمة : الطائفة والبيعة والكبر . (٣) ادلأ : الليل : ادلهم أى اسود
واظلم ، وفى الأصل : اذلأ ، وهو تصحيف . (٤) أى دعاني : وفى الأصل : وأهب : وهو تحريف :
(و يقال أيضا هببت به أى دعوته لينزول) . (٥) اقطوطيت : تقارب فى شيه إسرائيل .
(٦) تسكح : متى شيئا متصفا لا يبرى أين يأخذ من بلاد الله ، وتحير . (٧) اللاجئ : المستجير .
(٨) جرم فلان واجرم واجترأ : أذنب . (٩) العماية : القوابة . (١٠) من لفق الثوب
كفرب : ضم شقة إلى أخرى فخططهما . (١١) من هدر البعير كفرب هدرأ وهديرا : صوت : وفى
الأصل : هدار : وهو تحريف . (١٢) ابتلت .

واخضرت ، وأستقيت ، فروى ظلماتها ، وامتلاً عطشاتها ، فكذاك نمدك أنت .
 بأمر المؤمنين ، أضاء الله بك الظلمة الداجية ^(١) بعد العموس ^(٢) فيها ، وحسن بك
 دماء قوم أشعر خوفك قلوبهم ^(٣) ، فهم ييكون لما يطون من حزمك وبصيرتك ،
 وقد علموا أنك الحرب وابن الحرب إذا احمرت الحذق ، وعصت المفابير ^(٤) بالهام ،
 عزاً بأشك ، واستربط جأشك ^(٥) ، مسعاً هتان ، وكاف ^(٦) بصير بالأعداء ، مفري
 الخيل بالنكراء ^(٧) ، مستغن برأيه عن رأى ذرى الألباب ، رأى أريب ، وحلم مصيب
 فأطال الله لأمر المؤمنين البقاء ، ونم عليه النعماء ، ودفع به الأعداء ، فرضى عنه هشام
 وأسرله بمجازة .

وروى صاحب الأغاني خطبة الكيت ^(٨) فقال :

(١) المظلمة . (٢) في الأصل : « العموس » بالثنين ؛ وهو تجريف ، والصواب : « العموس »
 من عس ككرم وفرح حملة وعوسا : اشتد واسود وأظلم . (٣) أشعر الخوف والهم قلبى :
 لزه به ، وكل ما ألزته بشئ : أشعرته به . (٤) المففر كثر ، وجهاء ؛ وككتبة : زرد من الدرع
 يلبس تحت القلنسوة ؛ أو حلق يتقنع به المتسلح . (٥) أى صار رابطاً من ربط جأشه وريطة
 (بالسكر) اشتد قلبه . (٦) فلان مسحر حرب ومسمار : أى موقد نار الحرب ، ومطر هتان :
 هطال ، وكاف كذا ، وهما كناية عن الجود .

(٧) النكراء : الأمر الشديد . (٨) وكان سبب غضب هشام على الكيت : أن حكيم بن عباس
 السكلى كان ولما جهاه مضر والكيت مضرى - فكانت شعراء مضر تهجوه وبجبههم ، وكان الكيت يقول
 هو والله أشعر منكم ، قالوا فأجيب الرجل ، قال إن خالد بن عبد الله القسرى - والى العراق وهو يهمنى - محسن
 لى ، فلا أقدر أن أرد عليه ، قالوا فاسمح بأنك ما يقول فى بنات حلك وبنات خالك من الهجاء ،
 وأنشدوه ذلك فحصى الكيت لمشيرته ؛ فقال قصيدته الملعبة ؛ وبلغ ذلك خالداً فقال والله لأقتله ، ثم اشترى
 ثلاثين جارية بأغل ثمن ؛ وتخبر من نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب ؛ فرواهن الهاشميات - وهى
 فصائدات لها الكيت فى مدح بنى هاتم ، وكان معروفاً بالتشيع ثم مشهوراً بذلك ، وتمت هذه القصائد من جيد
 شعراء مختارهم وهى مطبوعة مشهورة - ودسهن مع نخاس إلى هشام بن عبد الملك ، فاشتراهن جميعاً ، فلما أنس
 بهن استعلنهن ، فرأى فصاحة وأدبا ، فاستقرهن القرآن فتران واستفدنهن الشعر ، فأنشدهن قصائد
 الكيت الهاشميات ؛ فقال : ويلكن ! من قاتل هذا الشعر ؟ فلن الكيت بن زهد الأسدى ، قال وفى أى يله =

حَدِّثْهُ ، وَأَتَى عَلَيْهِ ، وَصَلَّى عَلَى نَبِيِّهِ ثُمَّ قَالَ : « أَمَا بَدَأَ فَنِي كُنْتُ أَتَدَّهْدِي ، فِي غَرَّةٍ ، ^(١) وَأَعُوذُ فِي بَحْرِ غَوَايَةِ ، أَخْتَقِي عَلَى خَطْلُمَا ، وَاسْتَفْرَقِي وَهَلُمَا ^(٢) ، فَتَحِيرْتُ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَسَكَّمْتُ فِي الْجَهْلَةِ ، مُهْرَعًا عَنِ الْحَقِّ ، جَائِرًا عَنِ الْقَصْدِ ، أَقُولُ الْبَاطِلَ ضَلَالًا ، وَأَقُوهُ بِالْبَهْتَانِ وَبِالْبَلَا ، وَهَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ ، مُبْصِرُ الْهَدْيِ ، وَرَائِعُ الْآمِيَةِ ، فَاعْبِلْ عَنِّي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْحَوْبَةَ ^(٣) بِالتَّوْبَةِ ، وَاصْفَحْ عَنِ الزُّلَّةِ ، وَاعْفُ عَنِ الْجَرِيْمَةِ ^(٤) » ، ثُمَّ قَالَ :

كَمْ قَالَ قَاتِلَكُمْ لَمَّا لَكَ ، عِنْدَ عَثْرَةِ لِمَاثِرٍ ^(٥)
وَعَفَّرْتُمْ قَدْوَى الْقَدْوِ بِنِ الْكَأْبَرِ وَالْأَصَاغِرِ

« هُوَ ؟ قُلْنِي فِي الْعِرَاقِ ثُمَّ فِي الْكُوفَةِ . فَكُتِبَ إِلَيْ غَالِدٍ عَامِلُهُ بِالْمُرَاقِ : ابْعَثْ إِلَى رَأْسِ الْكَيْمِ ، فَبِعَثْ إِلَيْهِ غَالِدٌ فِي اللَّيْلِ ، فَأَخَذَهُ وَأَوْدَعَهُ السِّجْنَ ، وَحَزَمَ لِيُثْقَلَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ فِيهِ ، وَأَعْمَلَ الْكَيْمِ الْحِيلَةَ فِي الْفِرَارِ ، فَبِعَثْ إِلَى زَوْجِهِ حَبِيبٍ (يَفْعَلُ فَنَفْعَ الْيَاةِ الْمَشْدُودَةِ) فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَيْسَ ثِيَابَهَا ، وَتَنَقَّبَ ثِقَابَهَا ، وَأَقَامَهَا مَكَانَهُ ، وَخَرَجَ مُتَتَكِرًا ، وَظَلَّ مُتَوَارِيًا مَدَّةً ، حَتَّى إِذَا أَيقَنَ أَنَّ الطَّلَبَ قَدْ خَفَّ عَنْهُ ، خَرَجَ لَيْلًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَسَدٍ ، وَبِإِزَالِ سِرِّهِ حَتَّى بَلَغَ الشَّامَ ، وَاسْتَجَارَ بِمُسْلِمَةَ بِنْتِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَأَجَارَهُ وَاحْتَالَ لَهُ فِي هَفْوِ الْخَلِيفَةِ عَنْهُ ، فَقَالَ لَهُ : إِنْ مَعَاوِيَةُ بْنُ هِشَامٍ مَاتَ قَرِيبًا ، وَقَدْ جَزَعَ عَلَيْهِ جُزْعًا شَدِيدًا ، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ فَاعْرَبْ رِوَاكُكَ حُلَّ قَبْرِهِ ، وَأَنَا ابْعَثْ إِلَيْكَ بِنْتِي يَكُونُونَ مَعَكَ فِي الرِّوَاكِ ، فَإِذَا دَعَا بِكَ تَقَدَّمْتُ إِلَيْهِمْ أَنْ يَرْبِطُوا ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِكَ ، وَيَقُولُوا : هَذَا اسْتَجَارَ بِقَبْرِ أَبِينَا ، وَنَحْنُ أَحَقُّ مِنْ أَجَارِهِ ؟ فَأَصْبَحَ هِشَامُ عَلَى عَادَتِهِ مُتَطَلِّمًا مِنْ قَصْرِهِ إِلَى الْقَبْرِ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : لِمْلَهُ مُسْتَجِيرٌ بِالْقَبْرِ ، فَقَالَ : يَبَارِكُ مَنْ كَانَ لِلْإِلَهِيَّةِ فَإِنَّهُ لَاجِبُورٌ لَهُ ، فَتَقَبَّلَ : فَإِنَّ الْكَيْمِ ، قَالَ : يَحْضُرُ أَعْفَى إِحْضَارٍ ، فَلَمَّا دَعَى بِهِ رِبِطَ الصَّيَّيَانِ ثِيَابَهُمْ بِثِيَابِهِ ، فَلَمَّا نَظَرَ هِشَامُ إِلَيْهِمْ اغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ وَاسْتَجَبَ ، وَهُمْ يَقُولُونَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اسْتَجَارَ بِقَبْرِ أَبِينَا ، وَقَدْ مَاتَ وَمَاتَ حَظُّهُ مِنَ الدُّنْيَا ، فَاجْلِسْ هَبْ لَهُ وَلَنَا ، وَلَا تَقْضِئْنَا قِيمَةَ اسْتِجَارِهِ ، فَبَكَى هِشَامُ حَتَّى انْتَحَبَ ، ثُمَّ أَقْبَلَ حُلَّ الْكَيْمِ ، فَقَالَ لَهُ : يَا كَيْتُ : أَنْتَ الْفَائِلُ كَذَا وَكَذَا - مَا أَوْرَدَهُ فِي هَاشِمِيَّاتِهِ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ ، وَلَا أَتَانُ مِنْ أَتَنِ الْمَجَازِ وَحْشِيَّةً ، ثُمَّ خُطِبَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِسُطُفَى ، فَعَفَا عَنْهُ وَأَجَازَهُ ، وَتَوَقَّى الْكَيْمِ سَنَةً ١٢٦ هـ .

- (١) دَهْدَى الْمَجْرَ فَنَفْعَدِي : دَسَجِهِ ، كَدَهْدِهِ ، وَالنَّمْرَةُ : الْإِهْمَاكُ فِي الْبِاطِلِ ، وَالشَّدَّةُ .
- (٢) الْوَهْلُ : النِّصْفُ وَالْفَرَجُ . (٣) الْحَوْبَةُ : الْإِيْتِمُ . (٤) الْجُرْمَةُ كَكَلْمَةِ : الْجُرْمَةِ .
- (٥) يَقَالُ لِمَاثِرٌ : لِمَا لَكَ ، وَهُوَ دَعَا لَهُ بِأَنْ يَنْتَشِرَ .

أُتِيَتْ أُمِّيَّةٌ : لَأَنْكُمْ أَهْلُ الْوَسَائِلِ وَالْأَوَامِرِ
ثَقِيَتْ لِكُلِّ مُلْكَةٍ وَعَشِيرَةٍ دُونَ الشَّائِرَةِ
أَنْتُمْ مَعَادِنُ الْخَلَا فَعَدَّ كَأَبْرَأَ مِنْ بَعْدِ كَأَبْرَأَ
بِالْتَّسُّعَةِ الْمُتَتَابِعِينَ خَلَفًا وَبَحِيرَ عَاشِرَ^(١)
وإلى القيامة لا تَزَا لِي لِشَافِعٍ مِنْكُمْ وَوَارِثَ

ثم قطع الإنشاد ، وعاد إلى خطبته فقال : « إغضاه أمير المؤمنين وسماحته وصباحته^(٢) ،
ومَنَاطُ النُّجُومِ بِحَبْلِهِ ، مَنْ لَا تُحْلُ حُبُونُهُ لِإِسَاءَةِ الْمَذْبُونِ ، فَضْلًا عَنْ اسْتِشْطَاطَةِ غَضَبِهِ
يَجْهَلُ الْجَاهِلِينَ ، فَقَالَ لَهُ : وَيَلَيْكَ يَا كَيْتُ ! مِنْ زَيْنِ لَكَ الْقَوَايِ ، وَدَلَالِكَ فِي الْعَمَايَةِ ؟
قَالَ : الَّذِي أَخْرَجَ أَبَانَا مِنَ الْجَنَّةِ ، وَأَنْسَاهُ التَّهَمِدَ ، فَلَمْ يَحْدِ لَهُ عَزْمًا » فَرَضَى عَنْهُ ، وَأَمَرَ
لَهُ بِجَائِزَةٍ . (الشفعة الفردية : ١٥٤ ، والأغاني : ١٥ : ١١٣)

٤٠٨ — مُحَاصِمَةُ عَدِيِّ بْنِ أَرْطَاةَ لِأَسْرَأَتِهِ عِنْدَ شَرِيحِ الْقَاضِي

دَخَلَ عَدِيُّ بْنُ أَرْطَاةَ عَلَى شَرِيحِ^(٣) الْقَاضِي يُخَاصِمُ امْرَأَةً لَهُ ، فَقَالَ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ،
قَالَ : وَعَلَيْكُمْ ، قَالَ : اسْتَمِعْ مِنِّي ، قَالَ : قُلْ أَسْمِعْ ، قَالَ : إِنِّي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّأْمِ ،
قَالَ : مِنْ مَكَانٍ سَحِيقٍ ، قَالَ : وَإِنِّي قَدِمْتُ إِلَى بِلَدِكُمْ هَذَا ، قَالَ : خَيْرٌ مَقْدَمٌ ، قَالَ :
وَإِنِّي تَزَوَّجْتُ امْرَأَةً ، قَالَ : بِالرَّفَاءِ^(٤) ، وَالبَيْنِ ، قَالَ : وَإِنِّهَا وَلَدَتْ غُلَامًا ، قَالَ :
لِيَهْنِكَ الْفَارَسُ ، قَالَ : وَقَدْ كُنْتُ شَرِطْتُ لَهَا صَدَاقَهَا ، قَالَ : الشَّرْطُ أُمْلَكُ ، قَالَ :

(١) هشام بن عبد الملك هو ماثر خلفاء بني أمية . (٢) للصباحة: الجمال ، صبح ككرم فهو صبيح .
(٣) هو أبو أمية شريح بن الحارث السكيتي ، كان من كبار التابعين ، وأدرك الجاهلية ، واستقضاها
ممن من الخطاب على الكوفة ، وقد أقام قاضيا نسبا وسبعين سنة ، وكان أعلم الناس بالقضاء ، ذا فطنة
وفكاك ، ومعرفة ، وعقل ، وإصابة ، توفي سنة ٨٧ هـ ، وهو ابن مائة سنة ، وقيل ابن مائة وعشرين .
(٤) أي بالانتماء وجمع الشمل ، وفأ الثوب كنع : لام غرقه ، وضم يعضه إلى يعض .

وقد أردت الخروج بها إلى بلدي ، قال : الرجل أحقُّ بأهله ، قال : فاقض بيننا . قال :
قد ضلت ، قال : فملى من حكت ؟ قال : على ابن أمك ، قال : بشهادة من ؟ قال بشهادة
ابن أخت خالتك . (البيان والبيان ٣ : ٢٣٤ ، ووفيات الأيمان ١ : ٢٢٤)

٤٠٩ - كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان

وقد تشاح بنو هاشم ، وبنو أمية في ميراث بينهم
عن سفيان بن عمرو بن عتبة بن أبي سفيان قال : وقع ميراث بين بنى هاشم وبين
بنى أمية ، تشاحوا فيه ، وتضايقوا ، فلما تفرقوا أقبل علينا أبو ناعرو ، فقال :
« يا بني : إن أقرش درجاً نزل عنها أقدام الرجال ، وأفسالاً تخشع لها رقاب
الأموال ، وغايات تقصر عنها أليجاد المسومة ^(١) ، وألسنا تكل عنها الشغار المشحودة
ولو اختلفت الدنيا ما زلت إلا بهم ، ولو كانت لهم ضافت بسمة أخلاقهم ، ثم إنه
ليخيل إلى أن منهم ناساً تحلقوا بأخلاق الموائم ، فصار لهم رفق في اللوم ، وخرق ^(٢)
في الحرص ، ولوا مكنهم لقائموا الطير في أرزاقها ، إن خافوا مكروهاً تمجّلوا
الفقر ، وإن مجّلت لهم نعمة أخزوا عليها الشكر ، أولئك أنضاء ^(٣) الفكر ، وعجزة
حملة الشكر » . (الأمال ٢ : ٢٣٨ ، والعقد الفريد ٢ : ٤٠)

(١) الخيل المسومة : المرسله وعليها ركبتها ، أو المعلقة ، أي التي جعل عليها سومة (بالضم) أي سمة
وعلمة ، أو الرمية . (٢) كقفل وسبب ضد الرفق ، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف في الأمور .
(٣) جمع فضوكمحل : وهو المهزول .

٤١٠ - خطبة دينار

وكان سِماك بن عبيد العباسي في حصار نهاوند (سنة ٢١ هـ) أسر رجلا من أهلها يسمى دينار فأتى - حذيفة بن اليمان فصالحه على الخروج - ففسدت إليه ماله .
وكان يواصل سِماكاً ويهدي له ويوافي الكوفة كلما كان عمله إلى عامل الكوفة فقدم الكوفة في إمارة معاوية فقام في الناس بالكوفة فقال :
« يا معشر أهل الكوفة : أنتم أول ما مررتم بنا ، كفتم خيار الناس ، فغيرتم بذلك زمان عمرو عثمان ؛ ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع : بخل وخيب^(١) وغدر وضيق ، ولم يكن فيكم واحدة منهن ، فرمقتمكم فإذا ذلك في مولدكم ، فسلتم من أين أنتم ، فإذا الحب من قبل النبط ، والبخل من قبل فارس ، والتندر من قبل خراسان ، والضيق من قبل الأهواز » .
(تاريخ الطبري ٤ : ٢٤٥)

٤١١ - رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري

وقال رجل لخالد بن عبد الله القسري : « والله إنك لتبذل ما جَلَّ ، وتنجبر ما انقلَّ ، وتكثر ما قلَّ ، ففضلك بديع ، ورايك جميع ، تحفظ ما شذَّ ، وتؤلف ما ندَّ » .
(زهر الآداب ٣ : ١٦٧)

(١) الحب : الخلداع .

خطب الخوارج وما يتصل بها

٤١٢ - خطبة حيان بن ظبيان السلمي

روى ابن جرير الطبري في تاريخه قال :

كَانَ حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ السَّمَلِيُّ يَرَى رَأْيَ الْخَوَارِجِ - وَكَانَ مِنْ أَرْتَشَ^(١) يَوْمَ النَّهْرِ وَان ، فَمَضَاهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فِي الْأَرْبَعَةِ الَّذِينَ كَانُوا عَنْهُمْ ، مِنَ الْمُرْتَضِينَ يَوْمَ النَّهْرِ - فَكَانَ فِي أَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ : فَلَبِثَ شَهْرًا أَوْ نَحْوَهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ خَرَجَ إِلَى الرَّيِّ ، فِي رَجَالٍ كَانُوا يَرَوْنَ ذَلِكَ الرَّأْيَ ، فَلَمْ يَزَالُوا مُقِيمِينَ بِالرَّيِّ حَتَّى بَلَغَهُمْ قَتْلُ عَلَى كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، فَدَعَا أَصْحَابَهُ أُولَئِكَ ، وَكَانُوا بِضَمَةِ عَشْرِ رَجُلًا ، فَأَتَوْهُ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أَيُّهَا الْإِخْوَانُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ : إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ أَخَاكُمْ ابْنَ مُلْجَمٍ أَخَا مُرَادٍ قَدْ لُقِيَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ أَغْيَاشٍ^(٢) الصَّبْحَ ، مُقَابِلَ الشَّدَّةِ^(٣) الَّتِي فِي الْمَسْجِدِ الْجَمْعَةِ ، فَلَمْ يَبْرَحْ رَاكِدًا يَنْتَظِرُ خُرُوجَهُ ، حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ حِينَ أَقَامَ الْمُقِيمُ الصَّلَاةَ : صَلَاةَ الصَّبْحِ ، فَشَدَّ عَلَيْهِ ، فَضْرَبَ رَأْسَهُ بِالسَّيْفِ ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا لَيْلَتَيْنِ حَتَّى مَاتَ » .
فَقَالَ سَالِمُ بْنُ رَبِيعَةَ الْعَبْسِيُّ : لَا يَقْطَعُ اللَّهُ يَمِينًا عَلَتْ قَدَّالَهُ^(٤) بِالسَّيْفِ ، فَأَخَذَ الْقَوْمُ يَحْمَدُونَ اللَّهَ عَلَى قَتْلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَلَا رِضَى عَنْهُمْ وَلَا رَحْمَةً ،
ثُمَّ إِنَّ حَيَّانَ بْنَ ظَبْيَانَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ :

(١) أَرْتَشَ : حُلٌّ مِنَ الْمَرْكَةِ وَتَوْبَا ، أَيْ جَرَّهَا وَهِيَ دَمَقٌ . (٢) أَغْيَاشُ جَمْعُ غَيْشٍ بِالتَّحْرِيكِ : وَهُوَ ظِلَّةٌ آخِرُ اللَّيْلِ . (٣) الشَّدَّةُ : بَابُ الْبَارِ ، وَهِيَ هُنَا مَا يَبْقَى مِنَ الطَّلَقِ الْمَسْدُودِ .
(٤) الْقَدَّالُ : جَمَاعٌ مَوْضِعُ الرَّأْسِ .

« إنه والله ما يَبْقَى على الدهر باقٍ ، وما يلبثُ الليالي والأيامُ ، والسُنُونُ والشهورُ على ابن آدمَ ، حتى تُدْبِقَهُ الموتُ ، فيفارقَ الإخوان الصالحينَ ، ويدعَ الدنيا التي لا يبقي عليها إلا التَّجَرُّةُ ، ولم تزل ضارَّةً لمن كانت له حِمَاً وشَجَنًا ^(١) ، فانصرفوا بنا رَحِمَكُمُ اللهُ إلى مَعْرِينَا ، فَلَمَّاتِ إخواننا ، فلندعُهم إلى الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وإلى جهاد الأحزاب ، فإنه لا عُذْرَ لنا في القعود ، وولائنا ظِلْمَةٌ ، وَسُنَّةُ الْهُدَى متروكة ، وَتَارُنا ^(٢) الذين قَتَلُوا إخواننا في المجالس آمِنون ، فإن يُظْفِرْنَا اللهُ بهم نَعْمِدُ بَمَدِّ إِلَى اللَّهِ هِىَ أَهْدَى وَأَرْضَى وَأَقْوَمُ ، وَيَشْفِي اللهُ بِذَلِكَ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وإن قُتِلَ فإن في مفارقة الظالمين راحةً لنا ، ولنا بأسلافنا أسوة . »

فقالوا له : كُلُّنَا قَاتِلٌ مَا ذَكَرْتَ ، وحامدٌ رَأَيْتُكَ الذي رَأَيْتَ ، فَرِذْ بنا المِصْرَ ، فإننا معك راضون بهذاك وأمرك ، فخرج وخرجوا معه مقبلين إلى الكوفة ، حتى نزلها ، فلم يزل بها حتى قدم معاوية ، وبست المنيرة بن شُعْبَةَ واليًّا على الكوفة .

(تاريخ الطبري ٦ : ٩٩)

(٢) القلندر : تاتل حميت .

(١) الشجين : الهم والحزن .

اثمار الخوارج

ثم إن الخوارج في أيام النيرة فزعوا إلى ثلاثة نفر منهم : المستورد بن علفة التميمي ، وحيان بن ظبيان السلي ، ومُعاذ بن جُوَيْن بن حصين الطائي ، فاجتمعوا في منزل حيان بن ظبيان ، فتشاوروا فيه فبُعثوا عليهم ، فقال لهم المستورد :

٤١٣ - مقال المستورد بن علفة

« يَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ وَالْمُؤْمِنُونَ ، أَرَأَيْتُمْ مَا تَجْعَلُونَ ، وَعَزَلْ عَنْكُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، وَلَوْ أَنَّ عَلَيْكُمْ مَنْ أَحْبَبْتُمْ ، فَوَالَّذِي يَمْلِكُ خَائِفَةَ الْأَعْيُنِ ^(١) وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، مَا أُبَالِي مَنْ كَانَ الْوَالِي عَلَى مَنْكُمْ ، وَمَا شَرَفَ الدُّنْيَا زَيْدٌ ، وَمَا إِلَى الْبَقَاءِ فِيهَا مِنْ سَبِيلٍ ، وَمَا نَزِيدُ إِلَّا الْخُلُودَ فِي دَارِ الْخُلُودِ » .

٤١٤ - مقال حيان بن ظبيان

قال حيان بن ظبيان : « أَمَا أَنَا فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ، وَأَنَا بِكَ وَبِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ إِخْوَانِي رَاضٍ ، فَانظُرُوا مَنْ شَقِمَ مِنْكُمْ فَسَمُّوهُ ، فَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَبَايِعُهُ » .

(١) يسارتها النظر إلى الحرم .

٤١٥ - مقال معاذ بن جوين

قال لهم معاذ بن جوين : « إذا قلنا أننا هذا ، وأننا سيدا المسلمين ، ودَّوَّا أنسابهم ، في صلاحكم ودينكم وقدركم ، فمن يرأس المسلمين ؟ وليس كلكم يصلح لهذا الأمر ، وإنما ينبغي أن يُلَى على المسلمين - إذا كانوا سواء في الفضل - أبصرهم بالحرب ، وأقنعهم في الدين ، وأشدَّهم اضطلاماً ^(١) بما يُحْمَل ، وأننا بحمد الله ممن يُرَضَى لهذا الأمر ، فليَتَوَلَّه أحدكم » :

قالا : فتولَّه أنت : فقد رضييناك ، فانت - والحمد لله - الكامل في دينك ورأيك ، فقال لهما : أننا اسنَّ مني ، فليَتَوَلَّه أحدكم ، فقال حينئذ جماعة من حضر : قد رضيينا بكم أيها الثلاثة ، فوَلَّوْا اِبْنَكُمْ أحييتم ، وكانت خاتمة ذلك النقاش أن بايعوا السُّنُود ، وأنشدوا أن يتجهَّزوا ويتبسَّروا ويستعدُّوا ، ثم يخرجوا لـهلال شعبان سنة ٤٣ هـ .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٠)

٤١٦ - خطبة المغيرة بن شعبة أمير الكوفة

يُحَذِّرُ أَهْلَهَا مِنْ إِيْوَاءِ الْخَوَارِجِ وَنَصْرَتِهِمْ
وَوَعَى إِلَى الْمَغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ أَنَّ الْخَوَارِجَ خَارِجَةٌ عَلَيْهِ ، قَامَ فِي النَّاسِ ، غَيْدُ اللَّهِ ،
وَأَنَّى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« أما بعد ، فقد علمت أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم العافية ، وأكف عنكم الأذى ، وإنني والله لقد خشيت أن يكون ذلك أدب سَوَّه لِسَفَهائِكُمْ ، فأما الخلفاء الأتقياء فلا ، وإيَّهم الله لقد خشيت أن لا أجدُ بدءاً من أن يُعَصِّبَ الحليم التقي ، بِذَنْبِ

(١) أي قرة من حله .

السفيه الجاهل ، فكفوا أيها الناس سفاهكم ، قبل أن يشمل البلاء عوامكم ، وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهرُوا في مصر بالشقاق والظلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حتى من أحياء العرب في هذا المصر إلا أبدتهم ، وجعلتهم نكالا لمن بعدهم ، فنظر قومٌ لأنفسهم قبل الندم ، فقد قت هذا اللقام إرادة الحجة والإعذار .

ثم نزل ، وبعث إلى رؤساء الناس فدعاهم ، ثم قال لهم :

« إنه قد كان من الأمر ما قد علمتم ، وقد قلت ما قد سمعتم ، فليكن في كل امرئ من الرؤساء قومة ، وإلا فوالذي لا إله غيره لأتعاونن عما كنتم ترفقون ، إلى ما تنكرون وعما تحبون إلى ما تنكروهن ، فلا يلم لأيم إلا نفسه ، وقد أعذر من أنذر .

فخرجت الرؤساء إلى عشارهم ، فنادى الله والإسلام إلا دلوهم على من يزور أنه يريد أن يهيج فتنة ، أو يبارق جماعة ، وجاء صمصمة بن صوحان ، فقام في ميد القيس ، فقال :

٤١٧ - خطبة صمصمة بن صوحان

« يا معشر عباد الله : إن الله - وله الحمد كثيراً - لما قسم الفضل بين المسلمين خصكم منه بأحسن القسم ، فأجبتكم إلى دين الله ، الذي اختاره الله لنفسه ، وارتضاه للملائكة ورسله ، ثم أقم عليه حتى قبض الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخطف الناس بعده ، فبنت طائفة ، وارتدت طائفة ، وأذهبت طائفة ، وتربعت طائفة ، فزمت دين الله إيماناً به وبرسوله ، وقاتلت المرتدين ، حتى قام الدين ، وأهلك الله الظالمين ، فلم يزل الله يزيدكم بذلك خيراً في كل شيء ، وعلى كل حال ، حتى اختلفت الأمة بينها ، فقالت طائفة : نريد طاعة والزيور عاتشة ، وقالت طائفة : نريد أهل المغرب ^(١) ، وقالت

(١) أي حماوية ، وكان والياً على الشام ، وسمى بالنسبة للعراق في المغرب .

طائفة : نريد عبد الله بن وهب اراسي : راسب الأزد ، وقتلتم أنتم : لا نريد إلا أهل البيت ، الذين ابتدأنا الله من قبائهم بالكرامة ، تسديداً من الله لكم وتوفيقاً ، فلم تزلوا على الحق لازمين له ، آخذين به ، حتى أملاك الله بكم ، وبين كان على مثل هذاكم ورأيكم . لنا كثير يوم الجمل ، ولنا رقي يوم النهروان ، وسكت عن ذكر أهل الشام لأن السلطان كان حينئذ سلاطنتهم) ، ولا قوم أعدى لله ولكم ، ولأهل بيت نبيكم ، ولجاعة المسلمين ، من هذه المارقة الخاطئة ، الذين فارقوا إيماناً^(١) . واستحلوا دماءنا ، وشهدوا علينا بالكفر ، فإياكم أن تؤوؤوهم في دوركم ، أو تكتسبوا عليهم ، فإنه ليس ينبغي لحي من أحياء العرب أن يكون أعدى لهذه المارقة منكم ، وقد والله ذكر لي أن بعضهم في جانب من الحي ، وأنا باحث عن ذلك وسائل ، فإن كان حكي لي ذلك حقاً ، تقربت إلى الله تعالى بدمائهم ، فإن دماءهم خلال ، ثم قال : يا معشر عبد القيس : إن ولاننا هؤلاء هم أعرف شيء بكم وبرأيكم ، فلا تجملوا لهم عليكم حبيلاً ، فإنهم أسرع شيء إليكم وإلى أمثالكم .

واقبل أصحاب المستورد يأتونه ، فليس منهم رجل إلا يُخبره بما قام به الميرة من شدة في الناس ، وبما جاءهم رؤاؤهم وقاموا فيهم ، وقالوا له : اخرج بنا فوالله ما نأمن أن نؤخذ في عثائرنا ، فخرج بهم من الكوفة ، ووجه الميرة لقتالهم مقل بن قيس الرضائي فلما علم للمستورد مسير مقل إليه جمع أصحابه .

(تاريخ الطبري ٦ : ١٠٦)

٤١٨ - خطبة المستورد

حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : فإن هذا الخريف ممقل بن قيس قد وُجَّه إليكم ، وهو من السَّبْيَةِ^(١) المتَّرين السَّكاذين ، وهو قه ولسكم عدو ، فأشيروا على برايكم . فقال له بعضهم : والله ما خرجنا نريد إلا الله ، وجهاد من عادى الله ، وقد جاءونا فأين نذهب عنهم ؟ بل نقيم حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، وقالت طائفة أخرى : بل ننزل وننتحى ، ندعو الناس ونحتج عليهم بالدعاء .

فقال : « يا معشر المسلمين : إني والله ما خرجت إليكم الدنيا ، ولا ذِكْرُها ، ولا فخرها ، ولا البقاء ، وما أحبُّ آتِها إلى بخذافيرها ، وأضامير ما يُتناقَسُ فيه منها ، بقبال^(٢) تنلى ، وما خرجت إلا التماسَ الشهادة ، وأن يَهْدِيَنِي الله إلى الكرامة ، بهوان بعض أهل الضلالة ؛ وإني قد نظرت فيما استشرتكم فيه ، فرأيت أن أقيم لهم حتى يَفْدَمُوا عليّ ، وهم حامؤون متوافرون ، ولكن رأيت أن أسير حتى أمين ، فإنهم إذا بلنهم ذلك خرجوا في طلبنا ، فضعفوا وتبددوا ، فلي تلك الحال ينبنى لنا قتالهم ، فأخرجوا بنا على اسم الله عز وجل . »

(١) السَّبْيَةُ : أتباع عبد الله بن سبأ ، وهو يهودى من صنعا ، أسلم زمن عثمان ثم نقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وغلا في حل ، وزعم أنه نبي . ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غوطة الكوفة وأتى قوم منهم إلى حل فقالوا له : أنت هو ؟ قال : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله ، فاستعظم الأمر ، وأمر بنار فأجبت في حفرتين ، وأحرقهم بها ، فجيئوا يقولون وهم يرمون في النار : الآن صح صفنا أنه الله ، لأنه لا يلدب بالنار إلا الله ، ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شجاعة أهل الشام ، وخاف اختلاف أصحابه عليه ، فبنى ابن سبأ إلى ساباط المدائن ، فلما بلغه مقتل علي قال : لو أتيتونا بدماغه سبعين مرة ما صدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور الناس في صورة علي ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، ومن ابن سبأ انشعبت أصناف الثلاثة . (٢) قبالة الفعل : زمام بين الأصبع والوسطى والى قلبها .

نفرجوا فضَوْاً على شاطئ دجلة، فمبروه ومضوا في أرض جَوْحَى، حتى بلغوا
لَلْدَار فاقاموا فيها، وأقبل معقل بن قيس، فأقام بالمدائن ثلاثاً، ثم جمع أصحابه، فقال :
(تاريخ الطبري ٦ : ١١٠)

٤١٩ — خطبة معقل بن قيس

« إن هؤلاء المارقة الضلال إنما خرجوا فذهبوا على وجوههم، إرادة أن تتجلبوا
في آثارهم، فتتقطعوا وتتبددوا، ولا تلتحقوا بهم إلا وقد تبعتم وتبعتم^(١)، وإنه ليس شيء
يدخل عليكم من ذلك إلا وقد يدخل عليهم مثله فخرج في آثارهم حتى لحقهم بالمدائن مقيمين.
ودارت بينهما رحى الحرب بشدة، ودعا المستورد مَعْقِلًا للبارزة لفتيائرا، وطمعنه
المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه
أُمُّ الدَّمَاع، فوقع ميتاً، وقتل معقل، وشدَّ أصحابه على الخوارج، فابثثوم أن قتلوم.
(تاريخ الطبري ٦ : ١١١)

٤٢٠ — كلمات حكيمة للمستورد

كان المستورد يقول : إذا أفضيتُ بَسِيرِي إلى صديق فأنشأ لم أُلْهِ، لأنني كنت
أولاً بحفظه، ويقول : لا تَفْش إلى أحد سرّاً وإن كان مخلصاً إلا على جهة المشاورة،
ويقول : كن أحرص على حفظ سرِّ صاحبك، منك على حَقِّ دمك، ويقول : أول
ما يذلُّ عليه غائبُ الناس معرفته بالسيوب. ولا يعيب إلا عيباً، ويقول : المال غير
بقي عليك، فاشتر من الحمد ما يبقى عليك، ويقول : بذلُ المال في حقِّه استدعاء
للمزيد من الجواد^(٢)، وكان يُكثِّر أن يقول : لو ملكْتُ الأرض بمذاخيرها،
ثم دُعيت إلى أن استفيد بها خطيئة ما فعلت.

(الكامل للبرد ٢ : ١٥٥، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٢)

اتّمار الخوارج ثانية

٤٢١ - خطبة حيان بن ظبيان

فلما كانت سنة ٥٨ هـ ، جمع حَيَّانُ بْنُ ظَبْيَانَ أَصْحَابَهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ إِنَّهُ حَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمْ :

« أَمَا بَعْدَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ عَلَيْنَا الْجِهَادَ ، فَمَنْ قَضَى نَجْبَهُ ^(١) ، وَمِمَّا مَنْ يَنْتَظِرُ ، وَأُولَئِكَ الْأَبْرَارُ الْفَائِزُونَ بِفَضْلِهِمْ ، وَمَنْ يَكُنْ مِمَّا مَنْ يَنْتَظِرُ فَهُوَ مِنْ سَلَفِنَا الْقَاضِينَ نَجْبَتِهِمْ ، السَّابِقِينَ بِإِحْسَانٍ ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَرِيدُ اللَّهَ وَنَوَابَهُ ، فَلْيَسْلُكْ سَبِيلَ أَصْحَابِهِ وَإِخْوَانِهِ ، يُؤْتِيَهُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ مَعَ الْحَسَنِينَ »

٤٢٢ - خطبة معاذ بن جوين

قَالَ مُعَاذُ بْنُ جُوَيْنٍ الطَّائِي : « يَا هَلِ الْإِسْلَامُ : إِنَّا وَاللَّهِ لَوَعَلْنَا أَنَا إِذَا تَرَكْنَا جِهَادَ الظَّالِمَةِ ، وَإِنْكَارَ الْجَوْرِ ، كَانَ لَنَا بِهِ عِنْدَ اللَّهِ عُذْرٌ ، لَكِنْ تَرَكْنَا أَيْسَرَ عَلَيْنَا وَأَخْفَى مِنْ رُكُوبِهِ ، وَلَكِنْ قَدْ عَلِمْنَا وَاسْتَقَيْنَا أَنَّهُ لَا عُذْرَ لَنَا ، وَقَدْ جَمَلَ لَنَا الْقُلُوبَ وَالْأَسْمَاعَ ، حَتَّى نُنْكِرَ الظُّلْمَ ، وَنَتَّيِّرَ الْجَوْرَ ، وَنَجَاهِدَ الظَّالِمِينَ » . ثُمَّ قَالَ ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايُكَ ، فَبَايَعَهُ ، وَبَايَعَهُ الْقَوْمُ ، فَضَرَبُوا عَلَى يَدِ حَيَّانَ فَبَايَعُوهُ ، وَذَلِكَ فِي إِمَارَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَانَ الثَّقَفِيِّ ^(٢) .

• • •

(١) النجبة : الأجل والتلذذ . (٢) وهو ابن أم الحكم أخت معاوية بن أبي سفيان .

ثم إن القوم اجتمعوا بعد ذلك بأيام إلى منزل مُأَذ بن جوين ، فقال لهم حيان :
عباد الله ، أشيروا برأيكم ، أين تأمرونني أن أخرج ؟ فقال مُأَذ : إني أرى أن تسير بنا
إلى حُلوان^(١) حتى نزلها ، فإنها كورة بين السهل والجبل ، وبين المصر والشَّعْر
- يعني بالشَّعْر أرمي - فن كان يرى رأينا من أهل مصر والشَّعْر والجبل والسَّواد^(٢)
ليحق بنا .

٤٢٣ - رد حيان بن ظبيان

قال له حيان : « عَدُوُّكَ مُسَاجِدُكَ قَبْلَ اجْتِمَاعِ النَّاسِ إِلَيْكَ ، لَعَمْرِي لَا يَتْرُكُونَكَ
حتى يجتمعوا إليك ، ولكن قد رأيت أن أخرج معكم في جانب الكوفة والسَّيْفَةِ ،
أو زُرَّارَةَ^(٣) والحيرة ، ثم قاتلهم حتى نلحق بربا ، إني والله لقد علمت أنكم لا تقدرُونَ
- وأنتم دون المائة رجل - أن تهزموا عدوكم ، ولا أن يشدد نكايتكم فيهم ، ولكن
مضى علم الله أنكم قد أجهدتم أنفسكم في جهاد عدوكم وعدوكم ، كان لكم به العُدْرُ ،
وخرجتم من الإنم » قالوا : رأينا رأيك .

٤٢٤ - مقال عتريس بن عرقوب

قال لهم عتريس بن عرقوب : ولكن لا أرى رأيَ جامعكم ، فانظروا في رأي
لكم ، إني لا أخالكم تجهلون معرفتي بالحرب ، ونجرتي للأمر ، قالوا له : أجل ،
أنت كاذكرت ، فما رأيك ؟ قال : ما أرى أن تخرجوا على الناس بالمصر ، إنكم قليل
في كثير ، والله ما تزيدون على أن تُخْرِزَومَ^(٤) أنفسكم ، وتَقْرُوا أضياعهم بقتلكم ،
وليس هكذا تكون المكايدة ، إذا آتوكم أن تخرجوا على قومكم ، فكيدوا عدوكم

(١) بلد بفارس . (٢) أي سواد العراق . (٣) محلة بالكوفة . (٤) أي تملككم .

ما يضرهم ، قالوا : فما الرأي ؟ قال : تسيرون إلى الكورة التي أشار بنزولها مُساذ
ابن جُوبن ، يعني حُوان ، أو تسيرون بنا إلى عين التَّمر ، فقيم بها ، فإذا سمع بنا إخواننا
أتونا من كل جانب وأوب^(١) .

٤٢٥ - ردحيان

فقال له حيان : « إني والله لو سرت بنا أنت وجميع أصحابك نحو أحد هذين
الوجهين ، ما أطمأنتم به حتى يلحق بكم خيول أهل مصر ، فأني تَشْفُون أنفسكم ؟
فوالله ما عدتكم بالكثيرة ، التي ينبغي أن تطعموا معها بالنصر في الدنيا على الظالمين
المعتدين ، فأخرجوا بجانب من يصركم هذا ، فقاتلوا عن أمر الله من خالف طاعة الله ،
ولا تَرَبَّصُوا ولا تنتظروا ، فإنكم إنما تبادرون بذلك إلى الجنة ، وتخرجون أنفسكم
بذلك من الفتنة » قالوا : أما إذا كان لابد لنا ، فإننا لن نخالفك ، فأخرج
حيث أحببت .

٤٢٦ - خطبة حيان

ثم إن أصحاب حيان بن خليان اجتمعوا إليه ، فقال لهم : يا قوم : إن الله قد جمعكم
تَليَيز ، وعلى خير ، والله الذي لا إله غيره ، ما سُررت بشيء قط في الدنيا بعد ما أسدت
سروري لخرجي هذا على الظلمة الآتية ، فوالله ما أحب أن الدنيا بعد أوقها لي ، وأن الله
حَرَمَنِي في خرجي هذا الشهادة ، وإنني قد رأيت أن نخرج حتى نزل جانب دار جرير
فإذا خرج إليكم الأجزاء ناجز نموم .

فقال عَريس بن عُرُقوب : أما أن نقاتلهم في جوف مصر ، فإنه يقاتلنا الرجال ،

وتصعد النساء والصبيان والإماء فيرموننا بالحجارة ، فقال لهم رجل منهم : انزلوا بنا إذن من وراء المصر الجسر - وهو موضع زُرارة ، وإنما بنيت زُرارة بعد ذلك إلا أحياناً يسيرة كانت منها قبل ذلك - فقال لهم معاذ بن جوين : لا . بل سيروا بنا فلننزل بأنقياً^(١) ، فأسرع ما يأتكم عدوكم ، فإذا كان ذلك استقبلنا القوم بوجهنا ، وجعلنا البيوت في ظهورها ، فقاتلناهم من وجة واحد ، فخرجوا ، فبُعث إليهم جيش ، فقتلوا جميعاً .
(تاريخ الطبري ٦ : ١٧٢)

٤٢٧ - خطبة مسلم بن عيسى

حين خرج لقتال الأزارقة

لما ملك نافع بن الأزرق - زعيم الأزارقة^(٢) - بلاد الأهواز ، وفشا عمله في السواد ارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس ، فشكّوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، فقال الأحنف : إن فعلهم في مصركم إن ظفروا به كفعلهم في سوادكم ، فجدّوا في جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف ، فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل أمير البصرة ، فسأله أن يؤمر عليهم فاختار لهم مسلم بن عبيس ، وكان ديناً شجاعاً ، فأمره عليهم وشيخه .

(١) بأنقياء ناحية من نواحي الكوفة . (٢) قمتاك في «منظرة عبد الله بن الزبير الخوارج» أن الخوارج كانوا قد مضوا إلى مكة سنة ٦٤ هـ ليبيتوا الحرم من جيش يزيد ، وقاصروا ابن الزبير ، وقتلوا معه ، ثم ناظروه : فلم يرتهم ماسموا معه ، فظفروا عنه ، وصارت طائفة كبيرة منهم إلى البصرة ، وبايعوا نافع بن الأزرق الخنثى ، وسماه أمير المؤمنين ، وخرج بهم إلى الأهواز ، فظفروا عليها وحل ماوراءها من أرض فارس وكرمان ، ونسبوا إليه قتل لهم : الأزارقة ، وهذه الفرقة من أشد فرق الخوارج بأساً ، وأصلها عودا ، وأكثرها عدداً وأحفلها حوادث وأنباء .

فلما نفذ من جسر البصرة أقبل على الناس فقال : « إني ما خرجت لامتيار^(١)
ذهب ولا فضة ، وإني لأحارب قوماً إن ظفرت بهم فإرءاهم إلا سيوفهم ورمحهم ،
فن كان شأنه الجهاد فليهنس ، ومن أحب الحياة فليرجع » .
فلما صاروا « بدوآلب » خرج إليهم نافع ، فاقبضوا قتالا شديداً ، وقتل في المعركة
ابن عبيس وابن الأزرق سنة ٦٥ هـ : (الكامل للبرد : ١٨٠)

(١) أى جلب ، وأصله من انتار لأهله : جلب هم الميرة بالكسر ، وهى الطعام .

خطب المهلب بن أبي صفرة

٤٢٨ - خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة

وكان المهلب بن أبي صفرة - وهو على قتال الأزارقة - يأمر أصحابه بالتحريض ويخوضهم النيات ، وإن بُد منهم المدو ، ويقول : « اجذروا أن تُسكادوا كما تسكيدون ، ولا تقولوا هزمنا وغلبنا . فإن القوم خائفون وجلون ، والضرورة تفتح باب الحيلة ، ثم قام فيهم خطيباً قال : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إنكم قد عرفتم مذهب هؤلاء الخوارج ، وأنهم إن قَدَرُوا عليكم فتَنُوكُم في دينكم ، وسفكوا دماءكم قفائِلُوم على ما قاتل عليه أوْلَهُمُ عليُّ بن أبي طالب صلوات الله عليه ، فقد آقيهم قبلكم الصابر الحَتِيبُ مُسْلِمُ بن عُبيس ، وَالْحَجَلُ الْمَرْطُ عُمَانُ بن عُبيد الله ^(١) ، وَالْمَصْحِيُّ الْحَالِفُ

(١) هو أخو عمر بن عبيد الله بن معمر لقى ولاء ابن الزبير بالبصرة (تولاهما بعد عبد الله بن الحرث ابن نوفل) . وولى عثمان محاربة الأزارقة بعد مسلم بن عبيس ، فخرج إليهم في اثني عشر ألفاً ، فلما عبروا إليهم دجيلاً نهض إليهم الخوارج - وذلك قبيل الظهر - فقال عثمان بن عبيد الله لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك هؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتفدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتحصن ، فأبق على نفسك وجنتك ، فقال : أيثم أهل العراق إلا جينا ، وأنت يا حارثة ما عليك بالحرب ؟ أنت والله تغير هذا أمل (يرض له بالشراب) فنفسب حارثة فاعتزل وحاربهم فثان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قليلاً ، وانهمز الناس ، وولى حريمهم يده حارثة بن بدر فهزموه أيضاً ، فهرب ركض حتى أتى دجيلاً فركب سفينة هو وجماعة من أصحابه ، وأثناء وجل من بين تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : يا حارث ليس مثل ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فاقرب إلى جرف ، فظفر بسلاحه في السفينة ، فساعت بالقوم جميعاً ، فأتوا غرقاً وتوجه الخوارج نحو البصرة ، ففجع الناس ، وخافوهم خوفاً شديداً ، واختاروا لقتالهم المهلب بن أبي صفرة ، فولاهم القبايع (وهو الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي والى البصرة من قبل ابن الزبير بعد عمر بن عبيد الله) .

حارثة بن بدر ، قَتَلُوا جَمِيعًا رَقَتُوا ، فَأَلْفَوْهُمْ بِحِدِّ وَحْدَةٍ فَأَمَّا مَهَنَتُكُمْ ^(١) وعبيدكم ، وعازَّ عليكم ، ونقص في أحسابكم وأديانكم أن يغلبكم هؤلاء على فيثكم ، ويَطْمَأُوا حَرَبَكُمْ .
(السكامل للبرد ١٨٩ : ٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص : ٢٨٥)

٤٢٩ - خطبة أخرى له في جنده

وخطب أصحابه ، وقد مال الخوارج بأجمعهم على الصكر ، واهزم الناس بسؤلاف فقال :

« وَاللَّهِ مَا بَكِمُ مِنْ قَلَّةٍ ، وَمَا ذَهَبَ عَنْكُمْ إِلَّا أَهْلُ الْجَيْنِ وَالضَّمَفِ ، وَالطَّمْعِ وَالطَّيْنِ ^(٢) فَإِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ ^(٣) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، فَيَسِيرُ وَإِلَى عَدُوِّكُمْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ » .
(السكامل للبرد ١٩١ : ٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص : ٢٨٦)

٤٣٠ - نص آخر

وردى الطبرى خطبة المواب في أصحابه يوم هزموا فقال :

ثم إن الخوارج شدت على الناس بأجمعها شدة مفكرة ، فَأَجْعَلَ النَّاسَ ، وَأَنْصَبُوا ^(١) منهزمين ، لَا تَلْوِي ^(٢) أُمٌّ عَلَى وَلَدٍ ، حَتَّى بَلَغَ الْبَصَرَةَ هَزِيمَةُ النَّاسِ ! وَخَافُوا السَّيَاءَ ^(٣) ، وَأَسْرَعَ الْمَوْتُ حَتَّى سَبَقَهُمْ إِلَى مَكَانٍ يَقَارِعُ ^(٤) ، فِي جَانِبٍ عَنْ سَنَنِ الْمُنْهَزِمِينَ ، ثُمَّ إِنَّهُ نَادَى النَّاسَ : « إِلَيَّ إِلَيَّ » هَبَادَ اللَّهِ ، فَتَابَ إِلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ نَحْوُ ثَلَاثَةِ آلَافٍ ، فَلَمَّا نَظَرَ إِلَى مَنْ قَدْ اجْتَمَعَ رَضِيَ جَمَاعَتَهُمْ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَأَتْنَى عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

(١) جمع ما هن ، وهو العبد والخدم . (٢) الشين والعيب . (٣) القرح ويضم : حفص السلاح ونحوه ما يخرج بالبدن ، أو بالفتح : الآثار ، وبالضم : الألم . (٤) انصبغ : انقلبت راجعا ممرعا . (٥) مر لا يلوى على أحد : لم يلاقف ولا ينتظر . (٦) السبي . (٧) اليغاف : ما ارتفع من الأرض .

« أما بعد : فإن الله ربنا يَكِلُ الجمع الكثير إلى أنفسهم فَيُهْزَمُونَ ، وَيُنْزِلُ النصر على الجمع اليسير فَيَظْهَرُونَ ، ولمرئى ما بكم الآن من قِلَّة ، إني لجماعتكم لراض ، وإنكم لأنتم أهل الصبر وفُزْسان أهل الضر ، وما أحبُّ أن أحداً من انهزم معكم ، فإنهم لو كانوا فيكم ما زادوكم إلا خَبَالاً^(١) ، عَزَمْتُ على كل امرئ منكم لَمَّا أخذ عشرة أحجار^(٢) ، ثم امشوا بنا نحو عسكرهم ، فإنهم الآن آمنون ، وقد خرجت خيلهم في طلب إخوانكم ، فوافقه إني لأرجو ألا ترجع إليهم خيلهم ، حتى تستبيحوا عسكرهم ، وتقتلوا أميرهم » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٨٨)

٤٣١ — خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المنيرة

ولما كتب إليه مُصَِّب بن الزبير أن أقدم على^٣ ، واستخلف ابنك المنيرة ، جمع الناس فقال لهم : « إني قد استخلفت عليكم المنيرة ، وهو أبو صغيركم : رِقَّة ورحمة ، وابنُ كبيركم : طاعة ويراوتبجيلاً ، وأخو مثلي : مؤاداً ومناصحةً ، فلتُحْسِنْ له طاعتكم ، ولتُحِبَّ له جانبكم ، فوافقه ما أردت صواباً قط إلا سَبَقَني إليه » ثم مضى إلى مصعب .

(الكامل للبرد ٢ : ١٩٨ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٩ ، وشرح ابن أبي المعديم ١ : ص ٣٨٩)

(١) فساداً . (٢) وفي الكامل للبرد : وقال المنهلب لأصحابه : أعدوا نحال فيها حجارة ، وارموا بها في وقت اللقطة ، فإنها تصد الفارس ، وتصرع الراجل ، وقال رجل من الخوارج : أتانا بأحجار ليقطنا بها وهل تقتل الأبطال ويهلك بالمجر ؟

٤٣٢ - خطبة الزبير بن علي في الأزارقة

وكان نافع بن الأزرق قبل قتله استخلف عبيد الله بن بشير بن الماحوز السليطي ،
وقتل ابن الماحوز يوم سبلى وسليطي^(١) ، فاجتمعت الخوارج بأرجان ، فبايعوا
الزبير بن علي السليطي ، فرأى فيهم انكساراً شديداً ، وضمفاً بينا . فقال لهم : اجتمعوا .
فخمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم أقبل عليهم فقال :
« إن البلاء للمؤمنين تمحيصٌ وأجرٌ ، وهو على الكافرين عقوبة وخزى ،
وإن يُصَبَّ منكم أمير المؤمنين ، فإصاريه خيرٌ مما خلفت ، وقد أصبتم منهم مسلم
ابن عبيس ، وريبما الأجدم^(٢) ، والحجاج بن باب . وحارثة بن بدر ، وأشجعيم
المهلب ، وقتلتم أخاه الممارك^(٣) ، والله يقول لإخوانكم من المؤمنين « إِنْ يَمْسَسْكُمْ
قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ ، وَذَلِكَ الْيَوْمَ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فيوم سبلى
كان لكم بلاء وعصيما ، ويوم سولاف^(٤) كان لهم عقوبة ونكالا ، فلا تُقَاتِلْنِ عَلَى
الشكر في دينه ، والصبر في وقته ، وثقوا بأنكم المستخلفون في الأرض ، والمأقبة للثقلين .
(الكامل للبدر ٢ : ١٩٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٣٨٨)

-
- (١) مجموع الفظلين موضع واحد بالأهواز قرب جند سابور ، وقتت فيها وقعة بين الخوارج والمهلب ،
وقتل فيها ابن الماحوز ورئيس الخوارج ، وفي ذلك يقول رجل منهم :
- يسلى وسليطي مصارع فتية كرام وجرحى لم تودع شدودها
- (٢) كان مسلم بن عيسى تقدم إلى أصحابه « يوم دولاب » فقال : إن أصبت فأبيركم الربيع بن عمرو
الأجلد ، فلما أصيب ابن عيسى أخذ الربيع الراية ، فلم يزل يقاتلهم نيفا وعشرين يوما حتى قتل ، ثم أخذها
الحجاج بن باب الحيدري ، فلم يزل يقاتلهم زهاء شهر حتى قتل أيضا ، فلقى هو وعمران بن الحارث الرايسى
فاختلفا ضربتين ، فسقطا ميتين . (٣) وكان ابن الماحوز وجه بعض جيشه إلى نهر تيرى ، وبها الممارك
ابن أبي صفرة ، فقتلوه وصلبوه ، فمضى الخبر إلى المهلب ، فوجه ابنه المغيرة ، فدخل نهر تيرى ، فاستنزله
ودفعه ، وسكن الناس ، واستخلف بها ورجع إلى أبيه . (٤) وفي ذلك اليوم يقول رجل من الخوارج :
- وكانن تركنا يوم سولاف منهم أسارى وقتل في الجمع مصيرها

٤٣٣ — خطبة عتاب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار

واعط الزبير بن عتي على أصفهان^(١) ، حصر بها عتاب بن ورقاء الرياحي سبعة أشهر ، وعتاب يحاربه في بعضهن ، فلما طال به الحصار ، وأصابه الجهد الشديد ، دعا أصحابه ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : أيها الناس ما تنتظرون وقد أصابكم من الجهد ما قد ترون ؟ فوالله إن^(٢) بقى مع هذا الحصار إلا أن يموت أحدكم على فراشه ، فيجيء أخوه فيدفنه إن استطاع ، وبالحرى أن يضعف عن ذلك ، ثم يموت هو ، فلا يجد من يدفنه ولا يصلي عليه ، فانقوا الله ، فوالله ما أنتم بالقليل الذين تهون شوكتهم على عدوهم ، وإن فيكم لفرسان أهل المعر ، وإنكم لصلحاء من أنتم منه ، ولقد حاربتموهم جرأاً فانتصم منهم أخرجوا بنا إلى هؤلاء القوم ، وبكم حياة وقوة ، قبل أن لا يستطيع رجل منكم أن يمشي إلى عدوه من الجهد ، وقبل أن لا يستطيع رجل أن يمتنع من امرأة لوجاءته ، ففانل رجل عن نفسه وصبر وصدق ، فوالله إنى لأرجو إن صدقتموه أن يظفركم الله بهم ، وأن يظهركم عليهم .

فلما أصبح الفد صلى بهم الصبح ، ثم خرج إلى الخوارج ، وهم غارون ، فلم يشعروا بهم حتى غشوم ، فقاتلوهم بجدي لم ير الخوارج منهم مثله ، فمقروا منهم خلقاً ، وقتلوا رئيسهم الزبير بن عتي ، وأنهزمت الخوارج .

ثم أدار الخوارج أسرم بينهم ، فولوا عليهم قطري بن الفجاءة المازني وبايعوه (تاريخ الطبري ٧ : ١٦٦ ، والكمال للبرد ٢ : ٢٠٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ٣٩١)

(١) أصحاحان : ينقص الهزة والياء ، وقد تكرر هزتها ، وقد تبدل باؤها فاء .

(٢) إن هنا قافية .

٤٣٤ — نصيحة عرهم العدوى لخالد بن عبد الله

ولما بحث خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد^(١) أخاه عبد العزيز لقتال الأزارقة^(٢) قام إليه عرهم أخو بني العدوية ، فقال :

« أصلح الله الأمير ، إن هذا الحى من تميم تَتِطُّ^(٣) بقريش منهم رَجِمُ دَائِمَةً مائَةً ، وإن الأزارقة ذُوبَانُ العرب وسِبَاعُهَا ، وليس صاحبهم إِلَّا الْمُبَاكِرُ الْمُنَاكِرُ ، الْمُخَرَّبُ^(٤) الْمُجَرَّبُ ، الَّذِي أَرْضَقَتْهُ الْحَرْبُ يَلْبَانِيهَا ، وَجَرَّسَتْهُ^(٥) وَضَرَّسَتْهُ ، وَذَلِكَ أَخُو الْأَزْدِ الْمُهَلَّبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ، وَاقِهِ إِنْ غَنَّاكَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ سَمِيئَةٍ ، وَلَكِنِّي أَخَافُ عَدَوَاتِ الدَّهْرِ وَغَدَرِهِ ، وَلَيْسَ الْمُجَرَّبُ كَنْنٌ لَا يُعْلَمُ ، وَلَا النَّاصِحُ الْمَشْفِقُ ، كَالْفَاشِ لِلتَّهْمِ » ، قَالَ لَهُ خَالِدٌ : اسْكُتْ ، مَا أَنْتَ وَذَا ؟ وَقَدْ هَزَمْتَ الْأَزَارِقَةَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَأَحْدَوْا أَسْرَارَهُ^(٦) وَفَرَّ عَمَّا .

(ذيل الأمال ص ٢٢)

(١) كَانَ وَالِ الْبَصْرَةِ وَأَعْمَالُهُ مِنْ قَبْلِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ مِنْ سَنَةِ ٧١ إِلَى سَنَةِ ٧٤ (انظر ص ٢٢٣) .
(٢) قَالَ أَبُو الْعِيَّاسِ الْمُبَرَّدُ فِي الْكَامِلِ (٢ : ٢٠٧) : « وَضَعْتُ قَطْرِي إِلَى كَرْمَانَ ، فَانصَرَفَ خَالِدٌ إِلَى الْبَصْرَةِ ، فَأَقَامَ قَطْرِي بِكَرْمَانَ أَشْهُرًا ، ثُمَّ عَدَّ لِفَارِسَ ، وَخَرَجَ خَالِدٌ إِلَى الْأَحْوَازِ ، وَنَدَبَ النَّاسَ رِجَالًا فِجْلُوا بِالْمُهَلَّبِ ، فَقَالَ خَالِدٌ : « ذَهَبَ الْمُهَلَّبُ بِحِطِّ هَذَا الْمَعْرِ ، إِنْ قَدْ وَلَيْتَ أَحَدٌ قِتَالَ الْأَزَارِقَةِ » فَوَلَّى أَخَاهُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَاسْتَخْلَفَ الْمُهَلَّبَ عَلَى الْأَحْوَازِ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَضَعْتُ عَبْدِ الْعَزِيزِ فِي ثَلَاثِينَ أَلْفًا ، فَجَمَعَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ فِي طَرِيقِهِ : « يَزْعُمُ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَنْتَهِي إِلَّا بِالْمُهَلَّبِ فَيُحْلِلُونِ ! » إِلَى أَنْ قَالَ : فَتَضَاعَفَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، فَوَاقَقُوهُ سَاعَةً ، ثُمَّ انْهَزَمُوا عَنْهُ مَكِيدَةً فَاتَّبَعَهُمْ ، فَقَالَ لَهُ النَّاسُ : لَاتَّبِعَهُمْ فَإِنَّا حُلٌّ فِيمَا تَمَيَّعَ فَأَبَى ، فَلَمْ يَزَلْ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى انْتَصَحُوا عَقِبَهُ ، فَاتَّقَصَّهَا وَوَادَعَهُمْ ، وَالنَّاسُ يَهْوُونَ وَيَأْبَى وَكَانَ لَهُمْ فِي بَطْنِ الْعَقْبَةِ كَيْفٌ ، فَلَمَّا صَارُوا وَوَادَعَهُمْ خَرَجَ عَلَيْهِمُ الْكَيْفُ ، وَانْخَازَ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، وَاتَّبَعَهُمُ الْخَوَارِجُ يَقْتُلُونَهُمْ كَيْفَ شَاءُوا » . (٣) أَصْلُهُ مِنْ أَمَلِ الرَّحْلِ أَطْلَعًا : صَوْتٌ .

(٤) مِنْ حَرْبِ السَّنَائِفِ : حُدُودُ . (٥) التَّجَرُّيسُ : التَّحْكِيمُ وَالتَّجَرُّبَةُ ، وَضَرَّسَتْهُ الْحَرْبُ تَضَرَّسًا : جَرَّبَتْهُ وَأَحْكَمَتْهُ أَيْضًا . (٦) وَكَانَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَدْ خَرَجَ بِأَسْرَارِهِ أَمْ فَخَصَ بِنْتَ الْمُنْذَرِ بْنِ الْجَارُودِ ، فَبَسِيَ الْخَوَارِجُ الْفَسَادَ يَوْمَئِذٍ وَكَانَتْ أُمُّ فَخَصَ مِنْ سَيْبِ ، قَالَ ابْنُ عَدِيٍّ فِي الْمَقْدَلِ الْفَرِيدِ (٢ : ٧٥) : وَفَاتَّقَصَّهَا

٤٣٥ -- خطبة قطري بن الفجاءة^(١)

وصعد قطري بن الفجاءة منبر الأزارقة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :
« أما بعد : فإنني أتحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خضرة^(٢) ، حُفَّت^(٣) بالشهوات ،
وراقَتْ^(٤) بالقليل ، وَتَحَبَّبَتْ بالمعاجلة^(٥) ، وَحَلَّتْ^(٦) بالأمال ، وتزينت بالفرور ،
لا تدرم حثرتيها^(٧) ، ولا تؤمن فجعها ، غرارة ضرارة ، خَوانة غدارة ، وَحائلة^(٨)
زائلة ، ونافذة^(٩) بائدة ، أسكالة غَوالة^(١٠) ، بدالة نقالة ، لا تمُدُّو إذا هي تنهت إلى
أمية أهل الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال الله تعالى : « كما أهزأناه من

في السوق حاضرة بادية الحاسن ، فاعترضوها وقلبوها ، وكانت من أكل الناس كالا وحسنا ، فتزايدت فيها
العرب والموالي ، حتى بلغوها تسعين ألفا ، فأقبل رجل من الخوارج من عبد القيس من خلفها ، فضرب
عنقها ، فأخذوه ورفعوه إلى قطري بن الفجاءة ، فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت
المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ؟ فقال له : ما تقول ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، إنني رأيت هؤلاء قد تنازحوا
عليها ، حتى أوقفت الأصوات ، واجرت الخدق ، فلم يبق إلا الخبط بالسيف ، فرأيت أن تسعين ألفا
في جنب ما عشت من الفتنة بين المسلمين هينة ، فقال قطري : خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابها » ٨١ .

(١) أورد الشريف الرضي رحمه الله هذه الخطبة في نهج البلاغة ، وهزأها إلى الإمام صل كرم الله وجهه
وكليلة القضاء في دستور معالم الحكم ، وقال ابن أبي الحديد في شرحه (٢ م : ص ٢٤٢) : « وهذه
الخطبة ذكرها شيخنا أبو حنّان الجاحظ في البيان والبيان ، ورواها لقطري بن الفجاءة ، والناس يروونها لأمير
المؤمنين عليه السلام ، وقد رأيتها في كتاب الموقد لأبي عبيد الله المرزباني ، مروية لأمير المؤمنين عليه السلام
وهي بكلام أمير المؤمنين أشبه وليس يبعد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب
أمير المؤمنين عليه السلام ، فإن الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره ، وقد لقي قطري أكثرهم » .

(٢) أي فاضرة ، من خضر الزرع كفخر ، فهو أخضر وعضر وهو من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم
وسلم -- انظر خطبتي في الجزء الأول ص ١٥١ : (٣) أي أطافت بها الشهوات . (٤) أعجبت أهلها
بمتاع قليل ليس يدائم . (٥) أي وتحببت إليهم بالمعاجلة ، (والنفس مولعة يحب المعاجل) .

(٦) حلّت المرأة فهي حال وحالية كتحلّت . وفي رواية : « وتحلّت » . (٧) الحبرة : السرور .
وفي رواية : « لا تقوم فسرتها » ؛ لا تقوم : لا تثبت . والنصرة : الثمنه والبنى والحسن .

(٨) أي متحولة متغيرة من حال يحول . وفي رواية « خاتلة » أي عادمة . (٩) أي هالكة فانية
من فقد ينفذ كفخر . (١٠) أي مهلكة من غاله يغوله .

السَّاءَ ، فَأَخْطَلَتْ بِدَنَبَاتِ الْأَرْضِ ، فَأَصْبَحَ هَشِيماً^(١) تَذَرُوهُ الرِّيحُ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً ، مع أن اسراً لم يكن منها في حَبْرَةٍ ، إِلَّا أَعْقَبَتْهُ بِسُودَةِ عَبْرَةٍ ، ولم يَلْقَ مِنْ سَرَّائِهَا بَطْناً ، إِلَّا مَنَحَتْهُ مِنْ خَرَّائِهَا ظَهْراً^(٢) ، ولم تَطْلُ غَيْثُهُ^(٣) رِجَاءً ، إِلَّا هَطَلَتْ^(٤) عَلَيْهِ مَزْنَةٌ بَلَاءً ، وَحَرِيٌّ إِذَا أَصْبَحَتْ لَهُ مُنْتَصِرَةٌ ، أَنْ تُنَمِّيَ لَهُ خَاذِلَةٌ مُتَسَكِّرَةٌ ، وَإِنْ جَانِبٌ مِنْهَا اعْدُوذَبَ وَاحْتَلَوَى^(٥) ، أَمَرَ عَلَيْهِ مِنْهَا جَانِبٌ وَأَوَى^(٦) ، وَإِنْ آتَتْ اسراً مِنْ غَضَائِهَا^(٧) وَرَفَائِهَا نِعْمًا ، أَرْهَفَتْهُ مِنْ نَوَائِبِهَا تَعَبًا ، وَلَمْ يُنْسِ اسرُّهَا فِي جَنَاحِ أَمْنٍ ، إِلَّا أَصْبَحَ مِنْهَا عَلَى قَوَادِمِ^(٨) خَوْفٍ ، غَرَّازَةٌ غُرُورٌ مَافِيهَا ، فَانِيَةٌ ، فَإِنْ مَاعَلِيهَا ، لَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ مِنْ زَادِهَا إِلَّا التَّقْوَى ، مِنْ أَقَلِّ مِنْهَا اسْتَكْرَاهُ ، أَبْوَدُهُ ، وَمِنْ اسْتَكْرَاهُ اسْتَكْرَاهُ مَا يُؤَيِّقُهُ^(٩) ، وَيُطِيلُ حُزْنَهُ ، وَيُيَبِّحِي مِينَهُ ، كَمْ وَاقٍ بِهَا قَدْ فَجَبَتْهُ ، وَذِي طُمَأْنِينَةٍ إِلَيْهَا قَدْ صَرَخَتْ^(١٠) ، وَذِي اخْتِيَالٍ^(١١) فِيهَا قَدْ خَدَعَتْهُ ، وَكَمْ مِنْ

-
- (١) الهشيم : مائهشم وتحطم ، وتذروه : أى تطليه . (٢) كنى بالباطن والظاهر عن إقبالها عليه وإدبارها عنه لأن الملاقاة بالصدر ملاق بالوجه ، فهو مقبل عليك ، والمطليك ظهره مدبر عنك .
- (٣) طله السحاب يطله : إذا أمطره مطراً قليلاً ، وربما كانت « غيثه » مصحفة عن « غيبه » والغيبه يفتح الغين : المطرة غير الكثيرة ، وفي رواية « ديمة » والديمه بالكسر : مطريدم في سكون بلا رعد وبرق .
- (٤) هطلت السماء كجلس هطلا : تتابع مطرها ، وفي رواية : « هذت » هذت السماء كجلس أيضاً هتتا : انصبت ، أو هو فوق الهطل ، والمزنة : السحابة أو ذات الماء .
- (٥) أى صار عليها حلوا . (٦) أمر : صار مرا وأوى : سهل عن أوبأ ، أى صار وبيتاً ، وبثت الأرض كفرح وكرم وعنى ، وأوبأت : صارت كثيرة الوباء ، وهو الطاعون أو كل مرض عام . (٧) الضارة : للنعمة والفسدة والخصب ، وأرهقه : حله على مالا يطيقه ، وفي رواية : « لا ينال امرؤ من غضائِها رغباً » والرغب بالتحريك ما ترغب فيه ، وفي رواية : « فإن آتت امرأة من غصونها ورقاً » ، وفي رواية : « وإن ليس امرؤ من غضائِها ورقاً فهايتها نعماً » أرهقت من نوائبها فما .
- (٨) القوادم : أربع أو عشر ريشات في مقدم الجناح ، الواحدة قادة ، وعص الخوف بالقوادم لأنها مقدم الريش ، والراكب عليها بمرض سقوط قريب . (٩) جهلكه . (١٠) وفي رواية : « وذى حكم نته إليها قد صرعه » . (١١) الاختيال : الكبر والجب ، والأبهة : العظمة ، والبهجة والكبر والنخوة .

ذِي أُتِفِقَ فِيهَا قَدْ صَيَّرْتَهُ حَقِيرًا ، وَذِي نَحْوَهُ قَدْ رَدَّتَهُ ذَلِيلًا ، وَكَمْ مِنْ ذِي تَاجٍ قَدْ كَبَّيْتَهُ ^(١) لِلدِّينِ وَالنَّهْلِ ، سُلْطَانَهَا دُولٌ ، وَعَيْشُهَا رَتْقٌ وَعَذْبُهَا أَجَاجٌ ، وَحُلُوهَا صَبِيرٌ ، وَغِذَاؤُهَا سَعَامٌ ^(٢) وَأَسْبَابُهَا رِمَامٌ ^(٣) ، وَقِطَاعُهَا سَلَعٌ ^(٤) ، حَبْنُهَا بِمَرَضٍ مَوْتٌ ، وَصَحْبُهَا بِمَرَضٍ شَقَمٌ ، وَمَنْعُهَا بِمَرَضٍ اهْتِصَامٌ ، مَلِكُهَا مَسْلُوبٌ ، وَعِزُّهَا مَغْلُوبٌ ، وَسَلِيهٌهَا مَسْكُوبٌ ، وَجَامِعُهَا تَحْرُوبٌ ^(٥) ، مَعَ أَنْ وَرَاءَ ذَلِكَ سَكْرَاتُ اللَّوْتِ ، وَهَوَلُ الْمَطْلَعِ ، وَالْوُقُوفُ بَيْنَ يَدَيِ الْحَكَمِ الْمَذَلِّ « لَيَجْزِي الْقَدِيرَ أَهْلُهَا وَمَا عَمَلُوا ، وَيَجْزِي الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْخُسْفَى » .

السَّمُ فِي مَسَاكِنَ مَنْ كَانَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا ، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا ، وَأَعْدَّ عَدِيدًا ، وَأَكْتَفَ جُنُودًا ، وَأَعْتَدَ عَتَادًا ^(٦) ، وَأَطْوَلَ عَمَادًا ، تَنْبُدُوا ^(٧) لَدُنْيَا أَيْ تَعْبُدُوا وَآثَرُوهَا أَيْ لِثَارُهَا وَظَهَرُوا فِيهَا بِالْكَرْهِ وَالصَّفَارِ فَهَلْ بَالَكُمْ أَنْ الدُّنْيَا تَمُحُّتَ لَهَا نَفْسًا بَعْدِيَّةً ، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهُمْ فِيهَا قَدْ أَهْلَكْتَهُمْ بِخُطْبٍ ^(٨) ؟ بَلْ قَدْ أَرْهَقْتَهُمْ بِالْفَوَادِحِ ^(٩) ، وَضَعُفَتِهِمْ بِالنَّوَائِبِ ، وَعَقَرْتَهُمْ بِالْمَصَائِبِ ^(١٠) ، وَقَدْ رَأَيْتُمْ تَسْكُرُهَا

(١) صرته وقليته . (٢) ونق الماء كفرح ونصر : كدر ، فهو رتق كمدل وكثف وجبل ، وأجاج : ملح ، وصمام جمع سم مثلث السين . (٣) أسباب جمع سبب : وهو الحبل ، وريام : بالية ، حبل أريام ، وريام : أي بال . (٤) السلح : شجر مر ، أو سم : أو ضرب من الصبر ، أو بقلة خبيثة العلم . (٥) مسلوب ، من حربه حربا كطلبه عليا : سلب ماله فهو محروب وحريب ، وفي رواية : « وجارها محروب » . (٦) العتاد : المدة ، وقد عتد كسكرم عتادا فهو عتيد : أي حاضر مهيا مدد ، وفي رواية : « وأعتد عتودا » من عتد عن الطريق كنصر وسبع ويكرم عتودا : أي مال ، وفي رواية : « وأشد عقودا » . (٧) أي استميتهم الدنيا ، تميده : اتخذ عيدا . (٨) أي بشأن وأمر . (٩) الفوادح : التوائب المثقلة ، من فدحه البئر إذا أثقله ، وفي رواية : « الفوادح » والتفادح جمع قاذح : وهو أكال يقع في الشجر والأستان ، وفي رواية : « وأرهقهم » أي جعلهم في الودق بفتح الهاء وتسكينها : وهو حبل كالطول . (١٠) وفي رواية : « وعقرتهم بالفجائع » وفي رواية « وعقرتهم المناخر » ، وهن المنابر ، أفضت أنوفهم بالمفر (كسب ويسكن) وهو القرب والمناخر جمع منبر يفتح الميم واللام ، ويكسرهما ، وبضمهما وكجس : الأنف ، والمناخر جمع منبر كجس وهو خف الجير .

لن دَانَ^(١) لها ، وأخذ إليها ، حين ظننوا عنها لفرار الأبد ، إلى آخر المسند^(٢) ، هل زودتهم إلا السَّعْبَ^(٣) ، وأحلتهم إلا الضنك ، أو نورت لهم إلا الظلمة ، أو أعقبهم إلا الندامة ؟ أهذه تؤثرون ، أم على هذه تحمرون ، أم إليها تطمئنون ؟ يقول الله جل ذكره : « مَنْ كَانَ يَرْيِدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » فبئس الدار لمن لم يتنمها ، ولم يكن فيها على وجل منها .

فاعلموا - وأنتم تعلمون - أنكم تاركوها لأبد^(٤) ، فإنما هي كما وصفها الله بالآلِيب والابو وقد قال الله تعالى : « أَتَبْنُونَ بُيُوتًا يَكُلُّ رِيعَ آيَةٍ تَمْبُتُونَ ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَائِعَ لَمَلِكِكُمْ تَخْلُدُونَ ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ^(٥) » ، وانظروا فيها بالدين قالوا : « مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟ » ، حيلوا إلى قبورهم فلا يدعون رُكْبَانًا ، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون^(٦) ضيفانًا ، وحيل لهم من الصريح أكنان ، ومن القرب أكناف ، ومن الرفات جيران^(٧) ، فهم حيرة لا يحببون داعيًا ، ولا ينعون ضيًّا ، ولا يبالون مندبة^(٨) ، إن أخصبوا^(٩) لم يفرحوا ، وإن قحطوا^(١٠) لم يقنطوا ، جمع وهم آحاد ، وجيرة وهم أباد ، متناهون لا يزورون ولا يزأرون ، حُلُمَاء قد ذهب أصفانهم ، وجُهَلَاء

(١) أي خضع لها وذل ، وفي رواية : « لمن رادها » أي طلبها : رودا ، وأخذ إليها : مال .
(٢) المسند : الدهر ، وفي رواية : إلى آخر الأبد . (٣) الجوع ، وفي رواية : « الشقاء والضنك والضييق . (٤) نزلت في عاد قوم هود ، الربيع : المرتفع من الأرض ، آية : أي آية وقصورا يقتضون بها ، ويمشيون بالفقراء ، وبطلالون عليهم من أجلها ، والمصانع : الباني من القصور والمعون . (٥) وفي رواية : « فلا يرمون » أي فلا يراهم أحد . (٦) الأكنان جمع كن بالكسر : وهو وقاد كل شيء وسره . والصريح : القبر أو اللق وسله ، وفي رواية : « وجعل لهم من الصفيح أجنان » والأجنان جمع جنن كسبب : وهو القبر ، والصفيح : الحجارة الفرائس ، والرفات : النظم البالية . (٧) اللدبة : الدب على الميت . (٨) وفي رواية : « إن جيءوا » من جادهم النيث إذا أمطروا . (٩) قسط الناس كسح ، وقحطوا وأقصوا مبنيين السجهول (قليلان) ، وبكل روى .

قد ماتت أقدامهم ، لا يُخَشَى قَبْضُهُمْ ، وَلَا يُرْجَى دَفْنُهُمْ ، وَكَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى :
 « فَتِلْكَ مَسَافَتُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَيْنِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ، وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ » ،
 استبدلوا بظهر الأرض بطنًا ، وبالسمة ضيقًا ، وبالأهل غربة ، وبالنور ظلمة ، فثاروها
 كما دخلوها ، حُفَاةَ حُرَاةٍ فُرَادَى ، غير أن ظلموا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة ، وإلى
 خلود الأبد ، يقول الله تعالى : « كَأَنَّا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ »
 فاحذروا ما حذركم الله ، وانتصروا بما عظمه ، واعتصموا بمحبته ، عصمنا الله وإياكم بطاعته
 وورقنا وإياكم أداء حقه .

(البيان والبيان ١ : ٦٣ . وصبح الأعيى ١ : ٢٢٣ . والمقد الفريد
 ١٦٠ : ٢ . وصيون الأخبار ٢ : ص ٢٥٠ . ونهاية الأرب ٧ :
 ٢٥٠ . ونهج البلاغة ١ : ١٢٢ . دستور معالم الحكم ص ٥١)

٤٣٦ — خطبة عبد ربه الصغير

ولما دبت مغاربُ الخلاف بين الأزارقة ، ولعبت بهم يد الشقاق ، خلموا قَطَرِيَّ
 ابن الفجاءة ، وَوَلَّوْا عَبْدَ رَبِّهِ الصَّغِيرَ ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من ^(١) الشَّطْرَ ،
 ونشبت الحرب بينه وبين المهلب ، فأجَلَّتِ الواقعةُ عنه قُتَيْلًا ، وقد جمع أصحابه في اليلة
 التي قتل في صَبِيحَتِهَا ، فقال :

« يامعشر المهاجرين : إِنْ قَطَرِيًّا وَعُيْبِيَّةٌ ^(٢) هَرَبَا طَلَبَ الْبَقَاءَ ، وَلَا سَبِيلَ إِلَيْهِ ،
 فَالْقُوا عَدُوَكُمْ ، فَإِنْ غَلِبَكُمْ عَلَى الْحَيَاةِ ، فَلَا يَغْلِبَنَّكُمْ عَلَى الْمَوْتِ ، فَتَلْقُوا الرِّمَاحَ بِتَحْوَرِّكُمْ
 وَالسِّيُوفَ بِوُجُوهِكُمْ ، وَهَبُوا أَنْفُسَكُمْ لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا ، يَهَيِّئَهَا لَكُمْ فِي الْآخِرَةِ » .

(الكامل للبرد ٢ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٥)

(١) أما قطري فقد ارتحل ومن معه إلى طبرستان فوجه الحجاج إليه جيشا عليه سفيان بن الأبرد
 فقاتلوه ، وتفرق عنه أصحابه وقُتل سنة ٧٨ هـ ، وبقتله انتهت حروب الأزارقة . (٢) هو عبدة
 ابن حلال اليشكري من كبراء الأزارقة .

٤٣٧ - خطبة صالح بن مسرّح^(١)

وروى الطبري في تاريخه قال :

كان صالح بن مُسَرِّح يرى رأى الصُفَرِيَّة^(٢) ، وكان رجلاً ناسكاً مُخْبِتاً^(٣) ، مصغراً الوجه ، صاحب عبادة ، وكان يَدَاراً^(٤) وأرض اللّوَصِلَ والجزيرة ، له أصحاب يُقَرِّئُهُم القرآن ، وَيَقْعُهُمْ وَيَقْصُّ عَلَيْهِمْ ، وكان قصصه :

« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ، ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَقُولُونَ ، أَلِهَمَّ إِنَّا لَا أَمْدُلُ بِكَ ، وَلَا نَحْفِدُ^(٥) إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَمِيدُ إِلَّا إِلَيْكَ ، لَكَ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، وَمَنْ لَكَ النِّفْعُ وَالضَّرُّ ، وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ عَمَدًا هَبْدُكَ الَّذِي اصْطَفَيْتَهُ ، وَرَسُولُكَ الَّذِي اخْتَرْتَهُ وَارْتَضَيْتَهُ لِتُبْلِغَ رِسَالَتَكَ ، وَنَصِيحَةَ عِبَادِكَ ، وَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ الرِّسَالَةَ ، وَنَصَحَ الْأُمَّةَ ، وَدَعَا إِلَى الْحَقِّ ، وَقَامَ بِالْقِسْطِ ، وَنَصَرَ الدِّينَ ، وَجَاهَدَ الْمُشْرِكِينَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

أُرْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ ، وَالزَّهْدِ فِي الدُّنْيَا ، وَالرَّغْبَةِ فِي الْآخِرَةِ ، وَكَثْرَةِ ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَفِرَاقِ الْفَاسِقِينَ ، وَحُبِّ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا تَرْغَبُ الْعَبْدَ فِيهَا عِنْدَ اللَّهِ ،

(١) هو صالح بن مسرّح أحد بني أمية القيس ، وهو زعيم فرقة من الخوارج الصفرية ، تسمى : « الصالحية » نسبة إليه : وقد خرج على بني أمية سنة ٧٦ هـ ، فبعث إليه محمد بن مروان أمير الجزيرة جيشاً بقيادة عدي بن عدي بن عبيدة فهزمه صالح ونزل معسكره وحوى مانيه ، وبعث محمد بن مروان إليهم جيشاً آخر فقاتلهم ، فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصل ، فسرح إليهم الحجاج جيشاً يقوده الحارث بن عبيدة فعادهم وقتل في المعركة صالح . (٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأسمر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم تكلموا بالعبادة أو تخلعوا من الدين وليس هذا موضع تفصيل عقائدهم . (٣) أعيت قه : خشع وتواضع . (٤) داراً : بلد بين نصيبين وماديين من أرض الجزيرة . (٥) حَفْدُ كَضْرَبٍ : خَفَّ وَأَسْرَعَ .

وتفرغ بَذَنه لِعِلاءِ الله ، وإن كثرة ذكر الموت تخيف الصَّيِّدَ من ربه ، حتى يَجْأَرَ^(١) إليه وَيَسْتَكِينَ له ، وإن فِرَاقَ الفاسقين حَقٌّ على المؤمنين ، قال الله في كتابه : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنَئُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ » ، وإن حب المؤمنين لَسَبَبُ الَّذِي يُنَالُ به كرامة الله ورحمته وجنته ، جعلنا الله وإياكم من الصادقين الصابرين ، ألا إن من نعمة الله على المؤمنين أن يث فيهم رسولا من أنفسهم ، فليعلم الكتاب والحكمة وزكاهم ومطهرهم ، وفقهم في دينهم ، وكان بالمؤمنين رهوقا رحيا ، حتى قبضه الله ، صلوات الله عليه ، ثم ولي الأمر من بعده النقي الصديق ، على الرضا من السليدين ، فافتدى بهديته ، واستن بسنته ، حتى لحق بالله رحمه الله ، واستخلف عمر فولاه الله أمر هذه الرعية ، فعمل بكتاب الله ، وأحيا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يخنق في الحق على جرته^(٢) ، ولم يخف في الله كومة لأثم ، حتى لحق به رحمة الله عليه ، وولى من بعده عثمان ، فاستأثر بالقي ، وعطل الحدود ، وجار في الحكم ، واستذل المؤمن ، وعزَّز الهرم ، فسار إليه المسلمون فقتلوه ، فبرئ الله منه ورسوله وصالح المؤمنين ، وولى أمر الناس من بعده على ابن أبي طالب ، فلم ينشب أن يحكم في أمر الله الرجال ، وشك في أهل الضلال ، وركن^(٣) وأذهن ، فنحن من علي وأشياعه برآ ، فقيسروا رحمكم الله لجهاد هذه الأحزاب المتعزبة ، وأمة الضلال الظلمة ، وللخروج من دار الفناء إلى دار البقاء ، واللاحاق بإخواننا المؤمنين الموقنين الذين باعوا الدنيا بالآخرة ، وأنفقوا أموالهم التماس رضوان الله في الساقية ، ولا تجزعوا من القتل في الله ، فإن القتل أيسر من الموت ، والموت نازل بكم - غير ما تزعجُم الظنون - ففرق بينكم وبين آبائكم وأبنائكم وحلائدكم ودنياكم ،

(١) جأر إليه كنع : رفع صوته بالدعاء ، وتفرغ واستغاث . (٢) احتق الصلب : لزق بالبطن . والجرة : ما يخرج البعير من جوفه ويضغه ، كفى بذلك من عدم إظهار الحق والعدل . (٣) ركن إليه : مال .

وإن اشتد ذلك كُرْهُكُمْ وَحَزَنُكُمْ ، أَلَا فَيَعْمُوا اللَّهَ أَنْفُسُكُمْ طَائِعِينَ وَأَمْوَالُكُمْ تَدْخُلُوا
الجنة آمنين ، وَتَتَأَمَّلُوا الْحُورَ الْعِينِ ، جعلنا الله وإياكم من الشاكرين إذا كرين ،
الذين يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَسْتَلُونَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٨ - خطبة أخرى له

وروى الطبري أيضاً قال :

« بيذا أصحابُ صالحٍ يَخْتَلِفُونَ إِلَيَّ ، إذ قال لهم ذات يوم : ما أدرى ما تنتظرون ؟
وحتى متى أنتم مُقيمون ؟ هذا الجور قد فُشِيَ ، وهذا القتل قد عَمِيَ ، ولا تزداد هذه
الولاء على الناس إلا غُلُوءًا وَعُقُوءًا ، وتباعدوا عن الحق ، وجُرُّوا على الرب ، فاستمِدُّوا ،
وابشروا إلى إخوانكم الذين يريدون من إنكارِ الباطل والدعاء إلى الحق ، مثل الذي
تريدون ، فيأتوك فتلقي ، وتنتظر فيما نحن صانمون ، وفي أي وقت إن خرجنا نحن
خارجون » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٠٩)

٤٣٩ - خطبة أخرى

وقال لأصحابه ليلة خرج : « اتقوا الله عبادَ الله ، ولا تَمَجُّلُوا إلى قتال أحد من
الناس إلا أن يكونوا قوماً يريدونكم وَيَنْصِبُونَ^(١) لكم ، فإنكم إنما خرجتم غضباً
لله ، حيث انتهكت محارمه ؟ وعُثِيَ في الأرض ، فسُفِكَت السماء بنيرِ حُلَيْها ، وأُخِذَتْ
الأموال بغيرِ حقِّها ، فلا تَمَيِّبُوا على قوم أعمالنا تَمَلُّوا بها ، فإن كلَّ ما أنتم عاملون ،

(١) أي يهادونكم .

أنته عنه مسئولون ، وإن عظمكم رجالة ، وهذه دواب لحمد بن مروان في هذا
الرشاق^(١) ، فابدها بها فشدوا عليها ، فاحلوا أرجلهم ، وتقووا بها على عدوكم .
(تاريخ الطبري ٧ : ٢٢ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٠)

٤٤٠ - خطبة زائدة بن قدامة

وخلّف على رياسة الخوارج العشرية بعد مقتل صالح بن مسريح أحد أصحابه ،
وهو شبيب بن يزيد الشيباني ، فكتب الحجاج لقتاله الكتاب ، وكان أميرها في بعض
البرقات زائدة بن قدامة ، وجاء شبيب حتى وقف مقابل القوم ، فخرج زائدة يسير
بين الميمنة والميسرة ، يحرّض الناس ويقول :

« عباد الله ، إنكم الطيبون الكثيرون ، وقد نزل بكم الخبيثون القليلون ،
فاصبروا جئتم لكم الفداء إنها خلتان أو ثلاث ، ثم هو النصر ليس دونه شيء ،
الآن ترونهم والله لا يكونون مائتي رجل ؟ إنما هم أكلة رأس ، وهم السراق المراك ،
إنما جاءوكم ليهرقوا دماءكم ، ويأخذوا فيكم ، فلا يكونوا على أخذهم أقوى منكم
على منكم ، وهم قليل وأنتم كثير ، وهم أهل فرقة ، وأنتم أهل جماعة ، غصوا الأبصار ،
واستقبلوهم بالأسنة ، ولا تحملوا عليهم حتى أمركم » ، فابرح بقائلهم مقيلاً غير مدبر ،
حتى قتل . (تاريخ الطبري ٧ : ٢٣٥ ، شرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٥)

٤٤١ - خطبة الحجاج بن يوسف

ولما هزم شبيب الجيش الذي كان الحجاج وجهه إليه مع عبد الرحمن بن محمد
ابن الأشعث ، أقبل نحو للدائن ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقام في الناس ، فحمد الله ، وأثنى
عليه ، ثم قال :

(١) الرشاق . يستعمل في الناحية التي هي طرف الإقليم ، (مرعب) .

« أَيُّهَا النَّاسُ : وَاللَّهِ لَتُقَاتِلَنَّ عَنْ بِلَادِكُمْ وَعَنْ فَيْسِكُمْ ، أَوْ لَتَأْبَسَنَّ إِلَى قَوْمٍ مِ
أَطْوَعُ وَأَسْمَعُ ، وَأَصْبِرَ عَلَى اللَّأْوَاءِ وَالنَّيْظِ مِنْكُمْ ، فَيَقَاتِلُونَ عَنْكُمْ ، وَيَأْكُلُونَ فَيْسَكُمْ
- يعني جند الشام - » .

فَقَامَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَقَالُوا : نَحْنُ نَقَاتِلُهُمْ ، وَنُعْتَبِ الْأَمِيرَ ، فَلَيَنْفُذْ
بِنَا الْأَمِيرَ إِلَيْهِمْ ، فَإِنَّا حَيْثُ سَرَّهْ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٨)

٤٢٢ - خطبة أخرى للمججاج

وَبِثَّ الْمَجَاجُ إِلَى عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ لِيَأْتِيَهُ - وَكَانَ مَعَ الْهَلَبِ - وَوَجَّهَ فِي جَيْشٍ
لِقِتَالِ شَيْبِ ، وَخَطَبَ النَّاسَ حِينَ وَجَّهَهُ فَقَالَ :

« يَا أَهْلَ السَّكُوفَةِ اخْرُجُوا مَعَ عَتَّابِ بْنِ وَرْقَاءَ بِأَجْمَعِكُمْ ، لَا أَرْخُصُ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ
فِي الْإِطَاعَةِ إِلَّا رَجُلًا قَدْ وَلِيْتَنَاهُ مِنْ أَعْمَالِنَا ، أَلَا إِنَّ لِلصَّابِرِ الْمُجَاهِدِ السَّكْرَامَةَ وَالْأَثَرَةَ ،
أَلَا وَإِنَّ لَنَا كِلِ الْمَارَبِ الْمَوَانَ وَالْجَفْوَةَ ، وَالْقُدَى لَا إِلَهَ غَيْرُهُ لَنْ فَطَمَ فِي هَذَا الْوَطَنِ ،
كَفَمَلَّكُمْ فِي الْمَوَاطِنِ الَّتِي كَانَتْ ، لِأَوَّلَيْتُكُمْ كَنْفًا خَشِينًا ، وَلَأَهْرُ كَنْفَكُمْ بِكَائِلٍ
قَبِيلٍ » ، ثُمَّ نَزَلَ .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٥)

٤٤٣ - خطبة شبيب بن يزيد الشيباني

وَعَرَضَ شَيْبِ أَحْبَابَهُ بِالْمَدَائِنِ فَكَانُوا أَلْفَ رَجُلٍ ، فَضَطَّبَهُمْ ، فَحَمَدَ اللَّهَ ، وَاتَّقَى
عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ :

« يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ : إِنْ اللَّهَ قَدْ كَانَ يَنْصَرِّكُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ مَائَةٌ وَمِائَتَانِ ، وَأَكْثَرُ مِنْ
ذَلِكَ قَلِيلًا ، وَأَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ، وَأَنْتُمْ الْيَوْمَ مِثْثُونَ وَمِثْثُونَ ، أَلَا إِنِّي مُعَلِّي الظَّهْرَ ، ثُمَّ سَارَ بِكُمْ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ » .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤١٩)

٤٤٤ - خطبة عتاب بن ورقاء

ولما توقف الفريقان للقتال ، جعل عتاب يسير فيما بين الميمنة إلى اليسرة ، يمر بأهل راية راية ، فيحثهم على تقوى الله ويأمرهم بالصبر ، ويقص عليهم قصصاً كثيراً منه قوله : « يأهل الإسلام : إن أعظم الناس نصيباً في الجنة الشهداء ، وليس الله لأحد من خلقه بأحد منه العاصرين ، ألا ترون أنه يقول : « وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، فمن جحد الله يقله فأعظم درجاته ، وليس الله لأحد أمقت منه لأهل البنى ، ألا ترون أن عدوك هذا يستعرض المسلمين بسيفه ؟ لا يرون إلا أن ذلك لهم قربة عند الله ، فهم شرار أهل الأرض ، وكلاب أهل النار » .

فلم يجبه أحد ، فقال : أين القصص يقصون على الناس ويحرضونهم ؟ فلم يتكلم أحد ، فقال : أين من يروى شعر عنزة فيحرك الناس ؟ فلم يجبه أحد ، ولا رد عليه كلمة ، فقال : إنا لله ! والله لكأنى بكم وقد فرّرتُم عن عتاب بن ورقاء ، وتركتموه تسقى في استير الرياح ، وحمل عليه شبيب فتفرق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت في عصابة قليلة صبرت معه ، وقاتل حتى قتل .

(تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٦ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٢٠)

٤٤٥ - خطبة الحجاج

ولما رأى الحجاج تجز أهل الكوفة عن قتال شبيب في مواطن كثيرة ، في كلها يقتل أمراءه ، ويقتل جنودهم ، كتب إلى عبد الملك يستعده ، فبعث إليه سفيان بن الأبرد السكلي ، في أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحكي من مدحج في الأنين ، ودخلافين معهما من أهل الشام الكوفة ، فشذوا الحجاج ظهراً ، فاستغنى بهما عن أهل الكوفة ، فقام على منبرها ، حمّد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« أما بعد : يا أهل الكوفة ، فلا أعزّ الله من أراد بكم العزّ ، ولا نصر من أراد بكم النصر ، اخرجوا عنا ، ولا تشهدوا معنا قتال عدونا ، الحقوا بالحجارة ، فانزلوا مع اليهود والنصارى ، ولا تقاتلوا معنا إلا من كان لنا عاملا ، ومن لم يكن شهيد قتال عقاب ابن ورقاء^(١) . » (تاريخ الطبري ٧ : ٢٤٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١٢ : ص ٤٢٠)

٤٦٦ - خطبة عبد الله بن يحيى الإباضية^(٢)

لما استولى عبد الله بن يحيى الكندي على بلاد اليمن سنة ١٢٩ ، خطب الناس ، حمد الله جلّ وعزّ ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ووعظ وذكر وحذّر ، ثم قال :

« إنا ندعوكم إلى كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ، وإجابة من دعا إليهما ، الإسلام ديننا ، ومحمد نبينا ، والسكينة قبيلتنا ، والقرآن إمامنا ، ورضينا بالحلال حلالا ، لا نبيى به بدليلا ، ولا نشترى به تمنا قليلا ، وحرّمنا الحرام ونبذناه وراء ظهورنا ، ولا حول

(١) ولم ترمه شييب عن القتال ، وقد هاجم الكوفة ودخلها ، ونهض الحجاج لمداغته ، فشكت جموعه فانصرف من الكوفة ، وأتبعه الحجاج جيشا عليه سفيان بن الأبرد فالتقى على جسر دجيل ، وحمل بينهما وطيش القتال حتى جن الليل ، فقال شييب لأصحابه : امبروا معائش المسلمين ، فإذا أصبحنا باكرناهم ، فعبروا أمامه وزا حافر فرسه من حرف السفينة ، فسقط في الماء ، وكان حلاكة سنة ٨٧٧ (٢) هو عبد الله بن يحيى الكندي ، وكان من حضرموت ، وكان يجتهد عابدا من رؤساء الخوارج الإباضية : (والإباضية فرقة من فرق الخوارج الرئيسية تنسب إلى زعيمها عبد الله بن إباض - بكسر الميم -) وقد خرج ابن يحيى باليمن في أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، إذ رأى جورا ظاهرا وصفا شديدا ، وسيرة في الناس قبيحة فقال لأصحابه إنه لا يحمل لنا المقام على ما ترى ولا الصبر عليه . وكتب إلى جماعة من الإباضية بالبصرة وغيرها يشاورهم في الخروج فوافقوه ، وشخص إليه أبو حنيفة المختار بن هوف الأزدي ، وبلغ بن عقبة للمسعودي في رجال من الإباضية فحرضوه على الخروج ، وكثر جمعه وسموه طالب الحق ، وتوجه إلى صنعاء سنة ١٢٩ (وكان عامل مروان على صنعاء القمام بن عمر) فجرت بينه وبين ابن يحيى حروب ومناوشات كانت النصره فيها لابن يحيى ، فتدخل صنعاء ، وأحرز ما فيها من الخزائن والأموال .

ولا قوة إلا بالله ، وإلى الله المشتكى ، وعليه المآل ، من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، ومن شك في أنه كافر فهو كافر ، ندعوكم إلى فرائض بينات ، وآيات مُحْكَمَات ، وآثارٍ مُقْتَدَى بها ، ونشهد أن الله صادق فيما وَعَدَ ، عَدْلٌ فيما حَكَمَ ، وندعو إلى توحيد الرب ، واليقين بالوعيد والوعد ، وأداء الفرائض ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والولاية لأهل ولاية الله ، والمداوة لأعداء الله .

أيها الناس : إن من رحمة الله أن جمل في كلِّ فترة بقايا من أهل العلم ، يَدْعُون من ضلٍّ عن الهدى ، ويعصرون على الألم في جنب الله تعالى ، يُقَاتِلُونَ على الحق في سالف الدهور شهداء ، فما نسيهم ربهم ، وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا . أوصيكم بتقوى الله ، وحسن القيام على ما وكلكم الله بالقيام به ، فأبْلُوا الله حسنا في أمره وذكره ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم .

(الأخفاف ٢٠ : ٩٨ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٥)

خطب أبي حمزة الشاري

٤٤٧ - خطبته حين دخل المدينة

ولما دخل أبو حمزة المدينة^(١) سنة ١٣٠ ، رقى المنبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، وقال :
« يا أهل المدينة : سألناكم عن ولادكم هؤلاء ، فأسألكم - لعمري الله - فيهم القول ،
فلم والله ما فيهم الذي يعلم ، أخذوا المال من غير حيلة ، فوضوه في غير حق ، وجاروا
في الحكم ، فحكوا بغير ما أزل الله ، واستأثروا ببقيتنا ، فجعلوه دولة بين الأغنياء

(١) بعد أن استولى عبدالله بن يحيى على اليمن سنة ١٢٩ ، أقام بصنماء أشهراً يحسن السيرة في الناس ويلين
جانبه لهم ، ويكف الأذى عنهم فكثر جمعه وأتته الفئدة من كل جانب (ولشراة كقتاة جمع شاركافض
وهم الخوارج ، من شرى يشري كرى : أى باع ، سموا بذلك لقولهم : شربنا أنفسنا في طاعة الله : أى بمتاعها
ووهبتها ، أعدا من قوله تعالى :

« وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو لقولهم : شربنا الآخرة بالدنيا ،
أى اشتريناها) فلما كان وقت الحج وجه ابن يحيى أبا حمزة « وهو المختار بن عوف الأزدي ثم السلمي من
أهل البصرة » إلى مكة ، فأقبل إليها يوم القروية « وهو ثامن ذي الحجة » وعليها « أهل المدينة عبد الواحد
ابن سليمان بن عبد الملك ، فكره عبد الواحد قتالهم ، ثم غل مكة لهم ، فدخلها أبو حمزة بغير قتال ، ومضى
عبد الواحد إلى المدينة ، فجهز جيشا لقتالهم أمر عليه عبد العزيز بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ،
فسار حتى نزل قديدا « وقديدا كزبير » وبلغ أبا حمزة إقبال أهل المدينة إليه ، فاستخلف على مكة ، وشخص
إليهم ، وبث إليهم يسألهم أن يكتبوا منهم ، ويقول لهم : خلوا سبيلا إلى الشام لتسبر إلى من ظلمكم ،
وجار في الحكم عليكم ، ولا تجلوا حدنا بكم ، فلما لا تريد قتالكم ، فنشتمهم أهل المدينة وقالوا : يا أعداء
الله : أمننمنا بكم وندهكم تفسدون في الأرض ؟ فقال الخوارج : يا أعداء الله نحن نفسد في الأرض ؟ إذا
غربنا لنكف أهل الفساد ، ونقاتل من قاتلنا ، واستأثر بالقرى ، فانتظروا لأنفسكم ، واغلبوا من لم يحمل الله
له طاعة ، فبذته لاطاعة لمن عصى الله ، فادخلوا في السلم ، وعاونوا أهل الحق ، فأبوا عليهم ، ونشب القتال
بينهم ، فهزمهم أبو حمزة هزيمة لم يبق بعدها منهم باقية ، وقد بلغت قتل قتيبة الفتي ومائتين وثلاثين رجلا ،
منهم من قريش أربعمائة وخمسون ، ودخل أبو حمزة المدينة لثلاث عشرة بقية من صفر سنة ١٣٠ هـ ، وهرب
عبد الواحد بن سليمان إلى الشام .

منهم ، وجعلوا مقارعتنا في مهود النساء ، وفروج الإمام^(١) ، قتلنا لكم : تماؤوا
نحن وأنتم إلى هؤلاء الذين ظلمونا وظلموكم ، وجاروا في الحكم ، فكروا بشير ما أزل الله
نناشدهم الله أن يقتنعوا عنا وعصمكم ، ليختار المسلمون لأنفسهم ، قتلتم : لا يفعلون ، قتلنا
لكم : تماؤوا نحن وأنتم تقتاتلهم ، فإن نظفّر نحن وأنتم نأت بمن يُقيم فينا وفيكم
كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، قتلتم : لا تقوى على ذلك ، قتلنا لكم :
فخلّوا بيننا وبينهم ، فإن نظفّر نمدل في أحكامكم ، ونحملك على سنة نبيكم صلى الله
عليه وسلم ، ونقسم فيشكم بينكم ، فأبيتهم وقتلتهمونا دونهم ، قتلناكم وقتلتناكم ،
فأهدكم الله وأسحقكم .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٧ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح

ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨ ، والنقد للفريد ٢ : ١٦٢)

٤٤٨ — خطبة أخرى له

وروى أنه لما دخل المدينة قام فخطب ، فقال في خطبته :

« يا أهل المدينة مررتُ بكم في زمن الأحوال هشام بن عبد الملك ، وقد أصابكم
عاهة بئاركم ، وكتبتم إليّ تسألونه أن يضع خراجكم عنكم ، فكتب إليكم بوضعه
عن قوم من ذوى اليسار منكم ، فزاد النفي غنى ، وزاد الفقير فقرًا ، قتلتم : جزاك الله
خيرًا ، فلا جزاكم الله خيرًا ، ولا جزاء خيرًا . »

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨ ، والأغانى ٢٠ : ١٠٣ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٨)

(١) وفي رواية : « وسأناكم ، هل يقتلون بالنز ؟ قتلتم : نعم ، وسأناكم : هل يستولون المال الحرام

ولقنرج الحرام ؟ قتلتم : نعم . »

٤٤٩ - خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه^(١)

وبلغ أبا حمزة أن أهل المدينة يعيرون أصحابه ، لخدانة أسنانهم ، وخفة أحلامهم ، فصمد اللبر ، وعليه كساء غليظ ، وهو متنكب قوساً عربية ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم قال :

« يا أهل المدينة ، قد بلغتني مقاتلتكم لأصحابي ، ولولا معرفتي بضعف رأيكم وقلة عقولكم ، لأحسنت أدبكم ، ونجمتكم ! إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه الكذب ، وبُين له فيه السنن ، وشرع له فيه الشرائع ، وبُين له فيه ما يأتي وما يذر ، فلم يكن يتقدم إلا بأمر الله ، ولا يتخيم إلا عن أمر الله ، حتى قبضه الله إليه صلى الله عليه وسلم ، وقد أدى الذي عليه ، وعلم المسلمين معالم دينهم ، ولم يدعهم من أسرهم في شبهة ، ودلى أبا بكر صلاتهم ، فوالله للسلون أمر دنياهم ، حين ولّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر دينهم ، ففيل بالكتاب والسنة ، وقاتل أهل الردّة ، وشرّف في أمر الله ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون رحمة الله عليه ومغفرته ، ثم ولي بعده عمر بن الخطاب فسار بسيرة صاحبه ، وعمل بالكتاب والسنة ، وجند الأجناد ، ومصر الأمصار ، وجهي النّية ، وفرض الأعطية ، وشرّم عن ساقه ، وحسّر عن ذراعه ، وجلّد في الخمر ثمانين ، وجمع الناس في شهر رمضان^(٢) ، وغزا السدوق ببلادهم ، وفتح للدائن والمصون ، حتى قبضه الله إليه ، والأمة عنه راضون ، رحمة الله عليه ورضوانه ومغفرته ، ثم ولي من بعده عثمان بن عفان ، فسار ست سنين بسيرة صاحبيه - وكان دونهما - ثم سار في الست الأواخر بما أحبط به الأوائل ، واضطرب جبل الدين بعدها ، فطلبها^(٣) كل امرئ

(١) روى الجاحظ أن هذه الخطبة كانت بمكة . وذكر أن اسم أبي حمزة « يحيى بن المختار » .

(٢) أي لصلاة القيام ، وفي رواية : « وقام في شهر رمضان » .

(٣) أي الخلافة ، يشير إلى تطلع طلحة والزبير إليها ، وطعن معاوية فيها .

لنفسه ، واستر كل رجل منهم سريرة أبقاها الله عنه ، حق مضوا على ذلك ، ثم ولي
على بن أبي طالب ، فلم يبلغ من الحق قصداً ، ولم يرفع له متاراً ، ثم مضى لسبيله :
ثم ولي معاوية بن أبي سفيان لدين رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن أعميه (١) ،
وجلف من الأعراب ، وبقية من الأحزاب ، مؤلف طليق . فسفك الدم الحرام ، واتخذ
عباد الله خولا (٢) ، ومال الله دولا (٣) ، وبقي دينه عوجاً ودغلاً (٤) ، وأحل الفرج
الحرام ، وعمل بما يشبهه ، حتى مضى لسبيله ، فالعنوه لعنه الله ، ثم ولي بعده ابنه يزيد ،
يزيد الخمر ، ويزيد الصقور ، ويزيد القهود ، ويزيد الصبؤود ، ويزيد القروود (٥) ،

(١) انظر ص ٢٣ و ٢٤ . (٢) ميذا . (٣) جمع دولة بالضم ، أى متداولوا بين مشيعته
دون سائر المسلمين . (٤) الدغل : الفساد كالدخل . (٥) روى المسمودي في مروج الذهب -
ج ٢ : ص ٩٤ - قال :

« وكان يزيد صاحب طرب ، وجوارح ، وكلاب ، وقروود ، وفهود ، ومنادمة على الشراب ، وجلس
ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد - وذلك بعد قتل الحسين - فأقبل على ساقه ، فقال :

اسقني شربة تروى مشائى ثم صل فاسق مثله ابن زياد
صاحب السر والأمانة متى ولتسليه مفتنى وجهادى

(والمشايش كفراب : النفس والطبيعة) ، ثم أمر المغنين فغنوا ، وغلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان
يقطعه من الفسوق ، وفي أيامه ظهر الفناء بمكة والمدينة ، واستعملت الملاهي ، وأظهر الناس شرب الشراب ،
وكان له قرد يكنى بأبي قيس ؛ يحضره مجلس متاعته ؛ ويطرح له متكاً ، وكان قرداً خبيثاً ، وكان يحمله
على أذن وحشية ؛ قد ديفست وذلك للكم يسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء في بعض الأيام
سابقاً فتناول القصبة ؛ ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعمل أبو قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشهور
(مخطوط) وعمل رامة قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعمل الأتقان سرج من
الحرير الأحمر متوشح ملوح بأنواع من الألوان فقال في ذلك بعض شمره الشام في ذلك اليوم :

تمسك أبا قيس بفضل عتائنا فليس عليها إن سقطت ضيان
ألا من ولى القرد لئلى سبقت به جباد أمير المؤمنين أئان !

وروى ابن طيماط في الفخرى ص ٤٩ قال : « كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفاً بالصيد لا يزال لاهياً
به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالكسر جمع جل بالضم
والفتح : مائله العذبة لتصان به » وذهب لكل كلب عبداً يحمله ، قيل إن عبداً لله بن زياد أخذ من بعض -

الفاسق في بطنه ، المأبون^(١) في فرجه ، خالف القرآن ، واتبع الكُفَّان ، ونادم القرد ، وعمل بما يشتميه ، حتى مضى على ذلك لعنه الله ، وفضل به وفعل ، ثم ولي مروان بن الحكم ، طر يد لعين رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وابن لعينه ، فاسق في بطنه وفرجه ، فالعنوه ، والعنوا آباءه . ثم تدارلها بنو مروان بعده ، أهل بيت اللعنة ، طرداه رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، وقوم من الطلقاء ، ليسوا من المهاجرين والأنصار ، ولا التابعين بإحسان ، فأكلوا مال الله أكلاً ، ولعبوا بدين الله لعباً ، واتخذوا عباد الله عبيداً ، يورث ذلك الأكبر منهم الأصغر ، فيأله أمة ! ما أضيعتها واضعها ! والحمد لله رب العالمين ، ثم مضوا على ذلك من - بي أعمالهم ، واستخفاهم بكتاب الله تعالى ، قد نبذوه وراء ظهورهم لعنهم الله ، فالعنوم كما يستحقون ، وقد ولي منهم عمر بن عبد العزيز ، فبلغ ولم يسكنه وعجز عن الذي أظهره حتى مضى لسبيله - ولم يذكره بخبر ولا شر - .

ثم ولي يزيد بن عبد الملك ، غلام ضعيف سقيه ، غير مأمون على شيء من أمور المسلمين ، لم يبلغ أشده^(٢) ، ولم يؤنس رشدُه ، وقد قال الله عز وجل : « فَإِنْ آتَسْمُ »

= أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جبابة وجملها في خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة ، وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد ، وكانت دمشق تلك الأيام سرير الملك - فلما وصل إلى ظاهر دمشق سأل عن يزيد فعرفوه أنه في الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وأيس يزيد حاضراً فيها ، فضرب تخيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، فبينما هو في بعض الأيام جالس في تخيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفي قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى بلغا كبيرا ، وقد بلغ منها البطش والصب ، وكادت تموت ، فلم أنها ليزيد وأنها قد شفت منه ، فقام إليها وقدم لها ماء وتمهدها بنفسه ، فاشعر إلا بشاب حسن الصورة حل قوس جميل ، وعليه زى الملوك ، وقد علتة فبرة ، فقام إليه ، وسلم عليه ، فقال له أرايت كلبة عابرة هذا المرضع ؟ فقال : نعم يا مولانا ، هاهي في الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت وقد كانت حل غاية من البطش والصب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ، ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فنجذب بجملها ليخرج ، فشكا الرجل إليه حاله وعرفه مأخذ منه أين زياد ، فطلب دواء وكبب إليه برد ماله وخلمة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ، ولم يدخل دمشق .

(١) أبته بشيء كتصر وضرب : اتهمه ، فهو مأبون ، بخير أو شر ، فإن أطلقت فقلت مأبون فهو لشر والأبنة كمنقذ : العيب . (٢) بلغ أشده : أي قوته ، وهو ما بين ثمانى عشرة إلى ثلاثين سنة ، وقد اغتلف المؤرخون في مقدار سن يزيد ، فقليل إنه توفي وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة ، وقيل ابن سبع وثلاثين ، وكانت ولايته أربع سنين وشهرا ، والمراد أنه لم يبلغ أشده لسنه وعكوفه على اللذات والشهوات .

مِنْهُمْ رُشْدًا قَدْ ذُقُوا إِلَيْهِمْ أُمُورَهُمْ^(١) ، فَأَمْرُ أُمَّةٍ مُحَمَّدٌ فِي أَحْكَامِهَا وَفَرْجُهَا وَدِمَائِهَا
أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ مَالٍ يَتِيمٍ ، وَإِنْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ، غَلَامٌ مَأْيُونٌ فِي بَطْنِهِ وَفَرْجِهِ ،
يَشْرَبُ الْحَرَامَ ، وَيَأْكُلُ الْحَرَامَ ، وَيَلْبِسُ الْحَرَامَ ، يَلْبِسُ بُرْدَيْنِ قَدْ حَبِطَتْ لَهُ ، وَقَوْمًا
عَلَى أَهْلِهِمَا بِأَلْفٍ دِينَارٍ ، وَكَثْرًا أَقْلٍ ، قَدْ أَخَذَتْ^(٢) مِنْ غَيْرِ حِلِّهَا ، وَصُرِفَتْ فِي غَيْرِ
وَجْهِهَا ، بَعْدَ أَنْ ضُرِبَتْ فِيهَا الْأَبْشَارُ^(٣) ، وَحَلَقَتْ فِيهَا الْأَشْعَارُ ، وَهَتَكَتْ فِيهَا الْأَسْتَارَ ،
وَاسْتَحِيلَ مَا لَمْ يُحِلَّ اللَّهُ لِعَبْدٍ صَالِحٍ ، وَلَا لِنَبِيِّ مُرْسَلٍ ، نَحْمُ يُجْلِسُ حَبَابَةَ عَنْ يَمِينِهِ ،
وَسَلَامَةَ عَنْ شِمَالِهِ ، تَعْنِيَانِهِ بِزَايِرِ الشَّيْطَانِ ، وَيَشْرَبُ الْخمرَ الْعَصْرَاحَ الْحَرَمَةَ نَصَابِهَا ،
حَتَّى إِذَا أَخَذَتْ مِنْهُ مَا خَذَهَا ، وَخَالَطَتْ رُوحَهُ وَلَحْمَهُ وَدَمَهُ ، وَغَلَبَتْ سَوْرَتَهَا عَلَى عَقْلِهِ ،
مَرَّقَ حُلِيِّهِ ، نَحْمُ التَفْتُ إِلَيْهَا فَقَالَ : أَنَا ذَنَابَانِي أَنْ أَطِيرَ^(٤) ؟ نَحْمُ ، فَطَرَّ إِلَى لَدُنْهِ اللَّهِ ،
وَحَرِيقِي نَارِهِ ، وَأَلِيمَ عَذَابِهِ ، طَرَّ إِلَى حَيْثُ لَا يَرُدُّكَ اللَّهُ .

(١) الآية الكريمة في التيتي ، وأولها : « وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ
أَسْتَمْتُمْ . . . » . (٢) أي العنايير . (٣) فيها : أي في تحصيلها . والأبشار : جمع بشر ، وهو
جمع بشرة : ظاهر الجلد ، والمراد ضرب الناس في جباية الأموال . (٤) ذكر ذلك ابن طباطبائي الفعري
ص ١١٧ قال : « كَانَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ خُلِيعٌ بَيْنَ أُمَيَّةٍ شَغَفَ بِجَارِيَتَيْنِ اسْمَ إِحْدَاهُمَا سَلَامَةُ ، وَالْأُخْرَى حَيَابَةَ
فَقَطَعَ مَعَهُمَا زَمَانَهُ ، قَالُوا : فَكُنْتَ يَوْمًا حَيَابَةَ :

بَيْنَ التَّرَاقِ وَالْهَاءِ حَرَارَةً مَانَطَمَقِينَ وَلَا تَسْوِخَ فَنَبْرَدَ

فَأَعْرَى يَزِيدُ لِيَطِيرَ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَنَا فَيْكُ حَاجَةٌ ، فَقَالَ : وَاقِدَ لِأَطْرِينَ ، قَالَتْ : فَعَلِ
مَنْ تَدْعُ الْأُمَّةَ ؟ قَالَ : عَلَيْكَ وَقَبْلَ يَدَيْهَا ، فَخَرَجَ بِغَضٍ خَلَمَهُ وَهُوَ يَقُولُ : « سَخَنْتُ حَيْثُكَ فَا سَخَنْتُكَ »
وَدَوَّى أَبْرَ الْفَرْجِ الْأَصْبَاحَ فِي الْأَغْفَانِ « ج ١٣ ص ١٤٨ » قَالَ : « كَانَتْ حَيَابَةُ مَوْلَدَةً مِنْ مَوْلَدَاتِ الْمَدِينَةِ ،
سَلَوَةٌ جَمِيلَةُ الرَّوْحِ ظَرِيفَةٌ سِتَّةَ لَفَافٍ ؛ وَقَدْ قَالَ يَزِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ : مَا تَقَرَّرَ حَتَّى بِمَا أُوتِيَتْ مِنَ الْخِلَافَةِ حَتَّى
أَشْتَرَى سَلَامَةَ وَحَيَابَةَ ، فَأَرْسَلَ فَاشْتَرَيْنَا لَهُ ، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَا حَتَّى قَالَ : أَنَا الْآنَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

فَأَلْقَيْتُ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّ رِجَالِي كَمَا قَرَّ حَيْثَا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ

وَذَكَرُوا أَنَّ سَلَمَةَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَقْبَلَ عَلَى يَزِيدَ يُلَوِّهُ فِي الْإِلْحَاحِ عَلَى الْفَنَاءِ وَالشَّرَابِ ، وَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ
وَلَيْتَ بِمَقْبَلِ عَمْرِ بْنِ عَبْدِ النَّزِيرِ وَعَدْلِهِ ، وَقَدْ تَشَاغَلْتَ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْأُمُورِ ، وَالْوُقُودِ بِبَاهِكِ ، —

ثم ذكر بنى أمية وأعمالهم وسيرهم فقال: « أصابوا إمرة ضائعة ، وقوماً طعماً جاهلاً ، لا يقومون لله بحق ، ولا يفرقون بين الضلالة والهدى ، ويرون أن بنى أمية أرباب لهم ، فلكوا الأمر ، وتسخطوا فيه تسلط رُبُوبِيَّة ، بطشهم بطش الجبارة ، يمحكون بالهوى ، ويقتلون على النصب ، يأخذون بالقلَّة ، ويسخطون الحدود بالشفاعات ، يأمنون الغلوة ، ويُقصون ذوى الأمانة ، يأخذون الفريضة من غير موضعها ، يضمونها في غير أهلها ، وقد بين الله أهلها ، فجعلهم ثمانية أصناف ، فقال : « إِنَّمَا الصَّدَاقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ ، وَالْعَامِرِينَ

= وأصحاب الظلمات يصيحون ، وأنت غفل عنهم ، فقال : صدقت والله وأعتبه ، وهم يترك الشراب ، ولم يدخل حل حباية أياها ، فحست حباية إلى الأحوص أن يقول آياتا في ذلك ، وقالت له : إن رددته من رأيها ، فلك أنت دينار ، فقال :

ألا لآلئله اليوم أن يتلدا	فقد غلب الخزون أن يتجلدا
بكيت السبا جهدى فن شاء لأمى	ومن شاء أمى في البكاء وأسددا
وإنى وإن فدت في طلب الغنى	لأعلم أنى لست في الحب أوحدا
إذا أنت لم تشق ولم تدر ما الهوى	فكن حجر من يابس للصخر جلدا
فا العيش إلا مائله وتشبهى	وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

ومكث يزيد جمعة لا يرى حباية ، ولا يدور بها ، فلما كان يوم الجمعة ، قالت لبعض جوارحها : إذا خرج أمير المؤمنين إلى الصلاة فأعلمين ، فلما أراد الخروج أعلمتها ، فخلقه والعود في يدها ، فتنت البيت الأول ، فغفل وجهه ، وقال : مه لا تفعل ، ثم غنت : فا العيش إلا مائله وتشبهى : فمدل إليها ، وقال : صدقت والله ، ففتح الله من لأمى فلك ، يا غلام ، مرسلة أن يصل بالناس ، وأقام معها يشرب وتفتنه ، وعاد ما كان فيه ، ثم قال لها : من يقول هذا الشعر ؟ قالت : الأحوص ، فأحضره ثم أنشده قصيدة مدحه فيها ، فقال له : أرفع حواجبك ، فكتب إليه في نحو أربعين ألف درهم من دين وفيه ، فأمر له بها ، انظر أيضا تاريخ الطبرى ٨ : ١٧٩ ، ومروج الذهب ج ٢ : ص ١٧٥ ، وما ذكره السجودى : أن حباية امتطت فأقام يزيد أياها لا يظهر للناس ، ثم ماتت ، فأقام أياها لا يراها حتى جيفت فقيل له : إن الناس يسمعونون بجزلك وإن الخلقة تجل من ذلك ، فدفنها وأقام حل قبرها ، فقال :

فإن تسل منك النفس أو تدع الهوى - فبالأيس تساو النفس لا بالتجلد

ثم أقام بعدها أياها قلائل ومات .

وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ^(١) « فَأَقْبَلَ صِنْفٌ تَاسِعٌ لَيْسَ مِنْهَا ، فَأَخَذَ كُلُّهَا : تِلْكَ الْفِرَّةُ الْحَاكِمَةُ بِغَيْرِ مَا أُنْزِلَ اللَّهُ ، فَالْعُتُومُ لِنَهْمِ اللَّهِ .

وأما إخواننا من هذه الشيعة - وليسوا بإخواننا في الدين ، لكن سمعت الله عز وجل قال في كتابه : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » فإنها فرقة تظاهرت بكتاب الله ، وأعلنت الفرية على الله ، لا يرجعون إلى نظير نافذ في القرآن ، ولا عقل بالغ في الفقه ، ولا تفقيش عن حقيقة الصواب ، قد قلّدوا أمورهم أهواءهم ، وجعلوا دينهم النصبة لحزب لزوم ، وأطاعوه في جميع ما يقوله لهم ، غيّا كأن أرشداً ، ضلالةً أو هدى ، ينتظرون الدؤل في رجعة الموتى^(٢) ، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ، ويدعون علم الغيب لمخلوق ، لا يعلم أحدهم ما في بيته ، بل لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه ، أو يحويه جسمه ، يتقنون المعاصي على أهلها ويعملون إذا ولّوا بها ، يصيرون على الفتنة ولا يعرفون للخروج منها ؛ جفاة في دينهم ،

(١) الصدقات : الزكاة . الداملين عليها : السامين في تحصيلها وجدها . والمزلة قلوبهم : الذين أسلموا ودينهم ضعيف في الإسلام ، فتسألف قلوبهم . وفي الرقاب : أي وفي ذلك رقاب المكاتبين ، فيما نون بشيء منها . والفارين : أي المدينين لأنفسهم في غير نصبة ، ومن غير إشراف إذا لم يكن لهم وفاء .
(٢) كان بعض الشيعة يعتقدون في أنهم الذين ماتوا ، أنهم أحياء لم يموتوا ، إلا أنهم غائبون من أعين الناس ، فالشيعة الكيسانية يقولون إن محمد بن الحنفية رضى الله عنه لم يمت ، وإنه في جبل رضوى (بالمجاز) بين أسد وعمر يحفظانه ، وعنده عيتان نضاختان تجريان ماء وصل ، وإنه يهود بمد النبوة فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وفيه يقول كثير من أبيات :

يَلِيْبُ وَلَا يَدِي فِيْهِمْ زَمَانًا يَرْضَوِي عَنْهُ عَسَلُ وَمَاءُ

انظر الملل والنحل لكثيري ١ : ١٥٥ والفصل لابن حزم ٤ : ١٢٧ والفرق بين الفرق ص ٢٨ والافتاء حشرية « وهي إحدى فرق الشيعة الإمامية ، سموا بذلك لوقوفهم عند الإمام الثاني عشر وهو محمد ابن الحسن العسكري ، ويلقبونه بالبهائي المنتظر » يزعمون أنه دخل قمرداب بسرمن رأى ، وغاب هناك ، وأنه يخرج في آخر الزمان فيملأ الأرض عدلاً وهم ينتظرونه - ويسمونه المنتظر لذلك - ويقفون في كل ليلة بد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد قدموا مركبا فيقفون باسمه ، ويدعونه الخروج ، حتى تشبه النجوم ، ثم يتفضون ويرجعون الأمر إلى اليلة الآتية - انظر مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ - .

قليلة عقولهم^(١) ، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم ، وزعموا أن موالاهم لهم
تُمنّهم عن الأعمال الصالحة ، وتُنَجِّبهم من عقاب الأعمال السيئة ، قائلهم الله أنى
يُوفِّكون^(٢) .

فأى هؤلاء الفرق يَهل المدينة تتبعون ، أم بأى مذاهبهم تفتدون ؟ وقد بلغنى
أنكم تنتقصون أصحابي ! قلتم هم شباب أحداث ، وأعراب جفاة ، ويُحكّم يَهل المدينة !
وهل كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله المذكورون والخير إلا شبابا
أحداثا ؟ أما والله إنى لعالم متتابعكم فيما يضركم في معادكم ، ولولا اشتغالي بغيركم عنكم
ما تركت الأخذ فوق أيديكم شباباً والله مُكْتَبِلُون^(٣) في شبابهم ، غَضِيضَةٌ عن
الشرائعهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنصاء^(٤) عبادة ، وأطلاحُ سَهَر^(٥) ، باعوا
أنفساً بموت غداً ، بأنفس لا يموت أبداً ، قد نظر الله إليهم في جوف الليل ، منحنية
أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا
مرّ بآية من ذكر النار شقّ شققةً ، كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض
رُكَبَهُم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال^(٦) الليل بكلال النهار ، مُصَنَّفَةٌ
ألوانهم ، ناحلة أجسامهم ، من طول القيام ، وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب
الله ، مُوقُونَ بهد الله ، مُجْزَوْنَ لوعده الله ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فُوقَتْ^(٧) ،
ورماحهم وقد أُشْرِعَتْ^(٨) ، وسيوفهم وقد انتَضِيَتْ^(٩) ، وَبَرَفَتْ السكتية وَرَعَدَتْ
بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد السكتية لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله لوعيد

(١) وفي البيان والبيان « جفاة من القرآن ؛ أتباع كهان » . (٢) أفكته عنه كضرب : صرفه
وقلب رأيه . (٣) أى قد أحرزوا وزانة الكهول وسداد رأيهم . (٤) جمع فضوكمحل ، وهو
المهزول . (٥) جمع طلع وهو كضوء وزنا وسنى . (٦) الكلال : التعب والإعياء .
(٧) فوق السهم : جعل له فوقاً (بالضم) وهو موضع الوتر من السهم ؛ أى أعدت الرمي .
(٨) سعدت . (٩) اسطلت .

الكتيبة ، ولَقُوا شَيْبًا^(١) الأُسنة ، وشَانِكَ السهام ، وظَبَاتِ السيوف بنحورهم ،
 ووجوههم وصدورهم ، فغى الشاب منهم قُدُماً ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ،
 واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعُفِّرَ^(٢) جبينه بالقرى ، وانحطت عليه طير السماء ،
 وتمرقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مأب ، فكم من عين في منقار طائر طالما بكى
 بها صاحبها في جَوْف الليل من خَوْف الله ، وكم من يد قد أَيْفَت عن ساعدها ، طالما
 اعتمد عليها صاحبها راکماً وساجداً ، وكم من وجد رقيق ، وجَبِينٍ حَقِيق^(٣) ، قد فُلق
 بقتل الحديد ، ثم بكى ، وقال : آهِ ، آهِ على فراق الإخوان ، رحمة الله على تلك الأبدان ،
 وأدخل أرواحهم الجفان .
 الأغانى ٢٠ : ١٠٥ ، وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٥٩ ،
 والبيان والتهيين ٢ : ٦١ ، والمقد الفريد ٢ : ١٦١) .

٤٥٠ - خطبة أخرى

ورق اللبر ، حمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال :
 « أُرْصِكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، وَالْعَمَلِ بِكِتَابِهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
 وَصَلَةِ الرَّحْمِ ، وَتَعْظِيمِ مَا صَعَّرَتِ الْجَبَّارَةُ مِنْ حَقِّ اللَّهِ ، وَتَضْمِيرِ مَا عَظَّمَتْ مِنَ الْبَاطِلِ ،
 وَإِمَانَةٍ مَا أَحْيَا مِنَ الْجَوْرِ ، وَإِحْيَاءِ مَا أَمَاتُوا مِنَ الْحَقِّ ، وَأَنْ يُطَاعَ اللَّهُ ، وَيُصْفَى
 الْعِبَادُ فِي طَاعَتِهِ ، فَالطَّاعَةُ لِلَّهِ وَلِأَهْلِ طَاعَةِ اللَّهِ ، وَالطَّاعَةُ لِلْخَلْقِ فِي مَصْصَةِ الْخَلْقِ ، نَدْمُو
 إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، وَالْقِسْمِ بِالسُّوَّةِ ، وَالْمَدْلِ فِي أَرْعِيَةِ ، وَوَضْعِ الْأَخْسَاسِ فِي
 مَوَاضِعِهَا الَّتِي أَسْرَ اللَّهُ^(١) بِهَا ، تَمْلُونُ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ أَنْتُمْ لَمْ تَخْرُجْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا أَشْرَأَ

(١) جمع شاة : وهي حذ كل شيء ؛ والقطيات : جمع غلبة ؛ وهي حذ السيف . (٢) أصابه العفر :

وهو التراب . (٣) كرم .

(٤) قال الله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّا غَنَمُكُمْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ لِلَّهِ خُصَّةً وَلِلرَّسُولِ

وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَلِلَّذِي كَانِ السَّبِيلِ » .

وَلَا بَطْرًا ، وَلَا عَبَقًا ، وَلَا لَهْوًا ، وَلَا لَهْوَةً مُلَّتْ زِيدَانْ نَخْوُضْ فِيهِ ، وَلَا لَثَارَ قَدِيمٍ نِيلَ مِنَّا
وَلَكِنَّا لَمَّا رَأَيْنَا مَصَابِيحَ الْحَقِّ قَدْ أَطْفِئَتْ ، وَمَعَالِمَ الْعَدْلِ قَدْ غُطِّلَتْ ، وَكَثُرَ الْأَدْعَاءُ فِي
الْبَيْنِ وَغَمِلَ بِالْهَوَى ، وَخُفَّتِ الْقَائِلُ بِالْحَقِّ ، وَقَتِلَ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ ، ضَاقَتْ عَلَيْنَا الْأَرْضُ
بِمَا رَحُبَتْ ، وَصَمْنَا دَاعِيًا ^(١) يَدْعُو إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِمَ الْقُرْآنُ ، فَأَجَبْنَا دَاعِيَّ اللَّهِ
وَمَنْ لَا يُجِيبُ دَاعِيَّ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُنْجِيٍّ ^(٢) فِي الْأَرْضِ ، فَأَقْبَلْنَا مِنْ قَبْلِ شَيْءٍ ،
الْفَرْ ^(٣) مَنَا عَلَى بَعِيرٍ وَاحِدٍ ، عَلَيْهِ زَادِمٌ وَأَغْصَمٌ ، يَتَمَارَوْنَ لِحَافًا وَاحِدًا ، قَلِيلُونَ
مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ ، فَأَوَانَا اللَّهُ وَأَيْدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَأَصْبَحْنَا وَاللَّهُ جَمِيعًا بِنَصْرِهِ إِخْوَانًا ،
وَعَلَى الدِّينِ أَعْوَانًا ، ثُمَّ لَقَيْنَا رِجَالَهُمْ بَقْدِيدٍ ، فَدَعَوْنَاهُمْ إِلَى طَاعَةِ الرَّحْمَنِ ، وَحُكِمَ الْقُرْآنُ ،
وَدَعَوْنَا إِلَى طَاعَةِ الشَّيْطَانِ ، وَحُكِمَ مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ ، فَتَشْتَانُ لِمَرْءٍ اللَّهِ مَا بَيْنَ النَّفَى
وَالرَّشْدِ أَنْ أَمْلَأُوا سَهْرَعُونَ وَزَرْقُونَ ^(٤) ، قَدْ ضَرَبَ الشَّيْطَانُ بِحِوَارِهِ ^(٥) ، وَغَلَتْ بِدِمَائِهِمْ
مَرَاجِلُهُ ، وَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ، وَأَقْبَلَ أَنْصَارُ اللَّهِ عَصَائِبَ وَكِتَابَ ، بِكُلِّ مَهْمَدٍ
ذِي رَوْقٍ ، فَدَارَتْ رَحَانًا وَاسْتَدَارَتْ رَحَامٌ بِضَرْبِ يَرْتَابٍ مِنْهُ الْمُبْطَلُونَ .

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ تَنْصَرُوا مَرْوَانَ وَآلَ مَرْوَانَ يُسْحِكُكُمْ ^(٦) اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ
عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ، وَبَشَفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ إِنْ أَوْلَيْتُمْ خَيْرَ أَوَّلٍ ،
وَأَخْرَجْتُمْ شَرًّا آخَرَ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : النَّاسُ مِنْهَا وَمِنْهُمْ ، إِلَّا مُشْرِكًا عَابِدًا وَثَنَ ، أَوْ كَافِرًا
مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، أَوْ إِمَامًا جَائِرًا أَوْ شَادَا عَلَى عَصَدِهِ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ
تَعَالَى كَلَّفَ نَفْسًا فَوْقَ طَاقِهَا ، أَوْ سَأَلَهَا مَا لَمْ يُؤْتِهَا ، فَهُوَ اللَّهُ عَدُوٌّ وَلَدًا حَرْبٍ ^(٧) .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٨) ، الألفاظ ٢٠ : ١٠٤ ، وشرح

ابن أبي الحديد ١ ص ٤٥٨ ، والمفرد ٢ : ١٦١)

(١) يريد عبد الله بن يحيى السكتي . (٢) أي لا ينجي الله بالحرب منه فيفوته .

(٣) الفرس : جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة . (٤) زف الظلم وغيره كضرب زفا وزفينا

وزفوقا ، وأزف : أسرع . (٥) جران البحر : مقدم حقه من ملجعه إلى منخره ، أي استول عليهم .

(٦) أسحت : استأصله . (٧) روى أنه قال عقب ذلك : « يا أهل المدينة أعبروني عن ثمانية

لهم فرضها الله تعالى في كتابه على القوي ، على حبه للضعيف ، فجاء تاسع ، ليس له منها ولا سهم واحد ، =

٤٥١ - خطبة له في سبب أهل المدينة وتقريرهم

وخطب المدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال :

« يا أهل المدينة : مالى رأيت رَسَمَ الدين فيكم ، قِيًّا ، وآثاره دَارِسَةً ، لا تَقْبَلُونَ عَظَمَتَهُ ولا تَقْفَهُونَ مِنْ أَهْلِ حُجَّةٍ ، قد بَالَيْتُ فِيكُمْ حَدِيثَهُ ، وانطلمست عنكم سُنَّتُهُ ، تَرَوْنَ مَعْرُوفَهُ مُنْكَرًا ، والمنكر من غيره مَعْرُوفًا ، إذا انكشفت لكم الْعِزُّ ، وأُوضِحتْ لكم النُّذُرُ ^(١) ، عَمِيَتْ عَنْهَا أَبْصَارُكُمْ ، وَصَمَّتْ عَنْهَا أَسْمَاعُكُمْ ، سَاهَيْنَ فِي غَمَرَةٍ ، لَا هَيْئَةَ فِي غَفْلَةٍ ، تَبْسِطُ قُلُوبَكُمْ لِلْبَاطِلِ إِذَا نُشِرَ ، وَتَنْجِسُ مِنَ الْحَقِّ إِذَا ذُكِرَ ، مستوحشة من العلم ، مستأنسة بالجهل ، كلما وَقَعَتْ عَلَيْهَا مَوْعِظَةٌ زَادَتْهَا مِنَ الْحَقِّ نُفُورًا ، تَحْمِلُونَ قُلُوبًا فِي صُدُورِكُمْ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً مِنَ الْحِجَارَةِ ، أَدْلَمَ تَلِينَ لِكِتَابِ اللَّهِ الَّذِي لَوْ أُزِيلَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، يا أهل المدينة ، ما تُنْفِي عَنْكُمْ حَمَّةَ أَبْدَانِكُمْ إِذَا سَقَمَتْ قُلُوبُكُمْ ، إِنْ اللَّهُ فَدِ جِلْ لِكُلِّ شَيْءٍ سَدًّا غَالِيًا يَنْقَادُ لَهُ ، وَيَطِيعُ أَمْرَهُ . وَجِلْ لِلْقُلُوبِ غَالِبَةٌ عَلَى الْأَبْدَانِ ، فَإِذَا مَالَتِ الْقُلُوبُ مَيْلًا ، كَانَتِ الْأَبْدَانُ لَهَا تَبِعًا ، وَإِنْ الْقُلُوبُ لَا تَلِينَ أَهْلًا إِلَّا بِصَحَّتِهَا ، وَلَا يَصَحُّهَا إِلَّا الْمَرْفُوعَةُ بِاللَّهِ ، وَقُوَّةُ النِّيَّةِ ، وَنَفَازُ الْبَصِيرَةِ ، وَلَوْ اسْتَشْرَبَتْ تَقْوَى اللَّهِ قُلُوبُكُمْ ، لَا اسْتَمَلَّتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ أَبْدَانُكُمْ ، يَا أَهْلَ الْمَدِينَةِ : دَارُكُمْ دَارُ الْهِجْرَةِ ، وَمَتَنُوى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمَّا تَبَيَّنَ بِهِ دَارُهُ ، وَضَاقَ بِهِ قَرَارُهُ ، وَأَذَاهُ الْأَعْدَاءُ وَتَجَمَّعَتْ ^(٢) لَهُ ، فَنَقَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ، بَلْ إِلَى قَوْمٍ أَمْرِي لَمْ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ، مُتَوَازِينَ مَعَ الْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ، مُخْتَارِينَ الْأَجَلَ عَلَى الدَّاجِلِ ، يَصِيرُونَ لِلْعَمْرَاءِ رِجَاءَ ثَوَابِهَا ، فَفَضَرُوا اللَّهَ ، وَجَاءُوا فِي سَبِيلِهِ ، وَأَوَّزُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَصَرُوهُ ، وَاتَّبَعُوا النُّورَ

= فأخذ جميعها لنفسه مكابرا محابا لربه ، « يقولون فيه وفيمن عاونوه على فعله ؟ يا أهل المدينة ! بلغنى أنكم تنتقصون أصحابي ... الخ » وقد حدثت هنا لورودها في الخطبة السالفة .

(١) النذر : جمع نذير، وهو المنذر . (٢) تجهمه وتجهمه له : استقبله بوجه كرهه .

الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ ، وَآتَوْا اللَّهَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ^(١) . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى
لَأَمْنَالَهُمْ وَلَنْ أَهْتَدَى بِهِدَام : « وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » ، وَأَنْتُمْ
أَبْنَاؤُهُمْ وَمَنْ بَقِيَ مِنْ خَلْقِهِمْ ، تَرَكُونُ أَنْ تَقْتَدُوا بِهِمْ ، أَوْ تَأْخُذُوا بِسِتْمِهِمْ ، تُحْنِي الْقُلُوبَ ،
صُمُّ الْآذَانِ ، اتَّبَعْتُمُ الْهَوَى ، فَأَزْدَاكُمْ عَنِ الْهَدَى وَأَسْهَاكُمْ ، فَلَا مَوَاعِظَ الْقُرْآنَ تَزْجُرُكُمْ
فَتَزْجُرُونَ ، وَلَا تَمِطُكُمْ فَتَمْتَبِرُونَ ، وَلَا تُوقِفُكُمْ فَتَسْتَقِفُّونَ ، لَيْسَ الْخَلْفُ أَنْتُمْ مِنْ
قَوْمٍ مَضَوْا قَبْلَكُمْ ، مَا يَرْثِمُ بَسِيرَتِهِمْ ، وَلَا حِظْلُمْ وَصِيَّتِهِمْ ، وَلَا احْتِذَيْتُمْ مِثْلَهُمْ ، لَوْ شِئْتَ
عَنْهُمْ قُبُورُهُمْ ، فَرَضْتُ عَلَيْهِمْ أَعْمَالَكُمْ ، لَعَجِبُوا كَيْفَ صُرفَ الْعَذَابُ عَنْكُمْ !
(الْأَفْئَاتُ ٢٠ : ١٠٥ ، وَشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٥٨)

* * *

وجاء في رواية المقد الفريد :

« يَا هَلْ الْمَدِينَةُ : أَوَّلُكُمْ خَيْرٌ أَوَّلٌ ، وَآخِرُكُمْ شَرٌّ آخِرٌ ، إِنَّكُمْ أَنْظَمْتُمْ قُرَاءَكُمْ
وَقَفَّاهُمْ فَخَافْتُمْ أَنْتُمْ^(٢) مِنْ كِتَابِ غَيْرِ ذِي هَوَجٍ ، بِنَارِيزِ الْجَاهِلِينَ ، وَانْتِحَالِ الْمُبْطِلِينَ ،
فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْحَقِّ نَاصِبِينَ^(٣) ، أَمْوَانًا غَيْرَ أَحْيَاءَ وَمَا تَشْعُرُونَ ، يَا هَلْ الْمَدِينَةُ : يَا أَبْنَاءَ
الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوا بِإِحْسَانٍ ، مَا أَصَحَّ أَصْلَكُمْ ، وَأَسْقَمَ قَرَعُكُمْ ! كَأَنَّ
آبَاءَكُمْ أَهْلَ الْيَقِينِ ، وَأَهْلَ الْمَعْرِفَةِ بِالْهَدَى ، وَالْبَصَائِرِ الْفَانِذَةِ ، وَالْقُلُوبِ الْوَاعِيَةِ ، وَأَنْتُمْ
أَهْلُ الضَّلَالَةِ وَالْجَهْلَةِ ، اسْتَبَدَّتْكُمْ الدُّنْيَا فَأَدْلَتْكُمْ ، وَالْأَمَانِيُّ فَأَخَذَتْكُمْ فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ
بَابَ الدِّينِ فَسَدَدْتُمُوهُ ، وَأَغْلَقَ عَنْكُمْ بَابَ الدُّنْيَا فَتَحْتُمُوهُ ، سِرَاعٌ إِلَى الْعِثَّةِ ، بِطَلَاءٍ
عَنِ الشُّعْنَةِ ، مُعْنَى عَنِ الْبِرْهَانِ ، صُمٌّ عَنِ الْمِرْقَانِ ، عَبِيدُ الطَّمَعِ ، حُلَفَاءُ الْجَزَعِ ، نِعَمَ
مَا وَرَّثَكُمْ آبَاؤُكُمْ لَوْ حَفِظْتُمُوهُ ، وَلَيْسَ مَا تَوَرَّثُونَ أَبْنَاءَكُمْ إِنْ تَمَسَّكُوا بِهِ ، نَصَرَ اللَّهُ
آبَاءَكُمْ عَلَى الْحَقِّ ، وَخَذَلَكُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ، كَانَ عَدَدُ آبَائِكُمْ قَلِيلًا طَيِّبًا ، وَعَدَدُكُمْ كَثِيرًا

خيث ، اتيمم الموى ، فازدأكم ، واللهو فأسهاكم ، ومواعظ القرآن تزجركم
فلا تزدرجون ، وتعبركم^(١) فلا تعتبرون »
(المقد الفريد ٢ : ١٦١)

٤٥٢ — خطبة أخرى

وخطب فقال : « أما بعد ، فإنك فى ناشئ فتنه^(٢) ، وقائِد ضلالة ، قد طال
جُئوسها ، واشتد عليك غُومُها ، وتلوَّنت^(٣) مصايدُ عدو الله فيها ، وما نصَّب من
الشرك لأهل الفتنه عمَّا فى عواقبها^(٤) ، فلن يَهْدُ عموذها ، ولن يَنْزِع أوتادها ،
إلا القى بيده ملك الأشياء ، وهو الله الرحمن الرحيم ، ألا وإن الله بقايا من عباده
لم يتغيروا فى ظُلُمها ، ولم يُشايِعوا أهلها على شُبهها ، مصاييحُ النور فى أفواههم تزهُو ،
وألستهم بمُجَبِّج الكتائب تنطق ، ركبوا مَنَاجِج السبيل ، وقاموا دلى العلم^(٥) الأعظم ،
م خُصماء الشيطان الرجيم ، بهم يُصلح الله البلاد ، وَيَذْفَع عن البباد ، فطوبى لهم
وللمستصبيين^(٦) بنورهم ، وأسأل الله أن يجعلنا منهم^(٧) » .

(المقد الفريد ٢ : ١٦٢)

(١) المراد : تمطك ، من المبرة ؛ ولم أجده فى كتب اللغة بهذا المعنى ، وإنما الذى فيها : « عبر
الدراهم : وزنها » . (٢) من إضافة الصفة للموصوف أى فى فتنه ناشئة ، أى حية شابة .
(٣) تعددت وصارت ذات ألوان : أى نصب العدو لنا المصايد ، ودر المكاييد للإيقاع بنا .
(٤) أى ولستأنهم . (٥) العلم : الجبل ، والمراد أنهم لا يستخفون فى دعوهم .
(٦) أى المستفيين . (٧) ذكر الجاحظ هذه الخطبة ، وقال : ذهب عنى إستانها ؛ وهى لأبى
حزرة كما فى المقد الفريد .

٤٥٣ — خطبته حين خرج من المدينة

وخطب حين خرج من المدينة ، لقتال جيش مروان ^(١) قال :
 « يا أهل المدينة : إنا خارجون لحرب مروان ، فإن نظهر نبدل في أحكامكم ،
 ونحمدكم على سنة نبيكم ، ونقسم بينكم فينكم ، وإن يكن ما تمنون لنا : فسيتم
 الدين ظالموا أي منقلب ينقلبون » .

(تاريخ الطبري ٩ : ١١٠ ، والأغانى ٢٠ : ١١٠ وشرح ابن أبي الحديد ١ : ص ٤٦١)

٤٥٤ — عمران بن حطان والحجاج

ولما ظفر الحجاج بعمران ^(٢) بن حطان الشامي . قال : اضربوا عنق ابن القاجرة ،
 فقال عمران : لبس ما أذهبك أمك يا حجاج ! كيف أمنت أن أجيبك بمثل
 ما تيقني به ؟ أبتدأ الموت منزلة أصابك عليها ؟ فأطرق الحجاج أمتحله وقال : دخلوا عنه ،
 فخرج إلى أصحابه ، فقالوا : والله ما أطلقك إلا الله ، فارجع إلى حربته ممنا ،
 فقال : هيات ! غل يدا مطلقها ، وأسر رقبة ممتقها .

(زهر الآداب ٣ : ١٧٨)

(١) وذلك أن مروان بن محمد جهز جيشا من أهل الشام ، واستعمل عليهم عبد الملك بن محمد بن حطية ،
 وأمره أن يضي فيقاتلهم ، فإن هو ظفر بهم مضى حتى يبلغ اليمن ، ويقاتل عبد الله بن يحيى ، فسار إليهم ،
 وخرج أبو حرة لقاتله ، فقاتلهم ابن حطية حتى قتلهم ، وقتل أبا حرة ، وبعث برأسه إلى مروان ، وصلبه
 هو وكبار أصحابه (سنة ١٣٠) ولم يزلوا يصلبون حتى أنقض الأمر إلى بني العباس ، ثم سار ابن حطية إلى
 اليمن ، فقاتل عبد الله بن يحيى وقتله ، وبعث برأسه إلى مروان .

(٢) كان رأس القمذ من الخوارج الصفرية وخطيبهم وشاعرهم .

الخطب الوعظية والوصايا

٤٥٥ - خطبة سحبان بن زفر الوائلي^(١) (توفي سنة ٥٠٤ هـ)

خطب فقال :

« إن الدنيا دارُ بَلاغ ، والآخرة دارُ قَرَار ، أيها الناس : فَخُذُوا مِنْ دَارِ تَمَرُّكُمْ
دارَ مَقَرِّكُمْ ، وَلَا تَهْتِكُوا اسْتَارَكُمْ عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ ، وَأَخْرِجُوا
مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ ، فَبِهَا حَيَاتُكُمْ وَلَبِثَ مَا خَلَقْتُمْ ، إِنْ الرَّجُلُ
إِذَا هَلَكَ ، قَالَ النَّاسُ : مَا تَرَكَ ؟ وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ ؟ قَدَّمُوا بِضْعًا يَكُونُ
لَكُمْ ، وَلَا تَخْلَفُوا كَلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ . »
(شرح الميوس ص ٩٥)

(١) هو سحبان بن زفر الوائلي ، وقد ضرب به المثل في الصراحة والبيان ، فقيل : « أخطب من سحبان
وائلي » ومع ذلك لم يؤثر منه إلا هذه الخطبة الموجزة ، عل أنها تمزى إلى الإمام عل - انظر نهج البلاغة
١ . ٢٦٠ - وذكر المبرد في الكامل عن الأصمعي أن أعرابيا خطبها بالبادية - تهذيب الكامل ١ : ٢٨ -
وكذا ذكر أبو عل القائل - في الأمالي ١ : ٢٥٨ - وابن عديم - في المقد الفريد ٢ : ١٦٤ -
وأبو الفضل المياني - في مجمع الأمثال ١ : ٣١٨ ، وابن قتيبة في عيون الأخبار ٢ : ٢٥٣ -
والمعري - في زهر الآداب ٢ : ٤ - قال ابن أبي الحديد : « وأكثر الناس عل أن هذا الكلام لأبي المؤمنين
عل عليه السلام ، ويجوز أن يكون الأعرابي حفظه ، فأورده كما يورد الناس كلام غيره م - ٣٠ : ٢ .
وقد روى ابن نباتة في شرح الميوس أنه قدم عل معاوية وفد من خراسان ، فبهم سعيد بن عثمان بن عفان ،
فطلب سحبان فلم يوجد في منزله ، فاقضب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه ، فتكلم منذ صلاة الظهر إلى
أن قامت صلاة العصر ، ماتنح ، ولا سمل ، ولا توقف ، ولا ابتدا في معنى ، فخرج منه ، وقد بقي عليه
من شيء ، فإزالت تلك حاله حتى أشار معاوية بيده ، فأشار إليه سحبان أن لا تقطع كلامي ، فقال معاوية :
الصلاة ، قال : هي أمامك : نحن في صلاة وتعميد ، ووجد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ،
فقال سحبان : « والجم والجن والإنس » اه ، ولعل هذه الإطالة هي التي عاقت الرواة عن حفظ ما يقول .

٤٥٦ — خطبة معاوية

وخطب معاوية بدمشق ، فقال :

أيها الناس : سافروا بأبصاركم في كَرِّ الجديدين^(١) ، ثم ارجعوها كلية من بلوغ الأمل ، فإن للماضي عظةً لباقي ، ولا تبحلوا للفرور سبيل المعجز من الجدة ، فتبتطلع حجبتكم في موقف الله سائلكم فيه ، ومحايبكم فيما أسلفتم ، أيها الناس : أمنس شاهدًا فاحذروه ، واليوم مؤدب فاعرفوه ، وغدا رسول فأكرموه .

(مواسم الأدب : ٧ : ١١٦)

٤٥٧ — خطبة عبد الملك بن مروان

وخطب عبد الملك بن مروان ، فقال :

« أيها الناس : اعملوا لله رغبة ورهبة ، فإنكم نيات نيمته ، وحصيد نيمته ، ولا تنفيس لكم الآمال ، إلا ما تمنيه الآجال ، وأقلوا الرغبة فيما يورث العطب ، فكل ما تزرعه الماجة ، تقلمه الآجة ، واحذروا الجديدين ، فما يكران عليكم ، إن عني من نقي لحوق بين مضي ، وعلى أثر من سلف ، يمضي من خلف ، فترودوا فإن خير الزاد التقوى . »

(مواسم الأدب : ٢ : ١١٨)

٤٥٨ — خطبة لعمر بن عبد العزيز^(١)

قال أبو العباس المبرد: حَدَّثَ فِي بَعْضِ الْأَسَانِيدِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ قَالَ فِي خُطْبَةٍ لَهُ :

« أَيُّهَا النَّاسُ : إِنَّمَا الدُّنْيَا أَمَلٌ مُخْتَرَمٌ ، وَأَجَلٌ مُنْتَقَصٌ ، وَبَلَاغٌ إِلَى دَارٍ غَيْرِهَا ، وَسَبِيلٌ إِلَى اللُّوْثِ لَيْسَ فِيهِ تَجَرُّعٌ ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً فَكَّرَ فِي أَمْرِهِ ، وَنَصَحَ لِنَفْسِهِ ، وَرَأَى رَبَّهُ ، وَاسْتَقَالَ ذَنْبَهُ ، وَنَوَّرَ قَلْبَهُ ، أَيُّهَا النَّاسُ : إِنْ أَبَاكُمْ قَدْ أُخْرِجَ مِنَ الْجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ، وَإِنْ رَبُّكُمْ وَعَدَ عَلَى التَّوْبَةِ ، فَلْيَكُنْ أَحَدُكُمْ مِنْ ذُنُوبِهِ عَلَى وَجَلٍ ، وَمَنْ رَبُّهُ عَلَى أَمَلٍ » .

(تهذيب الكمال ١ : ٢٧)

(١) هذه الخطبة مختطف في قائلها أيضا ، فقه مزاحا المبرد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كما ترى وروى الميداني في مجمع الاحوال (٢ : ٢٧٧) القطر الأول منها ، وعزاه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

كلام الحسن البصري

(المتوفى سنة ١١٠ هـ)

٤٥٩ - خطبة له

قال الحسن البصري رحمه الله ^(١) :

« يا ابن آدم : بيعَ دنيَاك بأخْرَتِكَ تَرْبَحُهُمَا جَمِيعًا ، وَلَا تَبِيعْ أَخْرَتَكَ بِدُنْيَاكَ فَتَخْشَرَهَا جَمِيعًا . إِنْ رَأَيْتَ النَّاسَ فِي الْخَيْرِ فَنَافِسْتَهُمْ فِيهِ ، وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ فِي الشَّرِّ فَلَا تَقْطِعْهُمْ عَلَيْهِ ، التَّوَّاءُ ^(٢) هَاهُنَا قَلِيلٌ ، وَالْبَقَاءُ هُنَاكَ طَوِيلٌ ، أَمْسِكْمْ آخِرَ الْأَيَّامِ ، وَأَنْتُمْ آخِرُ أَمْسِكُمْ ، وَقَدْ أَسْرَعَ مَجْيَارُكُمْ ، فَاذَا تَنَقَّلْتُمْ ؟ الْمَائِنَةُ ؟ فَكَاُنْ قَدْ ، هِبَاتِ هِبَاتِ ! ذَهَبَ الدُّنْيَا بِمَجَالِيهَا ^(٣) ، وَبَقِيَتِ الْأَعْمَالُ فَلَا تَدْرِي أَعْنَاكَ فِي أَهْنَاكَ بَنَى آدَمَ . فَيَا هَذَا مَوْعِظَةٌ لَوْ وَافَقَتْ مِنَ الْقُلُوبِ حَيَاةٌ ! أَمَا إِنَّهُ وَافَقَهُ لَا أَمَّةٌ بَعْدَ أَمْتِكُمْ ، وَلَا نَبِيٌّ بَعْدَ نَبِيِّكُمْ ، وَلَا كِتَابٌ بَعْدَ كِتَابِكُمْ ، أَنْتُمْ تَسُوقُونَ النَّاسَ وَالسَّاعَةَ تَسُوقُكُمْ ، وَإِنَّمَا يُنْقَظَرُ بِأَوْلَكُمْ أَنْ يَلْحَقَهُ آخِرُكُمْ ، مِنْ رَأْيِ عَمْدَا عَلَى اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَأَى غَادِيًا وَرَائِعًا ، لَمْ يَضَعْ لَيْلَةً عَلَى لَيْلَةٍ ، وَلَا نَفْصَةً عَلَى نَفْصَةٍ ، رَفَعَ لَهُ عِلْمَ فَشَرِّ إِلَهِ ^(٤) ، فَالْوَسَاءُ الْوَسَاءُ ^(٥) »

(١) هو أبو سعيد الحسن بن عليّ الحسن بن عليّ البصري ، من سادات التابعين ، وأوردع عباد والمفسكين وإمام أهل العلم والرأي في عصره ، وأستاذ وأصل بن مطاه شيخ المعتزلة . (٢) الإقْلَة .

(٣) أي زبْنُهَا الْمَالُ ، مِنْ حَلَّتِ الْفَرَاةُ كَرَضَى نَحْوَ سَالٍ وَحَالَةٍ : لَيْسَتْ الْحُلَّةُ ، وَالْمَنْعُ ذَهَبَتْ بِزَعْرِهَا الَّذِي تَزَيَّنَتْ بِهِ النَّاسُ فَأَضَلَّتْهُمْ وَأَغْوَتْهُمْ ، وَهِيَ فِي نَسْخَةٍ : « بِجَالٍ بِجَالًا » وَفِي أُخْرَى : « بِجَالٍ بِجَالًا » وَهِيَ تَحْرِيفٌ . (٤) وَفِي نَسْخَةٍ : « فَمَا إِلَهِ » . (٥) الْوَسَاءُ وَبَعْدَ : السَّجَلَةُ وَالْإِسْرَاحُ .

وَالنَّجَاءَ النِّجَاءَ ، عَلَامَ تَعْرِجُونَ ؟ أَلَيْتُمْ وَرَبَّ الْكُتُبَةِ أَقْدَ أُسْرِعَ بِخِيَارِكُمْ : وَأَنْتُمْ كُلَّ يَوْمٍ تَرْتَدُّونَ ^(١) ، فإِذَا تَنْظُرُونَ ؟ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى عِلْمٍ مِنْهُ ، اخْتَارَهُ لِنَفْسِهِ ، وَبَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَكَانَ صَفْوَتُهُ مِنْ خَلْقِهِ ، وَرَسُولُهُ إِلَى عِبَادِهِ ، ثُمَّ وَضَعَهُ مِنَ الدُّنْيَا مَوْضِعًا يَنْظُرُ إِلَيْهِ أَهْلُ الْأَرْضِ ^(٢) ، وَآتَاهُ مِنْهَا قُوَّةً وَبُلْغَةً ، ثُمَّ قَالَ : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ . فَرِغِبِ أَقْوَامٌ مِنْ عَيْشِهِ ، وَسَخَطُوا مَا رَضِيَ لَهُ رَبُّهُ ، فَأَبْذَمَ اللَّهُ وَأَسْحَقَهُمْ ^(٣) . »

يَا بَنِي آدَمَ : طَلِمَ الْأَرْضَ بِقَدَمِكَ ، فَإِنَّهَا عَنْ قَلِيلٍ قَبْرُكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ لَمْ تَزَلْ فِي عَذَمٍ عَمْرُكَ مُنْذُ سَقَطْتَ مِنْ بَطْنِ أُمِّكَ . رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا نَظَرَ فَتَفَكَّرَ ، وَتَفَكَّرَ فَاعْتَبَرَ ، وَابْصَرَ فَصَبَرَ ، فَقَدْ أَبْصَرَ أَقْوَامٌ وَلَمْ يَبْصُرُوا ، فَذَهَبَ الْجَزَعُ بِقُلُوبِهِمْ ، وَلَمْ يُدْرِكُوا مَا طَلَبُوا ، وَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا قَارَعُوا .

يَا بَنِي آدَمَ : إِذَا ذَكَرَ قَوْلُهُ : « وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَتَهُ » ^(٤) فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُهُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَنْقَاهُ مِنْشُورًا ، اقْرَأْ كِتَابَكَ ، كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا . عَدَلَ وَاللَّهِ عَلَيْكَ مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ ، خَدَا صِفَا الدُّنْيَا ، وَذَرَوْا كَدْرَهَا ، فَلَيْسَ الصَّفْوُ مَا عَادَ كَدَرًا ، وَلَا الْكَدَرُ مَا عَادَ صَفْوًا ، دَعُوا مَا يُرِيْبُكُمْ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكُمْ ، ظَهَرَ الْجَمَاءُ وَقَلَّتِ الْمَلَمَاءُ ، وَغَفَّتِ ^(٥) الشُّنَّةُ ، وَشَاعَتِ الْبِدْعَةُ ، لَقَدْ صَحِبَتْ أَقْوَامًا مَا كَانَتْ حَسِبْتُهُمْ إِلَّا قُرَّةَ الْعَيْنِ ، وَجِلَاءَ الصَّدُورِ ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ أَقْوَامًا كَانُوا - مِنْ حَسَنَاتِهِمْ أَنْ تَرْتَدُّ عَلَيْهِمْ - أَشْفَقَ ^(٦) مِنْكُمْ - مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ أَنْ تُتَدَبَّرُوا عَلَيْهَا - ، وَكَانُوا فِيهَا أَهْلٌ اللَّهُ لَمْ يَنْزِلْ مِنَ الدُّنْيَا أَزْهَدَ مِنْكُمْ فِيَا حَرِّمَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِنْهَا ، مَا لِي أَسْمِعَ حَسِيبًا ، وَلَا أَرَى

(١) أَيْ تَصِيرُونَ أَوْ ذَلَالًا جَمِيعَ ذَلِكَ : وَهُوَ الْقَدْحُ الْخَمِيسُ . (٢) أَيْ مَوْضِعًا سَامِيًا .

(٣) أَيْ أَبْذَمَهُمْ ، وَفِي نَسْخَةِ : « وَاسْحَقَهُمْ » أَيْ أَطْلَقَهُمْ . (٤) أَيْ عَمَلُهُ يَجْعَلُهُ فِي عُنُقِهِ ،

وَالصَّبِيرُ بِهِ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ وَيَتَشَامَتُونَ بِالطَّائِرِ السَّالِحِ وَالْبَارِحِ ، اسْتَعِيرَ لِمَا هُوَ سَبَبُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .

(٥) حَبِثَ . (٦) أَخْرَفَ .

أَنْيَسًا ، ذهب الناس وبقى الْفَسَّاسُ^(١) ، لو تكاسفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ، ولم تهادوا النصائح ، قال ابن الخطاب : « رَجِمَ اللهُ أَمْرًا أَهْدَى إِلَيْنَا مَسَاوِينَنَا » أَعْدُوا الجواب ، ثَلَاثَكُمْ مَثُولُونَ ، الْمُؤْمِنُ مَنْ لَمْ يَأْخُذْ بِدِينِهِ عَنْ رَأْيِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَخَذَهُ مِنْ قَبْلِ رَبِّهِ ، إِنْ هَذَا الْحَقُّ قَدْ جَهَّدَ أَهْلَهُ ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِمْ ، وَمَا يَصِيرُ عَلَيْهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ فَضْلَهُ ، وَرَجَا عَاقِبَتَهُ ، فَمَنْ حِدَّ الدُّنْيَا ذِمَّةَ الْآخِرَةِ ، وَلَيْسَ بِكَرِهٍ لِقَاءُ اللهِ إِلَّا عَقِيمٌ عَلَى سَخَطِهِ .

يَا بَنِي آدَمَ : الْإِيمَانُ لَيْسَ بِالتَّحَلُّيْ وَلَا بِالتَّمَنَّى ، وَلَكِنَّهُ مَا وَقَّرَ فِي الْقُلُوبِ ، وَصَدَّقَهُ الْعَمَلُ .

(البیان والتهیین : ٣ : ٦٨ وھیون الأعیار ٢٢ ص ٢٤٤ ، وشرح ابن أبی الحدید ١ : ص ٤٦٩)

٤٦٠ - خطبة أخرى

وكان إذا قرأ : « أَلَمْ يَكُ الْمُكَافِّرُ^(٢) » قال :
مِمَّ أَلَمْ يَكُ ؟ عَنْ دَارِ الْخُلُودِ ، وَجَنَّةِ لَا تَبِيدُ^(٣) ، هَذَا وَاللهُ فَضَّحَ التَّوَرَمَ ، وَهَتَكَ الشُّعْرَ ، وَأَبْدَى التَّوَارَ^(٤) ، تَنْفَقَ مِثْلَ دِينِكَ فِي شَهْوَانِكَ سَرَفًا ، وَتَمْنَعُ فِي حَقِّ اللهِ دِرْهَمًا اسْتَعْلَمَ لَا لُكْعَ^(٥) ، النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : مُؤْمِنٌ ، وَكَافِرٌ ، وَمُتَنَاقٍ ؛ فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ : فَقَدْ أَلْجَهُ الْخُوفُ وَقُوَّةُ الْفَرَسِ ؛ وَأَمَّا الْكَافِرُ : فَقَدْ قَمَعَ السِّيفُ ، وَشَرَّدَهُ الْخَلْفُ ، فَأَدَمَسَ بِالْجُزْيَةِ ، وَتَمَحَّجَ بِالضَّرْبَةِ ؛ وَأَمَّا الْمُتَنَاقِ : فَفِي الْحُجَرَاتِ وَالطَّرِيقَاتِ ، يُسِيرُونَ غَيْرَ مَا يُمْلَنُونَ ، وَيُضْمِرُونَ غَيْرَ مَا يُظْهَرُونَ ، فَاعْتَبِرُوا إِنْ كَارَمَ رِجْلُهُمْ ، بِأَعْرَافِهِمُ الْخَبِيثَةِ ، وَيَلَكُ ؟ قَطَلَتْ وَلِيَّهُ ، ثُمَّ تَمَتَّعَتْ عَلَيْهِ جَنَّتُهُ ؟ . (البیان والتهیین : ٣ - ٦٩)

(١) في حديث أبي هريرة رضي الله عنه : « ذهب الناس وبقى الفسّاس » قيل : فما الفسّاس ؟ قال : « الذين يتشبهون بالناس ، وليسوا من الناس » ولهم في تفسير الفسّاس كلام كثير ، منه : أنهم خلق على صورة الناس خالفوهم في أفعالهم ، وليسوا بهم .

(٢) التباي بالكرة . (٣) لا تفي . (٤) التوار مثل العين : العيب .

(٥) اللع : القبح والافتقار .

٤٦١ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رحم الله رجلاً خلا بكتاب الله ، فَمَرَّضَ عليه نفسه ، فإن واقعته حِدْرَتُهُ ، وسأله الزيادة من فضله ، وإن خالفه اعتَبَ وأُتَابَ ، وراجع من قريب ، رحم الله رجلاً وَعَظَ أخاه وأهله فقال : « يَا مَعْزِي : صَلَاتُكُمْ صَلَاتُكُمْ ، زَكَاتُكُمْ زَكَاتُكُمْ ، جِيرَانُكُمْ جِيرَانُكُمْ ، إِخْوَانُكُمْ إِخْوَانُكُمْ ، مَا كَيْفَكُمْ مَا كَيْفَكُمْ ، لعل الله يَرْحُمَكُمْ ، فإن الله تبارك وتعالى أثنى على عبد من عباده ، قَدَل : « وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَكَانَ هِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا » . يَا بَنِي آدَمَ : كيف تكون مسلماً ولم يسلّم منك جارك ، وكيف تكون مؤمناً ولم يأمنك الناس ؟ » .

(البيان والبيان ٣ : ٦٩)

٤٦٢ - خطبة أخرى

وكان يقول : « لا يستحق أحد حقيقة الإيمان ، حتى لا يعمى الناس بسببه هو فيه ولا يأمر بإصلاح عيوسهم ، حتى يبدأ بإصلاح ذلك من نفسه ، فإنه إذا فعل ذلك لم يصحح شيئاً إلا وجد في نفسه عيباً آخر ينبغي له أن يُصْلِحَهُ ، فإذا فعل ذلك شُغِلَ بخاصة نفسه عن عيب غيره ، وإنك ناظر إلى عملك بوزن خيره وشره ، فلا تَحْقِرَنَّ شيئاً من الخلق وإن صَغُرَ فإنك إذا رأيته سَرَّكَ مكانه ، ولا تَحْقِرَنَّ شيئاً من الشر وإن صَغُرَ فإنك إذا رأيته سامَكَ مكانه » .

(البيان والبيان ٣ : ٧٠)

٤٦٣ - خطبة أخرى

وكان يقول : « رَحِمَ اللهُ عَبْدًا كَسَبَ طَيِّبًا ، وَأَنْفَقَ قَصْدًا ، وَقَدَّمَ فُضْلًا ، وَجَهَّاهُ هَذِهِ الْفُضُولُ ^(١) حَيْثُ وَجَّهَهَا اللهُ ، وَضَمَّهَا حَيْثُ أَمَرَ اللهُ ، فَإِنْ مِنْكَ قَلْبُكُمْ كَانُوا يَأْخُذُونَ مِنَ الدُّنْيَا بِلَاغَتِهِمْ ، وَيُؤْتِرُونَ بِالْفُضْلِ ، أَلَا إِنَّ هَذَا لِلْوَيْدِ قَدْ أَضَرَ بِالدُّنْيَا قَفْضُهَا ، فَلَا وَاللَّهِ مَا وَجَدَ ذُو لُبٍّ فِيهَا فَرَحًا ، فَإِذَا كُمْ وَهَذِهِ السُّبُلُ لِلتَّفَرُّقَةِ ، الَّتِي جِئْتُمْ بِهَا الضَّلَالَةُ ، وَمِيسَادُهَا النَّارُ ، أَدْرَكْتُ مِنْ صَدْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمًا كَانُوا إِذَا جَنَّتْهُمُ اللَّيْلُ قِيَامَ عَلَى أَطْرَافِهِمْ ، يَفْتَرِشُونَ خُدُودَهُمْ ، تَجْرِي دُمُوعُهُمْ عَلَى خُدُودِهِمْ ، يَتَأَجُّونَ مَوْلَاهُمْ فِي فِكَكَ رِقَابِهِمْ ، إِذَا عَمِلُوا الْحَسَنَةَ سَرَّهَتْهُمْ ، وَسَلَّوْا اللهُ أَنْ يَقْبَلَهَا مِنْهُمْ ، وَإِذَا عَمِلُوا سَيِّئَةً سَاءَتْهُمْ ، وَسَلَّوْا اللهُ أَنْ يَغْفِرَهَا لَهُمْ ، يَا بَنَ آدَمَ : إِنْ كَانَ لَا يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَلَيْسَ هَاهُنَا شَيْءٌ يُغْنِيكَ ، وَإِنْ كَانَ يُغْنِيكَ مَا يَكْفِيكَ ، فَالْقَائِلُ مِنَ الدُّنْيَا يَكْفِيكَ ، يَا بَنَ آدَمَ : لَا تَمْسَلْ شَيْئًا مِنَ الْحَقِّ رِيَاءً ، وَلَا تَتْرُكْهُ حِيَاءً .

(البیان والتمییز ٣ : ٧٠)

٤٦٤ - خطبة أخرى

وكان يقول : « إِنَّ الْعُلَمَاءَ كَانُوا قَدْ اسْتَفْتَوْا بِعِلْمِهِمْ عَنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ، وَكَانُوا يَقْضُونَ بِعِلْمِهِمْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا ، مَا لَا يَقْضِي أَهْلُ الدُّنْيَا بِدِينَانِهِمْ فِيهَا ، وَكَانَ أَهْلُ الدُّنْيَا يَبْذُلُونَ دِينَانَهُمْ لِأَهْلِ الْعِلْمِ رَغْبَةً فِي عِلْمِهِمْ ، فَأَصْبَحَ لِلْيَوْمِ أَهْلُ الْعِلْمِ يَبْذُلُونَ عِلْمَهُمْ لِأَهْلِ الدُّنْيَا رَغْبَةً فِي دِينَانِهِمْ ، فَغَرِبَ أَهْلُ الدُّنْيَا بِدِينَانِهِمْ عَنْهُمْ ، وَزَهَدُوا فِي عِلْمِهِمْ ، لَمَّا رَأَوْا مِنْ سَوَاءِ مَوْضِعِهِمْ عَنْهُمْ » ، وَكَانَ يَقُولُ : لَا أَذْهَبُ إِلَى مَنْ يُؤَارِي

(١) جمع فضل : وهو الزيادة من المال وغيره .

غنى غناه ، ويُبْدِي لى قمره ، وَيُفْلِق دوى بابِه ، ويعننى ماعنده ، وأدع
من يفتح لى بابِه ، ويُبْدِي لى غناه ، ويدعونى إلى ماعنده .

(البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٥ - خطبة أخرى

وكان يقول : « يا بن آدم ، لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك
من الآخرة أفقر ، مؤمن مُتَمِّمٌ ، وعلج غنمٌ ، وأعرابي لا قِئَّةَ له ، ومنافق مكذِّبٌ ،
ودنياوى ^(١) مُتَرَفٌ ، نَمَقَ سَهم ناعق فاتبهوه ، فَرَّاشُ نارٍ ^(٢) ، وذِبَّان طَمَعٌ ، والذى نَفَسُ
الحسن يده ، ما أصبح فى هذه القرية مؤمن إلا أصبح مهموماً حزيناً ، وليس لمؤمن
راحةٌ دون لقاء الله ، الناس ما داموا فى عافية مستورون ، فإذا نزل بَلَاءٌ صاروا إلى
حقائقهم ، فصار المؤمن إلى إيمانه ، والمنافق إلى نفاقه ، أى قوم : إن نعمة الله عليكم
أفضل من أفعالكم ، فصارعوا إلى ربكم ، فإنه ليس لمؤمن راحةٌ دون الجنة ،
ولا يزال العبد بخيرٍ ما كان له واعظ من نفسه ، وكانت المحاسبة من همِّه .

(البیان والتبيين ٣ : ٧٠)

٤٦٦ - خطبة أخرى

وقال فى يوم فِطْرٍ - وقد رأى الناس وهيتائهم - : إن الله تبارك وتعالى جعل رمضان
مِضْبَاراً خَلَقَهُ ، يَسْتَقِيمُونَ فيه بطاعته إلى مَرَضَاتِهِ ، فسبق أقوامٌ ففازوا ، وتَخَلَّفَ آخرون
فخابوا ، فَالْعَجَبُ مِنَ الضَّاحِكِ اللَّاعِبِ ، فى اليوم الذى يقوز فيه الحَسَنُونَ ، ويخسر فيه
الْمُبْطِلُونَ ، أما والله أن لو كُشِفَ الْغِطَاءُ ، أُشْفِلَ محسن بإحسانه ، ومُؤْسَى بإسأاته ،
عن ترجيل ^(٣) شَرٍّ ، أو تجديد ثوبٍ .

(البیان والتبيين ٣ : ٧١ ، وتلخيص الكمال ١ : ٢٩ ، وزهر الآداب ٢ : ٢٠٢)

(١) نسبة إلى دنيا . (٢) أى هم كالثقلاء يهافت على النار بحسبها ذائقة له فصرقه .
(٣) وفى رواية الكمال المبرد : « ترطيل » بالطاء ، والترطيل : تلخين للشر بالدهن وتكسيره وإرخاؤه وإرساله .

٤٦٧ - مقام الحسن البصري عند عمر بن هبيرة

لما ولي عُمر بن هُبَيْرَة الفَرَارِي المَراق - وذلك في أيام يزيد بن عبد الملك - استدعى الحسن البصري ، وعُمر بن سيرين ، والشَّعْبِيّ ، سنة ثلاث ومائة ، فقال لهم : إن يزيدَ خليفةُ الله ، استخلفهُ على عبادِهِ ، وأخذَ عنهم الليثاقَ بطاعته ، وأخذَ عهدنا بالسمع والطاعة ، وقد ولّاني ماتِرَين ، فيكتبُ إليّ بالأمر من أمرِهِ ، أعرفُ في تنفيذِهِ المَلَكَة ، فأخافُ إن أطعتهُ غَضِبَ اللهُ ، وإن عصيته لم آمَنَ سَطَوته ، فأترون ؟ فقال ابن سيرين والشَّعْبِيّ قولاً فيه تَقْيِيَة ، وكان ابن هُبَيْرَة لا يستشفي دُخُنُ أن يسمع قول الحسن ، فقال : قل ما عندك يا أبا سعيد ، فقال : « يا ابن هُبَيْرَة : خَفِ الله في يزيدَ ولا تخَفْ يزيدَ في الله ، إن الله يَمْنَعُكَ من يزيدَ ، وإن يزيدَ لا يَمْنَعُكَ من الله ، وأوشك أن ييمتَ إليك مَلَكًا ، فيُزِيلُكَ عن سَربَرِكَ ، ويُخرجُكَ من سَمَةِ قَصرِكَ ، إلى ضيقِ قَبْرِكَ ، ثم لا يُنَجِّيكَ إلا عَمَلُكَ ، يا ابن هُبَيْرَة : إن تَمَصَّى اللهُ ، فإنما جِعلَ اللهُ هذا السلطانَ ناصراً لدينِ الله وعبادِهِ ، فلا تَرَكِبَنَّ دينَ الله وتُبادِهِ بسلطانِ الله ، فإنه لا طاعةَ لمخلوق في معصية الخالق » .

وفي رواية أخرى قال : « أقول والله إنه يُوشِكُ أن يَزيلَ بك مَلَكٌ من ملائِكَةِ الله نَظْرًا غليظًا ، لا يَمَصِّي اللهُ ما أَمَرَهُ ، فيُخرجُكَ من سَمَةِ قَصرِكَ ، إلى ضيقِ قَبرِكَ ، فلا يُبقيَ عنكَ ابن عبد الملك شيئًا ، وإنِّي لأرجو أن اللهُ عزَّ وجلَّ سيَهْصِيكَ من يزيدَ ، وإن يزيدَ لا يَمْنَعُكَ من الله ، فاتقِ الله أيها الأمير ، فإنكَ لا تَأْمَنُ أن ينظرَ اللهُ إليك ، وأنتَ على أتْيَحٍ ما تكونُ عليه من طاعةِ يزيدَ ، نَظْرَةً يَمُوتُكَ بها ، فيُذِلُّكَ عنكَ بابُ الرحمة ، واعلم أني أخوَّفُكَ ما خوَّفَكَ اللهُ سُبْحانَهُ حين يقول : « ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ » وإذا كُنتَ مع الله عزَّ وجلَّ في طاعتهِ كما كُنتَ بَوَاتِقٍ ^(١) يزيدَ ، وإن كُنتَ مع يزيدَ على معصية الله وكَلَمِكَ اللهُ إلى يزيدَ حين لا يُبقيَ عنكَ شيئًا » .

فبكى عمر بن هبيرة بكاء شديداً ، ثم أجازهم ، وأخضع جائرة الحسن ، فقال الشعبي لابن سيرين : سَفَسْنَا ^(١) له فَسَفَسْنَا لَنَا .

(وفيات الأعيان ١ : ١٢٨ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، مروج الذهب ٢ : ١٧٨ ، ميون الأخبار ٢ : ص ٣٤٣ ، شرح ابن أبي الحديد ٤ : ص ٥٩ ، أمالي السيد المرتضى ١ : ١١٠)

٤٦٨ — مقام الحسن عند النضر بن عمرو

وأحضر النضر بن عمرو — وكان والياً على البصرة — الحسن البصري يوماً ، فقال : يا أبا سعيد إن الله عز وجل : خالق الدنيا وما فيها من رِيشها ^(٢) ، وبهجتها ، وزينتها لعباده ، وقال عز وجل : « كَلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ » ، وقال عز من قائل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » فقال الحسن :

« أيها الرجل : اتق الله في نفسك ، وإليك والأمانى التي ترجعت ^(٣) فيها فتهلك ، إن أحداً لم يخطئ خيراً من خير الدنيا ، ولا من خير الآخرة بأمنيتها ، وإنما هي داران ، من عجل في هذه أدرك تلك ، ونال في هذه ما قُدِّرَ له منها ، ومن أهل نفسه خسرهما جميعاً ، إن الله سبحانه اختار محمداً صلى الله عليه وسلم لنفسه ، وبشبه برسالته ورحمته ، وجعله رسولا إلى كافة خلقه ، وأنزل عليه كتاباً مُهَيَّيَّناً ، وحدَّ له في الدنيا حدوداً ، وجعل له فيها أجلاً ، ثم قال عز وجل : « لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ » وأمرنا أن نأخذ بأسره ، ونهتدى بهديه ، وأن نسلك طريقته ، ونعمل بسنته ، فإتقنا إليه فيفضله ورحمته ، وما قصرنا عنه فعلينا أن نستعين ونستغفر ، فذلك باب نخرجنا ، فأما الأمانى فلا خير فيها ، ولا في أحدٍ من أهلها » :

(١) سَفَسَفَ عمله : لم يبالغ في إحكامه . (٢) الريش : اللباس القلنسور والبال والخصب والمناش .

(٣) أي طلت إليها ، من ترجعت به الأوجوه : ماتت .

فقال العنبر : والله يا أبا سعيد إنا على ما فينا لنُحِبَّ ربنا ، فقال الحسن :

« لقد قال ذلك قوم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزل الله تعالى عليه : **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** » فجعل سببها أنه صلى الله عليه وسلم علما للعجبة ، وأكذب من خالف ذلك ، فاتق الله أيها الرجل في نفسك ، وإني والله لقد رأيت أقواما كانوا قبلك في مكانك ، يَمْلُونُ النَّابِرَ ، وتهنأ لهم للراكب ويمجرون القيول بغير أروياء الناس ، يبنون الدَّرَّ^(١) ، وُزِيرُونَ الْأَثَرَ^(٢) ، ويتنافسون في الثياب ، أخرجوا من سلطانهم ، وسُلِّوا ما جَمَعُوا من دنياهم ، وقَدِمُوا على ربههم ، ونزلوا على أعمالهم ، فالويل لهم يوم التَّضَائِنِ^(٣) ، ويا ويحكمهم - يَوْمَ يَبْعَثُ الرَّمَّةُ مِنْ أَخِيهِ وَأَمِهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

(الحسن البصري لابن الجوزي من ٥٠)

٤٦٩ - مقام آخر له عند النضر

ودخل عليه يوما آخر فقال :

« أيها الأمير أَيُّكَ اللَّهُ ، إن أخاك من نصحك في دينك ، وَبَصْرَكَ عيوبك ، وهذاك بلى مَرَاثِدِكَ ، وإن عدوك من غررك ومَنَّاكَ ، أيها الأمير اتق الله فإنك أصبحت مغالفا للقوم في الهدى والسيرة ، والغلاية والسريرة ، وأنت مع ذلك تتدنى الأمانى ، وترجع في طلب النذر ، والناس أصلحك الله طابرات ، فطالب دنيا ، وطلب آخرة ، وإيم الله لقد أدرك طالب الآخرة واستراح ، وتنب الآخر واختُرم^(٤) ،

(١) المرد : قطع العين اليابسة ؛ والمراد يبنون القصور . (٢) استأثر كل أصحابه : اختار لنفسه أشياء حسنة واستبد بها ، واللام : الأثرة بالتصريك ، والأثرة بالقوم والسكر ، والجمع أثر كفرة وفرس . (٣) فيه فم البيع وفيه ، والتضائين : أن يفتن بعض القوم بعضا ، وسمى يوم التزامة يوم التضائين لأن أهل الجنة تفتن أهل النار بأخذ منازلهم في الجنة لو آمنوا . (٤) حلك .

فاحذر أيها الأمير أن تَتَقَيَّ بطلب الفاني ، وترك الباقي ، فتكون من النادمين ، وأعلم
أن حكما قال :

أين اللوك التي عن حظها غَفَلْتُ حتى سقاها بكأس الموت ساقياها
نموذ بالله من الخور بعد الكور^(١) ، ومن الضلالة بعد الهدى ، لقد حدثت أيها الأمير
عن بعض الصالحين أنه كان يقول : « كفى بالمرء خيانة أن يكون للخونة أمينا ، وعلى
أعمالهم معينا » .
(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥١)

٤٧. — مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط

وروى أن الحجاج بنى داراً بواسط^(٢) ، وأحضر الحسن ليراما ، فلما دخلها قال :
« الحمد لله : إن اللوك ليرون لأنفسهم عزاً ، وإنا أتري فيهم كل يوم عيرا ، بَعْدِ
أحدم إلى قصر فشيده ، وإلى فرش فينجدته^(٣) ، وإلى ملابس ومراكب فيحسها ،
ثم يحفُّ به ذباب طمع ، وقراش نار ، وأصحاب سوء ، فيقول : أنظر ما ما صنعت ! فقد
رأينا أيها الثرور ، فكان ماذا يا أفسق الناسقين ؟ أما أهل السموات فقد مقتوك ،
وأما أهل الأرض فقد لضعوك ، بنيت دار الفناء ، وخرمت دار البقاء ، وغررت في دار
الثرور ، لتذلل في دار الخبور ، ثم خرج وهو يقول : إن الله سبحانه أخذ عهداً على
الملاء ، كَيِّدُهُ نَاسٍ ولا يَكْتُمُونَهُ » .

وبلغ الحجاج ما قال ، فاشتد غضبه ، وجمع أهل الشام ، فقال : بأهل الشام أشتدنى
عبد من عبيد أهل البصرة وأنتم حضور فلا تشكرون ! ثم أمر بإحضاره فجاء وهو
يمرك شفتيه بما لم يُسْمَع ، حتى دخل على الحجاج ، فقال : يا أبا سعيد ، أما كان لإبارقي
عليك حق ، حين قلت ما قلت ؟ فقال : يرحك الله أيها الأمير ، إن من خوكك حق

(١) الخور : النقصان ، والكور : الزيادة ، وهو حديث شريف : « نموذ بالله من الخور بعد
النكور » أي من النقصان بعد الزيادة ؛ وقيل : من فساد أمورنا بعد صلاحها : وأصله من كور العمامة وهو
لقها وجسمها . (٢) واسط : مدينة بالمراقة من الجنوب بين دجلة والفرات ، بناها الحجاج ومات بها .
(٣) التجديد : التزيين ، والتجديد : الذي يمالج القرش والوسائد ويحيطلها .

تبلغَ أَمْنَكَ أرفقُ بك وأحبَّ فيكَ من أَمْنِكَ حتى تبلغَ الخوفَ ، وما أردتُ الذي سبق
إلى وحمك ، والأمران بيدك : السُّوءُ والسُّوءَةُ ، فاقْتُلِ الْأَوَّلِيَّ بك ، وعلى الله فتوكل ،
وهو حسبنا ونعم الوكيل ، فاستحيا الحجاج منه ، واعتذر إليه وأكرمه وحبا.

وفي رواية أخرى : « فلما دخل ، قال له الحجاج : هاهنا ، فأجلسه قريبا منه ،
وقال : ما تقول في عليّ وعثمان ؟ قال : أقول قول من هو خيرٌ منِّي عند من هو شرٌّ منك .
قال فرعون لموسى : « قَدْ بَالَ الْقُرُونِ الْأَوَّلَى ؟ قال : عَلِمْتُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْغُلُ
رَبِّي وَلَا يَنْسَى » عَلِمْتُ عليّ وعثمان عند الله . قال : أنت سيد العلماء يا أبا سعيد ، ودعا
بناحية^(١) وعَلَفَ بها لحيته ، فلما خرج تبعهُ الحاجب فقال له : ما الذي كنت قلت حين
دخلت عليه ؟ قال : قلتُ : « يا عُدَّتِي عند كُرْبَتِي ، ويا صاحِبِي عند شِدَّتِي ، ويا دُلِّيَّ
نَعْتِي ، ويا أَلْهِيَّ وإِلَهَ آبَائِي إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ارزقني مودته ، واسرِفْ
عني أذاه » ففعل ربي عز وجل .

ز الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٢ ، والنية والأمل لابن يمين المرتضى ص ١٤ ،
والمال السيد المرتضى ١ : ١١٢)

٤٧١ — صفة الإمام العادل^(٣)

لما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى الحسن أن يكتب إليه بصفة الإمام
العادل ، فكتب إليه الحسن رحمه الله :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد^(١) كل
جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصبة^(٢) كل مظلوم ، ومقزع كل
ملهوف ، والإمام التمدل يا أمير المؤمنين كالراعي للشفيع على إبله ، الرفيق الذي يرتاد

(١) طيب . (٢) أوردت هذا الكتاب هنا ، والكتابين التاليين له لانتظامهما في سلك الوصايا .

(٣) هداية ورشاد . (٤) اسم من الإنصاف .

لها أطيب الرعى ، ويذودها عن صرائع الملئكة ، ويحميها من السباع ، ويكفئها من أذى الحر والقر^(١) ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالآب الحاني على ولده ، يستى لهم صغاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتب لهم في حياته ، ويذكر لهم بعد مماته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالأم للشيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعت كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر به بصره ، وتسكن بكونه ، ترضيه تارة ، وتقطعه أخرى ، وتفرح بدافئته ، وتتم بشكايته ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين وصي اليتيم ، وخازن المساكين ، ربّي صنيرهم ، ويؤن كبيرهم ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بمصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العدل يا أمير المؤمنين هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله ويُسْمِعهم ، وينظر إلى الله ويرى بهم ، وينقاد إلى الله ويقودهم ، فلا تسكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله كبد ائتمته سيده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدّد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله ، وفرّق ماله . واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبايا والفواحش ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟ وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم ؟ واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلة أشیاعك عنده ، وأنصارك عليه ، فنزوده ، ولما بعده من القزع الأكبر . واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبابك ، يُسلطونك في قعره فريداً وحيداً ، فنزوده ما يصببك يوم يغير الله من أخيه ، وأبو وأبيه ، وصاحبه وبنيّه ، واذكر يا أمير المؤمنين إذا بُعِثَ ما في القبور ، وحُصِّلَ ما في الصدور ، فالأسرار ظاهرة ، والكتابات لا يُعادِرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل ، قبل حلول الأجل ، واضطاع الأمل ، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد

الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين
فإنهم لا يترقبون في مؤمن إلا^(١) ولا ذمة ، فتبوء بأوزارك ، وأوزار مع أوزارك ،
وتحيل أعتاك ، وأعتالاً مع أعتاك ، ولا يفرتك الدين يتعنون بما فيه يؤسك ،
وياً تكون الطيبات في دنياهم يذهب طيباتك في آخرتك . لا تنظر إلى قدرتك اليوم ،
ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسور في حائل الموت ، وموقوف بين يدي
الله في مجتمع من الملائكة والنبیین والمرسلين ، وقد عنت^(٢) الوجوه^(٣) للحى القيوم ،
إني يا أمير المؤمنين وإن لم أبلغ بسطقي ما بلغه أولواللهي من قبلي ، فلم آلك^(٤) شفقة
ونصحا ، فأزِل كتابي إليك كداوى حبيبه ، يسقيه الأدوية الكريمة ، لما ير جوله
في ذلك من العافية والصحة ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته
(المقد الفريد ١ : ١٢ ، الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٦)

٤٧٢ - موعظته لعمر بن عبد العزيز

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز رحمه الله : اكتب إلى يا أبا سعيد بموعظة فأوجز ،
فكتب إليه :

« أما بعد يا أمير المؤمنين : فمكان الذي كان لم يكن ، وكان الذي هو كائن قد
نزل ، واعلم يا أمير المؤمنين أن العير ، وإن أذاقك تمجيل مزارته ، فليضم ما أعقبك
من طيب حلاوته ، وحسن عاقبته ، وأن الموى ، وإن أذاقك طعم حلاوته ، فليش
ما أعقبك من مزارته ، وسوء عاقبته ، واعلم يا أمير المؤمنين أن الفائز من حرص على
السلامة في دار الإقامة ، وفاز بالرحمة فأدخل الجنة .
(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤)

(١) هذا . (٢) غضمت وذلت . (٣) لم أقصر .

٤٧٣ - موعظته لعمر بن عبد العزيز أيضا

وكتب إليه عمر بن عبد العزيز : اكتب إلى يا أبا سعيد بدم الدنيا ،
فكتب إليه :

«أما بعد يا أمير المؤمنين : فإن الدنيا دار ظنٍّ ^(١) وانتقال ، وليست بدار إقامة على حال ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبةً ، فاحذر ما فإن الراغب فيها تارك ، والنفى فيها فقير ، والسعيد من أهلها من لم يتعرض لها ، إنها إذا اختيرها اللبيب الحاذق ، وجدها تذلل من أعزها ، وتفرق من جمعها ، فهي كالسهم يأكله من لا يعرفه ، ويرغب فيه من يحمله ، وفيه والله خنقه ؛ فكن فيها يا أمير المؤمنين كالداوي جراحه ، يحمي قليلا ، يخافه ما يكره طويلا ، الصبر على لأوائها ^(٢) ، أيسر من احتمال بلائها ، واللبيب من حذر ما يكره طويلا ، فإنها غدارة خنقة ^(٣) خداعة ، قد تمرضت بأمالها ، وتزينت بطلابها ، فهي كالتروس ، الميؤن إليها نظرة ، والقلوب عليها واله ^(٤) ، وهي - والذي بعت عمداً بالحق - لأزواجها قاتلة ، فائق يا أمير المؤمنين صرغتها ، واحذر هزتها ، فالرشاء فيها موصول بالشدة والبلاء ، والبقاء مؤدّ إلى الهلكة والفناء .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن أمانيتكم كاذبة ، وآمالها باطلة ، وصقوها كدر ، وعيشها نكد ، وتاركها موقف ، وللتصمك بها هالك غرق ، والظن اللبيب من خاف ما خوفه الله وحذر ما حذره ، وقدر من دار الفناء إلى دار البقاء ، فسد الموت يأتيه اليقين ، الدنيا والله يا أمير المؤمنين دار عقوبة ، لما يجمع من لا عقل له ، وبها يفتقر من لا علم عنده ، والحازم اللبيب من كان فيها كالداوي جراحه ، يصير على مراة الفول ، لما يرجو من

(١) ارتحال . (٢) شتها .

(٣) خداعة . (٤) من الولد بالتحريك : وهو ذهاب العقل من شدة الوجد .

المافية ، وَيَخَافُ مِنْ سُوءِ عَاقِبَةِ الدَّارِ ، وَالْهِنَا وَآيَمُ اللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُلْمٌ ، وَالْآخِرَةُ
يَقِظَةٌ ، وَالتَّوَسُّطُ بَيْنَهُمَا لِلْوُت ، وَالْعِبَادُ فِي أَصْنَافِ أَحْلَامٍ ، وَإِنِّي قَاتِلُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
مَا قَالَ الْحَكِيمُ :

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخْلَاكَ نَاجِيًا .
ولما وصل كتابه إلى عمر ، بكى وانتحب حتى رجع من كان عنده ، وقال :
برحم الله الحسن ، فإنه لا يزال يوقظنا من الرقدة ، ويبثها من الغفلة ، وَلَقَدْ هُوَ مِنْ
مُشَفِّقِي مَا أَنْصَحُهُ ! وَوَاعِظِي مَا أصدقَه وَأفصحَه !
(الحسن البصري لابن الجوزي ص ٥٤ ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي ص ١٢١)

٤٧٤ - كلمات حكيمة للحسن البصري

وقال : احذر من قَلِّ إِلَيْكَ جَدِثَ غَيْرِكَ ، فإنه سَيَبْقَى إِلَى غَيْرِكَ حَدِيثُكَ .
أيها الناس : إنكم لا تتألمون ما تحبون إلا بقرِك ما تشتهون ، ولا تدركون ما تأملون
إلا بالصبر على ما تكرهون . الصبر صبران : صبرٌ عند المصيبة ، وصبرٌ عن المصيبة ،
فمن قَرَّرَ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ نَالَ أَفْضَلَ الصَّابِرِينَ . أَفْضَلَ الْجِهَادِ جِهَادَ الْهَوَى . لَا تَكُنْ مِمَّنْ
يَجْمَعُ عِلْمَ الْعِلْمَاءِ وَحِكْمَ الْحُكَمَاءِ ، وَيَجْرِي فِي الْحَقِّ مَجْرَى الشَّهْوَاءِ . مَنْ خَافَ اللَّهَ أَخَافَ
اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْهُ كُلُّ شَيْءٍ ، وَمَنْ خَافَ النَّاسَ أَخَافَهُ اللَّهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . لَوْلَا ثَلَاثَةٌ
مَا طَاطَأَ ابْنُ آدَمَ رَأْسُهُ : لِلْوُت ، وَالْمَرَضِ ، وَالْفَقْرِ ، وَإِنَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَوُثَّابٌ . احذروا
العابد الجاهل ، والعالم الفاسق ، فإن فيهما فتنةً لكل مفتون . تَرَكُوا الْخَطِيئَةَ أَهْوَنُ
مِنْ مِمَّا لَجَّةِ التَّوْبَةِ . لَا تَكُنْ شَاةُ الرَّاعِي أَقْضَلَ مِنْكَ ، تَزْجِرُهَا الصَّيْحَةُ ، وَتَطْرُدُهَا
الْإِشَارَةُ . الْمُؤْمِنُ تَلْقَاءُ الزَّمَانِ بَعْدَ الزَّمَانِ ، بِأَمْرٍ وَاحِدٍ ، وَوَجْهٍ وَاحِدٍ ، وَنَصِيحَةٍ وَاحِدَةٍ ،
وَأَمَّا يَتَبَدَّلُ الْمُنَاقِقُ لَيْسَتْ كُلُّ كُلِّ قَوْمٍ . الْمُؤْمِنُ صَدَّقَ قَوْلُهُ فَفَعَلَ ، وَسَرَّهُ عِلَانِيَتُهُ ،
وَمَشْهُدُهُ حَقِيقَةُ . لَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَخْتَلِفُ مَا كَانَ لَهُ وَاعَظَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ مِنْ عَمَلِهِ

والد كرم من شأنه ، والحسبة من همته ، ولا يزال بشره ما استعمل التسوية ، واتبع
الموى ، وأكثر الغفلة ، ورجع في الأمانى . الحق مر لا يصير عليه إلا من عرف حسن
العاقبة ، ومن رجا الثواب خاف العقاب . حادوا هذه القلوب ، فإنها سريسة الدثور ^(١) ،
واقذعوا ^(٢) هذه النفوس ، فإنها طلعة ^(٣) ، وإنكم إلا تزموها ^(٤) تنزع بكم إلى شر
غاية . يابن آدم : نهارك ضيفك ، فأحسن إليه ، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بمحمدك ،
وإن أسأت إليه ارتحل بدمك ، وكذلك ليك . إنما أنت أيها الإنسان عدد ، فإذا مضى
لك يوم فقد مضى بضك . وقيل له يا أبا سعيد : من أشد الناس صراحاً يوم القيامة ؟
فقال : رجل رزق رمة فاستمان بها على مصيبة الله . وكان يقول : لو قت الليل حتى
يتحنى ظهرك ، وصمت النهار حتى يستقم جسمك ، لم يفتك ذلك إلا بورع صادق .
وسمع رجلاً يكثر الكلام ، فقال : يابن أخى أميك عليك لسانك . فقد قيل : ما شئ
أحق بسجن من لسان . وكان يقول : لو لم يكن من شؤم الشراب إلا أنه جاء إلى أحب
خلق الله إلى الله فأفدته ، لكان ينبغي للعامل أن يتركه (بنى العقل) ويقول :
ما أطال أحد الأمل إلا أساء العمل ، وما أساء العمل إلا ذل .

وقال : « يا عجباً لِقوم قد أمروا بالزاد ، وأوذوا بالرحيل ، وأقام أولهم على آخرهم ،
فليت شمرى ! ما الذى ينتظرون ؟ وقال : اجعل الدنيا كالعنقطة : تجوز عليها ،
ولا تسمرها ، وقال : ليس العجب بمن عطب كيف عطب ، إنما العجب بمن نجا
كيف نجا » ، وقال : « من أخلاق المؤمنين قوة في دين ، وحزم على العلم ، وقناعة في فقر ،
ورحمة للبعهود ، وإعطاء في حق ، وبر في استقامة ، وقفة في يقين ، وكسب في حلال » .
(الحسن البصرى لابن الجوزى في مواضع مفرقة ، والبيان والتهيين ٣ - ٧٦ - ٨٣ ، أمال السيد المرتضى
١ : ١١٠ - ١١١ . وتهذيب الكمال ١ : ٢٩ . وزهر الآداب ١ : ١٧٨ ، ٢ : ٢٠٥)

(١) دثور القلوب : أعمال الأكر منها . (٢) كفروها واكبحوها . (٣) نفس طلعة :
تكثر الصلح إلى الشيء ، وفي رواية : « فإنها طاعة » . (٤) وزعه كوضع : كفه ، وفي رواية :
« عتموها »

٤٧٥ - خطبة واصل بن عطاء^(١) المنزوعة الرا

الحمد لله القديم بلا غاية ، والباقي بلا نهاية ، الذي علا في دُتُوهُ ، ودنا في حُلُوهُ ،
فلا يحويه زمان ، ولا يحيط به مكان ، ولا يثوده^(٢) حِفظ ما خلق ، ولم يخلفه على مثال
سبق ، بل أنشأ ابتداء ، وعدّه اسطناً ، فأحسن كل شيء خلقه ، وتمم مشيئته ،
وأوضح حكيمته ، فدل على ألوهيته ، فسبحانه لا مُتَقَبَّ^(٣) لحكمه ، ولا دافع لقضائه ،
تواضع كل شيء لِعِظَمته ، وذل كل شيء لسلطانه ، ووسيع كل شيء فضله ، لا يمزُب
عنه مثقال حبة ، وهو السميع العليم ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، إلماً قدّست
أسماءه ، وعظمت آلاؤه ، وعلا عن صفات كل مخلوق ، ونزّه عن شبيه كل مصنوع ،
فلا تبُلُغه الأوهام ، ولا تحيط به العقول ولا الألفاظ ، يُمَقِّص فيعلم ، ويُدَمِّق فيسمع ،
ويقبل التوبة من عباده ، ويتقو عن السيئات ، وَيَنْتَلِم ما تفعلون ، وأشهد شهادة حق ،
وقول صدق ، بإخلاص نيّة ، ورحمة طويّة ، أن محمداً عبد الله عبده ونبيه ، وخالسته^(٤)
وصفيه ، اجتمعت إلى خلقه بالبيّنة والهدى ودين الحق ، فبلغ تألّكه^(٥) ، ونصح لأمرته ،
وجاهد في سبيل الله ، لا تأخذه في الحق لومة لائم ، ولا يصدّه عنه زعم زام ، ما ضيا
على سنته ، مؤمناً على قصده ، حتى أتاه اليقين ، فلي الله على محمد ، وعلى آل محمد

(١) هو أبو حليفة واصل بن عطاء شيخ للمزنيين ، وأحد الأئمة للعكليين ، وكان يلحق
بالراء ، فيجعلها غيتاً ، فاستلحاح بجملة أن يتخلص منها كلاله ، خطب يوماً عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز
والإمام العراق سنة ١٢٦ هـ في شبّين بن شيبّة ، وعلاء بن صفوان ، والقاسم بن عيسى ، ثم تقدم واصل ، فارتجل
هذه الخطبة ومرادها من حرف الراء ، وأبدع في القول :

ففضل عبد الله خطبة واصل وضوح في قسم الصلوات له العكدة

(٢) والشك بالضم : القلال (الخطأ) وتوفى واصل سنة ١٢١ هـ . (٣) يحمله ، آده أودا (كتمر) بلغ
من اليهود . (٤) لا راد له . (٥) هذا الثاني خالصة لك : أي عامة . (٥) للألكة : بضم
اللام وتفتح : الرمانة .

أفضل وأزكى ، وأنتم وأنى ، وأجل وأعل صلاة صلاحها على صفوة أنبيائه ، وخالصة ملائكته ، وأضفاف ذلك ، إنه حميد مجيد .

أوصيكم عباد الله مع نفسى بتقوى الله ، والصل بطاعته ، والمجانبة لمصيته ، وأحضكم على ما يؤذنيكم منه ، ويؤلفكم لديه ، فإن تقوى الله أفضل زاد ، وأحسن عاقبة فى معاد ، ولا تلويثكم الحياة الدنيا بزينتها وخدعها ، وفوائدها ، وشهوات آملها ، فإنها متاع قليل ، ومدة إلى حين ، وكل شئ منها يزول ، فكم عاينم من أعاجيبها ، وم نصبت لكم من حباثلها ، وأهلكت من جنت إليها ، واعتد عليها ! إذا قمتم خلوا ، ومزجت لهم سما ، أين الملوك الذين بنوا الدارين ، وشيدوا المصانع ، وأوثقوا الأبواب ، وكاثفوا الحجاب ، وأعدوا الجياد ، وملكوا البلاد ، واستخدموا القتلاد ، قبضتهم بحمايلها^(١) ، وطحنهم بكلسكلا^(٢) ، وعصتهم بأنبيائها ، وعاضتهم من السمّة ضيقا ، ومن البرّة ذلّا ، ومن الحياة فناء ، فكنوا الحود ، وأكلموا الدود ، وأصبحوا لا ترى إلا مساكينهم ، ولا تجد إلا تمايلهم ، ولا تحس منهم من أحد ، ولا تسمع لهم نبئا ، فنزدوا عاقاكم الله ، فإن أفضل الزاد التقوى ، وانقوا الله يا أولي الألباب لعلكم تفلحون ، جللنا الله وإياكم بمن ينفع بمواعظه ، ويمثل لحظه وسعاده ، ومن يستمع القول فيتبع حقيقه ، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولو الألباب إن أحسن قصص المؤمنين ، وأبلغ مواظ المتقين ، كتاب الله ، الزكية آياته ، الواضحة بيناته ، فإذا نزل عليكم فأنصتوا له ، وأستموا لعلكم تفلحون ، أوحى بالله التقوى ، من الشيطان النفرى ، إن الله هو السميع العليم ، قل هو الله أحد ، الله الصمد لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، ثم قال :

(١) الحبل : شقان على الجير يحمل فيهما البيلاد ، والمراد أحوت عليهم .

(٢) الكلسكل : الصخر .

نفعنا الله وإياكم بالكتاب الحكيم ، وَالْوَحْيَ لِلْبَيْنِ ، وَأَعَاذَنَا وَإِيَّاكُمْ مِنَ الْمَذَابِ
الْأَلِيمِ ، وَأَدْخَلْنَا وَإِيَّاكُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ .
(مفتاح الألفاظ ص ٢٧٠)

٤٧٦ - وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية

وقال عبد الملك بن مروان : « يَا بَنِي أُمَيَّةَ : ابْذُلُوا نَدَاكُمْ ، وَكُفُّوا أَذَاكُمْ ،
وَاعْفُوا إِذَا قَدَّرْتُمْ ، وَلَا تَبْخُلُوا إِذَا سُئِلْتُمْ ، فَإِنْ خَيْرَ لِمَالٍ مَا أَفَادَ حُدُودًا ، أَوْ نَقَى ذِمًّا ،
وَلَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : ابْدَأْ بِمَنْ تَمُولُ ، فَإِنَّمَا النَّاسُ عِيَالُ اللَّهِ ، قَدْ تَكْفَلُ اللَّهُ
بِأَرْزَاقِهِمْ ، فَمَنْ وَسَّعَ أَخْلَفَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْ ضَيَّقَ ضَيَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ » .
(الأموال ٢ : ٢٢)

٤٧٧ - وصية عبد الله بن شداد لابنه^(١)

لما حضرت عبد الله بن شداد الوفاة ، دعا ابنًا له يقال له محمد ، فقال :
« يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى دَاهِيَةَ لَوْتُ لَا يُقْلِعُ ، وَأَرَى مِنْ مَقْصِي لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ بَقِيَ
فَإِلَيْهِ يَنْزِعُ^(٢) ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا ، عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلْيَكُنْ
أَوَّلَى الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحَسُنَ النَّيَّةُ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكُورَ يَزِدُّدُ ،
وَالْتَقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحَلِيطِيَّةُ :

وَلَسْتُ أَرَى السَّادَةَ جَمَعَ مَالٍ . وَلَكِنْ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ دُخْرًا . وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَنْثَى مَزِيدٌ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ . وَلَكِنْ الْفَى يَعْصَى بَعِيدٌ

(١) هو عبد الله بن شداد بن الحادي ، واسمه أسامة البجلي ، خرج مع القراء في فتنة ابن الأشعث على
الحجاج ، قيل : إنه غرق ببجبل ، وقيل : هلك هو وعبد الرحمن بن أبي ليلى في الجحاشم ، انضم بهما
غرسهما الماء فظفبا . (٢) يشتهق .

ثم قال : أئى بُنى ، لانهذهن في معروف ، فإن المهر ذو صُروف ، والأيام ذات نواب ، على الشاهد والنائب ، فكم من راغب أصبح مطلوباً ما لديه ، واعلم أن الزمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يرَ الموان ، وكن أئى بُنى كما قال أبو الأسود الدؤلى :

وَعَدُّ من الرحمن فَضْلاً وَنِعْمَةً عليك ، إذا ما جاء العُرفِ طالبٌ^(١)
وإن امرأ لا يُرَتِّبِ الخَيْرُ عنده يكن هَيْبَةً قَلْلاً على من يصاحبُ
فلا تمننْ ذا حاجةٍ جاء طالِباً فإنك لا تُدرى متى أنت راغِبُ
رايتُ القِواءَ هذا الزمانِ بأمله وبينهم فيه تكونُ النوابُ^(٢)

ثم قال : أئى بنى ، كن جَواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأمرار عن جميع الخلق ، فإن أحدَ جُود اللز الإضاق في وجو اليه ، وإن أحدَ بُخل الخُر الضن^(٣) يكتوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصارى :

أَجُودُ بِمَكْتُونِ القِتْلاد ، وإنى بسررك عن سألَى لَصَيْنِ^(٤)
إذا جاوزَ الإثنين سرٌّ فإنه يَذْثُ ، وتكتنر الحديث قَيْنِ^(٥)
وعندى له يوماً إذا ما ائتمنتى مكانُ يسوداه الفؤاد مسكين^(٦)

ثم قال : أئى بنى ، وإن غلبت يوماً على اللال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم محتال ، والفقير عيال^(٧) ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالا ، أقل

(١) العرف : المعروف . (٢) القِواء أصله القِواء قصره لضرورة الشعر ، القِواء به الزمان : أخرج .

(٣) الضن بالكسر والفتحة بالفتح : البخل . (٤) سأل يسأل من باب غاف لثة في سأل

للمهموز ، وليس سهلاً فوزن كما ظن بعضهم .

(٥) نث الحديث : أنشاء ، وقين : جدير ، وقطع حزة الإثنين لضرورة .

(٦) سوداه الفؤاد : وسوداه ، وسواده ، وسوده : حبه . (٧) القبال جمع قبل كعبد :

وهو ما يلزم الإلتحاق عليه ، ويكون اسماً لقاعدة (كما أصله هنا) .

ما نكون في الباطن مالا ، فإن الكريم من كرمته طبعته ، وظهرت عند الإفاد^(١)
نصفه ، وكن كما قال ابن خذاف العبدى^(٢) :

وَجَدْتُ أَبَى قَدِ أَوْزَتْهُ أَبُوهُ خِلَالًا قَدْ تَمَدُّ مِنْ الْمَالِ^(٣)
فَأَكْرَمُ مَا نَكُونُ عَلَى نَفْسِي إِذَا مَا قَلَّ فِي الْأَزْمَاتِ مَالِي
فَتَحَسَّنُ سِيرَتِي وَأَصُونُ عِرْضِي وَيَحْمِلُ عِنْدَ أَهْلِ الرَّأْيِ حَالِي
وَإِنْ نِلْتُ النَّفْسَ لَمْ أَغْلُ فِيهِ وَلَمْ أَخْصُنْ بِحَقِّ قِيِّ الْمَوَالِي^(٤)

ثم قال : أى بنى ، وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ،
فإنك إن أمضيتها حياء^(٥) ، رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل ،
هو الفطن المتعافل ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وَمَا مِنْ شَيْءٍ شَمَّ ابْنَ عَمِّي وَمَا أَنَا مُخْلِفٌ مِنْ يَرْجِيحِي
وَكَلِمَةٍ حَاسِدٍ فِي غَيْرِ جُرْمٍ سَمِعْتُ فَقُلْتُ مَرَمِي فَأَغْذِي^(٦)
فَصَابُهَا عَلَى وَلَمْ تَسْؤُنِي وَلَمْ يَعْزُقْ لَهَا يَوْمًا جَبِينِي
وَذَوِ الْقَوْنَيْنِ يَلْقَانِي طَلِيقًا وَلَيْسَ إِذَا تَمَيَّبَ بِأُتْلِي^(٧)
سَمِعْتُ بِمَيِّبِهِ فَصَفَعْتُ عَنْهُ مُحَافِظَةً عَلَى حَسْبِي وَدِينِي

ثم قال : أى بنى ، لا توافخ امرأ حتى تائسره ، وتتفقد موارده ومصادره ، فإذا استطعت
المسرة ، وورضت الخيرة^(٨) ، فواخه على إقالة التائره ، وللواصاة فى المسرة ، وكن كما
قال اللقيط الكندي :

أَبْلُ الرِّجَالِ إِذَا أَرَدَتْ إِخَاءَهُمْ وَتَوَسَّعَ فِصَالُهُمْ وَتَفَقَّدَ

(١) القدر . (٢) هو يزيد بن خذاف شاعر قديم . (٣) ينقل حركة المعزة من أووه إلى
الدال من قد . (٤) الموال جمع مول : وهو هنا القريب . (٥) قد حياه وبجياه : بإزائه ،
أى إن تركتها تجرى فى جراها . (٦) تفقلم : جازهم . (٧) التل : قصر ، أى لا يقصر فى نهش
مرض . (٨) الخيرة والخيرة بكسر الحاء فيها ، وهضمان : العلم بالشئ كالاحتبار .

فَإِذَا ظَنَرْتُ بِذِي أَلْبَابَةٍ وَالشَّقَى فِيهِ الْيَدَيْنِ (قَرَبَ عَيْنٍ) نَاشِدُ^(١)

وَإِذَا رَأَيْتَ (وَلَا مَحَالَةَ) زَلَّةً فَلَئِنْ أَحْبَبْتَ بِفَضْلِ حِلْمِكَ فَارْزُدْ

نَم قَالَ : أَيْ بَنِي ، إِذَا أَحْبَبْتَ فَلَا تُفْرِطْ ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ فَلَا تُشْطِطْ^(٢) ، فَإِنَّهُ قَدْ كَانَ

يُقَالُ : أَحْبَبْتُ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ يَبْغِضُكَ يَوْمًا مَّا ، وَأَبْغَضْتُ بَنِيضَكَ

هَوْنًا مَّا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَّا ، وَكَانَ قَالَ هُذَيْفَةُ بْنُ الْغَسَّارِ الْمَذْرُورِ :

وَكَانَ مَعْقِلًا لِحِلْمٍ وَاصْنَعْ عَنِ الْخَلْفَاءِ فَإِنَّكَ رَأَى مَا حَبِيبَتِ وَصَامِعُ^(٣)

وَأَحْبَبْتُ إِذَا أَحْبَبْتُ حَبًّا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ نَازِعُ^(٤)

وَأَبْغَضْتُ إِذَا أَبْغَضْتُ بَغْضًا مُقَارِبًا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعُ

وَعَلَيْكَ بِصُحْبَةِ الْأَحْيَارِ ، وَصِدْقِ الْحَدِيثِ ، وَإِيَّاكَ وَصُحْبَةَ الْأَسْرَارِ ، فَإِنَّهُ عَارٌ ، وَكَانَ كَمَا

قَالَ الشَّاعِرُ :

أَنْحَبِ الْأَخْيَارَ وَارْغَبْ فِيهِمْ رَبُّ مَنْ صَاحِبَتُهُ يَمْلِكُ الْجَارِبَ

وَدَعِ النَّاسَ فَلَا تَشْتُمُهُمْ وَإِذَا شَأْنُكَ فَاشْتُمِ ذَا حَسَبٍ

إِنَّ مَنْ شَأْنُهُ وَقَدْ بَكَى الْبُكَاءَ يَشْتَرِي الصُّفْرَ بِأَعْيَارِ الْقَهَبِ^(٥)

وَاصْدُقِ النَّاسَ إِذَا حَدَّثْتَهُمْ وَدَعِ النَّاسَ فَمَنْ شَاءَ كَذَبَ

(الأمال ٢ : ٢٠٤ ، والبيان والبيان ٢ : ٥٧ ، ١٢٨)

(١) لب من باب تمب ؛ وفي لغة كثر قرب مع الفتح في المضارع لبابة ؛ أي صار ذا لب يأنضم

وهو القتل . (٢) شط في حكمه . وأنشط : جاور . (٣) القتل : اللجأ ، والخلع : الفخو .

(٤) نزح عن الشيء : انتهى عنه . (٥) الصفر كقفل ، وكسر الصاد لغة : التحاسن .

٤٧٨ - وصية أسماء بن خارجة لابنته^(١)

زَوْجِ أَسْمَاءَ بِنَ خَارِجَةَ الْفَزَارِيَّةَ بِنْتَهُ هَذَا مِنْ الْحِجَابِ بْنِ يَوْسُفَ ، فَلَمَّا كَانَتْ لَيْلَةً أَرَادَ الْبِنَاءُ بِهَا ، قَالَ لَهَا أَسْمَاءُ : « يَا بَغِيَّةُ ، إِنْ الْأَمَهَاتُ يُؤَدِّبْنَ الْبَنَاتِ ، وَإِنْ أُمُّكَ هَلَكَتْ وَأَنْتِ صَغِيرَةٌ ، فَعَلَيْكَ بِأَطْيَبِ الطَّيِّبِ الْمَاءِ ، وَأَحْسَنِ الْحَسَنِ السَّكَلِ ، وَإِلَيْكَ وَكَثْرَةُ اللَّمَاتِ ، فَإِنَّهَا قَطِيعَةُ لَوْدٍ ، وَإِلَيْكَ وَالْفَيْرَةُ ، فَإِنَّهَا يَفْنَحُ الطَّلَاقُ ، وَكُونِي لِزَوْجِكَ أُمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَيْدًا ، وَاعْلِي أَنْي الْقَاتِلُ لَأُمُّكَ :

خَدَى الْقَفَوِيَّ تَشْتَدِّي مَوَدِّي وَلَا تَنْطَلِقِي فِي سَوَرِي حِينَ أَغْضَبُ^(٢)
وَلَا تَقْرِي نَفْرَةَ الْمَرْءِ مَرَّةً فَإِنَّكَ لَا تَدْرِينَ كَيْفَ الْمَغِيبُ
فَإِنِّي وَجَدْتُ الْحَبَّ فِي الصَّدْرِ وَالْأَذَى إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبَسِ الْحَبُّ يَذْهَبُ
(الْأَثَرُ ١٨ : ١٧٨ ، وَالْبَيَانُ وَالْبَيِّنُ ٢ : ٤٥)

٤٧٩ - رجل ينصح لهشام بن عبد الملك

وَخَرَجَ الْزُهْرِيُّ يَوْمًا مِنْ عِنْدَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، قَالَ : مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ ، وَلَا سَمِعْتُ كَارْبِعِ كَلَامٍ ، تَكَلَّمَ بِهِنِ رَجُلٌ عِنْدَ هِشَامٍ ، دَخَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ :
« يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، احْفَظْ عَنِّي أَرْبَعَ كَلَامَاتٍ ، فِيهِنَّ صَلَاحٌ لِمَلِكِكَ ، وَاسْتِقَامَةٌ لِرَعِيَّتِكَ » . قَالَ : وَمَاهُنَّ ؟ قَالَ : « لَا تَمِدَّ عِدَّةَ لَا تَنْفَقُ مِنْ نَفْسِكَ بِإِعْجَازِهَا ، وَلَا يَفْرُتْكَ لِلْمُرْتَقَى وَإِنْ كَانَ مَسْهَلًا إِذَا كَانَ لِلْمُنْخَدِرِ وَغَرًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأَعْمَالَ جَزَاءُ ، فَاتَّقِ الْعَوَاقِبَ ، وَأَنْ لِلْأُمُورِ بَقَاتٍ ، فَكُنْ عَلَى حَذَرٍ » .

قَالَ عِيْسَى بْنُ دَابٍ : فَخَدْتُ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْهَدْيَ ، وَفِي يَدِهِ لَقْمَةٌ قَدْ رَفَعَهَا إِلَى فَمِهِ ،

(١) أورد الجاسط هذه الوصية بصورة أوجز ، وذكر أنها وصية عبد الله بن جعفر لأخته

(٢) المودة : اللغة .

فأمسكها ، وقال : وَيَحْكُ أَهْدِ عَلَى ، فقلت : يا أمير المؤمنين أيسخ^(١) لقمك ، فقال :
حديثك أعجب إلي .
(زهر الآداب ٣ : ١٨٠)

٤٨٠ — وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب^(٢) رسالة إلى الكتاب بوصيه فيها ، قال :
« أما بعدُ حفظكم الله بأهل صناعة الكتابة ، وحاطكم ووثقكم وأرشدكم ، فإن
الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد
الملك الكرمين أصنافاً ، وإن كانوا في الحقيقة سواء ، وصرّفهم في صنوف الصناعات ،
وضروب المحاولات ، إلى أسباب متباينهم ، وأبواب أروافهم ، فجعلكم شتر الكتاب
في أشرف الجهات ، أهل الأدب والرواية والسمع والرواية ، بكم تنظم الخلافة محاسنها ،
وتستقيم أمورها ، وينصالحكم يصلح الله للعقل سلطاتهم ، وتعمد بلادهم ، لا يستغنى
إليك عنكم ، ولا يوجد كافر إلا منكم ، فوقمكم من الملك موقع أسمعهم التي
بها يسمعون ، وأبصارهم التي بها يُبصرون ، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي
بها يبيطشون ، فأمسككم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزاع عنكم ما أضفاه^(٣)
من النعمة عليكم .

وليس أحد أحوَجَ إلى اجتماع خلال الخير الحمودة ، وخصال الفضل المدكورة
المعدودة منكم أيها الكتاب ، إذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم ، فإن
الكتاب يحتاج من نفسه ، ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، أن
يكون حلياً في موضع العلم ، فحياً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الإقدام ، مُجانباً
في موضع الإحجام ، مؤثراً في مقام العفاف ، والعدل والإنصاف ، كفوّاً للأسرار ، وفياً عند

(١) اطلع . (٢) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء

الأمويين ، تله السليخ سنة ١٢٢ هـ . (٣) أسبته .

الشديد ، علما بما يأتي من النوازل ، يضع الأمور مواضعها ، والطولائق أما كتبها ، قد نظر في كل فن من فنون العلم فأحكته ، فإن لم يحسبها ، أخذ منه بمقدار يكتفي به ، يعرف بفرصة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيبذل لكل أمر عذته وعقاده ^(١) ، ويهيئ لكل وجوه هيئته وعادته ، فتدققوا ، يا مشرك الكتاب ، في صنوف الآداب ، وتفقروا في الدين ، وابدهوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والقرائن ، ثم العربية ، فإنها ثقاف ^(٢) السننكم ، ثم أجيّدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار ، واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها ، فإن ذلك ممين لكم على ما تسو إليه جمكم ، ولا تضيقوا النظر في الحساب ، فإنه قوام كتاب الخراج ، وارغبوا بأفهامكم عن المطامع سبيلها ^(٣) ، ودنيئها ، وتشاف ^(٤) الأمور ومخبرها ، فإنها مدلّة لقرّاب ، متسدة للكتاب ، ونزّهوا صناعكم عن الفئادات ، وأزبوا ^(٥) بأفهامكم عن السعاية والنسيمة ، وما فيه أهل الجهالات ، وإياكم والكيف والصلف والعطية ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعكم ، وتواصوا عليها باقوى هو أبقى بأهل الفضل والعدل والنبيل من سلفكم

وإن نبأ الزمان برجل منكم فاعطنوا عليه وواسوه ، حتى يرجع إليه حاله ، ويتوب ^(٦) إليه أمره ، وإن أقدم أحدكم الكبر من مكاتبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظّموه وشارروه ، واستظفروا ^(٧) بفضل تجربته ، وقدم معرفته ، وليكن الرجل منكم على من اصطفته واستظفروا به ليوم حاجته إليه ، أحفظ منه على ولده وأخيره ، فإن عرضت في الشغل تحدة ، فلا يضيئها إلا إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة ، فليحيلها

(١) المتاد : العدة . (٢) الثقاف في الأصل : ما سوى به الفراع . (٣) دنيئها .

(٤) الرضى من كل شيء . (٥) ربأ : علا وارتفع . (٦) يرجع . (٧) تقورا .

هو من دونه ، وليحذر السقطه والزلة ، وللآل هند تنير الحال ، فإن العيب إليكم ممشر
الكتاب ، أسرع منه إلى الفراء ، وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمت أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل ، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من
حقه ، فواجب عليه أن يعتد له من وقته ، وشكره ، واحتماله ، وصبره ، ونصيحته ،
وكمائن سره ، وتدبير أمره ، ما هو حزاه لحقه ، ويصدق ذلك بفضله عند الحاجة إليه ،
والاصطرار إلى ما لديه .

فاستشروا إذا كنتم وفقكم الله من أنفسكم - في حالة الرخاء والشدة والحرمان واللواصاة
والإحسان ، والسرور والضرر ، فتمت الشئمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة
الشريفة ، فإذا وثق الرجل منكم ، أو صير إليه من أمر خلق الله وعياله أمر ، فليراقب
الله عز وجل ، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، والمظلوم منصفاً ، فإن
الخلق عيال الله ، وأحبههم إليه أرقهم بعياله ، ثم ليسكن بالعدل حاكماً ، وللأشراف
مكرماً ، وللقوى موقراً ، وللبلاء عامراً ، والرمية مثاقفاً ، وعن إيذائهم منصفاً ،
وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ، وفي سيجلات خراجيه واحتقضاء حقوقه رقيقاً ،
وإذا تحبب أحدكم رجلاً فليعتبر خلافة ، فإذا عرف حسنها وقيدها ، أعانه على ما وافقه
من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من التبع ، بألف حيلة ، وأجل وسيلة ، وقد علمت
أن سائس الشهية إذا كان بصيراً ببياستها ، التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً^(١)
لم يوجبها إذا ركبها ، وإن كانت شبوباً^(٢) انتقاها من قبل يديها ، وإن خاف منها
شروداً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حرؤناً قمع برقي هواها في طريقها ، فإن
استمرت غفلة يسيء ، فيسلس له قيادها ، وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس
الناس وعاملهم ، وخدمهم وداخلهم .

والسكائب بفضل أدبه ، وشريف صنمته ، ولطيف حيلته ، ومعاملته لمن يحاوره

(١) ربح الفرس كنع : ربحه . (٢) شب الفرس كضرب ونصر : رفع يده .

من الناس وينظره ، ويفهم عنه أو يخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومُداراته وتقويم
وُده ، من سائس البهيمة التي لا تُخبر^(١) جواباً ، ولا تعرف صواباً ، ولا تفهم خطاباً ،
إلا بقدر ما يُصَيِّرُها إليه صاحبها الراكب عليها ؛ ألا فأُمنوا رحمكم الله في النظر ،
وأُعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر ، تأمنوا بإذن الله ممن يحببوه القنوة ،
والاستئصال والجفوة ، ويصير^(٢) منكم إلى اللواقفة ، وتصيروا منه إلى اللواخاة والشهقة ،
إن شاء الله تعالى .

ولا يجازن^(٣) الرجل منكم - في هيئة مجلّسه ، ومكبلّسه ، ومركبّه ، ومطعمه ،
ومشربه ، وبنائه^(٤) وخدمته وغير ذلك من فنون أمره - قدر حقّه ، فإنكم - مع ما فضلكم
الله به من شرف صنعكم - خدمه لا تُحْمَلُونَ في خدمتكم على التقصير ، وحفظة
لا تُحْتَمَلُ منكم أعمال التضييع والتبذير ، واستميناوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته
لكم ، وقصصته عليكم ، واحذروا متاليف الشرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما
يُغْتَبِيان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفصّحان أهلها ، ولا سيما الكتاب ، وأرباب
الآداب ، وللأمر أشباه ، وبعضها دليل على بعض ، فاستدلوا على مؤنّف^(٥) أعمالكم
بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أرغمتها حجة : وأصدقها حجة
وأحدها عاقبة .

واعلموا أن التدبير آفة متّيفة ، وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورويته ،
فليقصد الرجل منكم في مجلّسه قصد الكافي من منطقهِ ، وليوجز في ابتدائه وجوابه ،
وليأخذ بمجامع حججه ، فإن ذلك مصلحة لقلبه ، ومدّمة لتشاغل عن إكثاره ،

(١) لا ترد . (٢) تأمنوا : يجوزون في جواب الأمر ، أو بعبارة أخرى جواب لشرط محذوف مع
فعل الشرط أي إن تعلموا . . . تأمنوا ؛ ومن ثم يجوز في « ويصير » ثلاثة أوجه الجزم ، والتسببه
والرفع كما هو مشهور . فنقول بضمهم : « ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة النسخ » مردود .
(٣) يجازن : يماثل ، ويماثل ، ويبقى : زفها . (٤) مبتدأ .

وَلْيُضَرَّحْ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَٰةِ تَوَفِّيقِهِ ، وَإِمْدَادِهِ بِتَسْدِيدِهِ غَفَاقَةَ وَقُوعِهِ فِي الْغَلَطِ الْمُضِرِّ بِيَدِهِ
وَعَقْلِهِ وَأَدَبِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ غَلَبَ مِنْكُمْ ظَانٌّ ، أَوْ قَالَ قَاتِلٌ : إِنْ أَدَّى بَرَزَ مِنْ جَبِيلِ حَسَنَتِهِ ،
وَقُوَّةِ حَرَكَتِهِ ، إِنَّمَا هُوَ بِفَضْلِ حَيْكَلَتِهِ ، وَحَسَنِ تَدْبِيرِهِ ، قَدَّ تَرَضَّى بَطْنُهُ أَوْ مَقَاتِلُهُ إِلَى
أَنْ يَكِلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى نَفْسِهِ ، فَيَصِيرَ مِنْهَا إِلَى غَيْرِ كَافٍ ، وَذَلِكَ عَلَى مَنْ تَأَمَّلَهُ
غَيْرُ خَافٍ .

وَلَا يَقُلْ أَحَدٌ مِنْكُمْ إِنَّهُ أَبْصَرُ بِالْأُمُورِ ، وَأَحْمَلُ لِعِبَاءِ التَّدْبِيرِ مِنْ مُرَافِقِهِ فِي صَنَاعَتِهِ
وَمُصَاحِبِهِ فِي خِدْمَتِهِ ، فَإِنْ أَعْقَلَ الرَّحْلَيْنِ عِنْدَ ذَوِي الْأَبَابِ مِنْ رَحَى الْمُعْجَبِ وَرَاءَ ظَهْرِهِ
وَرَأَى أَنْ صَاحِبَهُ أَعْقَلَ مِنْهُ ، وَاحِدٌ فِي طَرِيقَتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ أَنْ
يَعْرِفَ فَضْلَ نَسَمِ اللَّهِ جَلَّ شَأْؤُهُ ، مِنْ غَيْرِ اغْتِرَارٍ بِرَأْيِهِ ، وَلَا تَزَكِيَةٍ لِنَفْسِهِ ، وَلَا تَكَاثُرٍ
عَلَى أَخِيهِ أَوْ نَظِيرِهِ ، وَصَاحِبِهِ وَعَشِيرِهِ ، وَحَدُّ اللَّهِ وَاجِبٌ عَلَى الْجَمِيعِ ، وَذَلِكَ بِالتَّوَاضُعِ
لِعَظَمَتِهِ وَالتَّذَلُّلِ لِعِزَّتِهِ ، وَالتَّحَدُّثِ بِنِعْمَتِهِ .

وَأَنَا أَقُولُ فِي كِتَابِي هَذَا مَا سَبَقَ بِهِ لِلتَّلُّ : « مَنْ يَتْلُزِمِ النَّصِيحَةَ ^(١) يَتْلَزِمُهُ الْعَمَلُ »
وَهُوَ جَوْهَرُ هَذَا الْكِتَابِ وَغُرَّةُ كَلَامِهِ ، بَعْدَ الَّذِي فِيهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ فَذَلِكَ
جَبَلَتُهُ آخِرُهُ ، وَتَمَّتْ بِهِ ، تَوَلَّاهُ اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ يَا مَعْشَرَ الطُّلَبَةِ وَالْكَتَبَةِ ، بِمَا يَقُولِي بِهِ مَنْ
سَبَقَ عَلَيْهِ بِإِسْحَادِهِ وَإِرْشَادِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِلَيْهِ وَيَدُهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(سبح الأسماء ١ : ٨٥)

(١) في نسخة : « الصفة » ، وذكر الملاحظ في البيان والبيان (٢ : ٤٦) أن هذا القول من كلام
الأخف السائر في أهدى الناس .

الصراع بين الأموية والعباسية

٤٨١ - خطبة قحطبة بن شبيب الطائي^(١)

لما دخل أبو مسلم الخراساني زعيم الدعوة العباسية مدينة مرو سنة ١٣٠ هـ هرب منها نصر بن سيار - أمير خراسان من قبل مروان بن محمد الأموي - ثم سار إلى نبتة ابن حنظلة : عامل جرجان^(٢) ، فوجه أبو مسلم قحطبة بن شبيب في جيش لقتاله^(٣) ، وقدم قحطبة ، فنزل بإزاء نبتة ، وأهل الشام في حدة لم ير الناس مثلاً ، فلدارم أهل خراسان هابوهم ، حتى نكلوا بذلك واظهروه ، وبلغ قحطبة ، فقام فيهم خطيباً ، فقال :

« يا أهل خراسان : هذه البلاد كانت لأبائكم الأولين ، وكانوا ينتصرون على عدوم لدنهم وحسن سيرتهم ، حتى بدّلوا وظلّوا ، فسخط الله عز وجل عليهم ، فانتزع سلطانتهم وسأط عليهم أذلّ أمة ، كانت في الأرض عديم ، فتلبوهم على بلادهم ، واستنكحوا نساءهم ، واسترقّوا أولادهم ، فكانوا بذلك يحكمون بالعدل ، ويفوقون بالعهد ، وينصرون

(١) هو أحد الثقباء الاني عشر الذين اختارهم محمد بن علي بن عبد الله بن عباس من السبعين الذين كانوا استجابوا له حين بعث رسوله إلى خراسان سنة ١٠٣ ، أو ١٠٤ ، وكان قدم على أبي مسلم خراسان منصراً من عند إبراهيم الإمام ، ومعه لواءه الذي عقده له إبراهيم .

(٢) من قبل يزيد بن عمر بن هيرة أمير المراق . (٣) وكان قحطبة قبل ذلك قد تمسكاً لقتال تميم بن نصر بن سيار ثم زحف إليه فانتصروا قتالا شديداً ، وقتل تميم بن نصر في المعركة ، وقتل معه مئة من خطبة واستبجح صكرهم ، ثم توجه إلى نيسابور ، وكان نصر بن سيار نزل بها ، فبلغه ذلك ، فارتحل هاربا ، وتفرق عنه أصحابه ، فسار إلى نبتة بن حنظلة بجرجان ، ونزل في آخر أمره ساوة بين همدان والري ، فأتى بها كذا .

الظالم ، ثم يَدُلُّوا وَغَيَّرُوا وَجَارُوا فِي الْحَكْمِ ، وَأَخَافُوا أَهْلَ الْبَيْتِ وَالتَّقْوَى مِنْ حِزْبِهِ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَسَلَطَكُمْ عَلَيْهِمْ ، لِيَنْتَقِمَ مِنْهُمْ بِكُمْ ، لِيَكُونُوا أَشَدَّ حَقُوبَةً ،
لَأَنْكُمْ طَلَبْتُمُوهُمْ بِالتَّأَرُّ ، وَقَدْ عَهْدُ إِلَى الْإِيمَانِ ^(١) أَنْكُمْ تَلْقَوْنَهُمْ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحِدَّةِ ،
فِيَنْصَرِّكُمْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِمْ ، فَتَهْرَبُونَهُمْ وَتَقْتُلُونَهُمْ .

وَقَدْ قَرَأْتُ عَلَى قُحَيْطَةَ كِتَابُ أَبِي مُسْلِمٍ : « مِنْ أَبِي مُسْلِمٍ إِلَى قُحَيْطَةَ ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ
الرَّحِيمِ ، أَمَّا بَعْدُ : فَتَاهِيضُ عَدُوِّكَ ، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ نَاصِرُكَ ، فَإِذَا ظَهَرَتْ عَلَيْهِمْ ،
فَانْجِنْ فِي الْقَتْلِ » فَاتَّقُوا فِي مَسْئَلِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ ١٣٠ هـ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ ، فَقَالَ قُحَيْطَةُ :

٤٨٢ - خطبة أخرى له

« يَا أَهْلَ خُرَاسَانَ : إِنَّ هَذَا يَوْمٌ قَدْ فَضَّلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى سَائِرِ الْأَيَّامِ ، وَالْعَمَلُ
فِيهِ مُضَاعَفٌ ، وَهَذَا شَهْرٌ عَظِيمٌ ، فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِكُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَقَدْ
أَخْبَرَنَا الْإِيمَانُ أَنْكُمْ تُنْصَرُونَ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ هَذَا الشَّهْرِ عَلَى عَدُوِّكُمْ ، فَالْقَوَّةُ بِجِدِّ
وِاحْتِسَابٍ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ثُمَّ نَاهَضَهُمْ فَاقْتُلُوا وَصَبَرُوا بِضَمِّهِمْ لِبَعْضٍ ، فَانْهَزَمَ
أَهْلُ الشَّامِ ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ ، وَقُتِلَ نَهَانَةُ ، وَبِثَ قُحَيْطَةُ بِرَأْسِهِ وَرَأْسُ ابْنِهِ
حَمِيَّةً إِلَى أَبِي مُسْلِمٍ .

(تاريخ الطبري ٩ : ١٠٦)

(١) هو إبراهيم الإمام بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وكان نصر بن سيار حين أظهر أبو مسلم
للعباسة في خراسان وقويت شوكة . كتب إلى مروان يطلبه بحال أبي مسلم ومن معه ، وأن القلي يدعو
للحداثة إليه هو إبراهيم الإمام . فأول مروان إلى حامل اللقاء (في أطراف الشام) أن يسير إلى الحبيصة
(كبيصة) حيث يقم إبراهيم فيشده وثاقا ، فعزل إلى مروان فحبسه في حران ثم قطعه في سبته ، ولما قبض
على إبراهيم الإمام خاف أخوه السفاح والمصور ورجلته من أقاربهم ، فهربوا إلى الكوفة ، فأغلط لهم
أبو سلمة الخلال دلرا بالكوفة ، وكرم أمرهم حتى وصل أبو مسلم بالجند من خراسان إلى الكوفة ، ودخل
على أبي العباس ، وسلم على السفاح بالخلافة ، وبيع بها سنة ١٣٢ هـ .

استدراك على الجزء الأول

سقطت هذه الخطبة سهواً في أثناء الطبع فأوردناها هنا

خطبة السيدة عائشة حين أنبتت بقتل عثمان

كانت السيدة عائشة خرجت إلى مكة للحج وعثمان محصور ، ثم خرجت من مكة ريد المدينة ، فلما كانت بسرّيف أنبتت بمقتل عثمان ، فانصرفت إلى مكة فقصدت الحِجْر فسقرت فيه ، واجتمع إليها الناس فقالت :

« أيها الناس : إن النوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلماً بالأسى ، وقَمَعُوا عليه استعمال من حَدَثَتْ سِنُّهُ ، وقد استعمل أمثالهم قبله ، ومواضع من الحِمَى حماها لهم ، فتابعهم ونزع لهم عنها ، فلما لم يجدوا حجة ولا عذراً بادروا بالدوان ، فسفكوا الدم الحرام ، واستحلوا اللبلة الحرام ، والشهر الحرام ، وأخذوا للال الحرام ، والله لإصبع من عثمان خير من طيات الأرض أمثالهم ، والله لو أن القدي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما نخلص القدي من خبثته ، أو الثوب من دَرَنِهِ ، إذ ماصوه^(١) كما يماص الثوب بالماء . » (التكملة لابن الأثير ٣ : ١٠٢)

(١) الموصى : غسل لين والدك باليد .

سقط من هامش ص (٣٠) مايلي :

جاء في مقال الحسن بن علي رضي الله عنهما المنيرة بن شعبة ص ٣٠ : « وإن حذ الله في الزنا ثابت عليك ، ولقد درأ عمر عنك حقا الله سائله عنه . » وغير ذلك أن المنيرة بن شعبة كان حاملاً على البصرة لسمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأنتمه أبو بكر - أعز زياد - هو ونفر معه بأنه زنى بأُم جيل بنت الأرقم ، وكتبوا بذلك إلى عمر ، فضل المنيرة وول مكانه أبا موسى الأخرى - وكان ذلك سنة ١٧ هـ - وأرحل المنيرة وأبو بكر ومن معه حتى قدموا على عمر ، فجمع بينهم وبين المنيرة ، وقد أقسم بين يدي عمر أنه مائل إلا إسرأته ، وكان الشهود عليه : أبا بكر ، وشيل بن ميه الجبل ، ولفح بن كلفة ، وزيادا ، فبدأ عمر بأبي بكر ، فشهد عليه أنه زنى بأُم جيل ، وشهد شيل ولفح بمقتل ذلك ، ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم ، إذ سألهم هل تعرف المرأة ؟ قال : لا ، ولكن أشبهها ، فحماه وأمر بالثلاثة فجلدوا الحد ، وقرأ : « فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالْبَشْءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ السَّكَذِبُونَ » فقال المنيرة : اشغفني من الإصم فقال : اسكت ، أسكت الله ناطقك ، أما والله لو تمت الشهادة لرحطك بالمحبارك .

اقرأ القصص في تاريخ الطبري ٤ : ٣٠٧ - .

انتهى الجزء الثانى

ويليه

الجزء الثالث وأوله : الباب الرابع فى خطب ووصايا

العصر العباسى الأول

فهرس

الجزء الثاني

من جمهرة خطب العرب

الباب الثالث

المخطب والوصايا في العصر الأموي

المخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم المخطبة
خطب بنى هاشم وشيعتهم وما يتصل بها	٧	
خطب الحسن بن علي رضي الله عنه		
خطبة الحسن بن علي بعد وفاة أبيه	٧	١
تعبئة الجيوش لقتال معاوية		
خطبة الحسن بن علي في الحث على الجهاد	٩	٢
مقال عدى بن حاتم	٩	٣
خطبة الحسن وقد جنح إلى مصالحة معاوية	١٠	٤
خطبته يبرر مصالحته لمعاوية	١١	٥
خطبته في الصلح بينه وبين معاوية	١٢	٦
خطبة له بعد الصلح	١٢	٧
خطبة لمعاوية في أهل الكوفة	١٤	٨
رد الحسن بن علي على معاوية حين قال منه ومن أبيه	١٤	٩
خطبة سليمان بن صرد في استنكار الصلح	١٥	١٠
خطبة الحسن يرد على مستنكري الصلح	١٦	١١

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الرواية
١٧	١٢	خطبة له في عهد خلافته
١٨	١٣	و أخرى له
١٩		خاصة ومهاجاة
		بين الحسن بن علي ، وبين عمرو بن العاص ، والوليد ابن عتبة ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة ، بمحاضرة معاوية
٢١	١٤	مقال عمرو بن العاص
٢١	١٥	و الوليد بن عتبة بن أبي معيط
٢٢	١٦	و عتبة بن أبي سفيان
٢٢	١٧	و المغيرة بن شعبة
٢٢	١٨	رد الحسن بن علي عليه السلام
٣١	١٩	رثاء محمد بن الحنفية لأخيه الحسن رضي الله عنهما
		مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه
		تأليه عن بيعة يزيد وخروجه إلى مكة
٣٥	٢٠	نصيحة محمد بن الحنفية للحسين رضي الله عنهما
		بسة مسلم بن عقيل إلى الكوفة
٣٧	٢١	خطبة عابس بن أبي شبيب الشاكري
٣٧	٢٢	و النعمان بن بشير
٣٨	٢٣	و عبيد الله بن زياد
٣٩	٢٤	و أخرى له
٣٩	٢٥	و كثير بن شهاب
٤٠	٢٦	و عبيد الله بن زياد

دوم الصفحة ودم الخطبة
الخطبة أو الوصية
خروج الحسين رضي الله عنه إلى الكوفة

نصيحة ابن عباس له	٢٧	٤٢
و أبي بكر بن عبد الرحمن المخزومي له	٢٨	٤٤
خطبة عبيد الله بن زياد	٢٩	٤٥
و للحسين رضي الله عنه	٣٠	٤٦
و أخرى له	٣١	٤٦
و و و	٣٢	٤٧
و زهير بن القين البجلي	٣٣	٤٧
و للحسين أيضاً	٣٤	٤٨
خطبته ليلة قتله	٣٥	٤٩
رد أهل بيته عليه	٣٦	٥٠
و أصحابه	٣٧	٥٠
خطبته غداة يوم قتله	٣٨	٥١
دعاؤه وقد صبحته الخيل	٣٩	٥١
خطبته وقد دنا منه القوم	٤٠	٥٢
خطبة أخرى	٤١	٥٢
و زهير بن القين	٤٢	٥٤
و الحر بن يزيد	٤٣	٥٦

طلب التوايين بدم الحسين رضي الله عنه

خطبة المسيب بن نجبة الفزاري	٤٤	٥٨
خطبة رفاعة بن شداد	٤٥	٥٩
و سليمان بن صرد	٤٦	٦٠
و خالد بن سعد بن نفيل	٤٧	٦١
و سعد بن حذيفة بن الجمان	٤٨	٦٢

الخطبة أو الرعية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة عبد الله بن الحنفظل الطائي	٤٩	٦٢
• عبيد الله بن عبد الله المرّى	٥٠	٦٣
• عبد الله بن يزيد الأنصاري	٥١	٦٥
• إبراهيم بن محمد بن طلحة	٥٢	٦٦
• رد المسيب بن نجبة .	٥٣	٦٦
• رد عبد الله بن وال التيمي	٥٤	٦٧
خطبة سليمان بن صرد	٥٥	٦٨
• صخير بن حذيفة بن هلال	٥٦	٦٨
• ما أشار به عبد الله بن سعد	٥٧	٦٨
• رأى ابن صرد	٥٨	٦٩
خطبة عبد الله بن يزيد	٥٩	٧٠
• سليمان بن صرد	٦٠	٧٠
• أخرى له	٦١	٧١
•	٦٢	٧٢
• عبد الملك بن مروان	٦٣	٧٢
طلب المختار بن أبي عبيد الثقفي بدم الحسين رضي الله عنه		٧٤
خطبته حين قدم الكوفة	٦٤	٧٤
• ما كان يردده على زائريه في مسجده	٦٥	٧٥
خطبة عبد الله بن مطيع العدوي حين قدم الكوفة	٦٦	٧٦
• رد السائب بن مالك	٦٧	٧٧
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٦٨	٧٨
• أخرى له	٦٩	٧٨
• محمد بن الحنفية	٧٠	٧٩
• المختار	٧١	٧٩

خطبة أو الرصة	دفع الصفحة	دفع الخطبة
خطبة عبد الرحمن بن شريح	٨٠	٧٢
خطبة المختار في دار إبراهيم بن الأشتر	٨١	٧٣
خطبة يزيد بن أنس الأسدي	٨٢	٧٤
خطبة عبد الله بن مطيع	٨٢	٧٥
خطبة عمر بن الأشتر أصحابه	٨٣	٧٦
خطبة ابن مطيع وهو محصور	٨٣	٧٧
خطبة المختار بعد هرب ابن مطيع	٨٤	٧٨
خطبة وقد استنصره ابن الحنفية	٨٥	٧٩
خطبة وقد شيع ابن الأشتر لقتال عبيد الله بن زياد	٨٧	٨٠
خطبته وقد صار إليه مصعب بن الزبير	٨٨	٨١
<hr/>		
خطبة محمد بن الحنفية برد على عبد الله بن الزبير وقد نقص الإمام -	٩٠	٨٢
خطبة عبد الله بن عباس ومعاوية	٩١	٨٣
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية	٩٤	٨٤
خطبة ابن عباس	٩٥	٨٥
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لابن عباس	٩٥	٨٦
خطبة ابن عباس	٩٦	٨٧
<hr/>		
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضا		
مقال معاوية لنبى هاشم	٩٧	٨٨
خطبة ابن عباس	٩٧	٨٩

عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً

مقال معاوية	٩٠	٩٨
جواب ابن عباس	٩١	٩٩
عبد الله بن عباس ومعاوية أيضاً	٩٢	٩٩
عبد الله بن عباس وعتبة بن أبي صفيان	٩٣	١٠٠

مخاصمة بين عبد الله بن عباس وبين معاوية وأصحابه

جواب ابن عباس	٩٤	١٠١
مقال عمرو بن العاص	٩٥	١٠٢
جواب ابن عباس	٩٦	١٠٢
مقال مروان بن الحكم	٩٧	١٠٣
جواب ابن عباس	٩٨	١٠٤
مقال زياد	٩٩	١٠٥
جواب ابن عباس	١٠٠	١٠٥
مقال عبد الرحمن بن أم الحكم	١٠١	١٠٦
جواب ابن عباس	١٠٢	١٠٦
مقال المغيرة بن شعبه	١٠٣	١٠٧
جواب ابن عباس	١٠٤	١٠٧
مقال يزيد بن معاوية	١٠٥	١٠٨
جواب ابن عباس	١٠٦	١٠٩
مقال معاوية	١٠٧	١٠٩
جواب ابن عباس	١٠٨	١٠٩

عبد الله بن عباس ، وعمرو بن العاص

مقال ابن عباس	١٠٩	١١١
---------------	-----	-----

الخطبة أو التسمية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
رد ابن العاص	١١٠	١١٢
عبد الله بن عباس وعمرو بن العاص أيضا	١١١	١١٣
عمرو بن العاص وابن عباس	١١٢	١١٤
مفاخرة عبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن عباس	١١٣	١١٤
ابن عباس وابن الزبير في مجلس مروان بن الحكم		
مقال ابن الزبير	١١٤	١١٩
و و عباس	١١٥	١٢٠
<hr/>		
خطبة عبد الله بن عباس رد على ابن الزبير وقد عاب بني هاشم	١١٦	١٢٠
و ابن الزبير ينتقص ابن عباس	١١٧	١٢٣
رد ابن عباس عليه	١١٨	١٢٥
عبد الله بن جعفر ، وعمرو بن العاص	١١٩	١٢٧
الحسن بن علي ، وعمرو بن العاص	١٢٠	١٢٩
الحسن بن علي ، ومروان بن الحكم	١٢١	١٣٠
عقيل بن أبي طالب ومعاوية	١٢٢	١٣١
خطبة السيدة أم كلثوم بنت علي في أهل الكوفة بعد مقتل الحسين عليهم السلام	١٢٣	١٣٤
خطبة السيدة زينب بنت علي عليهما السلام بين يدي يزيد	١٢٤	١٣٦
رثاء الحسين لأخيه الحسن عليهما السلام	١٢٥	١٣٩
عبد الله بن هاشم بن عتبة وعمرو بن العاص في مجلس معاوية	١٢٦	١٤٠
عبد الله بن هاشم في مجلس معاوية	١٢٧	١٤٥
قيس بن سعد بن حباة ومعاوية		
مقال معاوية	١٢٨	١٤٥
رد قيس بن سعد	١٢٩	١٤٦

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
معاوية وصعصعة بن صوحان وعبد الله بن الكواء	١٣٠	١٤٦
صعصعة بن صوحان ومعاوية	١٣١	١٤٨
و عبد الله بن جباس	١٣٢	١٥٠
و رجل من بني فزارة	١٣٣	١٥٤
رجل من آل صوحان يحمي عبد الملك بن مروان وهو يخطب	١٣٤	١٥٥
وصف عقيل بن أبي طالب لآل صوحان	١٣٥	١٥٦
وصية محمد الباقر لعمر بن عبد العزيز	١٣٦	١٥٧

خطب الزبيرين وما يتصل بها

خطب عبد الله بن الزبير

عبد الله بن الزبير وسلاوية

مقال ذكوان مولى الحسين	١٣٧	١٥٩
معاوية	١٣٨	١٥٩
ابن الزبير	١٣٩	١٦٠
معاوية	١٤٠	١٦٢

عبد الله بن الزبير ومعاوية أيضاً	١٤١	١٦٤
عبد الله بن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص	١٤٢	١٦٥
خطبة ابن الزبير لما قتل الحسين عليه السلام	١٤٣	١٦٨
مناظرة ابن الزبير للخوارج	١٤٤	١٦٩
أبو صخر الهذلي وعبد الله بن الزبير	١٤٥	١٧٣
خطبته وقد قدم عليه أهل العراق	١٤٦	١٧٤
لما بلغه قتل مصعب	١٤٧	١٧٥
خطبة أخرى له	١٤٨	١٧٧
خطبته وقد بلغه قتل عمرو الأشدق	١٤٩	١٧٧

الخطبة أو التوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
عبد الله بن الزبير وأمه أسماء بنت أبي بكر	١٥٠	١٧٨
خطبته يوم قتله	١٥١	١٧٩
خطبة أخرى	١٥٢	١٨٠
مصعب بن الزبير	١٥٣	١٨١

خطب الأمويين

خطباء البيت الأموي

خطب معاوية

خطبته بالمدينة عام الجماعة	١٥٤	١٨٢
خطبة أخرى له بالمدينة	١٥٥	١٨٣
له بالمدينة	١٥٦	١٨٣
خطبته حين ولى المغيرة بن شعبة الكوفة	١٥٧	١٨٤
خطبة له في يوم صائف	١٥٨	١٨٥
آخر خطبة له	١٥٩	١٨٥
خطبته وقد حضرته الوفاة	١٦٠	١٨٥
وصيته لابنه يزيد	١٦١	١٨٧

خطب يزيد بن معاوية

خطبته بعد موت معاوية	١٦٢	١٨٩
خطبة أخرى له	١٦٣	١٨٩
معاوية بن يزيد	١٦٤	١٩٠
وصية مروان بن الحكم لابنه عبد العزيز	١٦٥	١٩١

خطب عبد الملك بن مروان

خطبته بمكة	١٦٦	١٩٢
------------	-----	-----

الخطبة أو القصة	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة له موجزة	١٩٢	١٦٧
خطبته حين قتل عمرو الأشلق بن سعيد بن العاص	١٩٣	١٦٨
لما دخل الكوفة بعد قتل مصعب بن الزبير	١٩٤	١٦٩
عام حجه	١٩٥	١٧٠
وقد علم بخروج ابن الأشعث	١٩٦	١٧١
وصيته لبعض أمراءه	١٩٧	١٧٢
للشعبى	١٩٧	١٧٣
لأخيه عبد العزيز بن مروان	١٩٨	١٧٤
لولده عند وفاته	١٩٨	١٧٥

خطبة الوليد بن عبد الملك	١٩٩	١٧٦
لسليمان بن عبد الملك	٢٠٠	١٧٧

خطب عمر بن عبد العزيز

أولى خطبه	٢٠١	١٧٨
خطبة له بالمدينة	٢٠١	١٧٩
خطبة أخرى	٢٠٢	١٨٠
خطبة أخرى	٢٠٣	١٨١
»	٢٠٤	١٨٢
»	٢٠٤	١٨٣
»	٢٠٥	١٨٤
»	٢٠٥	١٨٥
له يوم عيد	٢٠٦	١٨٦
أخرى	٢٠٦	١٨٧
»	٢٠٧	١٨٨

رقم المسمة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٠٧	١٨٩	خطبة أخرى
٢٠٨	١٩٠	د د
٢٠٨	١٩١	د د
٢٠٨	١٩٢	د د
٢٠٩	١٩٣	د د
٢١٠	١٩٤	د د
٢١٠	١٩٥	د د
٢١١	١٩٦	د د
٢١١	١٩٧	آخر خطبة له
٢١٢	١٩٨	نص آخر
٢١٣	١٩٩	كلامه في مرضه الذي مات فيه
٢١٤	٢٠٠	مناظرة عمر بن عبد العزيز للخوارج
٢١٧	٢٠١	تأنيته ابنه عبد الملك
٢١٨	٢٠٢	خطبة يزيد بن الوليد حين قتل الوليد بن يزيد
٢١٩	٢٠٣	وصية يزيد بن معاوية لسلم بن زياد حين ولاء
<hr/>		
خطب حبة بن أبي سفيان		
٢٢٠	٢٠٤	خطبة له في تهديد أهل مصر
٢٢١	٢٠٥	د د في تقريرهم وتهديم
٢٢١	٢٠٦	د د فيهم وقد أرجفوا بموت معاوية
٢٢٢	٢٠٧	خطبته فيهم وقد منعوا الخراج
٢٢٢	٢٠٨	د فيهم إذ طعنوا على الولاة
٢٢٣	٢٠٩	د بمكة
٢٢٤	٢١٠	د في علة التي مات فيها
٢٢٤	٢١١	وصيته لمؤدب ولده

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
وصية سعيد بن العاص لبنه	٢١٥	٢١٢

خطب عمرو بن سعيد الأشدق

خطبة له بالمدينة	٢١٣	٢٢٨
و بمكة	٢١٤	٢٢٩
ملاحاة الوليد بن عقبة معه في مجلس معاوية	٢١٥	٢٣٠
خطبته حين غلب على دمشق	٢١٦	٢٣١

خالد بن يزيد وعبد الملك بن مروان	٢١٧	٢٣٢
خالد بن عبد الله بن أسيد وعبد الملك بن مروان	٢١٨	٢٣٣
نصيحة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٢١٩	٢٣٤
تأديب معاوية لجلسائه	٢٢٠	٢٣٤
كلام معاوية وقد سقطت ثنيتاه	٢٢١	٢٣٤
تفريع عبد الملك بن مروان لأحد عماله	٢٢٢	٢٣٥

طلب معاوية البيعة ليزيد

خطبة الضمحاك بن قيس القهري	٢٢٣	٢٣٧
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	و ٢٢٤	٢٣٨
ثور بن معن السلمى	و ٢٢٥	٢٣٩
عبد الله بن عصام الأشعري	و ٢٢٦	٢٤٠
عبد الله بن مسعدة الفزاري	و ٢٢٧	٢٤٠
عمرو بن سعيد الأشدق	و ٢٢٨	٢٤١
الأحنف بن قيس	و ٢٢٩	٢٤٢
الضمحاك بن قيس	و ٢٣٠	٢٤٢
الأحنف بن قيس	و ٢٣١	٢٤٣
عبد الرحمن بن عثمان الثقفي	و ٢٣٢	٢٤٤

رقم الصفحة ورقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٢٤٤	خطبة معاوية
٢٤٥	يزيد بن المقنع
٢٤٥	الأحنف
٢٤٦	معاوية
٢٤٧	عبد الله بن عباس
٢٤٧	عبد الله بن جعفر
٢٤٨	عبد الله بن الزبير
٢٤٨	عبد الله بن عمر
٢٤٩	معاوية
٢٥٠	مروان بن الحكم
٢٥١	معاوية
٢٥١	مروان وعبد الرحمن بن أبي بكر
٢٥٣	خطبة معاوية
٢٥٥	الحسين
٢٥٧	معاوية
٢٥٧	عبد الله بن عمر
٢٥٨	معاوية
٢٦٠	عبد الله بن الزبير
٢٦١	معاوية

تهنئة وتمزية

٢٦٣	خطبة عبد الله بن همام السلولى
٢٦٤	عطاء بن أبى صبيح الثقفى
٢٦٤	عبد الله بن مازن
٢٦٥	غيلان بن مسلمة الثقفى

خطب ولاية الأمويين وقوادهم

خطب زياد بن أبيه

خطبته بفارس وقد كتب إليه معاوية يتهدده	٢٥٦	٢٦٦
وقد بعث معاوية إليه المغيرة بن شعبة يستقلعه	٢٥٧	٢٦٧
وقد استلحقه معاوية	٢٥٨	٢٦٩
حين ولي البصرة (وهي البتراء)	٢٥٩	٢٧٠
بالكوفة وقد ضمت إليه	٢٦٠	٢٧٤
خطبة أخرى له بالكوفة	٢٦١	٢٧٥
خطبته بالكوفة يتهدد الشيعة	٢٦٢	٢٧٥
خطبة أخرى له	٢٦٣	٢٧٦
	٢٦٤	٢٧٦
وصية لزياد	٢٦٥	٢٧٧
ما كان يقوله لمن ولاء عملا	٢٦٦	٢٧٧

خطبة الضحاك بن قيس الفهري بالكوفة	٢٦٧	٢٧٨
خطبته عند موت معاوية	٢٦٨	٢٧٩
خطبة النعمان بن بشير بالكوفة	٢٦٩	٢٨٠
عبيد الله بن زياد بن أبيه بين يدي معاوية	٢٧٠	٢٨١
رد معاوية على ابن زياد	٢٧١	٢٨٣
مقال يزيد بن معاوية	٢٧٢	٢٨٤
وصية المهلب بن أبي صفرة لأبنائه	٢٧٣	٢٨٥

خطب الحجاج بن يوسف الثقفي

خطبة بمكة بعد مقتل ابن الزبير	٢٧٤	٢٨٩
خطبته بعد قتل ابن الزبير	٢٧٥	٢٨٧

خطبة أو القصة	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبته حين ولي العراق	٢٧٦	٢٨٨
وقد سمع تكييزاً في السوق	٢٧٧	٢٩١
وقد قلم البصرة	٢٧٨	٢٩٢
بعد وقعة دير الجماجم	٢٧٩	٢٩٣
خطبة أخرى له في أهل الكوفة وأهل الشام	٢٨٠	٢٩٥
له بالبصرة	٢٨١	٢٩٥
أخرى له بالبصرة	٢٨٢	٢٩٦
خطبته في أهل العراق يصارحهم بالكراهية	٢٨٣	٢٩٧
خطبة أخرى	٢٨٤	٢٩٧
خطبته لما مات عبد الملك بن مروان	٢٨٥	٢٩٨
حين أُرلد الحج	٢٨٦	٢٩٨
لما أصيب بولده وأخيه محمد في يوم واحد	٢٨٧	٢٩٩
وقد أُرِجف أهل العراق بموته	٢٨٨	٣٠٠
خطبة له في الوعظ	٢٨٩	٣٠١
أخرى	٢٩٠	٣٠٢
	٢٩١	٣٠٢
	٢٩٢	٣٠٣
	٢٩٣	٣٠٣

خطب فتيبة بن مسلم الباهل

خطبته يحث على الجهاد وقد تبيأ لغزو طخارستان	٢٩٤	٣٠٤
وقد تبيأ لغزو بلاد السغد	٢٩٥	٣٠٥
وقد سارت إليه جيوش الشاش وفرغانة	٢٩٦	٢٩٦
حين دعا إلى خلع سليمان بن عبد الملك	٢٩٧	٣٠٧
خطبة أخرى	٢٩٨	٣١٠

الخطبة أو الوصية	رقم الخطبة	رقم الصفحة
خطبة أخرى	٢٩٩	٣١٠
و و	٣٠٠	٣١١
كلمات حكيمة لقتيبة بن مسلم	٣٠١	٣١٢
<hr/>		
خطبة طارق بن زياد في فتح الأندلس	٣٠٢	٣١٤
نص آخر لخطبة طارق	٣٠٣	٣١٦
خطبة عثمان بن حيان المرقى	٣٠٤	٣١٦
وصية يزيد بن المهلب لابنه مخلد	٣٠٥	٣١٨
نصيحة عمرو بن هيرة لبعض بني	٣٠٦	٣٢٠
<hr/>		
خطب خالد بن عبد الله القسري		
خطبته بمكة بدعو إلى الطاعة ولزوم الجماعة	٣٠٧	٣٢١
خطبة أخرى يشيد فيها بفضل الوليد	٣٠٨	٣٢٢
خطبته بمكة في الحجاج	٣٠٩	٣٢٢
و في الحث على مكارم الأخلاق	٣١٠	٣٢٣
و يوم عيد	٣١١	٣٢٤
قوله وقد سقطت جرادة على ثوبه	٣١٢	٣٢٤
<hr/>		
خطبة يوسف بن عمر الثقفي	٣١٣	٣٢٤
خطبة له	٣١٤	٣٢٥
<hr/>		
خطب الفتن والأحداث		
فتنة المدينة ووقعة الحرة		
خطبة عبد الله بن حنظلة الأنصاري	٣١٥	٣٢٦
و مسلم بن عقبة يؤنب أهل الشام	٣١٦	٣٢٧
و مسلم يحرضهم	٣١٧	٣٢٧

رقم الصفحة ورقم الخطبة الخطبة أو القصيدة

خطبة ابن حنظلة يحرض أصحابه ٣٢٨ ٣١٨

اضطراب الأمر بعد موت يزيد

خطبة عبيد الله بن زياد بن أبيه ٣٢٩ ٣٢٩

و أخرى له ٣٣٠ ٣٢٠

و عمرو بن حرب ٣٣١ ٣٢١

و عمرو بن مسمع ٣٣١ ٣٢٢

خطبة الأخنف بن قيس ٣٣٢ ٣٢٣

و روح بن زنباع الجندى بالمدينة ٣٣٤ ٣٢٤

خطبته يؤيد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة ٣٣٦ ٣٢٥

خطبة الفضبان بن القيسري يحض على قتل الحجاج ٣٣٧ ٣٢٦

خطبة مطرف بن المغيرة بن شعبة ٣٣٨ ٣٢٧

و و و ٣٣٨ ٣٢٨

خطبة سعيد بن الحبالد ٣٣٩ ٣٢٩

فتح ابن الأشعث

خطبة ابن الأشعث بسجستان ٣٤٠ ٣٣٠

خطبته يعرض على الجند رأى الحجاج ٣٤٠ ٣٣١

خطبة عامر بن واثلة السكاني ٣٤١ ٣٣٢

و عبد المؤمن بن شوث بن ريمي ٣٤٢ ٣٣٣

و ابن الأشعث بالمربد ٣٤٢ ٣٣٤

خطبته حين أراد عبد الملك أن يترضى أهل العراق ٣٤٣ ٣٣٥

عامر الشعبي والحجاج ٣٤٤ ٣٣٦

أيوب بن القرية والحجاج ٣٤٤ ٣٣٧

كلمة لابن القرية ٣٤٨ ٣٣٨

الخطبة أو الوصية

رقم الصفحة رقم الخطبة

فتنة يزيد بن المهلب

خطبة أيوب بن سليمان بن عبد الملك	٣٣٩	٣٤٩
يزيد بين يدي الوليد	٣٤٠	٣٥٠
مخلد بن يزيد بن المهلب بين يدي عمر بن عبدالعزيز	٣٤١	٣٥٠
يزيد بن المهلب يحرض أصحابه على القتال	٣٤٢	٣٥٢
أخرى له	٣٤٣	٣٥٣
	٣٤٤	٣٥٤
الجنس البصري يشبط الناس عن يزيد بن المهلب	٣٤٥	٣٥٤
مروان بن المهلب	٣٤٦	٣٥٥

خطب الأحف بن قيس التميمي

الأحف ومعاوية	٣٤٧	٣٥٦
أيضاً	٣٤٨	٣٥٧
قوله في مدح الوالد	٣٤٩	٣٥٨
شفاعته لدى مصعب بن الزبير	٣٥٠	٣٥٨
نصيحته لقومه	٣٥١	٣٥٨
خطبته في قوم كانوا عنده	٣٥٢	٣٥٩
كلمات حكيمة للأحف	٣٥٣	٣٦٠
صفية بنت هشام المقرية تز بن الأحف	٣٥٤	٣٦١

خطب الوفود

وما أتى بحضرة الخلفاء والأمراء والرؤساء

الوافدون على معاوية

وفود الأحف بن قيس وأخوه بن قسبة على معاوية	٣٥٥	٣٦٣
وفد أهل العراق على معاوية ، وفيهم الأحف	٣٥٦	٣٦٤

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة زياد	٣٦٤	٣٥٧
» معاوية	٣٦٥	٣٥٨
» الأحنف بن قيس	٣٦٥	٣٥٩
وفد العراق على معاوية وفيهم دغفل النسابة	٣٦٥	٣٦٠
دغفل وجماعة من الأنصار	٣٦٩	٣٦١
وفد أهل العراق على معاوية وفيهم صعصعة بن صوحان	٣٦٩	٣٦٢
وفود العرب ومعاوية	٣٧١	٣٦٣
» عبد العزيز بن زرارة على معاوية	٣٧٢	٣٦٤
» زيد بن منية على معاوية	٣٧٣	٣٦٥
» ضرار بن حمزة الصدائى على معاوية	٣٧٤	٣٦٦

الوافدات على معاوية

وفود سودة بنت عمارة على معاوية	٣٧٥	٣٦٧
» أمستان بنت خيثمة على معاوية	٣٧٨	٣٦٨
» بكارة المالكية على معاوية	٣٨٠	٣٦٩
» أروى بنت الحارث بن عبد المطلب على معاوية	٣٨١	٣٧٠
» أم البراء بنت صفوان ومعاوية	٣٨٤	٣٧١
دارمية الحرجونية ومعاوية	٣٨٥	٣٧٢

شداد بن أوس ومعاوية	٣٨٧	٣٧٣
معاوية ورجل من أهل سبأ	٣٨٨	٣٧٤
حديث معاوية مع عبد الله بن عبد الحاجر بن عبد المذان	٣٨٩	٣٧٥
حديث الخليل بن أوفى التهمى مع معاوية	٣٩٠	٣٧٦
حديث عرابة بن أوس بن حارثة مع معاوية	٣٩١	٣٧٧
سعيد بن عثمان بن صفان ومعاوية	٣٩٢	٣٧٨

الخطبة أو الوصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مصقلة بن هيرة ومعاوية	٣٧٩	٣٩٣
روح بن زنباع ومعاوية	٣٨٠	٣٩٣
عفاصة أبي الأسود الدؤلي وامراته بين يدي زياد بن أبيه	٣٨١	٣٩٤
صورة أخرى	٣٨٢	٣٩٥
وفد أهل البصرة إلى عبد الله بن الزبير	٣٨٣	٣٩٨
كلام خطيب الأزدي بين يدي عبد الملك بن مروان	٣٨٤	٣٩٨
سؤال عبد الملك للحجاج وما أجابه به	٣٨٥	٣٩٩
وفود الحجاج بإبراهيم بن محمد بن طلحة على عبد الملك بن مروان	٣٨٦	٣٩٩
قدوم الحجاج مع أشرف المصريين على عبد الملك	٣٨٧	٤٠٢
وفود مالك بن بشير على الحجاج بقتل الأزارقة	٣٨٨	٤٠٣
و كعب الأشقرى على الحجاج	٣٨٩	٤٠٤
سليك بن سلكة والحجاج	٣٩٠	٤٠٥
جميع الخاربي والحجاج	٣٩١	٤٠٦
ليلي الأخيلية والحجاج	٣٩٢	٤٠٧
الفضبان بن القبحري والحجاج	٣٩٣	٤١٢
ابن القزعة يعدد مساوي المزاح	٣٩٤	٤١٤
يزيد بن مسلم وسليمان بن عبد الملك	٣٩٥	٤١٥
وفود العراق على سليمان بن عبد الملك	٣٩٦	٤١٦
كلام أبي حازم لسليمان بن عبد الملك	٣٩٧	٤١٧
أبو حازم وسليمان بن عبد الملك أيضا	٣٩٨	٤١٨
وفد أهل الحجاز عند عمر بن عبد العزيز	٣٩٩	٤١٩
خالد بن صفوان يفتي عمر بن عبد العزيز ويهتبه	٤٠٠	٤٢٠
خطبة عبد الله بن الأهم	٤٠١	٤٢٠
مقام محمد بن كعب القرظي بين يدي عمر بن عبد العزيز	٤٠٢	٤٢٢
وفد أهل الحجاز على هشام بن عبد الملك	٤٠٣	٤٢٢

الخطبة أو الرواية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
مقام خالد بن صفوان بين يدي هشام	٤٢٤	٤٠٤
خالد بن صفوان يصف جريرا والفرزدق والأخطل	٤٢٦	٤٠٥
خالد بن صفوان وبلال بن أبي بردة	٤٢٧	٤٠٦
خطبة السكيت بن زيد بين يدي هشام يستعطفه	٤٢٨	٤٠٧
محاضرة عدى بن أوطاة لا مرأته عند شريح القاضي	٤٣٢	٤٠٨
كلمة لعمر بن عتبة بن أبي سفيان	٤٣٣	٤٠٩
خطبة ديثار	٤٣٤	٤١٠
رجل يمدح خالد بن عبد الله القسري	٤٣٤	٤١١
خطب الخوارج وما يتصل بها	٤٣٥	
خطبة حيان بن ظبيان السلمي	٤٣٥	٤١٢
آثار الخوارج	٤٣٧	
مقال المستورد بن علفة	٤٣٧	٤١٣
حيان بن ظبيان	٤٣٧	٤١٤
معاذ بن جوين	٤٣٨	٤١٥
خطبة المغيرة بن شعبه	٤٣٨	٤١٦
صعصعة بن صوحان	٤٣٩	٤١٧
المستورد بن علفة	٤٤١	٤١٨
معقل بن قيس الرياحي	٤٤٢	٤١٩
كلمات حكيم للمستورد	٤٤٣	٤٢٠
آثار الخوارج ثانية	٤٤٤	
خطبة حيان بن ظبيان	٤٤٤	٤٢١
معاذ بن جوين	٤٤٤	٤٢٢

رقم الصفحة رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٤٤	٤٢٣ رد حيان بن ظبيان
٤٤٤	٤٢٤ مقال عتريس بن عرقوب
٤٤٥	٤٢٥ رد حيان
٤٤٥	٤٢٦ خطبة حيان
٤٤٦	٤٢٧ مسلم بن عبيس حين خرج لقتال الأزارقة
٧٤٨	خطب الهلب بن أبي صفرة
٤٤٨	٤٢٨ خطبته في حث جنده على قتال الأزارقة
٤٤٩	٤٢٩ خطبة أخرى له في جنده
٤٤٩	٤٣٠ نص آخر
٤٥٠	٤٣١ خطبته في جنده وقد استخلف عليهم ابنه المغيرة
٤٥١	٤٣٢ خطبة الزبير بن علي في الأزارقة
٤٥٢	٤٣٣ حناب بن ورقاء الرياحي وقد طال عليه الحصار
٤٥٣	٤٣٤ نصيحة عرهم المدوي لخالد بن عبد الله
٤٥٤	٤٣٥ خطبة قطري بن الفجاءة
٤٥٨	٤٣٦ عبد ربه الصغير
٤٥٩	٤٣٧ صالح بن مسرح
٤٦٠	٤٣٨ أخرى له
٤٦١	٤٣٩
٤٦٢	٤٤٠ زائدة بن قدامة
٤٦٢	٤٤١ الحجاج بن يوسف
٤٦٣	٤٤٢ أخرى للحجاج
٤٦٣	٤٤٣ شبيب بن يزيد الشيباني
٤٦٤	٤٤٤ حناب بن ورقاء
٤٦٤	٤٤٥ الحجاج

رقم الصفحة	رقم الخطبة	الخطبة أو الوصية
٤٦٥	٤٤٦	خطبة عبد الله بن يحيى الإباضى

خطب أبى حمزة الشارى

٤٦٧	٤٤٧	خطبته حين دخل المدينة
٤٦٨	٤٤٨	خطبة أخرى له
٤٦٩	٤٤٩	خطبته وقد بلغه أن أهل المدينة يعيرون أصحابه
٤٧٦	٤٥٠	خطبة أخرى
٤٧٨	٤٥١	خطبته فى سب أهل المدينة وتقريرهم
٤٨٠	٤٥٢	خطبة أخرى
٤٨١	٤٥٣	خطبته حين خرج من المدينة
٤٨١	٤٥٤	عمران بن خطان والحجاج

الخطب الوعظية والوصايا

٤٨٢	٤٥٥	خطبة سبحان بن زفر الوائلى
٤٨٣	٤٥٦	معاوية
٤٨٣	٤٥٧	عبد الملك بن مروان
٤٨٤	٤٥٨	لعمر بن عبد العزيز

كلام الحسن البصرى

٤٨٥	٤٥٩	خطبة له
٤٨٧	٤٦٠	أخرى
٤٨٨	٤٦١	"
٤٨٨	٤٦٢	"
٤٨٩	٤٦٣	"
٤٨٩	٤٦٤	"
٤٩٠	٤٦٥	"

خطبة أو وصية	رقم الصفحة	رقم الخطبة
خطبة أخرى	٤٦٦	٤٩٠
مقام الحسن البصري عند عمر بن هيرة	٤٦٧	٤٩١
مقام الحسن البصري عند النضر بن عمرو	٤٦٨	٤٩٢
مقام آخر له عند النضر	٤٦٩	٤٩٣
مقال الحسن حين رأى دار الحجاج التي بناها بواسط	٤٧٠	٤٩٤
صفة الإمام العادل	٤٧١	٤٩٥
موعظته لعمر بن عبد العزيز	٤٧٢	٤٩٧
موعظة لعمر بن عبد العزيز أيضاً	٤٧٣	٤٩٨
كلمات حكيمة للحسن البصري	٤٧٤	٤٩٩
خطبة واصل بن عطاء	٤٧٥	٥٠١
وصية عبد الملك بن مروان لبني أمية	٤٧٦	٥٠٣
و عبد الله بن شداد لابنه	٤٧٧	٥٠٣
و أسماء بن خارجة لابنه	٤٧٨	٥٠٧
رجل ينصح لمشام بن عبد الملك	٤٧٩	٥٠٧
وصية عبد الحميد بن يحيى الكاتب للكتاب	٤٨٠	٥٠٨

الصراع بين الأموية والعباسية

خطبة قحطبة بن شبيب الطائي	٤٨١	٥٠٩
و أخرى له	٤٨٢	٥١٠

استدراك على الجزء الأول

خطبة السيدة عائشة حين أنبتت بقتل عثمان	٤٨٣	٥١١
--	-----	-----

فهرس أعلام الخطباء

مرتب بترييب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل خطيب بأرقام الصفحات التي وردت فيها خطبه

أم البراء بنت صفوان : ٣٨٤	(١)
أم سنان بنت خيثمة : ٣٧٨	إبراهيم بن الأشتر : ٨٣
السيدة أم كلثوم بنت علي رضي الله عنها ١٣٤	إبراهيم بن محمد بن طلحة : ٦٦ - ٣٩٩
أيوب بن سليمان بن عبد الملك : ٣٤٩	أبو الأسود الدؤلي : ٣٩٤
أيوب بن القريّة : ٣٤٤ - ٣٤٨ - ٤٤٤	أبو بكر بن عبد الرحمن : ٤٤
(ب)	أبو بكر الهذلي : ٤٠٢
بكاره الهلالية : ٣٨٠	أبو حازم الأعرج : ٤١٧ - ٤١٨
بلال بن أبي بردة : ٤١٦	أبو حاضر الأسدي : ٣٩٨
(ث)	أبو حمزة الشاري : ٤٦٧ - ٤٦٨ -
ثور بن معن السلمي : ٢٣٩	٤٦٩ - ٤٧٨ - ٤٨٠ -
(ج)	٤٨١
جامع المحاربي : ٤٠٦	أبو صخر الهذلي : ١٧٣
(ح)	الأحنف بن قيس : ٢٤٢ - ٢٤٣ -
الحجاج بن يوسف الثقفي : ٢٨٧ - ٢٨٨ -	٢٤٥ - ٣٣٢ - ٣٥٦ - ٣٥٧ -
٢٩١ - ٢٩٢ - ٢٩٣ - ٢٩٥ -	٣٥٨ - ٣٥٩ - ٣٦٠ - ٣٦٣ -
٢٩٦ - ٢٩٧ - ٢٩٨ - ٢٩٩ -	٣٦٤
٣٠٠ - ٣٠١ - ٣٠٢ - ٣٠٣ -	أروى بنت الحارث بن عبد المطلب : ٣٨١
٤٠٢ - ٤٦٢ - ٤٦٣ - ٤٦٤ -	أسماء بن خارجة : ٥٠٧

(ر)	الحر بن يزيد : ٥٦
رفاعة بن شداد : ٥٩	الحسن البصري : ٤٨٥ — ٤٨٧ —
روح بن زنباع : ٣٣٤ — ٣٣٦ — ٣٩٣	٤٨٨ — ٤٨٩ — ٤٩٠ — ٤٩١ —
(ز)	٤٩٢ — ٤٩٣ — ٤٩٤ — ٤٩٥ — ٤٩٧
زائدة بن قدامة : ٤٦٢	— ٤٩٨ — ٤٩٩ —
الزبير بن علي : ٤٥١	الحسن بن علي رضي الله عنه : ٧ — ٦ —
زهير بن القين البجلي : ٤٧ — ٥٤ —	١٠ — ١١ — ١٢ — ١٤ — ١٦ — ١٧ —
زياد بن أبيه : ١٠٥ — ٢٦٦ — ٢٦٧ — ٢٦٩ —	١٨ — ٢٢ — ١٢٩ — ١٣٠ —
٢٧٠ — ٢٧٤ — ٢٧٥ — ٢٧٦ — ٣٦٤	الحسين بن علي رضي الله عنه : ٤٥ —
زيد بن منية : ٣٧٣	٤٦ — ٤٧ — ٤٨ — ٤٩ — ٥١ —
السيدة زينب بنت علي رضي الله عنها :	٥٢ — ١٣٩ — ٢٥٥ —
١٣٦	حيان بن ظبيان : ٤٣٥ — ٤٣٦ — ٤٤٣ —
(س)	٤٤٤ — ٤٤٥ —
السائب بن مالك : ٧٧	(خ)
صحابان بن زفر : ٤٨٢	خالد بن سعد بن نفيل : ٦١
سعد بن حذيفة بن اليمان : ٦٢	خالد بن صفوان : ٤٠١ — ٤٠٢ — ٤٢٠ —
سعيد بن العاص : ٢٢٥	— ٤٢٤ — ٤٢٦ — ٤٢٧ —
سعيد بن عثمان بن عفان : ٣٩٢	خالد بن عبد الله بن أسيد : ٢٣٣ —
سعيد بن الحبال : ٣٣٩	خالد بن عبد الله القسري : ٣٢١ —
سليك بن السلكة : ٤٠٥	٣٢٢ — ٣٢٣ — ٣٢٤ —
سليمان بن صرد : ٦٠ — ٦٨ — ٦٩	خالد بن يزيد : ٢٣٢ —
٧٠ — ٧١ — ٧٢ —	الخيار بن أوفى الهذلي : ٣٩٠ —
سليمان بن عبد الملك : ٢٠٠	(د)
سودة بنت عمارة : ٣٧٥	دارمية الحجونية : ٣٨٥ —
(ش)	دغفل بن حنظلة : ٣٦٥ — ٣٦٩ —
شبيب بن يزيد الشيباني : ٤٦٣	ديثار : ٤٣٤ —
	(ذ)
	ذكوان : ١٥٩ —

- شداد بن أوس الطائي : ٣٨٧
 شريح القاضي : ٤٣٣
 (ص)
 صالح بن مسرح : ٤٥٩ - ٤٦١
 صخير بن حذيفة بن هلال : ٦٨
 صمصعة بن صوحان : ١٤٦ - ١٤٨ -
 ١٥٠ - ١٥٤ - ٣٦٩ - ٤٣٩
 صفية بنت هشام المقرية : ٣٦١
 (ض)
 الضحاك بن قيس : ٢٣٧ - ٢٤٢ -
 ٢٧٨ - ٢٧٩
 ضرار بن حزة الصدائي : ٣٧٤
 (ط)
 طارق بن زياد : ٣١٤ - ٣١٦
 (ع)
 السيلة عائشة رضى الله عنها : ٥١١
 عابس بن أبي شبيب : ٣٧
 عامر الشعبي : ٣٤٤
 حامر بن وائلة الكنانى : ٣٤١
 عبد الحميد بن يحيى : ٥٠٨
 عبد ربه الصغير : ٤٥٨
 عبد الرحمن بن أبي بكر : ٢٥١
 عبد الرحمن بن أم الحكم : ١٠٦
 عبد الرحمن بن شريح : ٧٨
 عبد الرحمن بن عثمان : ٢٣٨ - ٢٤٤
 عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : ٣٤٠ -
 ٣٤٢ - ٣٤٣
 عبد العزيز بن زرار : ٣٧٢
 عبد العزيز بن مروان : ٤٢٠
 عبد الله بن الأهم : ٤٢٠
 عبد الله بن جعفر : ١٢٧ - ٢٤٧
 عبد الله بن الحنظل : ٦٢
 عبد الله بن حنظلة الأنصارى : ٣٢٦ -
 ٣٢٨
 عبد الله بن الزبير : ١١٤ - ١١٩ -
 ١٢٣ - ١٦٠ - ١٦٤ - ١٦٥ -
 ١٦٨ - ١٦٩ - ١٧٣ - ١٧٤ -
 ١٧٥ - ١٧٧ - ١٧٨ - ١٧٩ -
 ١٨٠ - ٢٤٨ - ٢٦٠
 عبد الله بن سعد : ٦٨
 عبد الله بن شداد : ٥٠٣
 عبد الله بن عباس : ٤٢ - ٩١ - ٩٥ -
 ٩٩ - ١٠٠ - ١٠١ - ١٠٢ -
 ١٠٤ - ١٠٥ - ١٠٦ - ١٠٧ -
 ١٠٩ - ١١١ - ١١٣ - ١١٤ -
 ١٢٠ - ١٢٥ - ٢٤٧
 عبد الله بن عبد الحजर : ٣٨٩
 عبد الله بن عصام : ٢٤٠
 عبد الله بن عمر : ٢٤٨ - ٢٥٧
 عبد الله بن الكواء : ١٤٦
 عبد الله بن مازن : ٢٦٤
 عبد الله بن مسعدة : ٢٤٠
 عبد الله بن مطيع : ٧٦ - ٨٧ - ٨٣

عبد الله بن هاشم : ١٤٥ - ١٤٠
عبد الله بن هاشم السلوي : ٢٦٣
عبد الله بن وال التيمي : ٦٧
عبد الله بن يحيى الأباضي : ٤٦٥
عبد الله بن يزيد الأنصاري : ٧٥ - ٧٠
عبد المؤمن بن شيب بن ريمي : ٣٤٧
عبد الملك بن مروان : ٧٣ - ١٩٢
١٩٣ - ١٩٤ - ١٩٥ - ١٩٦
١٩٧ - ١٩٨ - ٢٣٥ - ٤٨٣
٥٠٣

عبد الله بن زياد بن أبيه : ٣٨ - ٣٩
٤٠ - ٤٥ - ٢٨١ - ٣٢٩
عبد الله بن عبد الله المري : ٦٣
عبد الله بن ورقاء الرياحي : ٤٥٢ - ٤٦٤
عبد الله بن أبي سفيان : ٢٢ - ٢٢٠
٢٢١ - ٢٢٢ - ٢٢٣ - ٢٢٤

عبد الله بن هاشم : ٢١٧ - ٤٨٤
عبد الله بن هيرة : ٣٢٠
عبد الله بن حريش : ٣٣١
عبد الله بن سعيد الأشلق : ٢٢٨ - ٢٢٩
٢٣٠ - ٢٣١ - ٢٤١
عبد الله بن العاص : ٢١ - ١٠٢ - ١١٢
١١٣ - ١١٤ - ١٤٠ - ١٦٥
عبد الله بن حبة بن أبي سفيان : ٢٣٤ - ٤٣٣
عبد الله بن مسمع : ٣٣١
عبد الله بن حطان : ٤٨١
(غ)

عبد الله بن عبد الله بن عبد الله : ٤٤٤
عبد الله بن حيان المري : ٣١٦
عبد الله بن ربيعة : ٣٩٩
عبد الله بن حاتم : ٩
عبد الله بن أرطاة : ٤٣٧
عبد الله بن أوس بن حارثة : ٣٩١
عبد الله بن العنود : ٤٥٣
عبد الله بن أبي صفي : ٢٦٤
عبد الله بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦
عبد الله بن عبد الرحمن : ٤٥

عبد الله بن عبد الله بن عبد الله : ٤٤٤
عبد الله بن حيان المري : ٣١٦
عبد الله بن ربيعة : ٣٩٩
عبد الله بن حاتم : ٩
عبد الله بن أرطاة : ٤٣٧
عبد الله بن أوس بن حارثة : ٣٩١
عبد الله بن العنود : ٤٥٣
عبد الله بن أبي صفي : ٢٦٤
عبد الله بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦
عبد الله بن عبد الرحمن : ٤٥

عبد الله بن عبد الله بن عبد الله : ٤٤٤
عبد الله بن حيان المري : ٣١٦
عبد الله بن ربيعة : ٣٩٩
عبد الله بن حاتم : ٩
عبد الله بن أرطاة : ٤٣٧
عبد الله بن أوس بن حارثة : ٣٩١
عبد الله بن العنود : ٤٥٣
عبد الله بن أبي صفي : ٢٦٤
عبد الله بن أبي طالب : ١٣١ - ١٥٦
عبد الله بن عبد الرحمن : ٤٥

١٨٢ - ١٨٣ - ١٨٤ - ١٨٧ -

٢٣٤ - ٢٤٤ - ٢٤٦ - ٢٤٩ -

٢٥١ - ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٥٨ -

٢٦١ - ٢٨٢ - ٣٦٥ - ٣٧١ -

٣٨٨ - ٤٨٣ -

معاوية بن يزيد : ١٩٠

معقل بن قيس : ٤٤٢

المغيرة بن شعبة : ٢٢ - ١٠٧ - ٤٣٨

المهلب بن أبي صفرة : ٢٨٥ - ٤٤٨ -

٤٤٩ - ٤٥٠ -

(ن)

النعمان بن بشير : ٣٧ - ٢٨٠ -

(و)

واصل بن عطاء : ٥٠١

الوليد بن عبد الملك : ١٩٩

الوليد بن عقبة : ٢١ - ٢٣٠ -

(ي)

يزيد بن أبي مسلم : ٤١٥

يزيد بن أنس الأسدي : ٨٢

يزيد بن معاوية : ١٠٨ - ١٨٩ - ٢١٩ - ٢٨٤ -

يزيد بن المقنع : ٢٤٥

يزيد بن المهلب : ٣١٨ - ٣٥٠ - ٣٥٢ -

٥٣٣ - ٣٥٤ -

يزيد بن الوليد : ٢١٨

يوسف بن عمر الثقفي : ٣٢٤ - ٣٢٥ -

تم فهرس أعلام الخطباء

الكثير بن زيد الأسدي : ٤٢٨

(ل)

ليلى الأخيلية : ٤٠٧

(م)

مالك بن بشير : ٤٠٣

محمد بن أبي الجهم العدوي : ٤٢٣

محمد الباقر : ١٥٧

محمد بن الحنفية : ٣١ - ٣٥ - ٩٠ -

محمد بن عمر بن عطار : ٤٠١

محمد بن كعب القوطي : ٤٢٣

المختار بن أبي عبيد الثقفي : ٧٤ - ٧٥ -

٨١ - ٨٤ - ٨٥ - ٨٧ - ٨٨ -

مخلد بن يزيد بن المهلب : ٣٥٠

مروان بن الحسك : ١٠٣ - ١٩١ - ٢٥٠ -

مروان بن المهلب : ٣٥٥

المستورد بن علفة : ٤٣٧ - ٤٤٤ - ٤٤٢ -

مسلم بن عيسى : ٤٤٦

مسلم بن عقبة : ٣٢٧

المسيب بن نجدة : ٥٨ - ٦٦ -

مصعب بن الزبير : ١٨١

مصقلة بن هيرة : ٢٩٣

مطرف بن المغيرة : ٣٣٨

معاذ بن جوين : ٤٣٨ - ٤٤٣ -

معاوية بن أبي سفيان : ١٤ - ٩٤ - ٩٥ -

٩٧ - ٩٨ - ١٠٩ - ١٤٥ - ١٤٦ -

١٥٩ - ١٦٢ - ١٦٤ - ١٦٥ -

